

شرح البلغة



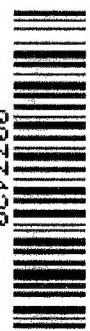
أبي إسحاق

المجلد التاسع

كتاب الجبل



Bibliotheca Alexandrina



0033420

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السابع عشر

دار الجيد

بيروت

حقوق الطبع محفوظة للنشر
طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ يَمُنُّ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَعْيَمِ ،
وَأُسَدُّ بِهِ لَهَاةَ انْتَفَرِ الْمَخُوفِ .
فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ ، وَاخْلُطِ الشَّدَّةَ بِضِغْتِ مِنَ اللَّيْلِ ؛ وَارْفُقْ مَا كَانَ
الرَّفْقُ أَرْفَقَ ، وَاعْتَرِمْ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ .

وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ؛
وَأَسِرْ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ ، وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْمُظْلَمُ
فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَتَيْسَ الضُّعْفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ . والسلام .

الشُّنْخُ :

قد أخذ الشاعر معنى قوله : « وآس بينهم في اللحظة والنظرة » ، فقال :

(١) : « وبه نستعين » ، د : « وبه نثق » .

اقسم اللحظَ بيننا إنَّ في اللَّحظِ لَعَنوانُ ما تُجَنُّ الصدورُ
إِنَّمَا الْبِرُّ رَوْضَةٌ فَإِذَا مَا كَانَ بِشَرِّهِ فَرَوْضَةٌ وَغَدِيرُ
قوله : « وآسَ بينهم في اللحظة » ، أى اجعلهم أسوة ، وروى : « وساوِ بينهم في
اللحظة » ؛ والمعنى واحد .

واستظهر به : اجمعه كالظَّهْرِ .
والنَّخْوَةُ : الكبرياء : والأَئِيمُ : المخطئُ الذنب .
وقوله : « وَأُسَدُّ بِهِ كَهْمَةَ النَّعْرِ » استعارة جسنة .
والضَّغْثُ في الأصل : قبضة حشيش مختلط يأبسها بشيء من الرُّطْبِ ، ومنه « أضغاث
الأحلام » للرؤيا المختلطة التي لا يصحُّ تأويلها ، فاستعار اللفظة ها هنا ؛ والمراد : امزج^(١)
الشدة بشيء من اللين^(٢) فاجعلهما كالضَّغْثِ ، وقال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِبَيْدِكَ ضِغْنًا ﴾^(٣) .
قوله : « فاعتزم بالشدة » أى إذا جدَّ بك الحِدَّةُ فدع اللين ، فإنَّ في حال الشدة
لا تُغْنِي إِلَّا الشدة ، قال الفند الزَّمَّانِي :

فَلَمَّا صرَّحَ الشرُّ فَأَمَسَى وهو عُريَانُ^(٤)
ولم يبقَ سِوَى العَدَاوَةِ نَرِ دِنَانَهُمْ كَمَا دَانُوا
قوله : « حتى لا يطمع العطاء في حَيْفِكَ » ، أى حتَّى لا يطمع العطاء في أن تمالئهم على
حَيْفِ الضعفاء ، وقد تقدَّم مثل هذا فيما سبق .

(١) د : « مزج » . (٢ - ٢) ساقط من د .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ - بشرح التبريزي ، من شعره قاله في حرب البسوس .

(٤٧)

الأضل :

ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه
ابن ملجم لعنه الله :

أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغْتَكُمَا ، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا
زُورَى عَنْكُمَا ، وَقُولَا بِالْحَقِّ ، وَاعْمَلَا لِلْآجِرِ ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا ، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا .
أَوْصِيَكُمْ وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ ،
وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّ كَمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : صَلَاحُ
ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ .

اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ ، وَلَا يَضِيعُوا بِمَحْضَرَتِكُمْ .
وَاللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ، مَا زَالُ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا
أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ .

وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، لَا يَسْتَفِيقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ .
وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ .
وَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرِكَ لَمْ تُنَظَرُوا .
وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالسِّنَةِ^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَادُلِ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّمَقَّطَ ، لَا تَتَرُكُوا

— ٦ —

الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ فَيُؤْتَى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ ، ثُمَّ تَدْعُونَ
فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ .

ثم قال :

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا ، تَقُولُونَ :
قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ! أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بَنِي إِبْرَاهِيمَ ، أَنْظَرُوا
إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ ؛ فَإِنِّي
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ .

الشرح :

روى : « واعملوا للآخرة » ، وروى : « فلا تغربوا أفواهكم » ؛ يقول : لا تطلبوا الدنيا
وإن طلبتكم ؛ فإذا كان مَنْ تطلبه الدنيا منهيًا عن طلبها فن لا تطلبه يكون منهيًا عن
طلبها بالطريق الأولى .

ثم قال : « ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما » ، أى قبض ؛ قال رسول الله
صلى الله عليه وآله : « زُوِيَ لِي الدُّنْيَا فَأَرَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَلَنَ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » .

وروى : « ولا تأسبا » ؛ وكلاهما بمعنى واحد ، أى لا تحزننا ، وهذا من قوله تعالى :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ ^(١) .

قوله : «صلاح ذات البين» أخذه هذه اللفظة عبد الملك بن مروان فقال لبيه وقدُجموا عنده يوم موته :

انفوا الضغائن بينكم وعليكم
عند الغيب وفي حضور المشهد
بصلاح ذات البين طول حياتكم
إن مدّ في عمرى وإن لم يمدد
إن القداح إذا اجتمعن فرامها
بالكسر ذو بطش شديد أيّد
عزّت فلم تُكسر ، وإن هي بددت
فالوهن والتكسير للمتبدد
وذات هاهنا زئدة مقحمة .

قوله : « فلا تُغَيِّروا أفواههم » ، أى لا تغيِّموهم بأن تطعموهم غيباً ، ومن روى : « فلا تغيِّروا أفواههم » فذاك لأن الجائع يتغيّر فيه ، قال عليه السلام : « تَلَوُّهُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ » .

قال : « ولا يضيعوا بحضرّكم » أى لا تضيّعوهم ، فالنهي في الظاهر للأيتام وفي المعنى للأوصياء والأولياء ، والظاهر أنه لا يعنى الأيتام الذين لهم مال تحت أيدى أوصيائهم؛ لأن أولئك الأوصياء محرّم عليهم أن يصبوا من أموال اليتامى إلا القدر النزر جدّاً عند الضرورة ثم يقضونه مع التمسك ، ومن هذه حاله لا يحسن أن يقال له : لا تغيِّروا أفواه أيتامكم ، وإنما الأظهر أنه يعنى الذين مات آباؤهم وهم فقراء يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾^(١) ، واليتيم في الناس من قبل الأب ، وفي البهائم من قبل الأم ؛ لأن الآباء من البهائم لا عناية لهم بالأولاد ، بل العناية للأم لأنها المرضعة المشفقة؛ وأمّا الناس فإن الأب هو الكافل القيم بنفقة الولد ؛ فإذا مات وصل الضرر إليه لفقد كافله والأم بم عزل عن ذلك . وجمع يتيم على أيتام ، كما قالوا : شريف وأشراف . وحكى أبو عبيد في التكملة : « كىء وأكء » ، ولا يسمى الصبي يتيماً إلا إذا

كان دون البلوغ وإذا بلغ زال اسمُ اليتيم^(١) عنه . واليتامى أحد الأصناف الذين عَيَّنوا في الخمس بنص الكتاب العزيز .

[فصل في الآثار الواردة في حقوق الجار]

ثم أوصى بالجيران ، واللفظ الذي ذكره عليه السلام قد ورد مرفوعاً في رواية عبد الله ابن عمر لما ذبح شاة ، فقال : أهديتُم لجارنا اليهودي ؟ فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » ، وعنه عليه السلام : « جارُ السوء في دار المقامة قاصمة الظهر » ، وعنه عليه السلام : « مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ جَارُ سُوءٍ مَعَكَ فِي دَارِ مُقَامَةٍ إِنْ رَأَى حَسَنَةً دَفَنَهَا ، وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً أَذَاعَهَا وَأَنْفَسَهَا » .
ومن أدعيتهم : اللهم إني أعوذ بك من مالٍ يكون عليّ فتنة ، ومن ولد يكون عليّ كلاً ، ومن حليّة تقرب الشيب ، ومن جار تراني عيناه وترعاني أذناه ، إن رأى خيراً دفنه ، وإن سمع شراً طار به .

ابن مسعود يرفعه : « والذي نفسى بيده لا يُسَلِّمُ العبد حتى يَسَلِّمَ قلبه ولسانه ، ويأمن جاره بوائقه » ، قالوا : ما بوائقه ؟ قال : غشّمه وظلمه » .
لقمان : يا بني ، حملتُ الحجارة والحديد فلم أر شيئاً أثقلَ من جارِ السوء .
وأشدوا :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي دَاراً بِرُخْصٍ كَرَاهَةً بَعْضِ جِيرَتِهَا تَبَاعُ
وقال الأصمعيّ : جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم خصلتين : اللؤم وقلة الغيرة ،

(١) : ١ « اليتيم » .

وجاور أهل البصرة الخَزَر، فأخذوا عنهم خصلتين : الزنا وقلة الوفاء ، وجاور أهل الكوفة السواد ، فأخذوا عنهم خصلتين : السخاء والغيرة .
 وكان يقال : مَنْ تطاول على جاريه ، حُرِمَ بركة داره .
 وكان يقال : مَنْ آذى جاره ورثه الله داره .

باع أبو الجهم العدويّ داره ، وكان في جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم ، فلما أحضرها المشتري قال له : هذا ثمن الدار ، فأعطني ثمن الجوار ، قال : أيّ جوار ؟ قال : جوار سعيد بن العاص ، قال : وهل أشتري أحدًا جوارًا فطًّا ! فقال : ردّ عليّ داري ، وخذ مالك ، لا أدع جوار رجل ؛ إن قعدتُ سأل عنيّ ، وإن رآني رَحِبَ بي ، وإن غبت عنه حفظني ، وإن شهدت عنده قرّبي ، وإن سألتني قضى حاجتي ، وإن لم أسأله بدأني ، وإن نابتنني نائبة فرّج عني . فبلغ ذلك سعيدا فبعث إليه مائة ألف درهم ، وقال : هذا ثمن دارك ، ودارك لك .

الحسن : ليس حسنُ الجوار كفُّ الأذى ، ولكنَّ حسنَ الجوار الصَّبْرُ على الأذى .

جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الخَلَّة^(١) ، وقالت : أنا جارتك ، قال : كم بيني وبينك ؟ قالت : سبع أدوُرٍ ، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم ، فأعطها إياها ، وقال : كدنا نَهْلِك .

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يُصلحه ، وحماه ممّن يقصده ، وإن هلك له شيء أخلفه عليه ، وإن مات وداه لأهله ، فجاوره أبو دُوَادَ الإياديّ ؛ فزاره على العادة ، فبالغ في إكرامه . وكانت العرب إذا سمعت جارا قالت : جار كجار أبي دُوَادَ ، قال قيس بن زهير :

(١) الخلة : الحاجة .

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى جارٍ كجارٍ أبي دؤاد^(١)
ثم تعلم منه أبو دؤاد، وكان يفعل لجاره فعل كعب به .
وقال مسكين الدارمي :

ماضراً جاراً لي أجاورُهُ ألا يكون ليابيه ستر^(٢)
أعمى إذا ما إذا جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الخدر^(٣)
ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي يُنزل القدر^(٤)

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرسا محضيرا^(٥)، فقال لأصحابه : لماذا يصلح هذا ؟
فذكروا سباق الخيل ، وصيد الحمر والنعام ، واتباع الفار من الحرب ، فقال : لم تصنعوا
شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء .

سئل سليمان علي بن خالد بن صفوان عن ابنه : محمد وسليمان - وكانا جاريه - فقال :
كيف إحداهما جوارها ؟ فتمثل بقول يزيد بن مفرغ الحميري :

سقى الله داراً لي وأرضا تركتها إلى جنب دارى معقل بن يسار
أبو مالك جار لها وابن كمرئيد فيالك جارى ذلق وصغار !

وفي الحديث الرفوع أيضاً من رواية جابر : الجيران ثلاثة : فجار له حق ، وجار
له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ؛ فصاحب الحق الواحد جار مشرك لا رحيم له ، فحقه

(١) المضاف والنسوب ١ : ١٠٠ .

(٢) الأولان في أمالي المرتضى ١ : ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) موضعه في أمالي المرتضى :

وَيَصْمُ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا مَعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقَرُّ

(٤) فرس محضير ، أى شديد الحضر ؛ وهو العدو .

حقّ الجوار ، وصاحب الحقّين جار مسلم لا رَحِمَ له ، وصاحب الثلاثة جار مسلم ذو رَحِمٍ ، وأدنى حق الجوار ألا تؤذِي جارك بقتار قَدْرِكَ ، إلّا أن تقتدح له منها .
قلت : تقتدح : تغترف ، والمقدحة المغرفة .

وكان يقال : الجيران خمسة : الجار الضارّ السيّء الجوار ، والجار الدّمس الحسن الجوار ، والجار اليربوعيّ النافق ، والجار البراقشيّ المتلونّ في أفعاله ، والجار الحسدليّ^(١) الذي عينه تراك وقلبه يركاك .

وروى أبو هريرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « اللهمّ إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة ، فإنّ دار البادية تتحوّل ».

قوله عليه السلام : « الله الله في القرآن » أمرها بالمسارعة إلى العمل به ، ونهاها أن يسبقهما غيرهما إلى ذلك ، ثم أمرها بالصلاة والحجّ .
وشدّد الوصاة في الحجّ ، فقال : « فإنه إن ترك لم تناظروا » أى يتمجّج الانتقام منكم .

فأما المُثْلَةُ فمنهى عنها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمثّل بهبّار بن الأسود لأنه رَوّع زينب حتّى أجهضت ، ثم نهى عن ذلك ، وقال : لا مُثْلَةُ ، المُثْلَةُ حرام .

(١) الحسدليّ : منسوب إلى الحسدل ؛ وهو القراد .

(٤٨)

الأُضْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَإِنَّ الْبَنَى وَالزُّورَ يُوتَغَانِ الْمَرْءُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَيُبْدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعْيبُهُ ،
وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا يَمَيِّرُ الْحَقَّ ، فَتَأَلَّوْا
عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ ، فَاحْذَرُوا يَوْمًا يُغْتَبِطُ فِيهِ مِنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ ، وَيَنْدَمُ مَنْ
أَمَكَنَّ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَازِبْهُ ، وَقَدْ دَعَوْنَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ
مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَسْنَا بِإِيَّاكَ أَجَبْنَا ، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ ، وَالسَّلَامُ .

البَرْخُ :

يُوتَغَانِ : يَهْلِكُ ، والوتغ بالتحريك : الهلاك ؛ وقد وتغ يوتغ وتغا ، أى أُرثِمَ
وهلك ، وأوتغه الله : أهلكه الله ، وأوتغ فلان دينه بالإثم .

قوله : « فتألّوا على الله » ، أى حلفوا ، من الألية وهى اليمين ، وفى الحديث : « من تألّى
على الله أكذبه الله » ، ومعناه : مَنْ أَقْسَمَ تَجَبُّراً وَاقْتِدَاراً : لِأَفْعَلَنَّ كَذَا ، أَكْذَبَهُ اللَّهُ
ولم يبلغ أمله .

وقد روى : « تأولوا على الله » أى حَرَقُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَتَعَلَّقُوا بِشِبْهِهِ
فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ انْتِصَاراً لِمَذَاهِبِهِمْ وَأَرَائِهِمْ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَظْهَرُوا لِلْعُقَلَاءِ فَسَادَ تَأْوِيلَاتِهِمْ .
وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ .

ويغتنب فيه : يفرح ويُسرّ ، والتبطة : السرور ، روى « يغبط فيه » أى يتمنى
مثلُ حاله هذه .

قوله : « ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه » الياء التى هى حرف
المضارعة عائدة على المكلف الذى أمكن الشيطان من قياده . يقول : إذا لم يجاذب
الشيطان من قياده فإنه يندم ؛ فأما مَنْ جاذبه قياده فقد قام بما عليه .

ومثله قوله : « ولسنا إياك أجبننا » قوله : « والله ما حكمت مخلوقا وإنما حكمت
القرآن » ومعنى « مخلوقاً » : بشراً لا محدثاً .

(٤٩)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصَبِّصْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا فَتَحَتْ
لَهُ حِرْصًا عَلَيْهَا ، وَلَهَجًا بِهَا ، وَلَنْ يَسْتَعْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا ،
وَمِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ ، وَنَقْضُ مَا أُبْرِمَ ، وَلَوْ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى ، حَفِظْتَ
مَا بَقِيَ ، وَالسَّلَامُ .

الشرح :

هذا كما قيل في الثعل : صاحب الدنيا كشارب ماء البحر ؛ كلما ازداد شرباً
ازداد عطشاً ، والأصل في هذا قول الله تعالى : « لو كان لابن آدم واديان من ذهبٍ
لا بَغِيَ لهما ثالِثاً ، ولا يعلأ عين ابن آدم إلا التراب » ، وهذا من القرآن الذي رُفِعَ
ونسختَ تلاوته .

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال :

إن أمير المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص ، وزاد فيه زيادةً لم يذكرها
الرضي : أما بعد ؛ فإن الدنيا مشغلة عن الآخرة ، وصاحبها منهوم^(١) عليها ، لم يصب
شيئاً منها قط إلا فتحت عليه حرصاً ، وأدخلت عليه مؤنة^(٢) تزيد رغبةً فيها ؛

(١) صفي : « مقهور فيها » . (٢) صفي : « مؤنة » .

ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يدرك ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ؛ والسعيد من وعظ بغيره ، فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ^(١) ولا تشرك معاوية في باطله ^(٢) ؛ فإن معاوية غصص الناس ، وسفه الحق ^(٣) . والسلام ^(٤) .

قال نصر : وهذا أول كتاب كتبه علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، فكتب إليه عمرو جوابه :

أما بعد ، فإن الذي فيه صلاحنا ، وألفة ذات بيننا ، أن تُنِيبَ إلى الحق ^(٥) ، وأن تجيب إلى ^(٥) ما ندعوكم إليه من الشورى ^(٥) ؛ فصبر الرجل منا نفسه على الحق ، وعذره الناس بالمحاجة ، والسلام ^(٦) .

قال نصر : فكتب علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً . وهو الذي ضرب مثله فيه بالكلب يتبع الرجل ، وهو مذكور في ” نهج البلاغة “ ، واللهج : الحرص .

ومعنى قوله عليه السلام : « لو اعتبرت بما مضى حفظت ما بقي » ، أى لو اعتبرت بما مضى من عمرك لحفظت باقيه أن تنفقه في الضلال وطلب الدنيا وتضييعه .

(١-١) صفين : « ولا تجارين معاوية في باطله » .

(٢) غصص الناس : احتقرهم ؛ وسفه الحق ، أى جهله .

(٣) صفين ١٢٤ . (٤) تنيب إلى الحق : ترجع .

(٥ - ٥) صفين : « أن نجيب إلى ما تدعون إليه من شورى » .

(٦) صفين ١٢٣ .

(٥٠)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيوش :

من عبد الله على بن أبي طالب أمير المؤمنين رفعة إلى أصحاب المساح :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُعَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلُ نَالِهِ ، وَلَا طَوْلُ
خُصِّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوءًا مِنْ عِبَادِهِ ، وَعَطْفًا
عَلَى إِخْوَانِهِ .

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أُحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ ، وَلَا أُطَوَّى
دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ ، وَلَا أُؤَخَّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلَا أُفَنِّ بِهِ دُونَ
مَقْطَعِهِ ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ
النِّعْمَةُ وَلِيَ عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ ، وَأَلَّا تَنْكِصُوا عَنْ دَعْوَةٍ ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ ،
وَأَنْ تَخُوضُوا الْفَرَاتَ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا إِلَى ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ
أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَى رِجْلِ مَنْ أَعْوَجَّ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْطِمَ لَهُ الْمُقُوبَةُ ، وَلَا يَحْدُ عِنْدِي
فِيهَا رُخْصَةٌ .

فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ ،
وَالسَّلَامُ .

الشَّيْخُ :

أصحابُ المسالِخِ : جماعات تكون بالثغر يحمون البَيْضَةَ ، والمسلحة هي الثغر ، كالرغبة ، وفي الحديث : « كان أدنى مسالِخِ فارس إلى العرب العذِيب »^(١) ؛ قال : يجب على الوالى ألا يتناول على الرعية بولايته ، وما خُصَّ به عليهم من الطَّوْل وهو الفضل ؛ وأن تكون تلك الزيادة التى أعطيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعية وحنوّه عليهم .

ثم قال : « لكم عندى ألاّ أحتجز دونكم بسرّ » ، أى لا أستتر . قال : « إلّا فى حرب » ، وذلك لأن الحرب يحمّد فيها طيّ الأسرار ، والحرب خُدعة .

ثم قال : « ولا أطوى دونكم أمراً إلّا فى حُكْم » ، أى أظهركم على كلّ ما نفسى مما يحسن أن أظهركم عليه ؛ فأما أحكام الشريعة والقضاء على أحد الخصمين فإنّ لا أعلمكم به قبل وقوعه ؛ كيلا تفسد القضية بأن يمتال ذلك الشخص لصرف الحكم عنه

ثم ذكر أنّه لا يؤخّر لهم حقاً عن محلّه - يعنى العطاء - وأنّه لا يقف دون مقطعه ، والحقى ها هنا غير العطاء ، بل الحكم ، قال زهير :

فإنّ الحقّ مقطّعه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفَارٌ أو جِلاءٌ^(٢)

أى متى تعيّن الحكم حكمتُ به وقطعت ولا أقف ، ولا أتجسّس .

ولما استوفى ما شرط لهم قال : فإذا أنا وفّيت بما شرطت على نفسى وجبتُ لله عليكم النّعمة ولى عليكم^(٣) الطاعة .

ثم أخذ فى الاشتراط عليهم كما شرط لهم ، فقال : ولى عليكم ألاّ تنكصوا عن

(١) العذيب ؛ بالضمير : يطلق على مواضع ؛ منها ماء بين القادسية والمغيثة ؛ بينه وبين القادسية أربعة أميال . (٢) ديوانه ٧٥ . النفار : المنافرة إلى الحاكم ؛ أو رجل يحكم بينهم . الجلاء : أن ينكشف الأمر وينجلي . (٣) ١ : « نعوذكم » .

دعوة ، أى لا تتقاعسوا عن الجهاد إذا دعوتكم إليه ، ولا تفرّطوا فى صلاح ؛ أى إذا أمكنّكم فرصة ، أو رأيتم مصلحة فى حرب المدوّ أو حماية الثغر ، فلا تفرّطوا فيها فتفتوت . وأن تخوضوا الغمرات إلى الحقّ ؛ أى تكابدوا المشاقّ العظيمة ؛ ولا يهولنكم خوضها إلى الحقّ .

ثم توعدهم إن لم يفعلوا ذلك ، ثم قال : نخذوا هذا من أمرائكم ؛ ليس يعنى به أن على هؤلاء أصحاب المسالّح أمراء من قبّله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه ، بل من أمرائكم ؛ يعنى منّى وممن يقوم فى الخلافة مقامى بعدى ، لأنه لو كان الغرض هو الأوّل لما كان محلهم عنده أن يقول : « ألا أحتجز دونكم بسرّ ولا أطوى دونكم أمرا » . لأن محلّ من كان بتلك الصفة دون هذا .

(٥١)

الأفضل :

ومن كتب به عليه السلام إلى عماله على الخراج :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج :

أَمَّا بَعْدُ ! فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ ، لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْزِرُهَا .
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ يَسِيرٌ ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ
عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْمُدَوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ
طَلَبِهِ ، فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُزَانُ الرَّعِيَّةِ ،
وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ ، وَسَفَرَاءُ الْأُمَمَةِ ، وَلَا تُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْبِسُوهُ
عَنْ طَلَبَتِهِ ، وَلَا تَبْغِضُوا النَّاسَ فِي الْخَرَاجِ كُسُوفَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَمْتَلُونَ
عَلَيْهَا ، وَلَا عَبْدًا ، وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهِمٍ ، وَلَا تَمْسَنَّ مَالَ أَحَدٍ
مِنَ النَّاسِ مُضَلٍّ وَلَا مُعَاهِدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ
الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَيَكُونَا
شَوْكَةً عَلَيْهِ .

وَلَا تَدْخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً ،

وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً .

وَأَبْلَوْهُ فِي سَبِيلِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا

وَعِنْدَكُمْ أَنْ تَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا ، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَّغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

الشيخ :

يقول : لو قدرنا أن القبايح العقلية كالظلم والبنى لاعتقَاب على فعلها بل في تركها ثواب
فقط ؛ لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرط في ذلك الترك ؛ لأنه يكون قد حرم نفسه نعماً هو
قادر على إيصاله إليها .

قوله : « وَلَا تُحْشَمُوا أَحَدًا » ؛ أى لا تفضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبها ،
أحشمتُ زيداً ، وجاء « حَشَمْتُهُ » ، وهو أن يجلس إليك فتغضبه وتؤذيه . وقال
ابن الأعرابي : حشمتُهُ : أخجلته ، وأحشمتُهُ : أغضبته ، والاسم الحِشْمَةُ ، وهى
الاستحياء والغضب .

ثم نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ما هو من ضرورياتهم كثياب أبدانهم وكداًبة
يعتمِلون عليها ، نحو بقر الفلاحة ، وكُمُبدٍ لا بدّ للإنسان منه يخدمه ، ويسعى
بين يديه .

ثم نهاهم عن ضرب الأَبْشار لاستيفاء الخراج
وكتب عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في عذاب العمال ، فكتب إليه :
كأنّ لك جنة من عذاب الله ، وكأنّ رضى ينجيك من سخط الله ! من قامت عليه بينة ،
أو أقرّ بما لم يكن مضطهداً مضطراً إلا الإقرار به ، فخذه بأدائه ؛ فإن كان قادراً عليه فاستأد ،
وإن أبى فاحبس ، وإن لم يقدر نخل سبيكه ؛ بعد أن تحلّه بالله أنه لا يقدر على شيء ، فلأن
يلقوا الله بجناياتهم أحبّ إلىّ من أن ألقاه بدمائهم .

ثم نهاهم أن يعرضوا لمال أحد من المسلمين أو من المعاهدين ؛ المعاهد هاهنا : هو الذميّ
أو من يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد ، إما لأداء رسالة ، أو لتجارة : ونحو
ذلك ، ثم يعود إلى بلاده .

ثم نهاهم عن الظلم وأخذ أموال الناس على طريق المصادرة والتأويل الباطل ؛ قال :
إلا أن تخافوا غائلة المعاهدين ، بأن تجدوا عندهم خيولاً أو سلاحاً ، وتظنّوا منهم وثبة على بلد
من بلاد المسلمين ، فإنه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذ .

قوله : « وأبوا في سبيل الله » ، أى اصطنعوا من المعروف في سبيل الله ما استوجب
عليكم ، يقال : هو يبلوه معروفًا ، أى يصنعه إليه ، قال زهير :

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَ بِكُمْ وَأَبْلَاهَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو^(١)

قوله عليه السلام : « قد اصطنعنا عندنا وعندكم أن نشكره » ، أى لأن نشكره ، بلام
التعليل وحذفها ، أى أحسن إلينا لنشكره ، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ مَا
قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾^(٢) .

(٥٣)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة :

أَمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيَّ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرِيضٍ الْعَنَزِ ، وَصَلُّوا بِهِمْ
الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيضاء حَيَّةً فِي غُضُوْرٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرَسَخَانِ ، وَصَلُّوا
بِهِمْ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفِطِرُ الصَّائِمُ ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مَنَى ، وَصَلُّوا بِهِمْ الْعِشَاءَ حِينَ
يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ ، وَصَلُّوا بِهِمْ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ ،
وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَوْعَفِهِمْ ، وَلَا تَكُونُوا فِتَانِينَ .

الشرح

[بيان اختلاف الفقهاء في أوقات الصلاة]

قد اختلف الفقهاء في أوقات الصلاة ، فقال أبو حنيفة : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر
الثاني ؛ وهو المعترض في الأفق ، وآخر وقتها ما لم تطلع الشمس . وأوّل وقت الظهر إذا
زالت الشمس ، وآخر وقتها إذا صار ظلّ كلّ شيء مثليه سوى الزوال . وقال أبو يوسف
ومحمد : آخر وقتها إذا صار الظلّ مثله .

قال أبو حنيفة : وأوّل وقت العصر إذا خرج وقت الظهر ؛ وهذا على القولين ،
وآخر وقتها ما لم تغرب الشمس ، وأوّل وقت المغرب إذا غربت الشمس ، وآخر وقتها

ما لم يغيب الشفق ؛ وهو البياض الذي في الأفق بعد الحمرة . وقال أبو يوسف ومحمد : هو الحمرة .

قال أبو حنيفة : وأول وقت العشاء إذا غاب الشفق ، وهذا^(١) على القولين ، وآخر وقتها ما لم يطلع الفجر .

وقال الشافعي : أول وقت الفجر إذا طلع الفجر الثاني ، ولا يزال وقتها المختار باقياً إلى أن يسفر ، ثم يبقى وقت الجواز إلى طلوع الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخري من الشافعية : لا يبقى وقت الجواز ، بل يخرج وقتها بعد الإسفار ويصلى قضاء ؛ ولم يتابعه على هذا القول أحد . قال الشافعي : وأول وقت الظهر إذا زالت الشمس . وحكى أبو الطيب الطبري من الشافعية أن من الناس من قال : لا تجوز الصلاة حتى يصير النسيء بعد الزوال مثل الشراك .

وقال مالك : أحب أن يؤخر الظهر بعد الزوال بقدر ما يصير الظل ذراعاً ؛ وهذا مطابق لما قال أمير المؤمنين عليه السلام حين تبيء الشمس كمر بضع العز ، أي كموضع تربض العز ، وذلك نحو ذراع أو أكثر بزيادة يسيرة .

قال الشافعي : وآخر وقت الظهر إذا صار ظل كل شيء مثله ، ويعتبر المثل من حد الزيادة على الظل الذي كان عند الزوال ، وبهذا القول قال أبو يوسف ومحمد ؛ وقد حكيناه من قبل ، وبه أيضاً قال الثوري وأحمد ، وهو رواية الحسن بن زياد اللؤلؤي عن أبي حنيفة ، فأما الرواية المشهورة عنه - وهي التي رواها أبو يوسف - فهو أن آخر وقت الظهر صيرورة الظل مثليه ، وقد حكيناه عنه فيما تقدم .

وقال ابن المنذر : تفرّد أبو حنيفة بهذا القول ؛ وعن أبي حنيفة رواية ثالثة أنه إذا صار ظل كل شيء مثله خرج وقت الظهر ؛ ولم يدخل وقت العصر إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه .

(١) ١ : « وهو » .

وقال أبو ثور ومحمد بن جرير الطبري : قدر أربع ركعات بين المثل والمثلين ، يكون مشتركا بين الظهر والعصر .

وحكى عن مالك أنه قال : إذا صار ظل كل شيء مثله ، فهو آخر وقت الظهر وأول وقت العصر ، فإذا زاد على المثل زيادة بينة خرج وقت الظهر واختص الوقت بالعصر .

وحكى ابن الصَّبَّاح من الشافعية ، عن مالك ، أن وقت الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثله وقتا مختارا ، فأما وقت الجواز والأداء فأخره إلى أن يبقى إلى غروب الشمس قدر أربع ركعات ؛ وهذا القول مطابق لمذهب الإمامية .

وقال ابن جريج وعطاء : لا يكون مفرطا بتأخيرها حتى تكون في الشمس صُفرة . وعن طاوس : لا يفوت حتى الليل .

فأما العصر : فإن الشافعي يقول : إذا زاد على المثل أدنى زيادة ، فقد دخل وقت العصر ؛ والخلاف في ذلك بينه وبين أبي حنيفة ؛ لأنه يقول : أول وقت العصر إذا صار ظل كل شيء مثليه ، وزاد عليه أدنى زيادة . وقد حكيناه عنه فيما تقدم .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في العصر مطابق لمذهب أبي حنيفة ، لأن بعد صيرورة الظل مثليه ، هو الوقت الذي تكون فيه الشمس حية بيضاء في عضو من النهار ، حين يسار فيه فرسخان ، وأما قبل ذلك فإنه فوق ذلك يسار من الفراسخ أكثر من ذلك ، ولا يزال وقت الاختيار عند الشافعي للعصر باقيا حتى يصير ظل كل شيء مثليه ؛ ثم يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخري من أصحابه : يصير قضاء بمجاورة المثلين ؛ فأما وقت المغرب فإذا غربت الشمس وغروبها سقوط القرص .

وقال أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي من الشافعية : لا بد أن يسقط القرص وينيب

حاجب الشمس ، وهو الضياء المستعل على كالمُتصل بها ، ولم يذكر ذلك من الشافعية أحد غيره .

وذكر الشافعي في كتاب " حلية العلماء " ، أن الشيعة قالت : أول وقت المغرب إذا اشتبكت النجوم . قال قد حكى هذا عنهم . ولا يساوى الحكاية ، ولم تذهب الشيعة إلى هذا ، وسند كقولهم فيما بعد .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في المغرب لا ينص على وقت معين لأنه عرف ذلك بكونه وقت الإفطار ، ووقت ما يدفع الحاج ، وكلاً الأمرين يحتاج إلى تعريف كما يحتاج وقت الصلاة ، اللهم إلا أن يكون قد عرف أمراء البلاد الذين يصلون بالناس من قبل هذا الكتاب متى هذا الوقت الذي يُنظر فيه الصائم ، ثم يدفع فيه الحاج بعينه ، ثم يحيلهم في هذا الكتاب على ذلك التعريف المخصوص .

قال الشافعي : وللمغرب وقت واحد ، وهو قول مالك .

وحكى أبو ثور عن الشافعي أن لها وقتين ، وآخر وقتها إذا غاب الشفق . وليس بمشهور عنه ، والمشهور القول الأول ، وقد ذكرنا قول أبي حنيفة فيما تقدم ، وهو امتداد وقتها إلى أن يغيب الشفق ، وبه قال أحمد وداود .

واختلف أصحاب الشافعي في مقدار الوقت الواحد ، فمنهم من قال : هو مقدر بقدر الطهارة وستر العورة والأذان والإقامة وفعل ثلاث ركعات ، ومنهم من قدره بنير ذلك . وقال أبو إسحاق الشيرازي منهم : التضيق إنما هو في الشروع ، فأما الاستدامة فتجوز إلى مغيب الشفق .

فأما وقت العشاء ، فقال الشافعي : هو أن يغيب الشفق وهو الحرمة ، وهو قول مالك وأحمد وداود وأبي يوسف ومحمد ، وقد حكينا مذهب أبي حنيفة فيما تقدم ، وهو أن يغيب الشفق الذي هو البياض ، وبه قال زفر والمزني .

قال الشافعيّ : وآخر وقتها المختار إلى نصف الليل ، هذا هو قوله القديم ، وهو مذهب أبي حنيفة ، وقال في الجديد : إلى ثلث الليل . ويجب أن يحمل قولُ أمير المؤمنين عليه السلام في العشاء أنها إلى ثلث الليل على وقت الاختيار ، ليكون مطابقا لهذا القول ، وبه قال مالك ، وإحدى الروایتين عن أحمد . ثم يذهب وقت الاختيار ؛ ويبقى وقتُ الجواز إلى طلوع الفجر الثاني .

وقال أبو سعيد الإصطخريّ : لا يبقى وقت الجواز بعد نصف الليل ، بل يصير قضاء .

فقد ذكرنا مذهبي أبي حنيفة والشافعيّ في الأوقات ، وهما الإمامان المعبران في الفقه ، ودخل في ضمن حكاية مذهب الشافعي ما يقوله مالك وأحمد وغيرهما من الفقهاء .

فأما مذهب الإمامية من الشيعة ، فنحن نذكره نقلا عن كتاب أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله المعروف بالمقيد " بالرسالة المقننة " ، قال : وقتُ الظهر من بعد زوال الشمس إلى أن يرجع النّوءُ سُبْعَى الشخص ، وعلامة الزوال رجوعُ النّوءِ بعد انتهائه إلى النّقصان ، وطريق معرفة ذلك بالإصطلاب أو ميزان الشمس ، وهو معروف عند كثير من الناس ، أو بالعمود المنصوب في الدائرة الهندية أيضا ، فمن لم يعرف حقيقة العمل بذلك ، أو لم يجد آله فليُنصبَ عوداً من خشب أو غيره في أرض مستوية السطح ، ويكون أصلُ العود غليظاً ورأسه دقيقاً شبه المذرى الذى ينسج به التّكك أو المسلة التى تُخاط بها الأحمال ، فإن ظلَّ هذا العود يكون بلا شكٍّ في أول النهار أطولَ من العود ، وكلّما ارتفعت الشمس نقص من طوله حتى يقف القرصُ في وسط السماء ، فيقف النّوءُ حينئذٍ ، فإذا زال القرص عن الوسط إلى جهة المغرب رجّع النّوءُ إلى الزيادة . فليعتبر مَنْ أراد الوقوف على وقت الزوال ذلك بخطوط وعلامات يجعلها على رأس ظلّ العود عند وضعه

في صدر النهار ، وكلما نقص في الظل شيء علم عليه ، فإذا رجع إلى الزيادة على موضع العلامة عرف حينئذ برجوعه أن الشمس قد زالت .

وبذلك تعرف أيضا القبلة ، فإنَّ قرص الشمس يقف فيها وسط النهار ، ويصير عن يسارها ويمين التوجّه إليها بعد وقوفها وزوالها عن القطب ، فإذا صارت مما يلي حاجبه الأيمن من بين عينيه علم أنها قد زالت ، وعرف أنَّ القبلة تلقاء وجهه ؛ ومن سبقت معرفته بجهة القبلة فهو يعرف زوال الشمس إذا توجّه إليها ، فرأى عين الشمس مما يلي حاجبه الأيمن ؛ إلا أنَّ ذلك لا يبين إلا بعد زوالها بزمان ، ويبين الزوال من أوّل وقته بما ذكرناه من الإصطلاب وميزان الشمس والدائرة الهندية والممود الذي وصفناه ، ومن لم يحصل له معرفة ذلك ، أو فقد الآلة توجّه إلى القبلة فاعتبر صيرورة الشمس على طرف حاجبه الأيمن وقت العصر من بعد الفراغ من الظهر ، إذا صليت الظهر في أوّل أوقاتها — أعنى بعد زال الشمس بلا فصل — ويعتدّ إلى أن يتغيّر لون الشمس باصفرارها للغروب ، وللمضطر والناسي إلى مغيبها بسقوط القرص عما تبلغه أبصارنا من السماء ، وأوّل وقت المغرب مغيب الشمس ، وعلامة مغيبها عدم الحمرة في المشرق المقابل للمغرب في السماء ؛ وذلك أن المشرق في السماء مُطلٌّ على المغرب ، فبا دامت الشمس ظاهرة فوق أرضنا فهي تلقى ضوءها على المشرق في السماء ، فيرى مُحَرَّتَها فيه ، فإذا ذهب الحمرة منه علم أن القرص قد سقط وغاب . وآخره أوّل وقت العشاء الآخرة ، وأوّل وقتها مغيب الشمس وهو الحمرة في المغرب ، وآخره مضى الثلث الأول من الليل ، وأوّل وقت الغداة اعتراض الفجر ، وهو البياض في المشرق يعقبه الحمرة في مكانه ؛ ويكون مقدمة لطلوع الشمس على الأرض من السماء ؛ وذلك أن الفجر الأول ، وهو البياض الظاهر في المشرق يطلع طولاً ثم ينعكس بعد مدّة عرضاً ثم يحمر الأفق بعده للشمس .

ولا ينبغي للإنسان أن يصلّيَ فريضة الغداة حتى يعترض البياض ، وينتشر صُعداً في السماء كما ذكرنا ، وآخر وقت الغداة طلوع الشمس .
هذا ما تقوله الفقهاء في مواقيت الصلاة .

فأما قوله عليه السلام : « والرجل يعرف وجه صاحبه » ؛ فمعناه الإسفار ، وقد ذكرناه .

وقوله عليه السلام : « وصلُّوا بهم صلاة أضعفهم » ؛ أى لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدَّعوات الطويلة .

ثم قال : « ولا تكونوا فتّانين » ، أى لا تفتنوا الناس بإتباعهم وإدخال المشقة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة ، نحو أن يُحدِّث الإمام فيستخلف فيصلّي الناس خلف خليفته ، فإن ذلك لا يجوز على أحد قولى الشافعى ؛ ونحو أن يطيل الإمام الركوع والسجود ، فيظنّ المأمومون أنّه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة ؛ ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء في كتبهم .

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما بدأ بصلاة الظهر ، لأنها أوّلُ فريضة افترضت على المكلفين من الصلاة على ما كان يذهب إليه عليه السلام ؛ وإلى ذلك تذهب الإماميّة ، وينصر قولهم تسميتها بالأولى ؛ ولهذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها ؛ فأما مَنْ عدا هؤلاء فأول الصلاة المفروضة عندهم الصبح ؛ وهى أوّل النهار .

وأيضاً يتفرع على هذا البحث القولُ في الصلاة الوسطى ، ما هى ؟ فذهب جمهور

الناس إلى أنها العصر ، لأنها بين صلاتي نهار وصلاتي ليل ؛ وقد رووا أيضا في ذلك روايات بعضها في الصباح ، وقياس مذهب الإمامية أنها المغرب ؛ لأن الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى ؛ إلا أنهم يروون عن أئمتهم عليهم السلام أنها الظهر ، ويفسرون الوسطى بمعنى الفضلى ؛ لأن الوسط في اللغة هو خيار كل شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾^(١) ، وقد ذهب إلى أنها المغرب قوم من الفقهاء أيضا . وقال كثير من الناس : إنها الصبح ، لأنها أيضا بين صلاتي ليل وصلاتي نهار ، ورووا أيضا فيها روايات وهو مذهب الشافعي ، ومن الناس من قال : إنها الظهر كقول الإمامية ولم يسمع عن أحد معتبرا أنها العشاء إلا قولاً شاذاً ذكره بعضهم . وقال : لأنها بين صلاتين لا تُقصران .

(٥٣)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي رحمه الله لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن :

بسم الله الرحمن الرحيم

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَشْطَرِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جَبَايَةَ خَرَاجِهَا ، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا ، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ، وَرِعْمَارَةَ بِلَادِهَا .

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يُسَعِدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا ، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ .

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ ، وَيَنْزِعَهَا عِنْدَ الْجَمْعَاتِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالشَّوْءِ ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ .

ثُمَّ أَعْلَمَ يَا مَالِكُ ، أَنَّ قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُولُ قَبْلِكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرِ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورٍ

الْوَلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ
بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ
الصَّالِحِ . فَاْمْلِكْ هَوَاكَ ، وَشَحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشَّحَّ بِالنَّفْسِ
الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ .

البَيِّنَةُ :

نصرة الله باليد : الجهاد بالسيف ، وبالقلب الاعتقاد للحق ، وباللسان قول الحق
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد تكفل الله بنصرة من نصره ، لأنه تعالى
قال : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۖ ﴾ (١) .

والجمحات : منازعة النفس إلى شهواتها ومآربها ، ونزعها بكفها .
ثم قال له : قد كنت تسمع أخبار الولاة ، وتعيب قوماً وتمدح قوماً ، وسيقول الناس
في إمارتك الآن نحو ما كنت تقول في الأمراء ؛ فاحذر أن تعاب وتذم كما كنت تعيب
وتذم من يستحق الذم .

ثم قال : إنما يستدل على الصالحين بما يكثر سماعه من ألسنة الناس بمدحهم والثناء
عليهم ؛ وكذلك يستدل على الفاسقين بمثل ذلك .

وكان يقال : ألسنة الرعية أقلام الحق سبحانه إلى الملوك .

ثم أمره أن يشح بنفسه ، وفسر له الشح ما هو ؟ فقال : أن تنتصف منها فيما أحببت

وكرهت ، أى لا تمكنها من الاسترسال فى الشهوات ، وكن أميراً عليها ، ومسيطرًا وقاماً لها من التهور والانهماك .

فإن قات : هذا معنى قوله : « فيما أحببت » ، فما معنى قوله : « وكرهت » ؟
قلت : لأنها تكره الصلاة والصوم وغيرها من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية ، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمناً عليها فى طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها فى طرف الترك .

الأفضل :

وَأَشْرِعْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ ؛ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْمَلَلُ ، وَيُوْثِقُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمَدِ وَالْخَطَا ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ ، وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ .

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَى لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوِهِ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِمُقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنُودُوحَةً .

وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرُ فَأَطَاعُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ .

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَوْ نَحِيلَةٍ ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ
مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ
يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ ، وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غَرَبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ
عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ
جَبَّارٍ ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ !

الْبُخْرُ :

أشعر قلبك الرحمة ، أى اجعلها كالشعار له ، وهو الثوب الملاصق للجسد ؛ قال :
لأنَّ الرعية ؛ إما أخوك في الدين ، أو إنسان مثلك تقتضى رقة الجنسية وطبع البشرية
الرحمة له .

قوله : « وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ » ، مثل قولك : « وَيُؤْخَذُ عَلَى أَيْدِيهِمْ » ؛ أى
يهذبون ويثقفون ، يقال : خذ على يد هذا السفيه ، وقد حجر الحاكم على فلان ،
وأخذ على يده .

ثم قال : فَسَبَّيْتُهُمْ إِلَيْكَ كَنَسَبَتِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وكما تحب أن يصفح الله عنك
ببني أن تصفح أنت عنهم .

قوله : « لَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ » ؛ أى لا تبارزه بالمعاصي . فإنه لا يدى لك
بنقمته ؛ اللام مُقَحَّمَةٌ ، والمراد الإضافة ، ونحوه قولهم : لا أباك .

قوله : « وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ » ؛ أى لا تقل : إني أمير ووالٍ أمر بالشىء فأطاع .

والإدغال : الإفساد ، ومنهكة الدين : ضعف وسقم .
ثم أمره عند حدوث الأبهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمرة أن يذكر عظمة الله تعالى وقدرته على إعدامه وإيجاده ، وإماتته وإحيائه ؛ فإنّ تذكر ذلك يطامن من غلوائه ، أى يفيض من تعظمه وتكبره ، ويطأطأ منه .
والغرب : حدّ السيف ، ويستعار للسطوة والسرعة في البطش والفتك .
قوله : « ويُفَى » ؛ أى يرجع إليك بما بعد عنك من عقلك ، وحرّف المضارعة مضموم لأنّه من « أفاء » .
ومساماة الله تعالى : مباراته في السموّ وهو العلوّ .

الأصل :

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ هَوًى فِيهِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ .
وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَّهِدِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .
وَلَيْكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنْ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُنْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ .

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَثُونَةً فِي الرَّخَاءِ ، وَأَقْلَ مَعُونَةً لَهُ فِي
الْبَلَاءِ ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ
عُذْرًا عِنْدَ الْمَنَعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ ، مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ؛ وَإِنَّمَا عُمُودُ
الدِّينِ ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صِفُوكَ
لَهُمْ ، وَمِثْلُكَ مَعَهُمْ .

البُخْرُج

قال له : أنصف الله ، أى قم له بما فرّض عليك من العبادة والواجبات
العقلية والسمعية .

ثم قال : وأنصف الناس من نفسك ومن ولدك وخاصة أهلِكَ ومن تحبه وتميل إليه
من رعيتك ، فتى لم تفعل ذلك كفت ظالماً .

ثم نهاه عن الظلم ، وأكد الوصاية عليه في ذلك .

ثم عرفه أن قانون الإمارة الاجتهاد في رضا العامة ، فإنه لا مبالاة بسخط خاصة
الأمير مع رضا العامة ، فأما إذا سخطت العامة لم ينفعه رضا الخاصة ، وذلك مثل أن يكون
في البلد عشرة أو عشرون من أغنيائه ، وذوى الثروة من أهلِهِ ، يلزمون الوالى ويخدمونه
ويسامرونه ، وقد صار كالصديق لهم ، فإن هؤلاء ومن ضارّهم من حواشى الوالى وأرباب
الشفاعات والقربات عنده لا يُغنون عنه شيئاً عند تنكّر العامة له ، وكذلك لا يضرّ سُخط
هؤلاء إذا رضيت العامة ، وذلك لأن هؤلاء عنهم غنى ، ولهم بدل ، والعامة لا غنى عنهم
ولا بدل منهم ، ولأنهم إذا شغبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب ، فلا يقاومه أحد ،
وليس الخاصة كذلك .

ثم قال عليه السلام - ونعم ما قال : ليس شيء أقل نفعا ، ولا أكثر ضررا على الوالى من خواصه أيام الولاية ، لأنهم يثقلون عليه بالحاجات ، والمسائل والشفاعات ، فإذا عزل هجروه ورفضوه حتى لو لقوه فى الطريق لم يسلموا عليه .
والصغو^(١) بالكسر والفتح والصغا مقصور : الميل .

الأصل :

وَلَيْسَ أَبَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنَأُهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ،
فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا أَلْوَى أَحَقُّ مِنْ سِتْرَهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ،
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ
مَا اسْتَطَعْتَ ؛ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ^(٢) رَعِيَّتِكَ .

أُطْلِقِ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتْرٍ ، وَتَغَابَ
عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِيعُ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٍ^٣
وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ، وَيَمِدُّكَ الْفَقْرَ ، وَلَا جَبَانًا
يُضْمَعُكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ
وَالْحِرْصَ غَرَارٌ زُشْتَى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ .

(١) ب : « الصفو » ، تحريف . (٢) فى د : « عن » .

الشُّنْخُ :

أَشْنَأُهم عندك ، أَبْغَضُهم إليك :

وتَغَابَ : تَغَافَلُ ، يقال : تَغَابَى فلانٌ عن كذا .

وَيَضَحُ : يَظْهَرُ ، والمَاضَى وَضَحَ .

[فصل في النهي عن ذكر عيوب الناس وما ورد في ذلك من الآثار]

عاب رجلٌ رجلاً عند بعض الأشراف فقال له : لقد أَسْتَدَلَّتْ على كثرة عيوبك بما تُسَكِّثُ فيه من عُيوب الناس ، لأنَّ طَلَبَ العُيوبِ إنما يطلبها بقدر ما فيه منها .

وقال الشاعر :

وأَجْرًا من رَأَيْتَ بَظْهَرِ غَيْبٍ على عَيْبِ الرِّجَالِ أَوَّلُو العُيُوبِ

وقال آخر :

يَا مَنْ عَيْبَ وَعَيْبُهُ مُتَشَعِّبٌ كَمْ فَيْكَ مِنْ عَيْبٍ وَأَنْتَ تَعِيبُ !

وفي الخبر المرفوع : « دَعُوا النَّاسَ بِغَفَلَاتِهِمْ يَعِيشُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ » .

وقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : كنت أسأيرُ أبي ورجلٌ معنا يقع في رجل ، فَأَلْتَمَسْتُ أبايَ إِلَى فُتَالٍ : يَا بُنَيَّ ؛ نَزَّهَ سَمْعَكَ عَنْ أَسْتِمَاعِ الْخَنَا كَمَا تُنَزَّهَ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ الْمُسْتَمَعَ شَرِيكَ الْقَاتِلِ ، إِنَّمَا نَظَرَ إِلَى أَخْبَثَ مَا فِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رَدَّتْ كَلِمَةٌ جَاهِلٌ فِيهِ لَسَعَدَ رَادَّهَا كَمَا شَقَّ قَاتِلُهَا .

وقال ابن عباس ، أَلْحَدَثَ حَدَثَانِ : حَدَّثَ مِنْ فَيْكَ ، وَحَدَّثَ مِنْ فَرَجِكَ .

وعاب رجلٌ رجلاً عند قُتَيْبَةَ بنِ مسلمٍ ؛ فقال له قُتَيْبَةُ : أَمْسِكْ وَيْحَكَ ! فقد تَلَمَّظْتَ بِمُضْغَةٍ طالما لَفِظَهَا الكرام .

ومرَّ رجلٌ بِجَارَيْنِ له ومعه ربيّة ، فقال أحدهما لصاحبه : أفهمتَ ما معه من الرّبيّة ؟ قال : وما معه ؟ قال : كذا ، قال : عبدي حرٌّ لوجه الله شكراً له تعالى إذ لم يعرفني من الشرِّ ما عرفتك .

وقال الفضيل بن عياض : إنّ الفاحشة لتَشيع في كثير من المسلمين حتّى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خُزّاناً .

وقيل لبزُرْجَمِهَر : هل من أحد لا عيبَ فيه ؟ فقال : الذي لا عيبَ فيه لا يموت . وقال الشاعر :

ولستُ بذى تَيْرَبٍ في الرّجا لَمَنّاعَ خَيْرٍ وَسَبّابِهَا^(١)
ولا مَنْ إذا كان في جانبٍ أضاعَ العشيرةَ وأغتابها
ولكن أطاوعُ ساداتِها ولا أُنْعَمَ ألقابها

وقال آخر :

لا تَلْتَمِسْ من مساوِي الناس ما سَتَرُوا فيكشف الله سِتْرًا من مساوِيكَ
وأذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِرُوا ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكَ

وقال آخر :

ابداً بنفسك فأنهها عن عيبها فإذا انتهت عنه، فأنت حَكِيمٌ^(٢)
فهناك تُعذر إن وعظتَ ويقتدى بالقول منك ، ويُقبَلُ التَّعليمُ

(١) التيرب : الشر وحمل العداوة .

(٢) لأبي الأسود الدؤلي ؛ خزائن الأدب ٣ : ٦١٧ ؛ والرواية هناك : « عن غيرها » .

فأما قوله عليه السلام : « أطلق عن الناس عقدة كلِّ حقد » ، فقد استوفى هذا المعنى زياداً في خطبته البتراء فقال : وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(١) ، وقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليردد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته ، إنني لو علمت أن أحداً قد قتله السُّلال^(٢) من بُغضي لم أكشف عنه فناء ، ولم أهتك له سِتراً ، حتى يبدى لي صفحته ، فإذا فعل لم أنظره ، ألا فليشمل كلِّ امرئ منكم على ما في صدره ، ولا يكوننَّ لسانه شفرةً تجري على ودِّجه .

[فصل في النهي عن سماع السعاية وما ورد في ذلك من الآثار]

فأما قوله عليه السلام : « ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساعٍ » ، فقد ورد في هذا المعنى كلامٌ حسنٌ ، قال ذو الرِّياستين : قبول السَّعاية شرٌّ من السَّعاية لأنَّ السَّعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس منْ دلٍّ على شيء كمن قبله وأجازه ، فامقت الساعي على سعايته ، فإنه لو كان صادقاً كان لثيماً ؛ إذ هتك العورة ، وأضاع الحرمة .

وعاتب مصعبُ بنُ الزبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه فأنكره ، فقال مُصعب : أخبرني به الثقة ، قال : كلاً أيها الأمير ، إن الثقة لا يبلغ .

وكان يقال : لو لم يكن من عيب الساعي إلا أنه أصدق ما يكون أضرَّ ما يكون على الناس ، لكان كافياً .

كانت الأكسرة لا تأذن لأحد أن يطبخ السَّكَباج^(٣) ، وكان ذلك مما يختصُّ به الملك ، فرفع ساع إلى أنوشروان : إن فلانا دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه

(١) الإحن : جمع إحنة ، وهي العداوة . (٢) السلال والسل بمعنى .

(٣) السكَباج : مرق يعمل من اللحم والخل ؛ معرب .

سَكْبَاج ، فوقَّعْ أنوشروان على رقعته : قد حمدنا نصيحتك ، وذمنا صديقك على سوء اختياره للإخوان .

جاء رجلٌ إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دمشق ، فقال : أيُّها الأمير ، إنَّ عندي نصيحة ، قال : اذكرها ، قال : جارُّي رجع من بعثه سرًّا ، فقال : أمَّا أنت فقد أخبرتنا أنك جارُّ سوء ، فإن شئت أرسلنا معك ، فإن كنت كاذبًا عاقبناك ، وإن كنت صادقًا مقتناك ، وإن تركتنا تركناك ، قال : بل أتركك أيُّها الأمير . قال : فانصِرِف .

ومثلُ هذا يُحكى عن عبد الملك أنَّ إنسانًا سأله الخُلوة ، فقال لجلسائه : إذا شئتم ! فانصرفوا ، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له : اسمع ما أقول ، إياك أن تمدحني فأنا أعرفُ بنفسى منك ، أو تكذبني فإنه لا رأى لكذب ، أو تسمى بأحد إلى فإنِّي لا أحبُّ السعاية ؛ قال : أفيأذنُ أمير المؤمنين بالانصراف ! قال : إذا شئت . وقال بعض الشعراء :

لعمرك ما سبَّ الأميرَ عدوُّه ولكنما سبَّ الأميرَ المبلِّغُ

وقال آخر :

خُرمتُ مُنأى منك إن كان ذا الذى^(١) أناك به الواشون عني كما قالوا

ولكنهم لما رأوك شريعةً إلى تواصلوا بالنيمة واختالوا^(٢)

فقد صرتَ أذنًا للوشاة سمعيةً ينالون من عِرْضى ولو شئت ما نالوا

وقال عبد الملك بن صالح الجعفر بن يحيى وقد خرج يودِّعه لما شخص إلى خراسان : أيُّها الأمير ، أحبُّ أن تكون لى كما قال الشاعر :

(١) في د « إن يكن الذى » ، وهو مستقيم الوزن والمعنى أيضًا .

(٢) الشريعة : مورد الشاربة .

فكوني على الواشين لداء شعبة^(١) كما أنا للواشي الد شغوب^(٢)
قال : بل أكون كما قال القائل :
وإذا الواشي وشى يوماً بها نفع الواشي بما جاء يضراً
وقال العباس بن الأحنف :

ما حطك الواشوان من رتبة عندي ولا ضرك معتاب^١
كأنهم أنثوا ولم يعلموا عليك عندي بالذي عابوا^٢

قوله عليه السلام : « ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ، ويعدك
الفقر » ، مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ
يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً ۗ ﴾^(٢)؛ قال المفسرون : الفحشاء ها هنا البخل ؛ ومعنى « يعدكم
الفقر » ، يخيل إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوفكم فتخافون فتبخلون .
قوله عليه السلام : « فإن البخل والجبن والحرص غراز شتى يجمعها سوء الظن بالله » ،
كلام شريف عال على كلام الحكماء ، يقول : إن بينها قدراً مشتركاً وإن كانت غراز وطبائع
مختلفة ، وذلك القدر المشترك هو سوء الظن بالله ، لأن الجبان يقول في نفسه : إن أقدمت
قتلت ، والبخيل يقول : إن سمحت وأتقت افتقرت ، والحريص يقول : إن
لم أجد وأجهد وأدأب فاتنى ما أروم ؛ وكل هذه الأمور ترجع إلى سوء الظن
بالله ، ولو أحسن الظن الإنسان بالله وكان يقينه صادقا لعلم أن الأجل مقدر ،
وأن الرزق مقدر ، وأن الغنى والفقر مقدران ، وأنه لا يكون من ذلك إلا ما قضى
الله تعالى كونه .

الأصل :

شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لِلْأَشْرَارِ وَزِيْرًا ، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فِي الْإِثَامِ ،
فَلَا يَكُونُنَّ لَكَ بِطَانَةً ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْإِثْمَةِ ، وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ ؛ وَأَنْتَ وَاجِدٌ
مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ يَمْنَنُ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ
وَأَوْزَارِهِمْ وَأَثَامِهِمْ ، يَمْنَنُ لَمْ يُعَاوِزْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ ؛ أُولَئِكَ
أَخَفْتُ عَلَيْكَ مَوْنَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ، وَأَخْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا ، وَأَقْلُّ لِعَيْرِكَ إِلْفًا .
فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِإِخْوَانِكَ وَحَفَلَاتِكَ ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ
بِمَرُّ الْحَقِّ لَكَ ، وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَاقِمَا
ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ .

الشرح :

نهأه عليه السلام ألا يتخذ بطانة قد كانوا من قبلُ بطانة للظلمة ، وذلك لأن الظلم
وتحسينه قد صار ملكة ثابتة في أنفسهم ، فبعيد أن يمكنهم الخلو منها إذ قد صارت
كالخلق الغريزي اللازم لتكرارها وصيرورتها عادةً ، فقد جاءت النصوص في الكتاب
والسنة بتخريم معاونة الظلمة ومساعدتهم ، وتحریم الاستعانة بهم ، فإن من استعان بهم
كان معيّنًا لهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾ ^(١) ، وقال : ﴿ لَا تَجِدُ
قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ^(٢) .
وجاء في الخبر المرفوع : « يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ مِنْ بَرَى ^(٣) لهم - أى الظالمين - قلما » .

(١) سورة الكهف ٥١ . (٢) سورة المجادلة ٢٢ .

(٣) ب : « يرى » ، تحريف ، صوابه في ١ ، د .

أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج ، فقال له : ما تقول في الحجاج ؟ قال : وما عسيت أن أقول فيه ! هل هو إلا خطيئة من خطاياك ، وشرّ من نارِكَ ؟ فلعلك الله ولمن الحجاج معك ! وأقبل يشتمهما ، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فقال : ما تقول في هذا ؟ قال : ما أقول فيه ! هذا رجل يشتمكم ، فإما أن تشتموه كما شتمكم ، وإما أن تمفوا عنه . فغضب الوليد وقال لعمر : ما أظنك إلا خارجيا ! فقال عمر : وما أظنك إلا مجنونا ؛ وقام فخرج مغضبا ، ولحقه خالد بن الريان صاحب شرطة الوليد ، فقال له ما دعاك إلى ما كلمت به أمير المؤمنين ! لقد ضربت يدي إلى قائم سني أنتظر متى يأمرني بضرب عنقك ؛ قال : أو كنت فاعلا لو أمرك ؟ قال : نعم . فلما استخلف عمر جاء خالد بن الريان فوقف على رأسه متقلدا سيفه ، فنظر إليه وقال : يا خالد ، ضع سيفك فإنك مطيعنا في كل أمرٍ نأمرُك به . وكان بين يديه كاتب للوليد ، فقال له : ضع أنتَ قلمك ، فإنك كنتَ تضرّ به وتنفع ، اللهم إني قد وضعتهما فلا ترفعهما ، قال : فوالله ما زالا وضيعة مهيئين حتى ماتا .

وروى الغزالي في كتاب ” إحياء علوم الدين “ ، قال لما خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك ، فقد أصبحت شيخا كبيرا ، وقد أثقلتك نعم الله عليك بما فهمك من كتابه ، وعلمك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء ، فإنه تعالى قال : ﴿ لَتَيَبِّتَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُوهُ ﴾^(١) . واعلم أن أيسر ما ارتكبت ، وأخف ما احتملت ، أنك آتست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل النقي بدنوك إلى من لم يؤدّ حقاً ، ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك أبا بكر قطبا تدور

عليه رَحًا ظلمهم ، وجسرا يعبرون عليه إلى بلادهم ومعاصيهم ، وسُلماً يصعدون فيه إلى ضلالتهم ، يُدخلون بك الشكَّ على العلماء ، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء ، فما أيسر ما عمَّروا لك في جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا من حالك ودينك ! وما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ ^(١) يا أبا بكر ، إنك تُعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداوِ دينك فقد دخله سقم ، وهيمى زادك فقد حضرَ سفرَ بعيد ؛ ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ ^(٢) ، والسلام .

الأضلُّ

وَالصَّقُّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى آلَا يُطْرُوكَ وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فَإِنْ كَثُرَ الْإِطْرَاءُ تُحْدِثُ الزَّهْوَ ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ .
وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيْدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ ، وَتَذَرِيْبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ ، وَالزِّمُّ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أُلْزِمَ نَفْسُهُ .

الشَّيْخُ :

قوله : « والصَّقُّ بأهل الورع » ، كلمةٌ فصيحةٌ ، يقول : اجعلهم خاصَّتَكَ وخلصاءَكَ .

قال : ثُمَّ رَضُّهُمْ عَلَى الْآلِ يُطْرُوكَ ، أَيْ عَوْدَهُمْ الْآلَ يَمْدَحُوكَ فِي وَجْهِكَ . وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِيَاظِل : لَا يَجْعَلُوكَ مِنْ يَبْجَحٍ أَيْ يَفْخَرُ بِيَاظِل لَمْ يَفْعَلْهُ كَمَا يُبَجِّحُ أَصْحَابُ الْأَمْرَاءِ الْأَمْراءِ بِأَنْ يَقُولُوا لَهُمْ : مَا رَأَيْنَا أَعْدَلَ مِنْكُمْ وَلَا أَسْمَحَ ، وَلَا تَحْمِي هَذَا الثَّغَرَ أَمِيرَ أَشَدَّ بِأَسَا مِنْكُمْ ! وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « اخْتَوَا فِي وَجْهِهِ الْمَدَاحِينَ انْتِرَابَ » .

وقال عبد الملك لمن قام يساره : مَا تَرِيدُ ! أَتَرِيدُ أَنْ تَمْدَحَنِي وَتَصِفَنِي ، أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكَ .

وقام خالد بن عبد الله القسريّ إلى عمر بن عبد العزيز يوم بَيْعَتِهِ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنْ كَانَتْ الْخِلَافَةُ زَائِنَتَهُ فَقَدْ زَيْنَتْهَا ، وَمَنْ كَانَتْ شَرَفَتَهُ فَقَدْ شَرَّفَتْهَا ، فَإِنَّكَ لَكَأَنَّ الْقَائِلَ :

وَإِذَا الدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وَجْهِهِ كَانَ لِلدَّرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زَيْنًا

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : لَقَدْ أُعْطِيَ صَاحِبُكُمْ هَذَا مَقُولًا ، وَحُرِّمَ مَقُولًا . وَأَمْرًا أَنْ يَجْلِسَ .

وَلَمَّا عَقَدَ مَعَاوِيَةُ الْبَيْعَةَ لِأَبْنِهِ يَزِيدَ قَامَ النَّاسُ يُخْطَبُونَ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَمْرُو بْنِ سَعِيدٍ الْأَشْدَقِ : قُمْ فَأَخْطُبْ يَا أَبَا أُمَيَّةَ ، فَقَامَ فَقَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ يَزِيدَ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَمَلٌ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ ، إِنْ أَفْتَقَرْتُمْ إِلَى حِلْمِهِ وَسَعَمِكُمْ ، وَإِنْ احْتَجَجْتُمْ إِلَى رَأْيِهِ أَرْشَدَكُمْ ، وَإِنْ اجْتَدَيْتُمْ ذَاتَ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ وَتَمَلَّكَكُمْ ؛ جِدْعٌ قَارِحٌ ؛ سُوبِقٌ فَسَبَقَ ، وَمَوْجِدٌ فَمَجَدَ ،

وَقُورِعَ قَرَعٌ ، وهو خَلَفَ أمير المؤمنين ، ولا خَلَفَ منه . فقال معاوية : أَوْسَعْتَ يَا أَبَا أُمَيَّةَ فَاجْلِسْ ، فَإِنَّمَا أَرَدْنَا بَعْضَ هَذَا .

وَأَثْنَى رَجُلٌ عَلَى عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَجْهِهِ ثَنَاءً أَوْسَعَ فِيهِ . وكان عنده مَتَبُهَا - فقال له : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وفوق ما في نَفْسِكَ .

وقال ابن عباس لِمُتَبِّةِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ فَأَكْثَرَ : رَوَيْدًا فَقَدْ أُمِّهَيْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ - يَعْنِي بِالْفَتْ ، يقال أُمِّهَى حَافِرُ الْبَيْتِ ، إِذَا اسْتَقْصَى حَفْرَهَا .

فَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَلَا يَكُونُ الْحَسَنُ وَالْمُسَىءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ » ، فَقَدْ أَخَذَهُ الصَّابِيُّ فَقَالَ : « وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْمُحْسِنُ مَا يَرْفَعُهُ ، وَالْمُسَىءُ مَا يَضَعُهُ ، زَهَدَ الْحَسَنُ فِي الْإِحْسَانِ ، وَاسْتَمَرَّ الْمُسَىءُ عَلَى الطُّغْيَانِ » ، وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

شَرُّ الْبِلَادِ بِلَادٌ لَا صَدِيقَ بِهَا وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصْمُ^(١)
وَشَرُّ مَا قَبِضْتَهُ رَاحَتِي قَنْصٌ شُهْبُ الْبِرَاةِ سِوَالَا فِيهِ وَالرَّحْمُ
وَكُنْ يَقَالُ : قِضَاءُ حَقِّ الْحَسَنِ أَدَبٌ لِلْمُسَىءِ ، وَعَقُوبَةُ الْمُسَىءِ جَزَاءٌ لِلْمُحْسَنِ .

الأصل :

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَدْعَى إِلَى حُسْنٍ ظَنٌّ وَالِيٍّ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَثُونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ . فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ إِحْسَانُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا طَوِيلًا ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ حَسَنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسَنَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ .

وَلَا تَنْفُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأُجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلُفَّةُ ،
وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلَا تُحَدِّثَنَّ سُنَّةَ نَضَرٍ يَشِيءُ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السَّنَةِ ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا ،
وَالْوَزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَأَكْثَرُ مَدَارَسَةِ الْمُلُكَاءِ ، وَمُنَاقَشَةِ الْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيْتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ
بِلَادِكَ ؛ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ .

الشَّيْخُ :

خلاصة صدر هذا الفصل ، أن مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ حَسُنَ ظَنُّهُ فَيْكَ ، وَمَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ
أُسْتُوحِشَ مِنْكَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى إِنْسَانٍ وَتَكَرَّرَ مِنْكَ ذَلِكَ الْإِحْسَانُ تَبَعَ
ذَلِكَ أَعْتِقَادُكَ أَنَّهُ قَدْ أَحَبَّكَ ، ثُمَّ يَتَّبِعُ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادَ أَمْرٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّكَ تَحِبُّهُ ؛ لِأَنَّ
الْإِنْسَانَ مَجْبُولٌ عَلَى أَنْ يَحِبَّ مَنْ يَحِبُّهُ ، وَإِذَا أَحْبَبْتَهُ سَكَنَتْ إِلَيْهِ وَحَسُنَ ظَنُّكَ فِيهِ ،
وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَسَاءْتَ إِلَى زَيْدٍ ، لِأَنَّكَ إِذَا أَسَاءْتَ إِلَيْهِ وَتَكَرَّرَتْ الْإِسَاءَةُ تَبَعَ
ذَلِكَ أَعْتِقَادُكَ أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَكَ ، ثُمَّ يَتَّبِعُ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادَ أَمْرٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنْ تُبْغِضَهُ أَنْتَ ،
وَإِذَا أَبْغَضْتَهُ انْقَبَضَتْ مِنْهُ وَأُسْتُوحِشْتَ ، وَسَاءَ ظَنُّكَ بِهِ .

قال المنصور للرَّبِيعِ : سَلِّني لِنَفْسِكَ ؛ قال . يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَلَأَتْ يَدِي فَلَمْ يَبْقَ
عِنْدِي مَوْضِعٌ لِلْمَسْأَلَةِ ؛ قال : فَسَلِّني لَوَلَدِكَ ، قال : أَسْأَلُكَ أَنْ تَحِبَّهُ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ :
يَارَبِيعُ ، إِنَّ الْحَبَّ لَا يُسْأَلُ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ الْأَسْبَابُ ، قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا
أَسْأَلُكَ أَنْ تَزِيدَ مِنْ إِحْسَانِكَ ، فَإِذَا تَكَرَّرَ أَحَبَّكَ ، وَإِذَا أَحْبَبَّكَ أَحْبَبْتَهُ . فَاسْتَحْسَنَ .

المنصور ذلك ، ثمّ نهّاه عن نقض السنن الصالحة التي قد عمل بها من قبله من صالحى الأئمة ، فيكون الوزر عليه بما نقض ، والأجر لأولئك بما أسسوا ، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء فى مصالح عمله ، فإن المشورة بركة ، ومن استشار فقد أضاف عقلاً إلى عقله . ومما جاء فى معنى الأول :

قال رجلٌ لإياس بن معاوية : من أحبُّ الناس إليك ؟ قال : الذين يُعطُونى ، قال : ثمّ من ؟ قال : الذين أُعطيهم .

وقال رجلٌ لهشام بن عبد الملك : إنَّ الله جعل العطاء محبةً ، والمنع مَبغضةً ، فأعِنِّى على حُبِّكَ ، ولا تُعِنِّى فى بُغْضِكَ .

الأضل :

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ ، لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنصَافِ وَالرِّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ ، وَمِنْهَا التَّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْمَسْكِينَةِ ، وَكُلُّ قَدْ سَمَّى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مُحْفُوظًا .

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ ؛ وَلَيْسَ يَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ، ثُمَّ لَا قَوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ، ثُمَّ لَا قَوَامَ لِهَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ

وَالْكِتَابِ ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَادِ ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا ؛ وَلَا قَوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتَّجَارِ وَذَوَى الصَّنَاعَاتِ ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفِّقِ بِأَيْدِيهِمْ ، مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ .

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِنَةِ ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ . وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ .

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ ، إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ ؛ وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ .

الْمَنْزُح :

قالت الحكماء : الإنسان مَدَنِيٌّ بالطبع ؛ ومعناه أنه خُلِقَ خَلْقَةً لَا بَدَّ مَعَهَا مِنْ أَنْ يَكُونَ مَنْضُمًا إِلَى أَشْخَاصٍ مِنْ بَنِي جَنْسِهِ ، وَمَتَمِّدًا فِي مَكَانٍ بَعِينَةٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْمَتَمِّدِ سَاكِنَ الْمَدِينَةِ ذَاتِ السُّورِ وَالسُّوقِ ، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يَقِيمَ فِي مَوْضِعٍ مَا مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْبَشَرِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُضْطَرٌّ إِلَى مَا يَأْكُلُهُ وَيَشْرَبُهُ لِيَقِيمَ صَوْرَتَهُ ، وَمُضْطَرٌّ إِلَى مَا يَلْبَسُهُ ، لِيُدْفَعَ عَنْهُ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، وَإِلَى مَسْكَنٍ يَسْكُنُهُ لِيَرُدَّ عَنْهُ عَادِيَّةٌ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَلِيَكُونَ مَنْزِلًا لَهُ لِيَتِمَكَّنَ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالْحَرَكَةِ عَلَيْهِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَحْدَهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِالْأُمُورِ الَّتِي عُدَدُهَا ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ جَمَاعَةٍ يَحْرُثُ بَعْضُهُمْ لِنَافِعِهِ الْحَرْثَ ، وَذَلِكَ لِغَيْرِ يَحْمُوكَ لِلْحَرَاثِ الثُوبَ ، وَذَلِكَ الْخَائِكَ يَبْنِي لَهُ غَيْرُهُ الْمَسْكَنَ ، وَذَلِكَ الْبَنَاءُ يَحْمِلُ لَهُ

غيره^(١) الماء ، وذلك السقاء يكفيه غيره أمرَ تحصيل الآلة التي يطحن بها الحب ويمجن بها الدقيق ، ويخبز بها العجين ، وذلك المحصل لهذه الأشياء يكفيه غيره الاهتمام بتحصيل الزوجة التي تدعو إليها داعية الشبق ، فيحصل مساعدة بعض الناس لبعض ، لولا ذلك لما قامت الدنيا ، فلهذا معنى قوله عليه السلام : « إنهم طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غناء ببعضها عن بعض » .

ثم فصلهم وقسمهم فقال : منهم الجند ،^(٢) ومنهم الكتاب ، ومنهم القضاة ، ومنهم العمال^(٣) ، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذمة ، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين ، ومنهم التجار ، ومنهم أرباب الصناعات . ومنهم ذوو الحاجات والمسكنة ، وهم أدون الطبقات .

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال : الجند للحماية ، والخراج يُصرف إلى الجند والقضاة والعمال والكتاب لما يحكمونه من المعاهد ، ويجمعونه من المنافع ، ولا بدّ هؤلاء جميعا من التجار لأجل البيع والشراء الذي لا غناء عنه ، ولا بدّ لكلٍّ من أرباب الصناعات كالحديد والتجار والبناء وأمثالهم . ثم تلى هؤلاء الطبقة السفلى ، وهم أهل الفقر والحاجة الذين يجب معونتهم والإحسان إليهم .

وإنما قسمهم في هذا الفصل هذا التقسيم تمهيدا لما يذكره فيما بعد ، فإنّه قد شرع بعد هذا الفصل ، فذكر طبقة طبقة وصنفاً صنفاً ، وأوصاه في كلّ طبقة وفي كلّ صنف منهم بما يليق بحاله ، وكأنّه^(٣) مهّد هذا التمهيد ، كالفرست لما يأتي بعده من التفصيل .

(١) ب : « غير تحريف » . (٢-٢) ساقط من ب ، وأثبتته من ا د .

(٣) ا : « فكأنه » .

الأضل :

فَوَلِّ مَنْ جُنُودَكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَّسُولِهِ وَلَا مَامِكَ ، وَأَطْهَرَهُمْ جَبِيًّا ،
وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا ، يَمْنَنُ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ ؛ وَيَسْتَرْجِعُ إِلَى الْمُذْرِ ، وَيَرَأْفُ بِالضَّعْفَاءِ ،
وَيَذْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ ؛ وَيَمْنَنُ لَا يُثِيرُهُ الْغَنَفُ ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ .

ثُمَّ الصَّقِ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ ؛ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّوَابِقِ
الْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاخَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكِرَمِ ؛
وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ .

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدَيْهِمَا ؛ وَلَا يَتَفَقَّصَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ لَا
قُوَّةَ لَهُمْ بِهِ . وَلَا تُحَقِّرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَدْلِ
النَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ .

وَلَا تَدَعِ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ؛ فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ
مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ؛ وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَفْنُونَ عَنْهُ ؛ وَلَيْكُنْ آثَرُ رُحُوسِ
جُنْدِكَ عِنْدَكَ مِنْ وَاسَاؤِهِمْ فِي مَعُونَتِهِ ، وَأَفْضَلِ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ ، بِمَا يَسْمُهُمْ
وَيَسْعُ مِنْ وَرَاءِهِمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ،
فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ . وَلَا تَصِحْ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ^(١)
عَلَى وُلاَةِ أُمُورِهِمْ ، وَقِلَّةِ اسْتِنْقَالِ دُورِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ .

فَأَفْسَحْ فِي أَمَالِهِمْ ، وَوَاصِلْ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعَدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ

(١) مخطوطة النهج : « بحيطتهم » بالياء المشددة المكسورة .

مِنْهُمْ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فَعَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ ، وَتُحَرِّضُ النَّكَلَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلَا تَضْمَنْ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ ،
وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ .

وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلَا ضَعْفُ
امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا ، وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّكَ
مِنَ الْخُطُوبِ ، وَیَسْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ
إِرْشَادَهُمْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ
فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ 》^(١) ، فَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ
كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ .

الْبَرْخُ :

هذا الفصل مختصٌّ بالوصاية فيما يتعلق بأمراء الجيش ، أمره أن يولى أمر الجيش
من جنوده مَنْ كَانَ أَنْصَحَهُمْ لِلَّهِ فِي ظَنِّهِ ، وَأَطْهَرَهُمْ جَبِينًا ، أَيْ عَفِيفًا أَمِينًا ؛ وَيُكْنَى
عَنِ الْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ بِطَهَارَةِ الْجَبِينِ ، لِأَنَّ الَّذِي يَسْرِقُ يَجْعَلُ الْمَسْرُوقَ فِي جَبِينِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : وَأَيُّ تَعَلُّقٍ لِهَذَا بِوُلاَةِ الْجَيْشِ ؟ إِنَّمَا يَلْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ
فِي وُلاَةِ الْخِرَاجِ !

قلت : لا بدَّ منها في أمراء الجيش لأجل الغنائم .

ثمَّ وَصَفَ ذَلِكَ الْأَمِيرَ فَقَالَ : « مِمَّنْ يَظْطَعُ عَنِ الْغَضَبِ ، وَيَسْتَرْجِعُ إِلَى الْعُذْرِ » ، أَيْ يَقْبَلُ

أَذْنَى عَذْر ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ ، وَيَسْكُنُ عِنْدَهُ . وَيَرْوُفٌ^(١) عَلَى الضَّعْفَاءِ ، يَرْفُقُ بِهِمْ وَيَرْحُمُهُمْ ، وَالرَّأْفَةُ : الرَّحْمَةُ . وَيَنْبُو عَنْ الْأَقْوِيَاءِ : يَتَجَانَبُ عَنْهُمْ وَيَعْدُ ، أَيْ لَا يُمَكِّنُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّعَدَّى عَلَى الضَّعْفَاءِ . وَلَا يَشِيرُهُ الْعُنْفُ : لَا يَهَيِّجُ غَضَبَهُ عُنْفٌ وَقَسْوَةٌ . وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ ، أَيْ لَيْسَ عَاجِزًا .

ثُمَّ أَمْرُهُ أَنْ يَلِصِقَ بِذَوِي الْأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبَيْتَاتِ ، أَيْ يَكْرُمُهُمْ وَيَجْعَلُ مَعُولَهُ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَعَدَّاهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَكَانَ يُقَالُ : عَلَيْكُمْ بِذَوِي الْأَحْسَابِ ؛ فَإِنْ هُمْ لَمْ يَتَكْرَّمُوا اسْتَحْيَوْا^(٢) .

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُمْ أَهْلَ الشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّهَا جَمَاعٌ مِنَ الْكُرَمِ ، وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ ؛ مِنْ هَاهُنَا زَائِدَةٌ ؛ وَإِنْ كَانَتْ فِي الْإِيجَابِ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَخْفَشِ ، أَيْ جَمَاعِ الْكُرَمِ ، أَيْ يَجْمَعُهُ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « الْخَمْرُ جَمَاعُ الْإِثْمِ » . وَالْعُرْفُ : الْمَعْرُوفُ .

وَكَذَلِكَ « مَنْ » فِي قَوْلِهِ : « وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ » أَيْ وَشُعْبُ الْعُرْفِ ، أَيْ هِيَ أَقْسَامُهُ وَأَجْزَاؤُهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ « مَنْ » عَلَى حَقِيقَتِهَا لِلتَّيْعِيزِ ، أَيْ هَذِهِ الْخِلَالُ جَمْلَةٌ مِنَ الْكُرَمِ وَأَقْسَامُ الْمَعْرُوفِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَيْرُهَا أَيْضًا مِنَ الْكُرَمِ وَالْمَعْرُوفِ ، وَنَحْوُ الْعَدْلِ وَالْعَفَّةِ .

قَوْلُهُ : « ثُمَّ تَفَقَّدَ مِنْ أُمُورِهِمُ » الضَّمِيرُ هَاهُنَا يَرْجِعُ إِلَى الْأَجْنَادِ لَا إِلَى الْأُمَرَاءِ لِمَا سَنَذْكُرُهُ ؛ بَلَّ يَدُلُّ الْكَلَامُ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قُلْتُ : إِنَّهُ لَمْ يَجْزِ لِلْأَجْنَادِ ذِكْرُهُ فِيمَا سَبَقَ ؛ وَإِنَّمَا الْمَذْكُورُ الْأُمَرَاءُ ! قُلْتُ : كَلَّا بَلْ سَبَقَ ذِكْرُ الْأَجْنَادِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « الضَّعْفَاءُ وَالْأَقْوِيَاءُ » .

(١) د : « يَرَأْفُ » ، تَحْرِيفٌ . .

(٢) د : « اسْتَحْسَبُوا » ، ب : « اسْتَحَبُّوا » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي أ .

وأمره عليه السلام أن يتفقد من أمور الجيش ما يتفقد الوالدان من حال الوالد : وأمره ألا يعظم عنده ما يقو بهم به وإن عظم ، وألا يستحقير شيئاً تعهد بهم به وإن قل ، وألا يمنعه تفقد جسم أمورهم عن تفقد صغيرها . وأمره أن يكون أثر رءوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه من وإساهم في معونته ؛ هذا هو الضمير الدال على أن الضمير المذكور أولاً للجند لا لأمراء الجند ؛ لولا ذلك لما انتظم الكلام .

قوله : « من خلوف أهليهم » ، أى ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم . ثم قال : لا يصح نصيحة الجند لك إلا بحيطتهم على ولايتهم ؛ أى بتعطفهم عليهم وتحننهم ، وهى الحيلة على وزن الشيمة ، مصدر حاطه يحوطه حوطاً وحياطاً ، وحيلة ، أى كلاًه ورعاه ، وأكثر الناس يروونها « إلا بحيطتهم » بتشديد الياء وكسرها ، والصحيح ما ذكرناه .

قوله : « وقلة استئقال دؤلهم » ؛ أى لا تصح نصيحة الجند لك إلا إذا أحبوا أمراءهم ثم لم يستئقلوا دؤلهم ؛ ولم يتمنوا زوالها . ثم أمره أن يذكر فى المجالس والمحافل بلاء ذوى البلاء منهم ؛ فإن ذلك مما يرهف عزم الشجاع ويحرك الجبان .

قوله : « ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره » ، أى اذكر كل من أبلى منهم مفرداً غير مضموم ذكر بلائه إلى غيره ، كى لا يكون منموراً فى جنب ذكر غيره .

ثم قال له : لا تعظم بلاء ذوى الشرف لأجل شرفهم ، ولا تحقر بلاء ذوى الضمة لضمة أنسابهم ، بل اذكر الأمور على حقائقها . ثم أمره أن يرد إلى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب ؛ أى ما يثوده ويميله

ثقله ، وهذه الرواية أصحّ من رواية من رواها بالظاء ؛ وإن كان لتلك وجه .

[رسالة الإسكندر إلى أرسطو وردّ أرسطو عليه]

وينبئ أن نذكر في هذا الموضع رسالة أرسطو إلى الإسكندر في معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوى الأحساب ، وأن يخصّهم بالرياسة والإمرة ؛ ولا يعدل عنهم إلى العامة والسفلة ، فإن في ذلك تشييداً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ووصيته .

لما ملك الإسكندر إيران شهر - وهو العراق مملكة الأكاسرة - وقتل دارا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو ببلاد اليونان :

عليك أيّها الحكيم منّا السلام ، أما بعد فإن الأفلاك الدائرة ، والعلل السماوية ؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبح الناس لنا بها دائبين ، فإننا جدّ وإجدين لمسّ الاضطراب إلى حكمتك ، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك ، والاستنامة^(١) إلى مشورتك والاقتداء برأيك ؛ والاعتماد لأمرك ونهيك ، لِمَا بلوّنّا من جدّا ذلك علينا ، وذقنا من جنّا منفعتك ، حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسّخه في أذهاننا وعقولنا كالغذاء لنا ، فما نفكّ نعوّل عليه ، ونستمدّ منه استمداد الجدّاء من البحور ، وتمويل الفروع على الأصول ، وقوّة الأشكال بالأشكال . وقد كان مما سيق إلينا من النصر والفلج ، وأتيح لنا من الظفر ، وبلغنا في العدو من النكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه ، ويقصّر شكر المنعم عن موقع الإنعام به ، وكان من ذلك أننا جاوزنا أرض سورية والجزيرة إلى بابل وأرض فارس ، فلما حللنا بقوة^(٢) أهلها وساحة بلادهم ، لم يكن إلّا ريثما تلقّانا نقرّ منهم برأس ملكهم هدية إلينا ، وطلباً للحظوة عندنا ، فأمرنا بصلب من

(١) كذا في ١ ، واستنّام إلى الأمر : سكن إليه ؛ وفي ب : « الاستبانة » .

(٢) القوة : ماحول الدار .

جاء به وشهرته لسوء بلائه ، وقلة اروعائه ووفائه ؛ ثم أمرنا بجمع مَنْ كان هناك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوى الشرف منهم ؛ فرأينا رجالاً^(١) عظيمةً أجسامهم وأحلامهم ، حاضرةً ألبابهم وأذهانهم ، رائعةً مناظرهم ومناطقهم ، دليلاً على أن ما يظهر من روائهم ومنطقهم أن وراءه من قوة أيديهم ، وشدة نبجدهم وبأسهم ما لم يكن ليكون لنا سبيل إلى غلبتهم وإعطائهم بأيديهم ، لولا أن القضاء أدالنا منهم ، وأظفروا بهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم ترَ بعيداً من الرأى في أمرهم أن نستأصل شأقهم ، ونبحث أصلهم ، ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم ، لتسكن القلوب بذلك الأمن إلى جرائهم وبوائقهم ؛ فرأينا ألا نعجل بإسعادٍ بادية الرأى في قتلهم دون الاستظهار عليهم بمشورتك فيهم . فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بعد صحتته عندك ، وتقليك إياه بجلى نظرك ، وسلام أهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب إليه أرسطو :

الملك الملوك ، وعظيم العطاء ، الإسكندر المؤيد بالنصر على الأعداء ، المهدي له الظفر بالملوك ، من أصغر عبده وأقل خوله ؛ أرسطو طاليس البخوع بالسجود والتذلل في السلام ، والإذعان في الطاعة :

أما بعد ، فإنه لا قوة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه ، واجتهد في تثقيف معانيه ، وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقل ماتناله القدرة من بسطة علو الملك وسمو ارتفاعه عن كل قول ، وإيرازه على كل وصف ، واغترافه بكل إطناب . وقد كان تقرر عندي من مقدمات إعلام فضل الملك في سهلة سبقه ، وبروز شأوه ، ويؤمن تقيته ، منذ أدت إلى حاسة بصري صورة شخصه ، واضطرب في حس سمعى صوت لفظه ، ووقع وهمي

(١) ب : « رجالة » .

على تعقيب نجاح رأيه ، أيام كنت أودى إليه من تكلف تعليمي إياه ما أصبحت قاضيا على نفسي بالحاجة إلى تعلمه منه . ومهما يكن مني إليه في ذلك ، فإنما هو عقل مردود إلى عقله ، مستنبطة أواليه وتواليه من علمه وحكمته . وقد جلا إلى كتاب الملك ومخاطبته إياي ومسألته لي عما لا يتخالجي الشك في لقاح ذلك وإنتاجه من عنده ، فعنه صدر وعليه ورد ؛ وأنا فيما أشير به على الملك - وإن اجتهدت فيه واحتشدت له ، وتجاوزت حدّ الوسع والطاقة مني في استنظافه واستقصائه - كالعدم مع الوجود ، بل كما لا يتجزأ في جنب معظم الأشياء ، ولكني غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل ، مع علمي ويقيني بعظيم غناه عني ، وشدة فاقتي إليه ، وأنا رادّ إلى الملك ما اكتسبته منه ، ومشير عليه بما أخذته ، منه فقاتل له :

إن لكل تربة لا محالة قسماً من الفضائل ، وإن لفارس قسمها من النجدة والقوة ، وإنك إن تقتل أشرافهم تخلف الوضاء على أسقابهم ، وتورث سفلتهم على منازل عليتهم ، وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم ؛ ولم يتتل الملوك قطّ بلاء هو أعظم عليهم وأشدّ توهيناً لسلطانهم من غلبة السفلة ، وذلك الوجوه ، فاحذر الحذر كله أن تمكن تلك الطبقة من الغلبة والحركة ، فإنه إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجم دهمهم منه ما لا روية فيه ، ولا بقية معه ؛ فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من أولئك العطاء والأحرار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحيته ، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه ، فإن التسمي بالملك لازم لاسمه ، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره ، فليس ينشب (١) ذلك أن يوقع كل ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطماً وتغالبا على الملك ، وتفاخراً بالمال والجند ؛ حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك ، ويعود حربهم لك حرباً

بينهم ، وحنقهم عليك حنقاً منهم على أنفسهم ، ثم لا يزدادون في ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها استقامة ؛ إن دنوت منهم دانوا لك ، وإن نأيت عنهم تعزّزوا بك ، حتى يشب من ملك منهم على جاره باسمك ، ويستره به بجندك ، وفي ذلك شاغل لهم عنك ، وأمان لإحداهم بعدك ، وإن كان لا أمان للدهر ، ولا ثقة بالأيام .

قد أدّيتُ إلى الملك ما رأيته لى حظاً ، وعلى حقاً ، من إجابتي إتياء إلى ما سألتني عنه ، ومحضته النصيحة فيه ، والملك أعلى غيناً ، وأقْدُ رويةً ، وأفضل رأياً ، وأبعد همّة فيما استعان بي عليه ؛ وكلفني بتبيينه والمشورة عليه . لا زال الملك متعرّفاً من عوائد النعم وعواقب الصنع ، وتوطيد الملك ، وتنفيس الأجل ، ودرك الأمل ، ما تأتي فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر !

والسلام الذي لا انتضاء له ، ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .
قالوا : فعمل الملك برأيه ، واستخلف على إيران شهر أبناء الملوك والعظماء من أهل فارس ، فهم ملوك الطوائف الذين بقوا بعده ؛ والمملكة موزعة بينهم إلى أن جاء أردشير ابن بابك فانزع الملك منهم .

الأضل :

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك ، بمن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزلّة ، ولا يحرص من الفئ إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأذني فهم دون أقصاه . وأوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرّماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم

عَلَى تَكْشِفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ انْتِصَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزِدْهِهِ إِطْرَافٌ ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَافٌ ، وَأَوَّلُكَ قَلِيلٌ .

ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَدْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ ، وَثَقُلَ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .

الشَّنْخُ :

تَمَحَّكَهُ الْخُصُومُ : تَجْعَلُهُ مَاحِكًا ، أَيْ لُجُوجًا ، مَحْكُ الرِّجْلِ ، أَيْ لَجٍّ ، وَمَاحِكٌ زَيْدٌ عَمْرًا ؛ أَيْ لَاجَهُ .

قوله : « وَلَا يَتِمَادِي فِي الزَّلَّةِ » ، أَيْ إِنْ زَلَّ رَجَعَ وَأُنَابَ ، وَالرَّجْعُ إِلَى الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ .

قوله : « وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْغَيِّ » هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ بَيْنَهُ ، وَالْغَيُّ : الرَّجُوعُ ، إِلَّا أَنَّهَا هُنَا زِيَادَةٌ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَحْصَرُ ، أَيْ لَا يَمْنَعُ فِي الْمَنْطِقِ ، لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا زَلَّ حَصِرَ عَنْ أَنْ يَرْجِعَ وَأَصَابَهُ كَالْفَهَاهَةِ وَالْمَيَّ خَجَلًا .

قوله : « وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ » ، أَيْ لَا تَشْفَقُ . وَالْإِشْرَافُ : الْإِشْفَاقُ وَالْخَوْفُ ، وَأُنْشِدَ اللَّيْثُ :

وَمِنْ مُضَرِّ الْجَرَاءِ إِسْرَافُ أَنْفُسِهِ عَلَيْنَا وَحَيَاهَا عَلَيْنَا تَمْضَرًا

وقال عروة بن أذينة :

لقد عَلِمْتُ وما الإشرافُ من خُلُقٍ أنّ الذي هو رزقٌ سوفَ يَأْتِينِي^(١)

والمعنى : ولا تشفق نفسك ، وتخاف من فوت المنافع والمرافق .

ثم قال : « ولا يكتفى بأدنى فهم » ، أى لا يكون قانعاً بما يخطر له بآدى الرأى من أمر الخصوم ، بل يستقصى ويبحث أشدّ البحث .

قوله : « وأقلهم تبرُّماً بمراجعة الخصم » ، أى تضجُّراً ، وهذه الخصلة من عاسن ما شرطه عليه السلام ، فإنّ القلق والصجر والتبرُّم قبيح ، وأقبح ما يكون من القاضى .

قوله : « وأصرهم » ، أى أقطعهم وأمضاهم . وازدهاه كذا ، أى استخفّه . والإطراء : المدح . والإغراء : التحريض .

ثم أمره أن يتطلّع على أحكامه وأقضيته ، وأن يفرض له عطاء واسماً يملأ عينه ، ويتعقّف به عن المرافق والرّشوات ، وأن يكون قريب المكان منه ، كثير الاختصاص به لينعّ قربه من سعاية الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده .

ثم قال : « إنّ هذا الدّين قد كان أسيراً » ، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه ، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده ، بل بالهوى لطلب الدنيا .

وأما أصحابنا فيقولون : رحم الله عثمان ! فإنه كان ضعيفاً ، واستولى عليه أهله ، قطعوا الأمور دونه ، فأثمهم عليهم وعثمان برىء منهم .

[فصل فى القضاة وما يلزمهم وذ كر بعض نواذرهم]

قد جاء فى الحديث المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » . وجاء فى الحديث المرفوع أيضا : « من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظة وإشارته ومجلسه ومقعدته » .

دخل ابن شهاب على الوليد - أو سليمان - فقال له : يا بن شهاب ، ما حديث يرويه أهل الشام ؟ قال : ماهو يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنهم يروون أن الله تعالى إذا استرعى عبدا رعية كتب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات ، فقال : كذبوا يا أمير المؤمنين ، أيما أقرب إلى الله ؛ نبي أم خليفة ! قال : بل نبي ؛ قال : فإنه تعالى يقول لنبيه داود : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) . فقال سليمان : إن الناس ليغرؤننا عن ديننا .

وقال بكر بن عبد الله العدوي لابن أرمطة - وأراد أن يستقضيّه : والله ما أحسن القضاء ، فإن كنت صادقا لم يحلّ لك أن تستقضي من لا يحسن ، وإن كنت كاذبا فقد فسقت ، والله لا يحلّ أن تستقضي الفاسق .

وقال الزهري : ثلاث إذا كنّ فى القاضى فليس بقاضٍ ، أن يكره اللائمة ، ويحبّ المحمّدة ، ويخاف العزل .

وقال محارب بن زياد للأعمش : وليت القضاء فبكى أهلى ، فلما عزلت بكى أهلى ، فما أدرى رمّ ذلك ؟ قال : لأنك وليت القضاء وأنت تكرهه وتجزع منه ،

(١) سورة ص ٢٦ .

فبكي أهلك لجزعك ، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت فبكي أهلك لجزعك . قال : صدقت .

أتى ابنُ شُبْرمة يقوم يشهدون على قراح^(١) نخل ، فشهدوا - وكانوا عدولا - فامتنحهم فقال : كم في القراح^(٢) من نخلة ؟ قالوا : لا نعلم ، فردَّ شهادتهم ، فقال له أحدهم : أنت أيها القاضي تقضى في هذا المسجد منذ ثلاثين سنةً ، فأعلمنا كم فيه من أسطوانة ؟ فسكت وأجازهم .

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة يتلقى الخيزران ، وقد أقبلت تريد الحج ، وقد كان استقضى وهو كاره ، فأتى شاهي^(٣) ، فأقام بها ثلاثا ، فلم تواف ، فخفَّ زاده وما كان معه ، فجعل يبله بالماء ويأكله بالملح ، فقال العلاء بن المهthal الغنوي :

فإن كان الذي قد قلتَ حقاً بأن قد أكرهوك على القضاء^(٤)
فما لك مَوْضِعاً في كلِّ يومٍ تلقى من يحجُّ من النساء
مُقِماً في قُرى شاهي ثلاثا بلا زادٍ سوى كِسْرٍ وماء !

وتقدّمتْ كلثُم بنت سريع مولى عمرو بن حريث - وكانت جميلة - وأخوها الوليد ابن سريع إلى عبد الملك بن عُمر ؛ وهو قاضٍ بالكوفة ، فقضى لها على أخيها ، فقال هُذَيْل الأشجعي :

أتاه وليدٌ بالشهود يسوقهم على ما ادّعى من صامتِ المالِ والخلولِ
وجاءت إليه كلثُم وكلامُها شفاءً من الداءِ المخامرِ والخبَلِ
فأدلى وليدٌ عند ذاك بحقه وكان وليدٌ ذا مرأٍ وذا جدلِ
فدلت القبطى حتى قضى لها بغير قضاء الله في مُحْكَم الطولِ

(١) الفراح هنا : البستان ، وانظر ياقوت (قرح) . (٢) شاهي : موضع قرب القادسية .

(٣) الخبر والأبيات في معجم البلدان ٥ : ٢٢٤ .

فلو كان مَنْ في القصر يَعْلَمُ علمَه لما أَسْتَعْمَلَ القِبْطِيُّ فِينَا على عَمَلٍ
له حين يَقْضِي للنِّسَاءِ تَخَاوُصُ وكان وما فيه التَّخَاوُصُ وَالْحَوْلُ
إِذَا ذَاتُ دَلٍّ كَلَّمْتَهُ لِحَاجَةٍ فهمُ بَأَن يَقْضِي تَنْجَنَحَ أو سَعَلَ
وَبَرَّقَ عَيْنِيهِ وَلَاكَ لِسَانُهُ يرى كلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا وَصَلِيهَا جَلَلُ
وكان عبدُ الملكِ بنِ عمير يقول: لعن الله الأشجعيَّ ، والله لربَّما جاءَتْني السَّعْلَةُ والنَّجْنَحَةُ
وأنا في المتوضَّاء فأردَّها لما شاعَ من شِعْرِهِ .

كتب عمر بنُ الخطَّابِ إلى معاوية : أمَّا بعد ، فقد كتبتُ إليك في القضاء بكتاب لم
آلُكَ ونَفْسِي فيه خيراً ؛ الزَّمَ خمسَ خِصالٍ يَسْلَمُ لكَ دينُكَ ، وتأخذُ بأفضلِ حظِّكَ : إذا تقدَّم
إليك الخصمانِ فعليك بالبيِّنة العادلةِ أو اليمينِ القاطعة ، وأدِّنِ الضَّعِيفَ حتَّى يشتدَّ قلبُه وينبسطَ
لسانُه ، وتعهدَ الغريبَ فإنَّكَ إن لم تتعهده تركَ حقَّه ورجعَ إلى أهله ؛ وإِنَّمَا ضَيِّعَ حقَّه من لم
يُرفَقَ به ، وآسَ بينَ الخصومِ في لحظِّكَ ولَفْظِّكَ ، وعليكَ بالصِّلحِ بينَ الناسِ ما لم يَسْتَبِينَ
لك فصل القضاء .

وكتب عمر إلى شريح : لا تسارِر ولا تُضارِر ، ولا تَبِيع ولا تَبْتِيع في مجلسِ القضاء ،
ولا تَقْضُ وَأَنْتَ غَضْبَانُ ، ولا شديدُ الجوع ، ولا مشغولُ القلب .

شهد رجل عند سوَّار القاضي ، فقال : ما صناعتُكَ ؟ فقال : مؤدِّبٌ ؛ قال : أنا لا أُجِيزُ
شهادتَكَ ؛ قال : ولم ؟ قال : لأنَّكَ تأخذُ على تعليمِ القرآنِ أجراً ، قال : وأنتَ أيضاً تأخذُ على
القضاءِ بينَ المسلمينِ أجراً ، قال : إنَّهم أكرهوني ؛ قال : نعم أكرهوك على القضاء ، فهل
أكرهوك على أخذِ الأجرِ ! قال : هلمَّ شهادتَكَ .

ودخل أبو دُلَامة ليشهدَ عند أبي ليلى ، فقال حين جلسَ بين يديه :

إذا الناسُ غَطَّوْني تَغَطَّيْتُ عَنْهُمْ وإنْ بَحْثُوا عَنِّي ففِيهِمْ مَبَاحِثُ^(١)

(١) الأغاني ١٠ : ٢٣٤ ، وفيه « إن الناس » .

وإن حَفَرُوا بَرَى حَفَرْتُ بِثَارِهِمْ ليعلم ما تُخفيه تلك النَّبَّاتُ
فقال : بل نعطيك يا أبادُلَامَة ولا نبحتك ؛ وصرَفَه راضياً ، وأعطى المشهود عليه من
عنده قيمة ذلك الشيء .

كان عامرُ بْنُ الظَّرْبِ العدوانيَّ حاكمَ العرب وقاضيها ، فنزل به قوم يسيفتونه في الخنثى
وميراثه ؛ فلم يدِرْ ما يَقْضِي فيه ، وكان له جارية اسمها خَصِيلَة ، ربّما لامها في الإبطاء عن
الرَّعْيِ وفي الشيء يجذّه عليها ، فقال لها : يا خَصِيلَة ، لقد أسرع هؤلاء القومُ في غنمي ،
وأطالوا المكث ؛ قالت : وما يكبرُ عليك من ذلك ؟ اتبعه مباله وخالك ذم ، فقال لها :
« مَسَى ^(١) خَصِيلُ بعدها أو رُوحى » .

وقال أعرابيٌّ لقوم يتنازعون : هل لكم في الحقّ أو ما هو خير من الحقّ ؟ قيل :
وما الذي هو خيرٌ من الحقّ ؟ قال : التحاطّ والهضم ؛ فإن أخذ الحقّ كلّ مرّة .
وعزل عمرُ بْنُ عبد العزيز بعضَ قضاّته ، فقال : لم عزلتني ؟ فقال : بلغني أنّ كلامك
أكثرُ من كلام الخصمين إذا تحاكما إليك .

ودخل إياسُ بْنُ معاويةَ الشام وهو غلام ، فقدمَ حصّاً إلى باب القاضي في أيام عبد الملك ،
فقال القاضي : أما تستحي ! تخاصم وأنت غلامٌ شيخاً كبيراً ؟ فقال : الحقّ أكبرُ منه ،
فقال : اسكتْ وَيَحْك ! قال : فن ينطق بحجّتي إذا ! قال : ما أظنّك تقول اليوم حقّاً حتى
تقوم ؛ فقال : لا إلَهَ إِلَّا اللهُ . فقام القاضي ودخل على عبد الملك وأخبره ، فقال : افض
حاجّته وأخرجّه من الشام كي لا يُفسد علينا الناس .

وأختصم أعرابيٌّ وحَضَرِيٌّ إلى قاضي ، فقال الأعرابيٌّ : أتيها القاضي ، إنه وإن هملَجَ ^(٢)
إلى الباطل ، فإنه عن الحقّ لَمَطُوف .

وردّ رجلٌ جاريةً على رجلٍ اشتراها منه بالحمق ، فترافعا إلى إياسِ بْنِ معاوية ،

(١) في مجمع الأمثال ٢: ٢٩٥ « مَسَى سَخِيلُ بعدها أو صَبَحِي » . (٢) هملج : أسرع .

فقال لها إياس : أئى رجليك أطول ؟ فقالت : هذه ، فقال : أتذكرين ليلة ولدتك أمك ؟
قالت : نعم ، فقال إياس : ردّ ردّ !

وجاء فى الخبر المرفوع من رواية عبد الله بن عمر : « لا قدّست أمةٌ لا يُقضَى فيها بالحقّ » ؛ ومن الحديث المرفوع من رواية أبى هريرة : « ليس أحدٌ يحكم بين الناس إلّا جىء به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه ، فكّه العدل ، وأسلمه الجور » .

وأستعدى رجلٌ على عليّ بن أبى طالب عليه السلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلىّ جالس ، فالتفت عمرُ إليه ، فقال : قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك ، فقام فجلس معه وتناظرا ؛ ثم أنصرف الرجل ورجع علىّ عليه السلام إلى محله ، فتبين عمر التغيّر فى وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ، مالى أراك متغيّراً ! أكرهت ما كان ؟ قال : نعم ، قال : وماذا ؟ قال : كنتى بحضرة خصمى ، هلاقت : قم يا علىّ فأجلس مع خصمك ! فاعتنق عمرُ عليّاً ، وجعل يقبل وجهه ، وقال بأبى أنتم ! بكم هداانا الله ، وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور .

أبان بن عبد الحميد اللاحق فى سوار بن عبد الله القاضى :

لا تقدح الظنّة فى حكمه شيمته عدلٌ وإنصافٌ
يمضى إذا لم تلقه شبهة وفى اعتراض الشك وقافٌ

كان ينفد رجلٌ يذكر بالصّلاح والزهد يقال له رُويم ، فوُلّى القضاء ، فقال الجنيد : من أراد أن يستودع سرّه من لا يفشيه فعليه رُويم ، فإنّه كتم حبّ الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها .

الأشهب الكوفى :

يا أهل بغداد قد قامت قيامتكم مذ صار قاضيكُم نوح بن درّاج
لو كان حيّاً له الحجاج ما سلّم صحبةً يده من وسّم حجاج

وكان الحجاج يسم أيدي النبط بالمِشراط والنَّيل .
 لما وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شريح القضاء وقال : لا أقضي في الفتنة ؛ فبقى
 لا يقضي تسع سنين ، ثم عاد إلى القضاء وقد كبرت سنه ، فاعترضه رجل وقد أنصرف من
 مجلس القضاء ، فقال له : أما حان لك أن تخاف الله ! كبرت سنك ، وفسد ذهنك ،
 وصارت الأمور تهجز عليك ، فقال : والله لا يقولها بمدك لي أحد . فلزم بيته
 حتى مات .

قيل لأبي قلابة وقد هرب من القضاء : لو أجبت ؟ قال : أخاف الهلاك ، قيل :
 لو أجهدت لم يكن عليك بأس ؛ قال : ويحكم ! إذا وقع الساج في البحر كم عسى
 أن يسبح !

دعا رجل لسلیمان الشاذ كوني ، فقال : أرانيك الله يا أبا أيوب على قضاء إصبهان !
 قال : ويحك ! إن كان ولا بد فعلى خراجها ، فإن أخذ أموال الأغنياء أسهل من أخذ
 أموال الأيتام .

ارتفعت جميلة بنت عيسى بن جراد - وكانت جميلة كاسمها - مع خصم لها إلى الشعبي -
 وهو قاضي عبد الملك - فقضى لها ، فقال هذيل الأشجعي :

فَنَ الشَّعْبِيُّ لَمَّا رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا
 فَتَنَّتْهُ بَنَائِيهَا هَا وَقَوَّسِي حَاجِبَيْهَا
 وَمَشَتْ مَشْيًا رَوِيدًا ثُمَّ هَزَّتْ مِنْكِيبَيْهَا
 فَقَضَى جَوْرًا عَلَى الْخَطِّ سَمٍ وَلَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا

فقبض الشعبي عليه وضربه ثلاثين سوطا .

قال ابن أبي ليلى : ثم انصرف الشعبي يوما من مجلس القضاء وقد شاعت الآيات .

وَتَنَاشَدُهَا النَّاسُ ، وَنَحْنُ مَعَهُ ، فَرَرْنَا بِخَادِمٍ تَغْسِلُ الثِّيَابَ ، وَتَقُولُ :

* فُتِنَ الشَّعْبُ لَمَّا *

وَلَا تَحْفَظُ تَتَمَّةَ الْبَيْتِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا وَلَقَّنَهَا ، وَقَالَ :

* رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا *

ثُمَّ ضَحِكَ وَقَالَ : أَبْعَدَهُ اللَّهُ ! وَاللَّهِ مَا قَضَيْنَا ^(١) لَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ .

جَاءَتْ أَمْرَأَةً إِلَى قَاضٍ فَقَالَتْ : مَاتَ بَنِيَّ وَتَرَكَ أَبُوَيْنِ وَأَبْنَا وَبَنَى عَمِّ ، فَقَالَ الْقَاضِي :
لَأَبُوِيهِ الشُّكْلُ ، وَلَأَبْنَاهُ الْيَتَمُ ، وَلَكَ اللَّائِمَةُ ، وَلِبَنِي عَمِّهِ الدَّلَّةُ ، وَأَحْمِلِي الْمَالَ إِلَيْنَا إِنْ أَنْ
تَرْتَفِعِ الْخُصُومُ !

لَقِيَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ شَرِيكَاً بَعْدَ مَا أُسْتُقْضِيَ ، فَقَالَ لَهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالْفِقْهِ
وَالصَّلَاحِ تَلَى الْقَضَاءُ ! قَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَهَلْ لِلنَّاسِ بَدٌّ مِنْ قَاضٍ ! قَالَ : وَلَا بَدٌّ يَا أَبَا
عَبْدِ اللَّهِ لِلنَّاسِ مِنْ شُرَاطِي .

وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ بْنُ حَيٍّ يَقُولُ لَمَّا وَلَّى شَرِيكَ الْقَضَاءِ : أَيُّ شَيْخٍ أَفْسَدُوا !
قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، اعْقِلْ ^(٢)
مَا أَقُولُ لَكَ ؛ جَعَلَ يَرُدُّهَا عَلَى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ قَالَ لِي فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ : أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي
سَرِيرَتِكَ وَعَلَانِيَتِكَ ، وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ ، وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا شَيْئًا وَلَوْ سَقَطَ سَوْطُكَ ،
وَلَا تَتَقَلَّدَنَّ أَمَانَةً ، وَلَا تَلِينَ وَلَايَةً ، وَلَا تَكْفُلَنَّ يَتِيمًا ، وَلَا تَقْضِينَ بَيْنَ اثْنَيْنِ .

أَرَادَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ أَنْ يَسْتَقْضِيَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ، فَقَالَ لَهُ : أَلَسْتَ قَدْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « مِنْ أَسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَقَدْ عَاذَ بِعَمَادٍ ! » ، قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنِّي أَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْكَ أَنْ تَسْتَقْضِيَنِي .

(١) ١ ، د : « قَضِيَتْ » ، وَأَثْبَتَ مَا فِي د . (٢) ف : د : « افْعَل » .

وقد ذكر الفقهاء في آداب القاضي^(١) أموراً، قالوا: لا يجوز أن يقبل هدية في أيام القضاء إلا ممن كانت له عادة يهدي إليه قبل أيام القضاء ، ولا يجوز قبولها في أيام القضاء ممن له حكومة وخصومة ، وإن كان ممن له عادة قديمة ، وكذلك إن كانت الهدية أنهس وأرفع مما كانت قبل أيام القضاء لا يجوز قبولها . ويجوز أن يحضر القاضي الولائم ، ولا يحضر عند قوم دون قوم ؛ لأن التخصيص يشعر بالميل ، ويجوز أن يعود المريض ، ويشهد الجنائز ، ويأتي مقدم الغائب . ويكره له مباشرة البيع والشراء . ولا يجوز أن يقضي وهو غضبان ولا جائع ولا عطشان ، ولا في حال الحزن الشديد ، ولا الفرج الشديد ، ولا يقضي والنماس يغلبه ، والمرض يغلظه ، ولا وهو يدافع الأختين ، ولا في حرٍّ مريع ، ولا في بردٍ مريع . وينبغي أن يجلس للحكم في موضع بارز يصل إليه كل أحد ، ولا يحتجب إلا لعذر . ويستحب أن يكون مجلسه فسيحاً لا يتأذى بذلك هو أيضاً . ويكره الجلوس في المساجد للقضاء ، فإن احتاج إلى وكلاء جاز أن يتخذهم ويوصيهم بالرفق بالخصوم . ويستحب أن يكون له حبس ، وأن يتخذ كاتباً إن احتاج إليه ؛ ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يكتب به عن القضاء .

وأختلف في جواز كونه ذمياً ؛ والأظهر أنه لا يجوز . ولا يجوز أن يكون كاتبه فاسقاً ، ولا يجوز أن يكون الشهود عنده قوماً معينين ، بل الشهادة عامة فيمن أستكمل شروطها .

الأفضل :

ثم انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختياراً ، ولا تولهم محاباةً وأثرةً ، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة . وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدم ، فإنهم أكرم أخلاقاً ، وأصح أعراضاً ، وأقل في المطامع إشفاقاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً .

(١) كذا في ١ ، وهو الصواب وفي ب : « القضاء » .

ثُمَّ أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ تَلَمَّعُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدَ أَعْمَالَهُمْ، وَابْتَسَّ الْعَيُونُ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدُودٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرَّقْفِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفُّظِ مِنَ الْأَعْوَانِ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عِيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ تَصَبَّتُهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتُهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التَّهْمَةِ.

الشيخ :

لَمَّا فَرَغَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِ الْقَضَاءِ، شَرَعَ فِي أَمْرِ الْعَمَالِ، وَهُمْ عَمَالُ السَّوَادِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْوُقُوفِ وَالْمَصَالِحِ وَغَيْرِهَا، فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُمْ بَعْدَ اخْتِبَارِهِمْ وَتَجَرِبَتِهِمْ، وَأَلَّا يُولِّيَهُمْ مَحَابَةً لَهُمْ، وَلَنْ يَشْفَعَ فِيهِمْ، وَلَا أَثَرَةٌ وَلَا إِنِاعًا عَلَيْهِمْ. كَانَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْفُرَاتِ يَقُولُ : الْأَعْمَالُ لِلْكُفَاةِ مِنْ أَصْحَابِنَا، وَقَضَاءُ الْحَقُوقِ عَلَى خَوَاصِّ أَمْوَالِنَا.

وَكَانَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ يَقُولُ : مَنْ تَسَبَّبَ إِلَيْنَا بِشَفَاعَةٍ فِي عَمَلٍ، فَقَدْ حَلَّ عِنْدَنَا مَحَلٌّ مِنْ يَنْهَضُ بغيره، وَمَنْ لَمْ يَنْهَضْ بِنَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ لِلْعَمَلِ أَهْلًا.

وَوَقَعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي رُقْعَةٍ مَتَحَرِّمٍ بِهِ : هَذَا فَتَى لَهُ حُرْمَةُ الْأَمَلِ، فَامْتَحَنَهُ بِالْعَمَلِ؛ فَإِنْ كَانَ كَافِيًا فَالْسلطانُ لَهُ دُونُنَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا فَنَحْنُ لَهُ دُونَ السُّلْطَانِ.

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَإِنَّهُمَا - يَعْنِي اسْتِعْمَالَهُمَ لِلْمَحَابَةِ وَالْأَثَرَةِ - جَمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ ». وَقد تقدَّم شرحٌ مثل هذه اللفظة، والمعنى أن ذلك يجمع ضروباً من الجور والخيانة. أَمَّا الْجَوْرُ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ عَدَلَ عَنِ الْمُسْتَحَقِّ إِلَى غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ، فِي ذَلِكَ جَوْرٌ عَلَى الْمُسْتَحَقِّ،

وَأَمَّا الْخِيَانَةُ فَلَأَنَّ الْأَمَانَةَ تَقْتَضِي تَقْلِيدَ الْأَعْمَالِ الْكَفَاءِ ؛ فَمَنْ لَمْ يَعْتَمِدْ ذَلِكَ فَقَدْ خَانَ مَنْ وَلَّاهُ .

ثم أمره بتخيّر مَنْ قد جَرَّبَ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ وَالْأَشْرَافِ لَشِدَّةِ الْحِرْصِ عَلَى الشَّيْءِ وَالْخَوْفِ مِنْ فَوَاتِهِ .

ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم ؛ فَإِنَّ الْجَائِعَ لَا أَمَانَةَ لَهُ ؛ وَلَأَنَّ الْحِجَّةَ تَكُونُ لَازِمَةً لَهُمْ إِنْ خَانُوا ، لِأَنَّهُمْ قَدْ كَفُّوا مَوْثَنَ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ بِمَا فَرَضَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ ^(١) .

ثم أمره بالتطلّع عليهم وإذكاء ^(٢) العيون والأرصادِ على حركاتهم .

وحدوة باعث ، يقال : حداني هذا الأمرَ حَدْوَةً عَلَى كَذَا ؛ وَأَصْلُهُ سَوْقُ الْإِبِلِ ، وَيُقَالُ لِلشَّيْءِ حَدْوَاءٌ ؛ لِأَنَّهَا تَسُوقُ السَّحَابَ .

ثم أمره بمؤاخذه من ثبتتْ خيانتته واستعادة المال منه ؛ وَقَدْ صَنَعَ عَمْرٌ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ ؛ وَذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ .

قال بعض الأكسرة لعامل من عمّاله : كَيْفَ نَوْمُكَ بِاللَّيْلِ ؟ قَالَ : أَنَامُهُ كُلَّهُ ، قَالَ : أَحْسَنْتَ ! لَوْ سَرَقْتَ مَا نَمْتُ هَذَا النَّوْمَ .

الْأَفْضَلُ :

وَتَقَفَّدَ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ .

وَلَيْسَ كُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَ

(٢) في ١ ، د « وبث » .

(١) في د « الرزق » .

الْمِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكُوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً ، أَوْ انْقِطَاعَ شَرِبٍ ،
أَوْ بَالَةً ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْجَفَ بِهَا غَطَشٌ ؛ خَفَّتْ عَنْهُمْ
بِمَا تَرَجُّو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ .

وَلَا يَتَقَنَّ عَلَىكَ شَيْءٌ خَفَّتْ بِهِ الْمُؤُونَةُ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَمُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ
فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَرْيِينَ وَلَايَتِكَ ؛ مَعَ اسْتِجْلَالِكَ حُسْنِ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ
بِاسْتِغْنَاةِ الْمَدْلِ فِيهِمْ ؛ مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عَنْدهُمْ مِنْ إِجْمَاعِكَ لَهُمْ ؛
وَالثِّقَةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ
مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَمْدٍ احْتَمَلُوهُ ؛ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّ الْعُمَرَانَ مُحْتَمِلٌ
مَا سَمَلَتْهُ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِغْوَاظِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعْمِوزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ
أَنْفُسِ الْوَلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ ؛ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْمَبْرِ .

الْمَبْرِ :

انتقل عليه السلام من ذكر المال إلى ذكر أبواب الخراج ودَهَاقِينِ السَّوَادِ ، فقال :
تَفَقَّدَ أَمْرَهُمْ ، فَإِنَّ النَّاسَ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ ؛ وَكَانَ يُقَالُ : اسْتَوْصُوا بِأَهْلِ الْخَرَجِ ؛ فَإِنَّكُمْ
لَا تَرَالُونَ سَمَانًا مَا سَمِنُوا .

وَرُفِعَ إِلَى أَنْوَشِرْوَانَ أَنَّ عَامِلَ الْأَهْوَازِ قَدْ حَمَلَ مِنْ مَالِ الْخَرَجِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْمَادَةِ ؛
وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ قَدْ أَجْجَفَ بِالرَّعِيَةِ ، فَوَقَّعَ : يُرَدُّ هَذَا الْمَالُ عَلَى مَنْ قَدْ اسْتَوْفَى مِنْهُ ؛
فَإِنَّ تَكْثِيرَ الْمَلِكِ مَالَهُ بِأَمْوَالِ رَعِيَّتِهِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَحْصِنُ سَطُوحَهُ بِمَا يَقْتُلُهُ مِنْ قَوَاعِدِ
بَيْتَانِهِ .

وكان على خاتم أنوشروان: لا يكون عمران، حيث يجور السلطان..

وروى: «استحلاب الخراج» بالخاء.

ثم قال: «فإن شكوا ثِقَلًا»، أى ثقل طَسَق^(١) الخراج المضروب عليهم، أو ثقل وطأة العامل.

قال: «أو علة»، نحو أن يصيب العلة آفة كالجراد والبرق أو البرد.

قال: «أو انقطاع شرب»^(٢)، بأن ينقص الماء في النهر، أو تتعلق أرض الشرب عنه لفقد الحفر.

قال: «أو بالة»، يعنى المطر.

قال: «أو إحالة أرض اغتمرها غرق»، يعنى أو كَوْن الأرض قد حالت، ولم يحصل منها ارتفاع؛ لأنَّ الغرق غمرها وأفسد زرعها.

قال: «أو أجحف بها عطش»، أى أتلّفها.

فإن قلت: فهذا هو انقطاع الشرب؟

قلت: لا، قد يكون الشرب غير منقطع، ومع ذلك يُجحف بها العطش، بأن لا يكفيها الماء الموجود في الشرب.

ثم أمره أن يخفف عنهم متى لحقهم شيء من ذلك؛ فإنَّ التخفيف يُصلح أمورهم، وهو وإن كان يُدخل على المال نقصاً في العاجل إلا أنه يقتضى^(٣) توفير زيادة في الآجل؛ فهو بمنزلة التجارة التي لا بدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه.

(١) في اللسان عن التهذيب: «الطسق شبه الخراج له مقدار معلوم؛ وليس بعري خالص».

(٢) الشرب بالكسر: النصيب من الماء.

(٣) في د «يفضى إلى».

قال : « ومع ذلك فإنه يفضى إلى تزيين بلادك بمارتِها ، وإلى أنك تَبْخِج بين الولاية بإفاضة العدل في رعيتك معتمداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ » ؛ و« معتمداً » ، منصوب على الحال من الضمير في « خَفَّتْ ». الأولى ، أى خَفَّتْ عنهم معتمداً بالتخفيف فضل قُوَّتِهِمْ .

والإجماع : الترفيه .

ثم قال له : وربما احتجتَ فيما بعد إلى تكلفتهم بمحدث يحدث عندك المساعدة بحالٍ يقسطونه عليهم قرضاً أو معونة محضة ؛ فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك ، طيبة قلوبهم^(١) به .

ثم قال عليه السلام : فإن العمران محتمل ما حمله .

سمعت أبا محمد بن خُليد - وكان صاحب ديوان الخراج في أيام الناصر لدين الله - يقول لمن قال له : قد قيل عنك : إنَّ واسط والبصرة قد خربت لشدة العُنف بأهلها في تحصيل الأموال ! فقال أبو محمد : ما دام هذا الشطَّ بحاله ، واليُخْلُ نابتاً في منابته بحاله ، ما تحرب واسط والبصرة أبداً .

ثم قال عليه السلام : « إِنَّمَا تُتَوَكَّى الْأَرْضُ » ، أى إِنَّمَا تُدْهَى من إعواز أهلها ، أى من فقرهم .

قال : والموجب لإعوازهم طمعُ ولائهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم وسوء ظنهم بالبقاء يحتمل أن يريد به أنهم يظنون طول البقاء وينسون الموت والزوال . ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيلون العزل والصرف ، فيتميزون الفرص ، ويقتطعون الأموال ، ولا ينظرون في عمارة البلاد .

(١) في د « نفوسهم » .

[عهد سابور بن أردشير لابنه]

وقد وجدت في عهد سابور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العهد ؛ وهو قوله :

واعلم أن قوام أمرك بدور الخراج ، ودور الخراج بعمارة البلاد ، وبلوغ الغاية في ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم ، والمعونة لهم ؛ فإن بعض الأمور لبعض سبب ، وعوام الناس لخواصهم عداً ، وبكل صنف منهم إلى الآخر حاجة ، فاختر لذلك أفضل من تقدر عليه من كتابك ، وليكونوا من أهل البصر والعفاف والكفاية ، واسترسل إلى كل امرئ منهم شخصاً^(١) يضطلع به ويمكنه تمجيد الفراغ منه ؛ فإن اطلعت على أن أحداً منهم خان أو تعدى فنكل به ، وبالغ في عقوبته ؛ واحذر أن تستعمل على الأرض الكثير خراجها إلا البعيد الصوت ، العظيم شرف المنزلة . ولا تولين أحداً من قواد جندك الذين هم عداً للحرب ، وجنة من الأعداء ، شيئاً من أمر الخراج ؛ فلعلك تهجم من بعضهم على خيانة في المال ، أو تضيق للعمل ؛ فإن سوغته المال ، وأغضيت له على التضيق ، كان ذلك هلاكاً وإضراراً بك وبرعتك ، وداعية إلى فساد غيره ؛ وإن أنت كفايته فقد استفسدته ، وأضعت^(٢) صدره ، وهذا أمر توقيه حزم ، والإقدام عليه خرق ، والتقصير فيه عجز .

واعلم أن من أهل الخراج من يلجئ بعض أرضه وضياعه إلى خاصّة الملك وبطانته ؛ لأحد أمرين ؛ أنت حرى بكراهتهما : إما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة ؛ وتلك منزلة يظهر بها سوء أثر المال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، وإما للدفع عما يلزمهم

(١) في د « شقفا » . (٢) في د « وأضغت » .

من الحق والتيسر له ، وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية ، وتنتقص بها أموال الملك ، فاحذر ذلك ، وعاقب المتجشئين والملجأ إليهم .

ركب زياد يوما بالسوس يطوف بالضياح والزروع ، فرأى عمارة حسنة ، فتمعجب منها ، تخاف أهلها أن يزيد في خراجهم ، فلما نزل دعا وجوه البلد ، وقال : بارك الله عليكم ، فقد أحسنتم العمارة ، وقد وضعت عنكم مائة ألف درهم . ثم قال : ما توفر على من تهالك غيرهم على العمارة وأمنهم جورى أضعاف ما وضعت عن هؤلاء الآن ؛ والذي وضعته بقدر ما يحصل من ذاك ، وثواب عموم العمارة وأمن الرعية أفضل ربح .

الأفضل :

ثم انظر في حال كتابك ؛ فقل على أمورك خيرهم ، واخصص رسائك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك ، بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق بمن لا تبسطه الكرامة ، فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملا . ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك ، وفيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعف عقدا اعتقده لك ، ولا يمجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل .

ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستناعتك وحسن الظن منك ،

فَإِنَّ الرَّجَالَ يَتَمَرَّضُونَ لِإِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ؛ وَلَكِنْ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وَلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَاعْبُدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَأَعْرِفْهُمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ ، وَلِمَنْ وَلَّيْتَ أَمْرَهُ .

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ ؛ لَا يَقْهَرُهُ كِبَرُهَا ، وَلَا يَنْشَتُّ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ؛ وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ الزَّمَنَةُ .

[فصل فيما يجب على مصاحب الملك]

البُشْرُخُ :

لما فرغ من أمر الخراج ، شرع في أمر^(١) الكتاب الذين يكون أمر الحضرة ، ويترسلون عنه إلى عماله وأمرائه ، وإليهم معاهد التدبير وأمر الديوان ، فأمره أن يتخير الصالح منهم ، ومن يوثق على الاطلاع على الأسرار والمكاييد والحيل والتدبيرات ، ومن لا يبطله الإكرام والتقريب ، فيطمع فيجترأ على مخالفته في ملأ من الناس والرد عليه ، ففي ذلك من الوهن للأمير وسوء الأدب الذي انكشف الكاتب عنه مالا خفاء به .

قال الرشيد للكسائي : يا علي بن حمزة ، قد أحللتناك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك ، فروئنا من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرنا بأداب الفرس والهند ، ولا تسرع علينا الرد في ملأ ، ولا تترك تثقيفنا في خلاء .

وفي آداب ابن المقفع : لا تكونن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على

(١) في د « ذكر » .

طاعتهم في المكروه عندك وموافقهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك ، فإن كنتَ حافظاً إذا ولّوك . حذراً إذا قرّبوك ، أميناً إذا ائتمنوك ، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم ، وتأدّبهم وكأنك تتأدّب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر ؛ ذليلاً إن صرّموك ، راضياً إن أسخطوك ، وإلا فالبعد منهم كل البعد ، والحذر منهم كل الحذر . وإن وجدتَ عن السلطان وصحبته غنى فاستغن عنه ، فإنه من يخدم السلطان حقّ خدمته يخلّي بينه وبين لذة الدنيا وعمل الأخرى ، ومن يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وزر الآخرة ، وعرض نفسه للهلكة والفضيحة في الدنيا . فإذا صحبتَ السلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملال ، وإذا نزلتَ منه بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام اللق ، ولا تُكثِرْ له من الدّعاء ، ولا تردّنْ عليه كلاماً في حفل وإن أخطأ ، فإذا خلوتَ به فبصره في رفق ، ولا يكوننّ طلبك ما عنده بالمسألة ، ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولا تخبرنه أنّ لك عليه حقاً ، وأنك تعتمد عليه بيلاء ، وإن استطعت ألا تنسى حقك وبلاءك بتجديد النصيح والاجتهاد فافعل ، ولا تعطينه المجهود كلّهُ من نفسك في أوّل صحبتك له ، وأعدّ موضعاً للزيد . وإذا سأل غيرك عن شيء فلا تكن المجيب .

واعلم أنّ استلابك الكلام حقّة فيك واستخفافُ منك بالسائل والمسئول ، فما أنت قائل إن قال لك السائل : ما ليّك سألتُ ؛ أو قال المسئول : أجب بمجالسته ومحدثته أيّها المعجب بنفسه ، والمستخفّ بسلطانه .

وقال عبدُ الملك بنُ صالح لمؤدّب ولده بعد أن اختصّه بمجالسته ومحدثته : يا عبدَ الله ، كنْ على التماس الحظّ فيك باللسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام ، فاتّهم قالوا : إذا أعجبك الكلام فأمّمت ، وإذا أعجبك الصمتُ فتكلّم . وأعلم أن أصعب الملوك معاملة الجبارُ الفطن المتفقد ، فإنّ ابتليت بصحبته فأحترس ، وإن عوفيت فأشكر الله على السلامة ، فإنّ السلامة أصل كلّ نعمة . لا تساعدني على ما يقبّح بي ، ولا تردّنْ عليّ

خطأ في مجلس ، ولا تكلفني جواب التسميت والتهنئة ، ودع عنك : كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى ! وكلمني بقدر ما أستطيعك ، واجعل بذلك التقرير لي صواب الاستماع مني . واعلم أن صواب الاستماع أحسن من صواب القول ، فإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتك منه شيء ، وأرني فهمك إياه في طرفك ووجهك ، فما ظنك بالملك وقد أحلك محلّ المعجب بما يسمعك إياه ، وأحلت له محلّ من لا يسمع منه ! وكلّ من هذا يُحبط إحسانك ، ويُسقط حقّ حرمتك ، ولا تستدع الزيادة من كلامي بما تُظهر من استحسان ما يكون مني ، فن أسوأ حالا ممن يستكدر الملوك بالباطل ، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجب الله تعالى من حقهم . واعلم أنّي جعلتك مؤدّبا ، بعد أن كنت معلّما ، وجعلتك جليسا مقربا بعد أن كنت مع الصبيان مباحدا ، فتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه ، لم تعرف رُجحان ما دخلت فيه ، وقد قالوا : من لم يعرف سوء ما أُولى ، لم يعرف حُسن ما أُوْلَى .

ثم قال عليه السلام : وليكن كاتبك غير مقصّر عن عرض مكتوبات عمالك عليك ، والإجابة عنها حسن الوكالة والنيابة عنك فيما يحتاج به لك عليهم من مكتوباتهم ، وما يُصدره عنك إليهم من الأجوبة ، فإن عقّد لك عقدا قوّا وأحكمه ، وإن عقّد عليك عقدا اجتهد في نقضه وحلّه . قال : وأن يكون عارفا بنفسه ، فن لم يعرف قدر نفسه لم يعرف قدر غيره .

ثم نهاه أن يكون مستند اختياره لهؤلاء فراستهم فيهم ، وغلبة ظنه بأحوالهم ، فإن التدليس يتم في ذلك كثيرا ، وما زال الكتّاب يتصنّعون للأمرء بحُسن الظاهر ، وليس وراء ذلك كثير طائل في النصيحة والمعرفة ، ولكن ينبغي أن يرجع في ذلك إلى ما حكمت

به التجربة لهم ، وما وُلّوه من قبل ، فإن كانت ولايتهم وكتابتهم حسنةً مشكورةً فهم هم ، وإلا فلا ، ويتعرفون لفراسات الولاية ، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضروب من التصنع ، وروى : « يتعرّضون » .

ثم أمره أن يقسم فنون الكتابة وضروبها بينهم نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء ، والآخر لأجوبة عمال السواد ، والآخر بحضرة الأمير في خاصته وداره ، وحاشيته وثقاته .

ثم ذكر له أنّه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابى عنه ، ويتغافل من عيوب كتابه ، فإن الدين لا يبيع الإغضاء والغفلة عن الأعوان والخلول ، ويوجب التطلع عليهم .

[فصل في الكتاب وما يلزمهم من الآداب]

واعلم أنّ الكاتب الذى يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الذى يسمى الآن فى الاصطلاح المرّفى وزيراً ، لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير ، والنائب عنه فى أموره ، وإليه تصل مكتوبات العمال وعنه تصدر الأجوبة ، وإليه المرّض على الأمير ، وهو المستدرك على العمال ، والمهيمن عليهم ، وهو على الحقيقة كاتب الكتاب ، ولهذا يسمونه : الكاتب المطلق .

وكان يقال : للكاتب على الملك ثلاث : رفع الحجاب عنه ، وإتهام الوشاة عليه ، وإفشاء السرّ إليه .

وكان يقال : صاحب السلطان نصفه ، وكاتبه كلّهُ . وينبغى لصاحب الشرطة أن يطيل الجلوس ، ويديم العبوس ، ويستخفّ بالشفاعات .

وكان يقال : إذا كان الملك ضعيفا ، والوزير شريهاً ، والقاضي جائراً ، فرّقوا الملك شعاعاً .

وكان يقال : لا تخفّ صولة الأمير مع رضا الكاتب ، ولا تثقن برضا الأمير مع سُخط الكاتب ، وأخذ هذا المعنى أبو الفضل بن العميد فقال :

وزعمت أنك لست تُفكر بعد ما علقّت يداك بدمّة الأمراء

هيات قد كذبتك فكرتك التي قد أوهمتك غنى عن الوزراء

لم تُغن عن أحدٍ مملاً لم تجد أرضاً ولا أرضاً بغير سماء

وكان يقال : إذا لم يُشرف الملك على أموره ، صار أغشّ الناس إليه وزيره

وكان يقال : ليس الحرب الغشوم بأسرع في اجتياح^(١) الملك من تضييع مراتب الكتاب حتى يصيبها أهل النذالة ، ويذهب فيها أولو الفضل .

[فصل في ذكر ما نصحت به الأوائل الوزراء]

وكان يقال : لا شيء أذهب بالدول من استكفاء الملك الأسرار .

وكان يقال : من سعادة جدد المرء ألا يكون في الزمان المختلط وزيراً للسلطان .

وكان يقال : كما أن أشجع الرجال يحتاج إلى السلاح ، وأسبق الخيل يحتاج إلى السوط ، وأحد الشفار يحتاج إلى المسنن ، كذلك أحزم الملوك وأعقلهم يحتاج إلى الوزير الصالح .

وكان يقال : صلاح الدنيا بصلاح الملوك ، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء ،

(١) اجتياح الملك : الذهاب به .

وكما لا يَصْلُحُ الملك إلا بمن يستحقّ الملك ، كذلك لا تَصْلُحُ الوَزارَةُ إلا بمن يستحقّ الوَزارَةَ .

وكان يقال : الوزير الصالح لا يرى أن صلاحه في نفسه كائن صلاحا حتى يتصل بصلاح الملك وصلاح رعيّته ، وأن تكون عنايته فيما عطف الملك على رعيّته ، وفيما استعطف قلوب الرعيّة والعامة على الطاعة للملك ، وفيما فيه قوام أمر الملك من التدبير الحسن ، حتى يجمع إلى أخذ الحقّ تقديم عموم الأمن . وإذا طرقت الحوادث ، كان للملك غُدَّةٌ وعَتَادا ، وللرعيّة كافيا محتاطا ، ومن ورائها محاميا ذابّا ، يعنيه من صلاحها مالا يعنيه من صلاح نفسه دونها .

وكان يقال : مثل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسدا مثل الماء العذب الصافي وفيه التماسح ، لا يستطيع الإنسان - وإن كان ساجدا ، وإلى الماء ظامئا - دخوله ، حذرا على نفسه .

قال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي حين استُخلف : لو كنت كاتبى وردّءا لى على ما دُفعت إليه ! قال : لا أفعل ، ولكنى سأرشدك ؛ أسرع الاستماع ، وأبطئ في التصديق حتى يأتيتك واضح البرهان ، ولا تعملن بثبجتك فيما تكتفى فيه بلسانك ، ولا سوطك فيما تكتفى فيه بثبجتك ، ولا سيفك فيما تكتفى فيه بسوطك .

وكان يقال : التقاط الكاتب للرّشا وضبطُ الملك لا يجتمعان .
وقال أبرويز لكاتبه : اكتم السرّ ، واصدق الحديث ، واجتهد في النصيحة ، وعليك بالحدّز ؛ فإنّ لك علىّ ألاّ أعجل عليك حتى أستأنّى لك ، ولا أقبل فيك قولاً حتى أستيقن ، ولا أطعمُ فيك أحدا فتُمْتَال ؛ واعلم أنّك بمنجاة^(١) رفعة فلا تحطّنها ، وفي

(١) المنجاة : ما ارتفع من الأرض .

ظَلَّ مَمْلُوكَهُ فَلَا تَسْتَزِيلُنَّهُ . قَارِبِ النَّاسَ بِجَامِلَةٍ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَاعِدْهُمْ مَسَاحَةً عَنْ عَدُوِّكَ ،
وَأَقْصِدْ إِلَى الْجَمِيلِ اِزْدِرَاعًا لِنَدِيكَ ، وَتَنَزَّهِ بِالْعَفَافِ صَوْنًا لِمُرُوءَتِكَ ، وَتَحَسَّنْ عِنْدِي
بِمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ . احْذَرِ لَا تُسْرِعَنَّ الْأَلْسَنَةَ عَلَيْكَ ، وَلَا تَقْبَحَنَّ الْأَحْدُوثَةَ عَنْكَ ، وَصُنْ
نَفْسَكَ صَوْنَ الذَّرَّةِ الصَّافِيَةِ ، وَأَخْلِصْهَا إِخْلَاصَ الْفِضَّةِ الْبَيضاء ، وَعَاتِبْهَا مَعَاتِبَةَ الْحَذِرِ
الْمُشْفِقِ ، وَحَصِّنْهَا تَحْصِينَ الْمَدِينَةِ الْمُنِيْعَةِ . لَا تَدْعَنَّ أَنْ تَرْفَعَ إِلَى الصَّغِيرِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى (١)
الْكَبِيرِ ، وَلَا تَكْتُمَنَّ عَنِّي الْكَبِيرَ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَاغِلٍ عَنِ الصَّغِيرِ . هَذِّبْ أُمُورَكَ ثُمَّ الْقَنَى
بِهَا ، وَأَحْكَمْ أَمْرَكَ ثُمَّ رَاجِعْنِي فِيهِ ، وَلَا تَجْتَرِئَنَّ عَلَيَّ فَأُمْتَعِضَنَّ ، وَلَا تَنْقُبُضَنَّ مِنِّي
فَأُتْمَسِّمْ ، وَلَا تُمَرِّضَنَّ مَا تُلْقَانِي بِهِ وَلَا تُخَدِّجَنَّهُ (٢) ؛ وَإِذَا أَفْكَرْتَ فَلَا تَعْجَلْ ، وَإِذَا
كُتِبَتْ فَلَا تُعْذِرْ ، وَلَا تَسْتَعِنَّ بِالْفُضُولِ فَإِنَّهَا عِلَاوَةٌ عَلَى الْكُفَايَةِ ، وَلَا تَقْصُرَنَّ عَنِ
التَّحْقِيقِ فَإِنَّهَا هُجْنَةٌ بِالْمُقَالَاةِ ، وَلَا تَلْبَسْ كَلَامًا بِكَلَامٍ ، وَلَا تَبْعِدَنَّ مَعْنَى عَنْ مَعْنَى .
وَأَكْرَمَ لِي كِتَابُكَ عَنْ ثَلَاثَ : خُضُوعٍ يَسْتَخْفُهُ ، وَانْتِشَارٍ يَهْجَنُهُ ، وَمَعَانٍ تَعْقُدُ بِهِ . وَاجْمَعْ
الْكَثِيرَ مِمَّا تَرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ وَلِيَكُنْ بَسْطَةٌ كَلَامِكَ عَلَى كَلَامِ السُّوْقَةِ كِبْسُطَةُ الْمَلِكِ
الَّذِي تَحْدِثُهُ عَلَى الْمُلُوكِ . لَا يَكُنْ مَا نَلْتَهُ عَظِيمًا ، وَمَا تَتَكَلَّمُ بِهِ صَغِيرًا ، فَإِنَّمَا كَلَامُ الْكَاتِبِ
عَلَى مِقْدَارِ الْمَلِكِ ، فَاجْعَلْهُ عَالِيًا كَمَا لَوْهُ ، وَفَائِقًا كَتِفُوْقَهُ ، فَإِنَّمَا جَمَاعُ الْكَلَامِ كُلُّهُ خُصَالُ
أَرْبَعٍ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ ، وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ ، وَأَمْرُكَ بِالشَّيْءِ ، وَخَبَرُكَ عَنِ الشَّيْءِ ؛ فَهَذِهِ
الْخُصَالُ دَعَائِمُ الْمَقَالَاتِ ، إِنْ التَّمِسَّ إِلَيْهَا خَامِسٌ لَمْ يَوْجَدْ ، وَإِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ يَتِمَّ ؛
فَإِذَا أَمَرْتَ فَأَحْكَمْ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَأَوْضَحْ ، وَإِذَا طَلَبْتَ فَأَسْمِعْ ، وَإِذَا أَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ ،
فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَخَذْتَ بِجَرَائِمِ الْقَوْلِ كُلِّهِ ، فَلَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْكَ وَارِدَةٌ ، وَلَمْ تُعْجِزْكَ
صَادِرَةٌ . أَثْبَتَ فِي دَوَائِيكَ مَا أَخَذْتَ ، وَأَخْصَرَ فِيهَا مَا أَخْرَجْتَ ، وَتَيَقَّظَ لِمَا تُعْطَى ،
وَتَجَرَّدَ لِمَا تَأْخُذُ ، وَلَا يَغْلِبَنَّكَ النِّسْيَانُ عَنِ الْإِحْصَاءِ ، وَلَا الْأَنَاءَةُ عَنِ التَّقَدُّمِ ، وَلَا تَخْرُجَنَّ

(١) كَذَا فِي ١ ، وَهُوَ الْوَجْهُ ؛ وَفِي ب : « عَنْ الْكَبِيرِ » .

(٢) التَّمْرِيسُ : التَّوْهِينُ ، وَالتَّخْدِيجُ : أَنْ تَأْتِيَ بِالشَّيْءِ نَاقِصًا .

وزن قيراط في غير حق ؛ ولا تعظمن إخراج الألوف الكثيرة في الحق ؛ وليكن ذلك كله
عن مؤامرتي .

الأصل :

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتِّجَارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا ، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ
وَالْمُضْطَرِّبِ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِيَدَيْهِ ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ ،
وَجُلَاهُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ؛ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ
لَا يَلْتَسِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُمْ سَلِمٌ لَا تُخَافُ بِأَنْفُسِهِ
وَصُلُحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ .

وَتَفَقَّدَ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ . وَاعْلَمْ - مَعَ ذَلِكَ - أَنَّ فِي
كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقًا فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا ، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبِيعَاتِ ،
وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوَلَاةِ ، فَاْمَنْعُ مِنَ الْإِحْتِكَارِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ . وَلَيْسَ الْبَيْعُ بَيْنًا سَمَحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ ،
وَأَسْمَارٍ لَا تُجْجِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ؛ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ
نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَانْكَرْ بِهِ ، وَعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ .

الشرح :

خرج عليه السلام الآن إلى ذكر التجار وذوي الصناعات ؛ وأمره^(١) بأن يعمل معهم
الخير ، وأن يوصي غيره من أمرائه وعماله أن يعملوا معهم الخير . واستوصى بمعنى «أوص»

(١) ا ، ب : «أمره» ، بدون واو .

نحو قَرَّ في المكان واستقرَّ ، وعلا قَرْنَه واستعلاه .

وقوله : « استوصِ بالتَّجَارِ خيرا » ، أى أوصِ نفسك بذلك ، ومنه قول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله : « استَوْصُوا بالنِّسَاءِ خيرا » ؛ وَمَفْعُولَا « استوصِ وَأَوْصِ » ها هنا محذوفان للعلم بهما ، ويجوز أن يكون « استوصِ » أى اقبل الوصية مني بهم ، وأوصِ بهم أنتَ غيرك .

ثم قسم عليه السلام الموصى بهم ثلاثة أقسام : اثنان منها للتَّجَارِ^(١) ، وهما المقيم ، والمضطرب ، يعنى المسافر . والضرب : السيرُ في الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ^(٢) ﴾ ، وواحد لأرباب الصناعات ، وهو قوله : « والمتفرِّق يبيدنه » ، ورؤى « يبيده » ، تفتية يد .

والمطاريح : الأماكن البعيدة .

وحيث لا يلتئم الناس : لا يجتمعون ، ورؤى « حيث لا يلتئم » ؛ بحذف الواو . ثم قال : « فَإِنَّهُمْ أُولُو سِلْمٍ » ، يعنى التجار والصناع ، استعطفه عليهم ، واستماله إليهم .

وقال : ليسوا كمال الخراج وأمرء الأجناد ، فجائِبُهُم ينبغى أن يراعى ، وحالُهُم يجب أن يُحاط وَيُحْمَى ، إذ لا يتخوف منهم بائقة لا في مال يخونون فيه ، ولا في دولة يُفسِدونها . وحواشى البلاد : أطرافها .

ثم قال له : قد يكون في كثير منهم نوعٌ من الشحِّ والبخل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار في الأقوات ، والخيف في البياعات . والاحتكار^(٣) : ابتياع الغلات في أيام

(١) د : « التجار » . (٢) سورة النساء ١٠١ .

(٣) د : « فالاحتكار » .

رخصها ، وادّخارها في المخازن^(١) إلى أيام الغلاء والقحط . والحيف : تظيف في الوزن والكيل ، وزيادة في السعر^(٢) ، وهو الذي عبر عنه بالتحكم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الاحتكار ؛ وأما التظيف وزيادة التفسير فنهى عنهما في نص الكتاب^(٣) . وقارَفَ حُكْرَةً : واقفها ، والحاء مضمومة ، وأمره أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف ، وذلك أنه دون المعاصي التي توجب الحدود ، فغاية أمره من التعزير الإهانة والمنع .

الأصل :

ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ؛ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِمًا وَمُعْتَرًا .
وَاحْفَظِ اللَّهَ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْمًا مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى؛ وَكُلُّ قَدْ اسْتُرِعِيَتْ حَقُّهُ .
وَلَا يَشْنَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْأَمِيمِ ؛ فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لَهُمْ . وَتَقَفِّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ ، يَمْنُ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ؛ فَفَرِّغْ لِأَوْلِيكَ نِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَّاضِعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ .
ثُمَّ اْعْمَلْ فِيهِمْ بِلَا عُدَارٍ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرِّعِيَةِ أَخَوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ؛ وَكُلُّ نَقَاعِذِرٍ إِلَى اللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ .

(١) د : « المحارز » . (٢) د : « التفسير » .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَيُلْهِمُ الْمُطْغَفِينَ ﴾ .

وَتَعَمَّدَ أَهْلَ الْيَتِيمِ ، وَذَوَى الرَّقَّةِ فِي السَّنِّ ، يَمْنَنُ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ
نَفْسَهُ ، وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ ؛ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ
طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَوَقَفُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ .

الشَّيْخُ :

انتقل من التجار وأرباب الصناعات إلى ذكر فقراء الرعية ومغموريها ، فقال :
وأهل البؤس ، وهى البؤسُ كالنعمى للنعم ، والزمنى أولو الزمانة .

والقانع : السائل ؛ والمعتز : الذى يعرض لك ولا يسألك ، وهما من ألفاظ الكتاب
العزيز^(١) .

وأمره أن يعطيهم من بيت مال المسلمين لأنهم من الأصناف المذكورين فى قوله تعالى :
﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾^(٢) ، وأن يعطيهم من غلات صوافى الإسلام - وهى الأرضون
التي لم يؤجف عليها بخيل ولا ركاب - وكانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وآله ،
فلما قبض صارت لفقراء المسلمين ، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام .

ثم قال له : « فَإِنَّ لِلأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِى لِلأَدْنَى » ، أى كل فقراء المسلمين سواء
فى سهامهم ، ليس فيها أقصى وأدنى ، أى لا تؤثر من هو قريب إليك أو إلى أحدٍ
من خاصتك على من هو بعيد ليس له سببٌ إليك ، ولا علاقة بينه وبينك . ويمكن
أن يريد به : لا تصرف غلات ما كان من الصوافى فى بعض البلاد إلى مساكين ذلك

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الحج ٣٦ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ .

(٢) سورة الأنفال ٤١ .

البلد خاصة ؛ فإن حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم في ذلك البلد .
 والتأفة : الحقير . وأشخصتُ زيدا من موضع كذا ؛ أخرجته عنه . وفلان يصعّرُ خدّه
 للناس ، أى يتكبر عليهم .
 وتفتّحه العيون : تزدريه . وتحتقره والإعذار إلى الله : الاجتهاد والمبالغة في تأدية حقّه
 والقيام بفرائضه .

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه ، ولا يثق إلى غيره ، ويقعد بحيث يسمع
 الصوت ، فإذا سمعه أدخل المتظلم ، فأصيب بصمّ في سمّيه فنادى مناديه ، إنَّ الملك يقول :
 أيّها الرعيّة ، إنّي إن أصبتُ بصمّ في سمّي فلم أصب في بصرى ؛ كلّ ذى ظلامة فليلبس ثوبا
 أحمر ، ثمّ جلس لهم في مستشرق له .
 وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سمّاه بيتَ القصص ، يلقى الناس فيه رقائقهم ،
 وكذلك كان فعل المهديّ محمد بن هارون الواثق ، من خلفاء بني العباس .

الأصل :

وَأَجْعَلْ لِّدَوَىِّ الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تَفْرُغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا
 عَامًّا ؛ فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ ، وَتُقْعَدُ عَنْهُمْ جُنْدُكَ وَأَعْوَانُكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ
 وَشُرَطِكَ ؛ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَمِّعٍ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ
 مِنَ الْقَوَى ؛ غَيْرَ مُتَتَمِّعٍ » .

ثُمَّ أَحْتَمِلُ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحَّ عَنْهُمْ الضِّيقَ وَالْأَنْفَ، يَبْسُطُ اللَّهُ عَلَيْكَ
بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ. وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَبِئًا، وَامْنَعْ
فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ.

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بَدَّ لَكَ مِنْ مُيَاشَرَتِهَا؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّا لِكَ بِمَا يَعْنِي عَنْهُ
كِتَابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وَرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورُ
أَعْوَانِكَ. وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ.

البَنْزُخُ :

هذا الفصل من تنمة ما قبله، وقد رُوِيَ : « حتى يكلمك مكلّمهم » ، فاعل من « كَلَّمَ »
والرواية الأولى أحسن .

وغير متمتع : غير مزعج ولا مقلق . والمتتَمَتِّع في الخبر النبويّ : التردد المضطرب .
في كلامه عِيًّا من خوف لحقه ، وهو راجع إلى المعنى الأوّل .

والْخُرْقُ : الجهل . ورُوِيَ : « ثُمَّ احْتَمِلُ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ » . والْعِيَّ وهو الجهل
أيضا ، والرواية الأولى أحسن .

ثُمَّ يَبَيِّنُ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ هَذَا الْمَجْلِسِ لِأَمْرِ آخِرٍ غَيْرِ مَا قَدَّمَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي حَاجَاتِ النَّاسِ مَا يَضِيقُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِهِ ، وَالثَّوَابُ
عَنْهُ ، فَيَتِمِّينَ عَلَيْهِ أَنْ يَاشَرَها بِنَفْسِهِ ؛ وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي كُتُبِ عَمَّالِهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهِ

ما يعيا كتابه عن جوابه ، فيجيب عنه بعلمه . ويدخل في ذلك أن يكون فيها ما لا يجوز في حُكم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتاب عليه ، فيجيب أيضا عن ذلك بعلمه .

ثم قال له : لا تدخل عمل يوم في عمل يوم آخر فينتعبك ويكدرك ؛ فإن لكل يوم ما فيه من العمل .

الأُسل :

وَأَجْمَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ ؛ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النَّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ .
وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةٌ ، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ ، بَالِنَا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ .
وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنْفَرًّا وَلَا مُضِيعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ ، وَلَهُ الْحَاجَةُ ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ : كَيْفَ أَصَلَّى بِهِمْ ؟ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَوْعَفِهِمْ ؛ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » .

الشيخ :

لما فرغ عليه السلام من وصيته بأمور رعيته ، شرع في وصيته بأداء الفرائض التي

افترضها الله عليه من عبادته ، ولقد أحسن عليه السلام في قوله : « وإن كانت كلها لله » ،
أي أن النظر في أمور الرعية مع صحة النية وسلامة الناس من الظلم من جملة العبادات
والفرائض أيضاً .

ثم قال له : « كملا غير مثلوم » ، أي لا يحملنك شغل السلطان على أن تختصر
الصلاة اختصاراً ، بل صلها بفرائضها وسننها وشعائرها في نهارك وليك ؛ وإن أتعبك ذلك
ونال من بدنك وقوتك .

ثم أمره إذا صلى بالناس جماعة ألا يطيل فينفرهم عنها ، وألا يخدج الصلاة وينقصها
فيضيعها^(١) .

ثم روى خبرا عن النبي صلى الله عليه وآله ، وهو قوله عليه السلام له : « صل بهم
كصلاة أضعفهم » ، وقوله : « وكن بالمؤمنين رحياً » ؛ يحتمل أن يكون من تقمة الخبر
النبوي ، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، والظاهر أنه من كلام
أمير المؤمنين من الوصية للأشر ؛ لأن اللفظة الأولى عند أرباب الحديث هي المشهور
في الخبر .

الأصل :

وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا ؛ فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوَلَاةِ عَنْ
الرَّعِيَّةِ شُبُهَةٌ مِنَ الضُّيْقِ ، وَقَلَّةٌ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ . وَالِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ
عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْغُرُ عَنْدهُمْ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَيَقْبَحُ الْحَسَنُ ،
وَيَحْسَنُ الْقَبِيحُ ، وَيَشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ
النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرِفُ بِهَا ضُرُوبُ الصَّدَقِ مِنَ

(١) د : « فيضعها » .

الْكَذِبِ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إِمَّا أَمْرُؤُ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ ، فَفِيمَ
أَحْتِجَابِكَ مِنْ وَاجِبِ حَقِّ تَعْطِيهِ ، أَوْ فِعْلِ كَرِيمٍ تُسَدِّدُهُ ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ ، فَمَا
أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ ، إِذَا أَيْسُوا مِنْ بَذْلِكَ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ
النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَوْؤَنَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةٍ مَظْلِمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ
فِي مُعَامَلَةٍ .

الْبُخْلُ :

نهاه عن الاحتجاب ؛ فَإِنَّهُ مَظْنَّةُ انطواء الأمور عنه ، وإذا رُفِعَ الحجاب دخل عليه
كلُّ أحدٍ فَمَرَفَ الأخبار ، ولم يخفَ عليه شيء من أحوال عمله .
ثم قال : لم تحتجب ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَحْتَجِبُونَ كَيْلًا يُطَلَّبُ مِنْهُمْ الرِّفْدُ !
وَأَنْتَ فَإِنْ كُنْتَ جَوَادًا سَمِحًا لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَى الْحِجَابِ دَارِعٌ ، وَإِنْ كُنْتَ تُمَسِّكًا فَمِيعِلٌ
النَّاسُ ذَلِكَ مِنْكَ ، فَلَا يَسْأَلُكَ أَحَدٌ شَيْئًا .
ثم قال : عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَسْأَلُ مِنْكَ مَا لَا مَوْؤَنَةَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ ؛ كَرَدِّ ظُلَامَةٍ أَوْ إِنْصَافٍ
مِنْ خَصْمٍ .

[ذكر الحجاب وما ورد فيه من الخبر والشعر]

والقول في الحجاب كثير :

حضر بابَ عَمَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَشْرَافِ : مِنْهُمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَفْرَعُ
ابْنُ حَابِسٍ ، فَحِجَبُوا ، ثُمَّ خَرَجَ الْأَذَنُ فَنَادَى : أَيْنَ عَمَّارٌ ؟ أَيْنَ سَلْمَانُ ؟ أَيْنَ صُهَيْبٌ ؟

فأدخلهم فتممرت^(١) وجوه القوم ، فقال سهيل بن عمرو : لم تتمر وجوهكم ! دُعوا ودُعينا :
فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر اليوم لأنتم غداً لهم^(٢) أحسد .
وأستاذن أبو سفيان على عثمان فحجبه ، فقيل له : حجبك ! فقال : لا عدمت من أهلي
من إذا شاء حجبتني .

وحجبت معاوية أبا الدرداء ؟ فقيل لأبي الدرداء : حجبك معاوية ! فقال : من يئش
أبواب الملوك يئش ويكرم ، ومن صادف باباً مغلقاً عليه وجَد إلى جانبه باباً مفتوحاً ،
إن سأل أُعطى ، وإن دعا أُجيب ، وإن يكن معاوية قد أحتجب فربُّ معاوية
لم يحتجب .

وقال أرويز لحاجبه : لا تَضَعَنَّ شريفاً بصُعبوبة حجاب ، ولا ترفعنَّ وضيعاً بسهولة ؛
ضع الرجال مواضع أخطارهم ، فمن كان قديماً شرفه ثم ازدرعه^(٣) ولم يهدمه بعد آباءه
فقدّمه على شرفه الأول ، وحسن رأيه الآخر ، ومن كان له شرف متقدّم ولم يصن ذلك
حيطةً له ، ولم يذرعه تمييز الممارسة ، فألحق بآبائه من رفعة حاله ما يقتضيه سابق شرفهم ،
وألحق به في خاصته ما ألحق بنفسه ، ولا تأذن له إلاّ دبرياً وإلا سراراً ؛ ولا تلحقه بطبقة
الأولين . وإذا ورد كتابٌ عاملٍ من عمّا لي فلا تحبسه عنى طرفة عين إلا أن أكون على
حالٍ لا تستطيع الوصول إلى فيها ، وإذا أتاك من يدعى النصيحة لنا فلتكتبها سرّاً ثم
أدخله بعد أن تستأذن له ، حتى إذا كان منى بحيث أراه فأدفع إلى كتابه ، فإن أحمدت
قبلت ، وإن كرهت رفضت . وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن ، فأذن له ، فإن
العلم شريفٌ وشريفٌ صاحبه ، ولا تحجبن عنى أحداً من أفاء الناس ، إذا أخذت مجلسي
مجلس العامة ، فإن الملك لا يُحجب إلا عن ثلاث : عي يكره أن يُطلع عليه منه ،
أو يخل يكره أن يدخل عليه من يسأله ، أو رية هو مصرّ عليها فيشفق من إبدائها .

(١) تممرت وجوههم : تميزت غيظاً وحقاً . (٢) ساقطة من د . (٣) ازدرعه : أثبته .

ووقوف الناس عليها ، ولا بد أن يحيطوا بها علماً ، وإن اجتهد في سترها . وقد أخذ هذا المعنى الأخير محمود الوراق فقال :

إذا اعتصمَ الوالي بإغلاق بابهِ وردّ ذوى الحاجات دونَ حجابهِ
ظننت به إحدى ثلاثٍ وربّما رجّمتُ بظنِّ واقِعٍ بصوابهِ
أقول به مَسٌّ من العيِّ ظاهرٌ فني إذنه للناسِ إظهارٌ ما بهِ
فإن لم يكن عيِّ اللسان فغالب من البُخلِ يحمى ماله عن طِلابهِ
وإن لم يكن لاذا ولاذا فريبةً يُكتمّها مستورةً بثيابهِ

أقام عبد العزيز بن زُرارة الكلابيّ على باب معاوية سنةً في شتلة من صوف لا يأذن له؛ ثمّ أذن له وقرّبه وأدناه ، ولطّف محلّه عنده حتّى ولّاه مصر ، فكان يقال : استأذن أقوام لعبد العزيز بن زُرارة ، ثمّ صار يستأذن لهم ، وقال في ذلك :

دخلتُ على معاويةَ بنَ حرب ولكن بعد يأسٍ من دخولِ
وما نلتُ الدخولَ عليه حتّى حللتُ محلّةَ الرجل الذليلِ
وأغضيتُ الجفونَ على قذاها ولم أنظر إلى قالٍ وقيلِ
وأدركتُ الذي أمّلتُ منه وحرمانُ المُنَى زادُ العجولِ

ويقال : إنه قال له لما دخل عليه أميرُ المؤمنين : دخلتُ إليك بالأمل ، وأُحتملت جفوتك بالصبر ، ورأيتُ ببابك أقواماً قدّمهم الحظّ ، وآخرين أخّرهم الحرمان ، فليس ينبغي للمقدّم أن يأمن عواقب الأيام ، ولا للمؤخّر أن يئسَّ من عطف الزّمان .

وأوّل المعرفة الاختبار ، فابلُ واختبر إن رأيت . وكان يقال : لم يلزم باب السلطان أحدٌ فصّر على ذلّ الحجاب، وكلام البوّاب ، وألّقى الأنف ، وحمل الصّميم ، وأدام الملازمة ، إلّا وصل إلى حاجته أو إلى معظمها .

قال عبد الملك لحاجبه : إنك عينٌ أنظرُ بها ، وجُنةٌ أَسْتَلِمُ بها ، وقد وَلَّيتُكَ ما وراءَ بابي ، فاذا تراك صانعا برعيتي ؟ قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحملهم على قدر منازلهم عندك ، وأضعهم في إبطائهم عن بابك ، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم ، وأرتبهم حيث وضعهم ترتيبك ، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغك عنهم . قال : لقد وفيت بما عليك ، ولكن إن صدقت ذلك بملكك . وقال دِعْبِل وقد حُجِبَ عن باب مالك بن طوق :

لَمَّا حَجَبْتُ دُونَكَ الْقَافِيَةَ ^(١)	لَمَعَرِي لَنْ حَجَبْتَنِي الْعَبِيدُ
شَعَاءَ تَأْتِيكَ بِالْدَّاهِيَةِ	سَأُرِي بِهَا مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ
وَيُسْأَلُ مِنْ مِثْلِهَا الْعَافِيَةِ	تُصِمُّ السَّمِيعُ، وَتُعْمِي الْبَصِيرُ

وقال آخر :

سَأَتْرُكُ هَذَا الْبَابَ مَادَامَ إِذْنُهُ	عَلَى مَا أَرَى حَتَّى يَلِينَ قَلِيلًا
فَا خَابَ مِنْ لَمْ يَأْتِهِ مَتَرَفًا	وَلَا فَازَ مَنْ قَدَرَامَ فِيهِ دُخُولًا
إِذَا لَمْ نَجِدْ لِلْإِذْنِ عِنْدَكَ مَوْضِعًا	وَجَدْنَا إِلَى تَرْكِ الْحِجَى سَبِيلًا

وكتب أبو الغتاهية إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه :

وإن عدتُ بعدَ اليومِ إنِّي لظالمٌ	سَأَصْرِفُ وَجْهِي حَيْثُ تُبْغِي الْمَكَارِمُ
مَتَى يُفْلِحَ الْغَادِي إِلَيْكَ لِحَاجَةٍ	وَنَصْفُكَ مُحْجُوبٌ ، وَنَصْفُكَ نَائِمٌ !

يعني ليله ونهاره .

استأذن رجلان على معاوية ، فأذن لأحدهما - وكان أشرف منزلةً من الآخر - ثم أذن للآخر. فدخل ، فجلس فوق الأول ، فقال معاوية : إن الله قد أَرْزَمَنَا تَأْدِيَكُمْ

(١) ديوانه ٢١٢ ، وتلقاها عن ابن أبي الحديد (النجف ١٩٦٢) .

كما أَرْزَمْنَا رعايتكم ، وإِنَّا لم نَأْذَن له قبلك ، ونحن نريد أن يكون مجلسه دونك ، فقم
لا أقام الله لك وزنا . وقال بشار :

تأبى خلائقُ خالدٍ وفَعَّالُهُ إِلَّا تَجَنَّبَ كُلَّ أَمْرٍ عَائِبٍ
وَإِذَا أَتَيْنَا الْبَابَ وَقْتَ غَدَائِهِ أَدْنَى الْغَدَاءِ لَنَا بِرْغَمِ الْحَاجِبِ
وقال آخر يهجو :

يَأْمِيرًا عَلَى جَرِيٍّ مِنَ الْأَر ضِلَّ لَهُ تِسْعَةٌ مِنَ الْحِجَابِ
قَاعِدٍ فِي الْخَرَابِ يَحْجِبُ عَنَّا مَا سَمِعْنَا بِحَاجِبٍ فِي خَرَابِ
وكتب بعضهم إلى جعفر بن محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب :
أَبَا جَعْفَرٍ إِنَّ الْوَلَايَةَ إِنْ تَكُنْ مِنْبَلَةً قَوْسًا فَأَنْتَ لَهَا نَبْلُ
فَلَا تَرْتَفِعْ عَنَّا لِأَمْرِ وَلَيْتَهُ كَمَا لَمْ يَصْفُرْ عِنْدَنَا شَأْنُكَ الْعَزْلُ
ومن جيد ما مدح به بشر بن مروان قول القائل :

بعيدُ مراد الطرف ما رَدَّ طَرَفُهُ حَذَارُ النَّوَاشِي بَابِ دَلِيلٍ وَلَا سِتْرِ
وَلَوْ شَاءَ بِشْرٌ كَانَ مِنْ دُونِ بَابِهِ طَهَاطُمٌ سُودٌ أَوْ صِقَالِبَةٌ مُحْمَرٌ^(١)
وَلَكِنْ بِشْرًا يَسْتَرُ الْبَابَ لِلَّتِي يَكُونُ لَهَا فِي غَيْبِهَا الْمَحْدُ وَالْأَجْرُ
وقال بشار :

خَلِيلٌ مِنْ كَعْبٍ أَعْيَنَّا أُنْخَاكَ عَلَى دَهْرِهِ إِنَّ الْكَرِيمَ يَمِينُ
وَلَا تَبْخَلَا بِخَلِّ ابْنِ قَرْعَةٍ إِنَّهُ خَافَةٌ أَنْ يَرْجَى نَدَاهُ خَزِينُ
إِذَا جِئْتَهُ لِلْعُرْفِ أَغْلَقَ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ
فَقُلْ لِأَبِي يَحْيَى مَتَى تُدْرِكُ الْعَلَا وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينُ !

(١) الطهطم : الأعاجم .

وقال إبراهيم بن هرمة :

هَشَّ إِذَا نَزَلَ الْوَفُودُ بِيَابِهِ
وَأِذَا رَأَيْتَ صَدِيقَهُ وَشَقِيقَهُ
سهلُ الحِجَابِ مُؤَدِّبُ الخِدَامِ^(١)
لم تدر أَيُّهُمَا ذُو الأَرْحَامِ

وقال آخر :

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي الْكَرِيمَ إِذَا أَتَى
وَأَرْنِي لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ عِنْدَ بَابِهِ
على طمعٍ عند اللِّثَمِ يُطَالِبُهُ
كَمَرِثَتِي لِلطَّرْفِ وَالْعِلْجِ رَاكِبُهُ
وقال عبد الله بن محمد بن عُيَيْنَةَ :

أَتَيْتُكَ زَائِرًا لِقَضَاءِ حَقٍّ
وَرَأَيْتُ مَذْهَبَ عَنْ كُلِّ نَاءٍ
فَخَالَ السِّرُّ دُونَكَ وَالْحِجَابُ
يُجَانِبُهُ إِذَا عَزَّ الذَّهَابُ
ولست بساقطٍ في قَدْرِ قَوْمٍ
وقال آخر :

مَا ضَاقت الأَرْضُ عَلَى رَاغِبٍ
بَلْ ضَاقت الأَرْضُ عَلَى شَاعِرٍ
تَطَلَّبَ الرِّزْقَ وَلَا رَاهِبٍ
أَصْبَحَ يَشْكُو جَفْوَةَ الْحَاجِبِ
قَدْ شَتَمَ الْحَاجِبَ فِي شَعْرِهِ
وَإِنَّمَا يَقْصِدُ لِلصَّاحِبِ

الأُنْثَى :

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً، فِيهِمْ اسْتِثْنَاءٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةٌ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ،
فَاحْسِمِ مَثُونَةَ أَوْلِيَّتِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، وَلَا تَقْطَعْ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ
وَحَامَتِكَ قَطِيعَةً، وَلَا يَنْطَمِعَنَّ مِنْكَ فِي أُعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي

شَرِبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ ، يَحْمِلُونَ مَوْتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونُ مَهْنًا ذَلِكَ لَهُمْ
دُونَكَ ، وَعَيْنُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَلْزِمَ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ،
وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَوَاصِّكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَابْتِغَاءَ عَاقِبَتِهِ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ؛
فَإِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ .

وَإِنْ ظَنَنْتَ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا ، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ
بِإِصْحَارِكَ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ إِعْدَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيَعِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

الشَّيْخُ :

نهأه عليه السلام عن أن يَحْمِلَ أَقَارِبَهُ وَحَاشِيَتَهُ وَخَوَاصَّهُ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، وَأَنْ
يَمْكَنَهُمْ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ عَلَيْهِمُ وَالتَّطَاوُلِ وَالِإِذْلَالَ ، وَنَهَأَهُ مَنْ أَنْ يَقْطَعَ أَحَدًا مِنْهُمْ قِطْعَةً ،
أَوْ يَمْلِكَهُ ضَيْمَةٌ تَضُرُّ بَعْضَ بَجَاوِرِهَا مِنَ السَّادَةِ وَالِدَّهَاقِينَ^(١) فِي شَرِبٍ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْمَاءِ
مِنْهُ ، أَوْ ضِيَاعٍ يُضَيِّفُونَهَا إِلَى مَا مَلَكَهُمْ إِيَّاهُ ، وَإِعْفَاءَ لَهُمْ مِنْ مَوْثَةٍ ، أَوْ حَفَرٍ وَغَيْرِهِ ،
فَيَعْفِيهِمُ الْوَلَاةَ مِنْهُ مِرَاقِبَةً لَهُمْ ، فَيَكُونُ مَوْثَةٌ ذَلِكَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ قَدْ أَسْقَطَتْ عَنْهُمْ ،
وَحِمْلَ ثِقَلِهَا عَلَى غَيْرِهِمْ .

ثم قال عليه السلام : لِأَنَّ مَنَفْعَةَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَكُونُ لَهُمْ دُونَكَ ، وَالْوِزْرُ فِي الْآخِرَةِ
عَلَيْكَ ، وَالْعَيْبُ وَالذَّمُّ فِي الدُّنْيَا أَيْضًا لَاحِقَانِ بِكَ .

ثم قال له : إِنْ أَتَيْتُكَ الرَّعِيَّةُ بِحَيْفٍ عَلَيْهِمْ ، أَوْ ظَنَنْتَ بِكَ جَوْرًا ، فَادْكُرْ لَهُمْ عُذْرَكَ

(١) الدهاقين : جمع دهقان ؛ وهو من ألقاب الرؤساء في الأعاجم .

في ذلك ، وما عندك ظاهرا غير مستور ، فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحق .

وأصحرتُ بكذا ، أى كشفتهُ ؛ مأخوذةً من الإصحار ، وهو الخروج إلى الصحراء .
وحامة الرجل : أفرأبه وبطانته . واعتقدت عقدة ، أى ادّخرت ذخيرة . والمهنا مصدر
هنا كذا . ومغبة الشيء : عاقبته .
واعدل عنك ظنونهم : نَحَها . والإعذار : إقامة المُذَر .

[طرف من أخبار عمر بن عبد العزيز ونزاهته في خلافته]

ردَّ عمرُ بنُ عبد العزيز المظالم التي احتَقَبها^(١) بنو مروان فأبغضوه وذمّوه ؛ وقيل :
إنهم سَمّوه فُات .

وروى الزبير بن بَكَار في " الموفِّقات " ، أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز
دخل على أبيه يوما وهو في قائلته ، فأيقظه . وقال له : ما يؤمّنك أن تؤثّر في منامك
وقد رُفِعَ إليك مظالم لم تقصِ حقَّ الله فيها ! فقال : يا بنيّ إنَّ نفسي مطيَّبة إن لم أرفُق بها
لم تبلُغني ، إنّي لو أنعتُ نفسي وأعوانى لم يكن ذلك إلّا قليلا حتّى أسقط ويسقطوا ،
وإنّي لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي ، إنَّ الله جلّ ثناؤه
لو أراد أن ينزل القرآن جملةً لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتّى استكثر^(٢) الإيمان
في قلوبهم .

ثم قال : يا بنيّ ممّا أنا فيه أمرٌ هو أهمُّ إلى أهل بيتك ، هم أهل العدة والمدد ، وقبلهم
ما قبلهم ، فلو جمعتُ ذلك في يوم واحد خشيتُ انتشارهم عليّ ، ولكنني أنصف من الرجل

(١) يقال احتقب فلان الإثم ؛ كأنه جمعه واحتقبه من خلفه . (٢) د : « استكثر » .

والأثنين ، فيبلغ ذلك من وراءهما ، فيكون أنجع له ، فإن يُرد الله إتمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الأخرى تخسب عبدٍ أن يعلم الله منه أنه يحب أن ينصف جميع رعيته .

وروى جويرية بن أسماء ، عن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز ، فلما تفرقنا نادى مناديه : الصلاة جامعة ! فجلتُ المسجد ، فإذا عمرُ على المنبر ، تحميد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإن هؤلاء — يعني خلفاء بني أمية قبله — قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم ، وما كان ينبغي لهم أن يُعطوناها ، وإني قد رأيتُ الآن أنه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب ، وقد بدأتُ بنفسى والأقربين من أهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم . فجعل مزاحمُ يقرأ كتابا فيه الإقطاعات بالضياع والتواحي ، ثم يأخذه عمرُ بيده فيقصه بالجلّم (١) ، لم يزل كذلك حتى نودى بالظهر .

وروى الفرات بن السائب ؛ قال : كان عند فاطمة بنت عبد الملك بن مروان جوهر جليل ، وهبها أبوها ، ولم يكن لأحد مثله ، وكانت تحت عمر بن عبد العزيز ، فلما ولي الخلافة قال لها : اختاري ؛ إمّا أن تردّي جوهرك وحليّك إلى بيت مال المسلمين ، وإمّا أن تأذني لي في فراقك ، فإني أكره أن أجتمع أنا وأنتِ وهو في بيت واحد . فقالت : بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لي ؛ وأمرت به فحمل إلى بيت المال ، فلما هلك عمر وأستخلف يزيد ابن عبد الملك قال لفاطمة أخته : إن شئتِ رددته عليك ؛ قالت : فإني لا أشاء ذلك ، طبّتُ عنه نفسا في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبدا . فلما رأى يزيد ذلك قسمه بين ولديه وأهله .

وروى سهيل بن يحيى المروزي عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن عمر بن عبد العزيز ، قال : لما دفن سليمان صعد عمرُ على المنبر فقال : إني قد خلعتُ ما في رقبتي من بيعتكم . فصاح الناسُ صيحةً واحدة : قد اخترناك ، فنزل ودخل وأمر بالسُّتور فهُتكت ،

(١) الجلم : المقص .

والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحُمِلَت إلى بيت المال ، ثم خرج ونادى مناديه : مَنْ كانت له مظلمةٌ من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليحضر؛ فقام رجل ذِي من أهل حصّ أبيض الرأس واللحية ، فقال : أسألك كتابَ الله ! قال : ما شأنك ؟ قال : العباسُ بن الوليد ابن عبد الملك أغتصبني ضيعتي - والعباس جالس - فقال عمر : ما تقول يا عباس ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها سجلاً . فقال عمر : ما تقول أنت أيها الذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتابَ الله ! فقال عمر : إياها لعمري إن كتاب الله لأحقُّ أن يُتبع من كتاب الوليد ، اردد عليه يا عباس ضيعتَه ؛ فجعل لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلّا ردّها مظلمةً مظلمةً .

وروى ميمون بن مهران ، قال : بعث إلى عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وأبي قلابة فقال : ما ترون في هذه الأموال التي أخذها أهلي من الناس ظلماً ؟ فقال مكحول قولاً ضعيفاً كرهه عمر ، فقال : أرى أن تستأنف وتدع ما مضى ، فنظر إلى عمر كالستغيت بي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أحضر ولدك عبد الملك لننظر ما يقول . فحضر ، فقال : ما تقول يا عبد الملك ؟ فقال : ماذا أقول ؟ ألسنت تعرف مواضعها ! قال : بلى والله ، قال : فأرددها ، فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها .

وروى ابن درستويه ، عن يعقوب بن سُفيان ، عن جويرية بن أسماء ، قال : كان بيد عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة ضيعة المعروفة بالسهلة ، وكانت باليمامة . وكانت امرأة عظيمة لها غلة عظيمة كثيرة ، إنما يعيشه وعيش أهله منها ، فلما ولي الخلافة قال لزاحم مولاه - وكان فاضلاً - : إني قد عزمت أن أرد السهلة إلى بيت مال المسلمين ، فقال مزاحم : أتدرى كم ولدك ؟ إنهم كذا وكذا ، قال : فذرفت عيناه ، فجعل يستدمع ويمسح الدّمة بأصبعه الوسطى ، ويقول : أكلهم إلى الله ، أكلهم إلى الله ! ففضى مزاحم فدخل على عبد الملك ابن عمر ، فقال له : ألا تعلم ما قد عزم عليه أبوك ! إنّه يريد أن يرد السهلة ، قال : فما قلت

له ؟ قال : ذكرتُ له ولده فجعل يستدمع ويقول : أكلهم إلى الله . فقال عبد الملك :
 بش وزير الدين أنت ! ثم وثب وانطلق إلى أبيه فقال للآذن : استأذن لي عليه ، فقال :
 إنه قد وضع رأسه الساعة للقائلة ، فقال : استأذن لي عليه ؛ فقال : أما ترحمونه ! ليس له
 من الليل والنهار إلا هذه الساعة . قال : استأذن لي عليه لا أم لك ! فسمع عمرُ كلامهما ،
 فقال : ائذن لعبد الملك ، فدخل فقال : على ماذا عزمت ؟ قال : أردتُ السهلة قال : فلا تؤخر
 ذلك قم الآن . قال : فجعل عمرُ يرفع يديه ويقول : الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي مَنْ
 يعينني على أمر ديني . قال : نعم يا بني أصل الظهر ، ثم أصعد المنبر فأردّها علانيةً على
 رؤوس الناس ، قال : ومن لك أن تعيش إلى الظهر ! ثم من لك أن تسلم نيتك إلى الظهر
 إن عشت إليها ! فقام عمر فصعد المنبر ، فخطب الناس ورد السهلة .

قال : وكتب عمرُ بنُ الوليد بن عبد الملك إلى عمرَ بن عبد العزيز لما أخذ بني مروان
 برد المظالم كتاباً أغلظَ له فيه ، من مُجلته : إنك أزريت على كل مَنْ كان قبلك من الخلفاء
 وعبتهم ، وسرتَ بغير سيرتهم بُغضاً لهم وشناً لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعتَ ما أمر
 الله به أن يُوصل ، وعمدتَ إلى أموال قريش ومواريتهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعُدواناً ،
 فاتق الله يا بن عبد العزيز وراقبه ، فإنك خصصتَ أهل بيتك بالظلم والجور . ووالذي خصَّ
 محمداً صلى الله عليه وآله بما خصّه به لقد أزددتَ من الله بُمداً بولايتك هذه التي زعمتَ أنها
 عليك بلاء . فأقصِر عن بعض ما صنعتَ ، وأعلم أنك بعين جبار عزيز وفي قبضته ،
 ولن يتركك على ما أنت عليه .

قالوا : فكتب عمرُ جوابه : أما بعد ، فقد قرأتُ كتابك ، وسوف أجيبك بنحو منه ،
 أما أول أمرك يا بن الوليد فإن أملك نبأته أمة السكون ، كانت تطوف في أسواقِ رخص ،
 وتدخل حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ؛ اشتراها ذبيان بنُ ذبيان من قِء المسلمين ، فأهداها

لأبيك ، فحمت بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ! ثم نشأت فكنت جباراً عنيدا . وترغم
أنت من الظالمين لأنى حرمتك وأهل بيتك في الله الذى هو حقّ القرابة والمساكين
والأرامل ! وإنّ أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيها على جند المسلمين تحكّم
فيهم برأيك ، ولم يكن له في ذلك نية إلا حبّ الوالد ولده ، فويل لك وويل لأبيك ! ما أكثر
خصماءكم يوم القيامة ! وإنّ أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على
مخسى العرب ، يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام . وإنّ أظلم منى وأترك لعهد
الله من استعمل فرّة بن شريك ، أعرابياً جافياً على مصر ، وأذن له في المعازيف والخمر
والشرب واللهو . وإنّ أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل عثمان بن حيان على الحجاز ،
فينشد الأشعار على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنّ جعل للعالية البربرية سهماً في
الحمس ؛ فرويداً يابن نبانة ، ولو التقت حلقتا البطان^(١) وردّ النّى إلى أهله ، لتفرّغت
لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحجّة البيضاء ، فطالما تركتم الحقّ ، وأخذتم في بُنيّات
الطريق ! ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أعمله ؛ بيع رقبتك ، وقسم ثمنك بين
الأرامل واليتامى والمساكين ، فإنّ لكلّ فيك حقّاً ، والسلام علينا ، ولا ينال سلام
الله الظالمين .

وروى الأوزاعيّ قال : لما قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان من قبله
يُجرّونه عليهم من أرزاق الخاصة ، فتكلّم في ذلك عنبسة بن سعيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ،
إنّ لنا قرابةً ، فقال : مالى إن يتّسع لكم ، وأمّا هذا المال فحقكم فيه كحقّ رجل بأقصى
برك الغماد^(٢) ، ولا يمنعه من أخذه إلا بعد مكانه . والله إنى لأرى أنّ الأمور

(١) التقت حلقتا البطان : مثل يضرب الأمر العظيم .

(٢) برك الغماد : موضع بين مكة وزيد .

لو أَسْتَحَالَتْ حَتَّى يُصْبِحَ أَهْلُ الْأَرْضِ يَرُونَ مِثْلَ رَأْيِكُمْ لَنَزَلَتْ بِهِمْ بَاقِعَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

وَرَوَى الْأَوْزَاعِيُّ أَيْضًا ، قَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمًا وَقَدْ بَلَغَهُ عَنْ بَنِي أُمَيَّةَ كَلَامٌ أَغْضَبَهُ : إِنَّ اللَّهَ فِي بَنِي أُمَيَّةَ يَوْمًا - أَوْ قَالَ : ذِيحَاءَ - وَابِئِ اللَّهِ لَنْ كَانَ ذَلِكَ الذَّبْحُ - أَوْ قَالَ ذَلِكَ الْيَوْمَ - عَلَى يَدَيِ الْأَعْدَرْنَ اللَّهُ فِيهِمْ . قَالَ : فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ كَفَّوْا ، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ صَرَامَتَهُ ، وَإِنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي أَمْرٍ مَضَى فِيهِ .

وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ ، قَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمًا لِحَاجِبِهِ : لَا تُدْخِلْنِي عَلَى الْيَوْمِ إِلَّا مَرَّوَانِيَا . فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ : يَا بَنِي مَرْوَانَ ، إِنَّكُمْ قَدْ أُعْطِيتُمْ حَظًّا وَشَرَفًا وَأَمْوَالًا ، إِنِّي لَأَحْسِبُ شَطْرَ أَمْوَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ ثُلُثِيهَا فِي أَيْدِيكُمْ ، فَسَكَّتُوا ، فَقَالَ : أَلَا تُجِيبُونِي ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : فَا بَالُكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْتَزِعَ عَنْكُمْ ، فَأَرُدَّهَا إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ حَتَّى يَحَالَ بَيْنَ رِءُوسِنَا وَأَجْسَادِنَا ، وَاللَّهِ لَا نُنْكَفِرُ أَسْلَافَنَا ، وَلَا نُفْقِرُ^(١) أَوْلَادَنَا . فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَى بَنِي أَطْلُبَ هَذَا الْحَقَّ لَهُ لَأَضْرَعْتُ خُدُودَكُمْ ! قَوْمُوا عَنِّي .

وَرَوَى مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، قَالَ : ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمُرُوءَانِيَّةِ فَعَابَهُمْ ، وَعِنْدَهُ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا وَاللَّهِ نَكْرَهُ أَنْ تَعِيبَ آبَاءَنَا ، وَتَضَعُ شَرَافَنَا ؟ فَقَالَ عُمَرُ : وَأَيَّ عَيْبٍ أُعِيبُ مِمَّا عَابَهُ الْقُرْآنُ !

وَرَوَى نَوْفَلُ بْنُ الْفَرَاتِ ، قَالَ : شَكَا بَنُو مَرْوَانَ إِلَى عَاتِكَةَ بِنْتِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ عُمَرَ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ يَعِيبُ أَسْلَافَنَا ، وَيَأْخُذُ أَمْوَالَنَا . فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ - وَكَانَتْ عَظِيمَةً عِنْدَ بَنِي مَرْوَانَ - فَقَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قُبِضَ وَتَرَكَ

(١) ب : « وَتَقَرَّ » .

الناس على نهري مَوْرود ، فولى ذلك النهر بعده رجلان لم يستخصا أنفسهما وأهلتهما منه بشيء ، ثم وليه ثالث ففكرى منه ساقية ، ثم لم تزل الناس يُكرُّون منه السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرّة فيه ، وأيم الله لئن أبقاني الله لأسكرن^(١) تلك السواقي حتى أعيد النهر إلى مجراه الأوّل ؛ قالت : فلا يُسبّون إذاً عندك ! قال : ومن يسبّهم ! إنما يرفع الرجل مظلمته فأردّها عليه .

وروى عبدُ الله بن محمد التيمي ، قال : كان بنو أمية يُنزلون عاتكة بنت مروان بن الحكم على أبواب قصورهم ، وكانت جليّة الموضع عندهم ، فلمّا ولى عمرُ قال : لا يلى إنزالها أحدٌ غيرى ، فأدخلوها على دابّتها إلى باب قُبته ، فأنزّلها ، ثم طبّق لها وسادتين ، إحداهما على الأخرى ، ثم أنشأ يُمازحها - ولم يكن من شأنه ولا من شأنها المزاح - فقال : أما رأيت الحرس الذين على الباب ؟ فقالت : بلى ، وربّما رأيتهم عند من هو خير منك ! فلمّا رأى الغضب لا يتحلّل عنها ترك المزاح وسألها أن تذكر حاجتها ، فقالت : إن قرأتك يشكونك ، ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال : ما منعتم شيئاً هو لهم ، ولا أخذت منهم حقّاً يستحقّونه ! قالت : إنّي أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً^(٢) ، وقال : كلّ يوم أخافه - دون يوم القيامة - فلا وقانى الله شرّه . ثمّ دعا بدِينار وبجمرة وجلد فألقى الدِينار في النار ، وجعل ينفخ حتى أحمرّ ، ثم تناوله بشيء فأخرجه فوضعه على الجلد ، فنشّ وفتر ، فقال : يا عمّة ، أما تأوين لابن أخيك ، من مثل هذا ، فقامت فخرجت إلى بنى مروان فقالت : تزوّجون في آل عمر بن الخطّاب ، فإذا نزّعوا إلى الشّبه^(٣) جزعتم ! اصبروا له .

وروى وهيب بن الورد ، قال : اجتمع بنو مروان على باب عمر بن عبد العزيز ، فقالوا لولده : قل لأبيك يَأْذَن لنا ، فإن لم يأذن فأبلغ إليه عنّا وسالة ، فلم يأذن لهم ، وقال :

(١) سكر الساقية : سدها . (٢) د : « أن يهيجوا عليك غضبا يوما » .

(٣) كذا في د ، وفي أ ، ب « السنة » .

فليقولوا ، فقالوا : قل له : إن من كان قبلك من الخلفاء كان يمطينا ، ويعرف لنا مواضعنا ، وإن أباك قد حرّمنا ما في يديه . فدخّل إلى أبيه فأبلغه عنهم ، فقال : أخرج فقل لهم : إني أخف إن عصيتُ ربّي عذاب يوم عظيم .

وروى سعيدُ بنُ عمّار ، عن أسماء بنت عبيد ، قال : دخل عنبسة بنُ سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عطايا منعناها ، ولّى عيالاً وضيعةً ، فأذن لي أخرج إلى ضيعتي ، وما يصلح عيالي ! فقال عمر : إن أحبكم إلينا من كفانا مؤوتته . نخرج عنبسة ، فلما صار إلى الباب ناداه : أبا خالد ! أبا خالد ! فرجع فقال : أكثر ذكر الموت فإن كنت في ضيق من العيش وسّعه عليك ، وإن كنت في سعة من العيش ضيّقه عليك .

وروى عمرُ بن عليّ بن مقدّم ، قال : قال ابنُ صغيرٍ لسليمان بن عبد الملك لمزاحم : إن لي حاجةً إلى أمير المؤمنين عمر ؟ قال : فاستأذنت له ، فأدخله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لم أخذت قطيعتي ؟ قال : معاذ الله أن أخذ قطيعةً ثبتت في الإسلام ! قال : فهذا كتابي بها - وأخرج كتاباً من كمه - فقراه عمر وقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : كانت للمسلمين ، قال : فالمسلمون أولى بها . قال : فاردّد عليّ كتابي ؟ قال : إنك لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به فلست أدعك تطلب به ما ليس لك بحق . فبكى ابن سليمان ، فقال لمزاحم : يا أمير المؤمنين ، ابنُ سليمان تصنع به هذا - قال : وذلك لأن سليمان عهد إلى عمر ، وقدمه على إخوته - فقال عمر : ويحك يا مزاحم ! إني لأجد له من اللوط^(١) ما أرجد لو لدي ، ولكنّها نفسى أجادلُ عنها .

وروى الأوزاعي ، قال : قال هشام بن عبد الملك ، وسعيد بن خالد بن عمر بن عثمان

(١) في اللسان : « قد لامط حبه بقلبي ، أي لصق . وفي حديث أبي البختري : ما أزعج أن علياً أفضل من أبي بكر وعمر ؟ ولكن أجد له من اللوط ما لأجد لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم » .

ابن عفان لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، واخل بين من سبقك وبين ما أولوه عليهم كان ، أو لهم ، فإنك مستكف أن تدخل في خير ذلك وشره . قال : أنشدك الله الذي إليه تعودان ، لو أن رجلا هلك وترك بنين أصغر وأكبر ، فغر الأكبر الأصغر بقوتهم ، فأكلوا أموالهم ، ثم بلغ الأصغر الحلم فجاءوكا بهم وبما صنعوا في أموالهم ما كنتم صانعين ؟ قالوا : كنا نرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال : فإني وجدت كثيرا ممن كان قبلي من الولاة غر الناس بسلطانهم وقوته ، وآثر بأموالهم أتباعه وأهله ورهطه وخاصته ، فلما وليت أتوني بذلك ، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف من القوى ، وعلى الدنيء من الشريف . فقالوا : يوفق الله أمير المؤمنين .

الأفضل

وَلَا تَدْفَعَنَّ صَلَاحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلَّهِ فِيهِ رِضًا ، فَإِنَّ فِي الصَّاحِرِ دَعَاً لِيَجُنُودَكَ ؛ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ ، وَلَكِنَّ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلَاحِهِ ، فَإِنَّ الدُّوْرُ بَمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ . فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَأَتَاهِمِ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ . وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ لَكَ عُقْدَةٌ ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ .

وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيَتْ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَاءِهِمْ ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْمُحُودِ ؛ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ النَّدَرِ . فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلَا تَخَيِّسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تَخْتَلَنَّ عَدُوَّكَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ ،

وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جَوَارِهِ ، فَلَا إِذْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ .

وَلَا تَعْقِدْهُ عَقْداً تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلُ ، وَلَا تَعْمَلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّائِيْدِ وَالْتَوَاتُفَةِ ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضَيْقُ أَمْرٍ لَزَمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِصَاخِهِ بِمَيْرِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضَيْقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرِ تَخَافُ تَبِعَتَهُ ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ طَلِبَةٌ لَا تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ .

الشَّرْحُ :

أَمْرَهُ أَنْ يَقْبَلَ السَّلَامَ وَالصَّلَاحَ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ دَعَا الْجُنُودِ ، وَالرَّاحَةِ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْأَمْنِ لِلْبِلَادِ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرُ بَعْدَ الصَّلَاحِ مِنْ غَائِلَةِ الْعَدُوِّ وَكَيْدِهِ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَارِبَ بِالصَّلَاحِ لِيَتَغَفَّلَ ، أَيْ يَطْلُبَ غَفْلَتَكَ ، نَفْذَ بِالْحَزْمِ ، وَأَتَاهُمْ حُسْنَ ظَنِّكَ ، لَا تَتَّقِ وَلَا تَسْكُنْ إِلَى حُسْنِ ظَنِّكَ بِالْعَدُوِّ ، وَكُنْ كَالطَّائِرِ الْخَذِيرِ .

ثُمَّ أَمْرَهُ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ؛ قَالَ : وَاجْعَلْ تَفْسِكَ جُزْءَ دُونِ مَا أُعْطِيتَ ، أَيْ وَلَوْ ذَهَبْتَ نَفْسُكَ فَلَا تَغْدِرَ .

وَقَالَ الرَّائِدِيُّ : النَّاسُ مَبْتَدَأُ ، وَأَشَدُّ مَبْتَدَأُ ثَانٍ ، وَمِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ خَبْرُهُ ، وَهَذَا الْمَبْتَدَأُ الثَّانِي مَعَ خَبْرِهِ خَبْرُ الْمَبْتَدَأِ الْأَوَّلِ ، وَمَحَلُّ الْجُمْلَةِ نَصْبٌ لِأَنَّهَا خَبْرُ لَيْسَ ، وَمَحَلُّ لَيْسَ مَعَ اسْمِهِ وَخَبْرُهُ رَفْعٌ ، لِأَنَّهُ خَبْرٌ ، فَإِنَّهُ وَشَيْءٌ اسْمٌ لَيْسَ ، وَمِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ حَالٌ ، وَلَوْ تَأَخَّرَ لَكَانَ صِفَةً لَشَيْءٍ . وَالصَّوَابُ أَنَّ « شَيْءٌ » اسْمٌ لَيْسَ ، وَجَازَ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ نَكْرَةً لِاعْتِمَادِهِ عَلَى النِّفْيِ ، وَلِأَنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ قَبْلَهُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ كَالصِّفَةِ ، فَتَخَصَّصَ بِذَلِكَ وَقَرَّبَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، وَالنَّاسُ : مَبْتَدَأُ ، وَأَشَدُّ : خَبْرُهُ ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمَرْكَبَةُ مِنْ مَبْتَدَأٍ

وخبر في موضع رَفَع لَأَنَّهَا صِفَةٌ « شَيْء » وأما خبر المبتدأ الذي هو « شَيْء » فمحذوف ، وتقديره « في الوجود » كما حذف الخبر في قولنا : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أى في الوجود . وليس يصح ما قال الراوندى من أن « أشد » مبتدأ ثان ، و « من تعظيم الوفاء » خبره ، لأن حرف الجر إذا كان خبراً لمبتدأ تعلق بمحذوف ، وهاهنا هو متعلق بأشد نفسه ، فكيف يكون خبراً عنه ! وأيضاً فإنه لا يجوز أن يكون أشد من تعظيم الوفاء خبراً عن الناس ، كما زعم الراوندى ، لأن ذلك كلام غير مفيد ، ألا ترى أنك إذا أردت أن تُخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذي هو « الناس » لم يَقم من ذلك صورة محصلة تفيدك شيئاً ، بل يكون كلاماً مضطرباً !

ويمكن أيضاً أن يكون « من فرائض الله » في موضع رَفَع ، لأنه خبر المبتدأ ، وقد قدم عليه ، ويكون موضع « الناس » وما بعده رَفَعٌ ، لأنه خبر المبتدأ الذي هو « شَيْء » كما قلناه أولاً ، وليس يمتنع أيضاً أن يكون : « من فرائض الله » منصوب الموضع ، لأنه حال ، ويكون موضع « الناس أشد » رفعا ، لأنه خبر المبتدأ ، الذي هو « شَيْء » .

ثم قال له عليه السلام : وقد لزم المشركون مع شرّ كههم الوفاء بالعهود ، وصار ذلك لهم شريعة وبينهم سنة ، فالإسلام أولى باللزم والوفاء .

واستوبلوا : وجدوه وريلا ، أى ثقيلًا ، استوبلت البلاد ، أى استوبلت حتمه واستثقلته ، ولم يوافق مزاجك .

ولا تخيسنّ بعهديك ، أى لا تغدرنّ ، خاس فلانٌ بذمته ، أى غدر ونكث .

قوله : « ولا تحتلنّ عدوك » ، أى لا تمكرنّ به ، ختلته ، أى خدعته .

وقوله : « أفضاه بين عباده » ، جعله مشتركاً بينهم ، لا يختص به فريق دون

فريق .

قال : « ويستفيضون إلى رجواره » ، أى ينتشرون فى طلب حاجتهم ومآربهم ، ساكنين إلى جواره ، فإلى ها هنا متعلقة بمحدوف مقدر ، كقوله تعالى : ﴿ فى تسع آياتٍ إلى فرعون ﴾^(١) ، أى مرسلًا . قال : « فلا إدغال » ، أى لا إفساد ، والدَّغْل : الفساد . ولا مُدالسة ، أى لا خديعة ، يقال : فلان لا يوالس ولا يُدالس ، أى لا يخادع ولا يخون ، وأصل الدَّلس الظلمة ، والتدليس فى البَيْع : كتمان عيب السلعة عن المشتري .

ثم نهاء عن أن يعقد عقداً يمكن فيه التأويلات والعلل وطلب الخارج . ونهاء إذا عقد العقد بينه وبين العدو أن ينقضه معمولاً على تأويل خفى أو غوى قول ، أو يقول : إنما عنيت كذا ؛ ولم أعن ظاهر اللفظة ؛ فإن العقود إنما تعقد على ما هو ظاهر فى الاستعمال متداول فى الاصطلاح والعرف لا على ما فى الباطن .
وروى « انفساحه » بالحاء المهملة ، أى سعتة .

[فصل فيما جاء فى الحذر من كيد العدو]

قد جاء فى الحذر من كيد العدو والنهى عن التفريط فى رأى السكون إلى ظاهر السلم أشياء كثيرة ، وكذا فى النهى عن الغدر والنهى عن طلب تأويلات اليهود وفسخها بغير الحق . فرط عبد الله بن طاهر فى أيام أبيه فى أمرٍ أشرف فيه على العطب ، ونجا بعد لأى^(٢) فكتب إليه أبوه : أنا أنى يا بُنى من خبر تقرطك ما كان أكبر عندي من نعيمك لو وُرد ، لأننى لم أرج قط ألا تموت ، وقد كنت أرجو ألا تقتضح بترك الحزم والتيقظ .
وروى ابن السكبي أن قيس بن زهير لما قتل حذيفة بن بدر ومن معه بجفر الهباءة ،

(٢) بعد لأى ؛ بعد جهد .

(١) سورة النمل ١٢ .

خرج حتى لحق بالنمر بن قاسط وقال : لا تنظرُ في وجهي غطفانيَّةٌ بعد اليوم ؛ فقال :
يا معاشرَ النمر ، أنا قيس بن زهير ، غريبٌ حَرِيبٌ طريدٌ شريدٌ موتورٌ ، فأنظروا لي
امراً قد أذهبها الفنى وأذلها الفقر . فزوجوه بامرأةٍ منهم ، فقال لهم : إني لا أقيم فيكم
حتى أخبركم بأخلاقى ، أنا نخور غيور أنف ، ولست أنخر حتى أبتلى ، ولا أغار حتى أرى ،
ولا آنف حتى أظلم . فرضوا أخلاقه ، فأقام فيهم حتى وُلد له ، ثم أراد أن يتحول عنهم ،
فقال : يا معاشرَ النمر ، إن لكم حقاً علىّ في مُصاهرتي فيكم ، ومُقَامي بين أظهركم ،
وإني موصيكم بمخالفِ أمركم بها ، وأنها لكم عن خصالٍ : عليكم بالآثاء فإن بها تُدرَك
الحاجة ، وتنال الفرصة ، وتسويد من لا تُعابون بتسويده ، والوفاء بالهود فإن به
يعيشُ الناس ، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنع ما تريدون منعه قبل الإنعام ،
وإجارة الجار على الدهر ، وتنفيس البيوت عن منازل الأيى ، وخَلَط الضيف بالعيال .
وأنها لكم عن الغدر ، فإنه عارُ الدهر ، وعن الرّهان فإن به ثكلتُ ما لكأ أخى ، وعن
البغى فإن به صُرِعَ زهيرٌ أبى ، وعن السرف في الدماء ؛ فإن قتلَ أهلَ الهبابة أوردنى
العار . ولا تُعطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق ، وأنكحوا الأيى الأكفاء فإن
لم تصيبوا بهن الأكفاء تغيرُ بيوتهن القبور . وأعلموا أنى أصبحتُ ظالماً ومظلوماً ، ظلمنى
بنو بدر بقتلهم مالكا ، وظلمتهم بقتلى من لا ذنب له . ثم رحل عنهم إلى غمار^(١) فتنصر
بها ، وعَفَّ عن المأكَل حتى أكل الحنظل إلى أن مات .

الأفضل :

إِيَّاكَ وَالْدَّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ ؛ وَلَا أَعْظَمَ

(١) غمار : اسم واد بنجد .

لِتَبْعَةٍ ، وَلَا أُخْرَى بَزَوَالِ نِعْمَةٍ ؛ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ،
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
فَلَا تُقَوِّينَ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ ، بَلْ يُزِيلُهُ
وَيَنْقُلُهُ .

وَلَا غُدْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ ، لِأَنَّ فِيهِ قَوْدَ الْبَدَنِ ،
وَإِنْ ابْتُلِيتَ بِخَطَا ، وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْمَقُومَةِ ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ -
فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً ، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُودَّى إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ
حَقَّهُمْ .

الْشُّرْحُ :

قد ذكرنا في وصية قيس بن زهير آتفا انتهى عن الإسراف في الدماء ، وتلك وصية
مبنية على شريعة الجاهلية مع حميتها ونهاؤها على القتل والقتال ، ووصية أمير المؤمنين
عليه السلام مبنية على الشريعة الإسلامية ، وانتهى عن القتل والمُدُون الذي لا يُسيغه
الدين ، وقد ورد في الخبر المرفوع : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يَقْضِي اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْعِبَادِ أَمْرُ
الدِّمَاءِ » . قال : إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى حُلُولِ النَّقْمِ ، وَزَوَالِ النِّعَمِ ، وَأُنْتِقَالِ الدُّوَلِ ، مِنْ
سَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّكَ إِنْ ظَنَنْتَ أَنَّكَ تُقَوِّى سُلْطَانَكَ بِذَلِكَ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنْنْتَ ،
بَلْ تَضْعِفُهُ ، بَلْ تُعْدِمُهُ بِالْكَلْبَةِ .

ثم عرّفه أَنْ قَتَلَ الْعَمْدَ يوجب القَوْدَ وقال له : « قَوْدُ الْبَدَنِ » أى يجب عليك هَدْمُ
صورتك كما هدمت صورة المقتول ، والمراد إرهابه بهذه اللفظة أَنَّهَا أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقُولَ لَهُ :
« فَإِنَّ فِيهِ الْقَوْدَ » .

ثم قال : إِنْ قَتَلْتَ خَطَاً أَوْ شَبِهَ عَمْدٍ كَالضَّرْبِ بِالسَّوْطِ فَعَلَيْكَ الدِّيَّةُ . وقد اختلف .

الفتهاء في هذه المسألة ، فقال أبو حنيفة وأصحابه : القتل على خمسة أوجه : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ ، وما أجرى مجرى الخطأ ، وقتل بسبب .

فالعمد : ما تعمّد به ضرب الإنسان بسلاح ، أو ما يجري مجرى السلاح ، كالمحدّد من الخشب وليطة^(١) القصب ، والمرّوة^(٢) المحدّدة ، والنار ؛ وموجب ذلك المأثم والقود إلا أن يعفو الأولياء ، ولا كفّارة فيه .

وشبه العمد أن يتعمّد الضرب بما ليس بسلاح ، ولا أجرى مجرى السلاح ، كالْحَجَرِ العظيم ، والخشبة العظيمة ، وموجب ذلك المأثم والكفّارة ، ولا قود فيه ، وفيه الدية منقّلة على العاقلة .

والخطأ على وجهين : خطأ في القصد ، وهو أن يرّمى شخصا يظنه صيدا ، فإذا هو آدمي . وخطأ في الفعل ، وهو أن يرّمى غرضا فيصيب آدميا ، وموجب النوعين جيمما الكفّارة والدية على العاقلة ، ولا مأثم فيه .

وما أجرى مجرى الخطأ مثل النائم يتقلب على رَجُل فيقتله ، فيحكمه حكم الخطأ . وأما القتل بسبب ، فخافر البئر وواضع الحجر في غير ملكه ، وموجبه إذا تلف فيه إنسان الدية على العاقلة ، ولا كفّارة فيه .

فهذا قول أبي حنيفة ومن تابعه ؛ وقد خالفه أصحابه أبو يوسف ومحمد في شبه العمد ، وقالوا : إذا ضرب به بحجر عظيم أو خشبة غليظة فهو عمد ؛ قال : وشبه العمد أن يتعمّد ضربه بما لا يقتل به غالبا ، كالعصا الصغيرة ، والسوط ؛ وبهذا القول قال الشافعي . وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أن المؤدّب من الولاة إذا تلف تحت

(١) الليط : قشر القصب اللازق به .

(٢) المروة : حجر أبيض براق ؛ وفي الحديث : « قال له عدى بن حاتم : إذا أصاب أحدنا صيدا وليس معه سكين ، أيدع بالمروة وشقة العصا ؟ »

يده إنسان في التأديب فعليه الدية ، وقال لى قوم من فقهاء الإمامية : إن مذهبنا أن لا دية عليه ، وهو خلاف ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

الأصل :

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرُصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ .
وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ؛ أَوْ التَّزَيُّدَ فِيهَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعْدَهُمْ، فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَّ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١) .

وَإِيَّاكَ وَالْمَجَلَّةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوْ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوْ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرْتَ، أَوْ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحْتَ، فَضَعَّ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقَعَ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .

وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِثْنَاءَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسُوءَ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَعَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَا خُوِذَ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ .

اْمَلِكُ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسُورَةَ حَدِّكَ، وَسَطَوَةَ يَدِكَ، وَغَرَبَ لِسَانِكَ، وَاحْتِرْسَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطَوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ، فَتَمْلِكَ الْإِخْتِيَارَ . وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ .

(١) سورة الصف ٣ .

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ ، مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ بِمَا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَاهَدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا ، وَاسْتَوْفَتْ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسْرُعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

الشَّرْحُ :

قد اشتمل هذا الفصل على وصايا نحنُ شارحوها ، منها قوله عليه السلام : « إِيَّاكَ وما يُعجبك من نفسك ، والثقة بما يُعجبك منها » ؛ قد ورد في الخبر : « ثلاثٌ مُهلكاتٌ : شحٌّ مطاع ، وهوى متَّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه » ؛ وفي الخبر أيضا : « لا وَحْشَةَ أَشَدَّ مِنَ الْمُعْجَبِ » ، وفي الخبر : « النَّاسُ لَأَدَمَ ، وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ ، فَا لِبْنُ آدَمَ وَالْفَخْرُ وَالْعُجْبُ ! » . وفي الخبر : « الْجَارُ ثَوْبُهُ خِيَلَاءُ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؛ وفي الخبر — وقد رأى أبا دُجَانَةَ يَتَخَيَّرُ : « إِنَّهَا لِمِشِيَّةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ إِلَّا بَيْنَ الصَّفَيْنِ » .

ومنها قوله : « وَحُبُّ الْإِطْرَاءِ » ، ناظرَ المأمونُ محمد بنَ القاسمِ النُّوشَجَانِيَّ المتكلمَ ، فجعل يصدِّقه ويُطْرِيه ويستحسن قوله ، فقال المأمون : يا محمد ، أراك تنقادُ إلى ما تظنُّ أنه يسرُّني قبل وجوب الحجَّةِ لي عليك ، وتُطْرِيني بما لستُ أحبُّ أن أُطْرَى به ، وتَسْتَخْذِي لي في المقام الَّذِي يَبْنِي أَنْ تَكُونَ فِيهِ مُقَاوِمًا لِي ، ومحتجًا عليّ ، ولو شئتُ أن أقسِرَ الأمورَ بفضْلِ بيان ، وطُولِ لسان ، وأغْتَصِبَ الحجَّةَ بقوةِ الخلافةِ ، وأُبهَةِ الرِّياسَةِ لصدَّقْتُ وإن كنتُ كاذبًا ، وعدلتُ وإن كنتُ جائرًا ، وصوِّبتُ وإن كنتُ مخطئًا ،

لكنى لا أرضى إلا بعلبة الحجّة ، ودفع الشبهة ، وإنّ أنقص الملوك عقلاً ، وأسخفهم رأياً ، من رضى بقولهم : صدق الأمير .

وأثنى رجلٌ على رجل ، فقال : الحمد لله الذى سترنى عنك . وكان بعض الصالحين يقول إذا أطراه إنسان : ليسألك^(١) الله عن حسن ظنك .

ومنها قوله : « وإياك والمن » ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾^(٢) . وكان يقال : المن حجة للنفس ، مفسدة للصنع .

ومنها نهيه إياه عن التزيد فى فعله ، قال عليه السلام : إنه يذهب بنور الحق ، وذلك لأنّه محض الكذب ، مثل أن يسدى ثلاثة أجزاء من الجليل فيدعى فى المجالس والمحافل أنّه أسدى عشرة ، وإذا خالط الحق الكذب أذهب نوره .

ومنها نهيه إياه عن خلف الوعد ، قد مدح الله نبيّاً من الأنبياء وهو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام بصدق الوعد . وكان يقال : وعد الكريم نقد وتمجيل ، ووعد اللّيم مطل وتمطيل . وكتب بعض الكتاب : وحق لمن أزهَرَ بقول ، أن يُشير بفعل . وقال أبو مقاتل الضّرير : قلت لأعرابي : قد أكثر الناس فى المواعيد ، فما قولك فيها ؟ فقال : بسّ الشئ ! الوعد مشغلة للقلب الفارغ ، متممة للبدن الخافض ، خيرُهُ غائب ، وشره حاضر . وفى الحديث المرفوع : « عِدّة المؤمن كأخذ باليد » ، فمّا أمير المؤمنين عليه السلام فقال : « إنّه يوجب المقت » ، واستشهدَ عليه بالآية . والمقت : البُغض .

ومنها نهيه عن العجلة ؛ وكان يقال : أصاب متثبت أو كاد ، وأخطأ عجّل أو كاد . وفى المثل : « ربّ عجّلتَ سهبَ ريتنا » ، وذمّها الله تعالى فقال : ﴿ خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾^(٣) .

(١) فى د « لاسألك » . (٢) سورة البقرة ٢٦٤ . (٣) سورة الأنبياء ٣٧ .

ومنها نهيه عن التساقط في الشيء الممكن عند حضوره ، وهذا عبارة عن النهي عن
الحرص والجشع ، قال الشنفرى :

وإن مدّت الأيدي إلى الزاد لم أكنْ بأعجلٍ لهم إذ أجشعُ القومِ أعجلُ
ومنها نهيه عن اللّجاجة في الحاجة إذا تعدّرت ؛ كان يقال : من لاجّ الله فقد جمّله
خصما ، ومن كان الله خصمه فهو مخصوم ، قال الغزّلى :

دنيا سماوية تجري على قدرٍ لا تُفسدُ نها برأى منك معكوسٍ
ومنها نهيه له عن الوهن فيها إذا استوضحت ، أى وضحت وانكشفت ، ويروى :
« واستوضحت » فعلٌ ما لم يسمّ فاعله ، والوهن فيها إهالها وترك انتهاز الفرصة فيها ،
قال الشاعر :

فإذا أمكنت فبادرْ إليها حذرا من تعدُّر الإمكانِ

ومنها نهيه عن الاستثثار ، وهذا هو الخلق النبوى ، غنم رسولُ صلى الله عليه
 وآله غنائمَ خير ، وكانت ملء الأرض نعمة ، فلما ركب راحلته وسار تبعه الناس يطلبون
 الغنائم وقسمها ، وهو ساكت لا يكلمهم ، وقد أكثروا عليه إلحاحا وسؤالا ، فرّ بشجرة
 نخطفت^(١) رداءه ، فالتفت فقال : ردّوا على ردائى ، فلو ملكت بعدد رملٍ بهامة مغمنا
 لقسمته بينكم عن آخره ثم لا تجدوننى بخيلا ولا جبانا ، ونزل وقسم ذلك المال عن آخره
 عليهم كلّهم ، لم يأخذ لنفسه منه وبرّة .

ومنها نهيه له عن التغايب ، وصورة ذلك أن الأمير يؤمى إليه أن فلانا من خاصته يفعل
 كذا ، ويفعل كذا من الأمور المنكرة ويرتكبها سرا ، فيتغابى عنه ويتغافل ، نهاه عليه
 السلام عن ذلك وقال : إنك مأخوذٌ منك لغيرك ، أى معاقب ؛ تقول : اللهم خذلى من
 فلان بحقّى ، أى اللهم انتقم لى منه .

(١) د « فاختطفت » .

ومنها نهيه إتياء عن الغضب ، وعن الحكم بما تقتضيه قوته الغضبية حتى يسكن غضبه ، قد جاء في الخبر الرفوع : « لا يقضى القاضي وهو غضبان » ، فإذا كان قد نهى أن يقضى القاضي وهو غضبان على غير صاحب الخصومة ، فبالأولى أن ينهى الأمير عن أن يسطو على إنسان وهو غضبان عليه .

وكان لكسرى أنوشروان صاحب قدرته ونصبه لهذا المعنى يقف على رأس الملك يوم جلوسه ، فإذا غضب على إنسان وأمر به قرع سلسلة تاجه بقضيب في يده وقال له : إِنَّمَا أَنْتَ بَشَرٌ ، فَارْحَمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ .

الأفضل :

ومن هذا العهد وهو آخره :

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ يُوقِّعَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَا ، مِنْ الْإِقَامَةِ عَلَى الْمَذْهَبِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعَمَةِ ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ؛ وَأَنْ يُخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ ؛ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ^(١) ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ[عَلَى^(٢)] آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ .

الشنخ :

رُوي : « كل رغبة » ، والرغبة ما يُرغب فيه ؛ فأما الرغبة فصدور رغب في كذا ، كأنه قال : القادر على إعطاء كل سؤال ، أي إعطاء كل سائل ما سأل .

(١) في د « وأنا إليه راغبون » . (٢) من « د » .

ومعنى قوله : « من الإقامة على المُذَر » ، أى أسأل الله أن يوفقنى للإقامة على الاجتهاد ، وبذل الوسع فى الطاعة ، وذلك [لأنه^(١)] إذا بذل جهده فقد أعدّر ، ثم قسّر اجتهاده فى ذلك فى رضا الخلق ، ولم يفسّر اجتهاده فى رضا الخالق ، لأنه معلوم ؛ فقال : هو حُسْنُ الثناء فى العباد ، وجَمِيلُ الأثر فى البلاد .

فإن قلت : فقوله « وتَمَامُ النعمة » على ماذا تَمتّطه ؟ قلت : هو معطوفٌ على « ما » من قوله « لما فيه » ، كأنه قال : أسأل الله توفيقى لذا ولتَمَامِ النعمة ، أى ولتَمَامِ نعمته علىّ ، وتضاعف كرامته لدىّ ، وتوفيقه لهما هو توفيقه للأعمال الصالحة التى يستوجبها بها .

[فصل فى ذكر بعض وصايا العرب]

وينبئ أن يذكر فى هذا الموضع وصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصوا بها أولادهم ورَهْطَهم ، فيها آدابٌ حسان ، وكلام فصيح ، وهى مناسبة لعهدِ أميرِ المؤمنين عليه السلام هذا ، ووصاياهِ المودعة فيه ، وإن كان كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام أجَلّ وأعلى من أن يُناسِبَه كلام ، لأنه قَبَسَ من نور الكلام الإلهي ، وفَرَعَ من دَوْحَةِ المنطق النبوي .

روى ابنُ الكلبيّ قال : لما^(٢) حضرت الوفاة أوسَ بنَ حارثة أبا الخُزرج ، لم يكن له ولدٌ غير مالك بن الأوس ، وكان لأخيه الخُزرج خمسة ، قيل له : كنّا نأمرُك بأن تزوّج فى شبابك فلم تفعل حتى حضرَ الموت ، ولا ولدَ لك إلّا مالك ! فقال : لم يهلك هالكٌ تركَ مثل مالك ، وإن كان الخُزرجُ ذا عَدَدٍ ، وليس لمالك ولد ، فلعلّ الذى استخرج

(١) من د . (٢) أمال القالى ١ : ٢٠ .

العَذْقُ مِنَ الْجَرِيْمَةِ ^(١) ، والنَّارَ مِنَ الْوَيْثِمَةِ ^(٢) أَنْ يَجْعَلَ لِلْمَالِكِ نُسْلاً ، وَرَجُلًا بُسْلاً ^(٣) ،
وَكَلَّنَا إِلَى الْمَوْتِ . يَا مَالِكُ ، الْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّةُ ، وَالْعَتَابُ قَبْلَ الْعِقَابِ ، وَالتَّجَلُّدُ لَا التَّبَلُّدُ ،
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَبْرَ خَيْرٌ مِنَ الْفَقْرِ ، وَمَنْ لَمْ يُعْطِ قَاعِدًا حُرْمَ قَائِمًا ، وَشَرَّ الشَّرْبِ الْأَشْتِفَافُ وَشَرُّ
الطَّعْمِ الْأَقْتِفَافُ ^(٤) ، وَذَهَابُ الْبَصَرِ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّظَرِ ، وَمَنْ كَرَّمَ الْكَرِيمَ الدَّقِيعَ
عَنِ الْحَرِيمِ ، وَمَنْ قَلَّ ذَلَّ ، وَخَيْرُ الْغَنَى الْقَنَاعَةُ ، وَشَرُّ الْفَقْرِ الْخُضُوعُ . الدَّهْرُ صَرْفَانِ :
صَرَفُ رِخَاءٍ ، وَصَرَفُ بَلَاءٍ ؛ وَالْيَوْمُ يَوْمَانِ : يَوْمُ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطِرَ ،
وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْطَبِرْ ، وَكِلَاهُمَا سَيَنْحَسِرُ ^(٥) وَكَيْفَ بِالسَّلَامَةِ ، لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُ إِقَامَةٌ ،
وَحَيَّاكَ رَبِّكَ .

وَأَوْصَى ^(٦) الْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ بَنِيهِ فَقَالَ : يَا بَنِيَّ ، قَدَأْتِ عَلَى مِائَةِ وَسْتُونَ سَنَةً
مَا صَاخَتْ يَمِينِي يَمِينَ غَادِرٍ ، وَلَا قَنَعَتْ لِنَفْسِي بِخُلَّةٍ فَاجِرٍ ، وَلَا صَبَوْتُ بِابْنَةِ عَمٍّ
وَلَا كَسَنَةٍ ^(٧) ، وَلَا بَحْتُ لَصَدِيقٍ بَسَرٍ ، وَلَا طَرَحْتُ عَنْ مُؤَمِّسَةٍ قَنَاعًا ، وَلَا بَقِيْتُ عَلَى دِينِ
عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ - وَقَدْ رَوَى عَلَى دِينِ شُعَيْبٍ - مِنَ الْعَرَبِ غَيْرِي وَغَيْرِ تَيْمٍ بْنِ مَرْثٍ بْنِ أَسَدٍ
ابْنِ خَزِيمَةَ ، فَمُتُوا عَلَى شَرِيعَتِي ، وَأَحْفَظُوا [عَلَى] ^(٨) وَصِيَّتِي ، وَإِلَهُكُمْ فَاتَّقُوا ، يَكْفِكُمْ
مَا أَهَمَّكُمْ ، وَيُصْلِحْ لَكُمْ حَالَكُمْ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَعْصِيَتَهُ ، فَيَحِلَّ بِكُمْ الدَّمَارُ ، وَيُوحِشَ مِنْكُمْ
الدِّيَارُ . كُونُوا جَمِيعًا ، وَلَا تَفَرَّقُوا فَتَكُونُوا شَيْعًا ، وَبَزَّوْا قَبْلَ أَنْ تُبَزَّوْا ^(٩) ، فَمُتْ

(١) الجريمة : النواة ، والعَذْقُ : النخلة . (٢) الوَيْثِمَةُ : الصخرة .
(٣) بَسْلٌ : جمع بَاسِلٍ ؛ وَهُوَ الشَّجَاعُ . (٤) الْأَشْتِفَافُ : الْإِمْتِصَافُ وَالْإِقْتِفَافُ : الْأَخْذُ بِعَجَلَةٍ .
(٥) يَعْنِي يَنْكَشِفُ .

(٦) الْوَصَايَا ١٢٣ ، وَنَسَبَ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ إِلَى مَالِكِ بْنِ النُّذَرِ الْبَجَلِيِّ . قَالَ : « وَقَدْ كَانَ أَصَابَ دَمًا فِي قَوْمِهِ ؛
فَخَرَجَ هَارِبًا بِأَهْلِهِ حَتَّى آتَى بِهِمْ بَنَى هَلَالٍ ، فَلَمَّا احْتَضَرَ أَوْصَى بَنِيَهُ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْطُوا قَوْمَهُ النِّصْفَ مِنْ
حَدَثِهِ الَّذِي أَحْدَثَهُ فِيهِمْ .

(٧) الْكَسَنَةُ : امْرَأَةُ الْإِبْنِ أَوْ الْأَخِ . (٨) تَكْمَلَةٌ مِنْ د . (٩) بَزَهُ : سَلَبَهُ .

في عزّ، خيرٌ من حياة في ذُلٍّ وعجز، وكلّ ما هو كائن كائنٌ، وكلّ جمع إلى تباين، والدهر صرّفان: صرّف بلاء، وصرّف رخاء، واليوم يومان: يومُ حَبَرَة^(١)، ويوم عَبَرَة، والناس رجلان: رجلٌ لك، ورجلٌ عليك. زوّجوا النساء الأكفاء، وإلا فانتظروا بهنّ القضاء، وليكن أطيب طيبهنّ الماء، وإياكم والورْهَاء، فإنّها أدوأ الدّاء، وإنّ ولدها إلى أفن^(٢) يكون. لا راحةَ لقاطع القراية. وإذا اختلف القومُ أمكنوا عدوهم، وآفة العدد اختلاف الكلمة، والتفضل بالحسنة يقي السيئة، والمكافأة بالسيئة دخول فيها، وعمل السوء يُزيلُ النّعماء، وقطيعة الرّحم تُورثُ الهمّ، وانتهاك الحرمة يُزيلُ النعمة، وعقوق الوالدين يُعقبُ النّكد، ويُخرب البلد، ويمحق العدد، والإسراف في النصيحة، هو الفضيحة، والحقد منع الرّفد، ولزوم الخطيئة يُعقبُ البلية، وسوء الدّعة^(٣) يقطع أسباب المنفعة، والضغائن تدعو إلى التباين؛ يا بنيّ إني قد أكلتُ مع أقوام وشربتُ، فذهبوا وغبرتُ، وكأني بهم قد لحقتُ، ثم قال:

أكلتُ شبابي فأفنيتهُ وأبليتُ بعد دُهورٍ دُهوراً
ثلاثةَ أهليينِ صاحبتهُم فبادوا وأصبحتُ شيخاً كبيراً
قليلَ الطعامِ عسيرَ القيا لم قد ترك الدهرُ خطوياً قصيراً
أبيتُ أراعي نجومَ السماء أقلبُ أمري بطنونا ظُهوراً

وصّى أكرمُ بنُ صَيْفِيّ بنيه ورهطه فقال: يا بنيّ تميم، لا يفوتنكم وعظي، إن فاتكم الدهر بنفسي، إنّ بين حَيَزَوِيٍّ وصدرى لكلاماً لا أجذله مواقع إلا^(٤) أسمعكم ولا مقاراً إلاّ قلوبكم، فتلقوه بأسماع مُصْغِيَةٍ، وقلوب دواعية، تحمدوا ممبّته: الهوى

(١) الحبرة: السرور. (٢) الأفن: الفساد.

(٣) الوسايا: «الرعة». (٤) في «غير».

يَقْظَان ، والعقل راقد، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفسُ مهملة ، والروية مقيّدة ،
ومن جهة التّواني وترك الروية يتلف الحزم ، ولن يَعدَم المُشاور مُرشدًا ، والمستبدّ برأيه
موقوف على مداحض الزّلال ، ومن سَمِعَ سُمِعَ به ، ومصارعُ الرجال تحت بُروق الطمع ،
ولو اعتُبرتْ مواقعُ الحنّ ما وُجدتْ إلّا في مَقاتِل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرّشاد ،
ومن سلك الجَدَد (١) أَمِن العثار ، ولن يَعدَم الحسودُ أن يُتعب قلبه ، ويُسْغَل فكره ،
ويورث غِيظه ، ولا تجاوز مضرّته نفسه . يا بني تميم ، الصبرُ على جرع الخلم أعذب من
جناحِ الندامة ، ومن جَمَل عِرْضه دون ماله استهدفَ للذّم ، وكَلَم اللسان أنكى من كَلَم
اللسان ، والكلمة مرهونةٌ ما لم تَنجُم من الفم ؛ فإذا نَجمتْ مزجت ، فهي أسدٌ محرّب ،
أو نار تَلَهّب ، ورأى الناصح اللبيب دليلًا لا يجوز ، ونقّاذُ الرأى في الحرب ، أجدى من
الطّمن والضرب .

* * *

وأوصى يزيدُ بنُ المهلب ابنه سَخلدا حين استخلفه على جُرْجَان ، فقال له : يا بُنَيّ ،
قد استخلفْتُك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحَيّ من اليمين فكن لهم كما قال الشاعر :
إذا كنتَ مرتادَ الرّجَالِ لنُفَعِمَهُمْ فَرِشْ واصطَنع عندَ الذينَ بهم تَرعى
وانظر هذا الحَيّ من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر هذا الحَيّ
من تميم فأمطرهم (٢) ولا تُزَهِ لهم ، ولا تُدَيِّهم فيطمعوا ، ولا تُقْصِهم فيقطعوا ، وانظر هذا
الحَيّ من قيس فإنهم أكفأ قومك في الجاهلية ، ومناصِفهم المآثر في الإسلام ، ورضاهم
منك البُشر . يا بُنَيّ ، إنَّ لأبيك صنائع فلا تُفسِدْها ، فإنّه كفى بالمرء نقصا أن يهديم
ما بنى أبوه ، وإياك والدِّماء فإنّه لا تَقِيّةَ معها ، وإياك وشتم الأعراض فإنّ الحرّ

(١) الجدد : الأرض المستوية . (٢) د « فانظرهم » .

لا يرضيه عن عرضه عوض، وإياك وضرب الأَبْشار فإنه عارٌ باقٍ، ووِترٌ مطلوب، واستعمل على التَّجْدَةِ والفضل دونَ الهوى، ولا تعزل إلاَّ عن عَجْزٍ أو خيانة. ولا يمنعك من اصطناع الرِّجل أن يكون غيرُك قد سبقك إليه، فإنَّك إنما تصطنع الرجالَ لفضْلها. وليكن صنيْعُك عند مَنْ يكافئك عنه العشائر. احمل الناسَ على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم. وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه، وليكن رسوْلُك فيما بيني وبينك مَنْ يفقه عني وعنك؛ فإنَّ كتابَ الرجل موضعُ عقله، ورسوله موضعُ سرِّه. وأستودعُك الله، فلا بدَّ للمودَّع أن يسكت، وللمشيِّع أن يرجع. وما عفَّ من النطق وقلَّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك.

وأوصى قيس بنُ عاصم المنقريّ بنيه، فقال: يا بنيّ، خذوا عني فلا أحد أنصحُ لكم مني. إذا دفتنوني فانصرفوا إلى رحالكُم، فسودّوا أكبركم، فإنَّ القوم إذا سودّوا أكبرهم خلفوا أباهم، وإذا سودّوا أصغرهم أزدى ذلك بهم في أكفائهم. وإياكم ومعصية الله وقطيعة الرِّحم، وتمسكوا بطاعة أمرائكم فإنهم من رفعوا ارتفع، ومن وَضَعُوا اتَّضَع. وعليكم بهذا المال فأصلحوه، فإنه منبّهة للكريم، وجنّة لِعِرْض اللّئيم. وإياكم والمسالمة فإنها آخر كسب الرجل، وإن أحداً لم يسأل إلاَّ ترك الكسب، وإياكم والنِّياحة، فإنّي سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ينهى عنها، وادفنوني في ثيابي التي كنتُ أصليّ فيها وأصوم، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفني فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهليّة والإسلام، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بي عارا. وخذوا عني ثلاثَ خِصال: إياكم وكلَّ عِرْقٍ لثيم أن تُلَاسِوه فإنه إن يسرُّركم اليوم يسوِّكم غداً، واكْظَمُوا الفَيْظ، واحذروا بنيَّ أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم، ثم قال:

أحيا الضعائى آباء لنا سلفوا فلن تبىء ولآباء أبنا
قال ابن الكلبي : فيحكى الناس هذا البيت سابقا للزير ، وما هو إلا لقيس
ابن عاصم .

وأوصى عمرو بن كلثوم التتلي^(١) [بنه]^(٢) فقال : يا بني ؛ إني قد بلغت من العمر
مالم يبلغ أحد من آباءى وأجدادى ، ولا بد من أمر مقتبل ، وأن ينزل بي ما نزل بالآباء
والأجداد والأمهات والأولاد ، فاحفظوا غنى ما أوصيكم به . إني والله ما عيرت رجلا قط
أمرا إلا عيرني مثله ؛ إن حقا فحق ، وإن باطلا فباطل ، ومن سب سب ، فكفوا عن الشتم
فإنه أسلم لأعراضكم . وصلوا أرحامكم تعمروا داركم^(٣) ، وأكرموا جاركم بحسن ثنائكم ،
وزوجوا بنات العم بنى العم فإن تعدىتم بهن إلى الغرباء فلا تألوا بهن [عن]^(٤) الأكفاء .
وأبعدوا بيوت النساء من بيوت الرجال ، فإنه أغض للبصر ، وأعف للذكر ؛ ومتى
كانت المعاينة واللقاء ، ففى ذلك داء من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يفار لغيره كما يفار
لنفسه ، وقل من انتهك حرمة لغيره إلا انتهكت حرمة . وامنعوا القريب من ظلم
الغريب ، فإنك تدل على قريبك ، ولا يحمل بك ذل غريبك ، وإذا تنازعت في الدماء فلا
يكن حقم الكفاء ، فرب رجل خير من ألف ، وود خير من خلف ، وإذا حدثتم فموا ،
وإذا حدثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار يكون الإهذار ، وموت عاجل خير من ضنى
آجل ، وما بكيت من زمان إلا دهاني بعده زمان ، وربما شجاني^(٥) من لم يكن أمرا

(١) ب : « التتلي » تحريف .

(٢) تكملة من د .

(٤) من د .

(٣) فى د « دياركم » .

(٥) شجاني : أحزنى .

عَنَانِي ، وما عَجِبْتُ منْ أَحْدُوْثَةٍ إِلَّا رَأَيْتُ بَعْدَهَا عَجُوْبَةً . وَعَلِمُوا أَنَّ أَشْجَعَ الْقَوْمِ الْعَطُوفُ ،
وَأَخِيْرُ الْمَوْتِ تَحْتَ ظِلَالِ السِّیُوفِ ، وَلَا خَيْرَ فِیْمَنْ لَا رُوْبِيَّةَ لَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَلَا فِیْمَنْ إِذَا
عُتِبَ لَمْ يُعْتَبَ ، وَمَنْ النَّاسُ مِنْ لَا یَرْجَى خَیْرَهُ ، وَلَا یَخَافُ شَرَّهُ ، فَبِکُوْءِ^(١) خَیْرٍ مِنْ
دَرِّهِ ، وَعَقُوْقِهِ خَیْرٌ مِنْ بَرِّهِ ، وَلَا تُبْرَحُوا فِی حَبْکُمْ فَإِنْ مِنْ أُبْرَحَ فِی حَبٍّ آَلَ ذَلِكَ إِلَى قَبِیْحٍ
بِفَضٍّ ، وَكَمْ قَدْ زَارَنِي إِنْسَانٌ وَزُرْتُهُ ، فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ بِنَا قَبْرِتِهِ . وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَلِیْمَ سَلِیْمَ ،
وَأَنَّ السَّفِیْهَ كَلِیْمَ ، إِنِّي لَمْ أَمُتْ وَلَكِنْ هَرِمْتُ ، وَدَخَلْتَنِي ذِلَّةٌ فَسَكْتُ ، وَضَعَفَ قَلْبِي
فَأَهْتَرْتُ^(٢) ، سَلِّمْتُكُمْ رَبِّكُمْ وَحَيَّاكُمْ !

وَمِنْ كِتَابِ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابَكَ إِلَى بَنِيهِ وَالْمُلُوكِ مِنْ بَعْدِهِ : رَشَادُ الْوَالِي خَيْرٌ لِلرَّعِيَّةِ مِنْ
خَضْبِ الزَّمَانِ ، الْمَلِكُ وَالِدَيْنِ تَوْعْمَانِ لَا قَوَامَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ ، فَالِدَيْنِ أَسُّ الْمَلِكِ
وَعِمَادُهُ ، ثُمَّ صَارَ الْمَلِكُ حَارِسَ الدِّينِ ، فَلَا يَبْدُ لِلْمَلِكِ مِنْ أَسِّهِ ، وَلَا يَبْدُ لِلدِّينِ مِنْ حَارِسِهِ ، فَأَمَّا
مَالَا حَارِسَ لَهُ فُضَائِعُ ، وَمَالَا أَسَّ لَهُ فَهَيْدُومٌ ، إِنَّ رَأْسَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَبَادِرَةَ السَّفَلَةِ
إِيَّاكُمْ إِلَى دِرَاسَةِ الدِّينِ وَتَأْوِيلِهِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ ، فَتَحْمِلُكُمْ الثَّقَلُ بِقُوَّةِ الْمَلِكِ عَلَى التَّهَاقُوتِ بِهِمْ ،
فَتُحْدِثُ فِي الدِّينِ رِيَاسَاتٌ مُنْتَشِرَاتٌ سِرًّا فِیْمَنْ قَدْ وَرَثَتْ وَجَعَوْتُمْ ، وَحَرَمْتُمْ وَأَخْفَقْتُمْ ،
وَصَغُرْتُمْ مِنْ سِفَلَةِ النَّاسِ وَالرَّعِيَّةِ وَحَشَوُ الْعَامَّةِ ، ثُمَّ لَا تَنْشَبُ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ أَنْ تُحْدِثَ
خُرْقًا فِي الْمُلْكِ وَوَهْنًا فِي الدَّوْلَةِ . وَعَلِمُوا أَنَّ سُلْطَانَكُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى أَجْسَادِ الرَّعِيَّةِ لَا عَلَى
قُلُوبِهَا ، وَإِنْ غَلِبَتْ النَّاسَ عَلَى مَافِي أَيْدِيهِمْ فَلَنْ تَغْلِبُوهُمْ عَلَى مَافِي عُقُولِهِمْ وَأَرَائِهِمْ وَمَكَايِدِهِمْ .
وَعَلِمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ الْمَحْرُومَ سَأَلَ عَلَيْكُمْ لِسَانَهُ ، وَهُوَ أَقْطَعُ سَيْفِيهِ ، وَإِنْ أَشَدَّ مَا يَضُرُّ بِكُمْ مِنْ
لِسَانِهِ مَا صَرَفَ الْحِيلَةَ فِيهِ إِلَى الدِّينِ ، فَكَانَ لِلدُّنْيَا يَحْتَجُّ^(٣) ، وَلِلدِّينِ فِيمَا يَظْهَرُ يَتَعَصَّبُ ، فَيَكُونُ

(١) بِكَأْتِ النَّاقَةُ بِكُوْءٍ أ : قَلِّ لِبْنِهَا .

(٢) الْهَتَرُ : ذَهَابُ الْعَقْلِ . (٣) : « يَجْنَحُ » .

للدين بكاؤه ، وإليه دعاؤه ، ثم هو أُوحد للتائبين والمصدقين والمناحين والمؤازرين ، لأنَّ تعصَّب^(١) الناس موكل بالموك ، ورحمتهم ومحبتهم موكلة بالضمفاء المغلوتين ، فاحذروا هذا المعنى كل الحذر .

واعلموا أنَّه ليس ينبغي للملك أن يعرف للعباد والنساء بأن يكونوا أوَّلَ بالدين منه ، ولا أهدبَ عليه ولا أغضبَ له . [ولا ينبغي له]^(٢) أن يخلَى النساء والعباد من الأمر والنهي في نسكهم ودينهم ، فإنَّ خروج النساء وغيرهم من الأمر والنهي عيبٌ على الملوك وعلى المملكة ، وتُلَمَّةٌ بيّنة الضرر على الملك وعلى من بعده .

واعلموا أنَّه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوك كان الملك منهم يتعمد الحماية بالتفتيش والجماعة بالتفضيل ، والفراغ بالإشغال ، كتمهده جسده بقصّ فضول الشعر والظفر وغسل الدرن والنمر^(٣) ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن ، وقد كان من أولئك الملوك من صحّة ملكه أحبّ إليه من صحّة جسده ، فتتابعت تلك الأملاك بذلك كأنهم ملك واحد ، وكانّ أرواحهم روح واحدة ، يمكن أولهم لآخرهم ، ويصدق آخرهم أولهم ، يجتمع أبناء أسلافهم ، وموارث آرائهم ، وثمرات عقولهم عند الباقي منهم بعدهم ، وكانّهم جلوسٌ معه يحدثونه ويشاورونه ، حتّى كانّ على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرومي على ما غلب عليه من ملكه . وكان إفساده أمرنا ، وتفرقه جماعتنا ، وتخريبه عمران مملكتنا أبلغ له فيما أراد من سفك دمائنا ، فلمّا أذن الله عزّ وجلّ في جمع مملكتنا ، وإعادة أمرنا ، كان من بعثه إيانا ما كان . وبإلاعتبار يتقّى العثار ، والتجارب الماضية دستورٌ يرجع إليه من الحوادث الآتية .

واعلموا أنَّ طباع الملوك على غير طباع الرعيّة والسوقة : فإن الملك يطيف به العزّ ، والأمن والسرور والقُدرة على ما يريد ، والأنفة والجُرأة والعبث والبطر ، وكلّما ازداد

(١) في د « بغض » . (٢) تكملة من د . (٣) ب : « والنمس » .

في العُمر تنفُسا ، وفي الملك سلامةً أزداد من هذه الطبائع والأخلاق حتّى يُسلمه ذلك إلى سُكر السلطان الَّذى هو أشدّ من سكر الشراب ، فينسى النكبات والعثرات ، والفير والدوائر وغش تسلُّط الأيام ، ولؤم غلبة الدهر ، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول . وعند حُسن الظنّ بالأيام تحدثُ الغيّر ، وتزول النعم ؛ وقد كان من أسلافنا وقُدّماء مُلوكرنا مَنْ يذكّرهُ عزّه الذلّ ، وأمّنه الخوف ، وسروره الكآبة ، وقدرته المعجزة ، وذلك هو الرّجل الكامل قد جمع بهجة الملوك ، وفكرة الشّوكة ، ولا كمال إلّا فى جمعها .

واعلموا أنّكم ستبُلوّن على الملك بالأزواج والأولاد والقُرباء والوزراء والأخذان ، والأنصار والأعوان والمتقرّبين والندماء والمُضحكين ، وكلّ هؤلاء - إلّا قليلا - أن يأخذ لنفسه أحبّ إليه من أن يعطى منها عمله ، وإنما عمله سوق ليومه ، وذخيرة لِنَده ، فنصيحتُهُ للملوك فضلُ نصيحتِهِ لنفسه وغاية الصّلاح عنده صلاحُ نفسه ، وغاية الفساد عنده فسادُها ؛ يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع ، إذا استوحش الملك من ثقاته أطبقت عليه ظلم الجهاالة . أخوف ما يكون العامّة [آمن ما يكون الوزراء ، وآمن ما يكون العامّة ^(١)] أخوف ما يكون الوزراء .

واعلموا أنّ كثيرا من وزراء الملوك من يُحاول استبقاء دولته وأيامه بإيقاع الاضطراب ، والخبْط في أطراف مملكة الملك ، ليحتاج الملك إلى رأيه وتدييره ؛ فإذا عرفتم هذا من وزير من وزرائكم فأعزلوه فإنّه يُدخِل الوهن والنقص على الملك والرعيّة لصلاح حال نفسه ، ولا تقوم نفسه بهذه النفوس كلّها .

واعلموا أنّ بدء ذهاب الدّولة ينشأ من قِبَل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة ولا أعمال معلومة ، فإذا نشأ الفراغ تولّدمنه النّظر في الأمور ، والفكر في الفروع والأصول . فإذا نظروا في ذلك نظروا فيه بطبائع مختلفة ، فتختلف بهم المذاهب ، ويتولّد من اختلاف مذاهبهم تعادٍهم وتضاعفهم ، وهم مع اختلافهم هذا متفقون ومجتمعون على بغض الملوك ، فكلّ صِنف منهم إنّما يجرى إلى فجيعة الملك بملكه ، ولكنهم لا يجدون سُلما إلى

... (١) تكملة من دونهما يستقيم الكلام .

ذلك أوثق من الدين والناموس ، ثم يتولد من تعاديهم أن الملك لا يستطيع جمعهم على هوى واحد ، فإن انفرد باختصاص بعضهم صار عدو بقيتهم ، ولى طباع العامة أستئقال الولاية وملاهم ، والنفاسة ^(١) عليهم ، والحسد لهم ، وفى الرعية المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود ، ويتولد من كترتهم مع عداوتهم أن يجبن الملك عن الإقدام عليهم ، فإن فى إقدام الملك على الرعية كلها كافة تغرياً بملكه . ويتولد من جبن الملك عن الرعية استعجالهم عليه ، وهم أقوى عدو له وأخلفه بالظفر ، لأنه جاضر مع الملك فى دار ملكه ، فمن أفضى إليه الملك بعدى فلا يكونن بإصلاح جسده أشد اهتماماً منه بهذه الحال ، ولا تكونن لشيء من الأشياء أكره وأنكر لرأس صار ذنباً ، وذنب صار رأساً ، ويد مشغولة صارت فارغة ، أو غنى صار فقيراً ، أو عامل مصروف ، أو أمير معزول .

واعلموا أن سياسة الملك وحراسته ألا يكون ابن الكاتب إلا كاتباً ، وابن الجندي إلا جندياً ، وابن التاجر إلا تاجراً ، وهكذا فى جميع الطبقات ، فإنه يتولد من تنقل الناس عن حالاتهم أن يلتبس كل امرئ منهم فوق مرتبته ، فإذا انتقل أو شك أن يرى شيئاً أرفع مما انتقل إليه ، فيحسد أو ينافس ، وفى ذلك من الضرر المتولد ما لا خفاء به ، فإن عجز ملك منكم عن إصلاح رعيته كما أوصيناه فلا يكون للقميص القمل أسرع خلعاً منه لئلا لبس من قميص ذلك الملك .

واعلموا أنه ليس ملك إلا وهو كثير الذكر لمن يلى الأمر بعده ، ومن فساد أمر الملك نشر ذكره ولادة اليهود ، فإن فى ذلك ضرراً من الضرر ، وأن ذلك دخول عداوة بين الملك وولى عهده ، لأنه تطمح عينه إلى الملك ، ويصير له أجاب وأخدان يمتونه ذلك ، ويستبطنون موت الملك . ثم إن الملك يستوحش منه ، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدها ، ولكن لينظر الوالى منكم لله تعالى ثم لنفسه ثم للرعية ، ولينتخب ولياً للعهد من بعده

(١) النفاسة : كراهة الخير لهم .

ولا يُعلمه ذلك ، ولا أحد من الخلق قريبا كان منه أو بعيدا ، ثم يكتب اسمه في أربع صحائف ، ويختتمها بخاتمه ، ويضعها عند أربعة نفر من أعيان أهل المملكة ، ثم لا يكون منه في سرّه وعلايته أمرٌ يستدلّ به على وليّ عهده من هؤلاء في إدناء وتقريب يعرف به ، ولا في إقصاء وإعراضٍ يُستتاب له . وليتق ذلك في اللحظة والكلمة ، فإذا هلك الملكُ جمعت تلك الصحائفُ إلى النسخة التي تكون في خزانة الملك ، فتفضّ جميعا ، ثم ينوّه حينئذٍ باسم ذلك الرجل ، فيلقى الملك إذا لقيه بجدّاته عهده بحال السّوقه ، ويلبسه إذا لبسه يبصر السّوقه وسمّيتها ، فإنّ في معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سُكراً تحذيره عنده ولاية العهد ، ثم يلقاه الملك فيزيده سُكراً إلى سكره ، فيعمى ويصمّ ، هذا مع ما لا بدّ أن يلقاه أيام ولاية العهد من حيل العتاة ، وبنى الكذابين ، ورتقية النّمامين ، وإيفار صدره ، وإفساد قلبه على كثير من رعيّته ، وخواصّ دولته ، وليس ذلك بمحمود ولا صالح .

واعلموا أنّه ليس للملك أن يحلّف ، لأنّه لا يقدر أحدٌ أسترّاهه ، وليس له أن يفضّ لأنّه قادر ، والغضب لقاح الشرّ والندامة ، وليس له أن يعث ويلعب ، لأنّ اللعب والعبت من عمل الفراغ ، وليس له أن يفرغ لأنّ الفراغ من أمر السّوقه ، وليس للملك أن يحسّد أحداً إلّا على حُسن التدبير ، وليس له أن يخاف لأنّه لا يدّ فوق يده .

وأعلموا أنّكم لن تقدروا على أن تحتموا أفواه الناس من الطّعن والإزراء عليكم ، ولا قدرة لكم على أن تجعلوا القبيح من أفعالكم حسنا ؛ فاجتهدوا في أن تحسّن أفعالكم كلّها ، وألا تجعلوا للعامة إلى الطّعن عليكم سبيلا .

وأعلموا أنّ لباس الملك ومطعمه ومشربه مقارب للباس السّوقه ومطعمهم ، وليس

فضل الملك على السوقة إلا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم ، فإن الملك إذا شاء أحسن ، وليس كذلك السوقة .

واعلموا أن لكل ملك بطانة ، ولكل رجل من بطانته بطانة ، ثم إن لكل أمرى من بطانة البطانة بطانة ، حتى يجتمع من ذلك أهل المملكة ، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصواب فيهم ، أقام كل أمرى منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية .

احذروا باباً واحداً طالما أمنتته فصرّتي ، وحذرتة فنفعني . احذروا إفشاء السرّ بحضرة الصغار من أهليكم وخدمكم ، فإنه ليس يصغر واحد منهم عن حمل ذلك السرّ كاملاً ؛ لا يترك منه شيئاً حتى يضعه حيث تكرهون إما سقطاً أو غشاً .

واعلموا أن في الرعية صنفاً أتوا الملك من قبل النصائح له ، والتمسوا إصلاح منازلهم بإفساد منازل الناس ، فأولئك أعداء الناس وأعداء الملوك ، ومن عادى الملوك والناس كلهم فقد عادى نفسه .

واعلموا أن الدهر حاملكم على طبقات ؛ فمنها حال السخاء حتى يدنو أحدكم من السرف ، ومنها حال التبذير حتى يدنو من البخل ، ومنها حال الأناة حتى يدنو من البلادة ، ومنها حال انتهاز الفرصة حتى يدنو من الخفة ، ومنها حال الطلاقة في اللسان حتى يدنو من الهدر ، ومنها حال الأخذ بحكمة^(١) الصمت حتى يدنو من العي ، فالملك منكم جدير أن يبلغ من كل طبقة في محاسنها حدّها ، فإذا وقف عليه ألجم نفسه عما وراءها .

واعلموا أن ابن الملك وأخاه وابن عمه يقول : كدت أن أكون ملكاً ، وبالحرى ألا أموت حتى أكون ملكاً ، فإذا قال ذلك قال ما لا يسرّ الملك ، وإن كتبه فالداء

(١) الحكمة في الأصل : اللجام ؛ والكلام على الاستعارة .

في كلِّ مكتوم ، وإذا تمتّ ذلك جعل الفساد سُلماً إلى الصلاح ، ولم يكن الفساد سُلماً إلى صلاح قطّ . وقد رسمتُ لكم في ذلك مثلاً ، اجعلوا الملك لا ينبغي إلا لأبناء الملوك من بنات عمومهم ، ولا يصلح من أولاد بنات العم إلا كامل غير سخيّف العقل ، ولا عازبُ الرأى ، ولا ناقص الجوارح ، ولا مطعونٌ عليه في الدين ، فإنكم إذا فعلتم بذلك قلّ طلاب الملك ، وإذا قلّ طلابه استراح كلُّ امرئٍ إلى ما يليه ، ونزّع إلى حدِّ يَليهِ ، وعرف حاله ، ورضى معيشته ، واستطاب زمانه .

فقد ذكرنا وصايا قوم من العرب ، ووصايا أكثر ملوكِ الفُرس وأعظمهم حكمةً تُضمُّ إلى وصايا أمير المؤمنين فيحصل منها وصايا الدين والدنيا ، فإنَّ وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ، الدّينُ عليها أغلب ، ووصايا هؤلاء الدّنيا عليها أغلب ، فإذا أخذ من أخذ التوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سَعِدَ ، ولا سعيد إلا من أسعده الله .

(٥٤)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخزاعي،
وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا - وَإِنْ كَتَمْتُمَا - أَتَى لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي ، وَلَمْ
أَبَايَهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي ؛ وَإِنَّكُمْ مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايَعْنِي لِسُلْطَانٍ
غَالِبٍ ، وَلَا لِحِرْصٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعِينَ فَارْجِعَا وَتَوْبَا إِلَى اللَّهِ
مَنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهِينَ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا
الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقَّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ
وَالْكَيْتَانِ .

وَإِنْ دَفَعْتُمَا هَذَا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا
مِنْهُ بَعْدَ إِفْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَتَى قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيَّنِي وَبَيَّنْكُمْ مَنِ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمْ مِنْ
أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ .
فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ؛ فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا الْعَارُ ، مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ . وَالسَّلَامُ .

الشَّرخ :

[عمران بن الحصين]

هو عمران بنُ الحَصين بن عبيد بن خَلَف بن عبد بن نَهْم بن سالم بن غاضرة بن سَلول ابن حُبَشِيَّة بن سَلول بن كعب بن عمرو الخزاعي . يكنى أبا بُجَيِّد بأبنه بُجَيِّد بن عمران . أسلمَ هو وأبو هريرة عامَ خَيْير ، وكان من فضلاء الصَّحابة وفقهائهم ، يقول أهلُ البصرة عنه : إنَّه كان يرى الحَفْظَةَ ، وكانت تكلمه حتَّى اكَتَوَى .

وقال مُحَمَّد بن سِيرين : أَفْضَلُ من نَزَلَ البصرةَ من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله عمرانُ بنُ الحَصين وأبو بَكْرَةَ . واستقضاءه عبد الله بن عامر بن كُرَيْز على البصرة فَعَمِلَ له أَيَّاماً ، ثم أَسْتَعْفَاه فأَعْفَاه ، ومات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين في أَيَّام معاوية .

[أبو جعفر الإسكافي]

وأما أبو جعفر الإسكافيّ — وهو شيخنا مُحَمَّد بن عبد الله الإسكافيّ — عدّه قاضى القضاة فى الطبقة السابعة من طبقات المُتَزَلِّة مع عباد بن سُلَيْمان الصَّيْمَرِيّ ، ومع زُرْقَان ، ومع عيسى بن الهيثم الصوفىّ ، وجعل أولَ الطبقة ثَمَامَةَ بن أَشْرَس أبا معن ، ثم أبا عثمانَ الجاحظ ، ثم أبا موسى عيسى بن صُبَيْح المردار ، ثم أبا عمران يونس بن عمران ثمَّ مُحَمَّد بن شبيب ، ثمَّ مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل بن العسكرىّ ، ثم عبد الكريم بن رَوْح العسكرىّ ، ثم أبا يعقوب يوسف بن عبد الله الشَّحَام ، ثمَّ أبا الحسين الصالحىّ ،

ثم الجعفران : جعفر بن جرير وجعفر بن ميسر ، ثم أبا عمران بن النّقاش ، ثمّ أبا سعيد أحمد ابن سعيد الأسديّ ، ثمّ عباد بن سليمان ، ثمّ أبا جعفر الإسكافيّ هذا . وقال : كان أبو جعفر فاضلا عالما ، وصنّف سبعين كتابا في علم الكلام .

وهو الذي نقض كتابَ ” العثمانية “ ، على أبي عثمان الجاحظ في حياته ، ودخل الجاحظ الوراقين ببغداد ، فقال : مَنْ هذا الغلام السّوّاديّ الذي بلغني أنّه تعرّض لنقض كتابي ! وأبو جعفر جالسٌ ! فأخفني منه حتّى لم يره .

وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل على قاعدة معتزلة بغداد ، ويبالغ في ذلك ، وكان علويّ الرأى ، محققا مُنصفا ، قليل المصليّة .

ثم نعود إلى شرح ألفاظ الفصل ومعانيه :
قوله عليه السلام : « لم أرد الناس » ، أى لم أرد الولاية عليهم حتّى أرادوا هم متى ذلك .

قال : « ولم أيايهم حتّى يايعوني » ، أى لم أمدّ يدي إليهم مدّ الطلّب والحرص على الأمر ، ولم أمدّها إلّا بعد أن خاطبوني بالإمرّة والخلافة ، وقالوا بألسنتهم : قد بايعناك ، فحينئذ مددت يدي إليهم .

قال : ولم ييايعي العامة والمسلمون لسلطانٍ غصّبهم وقهرهم على ذلك ، ولا لحرص حاضر ، أى مال موجود فرّقته عليهم .

ثم قسم عليهما الكلام ، فقال : إن كنتم بايتمتّمانى طوعا عن رضا فقد وجب عليكما الرجوع ، لأنّه لا وجه لا تتقاض تلك البيعة ، وإن كنتم بايتمتّمانى مكرهين عليها فالإكراه

له صورة ، وهى أن يجرد السيف ويمدّ العنق ، ولم يكن قد وقع ذلك ، ولا يمكنكم أن تدعياء ، وإن كنتم بايعتماني لا عن رضا ولا مكرهين بل كارهين ، وبين المكره والكاره فرق بين ، فالأمور الشرعية إنما تبني على الظاهر ، وقد جعلتكم على أنفسكم السبيل بإظهاركم الطاعة ، والدخول فيما دخل فيه الناس ، ولا اعتبار بما أسرتما من كراهية ذلك . على أنه لو كان عندي ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون في كراهية ذلك سواء ؛ فما الذى جعلكم أحقّ المهاجرين كلهم بالكتمان والتقية !

ثم قال : وقد كان امتناعكم عن البيعة في مبدأ الأمر أجل من دخولكم فيها ثم نكثها .

قال : وقد زعمتم أن الشبهة التى دخلت عليكم فى أمرى أنى قتلت عثمان ، وقد جعلت الحكم بينى وبينكم من تخلف عني وعنكم من أهل المدينة ، أى الجماعة التى لم تنصر عليا ولا طلحة ، كمحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ، يعنى أنهم غير متهمين عليه ولا على طلحة والزبير ، فإذا حكموا لزم كل امرئ منا بقدر ما تقتضيه الشهادات . ولا شبهة أنهم لو حكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة على عليه السلام من دم عثمان ، وبأن طلحة كان هو الجلة والتفصيل فى أمره وحصره وقتله ، وكان الزبير مساعداً له على ذلك ، وإن لم يكن مكاشفاً مكاشفة طلحة .

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة ، وقال لهما : إنكم إنما تخافان العار فى رجوعكم وانصرافكم عن الحرب ، فإن لم ترجعا اجتمع عليكم العار والنار ؛ أما العار فلا نكسر تهزمان وتقرآن عند اللقاء فتعيّران بذلك ، وأيضا سيكشف للناس أنكم كنتم على باطل فتعيّران بذلك ، وأما النار فإليها مصير العصاة إذا ماتوا على غير توبة واحتمال العار ، وحده أهون من احتمال النار معه .

(٥٥)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا ، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلُقْنَا ، وَلَا بِالسَّعَى فِيهَا أَمْرُنَا ، وَإِنَّمَا وَضِعْنَا فِيهَا لِنَبْتَلَى بِهِمَا ، وَقَدْ ابْتَلَانِي اللَّهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي ، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ ، فَغَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، وَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْزِ يَدِي وَلَا لِسَانِي ، وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي ، وَاللَّبَّ عَالِمُكُمْ جَاهِلُكُمْ ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدُكُمْ .
فَاتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ، وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِمَا جَلَ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ ، وَتَقْطَعُ الدَّائِرَ ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ ، لَنْ جَمَعْتَنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لَا أَدَالُ بِبَاحْتِكَ ، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

الشنخ :

قال عليه السلام : « إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها » ، أى جعلها طريقاً إلى الآخرة .
ومن الكلمات الحكمية : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وابتلى فيها أهلها
أى اختبرهم ليعلم أيهم أحسن عملاً ، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز ، والمراد ليعلم خلقه ،

أو ليعلم ملائكتيه ورُسُلُه ، فحذف المضاف ، وقد سبقت ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدم ، قال : « ولسنا للدنيا خُلِقْنَا » ، أى لم نخلق للدنيا فقط .

قال : « ولا بالسعى فيها أمرنا » ، أى لم نؤمر بالسعى فيها لها ، بل أُمِرْنَا بالسعى فيها لغيرها .

ثم ذكر أن كل واحد منه ومن معاوية مُبْتَلًى بصاحبه ، وذلك كابتلاء آدم بإبليس وإبليس بآدم .

قال : « فندوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن » ، أى تعديت وظلمت ، و « على » ها هنا متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام ، تقديره مثابرا على طلب الدنيا أو مصرا على طلب الدنيا ، وتأويل القرآن ما كان معاوية يموّه به على أهل الشام فيقول لهم : أنا وليّ عثمان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا ^(١) ﴾ .

ثم يعدّهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ^(١) ﴾ .

قوله : « وعصبته أنت وأهل الشام » ، أى أزمته كما تلزم العصاة الرأس ، « وألب عالمكم جاهلكم » ؛ أى حرّض .

والقياد : حبل تقاد به الدابة .

قوله : واحذر أن يصيبك الله منه بما جل قارعة ، الضمير في « منه » راجع إلى الله تعالى ، « ومن » لا ابتداء الغاية .

وقال الراوندى : منه ، أى من البُهْتَان الذى أتيت به ، أى من أجله ، و « من » للتعليل ، وهذا بعيد وخلاف الظاهر .

قوله : « تمسّ الأصل » ، أى تقطعه ، ومنه ماء ممسوس أى يقطع العُلّة . ويقطع الدابر أى العقب والنسل .

والأليّة : اليمين . وباحة الدار : وَسَطُهَا ، وكذلك ساحتُها ، ورؤى بناحيّتك .

قوله : « بماجل قارعة ، وجوامع الأقدار » ، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف (١)

للتأكيد ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (٢) .

(١) د : « الصلة إلى الموصول » . (٢) سورة الحاقة ٥١ .

(٥٦)

الأَجْنَلُ :

ومن كلام له عليه السلام وصى به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته
إلى الشام :

اتَّقِ اللَّهَ فِي كُلِّ مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغُرُورَ ، وَلَا تَأْمَنْهَا
عَلَى حَالٍ .

وَأَعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرُدَّ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ خَافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَتْ بِكَ
الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعًا رَادِعًا ، وَلِتَزَوَانِكَ عِنْدَ الْحَفِيفَةِ
وَأَقِمَّا قَامِعًا .

[شريح بن هانئ]

الشَّرِخُ :

هو شريح بن هانئ بن يزيد بن نهيك بن دُرَيْد بن سُفْيَان بن الضَّبَاب ، وهو سَلَمَةٌ
ابن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن كعب المَذْحِجِي . كان هانئ يُكْنَى في الجاهلية
أبا الحكم ، لأنه كان يحكم بينهم ، فكناه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي شريح ،
إذ وفد عليه . وابنه شريح هذا من جَلَّةِ أصحابِ علي عليه السلام ، شهد معه المشاهد كلها ،
وعاش حتى قُتِلَ بِسِجِسْتَانَ في زمن الحِجَّاج ، وشُرِّعَ جاهلي إسلامي ، يكنى أبا المقدم ،

ذَكَرَ ذَلِكَ كَلَّةُ أَبُو عَمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْاِسْتِيعَابِ (١) .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَخَفَ عَلَى نَفْسِكَ الْغُرُورَ ، يَعْنِي الشَّيْطَانَ ، فَأَمَّا الْغُرُورُ بِالضَّمِّ
فَمَصْدَرٌ . وَالرَّادِعُ : الْكَافُّ الْمَانِعُ . وَالزَّوَاتُ : الْوَثَبَاتُ . وَالْحَفِيفَةُ : الْغَضَبُ . وَالْوَارِقُ :
فَاعِلٌ ، مِنْ وَقَمْتُهُ أَيْ رَدَدْتُهُ أَقْبَحَ الرَّدِّ وَقَهْرْتُهُ . يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ لَمْ تَرُدَّ نَفْسَكَ
عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِكَ أَفْضَتْ بِكَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :
فَإِنَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهَا وَفَرَجَكَ نَالًا مُنْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعًا (٢)

(١) الْاِسْتِيعَابُ ٦٠٧ . (٢) الْبَيْتُ لِحَاتِمٍ ، وَهُوَ مِنْ شَوَاهِدِ الْمَغْنَى ٣٣١ .

(٥٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة

إلى البصرة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي خَرَجْتُ عَنْ حَيِّي هَذَا إِمَّا ظَالِمًا وَإِمَّا مَظْلُومًا ، وَإِمَّا بَاطِلًا
وَإِمَّا مُبِينًا عَلَيْهِ ، وَأَنَا أَذْكُرُ اللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ ، فَإِنْ كُنْتُ
مُحْسِنًا أَعَانَنِي ، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئًا اسْتَعْتَبَنِي .

الشرح :

ما أحسنَ هذا التقسيم وما أبلغه في عطف القلوب عليه ، واستمالة النفوس إليه !
قال : لا يَخْلُو حَالِي فِي خُرُوجِي مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ أَكُونَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ،
وَبَدَأَ بِالظَّالِمِ هُضْمًا لِنَفْسِهِ^(١) ، وَالثَّلَا يَقُولُ عَدُوهُ : بَدَأَ بِدَعْوَى كَوْنِهِ مَظْلُومًا ، فَأَعْطَى عَدُوَّهُ
مِنْ نَفْسِهِ مَا أَرَادَ .

قال : فَلْيَتَّقِرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَيَّ فَإِنْ وَجَدُونِي مَظْلُومًا أَعَانُونِي ، وَإِنْ وَجَدُونِي ظَالِمًا نَهَوْنِي .
عَنْ ظُلْمِي لِأَعْتَبَ وَأُنِيبَ إِلَى الْحَقِّ . وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ ، وَمُرَادُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْصُلُ عَلَى
كَلَا الْوَجْهَيْنِ ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَنْفِرَهُمْ ، وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ يَقْتَضِيَانِ تَغْيِيرَهُمْ إِلَيْهِ عَلَى كُلِّ
حَالٍ ، وَالْحَيُّ : الْمَنْزِلُ ، وَلَمَّا هَاهُنَا يَعْني إِلَّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا
حَافِظٌ ﴾^(٢) فِي قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَهَا بِالتَّشْدِيدِ .

(١) فِي د . « وَأَرَادَ بِالظَّالِمِ هَدْمَ نَفْسِهِ » . (٢) سُورَةُ الطَّارِقِ ٤ .

(٥٨)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين :

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا التَّقَيْنَا بِالْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ ، وَدَعَوْنَنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ ، وَلَا نَسْتَرِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّصَدِيقِ بِرَسُولِهِ وَلَا يَسْتَرِيدُونَنَا ، وَالْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ ، قُلْنَا : تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لَا يُدْرِكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّارَةِ ، وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمَعَ ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ فِي مَوَاضِعِهِ ، فَقَالُوا : بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ ، فَأَبَوْا ، حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ ، وَوَقَدَتْ نِيرَانَهَا وَحَمِشَتْ^(١) .

فَلَمَّا ضَرَسْنَا وَإِيَّاهُمْ ، وَوَضَعْتُ خَالَيَهَا فِينَا وَفِيهِمْ ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا ، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، حَتَّى اسْتَبَانَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ؛ وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ الْمَعْدِرَةُ ، فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَقْنَدَهُ اللَّهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّائِسُ الَّذِي رَانَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السُّوءِ عَلَى رَأْسِهِ .

(١) في د » وحيت » .

الْبَيْزُ :

رُوي : « التقينا والقوم » بالواو ، كما قال :

* قلتُ إذ أقبلتُ وزهر تهادى *

ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلف .

قوله : « والظاهر أن ربنا واحد » ، كلامٌ من لم يحكم لأهل صفين من جانب معاوية حكما قاطعا بالإسلام ، بل قال : ظاهرهم الإسلام ، ولا خاف بيننا وبينهم فيه ، بل انخلف في دم عثمان .

قال عليه السلام : قلنا لهم : تعالوا فلنطفي هذه النائرة الآن بوضع الحرب ، إلى أن تتمهد قاعدتي في الخلافة وتزول هذه الشوائب التي تكدر على الأمر ، ويكون للناس جماعة ترجع إليها ، وبعد ذلك أتمكن من قتل عثمان بأعيانهم فأقتص منهم ، فأبوا إلا الكابرة والمغالبة والحرب .

قوله : « حتى جئحت الحرب وركدت » ، جئحت : أقبلت ، ومنه : قد جئح الليل ، أي أقبل ، وركدت : دامت وثبتت .

قوله : « ووقدت نيرانها » ، أي التهمت .

قوله : « وسحشت » ، أي أستمعرت وشبت . ورُوي : « وأستحشمت ^(١) » وهو أصح ؛ ومن رواها « حمست » بالسين المهملة أراد أشتدت وصلبت .

قوله : « فلما ضررنا وإياهم » أي عضتنا بأضراسها ، ويقال : ضررهم الدهر ، أي اشتد عليهم .

(١) في د « واستجرت » . والمعنى عليه يستقيم أيضا .

قال : لَمَّا أَشَدَّتْ الحرب علينا وعليهم ، وَأَكَلَتْ مِنَّا وَمِنْهُمْ ، عادوا إلى ما كنَّا سألناهم
أُبتداءً ، وَضَرَعُوا إِلَيْنَا فِي رَفْعِ الحرب ، وَرَفَعُوا المصاحفَ يسألون النزولَ على حُكْمِهَا ،
وَإِغْمَادَ السَّيْفِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ .

قوله : « وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا » كلمةٌ فصِيحةٌ ، وهى تَعْدِيَةُ الفِعْلِ اللّازِمِ ، كَأَنَّهَا لَمَّا
كَانَتْ فِي مَعْنَى المُسَابَقَةِ ، والمُسَابَقَةُ مُتَعَدِيَةٌ عَدَى المُسَارَعَةِ .

قوله : « حَتَّى اسْتَبَانَت » ، يقول : استمَرَرْنَا على كِفِّ الحرب ووضِعِهَا ، إِجَابَةً
لِسؤَالِهِمْ ، إِلَى أَنْ اسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمْ حُجَّتُنَا ، وَبَطَلَتْ مَعَاذِيرُهُمْ وَشُبُهَاتُهُمْ فِي الحرب وَشَقَّ العَصَا ،
فَمَنْ تَمَّ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، أَيْ عَلَى أَتْقِيَادِهِ إِلَى الْحَقِّ بَعْدَ ظُهُورِهِ لَهُ ، فَذَلِكَ الَّذِى خَلَّصَهُ اللَّهُ مِنْ
الهِلَاكِ وَعَذَابِ الآخِرَةِ ، وَمَنْ لَجَّ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَتَمَادَى فِي ضَلَالِهِ فَهُوَ الرَّآكِسُ ؛ قَالَ قَوْمٌ :
الرَّاكِسُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَرِّ كُوسٌ ، فَهُوَ مَقْلُوبٌ فَاعِلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهَوَوْ فِي
عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ^(١) أَيْ مَرْضِيَّةٍ ، وَعِنْدِي أَنَّ اللَّفْظَةَ عَلَى بَابِهَا ، يَعْنِى أَنَّ مَنْ لَجَّ فَقَدْ
رَكَسَ نَفْسَهُ ، فَهُوَ الرَّآكِسُ ، وَهُوَ الْمُرْكُوسُ ، يُقَالُ : رَكَسَهُ وَأَرَكَسَهُ بِمَعْنَى ، وَالْكِتَابُ
الْعَزِيزُ جَاءَ بِالْهَمْزِ فَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ أَرَكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ ^(٢) ، أَيْ رَدَّاهُمْ إِلَى كُفْرِهِمْ ^(٣) ؛
وَيَقُولُ : ارْتَكَسَ فُلَانٌ فِي أَمْرٍ كَانَ نَجَا مِنْهُ ، وَرَانَ عَلَى قَلْبِهِ ، أَيْ رَانَ هُوَ عَلَى قَلْبِهِ ، كَمَا
قُلْنَا فِي الرَّآكِسِ ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ — وَهُوَ اللَّهُ — مُحذُوفًا ، لِأَنَّ الْفَاعِلَ لَا يُحْذَفُ ،
بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ كَالْمُحْذُوفِ ، وَلَيْسَ بِمُحْذُوفٍ ، وَيَكُونُ الْمَصْدَرُ وَهُوَ
الرَّئِىْنُ ، وَدَلَّ الْفِعْلُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا
آيَاتِ ﴾ ^(٤) أَيْ بَدَأَهُمُ الْبَدَاءَ . وَرَانَ بِمَعْنَى غَلَبَ وَغَطَّى ؛ وَرَوَى « فَهُوَ الرَّآكِسُ
الَّذِى رِينَ عَلَى قَلْبِهِ » .

(٢) سورة النساء ٨٨ .

(١) القارعة ٧ .

(٤) سورة يوسف ٣٥ .

(٣) فى د « كيدهم » .

قال : وصارت دائرةُ السَّوءِ على رأسِهِ ، من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى :
﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ ﴾^(١) والدوائر : الدُّوَل .
قال :

* وإنَّ على الباغي تدورُ الدوائر *
والدائرة أيضا : الهزيمة ، يقال : على مَنْ الدائرةُ منهما ، والدوائرُ أيضاً الدَّوَاهِي .

(١) سورة الفتح ٧ .

(٥٩)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان :
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْوَالِي إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ ، فَلْيَكُنْ
أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عَوْضٌ مِنَ الْعَدْلِ ، فَاجْتَنِبْ
مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَابْتَدِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رَاجِيًا ثَوَابَهُ ، وَمُتَخَوِّفًا
عِقَابَهُ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرُغَتْهُ
عَلَيْهِ حَسْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا ، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ
حِفْظُ نَفْسِكَ ، وَالِاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهِدِكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ
أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ ؛ وَالسَّلَامُ .

الشنخ :

[الأسود بن قطبة]

لم أقف إلى الآن على نسب الأسود بن قطبة ، وقرأت في كثير من النسخ أنه حارثي
من بني الحارث بن كعب ؛ ولم أتحقق ذلك ، والذي يغلب على ظني أنه الأسود بن زيد
ابن قطبة بن غنم الأنصاري من بني عبيد بن عدى . ذكره أبو عمر بن عبد البر في
كتاب " الاستيعاب " ، وقال : إن موسى بن عتبة عدّه فيمن شهد بدرًا (١) .

(١) الاستيعاب ١ : ٩٠ (طبعة نهضة مصر) .

قوله عليه السلام : « إذا اختلف هَوَى الوالى منعه كثيرا من الحق » قولٌ صِدْق ،
لأنه متى لم يكن الخصمان عند الوالى سواءً فى الحق جَارَ وظَلَمَ .
ثم قال له : فإنه ليس فى الجورِ عوضٌ من العدل ؛ وهذا أيضا حق ، وفى العدل كلُّ
العوض من الجور .

ثم أمره باجتنب ما ينكر مثله من غيره ، وقد تقدّم نحوه هذا .
وقوله : « إلا كانت فرغته » كلمةٌ فصيحة ، وهى المرة الواحدة من الفراغ ،
وقد روى عن النبىِّ صلى الله عليه وآله : « إن الله يُبغِضُ الصحيحَ الفارغ لا فى شغل
الدنيا ولا فى شغل الآخرة » ، ومرادُ أمير المؤمنين عليه السلام ها هنا الفراغُ من عمل
الآخرة خاصة .

قوله : « فإن الذى يصل إليك من ذلك أفضل من الذى يصل بك » ، معناه : فإن
الذى يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعية ، وحفظ نفسك من مظالمهم والخيف
عليهم ، أفضل من الذى يصل بك من حراسة دِمَائِهِمْ^(١) وأعراضهم وأموالهم ؛
ولا شبهة فى ذلك ، لأنَّ إحدى المنفعتين دائمة ، والأخرى منقطعة ، والنفع الدائم أفضلُ
من المنقطع .

(١) ب : « دعائهم » تصحيف ، صوابه فى ا ، د .

(٦٠)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش^(١) :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ
وَعَمَالِ الْبِلَادِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنِ شَاءَ اللَّهُ ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ
بِمَا يَحِبُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى ، وَصَرَفِ الشَّدَى ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ
وَالْإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لَا يَحِدُّ عَنْهَا مَذْهَبًا
إِلَى شِيعَةٍ^(٢) ، فَتَكَلُّوا مَنْ تَنَاولَ مِنْهُمْ ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُقْمَائِكُمْ
عَنْ مُضَادَّتِهِمْ ، وَالتَّعَرَّضْ لَهُمْ فِيمَا اسْتَشْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ ،
فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَطَالِيكُمْ ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ
إِلَّا بِاللَّهِ^(٣) وَبِي ، أَغْيَرُهُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ . إِنِ شَاءَ اللَّهُ .

الشَّرْحُ :

رُوي « عَنْ مُضَارَّتِهِمْ » بالراء المشددة . وجُباة الخراج : الَّذِينَ يَجْمَعُونَهُ ، جَبَيْتُ الْمَاءَ
فِي الْحَوْضِ ، أَيْ جَمَعْتُهُ . وَالشَّدَى : الضَرْبُ وَالشَّرُّ ، تَقُولُ : لَقَدْ أَشْدَيْتُ وَأَذَيْتُ . وَالْإِلَى ذِمَّتِكُمْ ،
أَيْ إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ بَيْنَكُمْ^(٤) ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَكَأَنَّمَا^(٥) آذَانِي » ،

(١) د « عملهم الجيش » . (٢) مخطوطة الهج : « إلا إلى شيعه » .

(٣) د « يا ذن الله » . (٤) د « بذمتكم » .

(٥) د « فقد » .

وقال : إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا ، وأموالهم كأموالنا ، ويسمى هؤلاء ذمة ، أى أهل ذمة ، بحذف المضاف . والمعرة : المصرة ، قال : الجيش ممنوع من أذى من يمرّ به من المسلمين وأهل الذمة إلا من سدّ جوعة المضطرّ منهم خاصة ، لأنّ المضطرّ تباح له الميتة فطلا عن غيرها .

ثمّ قال : فنكّلوا من تناول ، ورؤى « بمن تناول » بالباء ، أى عاقبه . و « عن » فى قوله : « عن ظلمهم » ، يتعلّق بنكّلوا ، لأنّها فى معنى « اردعوا » ؛ لأنّ النكّال يُوجِب الرّدْع .

ثمّ أمرهم أن يكفّوا أيديّ أحدايهم وسفهايهم عن مُنازعة الجيش ومصادمته ، والتعرّض لمنعه عمّا استثناه ، وهو سدّ الجوعة عند الاضطرار ، فإنّ ذلك لا يجوز فى الشرع ، وأيضا فإنّه يُفْضَى إلى فتنة وهَرَج .

ثمّ قال : « وأنا بين أظهر الجيش » ، أى أنا قريبٌ منكم ، وسائرُ على إثر الجيش ، فارفعوا إلى مظالمكم وما عراكم منهم على وجه الغلبة والقهر ، فإنّى مغيّرٌ ذلك ومنتصفٌ لكم منهم .

(٦١)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله على هيت
ينكر عليه تركه دفع من يحتازه من جيش المدو طالبا للغارة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وَثَّى ، وَتَكَلُّفُهُ مَا كُفِيَ ، لَعَجَزْتُ حَاضِرٌ ،
وَمُرَّئِي مُتَبَرِّءٌ . وَإِنَّ تَعَاطِيكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قَرْقِيسِيَا ، وَتَعْطِيكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ
- لَيْسَ لَهَا مَنْ يَنْعُمُهَا ، وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأَى شَعَاعٌ ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْرًا لِمَنْ
أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمُنْكَبِ ، وَلَا مَهِيبِ الْجَانِبِ ،
وَلَا سَادٍّ لُغْرَةٍ ، وَلَا كَاسِرٍ لِعِدُوٍّ شَوْكَةٍ ، وَلَا مُغْنٍ عَنِ أَهْلِ مَضْرِهِ ^(١) ، وَلَا مُجْزِ
عَنْ أَمِيرِهِ .

الشَّيْخُ :

[كميل بن زياد ونسبه]

هو كميل بن زياد بن سهيل بن هيثم بن سعد بن مالك بن الحارث بن صهبان
ابن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن وُعلة بن خالد بن مالك بن أدد . كان من أصحاب
علي عليه السلام وشيعته وخاصته ، وقتله الحجاج على المذهب فيمن قتل من الشيعة .
وكان كميل بن زياد عامل علي عليه السلام على هيت ، وكان ضعيفا ، يرد عليه سرايا معاوية
تنهب أطراف العراق ولا يردّها ، ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يُغيّر

(١) في د « النصرة » .

على أطراف أعمال معاوية مثل قرقيسيا وما يجري مجراها من القرى التى على الفرات ،
فأنكر عليه السلام ذلك من فعله ، وقال : إن من العجز الحاضر أن يهمل الوالى ما ولىه ،
ويتكلف ما ليس من تكليفه .

والمُتَبَّر : الهالك ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرُونَ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ (١) .
والمسالح : جمع مسلحة ، وهى المواضع التى يقام فيها طائفة من الجند لحمايتها .
ورأى شعاع ، بالفتح ، أى متفرق .
ثم قال له : « قد صرت جسرا » أى يعبر عليك العدو كما يعبر الناس على الجسور ،
وكأن الجسر لا يمنع من يعبر به ويمرّ عليه فكذلك أنت .
والثغرة : الثلثة . ومجزئ : كافٍ ومُغنٍ ؛ والأصل « مجزئ » بالهمز ، تخفيف .

(٦٣)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رحمه الله

لما ولاه إمارتها :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ،
وَمُهِمِّنًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ؛ فَلَمَّا مَضَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ
مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ، وَلَا يَخْطُرُ بِيَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا
الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحَّوهُ حَتَّى مِنْ
بَعْدِهِ ، فَمَا رَاعَنِى إِلَّا انْتِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ ، فَأَمْسَكَتُ بِيَدِي حَتَّى رَأَيْتُ
رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ هَدَمًا ، تَكُونُ
الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَى أَعْظَمَ مِنْ قَوْتٍ وَلَا يَتَكُمُ ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ ،
يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، وَكَمَا يَتَفَشَّحُ السَّحَابُ ، فَهَضَمْتُ فِي تِلْكَ
الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاغَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهَّنَه .

الشَّيْخُ :

المُهِمِّنُ : الشاهد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ﴾ ، أَيْ

تشهد بإيمان مَنْ آمَنَ وكُفِّرَ من كُفَّرَ . وقيل : تشهد بصحة نبوة الأنبياء قبلك .

وقوله : « على المرسلين » ، يؤكد صحة هذا التفسير الثانى ، وأصل اللفظة من « آمن غيره من الخوف » ، لأنّ الشاهد يؤمن غيره من الخوف بشهادته ، ثمّ تصرّفوا فيها فأبدلوا إحدى همزتى « مؤامن » ياء فصار « مؤيمن » ، ثمّ قلبوا الهمزة هاء كأرقت وهرقت فصار « مهيمن » .

والرّوع : الخلد ؛ وفى الحديث : « إنّ رُوح القدس نفث فى رُوعى » ، قال : ما يخطر لى ببال أنّ العرب تعدّل بالأمر بعد وفاة محمد صلى الله عليه وآله نين بنى هاشم ، ثمّ من بنى هاشم عتى ؛ لأنّه كان المتيقن بحكم الحال الحاضرة . وهذا الكلام يدلّ على بطلان دعوى الإمامية النصّ وخصوصا الجلىّ .

قال : « فما راعنى إلا انثيال الناس » ، تقول للشئ يفجؤك بفتة : ما راعنى إلا كذا ، والرّوع بالفتح ؛ الفرع ، كأنه يقول : ما أفزعنى شئ بعد ذلك السكون الذى كان عندى ، وتلك الثقة التى اطمأننت إليها إلا وقوع ما وقع من انثيال الناس - أى انصبابهم من كلّ وجه كما ينثاب التراب - على أبى بكر ، وهكذا لفظ الكتاب الذى كتبه للأشتر ، وإنما الناس يكتبونه الآن « إلى فلان » تدّما من ذكر الاسم كما يكتبون فى أوّل الشّعشيّة : « أما والله لقد تقمّصها فلان » ، واللفظ « أما والله لقد تقمّصها ابن أبى قحافة » .

قوله : « فأمسكت يدى » ، أى امتنعت عن بيعته ، حتى رأيت راجعة الناس ، يعنى أهل الرّدة كمسيلة ، وسجّاح وطليحة بن خويلد ومانى الزكاة ؛ وإن كان مانع الزكاة قد اختلف فى أنهم أهل ردة أم لا .
وعقّ الدين : إبطاله .

وزهق : خرج وزال . نهته : سكن ، وأصله الكفّ ، تقول : نهته السبع فتنهته ،

أى كَفَّ عن حركته وإقدامه ، فكأنَّ الدِّينَ كانَ متحرِّكاً مضطرباً فسكن وكف عن ذلك الاضطراب .

رَوَى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات اجتمعت أسدٌ وغطفانٌ وطَيٌّ على طُلَيْحَةَ بنِ خُوَيْلِدٍ إلا ما كان من خواصِّ أقوام في الطوائف الثلاث ، فاجتمعت أسدٌ بِسَمِيرَاءَ ، وغطفانٌ بِجَنُوبِ طَيْيَةِ^(١) وطَيٌّ في حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من قيس بالأبرق^(٢) من الرِّبْذَةِ ، وتأشَّب^(٣) إليهم ناس من بني كنانة ، ولم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين : أقامت إحداها بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القِصَّةِ ، وبمشوا وفوداً إلى أبي بكر يسألونه أن يقارهم على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، فعزم الله لأبي بكر على الحق ، فقال : لو مَنَعُونِي عِقَالاً^(٤) لجاهدتهم عليه . ورجع الوفودُ إلى قومهم فأخبروهم بقلَّةِ من أهل المدينة ، فأطمعهم فيها وعلم أبو بكر والمسلمون بذلك ، وقال لهم أبو بكر : أيها المسلمون ، إنَّ الأرضَ كافرة ، وقد رأى وفدُهم منكم قِلَّةً ، وإنكم لا تدرُونَ أَلَيْلًا تُؤْتَوْنَ أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن تقبل منهم ونُودِعَهم ، وقد أَيْنَسَ عليهم ، ونبذنا إليهم ، فأعدُّوا واستمِدُّوا . فخرج على عليه السلام بنفسه ، وكان على نَقَبٍ من أنقاب المدينة ، وخرج الزبير وطائفة وعبد الله بن مسعود وغيرُهم فكانوا على الأنقاب الثلاثة ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى طرق القومُ المدينة غارَةً مع الليل ، وخلقوا بمضهم بنى حُسى

(١) في الأصول : « طمية » والصواب ما أثبتته من تاريخ الطبري .

(٢) في الأصول : « الأزرق » ، والصواب ما أثبتته من الطبري .

(٣) تأشَّبوا إليهم : انضموا .

(٤) أراد بالمقال الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في إبل الصدقة . وانظر نهاية ابن الأثير .

ليكونوا ردة لهم ، فوافوا الأتقاب وعليها المسلمون ، فأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر ، فأرسل إليهم أن الزموا مكانكم ، ففعلوا ، وخرج أبو بكر في جمعٍ من أهل المدينة على النواضح ، فانتشر العدو بين أيديهم ، واتبعهم المسلمون على النواضح حتى بلغوا ذا حُسى ، فخرج عليهم الكمين بأئحاء^(١) قد نفخوها ، وجعلوا فيها الجبال ، ثم دَهِدْهُوا بأرجُلهم في وجوه الإبل ، فتدَّهده^(٢) كلَّ نَحْيٍ مِنْهَا في طَوْلِهِ^(٣) فنفرت إبلُ المسلمين ، وهم عليها - ولا تنفر الإبلُ من شيء تفارَها من الأئحاء - فماجت بهم لا يملكونها حتى دخلت بهم المدينة ، ولم يصرع منهم أحد ولم يُصَب ، فبات المسلمون تلك الليلة يَتَهَيَّئون ، ثم خرجوا على تعبئة ، فما طلع الفجرُ إلَّا وهم والقومُ على صعيد واحد ، فلم يَسْمَعُوا للمسلمين حِسًا ولا هَمْسًا حتى وضعوا فيهم السيف ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم ، فما ذَرَّ قرْنُ الشمس إلا وقد وَلَّوْا الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم ، ورجعوا إلى المدينة ظافرين^(٤) .

قلت : هذا هو الحديث الذى أشار عليه السلام إلى أنه نهض فيه أيام أبي بكر . وكأنه جوابٌ عن قول قائل : إنه عمل لأبي بكر ، وجاهد بين يدي أبي بكر ، فبين عليه السلام عذرَه في ذلك ، وقال : إنه لم يكن كما ظنَّه القائل ، ولكنه من باب دَفْعِ الضرر عن النفس وعن الدين ، فإنه واجبٌ سواء كان للناس إمام أو لم يكن .

[ذكر ما طعن به الشيعة في إمامة أبي بكر والجواب عنها]

ويبينى حيث جرى ذكرُ أبي بكر في كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن نذكر ما أورده قاضى القضاة فى ”المغنى“ ، من المطاعن التى طعن بها فيه وجواب قاضى القضاة

(١) الأئحاء : جمع نحى ، وهو الزق . (٢) دَهِدْهُوا : دفعوها .

(٣) الطول : الجبل يشدبه . (٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ (طبعة المعارف) مع تصرف واختصار .

عنها ، واعتراضُ المرتضى في ” الشافي “ ، على قاضي القضاة ، ونذكرُ ما عندنا في ذلك ، ثم نذكر مطاعن أخرى لم يذكرها قاضي القضاة .

[الطعنُ الأول]

قال قاضي القضاة بعد أن ذكر ما طعن به فيه في أمر فذك ، وقد سبق القولُ فيه .
ومما طعن به عليه قولهم : كيف يصلح للإمامة من يُخبر عن نفسه أنَّ له شيطانا يعتريه
ومن يحذر الناسَ نفسه ، ومن يقول : « أقبلوني » بعد دخوله في الإمامة ، مع أنه لا يحلّ
للإمام أن يقول : أقبلوني البيعة !

أجاب قاضي القضاة فقال : إنَّ شيخنا أبا عليّ قال : لو كان ذلك نقصا فيه لكان قولُ
الله في آدمَ وحواءَ : ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ^(٢) ،
وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي
أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ^(٣) ، يوجب النقص في الأنبياء . وإذا لم يجب ذلك ، فكذلك ما وصف به أبو بكر
نفسه ، وإنما أراد أنه عند الغضب يُشْفِقُ من المعصية ويحذر منها ، ويخاف أن يكون
الشيطان يعتريه في تلك الحال فيوسوس إليه ، وذلك منه على طريق الزجر لنفسه عن
المعاصي ، وقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه ترك مخاصمة الناس في حقوقه إشفافا
من المعصية ، وكان يولّي ذلك عقيلا ، فلما أسنَّ عقيل كان يولّيها عبد الله بن جعفر . فأما
ما روى في إقالة البيعة فهو خبرٌ ضعيف ، وإن صحَّ فالمراد به التنبيه على أنه لا يبالي لأمر
يرجع إليه أن يُقبله الناسُ البيعة ، وإنما يضرّون بذلك أنفسهم ؛ وكأنه نبه بذلك

(١) سورة الأعراف ٢٠ . (٢) سورة البقرة ٣٦ .

(٣) سورة الحج ٥٢ .

على أنه غير منكره لهم ، وأنه قد خلاهم وما يريدون إلا أن يعرض ما يوجب خلافه . وقدروى أن أمير المؤمنين عليه السلام أقال عبد الله بن عمر البيعة حين استقاله ، والمراد بذلك أنه تركه وما يختار .

اعترض المرتضى رضى الله عنه فقال: أما قول أبي بكر : « وَلَيْتُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ » ، فإن استتمت فأتبعوني ، وإن أعوججت فقوموني ، فإن لى شيطانا يعتريني عند غضبي ، فإذا رأيتموني مغضبا فأجنبوني لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم » ، فإنه يدل على أنه لا يصلح للإمامة من وجهين : أحدهما أن هذا صفة من ليس بمعصوم ، ولا يأمن الغلط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيته له إذا وقع في المعصية ، وقد بينا أن الإمام لا بد أن يكون معصوما موقفا مسددا ، والوجه الآخر أن هذه صفة من لا يملك نفسه ، ولا يضبط غضبه ، ومن هو في نهاية الطيش والحدة والخرق والمجالة . ولا خلاف أن الإمام يجب أن يكون منزها عن هذه الأوصاف ، غير حاصل عليها وليس يشبه قول أبي بكر ما تلاه من الآيات كلها . لأن أبا بكر خبر عن نفسه بطاعة الشيطان عند الغضب ، وأن عادته بذلك جارية ، وليس هذا بمنزلة من يؤسوس إليه الشيطان ولا يطيعه ، وزين له القبيح فلا يأتيه ، وليس وسوسة الشيطان بعيب على الموسوس له إذا لم يستزل ذلك عن الصواب ، بل هو زيادة في التكليف ، ووجه يتضاعف معه الثواب ؛ وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قيل : معناه في تلاوته ؛ وقيل : في فكرته ، على سبيل الخاطر ، وأى الأمرين كان ، فلا عار في ذلك على النبي صلى الله عليه وآله ولا نقص ، وإنما العار والنقص على من يطيع الشيطان ويتبع ما يدعو إليه . وليس لأحد أن يقول : هذا إن سلم لكم في جميع الآيات لم يسلم في قوله تعالى : ﴿ فَازْلِهْهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ؛ لأنه قد خبر عن تأثير غوايته ووسوسته بما كان منهما من الفعل . وذلك أن المعنى الصحيح في هذه الآية أن آدم وحواء كانا مندوبين إلى اجتنب الشجرة وترك التناول منها ، ولم يكن ذلك عليهما واجبا لازما ،

لأنّ الأنبياء لا يُخْلَوْنَ بالواجب ، فوسوس لها الشيطان حتى تَنَآوَلَا من الشجرة ، فتركا مندوبا إليه ، وحرّما بذلك أنفسهما الثواب ، وسماه إزلالا ، لأنه حطّ لهما عن درجة الثواب وفعل الأفضل ؛ وقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ^(١) لا ينافي هذا المعنى ، لأنّ المعصية قد يُسَعَى بها من أخلّ بالواجب والندب معا . قوله : « فغوى » أى خاب من حيث لم يستحقّ الثواب على ما ندب إليه . على أنّ صاحب الكتاب يقول : إنّ هذه المعصية من آدم كانت صغيرة لا يستحقّ بها عقاباً ولا ذمّاً ، فعلى مذهبه أيضا تكون المفارقة بينه وبين أبي بكر ظاهرة ، لأنّ أبا بكر خبر عن نفسه أنّ الشيطان يبتريه حتّى يؤثر في الأشعار والأبشار ، ويأتى ما يستحقّ به التقويم ، فأين هذا من ذنب صغير لا ذمّ ولا عقاب عليه ، وهو يجرى من وجه من الوجوه بجري المباح ، لأنه لا يؤثر في أحوال فاعله ^(٢) وحطّ رتبته ؛ وليس يجوز أن يكون ذلك منه على سبيل الخشية والإشفاق على ما ظنّ ، لأنّ مفهوم خطابه يقتضى خلاف ذلك ، ألا ترى أنّه قال : « إنّ لى شيطانا يعترينى » وهذا قول من قد عرّف عاداته ، ولو كان على سبيل الإشفاق والخوف لخرّج عن هذا المخرّج ، ولكان يقول : فإنّى لا آمن من كذا وإنّى لمشفق منه . فأما ترك أمير المؤمنين عليه السلام غاصمة الناس في حقوقه فكأنّه إنّما كان تنزّها وتكروها ؛ وأى نسبة بين ذلك وبين من صرّح وشهد على نفسه بما لا يليق بالأئمة ! وأما خبر استقالة البيعة وتضعيف صاحب الكتاب له فهو أبدا يضعف ما لا يوافقه من غير حجة يعتدّها في تضعيفه . وقوله : إنّ ما أستاذ على التحقيق ، وإنّما نبه على أنّه لا يبالى بخروج الأمر عنه ، وأنّه غير مكروه لهم عليه ؛ فبعيد من الصواب ؛ لأنّ ظاهر قوله « أقيلونى » أمرٌ بالإقالة ، وأقلّ أحواله أن يكون عرضا لها وبذلا ، وكلا الأمرين قبيح . ولو أراد ما ظنّه لكان له

(١) سورة طه ١٢١ . (٢) الشافى : « حال فاعله » .

في غير هذا القول مندوحة ، ولكان يقول : إني ما أكرهتكم ولا سحلتكم على مبايعتي ، وما كنت أبالي ألا يكون هذا الأمر في ولا إليّ ، وإن مفارقتي لتسرتني لولا ما أزميني الدخول فيه من التمسك به ، ومتى عدلنا عن ظواهر الكلام بلا دليل ، جرت ذلك علينا ما لا قبل لنا به . وأما أمير المؤمنين عليه السلام فإنه لم يقل ابن عمر البيعة بعد دخولها فيها وإنما استعفاء من أن يلزمه البيعة ابتداء فأعفاء قلّة فكر فيه ، وعلماً بأن إمامته لا تثبت بمبايعة من يبايعه عليها ، فأين هذا من استقالة بيعة قد تقدمت وأستقرت (١) !

قلت : أمّا قول أبي بكر : « وَلَيْتَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ » فقد صدق عند كثير من أصحابنا ؛ لأنّ خيرهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ومن لا يقول بذلك يقول بما قاله الحسن البصريّ : والله إنّ له ليعلم أنّه خيرهم ، ولكنّ المؤمن يهضم نفسه . ولم يطعن المرتضى فيه بهذه اللفظة لتطيل القول فيها . وأمّا قول المرتضى عنه إنّ قال : « فإنّ لي شيطاناً يعتريني عند غضبي » ، فالشهور في الرواية : « فإنّ لي شيطاناً يعتريني » (٢) ، قال المفسرون : أراد بالشيطان الغضب وسماه شيطاناً على طريق الاستعارة ، وكذا ذكره شيخنا أبو الحسين في « الغرر » . قال معاوية لإنسان غضب في حضرته فتكلّم بما لا يتكلّم بمثله في حضرة الخلفاء : اربّع على ظلمك (٣) أيها الإنسان ، فإنّما الغضب شيطان ، وإنّا لم نقل إلاّ خيراً . وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في « كتاب التاريخ الكبير » خطبتي أبي بكر عقيب بيعته بالسقيفة ، ونحن نذكرها نقلًا من كتابه ، أمّا الخطبة الأولى فهي :

(١) الشافعي ٤١٥ ، ٤١٦ . (٢) أي من غير ذكر لفظ « عند الغضب » .

(٣) اربّع على نفسك ؛ أي توقف .

أما بعد أيها الناس ، فَإِنِّي وَلَيْتَكُمْ وَلَسْتُ بِبَخِيرِكُمْ ، فَإِن أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي ، وَإِن أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي ، لِأَنَّ الصِّدْقَ أَمَانَةٌ ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ ، الضَّعِيفُ مِنْكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ ، وَالْقَوِيُّ مِنْكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُ ، لَا يَدْعُ قَوْمَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذِّلَّةِ ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا أَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ . أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ : قَوْمُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ رَحِّمَكُمُ اللَّهُ .

وَأَمَّا الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ ، وَإِنِّي لَا أَدْرِي لَكُمْ سَتَكَلَّفُونَنِي مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُطِيقُهُ ^(١) . إِنْ اللَّهُ أَصْطَفَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْآفَاتِ ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُتَّبِعٍ ، فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَاتَّبِعُونِي ، وَإِن زُغْتُ فَقَوِّمُونِي ، وَإِن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبِضَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمُظْلَمَةٍ ضَرْبَةِ سَوْطٍ فَمَا دُونَهَا . إِلَّا وَإِن لِي شَيْطَانًا يَغْتَرِينِي ، فَإِذَا غَضِبْتُ فَأَجْتَنِبُونِي لَا أَؤْثِرَ فِي أَشْعَارِكُمْ وَأُبْشَارِكُمْ . أَلَا وَإِنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غَيَّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ إِلَّا يَمَضِي هَذَا الْأَجَلُ إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ فَافْعَلُوا ، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ . فَسَابِقُوا فِي مَهَلٍ آجَالِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسَلِّمَ آجَالُكُمْ إِلَى انْقِطَاعِ الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ قَوْمًا نَسُوا آجَالَهُمْ ، وَجَعَلُوا أَعْمَالَهُمْ لغيرِهِمْ ، فَأَنْهَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ . الْجَدُّ الْجَدُّ ! الْوَحَا الْوَحَا ! فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ طَالِبًا حَثِيثًا ، أَجَلُهُ ^(٢) مَرُّهُ سَرِيعٌ . احْذَرُوا الْمَوْتَ ، وَاعْتَبَرُوا بِالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ ، وَلَا تَغْفِطُوا الْأَحْيَاءَ إِلَّا بِمَا يُغْبِطُ بِهِ الْأَمْوَاتُ ^(٣) .

إِنْ اللَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُهُ ، فَأَرِيدُوا وَجْهَ اللَّهِ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَعَلِمُوا

(١) الطبري : « يطيق » .

(٢) الطبري : « أجلا » . (٣) إلى هنا في الطبري نهاية الخبة ؛ وما بعدها من خطبة أخرى ..

أَنْ مَا أَخْلَصْتُمْ لِلَّهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَلطاعةٍ أَتَيْتُمُوهَا ، وَحَظَّ ظَفَرُكُمْ بِهِ ، وَضَرَّائِبَ أَدَيْتُمُوهَا ،
 وَسَلَفٍ قَدَّمَ تَمَوَّهُ مِنْ أَيَّامٍ فَانِيَةٍ لِأُخْرَى بَاقِيَةٍ ، لِحِينَ فَفَرَكْتُمْ وَحَاجَتِكُمْ ؛ فَاعْتَبَرُوا عِبَادَ اللَّهِ بِمَنْ
 مَاتَ مِنْكُمْ ، وَتَفَكَّرُوا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ أَيْنَ كَانُوا أَمْسَ وَأَيْنَ هُمْ الْيَوْمَ ! أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟
 أَيْنَ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ ذِكْرُ الْقِتَالِ وَالنَّالِبَةِ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ ! قَدْ تَضَعَّضَ بِهِمُ الدَّهْرُ ، وَصَارُوا
 رَمِيًا ، قَدْ تَرَكْتَ عَلَيْهِمُ الْقَالَاتِ الْخَبِيثَاتِ ، وَإِنَّمَا الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ .
 وَأَيْنَ الْمُلُوكُ الَّذِينَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ! قَدْ بَعُدُوا بِسَيِّئِ ذِكْرِهِمْ ، وَبَقِيَ ذِكْرُهُمْ
 وَصَارُوا كَلَامًا شَيْءًا . أَلَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِمُ التَّيْبَعَاتِ ، وَقَطَعَ عَنْهُمْ الشَّهَوَاتِ وَمَضَا
 وَالْأَعْمَالَ أَعْمَالَهُمْ ، وَالْدُنْيَا دُنْيَا غَيْرِهِمْ ، وَبَقِيَ خَلْفًا مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَإِنْ نَحْنُ اعْتَبَرْنَا بِهِمْ
 نَجُونَا ، وَإِنْ اغْتَرَرْنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ . أَيْنَ الْوُضَاءُ ^(١) الْحَسَنَةُ وَجُوهُهُمْ ، الْمَعْجُونَ بِشَبَابِهِمْ !
 صَارُوا تُرَابًا ، وَصَارَ مَا فَرَطُوا فِيهِ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ ، أَيْنَ الَّذِينَ بَنَوْا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ ،
 وَجَعَلُوا فِيهَا الْعَجَائِبَ ، وَتَرَكُوهَا لِمَنْ خَلَفَهُمْ ! فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ خَاوِيَةً ، وَهُمْ فِي ظُلْمِ
 الْقُبُورِ ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ^(٢) . أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ
 آبَائِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ ! قَدْ انْتَهَتْ بِهِمْ آجَالُهُمْ فَوَرَدُوا عَلَى مَا قَدَّمُوا عَلَيْهِ ، وَأَقَامُوا لِلشَّقْوَةِ
 وَلِلسَّعَادَةِ . أَلَا إِنَّ اللَّهَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ سَبَبٌ يُعْطِيهِ بِهِ
 خَيْرًا ، وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُ بِهِ شَرًّا إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِبَادُ مَدِينُونَ ،
 وَأَنْ مَا عِنْدَهُ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِتَقْوَاهُ وَعِبَادَتِهِ . أَلَا وَإِنَّهُ لَا خَيْرَ بِخَيْرِ بَعْدَهُ النَّارَ وَلَا شَرَّ بِشَرِّ
 بَعْدَهُ الْجَنَّةَ ^(٣) .

فَهَذِهِ خُطْبَتَا أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ السَّقِينَةِ ، وَالْيَوْمَ الَّذِي يَلِيهِ ، إِنَّمَا قَالَ : « إِنَّ لِي شَيْطَانًا
 يَعْتَرِينِي ، وَأَرَادَ بِالشَّيْطَانِ الْغَضَبَ ، وَلَمْ يُرَدَّ أَنْ لَهُ شَيْطَانًا مِنْ مَرَدَةِ الْجَنِّ يَعْتَرِيهِ إِذَا

(١) الْوُضَاءُ : ذُو الْوُضَاءَةِ وَالْحَسَنُ . (٢) سُورَةُ مَرْيَمَ : ٩٨ .

(٣) تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٥

غضب فالزيادة فيما ذكره المرتضى في قوله : « إن لي شيطانا يعتريني عند غضبي » ، تحريف لا محالة ، ولو كان له شيطان من الجنّ يعتاده وينوبه لكان في عداد المصروعين من المجانين ، وما ادعى أحد على أبي بكر هذا لا من أوليائه ولا من أعدائه ؛ وإنما ذكرنا خطبته على طولها والمراد منها كلمة واحدة ؛ لما فيها من الفصاحة والموعظة على عادتنا في الاعتناء بإيداع هذا الكتاب ما كان ذاهباً هذا المذهب ، وسالكا هذا السبيل .

فأمّا قول المرتضى : « فهذه صفة من ليس بمعصوم » ، فالأمر كذلك والعصمة عندنا ليست شرطاً في الإمامة ولولم يدل على عدم اشتراطها ؛ إلا أنه قال على المنبر بحضور الصحابة هذا القول ، وأقرّوه على الإمامة - لكن في عدم كون العصمة شرطاً ، لأنه قد حصل الإجماع على عدم اشتراط ذلك ، إذ لو كان شرطاً لأنكر منكر إمامته كما لو قال : إنّي لا أصبر عن شرب الخمر وعن الزنى .

فأمّا قوله : « هذه صفة طائش لا يملك نفسه » ، فلمعمرى إن أبا بكر كان حديداً ، وقد ذكره عمر بذلك ، وذكره غيره من الصحابة بالجدّة والسرعة ؛ ولكن لا بحيث أن تبطل به أهليته للإمامة ؛ لأنّ الذي يُبطل الإمامة من ذلك وما يخرج الإنسان عن العقل ، وأمّا ما هو دون ذلك فلا . وليس قوله : « فأجتنبوني لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم » محمول على ظاهره ، وإنما أراد به المبالغة في وصف القوة الغضبية عنده ، وإلا فما سمعنا ولا نقل ناقل من الشيعة ولا من غير الشيعة أنّ أبا بكر في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في الجاهلية ولا في أيام خلافته أحتد على إنسان فقام إليه فضربه بيده ومزق شعره . فأمّا ما حكاه قاضي القضاة عن الشيخ أبي عليّ من تشبيه هذه اللفظة بما ورد في القرآن ؛ فهو على تقدير أن يكون أبو بكر عني الشيطان حقيقة . وما أعترض به المرتضى ثانية عليه غير لازم ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فَوَسَّوْا لَهُمَ الشَّيْطَانُ ﴾ ، وتعقب ذلك قبولها

وسوسته ، وأكلهما من الشجرة ، فكيف يقول المرتضى : ليس قول أبي بكر بمنزلة مَنْ وَسَّوسَ له الشيطان فلم يُطِعْهُ ! وكذلك قوله تعالى في قصة موسى لما قَتَلَ القبطى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ، وما ذهب إليه المرتضى من التأويلات مبنى على مذهبه في العصمة الكلية ، وهو مذهب يحتاج في نُصْرَتِهِ إلى تكلف شديد وتسمف عظيم في تأويل الآيات ؛ على أنه إذا سُلِّمَ أَنَّ الشيطان ألقى تلاوة الرسول صلى الله عليه وآله ما ليس من القرآن حتى ظنَّه السامعون كلاماً من كلام الرسول ، فقد نقض دلالة التنفير المقتضية عنده في العصمة ، لأنه لا تنفير عنده أبلغ من تمكين الله الشيطان أن يخلط كلامه بكلامه ، ورسوله يؤذيه إلى المكلفين حتى يمتدَّ السامعون كلَّهم أَنَّ الكلامين كلام واحد .

وأما قوله : إن آدم كان مندوباً إلى آلا يأكل من الشجرة لا محرَّم عليه أكلها ، ولفظة « عَصَى » إنما المراد بها خالف المندوب^(١) ، ولفظة « غَوَى » ؛ إنما المراد « خاب » من حيث لم يستحق الثواب على اعتماد ما نُدِبَ إليه ؛ فقول يدفعه ظاهر الآية ، لأن الصيغة صيغة النهى ، وهى قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ والنهى عند المرتضى يقتضى التحريم لا محالة ، وليس الأمر الذى قد يراد به التنبه ، وقد يراد به الوجوب .

وأما قول شيخنا أبي على : إن كلام أبي بكر خرج مخرج الإشفاق والحذر من المعصية عند الغضب فجيّد .

وأعترض المرتضى عليه بأنه ليس ظاهر اللفظ ذاك غير لازم ، لأن هذه عادة العرب ، يعبرون عن الأمر بما هو منه بسبب وسبيل ، كقولهم : لا تدنُ من الأسد فياً كُلِّكَ ، فليس أنهم قطعوا على الأكل عند الدنو ، وإنما المراد الحذر والخوف والتوقع للأكل عند الدنو .

(١) ١ : « التنبه » .

وأما الكلام في قوله : « أقيلوني » ، فلو صحَّ الخبرُ لم يكن فيه مطعن عليه ، لأنه إنما أراد في اليوم الثاني اختبارَ حالهم في البيعة التي وقعت في اليوم الأول ليعلم وليَّه من عدوِّه منهم ؛ وقد روى جميعُ أصحاب السَّير أنَّ أميرَ المؤمنين خطب في اليوم الثاني من بيعته فقال: أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّكم بايعتموني على السمع والطاعة ، وأنا أعرض اليوم عليكم ما دعوتوني إليه أَسْ ، فإنَّ أجبتُم قعدتُ لكم ، وإلا فلا أجد على أحد . وليس بجيد قولُ المرتضى : إنه لو كان يريدُ العرضَ والبذلَ لكان قد قال كذا وكذا ، فإنَّ هذه مُضايقة منه شديدةٌ للألفاظ ، ولو شرعنا في مثل هذا لفسد أكثرُ ما يتكلم به الناس . على أنَّنا لو سلمنا أنه استقالهم البيعةَ حقيقةً ، فلم قال المرتضى : إنَّ ذلك لا يجوز ؟ أليس يجوز للقاضي أن يستقيل من القضاء بعد توليته^(١) إِيَّاه ، ودخوله فيه ! فكذلك يجوز للإمام أن يستقيل من الإمامة إذا انس من نفسه ضَعْفًا عنها ، أو انس من رعيته نبوةً عنه ، أو أحسَّ بفساد ينشأ في الأرض من جهة ولايته على الناس ؛ ومنَّ يذهب إلى أن الإمامة تكون بالاختيار كيف يمنع من جواز استقالة الإمام وطلبه إلى الأمة أن يختاروا غيره لعذر يعلمه من حال نفسه ! وإنما يمنع من ذلك المرتضى وأصحابه القائلون بأنَّ الإمامة بالنصِّ ، وإنَّ الإمام محرمٌ عليه ألا يقوم بالإمامة ، لأنه مأمور بالقيام بها لتمينه خاصةً دون كلِّ أحدٍ من المكلفين . وأصحاب الاختيار يقولون : إذا لم يكن زيد إماماً كان عمرو إماماً عوضه ، لأنهم لا يعتبرون الشروط التي يعتبرها الإمامية من العصمة ، وأنه أفضل أهل عصره وأكثرهم ثواباً وأعلمهم وأشجعهم ، وغير ذلك من الشروط التي تقتضي تفرده وتوحيده بالأمر ، على أنه إذا جاز عندهم أن يترك الإمام الإمامة في الظاهر كما فعله الحسن ، وكما فعله غيره من الأئمة بعد الحسين عليه السلام للتقية ، جاز للإمام

(١) كذا في أو د ، وفي ب : « توليه » .

على مذهب أصحاب الاختيار أن يترك الإمامة ظاهراً وباطناً لئلا يُعْلَمَ من حال نفسه
أو حال رعيته .

الطعن الثاني

قال قاضي القضاة بعد أن ذكر قول عمر : « كانت بيعة أبي بكر فلتنة » - وقد تقدّم
منا القول في ذلك في أوّل هذا الكتاب : وبما طعنوا به على (١) أبي بكر أنه قال عند موته :
ليتني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثلاثة ، فذكر في أحدها : ليتني كنتُ
سألتُهُ : هل للأنصار في هذا الأمر حق ؟ قالوا ، وذلك يدلّ على شكّه في صحة بيعته ،
وربما قالوا : قد روي أنه قال في مرضه : ليتني كنت تركت بيت فاطمة لم أكشفه ،
وليتني في ظلة بني ساعدة كنت : ضربت على [يد] (٢) أحد الرّجلين ، فكان هو
الأمير ، وكنت الوزير . قالوا : وذلك يدلّ على ما روي من إقدامه على بيت فاطمة عليها
السلام عند اجتماع عليّ عليه السلام والزبير وغيرهما فيه ، ويدلّ على أنه كان يرى الفضل
لغيره لا لنفسه .

قال قاضي القضاة : والجواب أن قوله : « ليتني » لا يدلّ على الشكّ فيما تمناه ، وقول
إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالُوا لَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ
لَيْطَمِّنَنَّ قَلْبِي ﴾ (٣) أقوى من ذلك في الشبهة . ثمّ حمل تمنّيه على أنه أراد سماع شيء
مفصّل ، أو أراد : ليتني سألتُهُ عند الموت ، لقرب العهد ، لأنّ ما قرب عهده لا يُنسى
ويكون أردع للأنصار على ما حاولوه . ثمّ قال : على أنه ليس في ظاهره أنه تمنّى أن

(١) ب : « في » . (٢) بكلمة من كتاب الشافعي .

(٣) سورة البقرة ٦٢ .

يسأل : هل لهم حق في الإمامة أم لا ؟ لأنّ الإمامة قد يتعلّق بها حقوق سواها . ثمّ دفع
الرواية المتعلقة ببیت فاطمة عليها السلام ، وقال : فأما تمنّيه أن يبايع غيره ؛ فلو ثبت لم يكن
دَمًا لأنّ من اشتدّ التكليف عليه فهو يتمنى خلافه ^(١) .

اعترض المرتضى رحمه الله هذا الكلام فقال : ليس يجوز أن يقول أبو بكر : « لينى
كنت سألت عن كذا » . إلا مع الشكّ والشبهة ، لأنّ مع العلم واليقين ^(٢) لا يجوز مثل
هذا القول ، هكذا يقتضى الظاهر ، فأما قول إبراهيم عليه السلام ، فأما سأغ أن يعدل عن
ظاهره لأنّ الشكّ لا يجوز على الأنبياء ، ويجوز على غيرهم ؛ على أنه عليه السلام قد نفي عن
نفسه الشكّ بقوله : ﴿ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ، وقد قيل : إن مُنْروذَ قال له : إذا
كنت ترعّم أن لك ربّاً يُحيي الموتى فاسأله أن يُحيي لنا ميتاً إن كان على ذلك قادراً ،
فإن لم تفعل ذلك قتلْتُك ، فأراد بقوله : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ، أى لَأَمِّنَ تَوْعَدَ
عدوّك لى بالقتل . وقد يجوز أن يكون طلب ذلك لقومه وقد سألوه أن يرغب إلى الله تعالى
فيه فقال : ليطمئنّ قلبى إلى إجابتك لى ، وإلى إزاحة علة قومى ، ولم يرد : ليطمئنّ قلبى إلى
أنك تقدر على أن تُحيي الموتى ؛ لأنّ قلبه قد كان بذلك مطمئناً ؛ وأى شىء يريد
أبو بكر من التفضيل أكثر من قوله : « إنّ هذا الأمر لا يصلح إلّا لهذا الحى من
قريش » ! وأى فرق بين ما يقال عند الموت وبين ما يقال قبله إذا كان محفوظاً معلوماً ، لم
تُرفع كلمة ولم تُنسخ !

وبعد ، فظاهر الكلام لا يقتضى ^(٣) هذا التخصيص ، ونحن مع الإطلاق والظاهر .
وأى حقّ يجوز أن يكون للأنصار في الإمامة غير أن يتولّاها رجل منهم حتى يجوز أن
يكون الحقّ الذى تمنّى أن يسأل عنه غير الإمامة ! وهل هذا إلّا تعسفٌ وتكلفٌ !

(١) نقله المرتضى في الشافي ٤١٩ . (٢) الشافي : « التيقن » . (٣) ١ : « يقضى » .

وأى شبهة تبقى بعد قول أبي بكر : ليتنى كنتُ سألتُهُ : هل للأُنصار في هذا الأمر حقٌّ فكنا لا ننازعه أهله ؟ ومعلومٌ أنَّ التنازع لم يقع بينهم إلا في الإمامة نفسها ، لا في حقٍّ آخر من حقوقها .

فأما قوله : إنا قد بينا أنه لم يكن منه في بيت فاطمة ما يُوجب أن يتمنى أنه لم يفعله ؛ فقد بينا فساد ما ظنّه فيما تقدم .

فأما قوله : إنَّ من اشتدَّ التكليفُ عليه قد يتمنى خلافه ؛ فليس بصحيح ؛ لأنَّ ولاية أبي بكر إذا كانت هي التي اقتضاها الدين ، والنظر للمسلمين في تلك الحال وما عداها كان مفسدة ، ومؤدِّياً إلى الفتنة ، فالتَمَنَّى لخلافها لا يكون إلا قبيحاً ^(١) .

قلت : أما قول قاضي القضاة : إنَّ هذا التَمَنَّى لا يقتضي الشكَّ في أن الإمامة لا تكون إلا في قریش ، كما أن قول إبراهيم : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ ، لا يقتضي الشكَّ في أنه تعالى قادرٌ على ذلك فجيد .

فأما قول المرتضى : إنما ساءَ أن يُمدلَّ عن الظاهر في حقِّ إبراهيم لأنه نبيٌّ معصوم لا يجوز عليه الشك ؛ فيقال له : وكذلك ينبغي أن يُمدلَّ عن ظاهر كلام أبي بكر ، لأنه رجلٌ مُسلم عاقل ، فحسنُ الظنِّ به يقتضي صيانة أفعاله وأقواله عن التناقض . قوله : إنَّ إبراهيم قد نفي عن نفسه الشك بقوله : « بلى ولكن ليطمئن قلبي » قلنا : إنَّ أبا بكر قد نفي عن نفسه الشكَّ بدفع الأُنصار عن الإمامة وإثباتها في قریش خاصة ، فإن كانت لفظة « بلى » دافعةً لشكِّ إبراهيم الذي يقتضيه قوله : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ ، ففعل أبي بكر وقوله يومَ السَّقِيفَةِ

(١) الشافعي ٤١٩ ، وفي د : « لإلناسخا » .

يَدْفَعُ الشَّكَّ الَّذِي يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ : « لَيْتَنِي سَأَلْتُهُ » ، وَلَا فَرْقَ فِي دَفْعِ الشَّكِّ بَيْنَ أَنْ يَتَقَدَّمَ
الدَّافِعُ أَوْ يَتَأَخَّرَ أَوْ يُقَارَنَ .

ثمَّ يُقَالُ لِلْمُرْتَضَى : أَلَسْتَ فِي هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ « الشَّافِي » - بَيَّنْتَ ^(١) أَنَّ قِصَّةَ
السَّقِيفَةِ لَمْ يَجْرِ فِيهَا ذِكْرُ نَصٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ،
وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا احْتِجَاجُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ بِأَنَّ قُرَيْشًا أَهْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَتَعَشِيرَتُهُ ، وَأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَطِيعُ غَيْرَ قُرَيْشٍ ؛ وَذَكَرْتَ عَنِ الرَّهْزِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْقَوْلَ
الْمُصَادِرَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ : إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ ، لَيْسَ نَصًّا مَرُوبًّا
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلُهُ أَبُو بَكْرٍ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ ، وَرَوَيْتُ
فِي ذَلِكَ الرِّوَايَاتِ ، وَنَقَلْتُ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ وَغَيْرِهِ صُورَةَ الْكَلَامِ وَالْجِدَالِ
الْمُتَوَاتِرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْصَارِ ! فَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُكَ فَلِمَ تَنْكُرُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ قَوْلُهُ : لَيْتَنِي كُنْتُ
سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ لِلْأَنْصَارِ فِي هَذَا الْأَمْرِ حَقٌّ ! لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ النَّصَّ
وَلَا رَوَاهُ وَلَا رَوَى لَهُ ؛ وَإِنَّمَا دَفَعَ الْأَنْصَارَ بَنُو عَمٍّ مِنَ الْجَدَلِ ؛ فَلَا جَرَمَ بَقِيَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ
مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ : لَيْتَنِي كُنْتُ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ
حَمًّا يَقْتَضِي شَكَّهُ فِي بَيْعَتِهِ كَمَا زَعَمَ الطَّاعِنُ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَشْكُ فِي بَيْعَتِهِ لَوْ كَانَ قَالَ قَاتِلُ
أَوْ ذَهَبَ ذَاهِبٌ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ إِلَّا فِي الْأَنْصَارِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ ذَلِكَ ، بَلِ النِّزَاعُ
كَانَ فِي : هَلِ الْإِمَامَةُ مَقْصُورَةٌ عَلَى قُرَيْشٍ خَاصَّةً ، أَمْ هِيَ فَوْضَى بَيْنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ؟
وَإِذَا كَانَتْ الْحَالُ هَذِهِ لَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي إِمَامَتِهِ وَبَيْعَتِهِ بِقَوْلِهِ : « لَيْتَنِي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « هَلْ لِلْأَنْصَارِ فِي هَذَا حَقٌّ ؟ » لِأَنَّ بَيْعَتَهُ عَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ تَكُونُ
صَحِيحَةً .

(١) فِي د « أَثْبَتَ » .

فأما قولُ قاضي القضاة : لعله أراد حقاً للأنصار غير الإمامة نفسها ؛ فليس بجديد ، والذي اعترضه به المرتضى جيد ، فإن الكلام لا يدلّ إلا على الإمامة نفسها ، ولفظة المنازعة تؤكد ذلك .

وأما حديث المهجوم على بيت فاطمة عليها السلام فقد تقدّم الكلام فيه ، والظاهرُ عندى صحة ما يرويه المرتضى والشيعة ، ولكن لا كلّ ما يزعمونه ، بل كان بعض ذلك ، وحقّ لأبي بكر أن يندم ويتأسّف على ذلك ، وهذا يدلّ على قوة دينه وخوفه من الله تعالى ، فهو بأن يكون منقبةً^(١) له أولى من كونه طعناً عليه .

فأما قولُ قاضي القضاة : إنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فقد يتمنى خلافه واعتراضُ المرتضى عليه ، فكلام قاضي القضاة أصحّ وأصوب ، لأنّ أبا بكر - وإن كانت ولايته مصلحةً وولايةً غيره مفسدة - فإنّه ما يتمنى أن يكون الإمامُ غيره ، مع استلزام ذلك للمفسدة ، بل تمنّى أن يلى الأمرَ غيره وتكون المصلحةُ بحالها ، ألا ترى أنّ خصال الكفارة في اليمين كلّ واحدة منها مصلحة ، وما عداها لا يقوم مقامها في المصلحة ، وأحدها يقوم مقام الأخرى في المصلحة ! فأبو بكر تمنّى أن يلى الأمرَ عمر أو أبو عبيدة بشرط أن تكون المصلحة الدنيّة التي تحصل من بيعته حاصلةً من بيعة كلّ واحد من الآخرين .

الظمن الثالث

قالوا : إنّهُ ولى عمرَ الخلافة ، ولم يولّه رسولُ الله صلى الله عليه وآله شيئاً

(١) منقبة ؛ أى مغيرة .

من أعماله البتة إلا ما ولّاه يوم خيبر ، فرجع منهزماً وولّاه الصدقة ، فلمّا شكاه العباس عزّله .

أجاب قاضي القضاة بأنّ تركه عليه السلام أن يولّيه لا يدلّ على أنّه لا يصلح لذلك ، وتوليّته إياه لا يدلّ على صلاحيّته للإمامة ، فإنّه صلى الله عليه وآله قد ولّى خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، ولم يدلّ ذلك على صلاحيّتهما للإمامة ، وكذلك تركه أن يولّى لا يدلّ على أنّه غير صالح ، بل المعتبر بالصفات التي تصلح للإمامة ، فإذا كملت صلح لذلك ، ولّى من قبله أو لم يولّ ، وتدبّر أنّ النبي صلى الله عليه وآله ترك أن يولّى أمير المؤمنين عليه السلام أموراً كثيرة ولم يجب إلا من يصلح لها ، وثبت أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يولّ الحسين عليه السلام أبنته ، ولم يمنع ذلك من أن يصلح للإمامة . وحكى عن أبي عليّ أنّ ذلك إنّما كان يصحّ أن يتعلق به لو ظفروا بتقصير من عمر فيما تولّاه ، فأما وأحواله معروفة في قيامه بالأمر حين يمجّز غيره ، فكيف يصحّ ما قالوه ! وبعد فهلاّ دلّ ما روى من قوله : وإن تولّوا عمر تجدوه قوياً في أمر الله ، قوياً في بدنه على جواز ذلك ! وإن ترك النبي صلى الله عليه وآله تولّيته ، لأنّ هذا القول أقوى من الفعل (١) .

اعترض المرتضى رحمه الله فقال : قد علّمنا بالعادة أنّ من ترشّح لكبار الأمور لا بدّ من أن يدرّج إليها بصغارها ، لأنّ من يريد بعض الملوك تأهيله للأمر من بعده لا بدّ من أن ينّبه عليه بكلّ قول وفعل يدلّ على ترشيحه لهذه المنزلة ، ويستكفيه من أمور ولاياته (٢) ما يعلم عنده أو يغلب على ظنه صلاحه لما يريد له . وإن من يرى الملك مع حضوره وامتداد الزمان وتطاوُله لا يستكفيه شيئاً من الولايات ، ومتى ولّاه عزّله ، وإنما يولّى غيره ويستكفي سواه ، لا بدّ أن يغلب في الظنّ أنه ليس بأهل للولاية ، وإن جوزنا أنّه لم يولّه لأسباب كثيرة سوى أنّه لا يصلح للولاية ، إلّا أنّ مع هذا التجويز لا بدّ أن

(١) نقله المرتضى في الشافعي ٤١٩ . (٢) الشافعي : من أمره وولاياته .

يُعَاب على الظنِّ بما ذكرناه . فأمّت خالد وعمرُو فإِتَمَّا لم يَصِلْحا للإِمامة أَفَقَد شروط الإِمامة فيهما ، وإن كانا يَصِلْحا لما وَلِياه من الإِمامة ، فترك الولاية مع أَمْتَداد الزَّمان وتَطاول الأَيام ، وجميع الشروط الَّتِي ذَكَرناها تَقْتَضِي غَلَبَةُ الظنِّ لَفَقْد الصَّلاح ، والولاية لشيء^(١) لا تدلّ على الصَّلاح لغيره إذا كانت الشرائطُ في القيام بذلك الغير معلوما فَقْدُها . وقد نَجِد الملك يُولّي بعضَ أموره من لا يَصْباح للمُلك بعده لظهور فَقْدِ الشرائط فيه ، ولا يجوز أن يكون بِخَصْرَتِه من يُرَشِّحُه للمُلك بعده ، ثمّ لا يُؤَلِّيه على تطاول الزمان شيئاً من الولايات . فإن الفَرْق بين الولاية وتركها فيما ذكرناه .

فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام وإن لم يتولّ جميع أمورِ النبيّ صلّى الله عليه وآله في حياته ، فقد تولّى أَكْثَرها وأعظَمها وخَلَفَه في المدينة ، وكان الأمير على الجيُش البعوث إلى خيبر ، وجَرى الفتحُ على يديه بعد أنْهَزَمَ من أنْهَزَمَ منها ، وكان المؤدّي عنه سورة راءة بعد عَزَل من عَزَل عنها وارتجاعها منه ؛ إلى غير ذلك من عظيم الولايات والمقامات بما يَطُول شرحه ، ولو لم يكن إلّا أَنَّهُ لم يُولّ عليه وآلياً قطّ لكفى .

فأمّا اعتراضه بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يولّ الحسين فبعيدٌ عن الصواب ، لأنّ أنام أمير المؤمنين عليه السلام لم تَطُلْ فيتمكّن فيها من مراداته ، وكانت على قِصرها منقسمة بين قتال الأعداء ، لأنّه عليه السلام لما بُويِع لم يَلْبَث أنْ خَرَجَ عليه أهلُ البصرة فأُحتاج إلى قتالهم ، ثمّ انكفأ من قتالهم إلى قتال أهلِ الشام ، وتعبّ ذلك قتالُ أهلِ الثَّهروان ، ولم تستقرّ به الدارُ ولا أَمْتَدَّ به الزمان ، وهذا بخلاف أَيام النبيّ صلّى الله عليه وآله الَّتِي تطاولت وامتدّت ، على أَنَّهُ قد نَصَّ عليه بالإِمامة بعد أخيه الحُسن ، وإِتَمَّا تُطَلَّب الولايات لَعَلَّابَةِ الظنِّ بالصَّلاح للإِمامة .

فإن كان هناك وجهٌ يَقْتَضِي العلمَ بالصَّلاح لها كان أَوَّلَى من طريق الظنِّ ، على أَنَّهُ

(١) الكافي للشيء .

لاخلاف بين المسلمين أن الحسين عليه السلام كان يصلح للإمامة وإن لم يؤله أبوه
الولايات ، وفي مثل ذلك خلاف من حال عمر ، فأفترق الأمران . فأمّا قوله : إنه لم يعثر
على عمر بتقصير في الولاية ، فمن سلم بذلك ! أو ليس يعلم أن مخالفته تعدّ تقصيرا كثيرا ،
ولو لم يكن إلا ما اتفق عليه من خطئه في الأحكام ورجوعه من قول إلى غيره ، واستفتائه
الناس في الصغير والكبير ، وقوله : كل الناس أفتة من عمر ، لكان فيه كفاية . وليس
كل النهوض بالإمامة يرجع إلى حسن التدبير والسياسة الدنياوية ورم الأعمال والاستظهار
في جباية الأموال وتمصير الأمصار ووضع الأعشار ، بل حظ الإمامة من العلم بالأحكام
والفتن بالحلل والحرام ، والناسخ والمنسوخ ، والحكم والمتشابه أقوى ، فمن قصر في هذا
لم ينفعه أن يكون كاملا في ذلك .

فأمّا قوله : فهذا دلّ ما روي من قوله عليه السلام : فإن « وليتم عمر وجدتموه قويا
في أمر الله قويا في بدنه » ، فهذا لو ثبت لدلّ ، وقد تقدم القول^(١) عليه . وأقوى ما يبطله
عدول أبي بكر عن ذكره ، والاحتجاج به لما أراد النص على عمر ، فموتب على ذلك وقيل
له : ما تقول لربك إذ وليت علينا فظا غليظا ! فلو كان صحيحا لكان يحتج به ويقول :
وليت عليكم من شهد النبي صلى الله عليه وآله بأنه قويا في أمر الله ، قويا في بدنه .
وقد قيل في الظن على صحة هذا الخبر : إن ظاهره يقتضي تفضيل عمر على أبي بكر ،
والإجماع بخلاف ذلك ، لأن القوة في الجسم فضل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾^(٢) . وبعد ، فكيف يمارض ما اعتمدناه من
عدوله عليه السلام عن ولايته - وهو أمر معلوم - بهذا الخبر المردود المدفوع !

قلت : أمّا ما ادّعاء من عادة الملوك ، فالأمر بخلافه ، فإننا قد وقفنا على
سير الأكاسرة وملوك الرّوم وغيرهم فما سمعنا أن أحد منهم رشّح ولده

(٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

(١) في د « الكلام » .

للملك بعده باستعماله على طرف من الأطراف ، ولا جيش من الجيوش ، وإنما كانوا يشقونهم بالآداب والفروسيّة في مَقَارِّ مُلْكِهِمْ لا غير ، والحال في ملوك الإسلام كذلك ، فقد سمعنا بالدولة الأمويّة ، ورأينا الدولة العبّاسيّة ، فلم نعرف الدولة التي ادّعاها المرتضى ، وإنما قد يقع في الأقلّ النادر شيء مما أشار إليه ، والأغلب الأكثر خلاف ذلك . على أن أصحابنا لا يقولون إنَّ عمرَ كان مرشّحاً للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليقالَ لهم : فلو كان قد رشّحه للخلافة بعده لاستكفاه كثيراً من أموره ؛ وإنما عمر مرشّح عندهم في أيام أبي بكر للخلافة بعد أبي بكر ، وقد كان أبو بكر استعمله على القضاء مدّة خلافته ، بل كان هو الخليفة في المعنى ، لأنه فوّض إليه أكثر التدبير ، فعلى هذا يكون قد سلّمنا أن ترك استعمال النبي صلى الله عليه وآله لعمر يدلّ على أنه غير مرشّح في نظره للخلافة بعده ، وكذلك نقول : ولا يلزم من ذلك ألا يكون خليفة بعد أبي بكر ، على أننا لا نسلّم أنه ما استعمله ، فقد ذكر الواقدي وابن إسحاق أنه بعثه في سرّيّة في سنة سبعٍ من الهجرة إلى الوادي المعروف ببرمة - بضم الباء وفتح الراء - وبها جمع من هوازن ، فخرج ومعه دليل من بني هلال ، وكانوا يسرون الليل ويكمنون النهار ، وأتى الخبر هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالّهم ، فلم يلق منهم أحداً ، فانصرف إلى المدينة .

ثم يُعارض المرتضى بما ذكره قاضي القضاة من ترك تولية على ابنه الحسين عليهما السلام ، وقوله في المُذَر عن ذلك : إنَّ عليّاً عليه السلام كان ممنوعاً بحرب البغاة والخوارج لا يدفع المارسة ؛ لأنَّ تلك الأيام التي هي أيام حروبه مع هؤلاء هي الأيام التي كان ينبغي أن يولي الحسين عليه السلام بعض الأمور فيها ، كاستعماله على جيش ينفذه سرّيّة إلى بعض الجهات ، واستعماله على الكوفة بعد خروجه منها إلى حرب صفين ، أو استعماله على القضاء ،

وليس اشتغاله بالحرب يمنع له عن ولاية ولده ، وقد كان مشغولا بالحرب ، وهو يولي
بني عمه العباس الولايات والبلاد الجليّة .

فأما قوله : على أنّه قد نصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحسن ؛ فهذا يُغني عن توليته
شيئا من الأعمال ؛ فلنقاتل أن يمنع ما ذكره من حديث النصّ ، فإنّه أمرٌ تنفرد به
الشيعة وأكثرُ أرباب السّير والتّواريخ لا يذكرون أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نصّ
على أحدٍ . ثمّ إن ساع له ذلك ساع لقاضى القضاة أن يقول : إنّ قول النبيّ صلى الله عليه
وآله : « اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر » ؛ يغني عن تولية عمر شيئا من
الولايات ، لأنّ هذا القول آكد من الولاية في ترشّحه للخلافة .

فأما قوله : على أنّه لا خلاف بين المسلمين في صلاحية الحسين للخلافة
وإن لم يولّه أبوه الولايات ، وفي عمر خلاف ظاهر بين المسلمين ؛ فلنقاتل أن يقول له :
إجماع المسلمين على صلاحية الحسين للخلافة لا يدفع المعارضة ، بل يؤكدها ،
لأنّه إذا كانت المسلمون قد أجمعوا على صلاحيته للخلافة ولم يكن ترك تولية أبيه
إياه الولايات قادحا في صلاحيته لها بمده ، جاز أيضا أن يكون ترك تولية
رسول الله صلى الله عليه وآله عمر الولايات في حياته غير قادح في صلاحيته
للخلافة بمده .

ثمّ ما ذكره من تقصير عمر في الخلافة بطريق اختلاف أحكامه ، ورجوعه إلى
فتاوى العلماء ، فقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم لما تكلمنا في مطاعن الشيعة على عمر
وأجبنا عنه .

وأما قوله : لا يُغني حُسن التدبير والسياسة ورمّ الأمور ، مع القصور في الفقه ،
فأصحابنا يذهبون إلى أنّه إذا تساوى اثنان في خصال الإمامة إلّا أنّه كان أحدهما أعلم والآخر

أسوس ، فإن الأسوس أولى بالإمامة ، لأن حاجة الإمامة إلى السياسة وحسن التدبير آكد من حاجتها إلى العلم والفقه .

وأما الخبر المروي في عمر - وهو قوله : وإن تولوها عمر - فيجوز ألا يكون أبو بكر سميه من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويكون الراوى له غيره ، ويجوز أن يكون سميه وشذ عنه أن يحتج به على طلحة لما أنكر استخلاف عمر ، ويجوز ألا يكون شذ عنه وترك الاحتجاج به استغناء عنه لعلمه أن طلحة لا يمتد بقوله عند الناس إذا عارض قوله . ولعله كنى عن هذا النص بقوله : إذا سألني ربّي قلت له : استخلفت عليهم خير أهلك ؛ على أننا متى فتحنا باب « هلا احتج فلان بكذا » جرّ علينا ما لا قبل لنا به . وقيل : هلا احتج على عليه السلام على طلحة وعائشة والزبير بقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه » ، وهلا احتج عليهم بقوله : « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى » ، ولا يمكن الشيعة أن يمتدروا هاهنا بالتقية ، لأن السيوف كانت قد سلّت من الفريقين ، ولم يكن مقام تقية .

وأما قوله : هذا الخبر لو صح لاقتضى أن يكون عمر أفضل من أبي بكر ، وهو خلاف إجماع المسلمين ؛ فلقال أن يقول : لم قلت إن المسلمين أجمعوا على أن أبا بكر أفضل من عمر ، مع أن كتب الكلام والتصانيف المصنفة في المقالات مشحونة بذكر الفرقة العمرية ، وهم القائلون إن عمر أفضل من أبي بكر ، وهي طائفة عظيمة من المسلمين ، يقال : إن عبد الله بن مسعود منهم ، وقد رأيت أن جماعة من الفقهاء يذهبون إلى هذا ، ويُنظرون عليه ؛ على أنه لا يدل الخبر على ما ذكره المرتضى ، لأنه وإن كان عمر أفضل منه باعتبار قوة البدن ، فلا يدل على أنه أفضل منه مطلقا ، فن الجائز أن يكون بإزاء هذه الخصلة خصال كثيرة في أبي بكر من خصال الخير يُفضل بها على عمر ،

أَلَا تَرَى أَنَّا نَقُولُ : أَبُو دُجَانَةَ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِجَهَادِهِ بِالسَّيْفِ فِي مَقَامِ الْحَرْبِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ مِنْهُ مُطْلَقًا ، لِأَنَّ فِي أَبِي بَكْرٍ مِنْ خِصَالِ الْفَضْلِ مَا إِذَا قِيسَ بِهِذِهِ الْخِصْلَةُ أُرْبَى عَلَيْهَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً .

الطعن الرابع

قالوا : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَرَّرَ حِينَ مَوْتِهِ الْأَمْرَ بِتَنْفِيزِ جَيْشِ أُسَامَةَ ، فَتَأَخَّرَ يَقْتَضِي خَالَفَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . فَإِنْ قُلْتُمْ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ ، قِيلَ لَكُمْ : لَا شَكَّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ فِي الْجَيْشِ ، وَأَنَّهُ حَبَسَهُ وَمَنَعَهُ مِنَ النَّفْوذِ مَعَ الْقَوْمِ . وَهَذَا كَالْأَوَّلِ فِي أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ ، وَرَبَّمَا قَالُوا : إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ لِيَتَّبِعُوا بَعْدَ وَفَاتِهِ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ تَوَثُّبٌ عَلَى الْإِمَامَةِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَجْعَلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ ، وَجَعَلَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُمَانَ وَغَيْرَهُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ أَوْكَدِ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ أَنْ يُخْتَارُوا لِلْإِمَامَةِ ^(١) .

أَجَابَ قَاضِي الْقَضَاةِ بِأَنْ أُنْكَرَ أَوَّلًا أَنْ يَكُونَ أَبُو بَكْرٍ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ ، وَأَحَالَ عَلَى كُتُبِ الْمَغَازِي ، ثُمَّ سَلَّمَ ذَلِكَ وَقَالَ : إِنَّ الْأَمْرَ لَا يَقْتَضِي الْفَوْرَ ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَأَخُّرِ أَبِي بَكْرٍ عَنِ النَّفْوذِ أَنْ يَكُونَ عَاصِيًا . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ خُطَابَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِتَنْفِيزِ الْجَيْشِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْقَائِمِ بَعْدَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ خُطَابِ الْأُئِمَّةِ ، وَهَذَا يَقْتَضِي الْأَلَا يَدْخُلُ الْمَخَاطَبَ بِالتَّنْفِيزِ فِي الْجُمْلَةِ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِمَامًا مُنْصُوصًا عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَأَقْبَلَ بِالْخُطَابِ عَلَيْهِ ، وَخَصَّهُ بِالْأَمْرِ بِالتَّنْفِيزِ دُونَ الْجَمِيعِ .

ثمّ ذَكَرَ أَنَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا يَبْدَأُ أَنْ يَكُونَ مُشْرُوطًا بِالمصلحة وبأنّه لا يمرض ما هو أهمّ منه ، لأنّه لا يجوز أن يأمرهم بالنّفوذ ، وإن أعقب ضرراً في الدين ، ثمّ قوى ذلك بأنّه لم يُنْكَرْ على أسامة تأخّره ، وقوله : « لم أكن لأسأل عنك الرّكّب » ؛ ثمّ قال : لو كان الإمام منصوباً عليه لجاز أن يستردّ جيش أسامة أو بعضه لنصرته ، وكذلك إذا كان بالأختيار ؛ ثمّ حكى عن الشيخ أبي عليّ استدلاله على أنّ أبا بكر لم يكن في جيش أسامة بأنّه وآله الصلاة في مرّضه ، مع تكريره أمر الجيش بالنّفوذ والخروج .

ثمّ ذَكَرَ أَنَّ الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الدّنيا من الحروب ونحوها عن اجتهاده ، وليس بواجب أن يكون ذلك عن وَحْيٍ ، كما يجب في الأحكام الشرعيّة ، وأنّ اجتهاده يجوز أن يخالف بعد وفاته ، وإن لم يجز في حياته ، لأنّ اجتهاده في الحياة أولى من اجتهاد غيره ، ثمّ ذَكَرَ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي أَحْتِسَابِ عَمْرِ عَنِ الْجَيْشِ حَاجَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَيْهِ ، وقيامه بما لا يقوم به غيره ، وأنّ ذلك أحوط للدّين من نفوذه .

ثمّ ذَكَرَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السّلام حارب معاوية بأمر الله تعالى وأمر رسوله ، ومع هذا فقد ترك محاربتة في بعض الأوقات ، ولم يجب بذلك ألا يكون ممثلاً للأمر . وذَكَرَ توليته عليه السّلام أبا موسى ، وتولية الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خالداً بن الوليد مع ما جرى ^(١) منهما وأن ذلك يقتضي الشرط .

ثمّ ذَكَرَ أَنَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلإمامة مِمَّنْ ضَمَّهُ جَيْشُ أُسَامَةَ يجب تأخيرُه ليختار للإمامة أحدهم ، فإنّ ذلك أهمّ من نفوذهم ، فإذا جاز لهذه العِلَّةُ التأخير قبل المقدّ جاز التأخير بعده للمعاوضة وغيرها ، وطعن في قول مَنْ جَعَلَ إِنَّ إِخْرَاجَهُمْ فِي الْجَيْشِ عَلَى جِهَةِ الإِمَادِ لَهُمْ عَنِ الدِّينَةِ بِأَنْ قَالَ : إِنَّ بُمْدَهُمْ عَنِ الدِّينَةِ لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يُخْتَارُوا لِلإمامة ،

(١) في د « ظهر » .

ولأنه عليه السلام لم يكن قاطعاً على موته لا محالة ، لأنه لم يرد : تقدوا جيش أسامة في حياتي . ثم ذكر أن ولاية أسامة عليهما لا تقتضي فضله وأنها دونه ، وذكر ولاية عمرو بن العاص عليهما وإن لم يكونا دونه في الفضل ، وأن أحدا لم يفضل أسامة عليهما .

ثم ذكر أن السبب في كون عمر من جملة جيش أسامة أن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي قال عند ولاية أسامة : تولى علينا شاب حدث ونحن مشيخة قريش ! فقال عمر : يا رسول الله ، مرني حتى أضرب عنقه ، فقد طعن في تأميرك إياه ؛ ثم قال : أنا أخرج في جيش أسامة تواضعا وتعظيماً لأمره عليه السلام .

اعترض المرتضى هذه الأجوبة ، فقال : أما كون أبي بكر في جملة جيش أسامة فظاهر ، قد ذكره أصحاب السير والتواريخ ، وقد روى البلاذري في تاريخه وهو معروف بالثقة والضبط ؛ وبرى من ممالأة الشيعة ومقاربتها ، أن أبا بكر وعمر ما كانا في جيش أسامة ، والإنكار لما يجري هذا المجرى لا يُغني شيئاً ، وقد كان يجب على من أحال بذلك على كتب المغازی في الجملة أن يوصي إلى الكتاب المتضمن لذلك بعينه ليرجع إليه ، فأما خطابه عليه السلام بالتنفيذ للجيش فالمقصود به الفور دون التراخي ، إنا من حيث مقتضى الأمر على مذهب من يرى ذلك لغةً ، وإما شرعاً من حيث وجدنا جميع الأمة من لدن الصحابة إلى هذا الوقت يحملون أوامرهم على الفور^(١) ، ويطلبون في تراخيها الأدلة . ثم لو لم يثبت كل ذلك لكان قول أسامة : لم أكن لأسألك عنك الركب ، أوضح دليل على أنه عقل من الأمر الفور ، لأن سؤال الركب عنه عليه السلام بعد وفاته لا معنى له .

(١) الشافعي : « من حيث دل دليل المصريح عليه » .

وأما قول صاحب الكتاب : إنه لم يُنكر على أسامة تأخره فليس بشيء ،
 وأى إنكارٍ أبلغ من تكراره الأمر ، وترداده القول في حالٍ يُشغل عن المهم ،
 ويُقطع الفكر إلا فيها ! وقد كرّر الأمر على الأمور تارةً بتكرار الأمر ، وأخرى
 بغيره . وإذا سلمنا أنّ أمره عليه السلام كان متوجّهاً إلى القائم بعده بالأمر لتنفيذ الجيش
 بعد الوفاة لم يلزم ما ذكره من خروج الخطاب بالتنفيذ عن الجملة ؛ وكيف يصح ذلك
 وهو من جملة الجيش ، والأمر متضمّن تنفيذ الجيش ! فلا بدّ من نفوذ كلٍّ من كان في
 جمليته ، لأنّ تأخّر بعضهم يسلبُ النافذين اسمَ الجيش على الإطلاق . أو ليس من مذهب
 صاحب الكتاب أنّ الأمر بالشئ أمرٌ بما لا يتمّ إلا معه ! وقد اعتمد على هذا في مواضع
 كثيرة ، فإن كان خروجُ الجيش ونفوذه لا يتمّ إلا بخروج أبي بكر ، فالأمر بخروج الجيش
 أمرٌ لأبي بكر بالنفوذ والخروج ، وكذلك لو أقبل عليه على سبيل التخصيص ؛ وقال :
 نفذوا جيشَ أسامة ، وكان هو من جملة الجيش ، فلا بدّ أن يكون ذلك أمراً له بالخروج .
 واستدلاله على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه بعموم الأمر بالتنفيذ ، ليس بصحيح ؛
 لأنّا قد بينّا أنّ الخطاب إنّما توجه إلى الحاضرين ، ولم يتوجه إلى الإمام بعده ؛ على أنّ
 هذا لازمٌ له ، لأنّ الإمام بعده لا يكون إلا واحداً ، فلم يعمّ الخطاب ولم يفرّد به الواحد
 فيقول : لينفذ القائم من بعدى بالأمر جيشَ أسامة ، فإنّ الحال لا يختلف في كون الإمام
 بعده واحداً بين أن يكون منصوصاً عليه أو مختاراً .

وأما ما ادّعاه أنّ الشرط^(١) في أمره عليه السلام لهم بالنفوذ فباطل ، لأنّ إطلاقَ
 الأمر يمتنع من إثبات الشرط ، وإنّما يثبت من الشروط ما يقتضيه الدليل إثباته من
 التمكن والقُدرة ، لأنّ ذلك شرطٌ ثابت في كلّ أمر ورد من حكيم ، والمصلحة
 بخلاف ذلك ، لأنّ الحكيم لا يأمر بشرط المصلحة ، بل إطلاق الأمر منه يقتضيه ثبوت
 المصلحة وانتفاء الفسدة ، وليس كذلك التمكن ، وما يجري مجراه ، ولهذا لا يشترط

(١) في د « وأما ادعاؤه الشرط » .

أَحَدُهُ فِي أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالشَّرَائِعِ الْمَصْلُحَةِ وَانْتِفَاءِ الْمُسَدَّةِ .
وَشَرَطُوا فِي ذَلِكَ التَّمَكُّنَ وَرَفَعَ التَّعَذُّرَ ، وَلَوْ كَانَ الْإِمَامُ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ بِعَيْنِهِ وَأُسْمِهِ لَمَّا جَازَ
أَنْ يَسْتَرِدَّ جَيْشَ أُسَامَةَ ؛ بِخِلَافِ مَا ظَنَّهُ ، وَلَا يَعْزِلُ مَنْ وَلَّاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا يُؤَلَّى مِنْ عَزَلِهِ
لِلْعِلَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا .

فَأَمَّا اسْتِدْلَالُ أَبِي عَلِيٍّ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ بِحَدِيثِ الصَّلَاةِ ، فَأَوَّلُ مَا فِيهِ
أَنَّهُ اعْتِرَافٌ بِأَنَّ الْأَمْرَ بِتَنْفِيزِ الْجَيْشِ كَانَ فِي الْحَيَاةِ دُونَ بَعْدِ الْوَفَاةِ ، وَهَذَا نَاقِضٌ لِمَا بَنَى
صَاحِبُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ أَمْرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ثُمَّ إِنَّمَا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُؤَلِّهِ الصَّلَاةَ وَذَكَرْنَا مَا فِي ذَلِكَ . ثُمَّ مَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ
يُؤَلِّيه تِلْكَ الصَّلَاةَ إِنْ كَانَ وَلَّاهُ إِيَّاهَا ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالنَّفُوزِ مِنْ بَعْدِ مَعَ الْجَيْشِ ! فَإِنَّ الْأَمْرَ
بِالصَّلَاةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ لَا يَقْتَضِي أَمْرَهُ بِهَا عَلَى التَّأْيِيدِ .

وَأَمَّا ادِّعَاؤُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَأْمُرُ بِالْحُرُوبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا عَنْ أَجْتِهَادٍ
دُونَ الْوَحْيِ ، فَعَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ، لِأَنَّ حُرُوبَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ تَكُنْ مِمَّا يَخْتَصُّ
بِمَصَالِحِ أُمُورِ الدُّنْيَا ، بَلْ لِلدِّينِ فِيهَا أَقْوَى تَعَلُّقٍ ، لِمَا يَمُودُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِفَتْوحِهِ مِنْ
الْعِزِّ وَالْقُوَّةِ وَعِلْوِ الْكَلِمَةِ . وَلَيْسَ يَجْرِي ذَلِكَ مَجْرَى أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَنَوْمِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ
لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالَّذِينَ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَنْ رَأْيِهِ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ تَكُونَ مَغَازِيهِ وَبِعَوْنِهِ مَعَ التَّعَلُّقِ
الْقَوِيِّ لَهَا بِالَّذِينَ عَنْ أَجْتِهَادٍ لَجَازَ ذَلِكَ فِي الْأَحْكَامِ .

ثُمَّ لَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ أَجْتِهَادٍ لَمَّا سَاعَتْ مُخَالَفَتُهُ فِيهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، كَمَا لَا تَسُوغُ فِي حَيَاتِهِ .
فَكُلُّ عِلَّةٍ تَمْنَعُ مِنْ أَحَدِ الْأُمَرَاءِ هِيَ مَانِعَةٌ مِنَ الْآخِرِ . فَأَمَّا الْإِعْتِذَارُ لَهُ عَنْ حَبْسِ عَمْرِ
عَنِ الْجَيْشِ بِمَا ذَكَرَهُ فَبَاطِلٌ ؛ لِأَنَّا قَدْ قُلْنَا : إِنْ مَا يَأْمُرُ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَسُوغُ مُخَالَفَتُهُ مَعَ
الْإِمْكَانِ ، وَلَا مُرَاعَاةَ لِمَا عَسَاهُ يَمْرِضُ فِيهِ مِنْ رَأْيٍ غَيْرِهِ ، وَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى عَمْرٍ بَعْدَ تَعَامُلِ
الْعَمْدِ ، وَاسْتِقْرَارِهِ وَرِضَا الْأُمَّةِ بِهِ ، عَلَى طَرِيقِ (١) الْمُخَالَفِ وَإِجْمَاعِهَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ

(١) فِي د : « مَذْهَب » .

هناك فتنة ولا تنازع ولا اختلاف يحتاج فيه إلى مشاورته وتدييره ! وكلّ هذا تعلّل باطل .

فأمّا محاربة أمير المؤمنين عليه السلام معاوية فإنّما كان مأمورا بها مع التمكن ووجود الأنصار ، وقد فعل عليه السلام من ذلك ما وجب عليه لما تمكن منه ، فأمّا مع التعذر وقعد الأنصار فما كان مأمورا بها . وليس كذلك القول في جيش أسامة ، لأنّ تأخر من تأخر عنه كان مع القدرة والتمكن . فأمّا تولية أبي موسى فلا ندرى كيف يشبه ما نحن فيه ، لأنّه إنّما ولّاه بأن يرجع إلى كتاب الله تعالى فيحكم فيه وفي خصمه بما يقتضيه ، وأبو موسى فعل خلاف ما جعل إليه ، فلم يكن ممثلا لأمر من ولّاه ، وكذلك خالد ابن الوليد إنّما خالف ما أمّره به الرسول صلى الله عليه وآله فتبرأ من فعله ، وكلّ هذا لا يشبه أمره عليه السلام بتنفيذ جيش أسامة أمراً مطلقاً ، وتأكيده ذلك وتكرار له ، فأمّا جيش أسامة فإنّه لم يضمّ من يصلح للإمامة ، فيجوز تأخيرهم ليختار أحدهم على ما ظنّه صاحب الكتاب . على أنّ ذلك لو صحّ أيضاً لم يكن عذراً في التأخر ؛ لأنّ من خرج في الجيش يمكن أن يختار وإن كان بعيداً ، ولا يمنع بعده من صحّة الاختيار ، وقد صرح صاحب الكتاب بذلك . ثمّ لو صحّ هذا العذر لكان عذراً في التأخر قبل العقد ، فأمّا بعد إبرامه فلا عذر فيه ، والمعاوضة التي ادّعاها قد بينّا ما فيها .

فأمّا ادّعاء^(١) صاحب الكتاب رادّاً على من جعل إخراج القوم في الجيش ليمّ أمر النصّ أن من أبدهم لا يمنع أن يختاروا للإمامة فيدلّ على أنّه لم يتبين معنى هذا الطعن على حقيقته ، لأنّ الطاعن به لا يقول إنّ أبدهم لثلاث يختاروا للإمامة ، وإنّما يقول : إنّ أبدهم حتّى يلتصّب بمده في الأرض من نصّ عليه ، ولا يكون هناك من ينازعه ويخالفه .

(١) في د : « قول » .

وأما قوله : لم يكن قاطعا على موته فلا يضر تسليمه ، أليس كان مُشفقاً وخائفاً ! وعلى الخائف أن يتحرّز ممّن يخاف منه . فأما قوله : فإنه لم يرد : تقدّوا الجيش في حياتي فقد بيّنا ما فيه . فأما ولاية أسامة على من وُكّي عليه ، فلا بدّ من اقتضائها لفضله على الجماعة فيها كان والياً فيه ، وقد دلّلنا فيما تقدّم من الكتاب على أنّ ولاية المفضّل على الفاضل فيها كان أفضل منه فيه قبيحة ، فكذلك القول في ولاية عمرو بن العاص عليهما فيما تقدّم ، والقول في الأمرين واحد .

وقوله : إنّ أحدا لم يدّع فضل أسامة على أبي بكر وعمر ، فليس الأمر على ما ظنّه ؛ لأنّ من ذهب إلى فساد إمامة المفضّل لا بدّ من أن يُفضل أسامة عليهما فيما كان والياً فيه ، فأما ادّعاؤه ما ذكره من السبب في دخول عمر في الجيش فما نعرفه ، ولا وقفنا عليه إلّا من كتابه ، ثمّ لو صحّ لم يُغن شيئا ، لأنّ عمر لو كان أفضل من أسامة لمَنعه الرسول صلى الله عليه وآله من الدخول في إمارته والمسير تحت لوائه ، والتواضع لا يقتضى فعل القبيح^(١) .

قلت : إنّ الكلام في هذا الفصل قد تشعب شعبا كثيرة ، والمرضى رحمه الله لا يُورد كلام قاضي القضاة بنصّه ، وإنما يختصره ويورده مبتورا ، ويورى إلى المعاني إيماء لطيفا ، وغرضه الإيجاز ، ولو أورد كلام قاضي القضاة بنصّه لكان أليق ، وكان أبعد عن الظنّة ، وأدفع لقول قائل من خصومه : إنّّه يحرف كلام قاضي القضاة ، ويذكره على غير وجه ، ألا ترى أنّ من نصب نفسه لأختصار كلام فقد ضمن على نفسه أنّه قد فهم معاني ذلك الكلام حتى يصحّ منه أختصاره ؛ ومن الجائز أن يظنّ أنّه قد فهم

بعضَ المواضع ولم يكن قد فهمه على الحقيقة ، فيختصر ما في نفسه ؛ لا ما في تصنيف ذلك الشخص ، وأما من يُورد كلامَ الناس بنصّه فقد أَسْرَاحَ من هذه التَّبعية ، وعَرَضَ عقلَ غيره وعقلَ نفسه على الناظرين والسامعين .

ثم نقول : إنّ هذا الفصل ينقسم أقساما :

منها قولُ قاضي القضاة : لا نُسلمُ أنّ أبا بكر كان في جيش أسامة .
وأما قولُ المرتضى : إنه قد ذكره أربابُ السَّير والتواريخ ، وقوله : إنّ البلاذريّ ذكره في تاريخه ، وقوله : هَلَّا عَيَّنَ قاضي القضاة الكتابَ الَّذي ذكر أنّه يتضمّن عدمَ كونِ أبي بكرٍ في ذلك الجيش ! فإنّ الأمرَ عندى في هذا الموضع مشتبّه ، والتواريخ مختلفة في هذه القضية^(١) ، فمنهم من يقول : إنّ أبا بكر كان في مُجَلّة الجيش ، ومنهم من يقول : إنّّه لم يكن ، وما أشار إليه قاضي القضاة بقوله في كتب المغازي لا ينتهي إلى أمر صحيح ، ولم يكن ممّن يستحلُّ القول بالباطل في دينه ولا في رئاسته . ذكر الواقديّ في كتاب المغازي أنّ أبا بكر لم يكن في جيش أسامة ، وإنما كان عمرُ ، وأبو عُبَيْدة ، وسعدُ بنُ أبي وقّاص ، وسعيدُ بنُ زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وقَتادة بنُ النُّعمان ، وسَلَمَة بنُ أسلم ، ورجالٌ كثيرٌ من المهاجرين ، والأنصار ، قال : وكان المنكرُ لإمارة أسامة عِيَّاشُ بنُ أبي ربيعة . وغيرُ الواقديّ يقول : عبدُ الله بنُ عِيَّاش ؛ وقد قيل : عبدُ الله بنُ أبي ربيعة أخو عِيَّاش .

وقال الواقديّ : وجاء عمرُ بن الخطّاب فودّع رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ليسيرَ مع أسامة . وقال : وجاء أبو بكر فقال : يا رسول الله ، أصبحت مُفِيقا بحمْد الله ، واليومَ يومُ أبنَةٍ خارجة ، فأذن لي ، فأذِنَ له ، فذهب إلى منزله بالسُّنَح^(٢) وسار أسامة في العسكر ، وهذا تصرّيح بأنّ أبا بكر لم يكن في جيش أسامة .

(١) في د : « القصة » . (٢) السُّنَح : إحدى محال المدينة ؛ وكان بها منزل أبي بكر حين

تزوج مليكة ؛ وقبل حبيبة بنت خارجة (ياقوت) .

وذكر موسى بن عُقبة في كتاب "الغازي" ، أن أبا بكر لم يكن في جيش أسامة وكثير من الحديثين يقولون : بل كان في جيشه .

فأما أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فلم يذكر أنه كان في جيش أسامة إلا عمر . وقال أبو جعفر : حدثني الشدني بإسناد ذكره أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب قبل وفاته بمنّا على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب ، وأمر عليهم أسامة ابن زيد ، فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله فاستأذنه يأذن لي أرجع بالناس ، فإنّ معي وجوه الصحابة ، ولا آمن على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وثقل رسول الله صلى الله عليه وآله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم الشركون حول المدينة ؛ وقالت الأنصار لعمر سراً : فإن أباي إلا أن يَمْضَى فَأَبْلَغَهُ عَنَّا ، واطْلُبْ إِلَيْهِ أَنْ يَوَلَّى أَمْرَنَا رَجُلًا أَقْدَمَ سِنًا مِنْ أُسَامَةَ ، فخرج عمر بأمر أسامة فأبى أبو بكر فأخبره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر : لو تخطفتني الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : فإنّ الأنصار أمروني أن أبلغك أنّهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فوثب أبو بكر - وكان جالساً - فأخذ بلحية عمر وقال : ثكّلتك أمّك يا ابن الخطاب ! أيسّتعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وتأمّرني أن أنزعه ! فخرج عمر إلى الناس ، فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : امضوا ثكّلتكم أمهاتكم ! ما لقيت في سبيلكم اليوم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ! ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم^(١) وشيعهم ، وهو ماش وأسامه راكب ، وعبد الرحمن ابن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة بن زيد : يا خليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغترب قدسي في سبيل الله ساعة ،

(١) أشخصهم : بعث بهم .

فَإِنَّ لِلنَّازِي بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا سَبْعُمِائَةَ حَسَنَةٍ تُكْتَبُ لَهُ ، وَسَبْعُمِائَةَ دَرَجَةٍ تُرْفَعُ لَهُ ،
 وَسَبْعُمِائَةَ خَطِيئَةٍ تُمَحَى عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى قَالَ لِأَسَامَةِ : إِنَّ رَأَيْتَ أَنْ تُعِينَنِي بِعَمْرٍ فَاغْفِرْ لِي ،
 فَأَذِنَ لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، قِفُوا حَتَّى أُوصِيَكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِّي : لَا تَخُونُوا ،
 وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تَقْلُبُوا ، وَلَا تُنْتَلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا طِفْلاً صَغِيراً ، وَلَا شَيْخاً كَبِيراً ، وَلَا امْرَأَةً ،
 وَلَا تَعْمُرُوا نَخْلاً ، وَلَا تُحَرِّقُوا ، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُثْمِرَةً ، وَلَا تَذْبَحُوا شَاةً ، وَلَا بَعِيراً ،
 وَلَا بَقَرَةً إِلَّا لِمَا كَلَهُ ، وَسَوْفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْعِبَادَةِ فِي الصَّوَامِ ،
 فَدَعُوهُمْ فِيمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ ، وَسَوْفَ يُقَدِّمُونَ عَلَى أَقْوَامٍ يَأْتُونَكُمْ بِصِحَافٍ فِيهَا أَلْوَانُ
 الطَّعَامِ ، فَلَا تَأْكُلُوا مِنْ شَيْءٍ حَتَّى تَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَسَوْفَ تَلْقَوْنَ أَقْوَاماً
 قَدْ حَصَّوْا^(١) أَوْسَاطَ رِءُوسِهِمْ وَتَرَكَوْا حَوْلَهَا مِثْلَ الْعَصَائِبِ ، فَاخْفَقُوهُمْ^(٢) بِالسَّيْفِ خَفَقَاتٍ ،
 أَنْفَاهُمْ اللَّهُ بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونَ ، سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ ، أَمْرُهُ إِيَّاهُ بِالصَّلَاةِ .
 وَقَوْلُ الْمُرْتَضَى : هَذَا اعْتِرَافٌ بِأَنَّ الْأَمْرَ بِتَنْفِيزِ الْجَيْشِ كَانَ فِي الْحَالِ دُونَ مَا بَعْدَ الْوَفَاةِ ،
 وَهَذَا يَنْقُضُ مَا بَنَى عَلَيْهِ قَاضِي الْقَضَاةِ أَمْرَهُ ؛ فَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ : إِنَّهُ لَا يَنْقُضُ مَا بَنَاهُ ،
 لِأَنَّ قَاضِي الْقَضَاةِ مَا قَالَ : إِنَّ الْأَمْرَ بِتَنْفِيزِ الْجَيْشِ مَا كَانَ إِلَّا بَعْدَ الْوَفَاةِ ، بَلْ قَالَ :
 إِنَّهُ أَمْرٌ ، وَالْأَمْرُ عَلَى التَّرَاخِي ، فَلَوْ نَفَّذَ الْجَيْشُ فِي الْحَالِ لَجَازَ ، وَلَوْ تَأَخَّرَ إِلَى بَعْدِ
 الْوَفَاةِ لَجَازَ .

فَأَمَّا إِنْكَارُ الْمُرْتَضَى أَنْ تَكُونَ صَلَاةُ أَبِي بَكْرٍ بِالنَّاسِ كَانَتْ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَدْ ذَكَرْنَا مَا عِنْدَنَا فِي هَذَا فِيمَا تَقَدَّمَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ بِصَلَاةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ صَلَاتَيْنِ ، ثُمَّ أَمْرُهُ بِالنَّفْذِ بَعْدَ

(١) حص شعره : حلقه . (٢) اخفقوهم : اضربوهم .

ذلك ، فهذا لَعَمْرَى جَائِزٌ . وقد يُمكن أن يقال : إنه لما خرج متحاملاً من شدة المرض فتأخر أبو بكر عن مُقامه ، وصلى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بالناس ، أمره بالنفوذ مع الجيش ، وأسكت رسول الله صلى الله عليه وآله في أثناء ذلك اليوم ، واستمر أبو بكر على الصلاة بالناس ، إلى أن توفى عليه السلام ، فقد جاء في الحديث أنه أسكت ، وأن أسامة دخل عليه فلم يستطع كلامه لكنه كان يرفع يديه ويضمهما^(١) عليه كالداعي له . ويمكن أن يكونَ زمان هذه السكينة قد امتدَّ يوماً أو يومين ، وهذا الموضعُ من المواضع المشتهية عندي .

ومنها قولُ قاضي القضاة : إنَّ الأمرَ على التراخي ، فلا يلزم من تأخر أبي بكر عن النفوذ أن يكون عاصياً .

فأما قولُ المرتضى : الأمرُ على الفور إمَّا لغةً عند من قال به ، أو شرعاً لإجماع الكلِّ على أنَّ الأوامر الشرعية على الفور إلا ما خرج بالدليل ، فالظاهر في هذا الموضع صحة ما قاله المرتضى ، لأنَّ قرائن الأحوال عند من يقرأ السير ويعرف التواريخ تدلُّ على أنَّ الرسولَ صلى الله عليه وآله كان يحثُّهم على الخروج والمسير ، وهذا هو الفور .

وأما قولُ المرتضى وقولُ أسامة : لم أكن لأسأل عنك الركب ، فهو أوضح دليل على أنه عقل من الأمر الفور ، لأنَّ سؤال الركب عنه بعد الوفاة لا معنى له . فلعلَّ أن يقول : إنَّ ذلك لا يدلُّ على الفور ، بل يدلُّ على أنه مأمور في الجملة بالنفوذ والمسير ، فإنَّ التعجيل والتأخير^(٢) مفوضان إلى رأيه ، فلما قال له النبي صلى الله عليه وآله : لم تأخرت عن المسير ؟ قال : لم أكن لأسير وأسأل عنك الركب ، إني انتظرتُ عافيتك ، فإني إذا سرتُ وأنت على هذه الحال لم يسكن لي قلب للجهاد ، بل أكون قَلْبًا شديد الجزع ، أسأل

(١) في د « ويضمهما » . (٢) في د « والتأجيل » .

عنك الرُّكْبَان ، وهذا الكلام لا يدلّ على أنه عقّل من الأمر الفَوْر لا محالة ، بل هو على أن يدلّ على التراخي أظهر ، وقولُ النبي صلى الله عليه وآله : « لِمَ تَأَخَّرْتَ عن الْمَسِير ؟ » لا يدلّ على الفَوْر ؛ لأنه قد يقال مثل ذلك لمن يؤمر بالشئ على جهة التراخي إذا لم يكن سؤال إنكار .

وقول المرتضى : لأن سؤال الرُّكْب عنه بعد الوفاة لا معنى له ، قولٌ من قد تَوَهَّم على قاضي القضاة أنه يقول : إن النبي صلى الله عليه وآله ما أمرهم بالنَّفوذ إلّا بعد وفاته ، ولم يَقُلْ قاضي القضاة ذلك ، وإنما ادّعى أن الأمر على التراخي لا غير ، وكيف يُظنّ بقاضي القضاة أنه حمّل كلام أسامة على سؤال الرُّكْب بعد الموت ! وهل كان أسامة يعلم الغيب فيقول ذاك ! وهل سأل أحدٌ عن حال أحد من المرضى بعد موته !

فأمّا قول المرتضى عَقِيبَ هذا الكلام : لا معنى لقول قاضي القضاة إنه لم ينكر على أسامة تأخّره ، فإن الإنكار قد وقع بتكرار الأمر حالاً بعد حالٍ ، فلنقال أن يقول : إن قاضي القضاة لم يجعل عدم الإنكار على أسامة حجة على كون الأمر على التراخي ، وإنما جعل ذلك دليلاً على أن الأمر كان مشروطاً بالمصلحة ، ومن تأمل كلام قاضي القضاة الذي حكاه عنه المرتضى تحقق ذلك ، فلا يجوز للمرتضى أن ينتزعه من الوضع الذي أوردّه فيه ، فيجعلّه في موضع آخر .

ومنها قولُ قاضي القضاة : الأمرُ بتنفيذ الجيش يجب أن يكون متوجّهاً إلى الخليفة بعده ، والمحاطبُ لا يدخلُ تحت الخطاب ، واعتراضُ المرتضى عليه بأن لفظة « الجيش » يدخل تحتها « أبو بكر » فلا بدّ من وجوب النفوذ عليه ، لأنّ عدم نفوذه يسلب الجماعة اسم « الجيش » ؛ فليس بجيّد ، لأنّ لفظة « الجيش » لفظةٌ موضوعة لجماعة من الناس قد أُعدّت للحرب ، فإذا خرج منها واحدٌ أو اثنان لم يزل مسمّى الجيش عن الباقيين ، والمرتضى

اعتقد أن ذلك مثل الماهيات المركبة ، نحو العشرة إذا عُدم منها واحد زال مسمى العشرة ، وليس الأمر كذلك ، يبين ذلك أنه لو قال بعضُ الملوك لمائة إنسان : أنتم جيشي ، ثم قال لواحد منهم : إذا مت فاعطِ كلَّ واحدٍ من جيشي درهماً من خزانتي ، فقد جعلتك أميراً عليهم لم يكن له أن يأخذ لنفسه درهماً ، ويقول : أنا من جملة الجماعة الذين أطلق عليهم لفظُ الجيش .

ومنها قولُ قاضي القضاة : هذه القضية تدلُّ على أنه لم يكن هناك إمامٌ منصوبٌ عليه ؛ وأما قول المرتضى : فقد بينا أن الخطاب إنما توجه إلى الحاضرين لا إلى القائم بالأمر بعده ، فلم نجد في كلامه في هذا الفصل بطوله ما يبين فيه ذلك ، ولا أعلم على ماذا أحال ! ولو كان قد بين - على ما زعم - أن الخطاب متوجه إلى الحاضرين ، لكان الإشكال قائماً ، لأنه يقال له : إذا كان الإمام المنصوص عليه حاضراً عنده فلم وجه الخطاب إلى الحاضرين ! ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول الملكُ للرعية : اقضوا بين هذين الشخصين والقاضي حاضرٌ عنده ، إلا إذا كان قد عزَّله عن القضاء في تلك الواقعة عن الرعية !

فأما قول المرتضى : هذا ينقلب عليكم ، فليس ينقلب ؛ وإنما ينقلب لو كان يريد تنفيذ الجيش بعد موته فقط ، ولا يريدُه وهو حيٌّ ، فكان يجيء ما قاله المرتضى لينفذ القائم بالأمر بعدى جيش أسامة ، فأما إذا كان يريد تفوذ الجيش من حين ما أمر بنفوذه فقد سقط القاب ، لأن الخليفة حينئذ لم يكن قد تعيَّن ، لأن الاختيار ما وقع بعد ، وعلى مذهب المرتضى الإمام متعيَّن حاضر عنده نصب عيَّنه ، فافترق الوصفان .

ومنها قول قاضي القضاة : إن مخالفة أمره صلى الله عليه وآله في النفوذ مع الجيش أو في إنقاذ الجيش لا يكون معصيةً ، وبين ذلك من وجوه :

أحدُها : أن أمره عليه السلام بذلك لابد أن يكون مشروطاً بالمصلحة ، وألا يعرض ما هو أهم من تفوذ الجيش ، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ وإن أعقب ضرراً في الدين ، فأما قول المرتضى : الأمر المطلق يدل على ثبوت المصلحة ، ولا يجوز أن يجعل الأمر المطلق ؛ فقول جيد إذا اعترض به على الوجه الذي أورده قاضي القضاة ، فأما إذا أورده أصحابنا على وجه آخر فإنه يندفع كلام المرتضى ، وذلك أنه يجوز تخصيصُ عمومات النصوص بالقياس الجلي عند كثير من أصحابنا ، على ما هو مذكور في أصول الفقه ، فلم لا يجوز لأبي بكر أن يخص عموم قوله : « أتقذروا بعث أسامة » لمصلحة غلبت على ظنه في عدم نفوذه نفسه ، ولمفسدة غلبت على نفسه^(١) في نفوذه نفسه مع البعث !

وثانيها : أنه عليه السلام كان يبعث السرايا عن اجتهاد لا عن وحي يحرم مخالفته . فأما قول المرتضى : إن للدين تعلقاً قوياً بأمثال ذلك^(٢) ، وإنها ليست من الأمور الدنياوية المحضة نحو أكله وشربه ونومه ، فإنه يعود على الإسلام بفتوحه عز وقوة وعلو كلمة فيقال له : وإذا أكل اللحم وقوى مزاجه بذلك ونام نوماً طبيعياً يزول عنه به المرض والإعياء ، اقتضى ذلك أيضاً عز الإسلام وقوته ، فقل إن ذلك أيضاً عن وحي .

ثم إن الذي يقتضيه فتوحه وغزواته وحروبه من العز والعلو الكلمة لا ينافي كون تلك الغزوات والحروب باجتهاده ، لأنه لا منافاة بين اجتهاده وبين عز الدين وعلو كلمته بحروبه ، وأن الذي ينافي اجتهاده بالرأى هو مثل فرائض الصلوات ومقادير الزكوات ومناسك الحج ، ونحو ذلك من الأحكام التي تشعر بأنها متلقاة من محض الوحي ، وليس للرأى والاجتهاد فيها مدخل ، وقد خرج بهذا الكلام الجواب عن قوله :

(١) في د « ظنه » . (٢) ١ : « هذا » .

لو جاز أن تكون السرايا والحروب عن اجتهاده، لجاز أن تكون الأحكام كلها عن اجتهاده. وأيضا فإن الصحابة كانوا يراجعونه في الحروب وآرائه التي يدبرها بها ويرجع عليه السلام إليهم في كثير منها بعد أن قد رأى غيره، وأما الأحكام فلم يكن يُراجع فيها أصلا، فكيف يُحمل أحدُ البابين على الآخر.

فأما قوله: لو كانت عن اجتهاد لوجب أن يحرم مخالفته فيها وهو حي، لا فرق بين الحالين؛ فلنائل أن يقول: القياس يقتضي ما ذكرت، إلا أنه وقع الإجماع على أنه لو كان في الأحكام أو في الحروب والجهاد ما هو بأجتهاده لما جازت مخالفته، والعدول عن مذهبه وهو حي لم يختلف أحد من المسلمين في ذلك، وأجازوا مخالفته بعد وفاته بتقدير أن أن يكون ما صار إليه عن اجتهاد؛ والإجماع حجة.

فأما قول قاضي القضاة: لأن اجتهاده وهو حي أولى من اجتهاد غيره، فليس يكاد يظهر، لأن اجتهاده، وهو ميت أولى أيضا من اجتهاد غيره، ويغلب على ظني أنهم فرقوا بين حالي الحياة والموت، فإن في مخالفته وهو حي نوعاً من أذى له، وأذاه محرم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾^(١)، والأذى بعد الموت لا يكون، فأفترق الحالان.

وثالثها: أنه لو كان الإمام منصوباً عليه لجاز أن يسترد جيش أسامة أو بعضه لنصرته؛ فكذلك إذا كان بالاختيار، وهذا قد منع منه المرتضى، وقال: إنه لا يجوز للنصوص عليه ذلك، ولا أن يؤلّى من عزله رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا أن يعزل من ولّاه رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) سورة الأحزاب ٥٣.

ورأيها : أنه عليه السلام ترك حرب معاوية في بعض الحالات ، ولم يُوجب ذلك أن يكون عاصياً ، فكذلك أبو بكر في ترك النفوذ في جيش أسامة .

فأما قول المرتضى : إن علياً عليه السلام كان مأموراً بحرب معاوية مع التمكن ووجود الأنصار ، فإذا عَدِمَ لم يكن مأموراً بحربه ؛ فلنائل أن يقول : وأبو بكر كان مأموراً بالنفوذ في جيش أسامة مع التمكن ووجود الأنصار ، وقد عُدِمَ التمكن لما استُخِلَفَ ، فإنه قد تحمّل أعباء الإمامة ، وتعدّر عليه الخروج عن المدينة ، التي هي دار الإمامة ، فلم يكن مأموراً والحال هذه بالنفوذ في جيش أسامة .

فإن قلت : الإشكال عليكم إنما هو من قبل الاستخلاف ، كيف جاز لأبي بكر أن يتأخّر عن المسير ؟ وكيف جاز له أن يرجع إلى المدينة وهو مأمور بالمسير ؟ وهلا نفذ لوجهه ولم يرجع ، وإن بلغه موت رسول الله صلى الله عليه وآله !

قلت : لعل أسامة أذن له ، فهو مأمور بطاعته ، ولأنه رأى أسامة وقد عاد باللواء فعاد هو لأنه لم يكن يمكنه أن يسير إلى الروم وحده ، وأيضاً فإن أصحابنا قالوا : إن ولاية أسامة بطلت بموت النبي صلى الله عليه وآله ، وعاد الأمر إلى من ينصب للأمر ، قالوا : لأن تصرف أسامة إنما كان من جهة النبي صلى الله عليه وآله ، ثم زال تصرف النبي صلى الله عليه وآله بموته ، فوجب أن يزول تصرف أسامة ، لأن تصرفه تبع لتصرف الرسول صلى الله عليه وآله . قالوا : وذلك كالوكيل تبطل وكالته بموت الموكل ، قالوا : ويفارق الوصي لأن ولايته لا تثبت إلا بعد موت الموصي ، فهو كعهده الإمام إلى غيره لا يثبت إلا بعد موت الإمام ، ثم فرّع أصحابنا على هذا الأصل مسألة وهي : الحاكم هل ينزل بموت الإمام أم لا ؟ قال قوم من أصحابنا : لا ينزل وبقوه على أن التولي من غير جهة الإمام يجوز ، فجعلوا الحاكم نائباً عن المسلمين أجمعين ، لا عن الإمام ،

وإن وقف تصرفه على اختياره ، وصار ذلك عندهم بمنزلة أن يختار المسلمون واحدا يحكم بينهم ، ثم يموت من رضى بذلك ، فإن تصرفه يبقى على ما كان عليه ، وقال قوم من أصحابنا : ينزل ، وإن هذا النوع من التصرف لا يستفاد إلا من جهة الإمام ، ولا يقوم به غيره ، وإذا ثبت أن أسامة قد بطلت ولايته لم تبقى تبعه^(١) على أبي بكر في الرجوع من بعض الطريق إلى المدينة .

وخامسها : أن أمير المؤمنين عليه السلام وليّ أبا موسى الحكم ، ووليّ رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد السريّة إلى الغميصاء^(٢) ، وهذا الكلام إنما ذكره قاضي القضاة تنمّة لقوله : إن أمره عليه السلام بنفوذ بعث أسامة كان مشروطا بالمصلحة ؛ قال : كما أن توليته عليه السلام أبا موسى كانت مشروطة باتّباع القرآن ، وكما أن تولية رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد كانت مشروطة بأن يعمل بما أوصاه به ، فخالفوا ولم يعملوا الحق ، فإذا كانت هذه الأوامر مشروطة فكذلك أمره جيش أسامة بالنفوذ كان مشروطا بالمصلحة وألا يعرض ما يقتضي رجوع الجيش أو بعضه إلى المدينة ، وقد سبق القول في كون الأمر مشروطا .

وسادسها : أن أبا بكر كان محتاجا إلى مقام عمر عنده ليعاضده^(٣) ويقوم في تهديد أمر الإمامة ما لا يقوم به غيره ، فكان ذلك أصلح في باب الدين من مسيره^(٤) مع الجيش ، فجاز أن يحبس عنده لذلك ؛ وهذا الوجه مختص بمن قال : إن أبا بكر لم يكن في الجيش ، وإيضاح عذره في حبس عمر عن النفوذ^(٥) مع الجيش .

(١) : ١ : « شيء » . (٢) الغميصاء : موضع أوقع فيه خالد بن الوليد بيني جذيمة .

(٣) بعدها في ١ : « ويعاونه » . (٤) : ١ : « سيره » .

(٥) : ١ : « التنفيذ » .

فأما قول المرتضى فإن ذلك غير جاز ، لأن مخالفة النصّ حرام ، فقد قلنا : إن هذا مبنى على مسألة تخصّيص العمومات الواردة في القرآن بالقياس .

وأما قوله : أى حاجة كانت لأبي بكر إلى عمر بعد وقوع البيعة ، ولم يكن هناك تنازع ولا اختلاف ! فعجيب ، وهل كان لولا مقامُ عمر وحضوره في تلك المقامات يتم لأبي بكر أمرٌ أو ينتظم له حال ! ولولا عمر لما بايع علي ولا الزبير ، ولا أكثر الأنصار ، والأمر في هذا أظهر من كل ظاهر .

وسأبها : أن من يصلح للإمامة ممن ضمّه جيشُ أسامة يجب تأخيرهم ليختار للإمامة أحدهم ، فإن ذلك أهم من تفويضهم ، فإذا جاز لهذه العلة التأخر قبل العقد جاز التأخر بعده للمعاوضة وغيرها .

فأما قول المرتضى : إن ذلك الجيش لم يضمّ من يصلح للإمامة ، فبناءً على مذهبه في أن كل من ليس بمعصوم لا يصلح للإمامة . فأما قوله : ولو صحّ ذلك لم يكن عذراً في التأخر ، لأن من خرج في الجيش يمكن أن يختار ولو كان بعيداً ، ولا يمكن بعده من صحّة الاختيار ، فلئلا أن يقول : دار الهجرة هي التي فيها أهل الحل والعقد ، وأقارب رسول الله صلى الله عليه وآله والقراء وأصحاب السقيفة ، فلا يجوز العدول عن الاجتماع والمشاورة فيها إلى الاختيار على البعد ، وعلى جناح السفر من غير مشاركة من ذكرنا من أعيان المسلمين .

فأما قوله : ولو صحّ هذا العقد لكان عذراً في التأخر قبل العقد ، فأما بعد إبرامه فلا عذر فيه ؛ فلئلا أن يقول : إذا أجزت التأخر قبل العقد لنوع من المصلحة فأجز التأخر بعد العقد لنوع آخر من المصلحة ، وهو المعاوضة والمساعدة .

هذه الوجود السبعة كلها لبيان قوله : تأخر أبي بكر أو عمر عن التفوذ في جيش أسامة ، وإن كان مأمورا بالتفوذ .

ثم نمود إلى تمام أقسام الفصل .
ومنها (١) قول قاضي القضاة : لا معنى لقول من قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قصد إبعادهم عن المدينة ، لأن بُمدّهم عنها لا يمنّهم من أن يختاروا واحداً منهم للإمامة ، ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعاً على موته لا محالة ، لأنّه لم يرد : تقدوا جيش أسامة في حياته .

وقد أترض المرتضى هذا فقال : إنّه لم يتبين معنى الظن ، لأنّ الطاعن لا يقول : إنهم أبعدوا عن المدينة كي لا يختاروا واحداً للإمامة ، بل يقول : إنما أبعدوا لينتصب بعد موته صلى الله عليه وآله في المدينة الشخص الذي نصّ عليه ، ولا يكون حاضراً بالمدينة من يخالفه ويُنازعه ، وليس يضرنا ألا يكون صلى الله عليه وآله قاطعاً على موته ، لأنّه وإن لم يكن قاطعاً فهو لا محالة يُشفق ويخاف من الموت ، وعلى الخائف أن يتحرّز بما يخاف منه ؛ وكلام المرتضى في هذا الموضع أظهر من كلام قاضي القضاة .

ومنها قول قاضي القضاة : إنّ ولاية أسامة عليهما لا تقتضي كونهما دونّه في الفضل ، كما أن عمرو بن العاص أمّا ولى عليهما لم يقتض كونه أفضل منهما . وقد أترض المرتضى هذا بأنّه (٢) يقيح تقديم المفضول على الفاضل فيما هو أفضل منه ، وأنّ تقديم عمرو بن العاص عليهما في الإمرة يقتضي أن يكون أفضل منهما فيما يرجع إلى الإمرة والسياسة ، ولا يقتضي أفضليته عليهما في غير ذلك ، وكذلك القول في أسامة .

(١) انظر ص ١٨٢ . (٢) د : « فإنه » .

ولقائل أن يقول : إنَّ السلوك قد يؤمرون الأمراء على الجيوش لوجهين : أحدها أن يقصد الملك بتأمير ذلك الشخص أن يسوس الجيش ويدبره بفضل رأيه وشيخوخته وقديم تجربته وما عرف من مومن تقيته في الحرب وقود العساكر ، والثاني أن يؤمر على الجيش غلاماً حدثاً من غلمانه أو من ولده أو من أهله ، ويأمر الأكبر من الجيش أن يتقوه ويعلموه ، ويأمره أن يتدبر بتدبيرهم ، ويرجع إلى رأيهم ؛ ويكون قصد الملك من ذلك تخريج ذلك الغلام وتربيته على الإمارة ، وأن يثبت له في نفوس الناس منزلة ، وأن يرشحه لجلائل^(١) الأمور ومعاظم الشئون ، في الوجه الأول يقبض تقديم المفضول على الفاضل ؛ وفي الوجه الثاني لا يقبض ، فلم لا يجوز أن يكون تأمير أسامة عليهما من قبيل الوجه الثاني ؟ والحال يشهد لذلك ، لأن أسامة كان غلاماً لم يبلغ ثمان عشرة سنة حين قبض النبي صلى الله عليه وآله ، فمن أين حصل له من تجربة الحرب وممارسة الوقائع وقود الجيش ما يكون به أعرف بالإمرة من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم !

ومنها قول قاضي القضاة : إنَّ السبب في كون عمر في الجيش أنه أنكر على عبد الله ابن عياش بن أبي ربيعة تسخطه إمرة أسامة ، وقال : أنا أخرج في جيش أسامة ؛ فخرج من تلقاء نفسه تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله . وقد أعترضه المرتضى فقال : هذا شيء لم نسمعه من راوٍ ، ولا قرأناه في كتاب ؛ وصدق المرتضى فيما قال ، فإن هذا حديث غريب لا يعرف .

وأما قول عمر : دعني أضرب عنقه فقد نافق ؛ فنقول مشهوراً لا محالة ، وإنما الغريب الذي لم يعرف كون عمر خرج من تلقاء نفسه في الجيش مراعاة لعبد الله بن عياش ابن أبي ربيعة ، حيث أنكر ما أنكر ؛ ولعل قاضي القضاة سمعه من راوٍ أو نقله من كتاب ، إلا أننا نحن ما وقفنا على ذلك .

(١) ب : « بجلائل » ، وما أثبتته من ا ، د . (٢) ا : « سخطه » .

الطعن الخامس

قالوا : إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمْ يُؤَكَّلْ أَبَا بَكْرٍ الْأَعْمَالِ وَوَلَّى غَيْرَهُ ، وَلَمَّا وَلَّاهُ الْحَجَّ بِالنَّاسِ وَقِرَاءَةَ سُورَةِ بَرَاءَةِ عَلَى النَّاسِ ، عَزَلَهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ : « لَا يُوَدِّعُنِي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مَعِي » ، حَتَّى يَرْجِعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

أَجَابَ قَاضِي الْقَضَاةِ فَقَالَ : لَوْ سَلَّمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُؤَلَّهِ ، لَمَّا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى نَقْصٍ ، وَلَا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْلُحْ لِلْإِمَارَةِ وَالْإِمَامَةِ ، بَلْ لَوْ قِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يُؤَلَّهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ بِحَضْرَتِهِ ، وَإِنْ ذَلِكَ رَفْعُهُ لَهُ لَكَانَ أَقْرَبَ ، لَا سَيِّمًا ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا وَزِيرَاهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَحْتَاجًا إِلَيْهِمَا وَإِلَى رَأْيِهِمَا ، فَلِذَلِكَ لَمْ يُؤَلَّهِمَا ، وَلَوْ كَانَ لِلْعَمَلِ عَلَى تَرْكِهِ فَضْلٌ لَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَغَيْرُهُمَا أَفْضَلُ مِنْ أَكْبَرِ الصَّحَابَةِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَّاهُمَا وَقَدَّمَهُمَا ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنْ تَوَلَّيْتَهُ هِيَ بِحَسَبِ الصَّلَاحِ ، وَقَدْ يَوَلَّى الْمَفْضُولُ عَلَى الْفَاضِلِ تَارَةً وَالْفَاضِلُ أُخْرَى ، وَرَبَّمَا وَوَلَّى الْوَاحِدُ لَاسْتِفْنَائِهِ عَنْهُ بِحَضْرَتِهِ ، وَرَبَّمَا وَلَّاهُ لَاتِّصَالٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُؤَلَّى عَلَيْهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . ثُمَّ ادَّعَى أَنَّهُ وَلَّى أَبَا بَكْرٍ عَلَى الْمَوْسَمِ وَالْحَجِّ قَدْ ثَبَتَتْ بِلَا خِلَافٍ بَيْنَ أَهْلِ الْأَخْبَارِ وَلَمْ يَصَحَّ أَنَّهُ عَزَلَهُ ، وَلَا يَدُلُّ رَجُوعُ أَبِي بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُسْتَفْهِمًا عَنِ الْقِصَّةِ عَلَى الْعَزْلِ ؛ ثُمَّ جَعَلَ أَنْكَارَ مَنْ أَنْكَرَ حُجَّ أَبِي بَكْرٍ فِي تِلْكَ السَّنَةِ بِالنَّاسِ ؛ كَأَنْكَارِ عِبَادٍ وَطَبَقَتِهِ أَخَذَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُورَةَ بَرَاءَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ . وَحَكَى عَنْ أَبِي عَلِيٍّ أَنَّ الْمَعْنَى كَانَ فِي اخْتِذِ السُّورَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنَّ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قَبَائِلِهِمْ إِذَا عَقَدَ عَقْدَ الْقَوْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْعَقْدَ لَا يَنْحَلُّ إِلَّا أَنْ يُحَلَّهَ هُوَ أَوْ بَعْضُ سَادَاتِ قَوْمِهِ ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا عَادَتُهُمْ وَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَنْبِذَ^(١) إِلَيْهِمْ عَقْدَهُمْ ، وَيَنْقُضَ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، عَلِمَ

(١) نبذ العقد : نقضه .

أنه لا ينحلّ ذلك إلّا به أو بسيد من سادات رَهْطه، فمدّل عن أبي بكر إلى أمير المؤمنين المقرّب في النّسب . ثمّ ادّعى أنّه صلّى الله عليه وآله ولّى أبا بكر في مرّضه الصّلاة ، وذلك أشرفُ الولايات ، وقال في ذلك : يأتى الله ورسوله والمسلمون إلّا أبا بكر .

ثمّ اعترض نفسه بصلاّته عليه السلام خلفَ عبد الرحمن بنِ عوف : وأجاب بأنّه صلّى الله عليه وآله إنّما صلّى خلفه ، لا أنّه ولّاه الصّلاة وقدمه فيها . قال : وإنّما قدّم عبد الرحمن عند غيبة النّبيّ صلّى الله عليه وآله فصلّى بغير أمره ، وقد ضاق الوقت ، فجاء النّبيّ صلّى الله عليه وآله فصلّى خلفه (١) .

اعترض المرتضى فقال : قد بينّا أنّ تركه صلّى الله عليه وآله الولاية لبعض أصحابه مع حضوره وإمكان ولايته والمدول عنه إلى غيره ، مع تطاول الزمان وامتداده ، لا بدّ من أن تقتضى غلبة الظنّ بأنّه لا يصلح للولاية ، فأما ادّعاؤه أنّه لم يولّه لأفتقاره إليه بحضرته وحاجته إلى تدبيره ورأيه ، فقد بينّا أنّه عليه السلام ما كان يفتقر إلى رأى أحدٍ لكتّاله ورُجّحانه على كلٍّ أحد ، وإنّما كان يشاور أصحابه على سبيل التّعليم لهم والتّأديب ، أو لغير ذلك ممّا قد ذُكر . وبمّذ ، فكيف استمرت هذه الحاجة ، واتّسّلت منه إليهما حتّى لم يستثنى في زمانٍ من الأزمان عن حضورهما فيوليّهما وهل هذا إلّا قدحٌ في رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله ونسبته إلى أنّه كان ممن يحتاج إلى أن يلقن ويؤقف على كلّ شيء ، وقد نزهه الله تعالى عن ذلك . فأما ادّعاؤه أنّ الرواية قد وردت بأنّهما وزيراه فقد كان يجب أن يصحّح ذلك قبل أن يعتمدوه ويحتجّ به ؛ فإنّنا ندفعه عنه أشدّ دفع . فأما ولاية عمرو بن الماص وخالد بن الوليد فقد تكامنا عليها من قبل ، وبيّنا أنّ ولايتهما تدلّ على صلاحهما لِمَا وليّاه ، ولا تدلّ على صلاحهما للإمامة ، لأنّ شرائع الإمامة لم تتكامل فيهما ، وبيّنا أيضاً أنّ ولاية المفضول على الفاضل لا تجوز ، فأما نهظيمه

(١) نقله المرتضى في الشّاق ٤٢١ .

وإكباره قول من يذهب إلى أن أبا بكر عزّل عن أداء السورة والموسم جميعاً ، وجمعه بين ذلك في البعد وبين إنكار عبّاد أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام أرتجّع سورة براءة من أبي بكر ؛ فأول ما فيه أنا لا نُنكر أن يكون أكثر الأخبار واردة بأن أبا بكر حجّ بالناس في تلك السنة ؛ إلّا أنّه قد روى قوم من أصحابنا خلاف ذلك ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أمير الموسم في تلك السنة ، وأنّ عزّل الرجل كان عن الأمرين ممّا . واستكبار ذلك . وفيه خلاف لا معنى له ، فأما ما حكاه عن عبّاد فإنّنا لا نعرفه ، وما نظنّ أحداً يذهب إلى مثله ، وليس يمكنه بإزاء ذلك جحد مذهب أصحابنا الذي حكيناه ، وليس عبّاد لو صحّت الرواية عنه بإزاء من ذكرناه ، فهو مليء بالجهالات ودفع الضرورات . وبعد ، فلو سلّمنا أنّ ولاية الموسم لم تُفسخ لكان الكلام باقياً ، لأنّه إذا كان ماوئى مع تطاول الزمان إلّا هذه الولاية ، ثمّ سلب شطرها ، والأخف الأعظم منها ، فليس ذلك إلّا تنبيهها على ما ذكرناه .

فأما ما حكاه عن أبي عليّ من أنّ عادة العرب ألاّ يحلّ ما عقده الرئيس منهم إلّا هو أو المتقدم من رهطه ؛ فمعاذ الله أن يُجرى النبيّ صلى الله عليه وآله سنّته وأحكامه على عادات الجاهليّة ، وقد بين عليه السلام لما رجّع إليه أبو بكر يسأله عن أخذ السورة منه الحال ، فقال : إنّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَلَّا يُودَى عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي ، ولم يذكر ما أدعاه أبو عليّ ؛ على أنّ هذه العادة قد كان يعرفها النبيّ صلى الله عليه وآله قبل بمثله أبا بكر بسورة براءة ، فما باله لم يعمدّها في الابتداء ويبحث من يجوز أن يحلّ عقده من قومه !

فأما ادّعاؤه ولاية أبي بكر الصّلاة فقد ذكرنا فيما تقدّم أنّه لم يؤلّه إياها . فأما فصله بين صلاته خلف عبد الرحمن وبين صلاة أبي بكر بالناس ، فليس بشيء ، لأنّنا إذا كنّا قد دللنا على أن الرسول صلى الله عليه وآله ما قدّم أبا بكر إلى الصّلاة ، فقد

أُسْتُوَى الأَمْرَانِ . وبعد ؛ فَأَيَّ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَهُ وَيَبْنِي أَنْ يُوَلِّيَهُ وَيَقْدِّمَهُ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ صَلَاتَهُ خَلْفَهُ إِقْرَارٌ لَوْلَايَتِهِ وَرِضَاً بِهَا ، فَقَدْ عَادَ الْأَمْرُ إِلَى أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ كَأَنَّهُ قَدْ صَلَّى بِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ ! عَلَى أَنَّ قِصَّةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَوْكَدُ ، لِأَنَّهُ قَدْ أَعْتَرَفَ بِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى خَلْفَهُ ، وَلَمْ يَصِلْ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ ، وَإِنْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَنَّهُ قَدَّمَهُ وَأَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَتَحَامُلِهِ .

ثُمَّ سَأَلَ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ نَفْسَهُ ؛ فَقَالَ : إِنْ قِيلَ : لَيْسَ يَخْلُو النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ سَلَّمَ فِي الْإِبْتِدَاءِ سُورَةَ بَرَاءَةٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ بِأَجْتِهَادِهِ وَرَأْيِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَرْتَجِعَ مِنْهُ السُّورَةُ قَبْلَ وَقْتِ الْأَدَاءِ ، وَعِنْدَ كَمِ أَنَّه لَا يَجُوزُ نَسْخُ الشَّيْءِ قَبْلَ تَقْضِي وَقْتِ فِعْلِهِ ! وَإِنْ كَانَ بِأَجْتِهَادِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَعِنْدَ كَمِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى !

وَأَجَابَ فَقَالَ : إِنَّهُ مَا سَلَّمَ السُّورَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ تَعَالَى ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُ بِأَدَائِهَا ، وَلَا كَلَّفَهُ قِرَاءَتَهَا عَلَى أَهْلِ الْمَوْسَمِ ، لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يُمَكِّنْهُ أَنْ يَنْقُلَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ لَفْظَ الْأَمْرِ وَالتَّكْلِيفِ ، فَكَأَنَّهُ سَلَّمَ سُورَةَ بَرَاءَةٍ إِلَيْهِ لَتَقْرَأَ عَلَى أَهْلِ الْمَوْسَمِ ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِذِكْرِ الْقَارِئِ الْمُبَلِّغِ لَهَا فِي الْحَالِ ؛ وَلَوْ نُقِلَ عَنْهُ تَصْرِيحٌ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ مُشْرُوطًا بِشَرْطٍ لَمْ يَظْهَرْ .

فَإِنْ قِيلَ : فَأَيَّ فَائِدَةٍ فِي دَفْعِ السُّورَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ لَا يَرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا ، ثُمَّ ارْتِجَاعِهَا مِنْهُ ؟ وَهَلَا دُفِعَتْ فِي الْإِبْتِدَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ !

قِيلَ : الْفَائِدَةُ فِي ذَلِكَ ظَهُورُ فَضْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَرَاتِبَتِهِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي نَزَعَتِ السُّورَةُ عَنْهُ لَا يَصْلُحُ لِمَا يَصْلُحُ لَهُ ، وَهَذَا غَرَضٌ قَوِيٌّ فِي وَقُوعِ الْأَمْرِ عَلَى مَا وَقَعَ عَلَيْهِ ^(١) .

قلت : قد ذكرنا فيما تقدم القول في تولية الملك بعض أصحابه ، وترك تولية بعضهم ، وكيفية الحال في ذلك ؛ على أنه قد روى أصحاب المغازي أنه أمر أبو بكر في شعبان من سنة سبع على سرية بمها إلى نجد فلقوا جمعاً من هوازن فبیتوهم^(١) ؛ فروى إياس بن سلمة عن أبيه ؛ قال : كنت في ذلك البعث ، فقتلت بيدي سبعة منهم ، وكان شعارنا : « أُمِّتْ أُمِّتْ » ، وقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله قوم ، وجرح أبو بكر وأرث^(٢) وعاد إلى المدينة ؛ على أن أمراء السرايا الذين كان يبعثهم صلى الله عليه وآله كانوا قوما مشهورين بالشجاعة ولقاء الحروب ، كمحمد بن مسلمة ، وأبي دجانة ، وزيد بن حارثة ونحوهم ، ولم يكن أبو بكر مشهوراً بالشجاعة ولقاء الحروب ، ولم يكن جباناً ولا خوَّاراً^(٣) وإنما كان رجلاً مجتمع القلب عاقلاً ، ذا رأى وحسن تدبير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يترك بعثه في السرايا ، لأن غيره أُنفع منه فيها ، ولا يدل ذلك على أنه لا يصلح للإمامة ، وأن الإمامة لا تحتاج أن يكون صاحبها من المشهورين بالشجاعة ، وإنما يحتاج إلى ثبات القلب ، وألا يكون هلعاً طائر^(٤) الجفان . وكيف يقول المرتضى : إنه صلى الله عليه وآله لم يكن محتاجاً إلى رأى أحد ، وقد نقل الناس كلهم رجوعه من رأى إلى رأى عند المشورة ، نحو ما جرى يوم بدر من تغير المنزل لما أشار عليه الحباب بن المنذر ، ونحو ما جرى يوم الخندق من فسح رأيه في دفع ثلث تمر المدينة إلى عُمينة بن حصن ليرجع بالأحزاب عنهم ، لأجل ما رآه سعد بن معاذ وسعد بن عباد من الحرب ، والعدول عن الصلح ، ونحو ما جرى في تلقيح النخل بالمدينة وغير ذلك ! فأما ولاية أبي بكر الموسم فأكثر الأخبار على ذلك ، ولم يرو عزله عن الموسم إلا قوم من الشيعة .

(١) بيتوهم ؛ أى دبروا أمرهم .

(٢) ارتث ، على البناء للمجهول : حل من المعركة رثيثاً ؛ أى جريحاً وبه رمق .

(٣) الخوار : الضعيف . (٤) الهلع : أخش الجزع .

وأما ما أنكره المرتضى من حال عبّاد بن سليمان ودفعه أن يكون على أخذ براءة من أبي بكر واستغرابه ذلك عَجَب ، فإنّ قول عبّاد قد ذهب إليه كثير من الناس ، ورووا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يدفع براءة إلى أبي بكر ، وأنه بعد أن نفذ أبو بكر بالحجيج أتبعه عليّاً ومعه تسع آيات من براءة ، وقد أمره أن يقرأها على الناس ويؤذّنهم بنقض العهد وقطع الدّنية ، فانصرف أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعاده على الحجيج ، وقال له : أنت الأمير ، وعلىّ المبلّغ ، فإنه لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني ، ولم ينكر عبّاد أمر براءة بالكلية ، وإنما أنكر أن يكون النبي صلى الله عليه وآله دفعها إلى أبي بكر ثم انتزعتها منه ، وطائفة عظيمة من المحدثين يروون ما ذكرناه ، وإن كان الأكثر الأظهر أنه دفعها إليه ثم أتبعه بعلي عليه السلام فانزعها منه ؛ والمقصود أنّ المرتضى قد تعجّب مما لا يتعجّب من مثله ، فظنّ أن عبّادا أنكر حديث براءة بالكلية ، وقد وقفت أنا على ما ذكره عبّاد في هذه القضية في كتابه المعروف بكتاب " الأبواب " ، وهو الكتاب الذي نقضه شيخنا أبو هاشم ، فأما عذر شيخنا أبي عليّ ، وقوله : إن عادة العرب ذلك ، واعتراض المرتضى عليه ، فالذي قاله المرتضى أصحّ وأظهر ، وما نسب إلى عادة العرب غير معروف ، وإنما هو تأويل تأوّل به متمصبو أبي بكر لا نزاع براءة منه ، وليس بشيء . ولست أقول ما قاله المرتضى من أن غرض رسول الله صلى الله عليه وآله إظهار أن أبا بكر لا يصلح للأداء عنه ، بل أقول : فعمل ذلك لمصلحة رآها ، ولعلّ السبب في ذلك أن عليّاً عليه السلام من بني عبد مناف وهم جرة قريش بمكة ، وعلىّ أيضاً شجاع لا يُقام له^(١) ، وقد حصل في صدور قريش منه الهيبة الشديدة والخافة العظيمة ، فإذا حصل مثل هذا الشجاع البطل وحوله من بني عمه وهم أهل العزة والقوة والهيبة ،

(١) ب : « لا يقال » تحريف .

كان أدعى إلى نجاته من قريش ، وسلامة نفسه وبلوغ الغرض من نبذ العهد على يده ؛ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله في عمرة الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى مكة يطلب منهم الإذن له في الدخول ، وإنما بعثه لأنه من بني عبد مناف ، ولم يكن بنو عبد مناف - وخصوصاً بنو عبد شمس - ليمكّنوا من قتله ، ولذلك حمّله بنو سعيّد ابن العاص على بيع يوم دخل مكة وأحدقوا به مُستلثمين^(١) بالسلاح ، وقالوا له : أقبل وأدبر ، ولا تخفْ أحداً ، بنو سعيّد أعرّزة الحرّم . وأما القول في تولية رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر الصّلاة ، فقد تقدّم ، وما رآه قاضي القضاة من الفرق بين صلاة أبي بكر بالناس وصلاة عبد الرحمن بهم ، مع كون رسول الله صلى الله عليه وآله خلفه ضعيفاً ، وكلام المرتضى أقوى منه . فأما السؤال الذي سأله المرتضى من نفسه فقوى ، والجواب الصحيح أن بعث براءة مع أبي بكر كان باجتهاد من الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يكن عن وحي ولا من جملة الشرائع التي تُتلقّى عن جبرائيل عليه السلام ، فلم يقبَح نَسْخُ ذلك قبلَ تقضّي وقت فعله ، وجواب المرتضى ليس بقوى ، لأنه من البعيد أن يُسلّم سورة براءة إلى أبي بكر ولا يقال له : ماذا تصنع بها ؟ بل يقال : خذْ هذه معك لا غير . والقول بأن الكلام مشروطٌ بشرط لم يظهر خلاف الظاهر ، وفتح هذا الباب يُفسد كثيراً من القواعد .

الطعن السادس

إن أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة ، فقد قال في الكَلالة^(٢) : أقول

(١) المستلثم : لابس اللأمة .

(٢) الكَلالة : من لا ولد له ولا والد ، وما لم يكن من النسب لـ .

فيها برأى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فتنى^(١) ، ولم يعرف ميراث الجد ، ومن حاله هذه لا يصلح للإمامة .

أجاب قاضى القضاة بأن الإمام لا يجب أن يعلم جميع الأحكام ، وأن القدر الذى يحتاج إليه هو القدر الذى يحتاج إليه الحاكم ، وأن القول بالرأى هو الواجب فيما لا نص فيه ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بالرأى فى مسائل كثيرة .

اعترض المرتضى فقال : قد دللنا على أن الإمام لا بد أن يكون عالماً بجميع الشرعيات ، وفرقنا بينه وبين الحاكم ، ودللنا على فساد الرأى والاجتهاد . وأما أمير المؤمنين عليه السلام فلم يقل قط بالرأى ، وما يروى من خبر بيع أمهات الأولاد غير صحيح ، ولو صح لجاز أن يكون أراد بالرأى الرجوع إلى النصوص والأدلة ، ولا شبهة عندنا أن قوله كان واحداً فى الحالين^(٢) ، وإن ظهر فى أحدهما خلاف مذهبه للتقية^(٣) .

قلت : هذا الطعن مبنى على أمرين : أحدهما هل من شرط الإمامة أن يعلم الإمام كل الأحكام الشرعية رأم لا ؟ وهذا مذکور فى كتبنا الكلامية ؛ والثانى هو القول فى الاجتهاد والرأى حق أم لا ؟ وهذا مذکور فى كتبنا الأصولية .

الطعن السابع

قصة خالد بن الوليد وقتله مالك بن نويرة ومضايمته امرأته من ليلته ، وأن أبا بكر

(١) الشافى : فنى ومن الشيطان ، ونحو قوله وقد سئل عن قوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، فلم يعرف معناه ، والأب : الرعى فى اللغة ، لا يذهب على أحده أدنى أنس بالعربية ، ونحو ميراث الجدة وأنه لم يعرف الحكم فيه ، ونظائر ذلك كثيرة معروفة . (٢) ب : « القولين » . (٣) انظر الشافى ٤٢٢ .

تَرَكَ إِقَامَةَ الْحَدِّ عَلَيْهِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ سَلَّهَ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَوْجَبَ الْقَوْدَ وَحَدَّ الزَّانَا عَمُومًا ، وَأَنَّ عَمَرَ نَبِيَّهُ وَقَالَ لَهُ : اقْتُلْهُ ، فَإِنَّهُ قَتَلَ مُسْلِمًا .

أَجَابَ قَاضِي الْقَضَاءِ فَقَالَ : إِنَّ شَيْخَنَا أَبَا عَلِيٍّ قَالَ : إِنَّ الرِّدَّةَ ظَهَرَتْ مِنْ مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ ، لِأَنَّهُ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُ رَدَّ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ عَلَيْهِمْ لَمَّا بَلَغَهُ مَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا فَعَلَهُ سَائِرُ أَهْلِ الرِّدَّةِ فَاسْتَحَقَّ الْقَتْلَ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَقَدْ كَانَ يَصِلُنِي ، قِيلَ لَهُ : وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَهْلِ الرِّدَّةِ ، وَإِنَّمَا كَفَرُوا بِالْإِيمَانِ مِنَ الزَّكَاةِ ، وَأَعْتَقَادِهِمْ إِسْقَاطَ وَجُوبِهَا دُونَ غَيْرِهِ . فَإِنْ قِيلَ : فَلِمَ أَنْكَرَ عُمَرُ ؟ قِيلَ : كَانَ الْأَمْرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَلَا وَجْهَ لِلْإِنْكَارِ عُمَرَ ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ أَبُو بَكْرٍ مِنَ الْحَالِ مَا يَخْفَى عَلَى عُمَرَ . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ مِنْ أَنَّ خَالِدًا تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ ، قِيلَ : أَرَادَ عَجَلَتَهُ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ ، وَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ عِنْدَهُ عَلَى خَالِدٍ أَنْ يَتَوَقَّفَ لِلشُّبْهَةِ . وَاسْتَدْلَّ أَبُو عَلِيٍّ عَلَى رِدَّتِهِ بِأَنَّ أَخَاهُ مَتَمِّمَ بْنَ نُوَيْرَةَ لَمَّا أَنْشَدَ عُمَرَ مَرْثِيَّتَهُ أَخَاهُ قَالَ لَهُ : وَدِدْتُ أَنْ أَقُولَ الشَّعْرَ فَأَرَى أَخِي زَيْدًا بِثَلٍّ مَا رَأَيْتُ بِهِ أَخَاكَ ! فَقَالَ مَتَمِّمٌ : لَوْ قُتِلَ أَخِي عَلَى مِثْلِ مَا قُتِلَ عَلَيْهِ أَخُوكَ مَارِئِيَّتُهُ ، فَقَالَ عُمَرُ : مَا عَزَانِي أَحَدٌ بِمِثْلِ تَعَزِّيَّتِكَ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ مَالِكًَا لَمْ يُقْتَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ كَمَا قُتِلَ زَيْدٌ .

وَأَجَابَ عَنْ تَزْوِيجِ خَالِدٍ بِامْرَأَتِهِ بِأَنَّهُ إِذَا قُتِلَ عَلَى الرِّدَّةِ فِي دَارِ الْكُفْرِ جَازَ تَزْوِيجُ امْرَأَتِهِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَطَّأَهَا إِلَّا بَعْدَ الْأَسْتَبْرَاءِ .

وَحَكَى عَنْ أَبِي عَلِيٍّ أَنَّهُ إِذَا قَتَلَ لَأَنَّهُ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ : «صَاحِبِكَ» ، وَأَوْهَمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِصَاحِبِهِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ أَنَّ ذَلِكَ رِدَّةٌ وَعِلْمٌ عِنْدَ الْمَشَاهِدَةِ

المَقْصِدُ، وهو أميرُ القومِ، فجاز أن يَقْتُلَهُ وإن كان الأولَى أَلَا يَسْتَعِجِلْ، وأن يكشف الأمرَ في رِدَّتِهِ حتَّى يَتَضَحَّ ، فلهذا لم يَقْتُلَهُ أبو بكر به . فأما وطؤه لأمراته فلم يَثْبُتْ ، فلا يصحُّ أن يُجْعَلَ طَعْنًا فِيهِ (١) .

اعْتَرَضَ المرتَضَى فقال : أَمَامَنِي خَالِدٌ فِي قَتْلِ مَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ وَأَسْتَبَاحَ أَمْرَاتِهِ وَأَمْوَالِهِ لِنَسَبَتِهِ إِنِّيهِ إِلَى رِدَّةٍ لَمْ تَظْهَرَ مِنْهُ ، بَلْ كَانَ الظَّاهِرُ خِلَافَهَا مِنَ الْإِسْلَامِ ، فَمُعْظِمٌ . وَيَجْرِي مَجْرَاهُ فِي الْعِظَمِ تَنَافُلٌ مِنْ تَنَافُلٍ عَنْ أَمْرِهِ ، وَلَمْ يُقَمْ فِيهِ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَقْرَهُ عَلَى الْخَطَأِ الَّذِي شَهِدَ هُوَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَجْرِي مَجْرَاهَا مَنْ أَمَكَّنَهُ أَنْ يَعْلَمَ الْحَالُ فَأَهْمَلَهَا وَلَمْ يَتَصَفَّحْ مَا رَوَى مِنَ الْأَخْبَارِ فِي هَذَا الْبَابِ وَتَعْصَبَ لِأَسْلَافِهِ وَمَذْهَبِهِ . وَكَيْفَ يَجُوزُ عِنْدَ خُصُومِنَا عَلَى مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ جَعْدُ الزَّكَاةِ مَعَ الْمَقَامِ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَهِيَ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ (٢) ! لِأَنَّ الْعِلْمَ الْفَرَضِيَّ بِأَنَّهُمَا مِنْ دِينِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَرِيعَتِهِ عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ ، وَهَلْ نَسَبُهُ مَالِكٍ إِلَى الرِّدَّةِ مَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ إِلَّا قَدْحٌ فِي الْأَصُولِ وَنَقْضٌ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ أَنَّ الزَّكَاةَ مَعْلُومَةٌ ضَرُورَةٌ مِنْ دِينِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَأَعْجَبُ مِنْ كُلِّ عَجِيبٍ قَوْلُهُ : وَكَذَلِكَ سَائرُ أَهْلِ الرِّدَّةِ ، يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَصَلُّونَ وَيَجْعُدُونَ الزَّكَاةَ ، لَا تَنَاقُذَ بَيْنَنَا أَنَّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ ! وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ ، وَقَدْ رَوَى جَمِيعُ أَهْلِ النَّقْلِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا وَصَّى الْجَيْشَ الَّذِينَ أَنْفَذَهُمْ بِأَنْ يُؤْذِنُوا وَيُقيمُوا ، فَإِنْ أَذِنَ الْقَوْمُ كَأَذَانِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ كَفَّوْا عَنْهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا أَغَارُوا عَلَيْهِمْ ، فَجَعَلَ أَمَارَةَ الْإِسْلَامِ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ الرِّدَّةِ الْأَذَانَ وَالْإِقَامَةَ ! وَكَيْفَ يُطْلَقُ فِي سَائِرِ أَهْلِ الرِّدَّةِ مَا أُطْلِقَ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَصَلُّونَ ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ أَصْحَابَ مُسَيْلَمَةَ وَطَلْحَةَ وَغَيْرَهُمَا مِمَّنْ كَانَ أَدْعَى النَّبُوَّةَ وَخَلَعَ الشَّرِيعَةَ مَا كَانُوا يَرَوْنَ الصَّلَاةَ وَلَا شَيْئًا مِمَّا جَاءَتْ بِهِ شَرِيعَتُنَا . وَقِصَّةُ مَالِكٍ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ مَنْ تَأَمَّلَ كِتَابَ السِّيَرِ وَالنَّقْلِ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى صَدَقَاتِ قَوْمِهِ بَنَى

(١) نقله الشافعي في المرتضى ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) القرن : الحبل ؛ والكلام على الاستمارة .

يَرْبُوعَ وَالْيَا مِنْ قَبْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَلَمَّا بَلَغَتْهُ وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمْسَكَ عَنْ أَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ لَهُمْ : تَرَبَّصُوا بِهَا حَتَّى يَقُومَ قَائِمٌ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَقَدْ صَرَخَ بِذَلِكَ فِي شَعْرِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَالَ رَجُلٌ سَدَّدَ الْيَوْمَ مَالِكٌ	وَقَالَ رَجُلٌ مَالِكٌ لَمْ يَسَدِّدْ
فَقُلْتُ : دَعُونِي لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ	فَلَمْ أَخْطِرْ رَأْيًا فِي الْقَامِ وَلَا النَّدَى
وَقُلْتُ : خَذُوا أَمْوَالَكُمْ غَيْرَ خَائِفٍ	وَلَا نَظَرٍ فِيمَا يَجِيءُ بِهِ غَدَى
فَدُونَكُمْ مَوَاهِي إِنْ مَا هِيَ مَالِكُمْ	مَصُورَةٌ أَخْلَاقُهَا لَمْ تَجِدْ
سَاجِلُ نَفْسِي دُونَ مَا تَحَذَرُونَهُ	وَأَرْهِنُكُمْ يَوْمًا بِمَا قُلْتُمْ يَدَى
فَإِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ الْمَجْدِدُ قَائِمٌ	أَطْعَمْنَا وَقَلْنَا : الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ

فَصَرَخَ كَمَا تَرَى أَنَّهُ اسْتَبَقَ الصَّدَقَةَ فِي أَيْدِي قَوْمِهِ رِفْقًا بِهِمْ وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ ، إِلَى أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ مَنْ يَدْفَعُ ذَلِكَ إِلَيْهِ . وَقَدْ رَوَى جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ السِّيَرِ ، وَذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ ؛ أَنَّ مَالِكَاً نَهَى قَوْمَهُ عَنِ الْاجْتِمَاعِ عَلَى مَنَعِ الصَّدَقَاتِ وَفَرَّقَهُمْ ، وَقَالَ : يَا بَنِي يَرْبُوعَ ، إِنَّا كُنَّا قَدْ عَصَيْنَا أَمْرًا إِذْ دَعَوْنَا إِلَى هَذَا الدِّينِ ، وَبَطَّأْنَا النَّاسَ عَنْهُ ، فَلَمْ نُفْلِحْ وَلَمْ نَنْجَحْ ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَوَجَدْتُ الْأَمْرَ يَتَأَتَّى لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ بِغَيْرِ سِيَاسَةٍ ، وَإِذَا أَمَرَ لَا يَسُوسُهُ النَّاسُ ؛ فَإَيَّاكُمْ وَمُعَادَاةَ قَوْمٍ يُصْنَعُ لَهُمْ فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَرَجَعَ مَالِكٌ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَلَمَّا قَدِمَ خَالِدُ الْبُطَاحِ بَثَّ السَّرَايَا وَأَمَرَهُمْ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ وَأَنْ يَأْتُوهُ بِكُلِّ مَنْ لَمْ يُجِبْ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ أَمْتَنَعَ أَنْ يَقَاتِلُوهُ ، فَجَاءَتْهُ الْخَيْلُ بِمَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ فِي ثَمَرٍ مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ ؛ وَاخْتَلَفَ السَّرِيَّةُ فِي أَمْرِهِمْ ، وَفِي السَّرِيَّةِ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ ، فَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ أَنَّهُمْ أَذْنَوْا وَأَقَامُوا وَصَلُّوا ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِمْ

أمر بهم خالد فحسبوا وكانت ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالدٌ منادياً يُنادى : « أدفئوا أسراءكم »^(٢) ، فظنوا أنهم أمرُوا بقتلهم ، لأنَّ هذه اللفظة تستعمل في لغة كنانة لاقتل ، فقتلَ ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَْرَ مالكا ، وتزوج خالدٌ زوجته أمَّ تميم بنت المنهال^(٣) .

وفي خبر آخر أنَّ السرية التي بعث بها خالدٌ لما غشيت القوم تحت الليل راعوهم ، فأخذَ القومُ السلاح ! قال : فقلنا : إنا المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون ، قلنا : فما بالُ السلاح معكم ! قلنا : فضعوا السلاح ؛ فلما وضعوا السلاح رَبطوا أسارى فأتوا بهم خالداً . فحدث أبو قتادة خالدَ بن الوليد أنَّ القوم نادوا بالإسلام ، وأنَّ لهم أماناً ، فلم يلتفت خالدٌ إلى قولهم وأمرَ بقتلهم ، وقسم سببيهم ، وحلف أبو قتادة ألا يسير تحت لواء خالد في جيش أبداً ، وركب فرسه شاذاً إلى أبي بكر ، فأخبره الخبر ، وقال له : إني نهيتُ خالداً عن قتله ، فلم يقبلَ قولي ، وأخذ بشهادة الأعراب الذين غرضهم الغنائم ، وإنَّ عمرَ لما سمع ذلك تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر وقال : إنَّ القصاص قد وجب عليه . ولما أقبل خالدُ ابنُ الوليد قافلاً دخلَ المسجدَ وعلمه قباله عليه صَدَأُ الحديد ، مُعْتَجِراً^(٤) بعمامة له قد غرَزَ في عمامته أسُهما ، فلما دخلَ المسجدَ قامَ إليه عمرُ فنزعَ الأسهم عن رأسه فحطَّمها ، ثمَّ قال له : فاعدوْا نَفْسِيهِ ، أعددوْا على امرئٍ مُسلم فقتلته ، ثمَّ نَزَوْتَ على امرأته ! والله لَنَرَجُمَنَّكَ بأحجارك . وخالدٌ لا يكلمه ، ولا يظنُّ إلا أنَّ رأىَ أبي بكرٍ مثْلُ رأيهِ حتَّى دخلَ إلى أبي بكر وأعتذر إليه بُعْذره وتجاوز عنه ، فخرج خالدٌ وعمرُ جالسٌ في المسجد فقال : هَلُمَّ إِلَيَّ يَا بَنَ أُمِّ شَمْلَةَ ! فعَرَفَ عمرُ أنَّ أبا بكرٍ قد رَضِيَ عنه فلم يكلمه ، ودخلَ بيته^(٥) .

وقد رُويَ أيضاً أنَّ عمرَ لما وُلِّيَ جَمَعَ من عَشِيرَةِ مَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ مَنْ وَجَدَ مِنْهُمْ

(١) ب : « ادفئ » ، صوابه في د والطبرى . (٢) الطبرى : « أسراءكم » .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨ (المعارف) ، مع تصرف واختصار .

(٤) اعتبر العمامة : لبسها . (٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩ . ٢٨٠ .

وَأَسْتَرْجَعَ مَا وَجَدَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، فَرَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا مَعَ نَصِيْبِهِ كَانَ مِنْهُمْ . وَقِيلَ : إِنَّهُ ارْتَجَعَ بَعْضَ نِسَائِهِمْ مِنْ نَوَاحِي دِمَشْقَ ، وَبَعْضَهُنَّ حَوَامِلَ ، فَرَدَّهِنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ . فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ فِي خَطَا خَالِدٍ ، وَخَطَا مِنْ تَجَاوَزَ عَنْهُ . وَقَوْلُ صَاحِبِ الْكِتَابِ : إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَنْ عُمَرَ مَا يَظْهَرُ لِأَبِي بَكْرٍ لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ فِي قِصَّةِ خَالِدٍ لَمْ يَكُنْ مُشْتَبَهًا ، بَلْ كَانَ مُشَاهِدًا مَعْلُومًا لِكُلِّ مَنْ حَضَرَه ؛ وَمَا تَأَوَّلَ بِهِ فِي الْقَتْلِ لَا يُعْذَرُ لِأَجْلِهِ ، وَمَا رَأَيْنَا أَبَا بَكْرٍ حَكَمَ فِيهِ بِحُكْمِ التَّأَوَّلِ وَلَا غَيْرِهِ ، وَلَا تَلَا فِي خَطَاةِ وَزَلَّهِ ، وَكَوْنِهِ سَيْفًا مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ عَلَى مَا ادَّعَاهُ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَحْكَامُ ، وَيَرْتَبِعُهُ مِنَ الْآثَامِ . وَأَمَّا قَوْلُ مَتِّمٍ : لَوْ قُتِلَ أَخِي عَلَى مَا قُتِلَ عَلَيْهِ أَخُوكَ لَمَا رَكَّبْتُهُ ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُرْتَدًّا ، فَكَيْفَ يَظُنُّ عَاقِلٌ أَنَّ مَتِّمًا يَعْتَرِفُ بِرِدَّةِ أَخِيهِ وَهُوَ يَطَالِبُ أَبَا بَكْرٍ بِدَمِهِ وَالِاقْتِصَاصِ مِنْ قَاتِلِيهِ ، وَرَدِّ سَيِّئِهِ ، وَأَنَّهُ أَرَادَ فِي الْجُمْلَةِ التَّقَرُّبَ إِلَى عُمَرَ بِتَقْرِيطِ أَخِيهِ ! ثُمَّ لَوْ كَانَ ظَاهِرَ هَذَا الْقَوْلِ كِبَاطُنُهُ لَكَانَ إِنَّمَا يَقْصِدُ تَفْضِيلَ قِتْلَةِ زَيْدٍ عَلَى قِتْلَةِ مَالِكٍ ، وَالحَالُ فِي ذَلِكَ أَظْهَرُ ، لِأَنَّ زَيْدًا قُتِلَ فِي بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ ذَاتًا عَنْ وَجْهِهِمْ ، وَمَالِكٌ قُتِلَ عَلَى شُبْهَةٍ ، وَبَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَرْقٌ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « صَاحِبُكَ » فَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : إِنَّهُ أَرَادَ الْقُرَشِيَّةَ لِأَنَّ خَالِدًا قُرَشِيٌّ . وَبَعْدَ ، فَلَيْسَ فِي ظَاهِرِ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَفْيِهِ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَوْ كَانَ عِلْمٌ مِنْ مَقْصِدِهِ الْأَسْتِخْفَافَ وَالْإِهَانَةَ عَلَى مَا ادَّعَاهُ صَاحِبُ الْكِتَابِ لَوَجَبَ أَنْ يَمْتَنِدِرَ خَالِدٌ بِذَلِكَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَيَعْتَنِدَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ لَمَّا طَالَبَهُ عُمَرُ بِقِتْلِهِ ، فَإِنَّ عُمَرَ مَا كَانَ يَمْنَعُ مِنْ قَتْلِ قَادِحٍ فِي نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ فَأَيُّ مَعْنَى لِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ : تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ ! وَإِنَّمَا تَأَوَّلَ فَأَصَابَ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَ (١) .

قلت : أما تعجب المرتضى من كون قوم منعوا الزكاة وأقاموا على الصلاة ودعواه أن هذا غير ممكن ولا صحيح ، فالمعجب منه كيف يُنكر وقوع ذلك ، وكيف ينكر إمكانه ! أما الإمكان فلائه لا ملازمة بين العبادتين إلا من كونهما مقترنتين في بعض المواضع في القرآن ، وذلك لا يُوجب تلازمهما في الوجود ، أو من قوله : إن الناس يعلمون كون الزكاة واجبة في دين الإسلام ضرورة ، كما تعلمون كون الصلاة في دين الإسلام ضرورة ، وهذا لا يمنع اعتقادهم سقوط وجوب الزكاة لشبهة دخلت عليهم . فإنهم قالوا : إن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (٢) قالوا : فوصف الصدقة المفروضة بأنها صدقة من شأنها أن يطهر رسول الله صلى الله عليه وآله الناس ويزكّيهم بأخذها منهم ، ثم عقب ذلك بأن فرض عليه مع أخذ الزكاة منهم أن يصلي عليهم صلاة تكون سكنا لهم . قالوا : وهذه الصفات لا تتحقق في غيره ؛ لأن غيره لا يطهر الناس ويزكّيهم بأخذ الصدقة ، ولا إذا صلى على الناس كانت صلاته سكنا لهم ، فلم يجب علينا دفع الزكاة إلى غيره . وهذه الشبهة لا تنافي كون الزكاة معلوما وجوبها ضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله ، لأنهم ما جحدوا وجوبها ، ولكنهم قالوا : إنه وجوب مشروط ؛ وليس يُعلم بالضرورة انتفاء كونها مشروطة ، وإنما يُعلم ذلك بنظر وتأويل ، فقد بان أن ما ادّعاء من الضرورة ليس بدال على أنه لا يمكن أحد اعتقاد نفي وجوب الزكاة بعد موت الرسول ، ولو عرّضت مثل هذه الشبهة في صلاة لصحّ لذهاب أن يذهب إلى أنها قد سقطت عن الناس ؛ فأما الوقوع فهو المعلوم ضرورة بالتواتر ، كالمعلم بأن أبا بكر ولى الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ضرورة بطريق التواتر ، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر في كتب التواريخ

فإنها تشتمل من ذلك على ما يشفى ويكفى . وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ الكبير بإسنادٍ ذكره : إنَّ أبا بكر أقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجيهه أسامة في جيشه إلى حيث قُتِلَ أبوه زيد بن حارثة لم يحدث شيئاً ، وجاءته وفود العرب مرتدين يُقرّون بالصلاة ويعمنون الصدقة ، فلم يقل منهم وردّهم ، وأقام حتى قدم أسامة بعد أربعين يوماً من سُخْوصه ، ويقال : بعد سبعةٍ يوماً^(١) .

وروى أبو جعفر قال : امتنعت العربُ قاطبةً من أداء الزكاة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا قريشا وثقيفا^(٢) .

وروى أبو جعفر ، عن السري^(٣) عن شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : ارتدت العربُ ومنتت الزكاة إلا قريشا وثقيفا ، فأما هوازن فقدّمت رجلاً وأخرت أخرى ، أمسكوا الصدقة^(٤) .

وروى أبو جعفر ، قال : لما منّت العربُ الزكاة كان أبو بكر ينتظر قدوم أسامة بالجيش ، فلم يحارب أحداً قبل قدومه إلا عبّسا وذُبْيَسان ، فإنه قاتلهم قبل رجوع أسامة^(٥) .

وروى أبو جعفر ؛ قال : قدّمت وفودٌ من قبائل العرب المدينة ، فنزّلوا على وجوه الناس بها ، ويحملونهم إلى أبي بكر أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فمزمّ الله لأبي بكر على الحق ، وقال : لو منّوني عتال بميرٍ لجاهدُهم عليه^(٦) .

وروى أبو جعفر شعراً للخطيل^(٧) بن أوس ، أخى الخطيئة في معنى منع الزكاة ، وأن

(١) تاريخ الطبري ٣ : ١٧٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٢ . (٣) ب : « السدي » ؛ صوابه في أ ، د وتاريخ الطبري .

(٤) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٢ . (٥) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٣ .

(٦) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٤ . والمقال : الحبل الذي كان يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة

(٧) في الأصول : « الخطل » ، وصوابه من تاريخ الطبري .

أبا بكر ردّ سؤال العرب ولم يُجِبه من مُجلته :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكرٍ (١)
أيورثها بكرٌ إذا مات بعده وتلك لعمري الله قاصمة الظهر
فهلّا ردّدتهم وفدنا بإجابةٍ وهلاّ حسبتُم منه رانية البكر
فإنّ الذي سألوكُم فنعمتُم لكأتمر أو أحلّ لحلف بني فهر (٢)

وروى أبو جعفر قال : لما قدّمت العربُ المدينة على أبي بكر فكلّموه في إسقاط الزكاة، نزلوا على وجوه الناس بالمدينة فلم يبق أحدٌ إلّا وأُزل عليه ناساً منهم ، إلا العباس ابن عبد المطلب ، ثم اجتمع إلى أبي بكر المسلمون ، فخوّفوه بأس العرب واجتماعها . قال ضرار بن الأزور : فما رأيتُ أحداً - ليس رسول الله - أملاً بحربٍ شعواء من أبي بكر فجعلنا (٣) نخوّفه (٤) ونزوّهه ، وكانما إنما نخبره بما له لا ما عليه ، واجتمعت كلمة المسلمين على إجابة العرب إلى ما طلبتُ ، وأبي بكر أن يفعل إلّا ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يأخذ إلّا ما كان يأخذُ ، ثم أجّلهم يوماً وليلة ، ثم أمرهم بالانصراف ، وطاروا إلى عشائرهم (٥) .

وروى أبو جعفر ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن العاص إلى عُمان قبل موته ، فات وهو بُعْمان ، فأقبل قافلاً إلى المدينة ، فوجد العرب قد منعت الزكاة ، فنزل في بني عامر على قرّة بن هبيرة ، وقرّة يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى ، وعلى ذلك بنو عامر كلّهم إلا الخواص . ثم قدّم المدينة ، فأطافت به قريش ، فأخبرهم أن العساكر مُعسّكة حولهم ، فتفرّق المسلمون ، وتحلّقوا حلّقا ، وأقبل عمر بن الخطاب ، فرّ بحلقة

(١) أورد صاحب الأغاني البيت الأول والثاني (٢ : ١٥٧ - طبعة دار الكتب) ونسبهما إلى الخطيئة .

(٢) الطبري ٣ : ٢٤٦ ، وفيه : « أو أحلّ لي من التمر » .

(٣) ب : « يجعلنا » ، وصوابه من الطبري ، د . (٤) الطبري : « نخبره » .

(٥) تاريخ الطبري ٣ : ٢٥٨ .

وهم يتحدثون فيما سمعوا من عمرو ، وفي تلك الحلقة على عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد ، فلما دنا عمر منهم سكتوا ، فقال : في أي شيء أنتم ؟ فلم يجبهوه ؛ فقال : ما أعلمني بالذي خلوتم عليه ! فغضب طلحة وقال : الله يا ابن الخطاب ! إنك لتعلم الغيب ! فقال : لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكن أظن قلتم : ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يقرّوا بهذا الأمر . قالوا : صدقت ، فقال : فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوف مني عليكم من العرب ^(١) .

قال أبو جعفر : وحدثنني السري ، قال : حدثنا شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : نزل عمرو بن العاص بمصر فنه من عثمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرّة بن هبيرة بن سلمة بن يسير ، وحولته عساكر من أفنائهم ، فذبح له ، وأكرم منزلته ، فلما أراد الرحلة خلا به وقال : يا هذا ؛ إن العرب لا تطيب لكم أنفسا بالإتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع وتطيع ، وإن أبيتم فإنها تجتمع عليكم ؛ فقال عمرو : أتوعدنا بالعرب وتخوفنا بها ! موعدنا حفش أمك ، أما والله لأوطئنه عليك الخيل ، وقدم على أبي بكر والمسلمين فأخبرهم ^(٢) .

وروى أبو جعفر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرّق عماله في بني تميم على قبض الصدقات فجعل الزبرقان بن بدر على عوف والرباب ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو ، ومالك بن نويرة على بني حنظلة ، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب صفوان إلى أبي بكر حين وقع إليه الخبر بموت النبي صلى الله عليه وسلم بصدقات بني عمر ، وبما ولي منها ، وما ولي سبرة ، وأقام سبرة في قومه لحدث إن ناب ، وأطرق قيس بن عاصم ينظر الزبرقان صانع ؟ فكان له عدوا وقال وهو ينتظره وينتظر ما يصنع : ويلي عليه ! ما أدري ما أصنع إن أنا

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ . (٢) تاريخ الطبري ٣ : ٢٥٩ .

بايعتُ أبا بكر وأُتيته بصدقات قومي خلفني فيهم فساءني عندهم ، وإن رددتها عليهم فليأتين
أبا بكر فيسوءني عنده ، ثم عزم قيسٌ على قسمتها في مُقاعيس والبطون ، ففعل وعزم الزبقان
على الوفاء ، فأتبع صفوان بصدقات عوف والرباب حتى قديم بها المدينة وقال شعرا يمرض
فيه بقيس بن عاصم ، ومن جملته :

وفيتُ بأذوادِ الرسول وقد أبتُ سُماعةً فلم يرَ دُذُ بمسيراً أميرُها
فلما أرسل أبو بكر إلى قيسِ الملاء بنِ الحضرمي أخرج الصدقة ، فأتاه بها وقدم معه
إلى المدينة (١) .

وفي تاريخ أبي جعفر الطبري من هذا الكثير الواسع ، وكذلك في تاريخ غيره من
التواريخ ، وهذا أمرٌ معلومٌ بضرورة ، لا يجوز لأحد أن يخالف فيه .

فأما قوله : كيف يصح ذلك ، وقد قال لهم أبو بكر : إذا أذنوا وأقاموا كأذانكم وإقامتكم ،
فكفوا عنهم ، فجعل أمانة الإسلام والبراءة من الردة الأذان والإقامة ، فإنه قد أسقط
بعض الخبر ؛ قال أبو جعفر الطبري في كتابه : كانت وصيته لهم : إذا نزلتم فأذنوا وأقيموا ،
فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم ، فإن لم يفعلوا فلا شيء ، إلا النار ، ثم اقتلهم كل قتلة ؛
الحرق فما سواه ، وإن أجابوا داعية الإسلام فأسألوهم ، فإن أقرؤا بالزكاة فأقبوا منهم ،
وإن أبوا فلا شيء ، إلا النار ، ولا كلمة (٢) .

فأما قوله : وكيف يطلق قاضي القضاة في سائر أهل الردة ما أطلقه من أنهم كانوا
يصلون ومن جملتهم أصحابُ مسلمة وطلحة ! فإنما أراد قاضي القضاة بأهل الردة هاهنا
ما نعى الزكاة لا غير ، ولم يرد من جحد الإسلام بالسكينة .

فأما قصة مالك بن نويرة وخالد بن الوليد فإنها مشبهة عندي ، ولا غرو فقد
أشبهت على الصحابة ، وذلك أن من حضرها من العرب اختلفوا في حال القوم : هل كان

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ . (٢) تاريخ الطبري ٣ : ٢٧٩ .

عليهم شِعَارُ الإسلامِ أولا ؟ وأُخْتَلَفَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي خَالِدٍ مَعَ شِدَّةِ اتِّفَاقِهِمَا ، فَأَمَّا الشَّعْرُ الَّذِي رَوَاهُ الْمُرْتَضَى لِلْمَلِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ فَهُوَ مَعْرُوفٌ إِلَّا الْبَيْتَ الْأَخِيرَ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ ، وَعَلَيْهِ عُمْدَةُ الْمُرْتَضَى فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَا ذَكَرَهُ بَعْدُ مِنْ قِصَّةِ الْقَوْمِ صَحِيحٌ كُلُّهُ مُطَابِقٌ لِمَا فِي التَّوَارِيخِ إِلَّا مُوَضِّعَاتٍ يَسِيرَةٍ :

مِنْهَا قَوْلُهُ : إِنَّ مَالِكَاً نَهَى قَوْمَهُ عَنِ الْاجْتِمَاعِ عَلَى مَنَعِ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَنْقُولٍ وَإِنَّمَا الْمَنْقُولُ أَنَّهُ نَهَى قَوْمَهُ عَنِ الْاجْتِمَاعِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَفَرَّقُوا فِي مِيَاهِهِمْ ؛ ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَلَمْ يَذْكُرْ نَهْيَهُ إِيَّاهُمْ عَنِ الْاجْتِمَاعِ عَلَى مَنَعِ الصَّدَقَةِ ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : إِنَّ مَالِكَاً تَرَدَّدَ فِي أَمْرِهِ : هَلْ يَحْمِلُ الصَّدَقَاتِ أَمْ لَا ؟ فَجَاءَهُ خَالِدٌ وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ سَبِيحٌ .

وَمِنْهَا أَنَّ الطَّبْرِيَّ ذَكَرَ أَنَّ ضِرَارَ بْنَ الْأَرْوَرِ قَتَلَ مَالِكَاً عَنْ غَيْرِ أَمْرِ خَالِدٍ ، وَأَنَّ خَالِدًا لَمَّا سَمِعَ الْوَاعِيَةَ خَرَجَ وَقَدْ فَرَّغُوا مِنْهُمْ ، فَقَالَ : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا أَصَابَهُ ؛ قَالَ الطَّبْرِيُّ : وَغَضِبَ أَبُو قَتَادَةَ لَذَلِكَ ، وَقَالَ لَخَالِدٍ : هَذَا عَمَلُكَ ! وَفَارَقَهُ وَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَأَخْبَرَهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى كَلَّمَهُ فِيهِ عُمَرُ ، فَلَمْ يَرْضَ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى خَالِدٍ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ حَتَّى قَدِمَ مَعَهُ الْمَدِينَةَ ^(١) .

وَمِنْهَا أَنَّ الطَّبْرِيَّ رَوَى أَنَّ خَالِدًا لَمَّا تَزَوَّجَ أُمَّ تَمِيمَ بِنْتَ الْمِنْهَالِ امْرَأَةَ مَالِكٍ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا وَتَرَكَهَا حَتَّى تَقْضَى طَهْرُهَا ، وَلَمْ يَذْكُرْ الْمُرْتَضَى ذَلِكَ . وَمِنْهَا أَنَّ الطَّبْرِيَّ رَوَى أَنَّ مَتَمِّمًا لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ طَلَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فِي سَبِيهِمْ ، فَكَتَبَ لَهُ بِرَدِّ السَّبْيِ ؛ وَالْمُرْتَضَى ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ إِلَّا فِي خِلَافَةِ عُمَرَ . فَأَمَّا قَوْلُ الْمُرْتَضَى : إِنَّ قَوْلَ مَتَمِّمٍ : لَوْ قَتَلَ أَخِي عَلَى مِثْلِ مَا قَتَلَ عَلَيْهِ أَخُوكَ لَمَّا رَأَيْتُهُ ،

لا يدلّ على رِدِّه ، فصحيح ، ولا رَيْبُ أَنَّهُ قَصَدَ تَقْرِيطَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَن يُرَضِيَ
عمرُ أخاه بذلك . ونعمًا قال المرتضى ! إِنَّ بَيْنَ الْقَتْلَتَيْنِ فَرْقًا ظَاهِرًا ، وإليه أشارَ متمم
لا محالة .

فأما قولُ مالك : صاحبك ، يعنى النبيَّ صلى الله عليه وآله ، فقد رَوَى هذه اللفظة
الطبريُّ في التاريخ ، قال : كان خالدٌ يَعْتَذِرُ عَنْ قَتْلِهِ ، فيقول : إِنَّهُ قَالَ لَهُ وَهُوَ يَرَاغِبُهُ :
مَا إِخَالُ صَاحِبِكُمْ إِلَّا قَالَ كَذَا وَكَذَا ، فقال له خالد : أَوْ مَا تَعِدُّهُ لَكَ صَاحِبًا^(١) ! وهذه
لعمري كلمةٌ جَافِيَةٌ ؛ وَإِنْ كَانَ لَهَا تَخْرُجُ فِي التَّأْوِيلِ ، إِلَّا أَنَّهُ مُسْتَكْرَهٌ ، وَقَرَأْتُ الْأَحْوَالَ
يَعْرِفُهَا مَنْ شَاهَدَهَا وَسَمِعَهَا ، فَإِذَا كَانَ خَالِدٌ قَدْ كَانَ يَعْتَذِرُ بِذَلِكَ ، فَقَدْ أُنْدَفَعَ قَوْلُ
المرتضى : هَلَّا عَتَذَرَ بِذَلِكَ ! وَلَسْتُ أُنْزِرُهُ خَالِدًا عَنِ الْخَطَا ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ جَبَّارًا فَاتِكًا
لَا يُرَاقِبُ الدِّينَ فِيمَا يَحْمِلُهُ عَلَيْهِ الْغَضَبُ وَهُوَ نَفْسِهِ ، وَلَقَدْ وَقَعَ مِنْهُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَعَ بَنِي جَذِيمَةَ بِالْغُمَيْصَاءِ أَعْظَمُ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُ فِي حَقِّ مَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ ،
وَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ أَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ مُدَّةً وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَذَلِكَ الْعَفْوُ
هُوَ الَّذِي أَطْمَعَهُ حَتَّى فَعَلَ بِبَنِي يَرْبُوعَ مَا فَعَلَ بِالْبُطَاحِ .

الطعن الثامن

قولهم : إِنَّ مِمَّا يُؤَثَّرُ فِي حَالِهِ وَحَالِ عَمَرٍ دَفَنَهُمَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي
بَيْتِهِ ، وَقَدْ مَنَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْكُلَّ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ حَيَاتِهِ - فكيف بعدَ المات - بقوله
تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾^(٢) .

أجاب قاضي القضاة بأنَّ الموضعَ كانَ مِلْكًا لعائشة ، وَهِيَ حُجْرَتُهَا الَّتِي كَانَتْ

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٨٠ . (٢) سورة الأحزاب ٥٣ .

معروفةً بها ، والحَجَرُ كُلُّهَا كانت أملاكاً لأزواج النبي صَلَّى الله عليه وآله ، وقد نطق القرآن بذلك في قوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ^(١) ، وذكر أن عمرَ استأذن عائشةَ في أن يُدفنَ في ذلك الموضع ، وحتى قال : إن لم تأذن لي فأدفنوني في البقيع ، وعلى هذا الوجه يُحمَل ما روى عن الحسن عليه السلام أنه لما مات أوصى أن يُدفنَ إلى جنب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ، وإن لم يترك في البقيع ، فلما كان من مروان وسعيد بن العاص ما كان دُفن بالبقيع . وإنما أوصى بذلك بإذن عائشة ؛ ويجوز أن يكون علم من عائشة أنها جمَلَت الموضعَ في حُكم الوقف ، فاستباحوا ذلك لهذا الوجه ؛ قال : وفي دَفْنه عليه السلام في ذلك الموضع ما يدل على فضل أبي بكر ؛ لأنه عليه السلام لما مات اختلفوا في موضع دَفْنه ؛ وكثُر القولُ حتى روى أبو بكر عنه صَلَّى الله عليه وآله أنه قال ما يدل على أن الأنبياء إذا ماتوا دُفِنوا حيث ماتوا ، فزال الخلافُ في ذلك ^(٢) .

اعترض المرتضى فقال : لا يخلو موضعُ قبر النبي صَلَّى الله عليه وآله من أن يكون باقياً على مأسكه عليه السلام ، أو يكون أُنْتَقِلَ في حياته إلى عائشة على ما ادَّعاه ؛ فإن كان الأول لم يخلُ أن يكون ميراثاً بعده أو صدقة ؛ فإن كان ميراثاً فما كان يَحِلُّ لأبي بكر ولا لعمر من بعده أن يأمرَا بدفنها فيه إلا بعد إرضاء الورثة الذين هم على مَذْهَبنا فاطمة وجماعةُ الأزواج ، وعلى مذهبهم هؤلاء والعبَّاس ، ولم نجد واحداً منهما خاطب أحداً من هؤلاء الورثة على ابتياع هذا المكان ولا استنزله عنه بضمن ولا غيره . وإن كان صدقة فقد كان يجب أن يُرضى عنه جماعةُ المسلمين ويبتاعه منهم ؛ هذا إن جاز الأبتياح لما يجري هذا المجرى ، وإن كان انتقل في حياته فقد كان يجب أن يظهر سبب انتقاله والحجة فيه ، فإن فاطمة عليها السلام لم يَقْنَع منها في انتقال فدك إلى ملكها بقولها ، ولا بشهادة من

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ . (٢) نقله المرتضى في الشافي ٤٢٤ .

تَشْهَدُهَا. فَأَمَّا تَعَلُّقُهُ بِإِضَافَةِ الْبُيُوتِ إِلَيْهِنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ فَمِنْ ضَعِيفِ الشُّبْهَةِ؛ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا فِيْمَا مَضَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّ هَذِهِ الْإِضَافَةَ لَا تَقْتَضِي الْمَلِكَ، وَإِنَّمَا تَقْتَضِي السَّكْنَى، وَالْعَادَةُ فِي اسْتِعْمَالِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِيْمَا ذَكَرْنَاهُ ظَاهِرَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾^(١)؛ وَلَمْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا حَيْثُ يَسْكُنْنَ وَيَنْزِلْنَ دُونَ حَيْثُ يَمْلِكُنَّ وَمِثْلَ شَبْهِهِ، وَأُظْهِرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: إِنَّ الْحَسَنَ عَلَيْهِ السَّلَامَ اسْتَأْذَنَ عَائِشَةَ فِي أَنْ يُدْفَنَ فِي الْبَيْتِ نَحْتِ مَنْعِهِ مَرْوَانَ وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ مَكَابِرَةٌ مِنْهُ ظَاهِرَةٌ، فَإِنَّ الْمَانِعَ لِلْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَائِشَةُ، وَلَعَلَّ مِنْ ذِكْرِهِ مِنْ مَرْوَانَ وَسَعِيدَ وَغَيْرِهِمَا أَعَانَهَا وَاتَّبَعَ فِي ذَلِكَ أَمْرَهَا، وَرَوَى أَنَّهَا خَرَجَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ عَلَى بَغْلٍ حَتَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَوْمًا عَلَى بَغْلٍ وَيَوْمًا عَلَى جَمَلٍ! فَكَيْفَ تَأْذَنُ عَائِشَةُ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ مَالِكَةٌ الْمَوْضِعَ عَلَى قَوْلِهِمْ، وَيَمْنَعُ مِنْهُ مَرْوَانَ وَغَيْرَهُ مِمَّنْ لَا مَلِكَ لَهُ فِي الْمَوْضِعِ وَلَا شَرِكَةَ وَلَا يَدًا! وَهَذَا مِنْ قَبِيحِ^(٢) مَا يَرْتَكِبُ. وَأَيُّ فَضْلٍ لِأَبِي بَكْرٍ فِي رَوَايَتِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَدِيثَ الدَّفْنِ! وَعَمَلِهِمْ يَقُولُهُ إِنَّ صَحَّ فَمِنْ مَذْهَبِ صَاحِبِ الْكِتَابِ وَأَصْحَابِهِ الْعَمَلُ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ الْعَدْلُ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ الْعَظِيمَةِ، فَكَيْفَ لَا يَعْمَلُ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ فِي الدَّفْنِ وَهُمْ يَعْمَلُونَ بِقَوْلِ مَنْ هُوَ دُونَهُ فِيْمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ^(٣)!

قُلْتُ: أَمَّا أَبُو بَكْرٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ بِدَفْنِهِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَمٌّ؛ لِأَنَّهُ مَا دَفَّنَ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا دَفَنَهُ النَّاسُ وَهُوَ مَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ خَطَأً فَالْإِثْمُ وَالذَّمُّ لِأَحْقَانِ عَمَّنْ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ بَأَنَّهُ أَوْصَى أَنْ يُدْفَنَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّمَا قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَوَجَّهَ هَذَا الطَّمَنُ إِلَى عَمْرِ، لِأَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ أَنْ يُدْفَنَ فِي الْحُجْرَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَبِي بَكْرٍ. وَالْقَوْلُ عِنْدِي مُشْتَبِهٌ فِي أَمْرِ حُجْرَةِ الْأَزْوَاجِ:

(١) سورة الطلاق ١ . (٢) الشافعي: «أفح» . (٣) الشافعي ٤٢٤ .

هل كانت على ملك رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن تُوفِّي، أم ملكها نساؤه؟ والذي تنطق به التواريخ أنه لما خرج من قباء ودخل المدينة وسكن منزل أبي أيوب، اختط المسجد واختط حُجْر نساءه وبناته، وهذا يدل على أنه كان المالك للمواضع، وأما خروجها عن ملكه إلى الأزواج والبنات فمما لم أقف عليه. ويجوز أن تكون الصحابة قد فهمت من قرائن الأحوال ومما شاهدوه منه عليه السلام؛ أنه قد أقر كل بيت منها في يد زوجة من الزوجات على سبيل الهبة والعطية، وإن لم يُنقل عنه في ذلك صيغة لفظ مُعَيَّن، والقول في بيت فاطمة عليها السلام كذلك، لأن فاطمة عليها السلام لم تكن تملك مالا، وعلى عليه السلام بملها كان فقيراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى إنه كان يستقي الماء ليهود بيده، يسقي بسايتينهم لقوت يدفعونه إليه، فمن أين كان له ما يتناع به حُجرة يسكن فيها هو وزوجته^(١)! والقول في كثير من الزوجات كذلك أنهن كن فقيرات مذقات، نحو صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث، وميمونة، وغيرهن، فلا وجه يُمكن أن يملك منه هؤلاء النسوة والبنت الحُجْر؛ إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وهبها لهن؛ هذا إن ثبت أنها خرجت عن ملكيته عليه السلام، وإلا فهي باقية على ملكيته باستصحاب الحال. والقول في حُجرة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك، لأنه أقدمها من مكة مفارقة لبعليها أبي العاص بن الربيع، فأسكنها بالمدينة في حُجرة منفردة خالية عن بعل، فلا بد أن تكون تلك الحُجرة بمقتضى ما يتغلب على الظن ملكاً له عليه السلام، فيُستدام الحكم بملكها لها إلى أن نجد دليلاً ينقلنا عن ذلك. وأما رقية وأم كلثوم زوجتا عثمان، فإن كان مُثرياً ذامالاً فيجوز أن يكون أبتاع حُجرة سكنت فيها الأولى منهما، ثم الثانيةُ بملها.

(١) ب: « زوجة » .

فأما احتجاج قاضي القضاة بقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ؛ فاعتراض المرتضى عليه قوياً ، لأن هذه الإضافة إنما تقتضى التخصيص فقط لا التملك ، كما قال : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾^(١) ؛ ويجوز أن يكون أبو بكر لما روى قوله : « نحن لا نؤذ » ترك الحَجَرَ في أيدي الزوجات والبت على سبيل الإقطاع لمن لا التملك ، أى أبا جهن السكني لا التصرف في رقاب الأرض والأبنية والآلات ، لما رأى في ذلك من المصلحة ، ولأنه كان من التهجّن القبيح إخراجهن من البيوت ، وليس كذلك فذلك ؛ فإنها قرية كبيرة ذات نخل كثير خارجة عن المدينة ، ولم تكن فاطمة متصرفة فيها من قبل نفسها ولا بوكيلها ، ولا رأتهما قط ، فلا تشبه حالها حال الحَجَر . وأيضاً لإباحة هذه الحَجَر وبزارة أثمانهن ، فإنها كانت مبنية من طين قصيرة الجدران ، فلعل أبا بكر والسحابة استحققروها ، فأقرّوا النساء فيها وعوضوا المسامين عنها بالشئ اليسير مما يقتضى الحساب أن يكون من سهم الأزواج والبت عند قسمة الفء .

وأما القول في الحسن وما جرى من عائشة وبني أمية فقد تقدم ؛ ولذلك القول في الخبر المروي في دفن الرسول صلى الله عليه وآله ، فكان أبو المظفر هبة الله بن الموسوي صدر الخزن المعمور ، كان في أيام الناصر لدين الله إذا حادثته حديث وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ورواية أبي بكر ما رواه من قوله عليه السلام : « الأنبياء يُدفنون حيث يموتون » ، يحلف أن أبا بكر اقتل هذا الحديث في الحال والوقت ، ليدفن النبي صلى الله عليه وآله في حجرة ابنته ، ثم يدفن هو معه عند موته ، علماً منه أنه لم يبق من عمره إلا مثل ظم^(٢) الحمار ، وأنه إذا دفن النبي صلى الله عليه وآله في حجرة ابنته فإن ابنته تدفنه لا محالة في حجرتها عند بعلها ، وأن دفن النبي صلى الله عليه وآله في موضع

(١) سورة الطلاق ١

(٢) يقال : ما بقي منه إلا ظم الحمار ؛ أى شئ يسير لأنه ليس شئ أوفر طمناً منه .

آخرَ فرّجاً لا يتبيّأ له أن يُدفنَ عنده ، فرأى أن هذا الفوزَ بهذا الشرف العظيم ، وهذا المكان الجليل ، ممّا لا يقتضى حسن التدبير فوته ، وإن انتهاز الفرصة فيه واجب ، فرَوَى لهم الخبرَ ، فلا يمكنهم بعدَ روايته ألا يعملوا به ، لاسيّما وقد صار هو الخليفة ، وإليه السلطان والنفع والضرر ، وأدرك ما كان في نفسه ، ثمّ نسجَ عمرُ على منواله ، فرغِبَ إلى عائشةَ في مثل ذلك ، وقد كان يُكرّمها ويقدمُها على سائر الزّوجات في العطاء وغيره ، فأجابته إلى ذلك ، وكان مُطاعاً في حياته وبعد مماته ، وكان يقول : وعجباً للحسن وطمعه في أن يُدفنَ في حُجرة عائشة ! والله لو كان أبوه الخليفةَ يومئذ لما تهيّأ له ذلك ، ولاتمّ لبُغض عائشةَ لهم ، وحسد الناس إياهم ، وتماؤبُ بني أميّة وغيرهم من قريش عليهم ! ولهذا قالوا : يُدفنَ عثمانُ في حَشٍّ كوكب^(١) ، ويُدفنَ الحسنُ في حُجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فكيف والخليفةُ معاويةُ والأمراء بالمدينة بنو أميّة ، وعائشةُ صاحبةُ الموضع ، والناصرُ لبني هاشم قليل ، والشانئُ كثير . وأنا أستغفر الله ممّا كان أبوالمظفر يَحْلِفُ عليه ، وأعلم وأظنّ ظناً شبيهاً بالعلم أن أبا بكر ما رَوَى إلّا ما سَمِعَ ، وأنّه كان أتقَى الله من ذلك .

الظعن التاسع

قولهم : إنّه نصّ على عمرَ بالخلافة ؛ نخالف رسول الله صلّى الله عليه وآله على زَعْمِهِ ، لأنّه كان يزعمُ هو ومن قال بقوله أن رسولَ الله صلّى الله عليه وآله لم يستخلف .

(١) حش كوكب : موضع بالمدينة .

والجواب أن كونه لم يستخاف لا يدلّ على تحريم الاستخلاف ، كما أنه من لم يركب الفيل لا يدلّ على تحريم ركوب الفيل . فإن قالوا : ركوب الفيل فيه منفعة ولا مضرة فيه ولم يردّ نصّ بتحريمه ، فوجب أن يحسن . قيل لهم : والاستخلاف مصلحة ، ولا مضرة فيه ؛ وقد أجمع المسلمون أنه طريق إلى الإمامة ، فوجب كونه طريقاً إليها ، وقد روى عن عمر أنه قال : إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني رسول الله صلى الله عليه وآله . فأما الاجتماع المشار إليه فهو أن الصحابة أجمعوا على أن عمر إمام بنصّ أبي بكر عليه ، وأنفذوا أحكامه ، وانقادوا إليه لأجل نصّ أبي بكر لا شيء سواه ، فلو لم يكن ذلك طريقاً إلى الإمامة لما أطبقوا عليه . وقد اختلف الشيخان أبو عليّ وأبو هاشم في أن نصّ الإمام على إمام بعده : هل يكفي في انعقاد إمامته ؟ فقال أبو عليّ : لا يكفي ، بل لابدّ من أن يرضى به أربعة حتى يجرى عهده إليه مجرى عقد الواحد برضا أربعة ؛ فإذا فارقه رضا أربعة سار بذلك إماماً ، ويقول فيبيعة عمر : إن أبا بكر أحضر جماعة من الصحابة لما نصّ عليه ، ورجع إلى رضاهم بذلك ، وقال أبو هاشم : بل يكفي نصّه عليه ، ولا يراعى في ذلك رضا غيره به ، ولو ثبت أن أبا بكر فعله لكان على طريق التبعية للنصّ ، لا أنه يؤثر في إمامته مع العهد ؛ ولعل أبا بكر إن كان فعل ذلك فقد استطاب به نفوسهم ، ولهذا لم يؤثر فيه كراهية ملحة حين قال : ولّيت علينا فظاً غليظاً . وبين ذلك أنه لم ينقل استئذان المقدّم من الصحابة لعمر بعد موت أبي بكر ولا اجتماع جماعة لعقد البيعة له ، والرضا به ، فدالّ على أنهم أكتفوا بمهد أبي بكر إليه .

الطعن العاشر

قولهم : إنه سُمّي نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لاستخلافه إياه بعد موته ، مع اعترافه أنه لم يستخلفه .

والجواب أن الصحابة سمّته خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته ، والاستخلاف على الصلاة عند الموت له منزلة على الاستخلاف على الصلاة حال الحياة ، لأن حال الموت هي الحال التي تكون فيها العهد والوصايا وما يهتم به الإنسان من أمور الدنيا والدين ، لأنها حال المفارقة . وأيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله ما استخلف أحدا على الصلاة بالمدينة وهو حاضر ، وإنما كان يستخلف على الصلاة قوما أيام غييبته عن المدينة ، فلم يحصل الاستخلاف المطلق على الصلاة بالناس كلهم ، وهو صلى الله عليه وآله حاضر بين الناس حتى إلا لأبي بكر ، وهذه منزهة ظاهرة على سائر الاستخلافات في أمر الصلاة ، فلذلك سمّوه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله . وبعد ، فإذا ثبت أن الإجماع على كون الاختيار طريقا^(١) إلى الإمامة وحجة ، وثبت أن قوما من أفاضل الصحابة اختاروه للخلافة ، فقد ثبت أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لا فرق بين أن ينصّ الرسول صلى الله عليه وآله على شخص معين ، وبين أن يشير إلى قوم فيقول : من اختار هؤلاء القوم فهو الإمام ؛ في أن كل واحد منهما يصح أن يُطلق عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله^(٢) .

(١) : « سبيلا » .

الطعن الحادى عشر

قولهم : إنه حرق الفُجاءة السُّلَمِيَّ بالنار ، وقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وآله أن يُحرق أحد بالنار .

والجواب أن الفُجاءة جاء إلى أبي بكر كما ذكر أصحابُ التواريخ فطلب منه سلاحاً يتقوى به على الجهاد في أهل الردّة ، فأعطاه ، فلما خرج قطع الطريق ونهب أموال المسلمين وأهل الردّة جميعاً ، وقتل كلَّ من وَجَدَ ، كما فعلت الخوارجُ حيث خرجتْ ، فلما ظفّر به أبو بكر رأى حَرَقَه بالنار إرهاباً لأمثاله من أهل الفساد ، ويجوز للإمام أن يخصّ النصّ العام بالقياس الجليّ عندنا^(١) .

الطعن الثانى عشر

قولهم : إنه تكلم في الصلاة قبل التسليم ، فقال : لا يفعلنّ خالد ما أمرته ؛ قالوا : ولذلك جازَ عند أبي حنيفة أن يخرج الإنسانُ من الصلاة بالكلام وغيره من مفسدات الصلاة من دون تسليم ، وبهذا احتجّ أبو حنيفة .

والجواب أن هذا من الأخبار التي تتفرّد بها الإمامية ، ولم تثبت ؛ وأما أبو حنيفة فلم يذهب إلى ما ذهب إليه لأجل هذا الحديث ، وإنما احتجّ بأن التسليم خطاب آدميٍّ ، وليس هو من الصلاة وأذكرها ، ولا من أركانها ، بل هو ضدّها ، ولذلك يبطلها قبل التمام ، ولذلك لا يسلمُ المسبوق تبعاً لسلام الإمام ، بل يقوم من غير تسليم ؛ فدلّ على أنه ضدّ للصلاة وجميع الأضداد بالنسبة إلى رَفْعِ الضدِّ على وتيرة واحدة ، ولذلك استوى السكّل في

(١) الجلى : الواضح .

الإبطال قبل التمام ، فيستوى الكلّ في الانتهاء بعد التمام . وما يذكره القوم من سبب كلام أبي بكر في الصلاة أمرٌ بعيد ، ولو كان أبو بكر يريد ذلك لأمر خالدا أن يفعل ذلك الفعل بالشخص المعروف وهو نائم ليلاً في بيته ، ولا يعلم أحد من المفاعل .

الطعن الثالث عشر

قولهم : إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو على الشام يأمره أن يقتل سعد بن عبادة ، فكمن له هو وآخر معه ليلاً ، فلما مرّ بهما رمياه فقتلاه ، وهتف صاحبُ خالد في ظلام الليل بعد أن ألقيا سعدا في بئر هناك فيها ماء يبيتين :

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم تُخطِ فؤاده

يوهم أنّ ذلك شعر الجنّ ، وأنّ الجنّ قتلت سعدا ، فلما أصبح الناس فقدوا سعدا ، وقد سمع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه ، فوجدوه بعد ثلاثة أيام في تلك البئر ، وقد اخضرّ ، فقالوا : هذا ميسيس الجنّ ؛ وقال شيطانُ الطاق لسائل سأله : ما منع عليا أن يُخاصم أبا بكر في الخلافة ؟ فقال : يا بن أخى ، خاف أن تقتله الجنّ .

والجواب ، أما أنا فلا أعتقد أنّ الجنّ قتلت سعدا ، ولأنّ هذا شعرُ الجنّ ، ولا أرتاب أن البشر قتلوه ، وأنّ هذا الشعر شعر البشر ، ولكن لم يثبت عندي أن أبا بكر أمر خالدا ، ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه ليرضى بذلك أبا بكر - وحاشاه - فيكون الإثم على

خالد ، وأبو بكر برىء من إثمه ؛ وما ذلك من أفعال خالد يبعيد .

الطعن الرابع عشر

قوْلهم : إنه لما اُسْتُخْلِفَ قَطَعَ لنفسه على بيت المال أَجْرَةً كلَّ يوم ثلاثة دراهم ، قالوا : وذلك لا يجوز ، لأنَّ مَصَارِفَ أموال بيت المسلمين لم يُذَكَّر فيها أَجْرَةٌ للإمام .
والجواب أنه تعالى جَعَلَ في جملة مصرف أموال الصَّدَقَاتِ العاملين عليها ، وأبو بكر من العاملين . وأعلم أن الإمامية لو أنصفت لرأت أن هذا الطعن بأن يكون من مناقب أبي بكر أولى من أن يكون من مساويه ^(١) ومثاليه ، ولكنَّ العَصْبِيَّةَ لا حيلة فيها .

الطعن الخامس عشر

قوْلهم : إنه لما اُسْتُخْلِفَ صَرَخَ مناديه في المدينة : من كان عنده شيء من كلام الله فليأتنا به ؛ فإننا عازمون على سَجْعِ القرآن ، ولا يأتنا بشيء منه إلا ومعه شاهداً عدل ؛ قالوا : وهذا خطأ ، لأنَّ القرآن قد بان بفصاحته عن فصاحة البشر ، فأى حاجة إلى شاهد عدل !
والجواب ، أن المرتضى ومن تابعه من الشيعة لا يصحَّ لهم هذا الطعن ؛ لأنَّ القرآن عندهم ليس مُعْجِزاً بفصاحته ، على أن من جعل معجزته للفصاحة لم يقل : إنَّ كلَّ آية من القرآن هي مُعْجِزَةٌ في الفصاحة ، وأبو بكر إنَّما طَلَبَ كلَّ آية من القرآن لا السَّوْرَةَ بتمامها وكلِّها التي يتحقَّقُ الإعجاز من طريق الفصاحة فيها . وأيضاً فإنَّه لو أحضر إنسان آية أو آيتين ولم يكن معه شاهد ، فربَّما تَخْتَلَفَ العربُ : هل هذه في الفصاحة بالغة

(١) : « عيوبه » .

مبلغ الإعجاز الكلي ، أم هي ثابتة من كلام العرب بثبوتها ؛ غير بالغة إلى حد الإعجاز ؟
فكان يلتبس الأمر ويقع النزاع ، فاستظهر أبو بكر بطلب الشهود تأكيداً ، لأنه إذا
انضمت الشهادة إلى الفصاحة الظاهرة ثبت أن ذلك الكلام من القرآن .

الأنضد :

ومن هذا الكتاب :

إِنِّي وَاللَّهِ لَوَ لَقَيْتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طَلَعُ الْأَرْضِ كُنَاهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا اسْتَوْحَشْتُ ؛
وَإِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ ، وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلِّي بَصِيرَةٌ مِنْ نَفْسِي ،
وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي . وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ لَمُشْتَاقٌ ، وَلِيَحْسَنَ تَوَابِي لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ ؛
وَلَكِنِّي أَسَى أَنْ يَلِيَ هَذِهِ الْأُمَّةَ سُفَهَاوُهَا وَفُجَارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ دُولًا ،
وَعِبَادَهُ خَوَلًا ، وَالصَّالِحِينَ حَرْبًا ، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبًا ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ الَّذِي شَرِبَ فِيكُمْ
الْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدًّا فِي الْإِسْلَامِ . وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ
عَلَى الْإِسْلَامِ الرِّضَاخُ ؛ فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيْبَكُمْ وَتَأْيِيْبَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ
وَتَحْرِيبَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذَا أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدْ انْتَفَصَتْ ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدْ افْتُتِحَتْ ، وَإِلَى
مَمَالِكِكُمْ تَزُورِي ، وَإِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزِي !

انْفِرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَشَافَلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَتَقِرُّوا
بِالْخَسْفِ ، وَنَبُؤُوا بِالذِّلِّ ، وَيَكُونْ نَصِيْبُكُمْ الْأَخْسَرُ ؛ وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُّ
وَمَنْ نَأَمَ لَمْ يَنْمَ عَنْهُ ؛ وَالسَّلَامُ .

الْبَيْتُ :

طَلَعَ الْأَرْضُ : مَلُوْهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرُ : لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ
مَنْ هَوَلَ الْمُطَّلَعُ .

وَأَسَى : أَحْزَنَ .

وَأَكْثَرُ تَأْلِيْبِكُمْ : تَحْرِيسُكُمْ وَإِغْرَاءُكُمْ بِهِ . وَالتَّائِبُ : أَشَدُّ اللَّوْمِ .

وَوَيْتُمْ : ضَعُفْتُمْ وَفَقَرْتُمْ . وَمَمَالِكُكُمْ تَزَوَى ، أَيْ تُقْبَضُ .

وَلَا تَتَّاقِلُوا ، بِالتَّشْدِيدِ ، أَصْلُهُ « تَتَّاقِلُوا » . وَتَقَرَّوْا بِالْخُسْفِ : تَعْتَرَفُوا بِالضَّيْمِ
وَتَصَبَّرُوا لَهُ . وَتَبَوَّءُوا بِالذَّلِّ : تَرَجَعُوا بِهِ . وَالْأَرَقُ : الَّذِي لَا يَنَامُ . وَمِثْلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ

السَّلَامُ : « مَنْ نَامَ لَمْ يُنَمِّ عَنْهُ » قَوْلُ الشَّاعِرِ :

لِلَّهِ دَرَكٌ مَا أَرَدْتَ بِشَائِرٍ حَرَّازٍ لَيْسَ عَنِ التَّرَاتِ بِرَاقِدٍ^(١)

أَسْهَرَتْهُ ثُمَّ اضْطَجَعَتْ وَلَمْ يَنْمِ حَقَقًا عَلَيْكَ وَكَيْفَ نَوْمُ الْحَاقِدِ !

فَأَمَّا الَّذِي رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ الرِّضَاخُ ، فَمَعَاوِيَةُ ؛ وَالرِّضِيخَةُ : شَيْءٌ قَلِيلٌ يُعْطَاهُ
الْإِنْسَانُ يُصَانَعُ بِهِ عَنْ شَيْءٍ^(٢) يُطْلَبُ مِنْهُ كَالْأَجْرِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمُ الَّذِينَ
رَغِبُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ بِحِمَالٍ وَشَاءَ دُفِعَتْ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ قَوْمٌ مَعْرُوفُونَ كَمَعَاوِيَةَ وَأَخِيهِ
يَزِيدَ ، وَأَبِيهِمَا أَبِي سُفْيَانَ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ
ابْنُ الْغَيْرَةِ ، وَخُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْمُزَيِّ ، وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ،
وَعُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ الْجُمَحِيُّ ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، وَعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ
وغيرهم . وَكَانَ إِسْلَامُ هَؤُلَاءِ لِلطَّمَعِ وَالْأَغْرَاضِ الدُّنْيَاوِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ عَنْ أَصْلٍ وَلَا عَنْ
يَقِينٍ وَعِلْمٍ .

(١) الترات : جمع ترة ؛ وهي الأخذ بالتأثر . (٢) في د « أمر » .

وقال الراوندى: عَنِ بقوله: «رَضِخَتْ لَهُمُ الرَضَاخُ» عَمَرَو بْنَ الْعَاصِ، وليس بصحيح، لأنَّ عمرا لم يُسَلِّمْ بعد الفَتْحِ، وأصحاب الرضَاخِ كلُّهم أسَلَمُوا بعد الفَتْحِ، صُوْنُوا عَلَى الْإِسْلَامِ بِنِائِمْ حُنَيْنٍ. وَلَعَمْرِي إِنْ إِسْلَامَ عَمَرُو كَانَ مَدْخُولًا أَيْضًا؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ رَضِخَةٍ، وَإِنَّمَا كَانَ لِمَعْنَى آخَرٍ. فَأَمَّا الَّذِي شَرِبَ الْحَرَامَ، وَجُلِدَ فِي حَدِّ الْإِسْلَامِ، فَقَدْ قَالَ الرَّائِدِيُّ: هُوَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَأَخْطَأَ فِيهِمَا قَالَ، لِأَنَّ الْمَغِيرَةَ إِنَّمَا اتُّهِمَ بِالزَّنا وَلَمْ يُحَدِّثْ وَلَمْ يَجِرْ لِلْمَغِيرَةِ ذِكْرٌ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ خَبَرُ الْمَغِيرَةِ مُسْتَوْفًى، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَغِيرَةَ لَمْ يَشْهَدْ صِفَتَيْنِ مَعَ مَعَاوِيَةَ وَلَا مَعَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا لِلرَّائِدِيِّ وَلِهَذَا! إِنَّمَا يَعْرِفُ هَذَا الْفَنُّ أَرْبَابَهُ. وَالَّذِي عَنَاهُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَبْلَغَهُمْ تَحْرِيسًا لِمَعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ عَلَى حَرْبِهِ.

[أَخْبَارُ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ]

وَنَحْنُ نَذْكُرُ خَبَرَ الْوَلِيدِ وَشُرْبَهُ الْخَمْرَ مَذْكُولًا مِنْ كِتَابِ «الْأَغَانِي» لِأَبِي الْفَرَجِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْأَصْفَهَانِيِّ؛ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ: كَانَ سَبَبُ إِمَارَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ الْكُوفَةِ لِعُمَانَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَوْهَرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ شُبَّةٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ حَكِيمٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ سَمِيدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَمِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ يَجْلِسُ مَعَ عُثْمَانَ عَلَى سَرِيرِهِ إِلَّا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَالْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ، وَلَمْ يَكُنْ سَرِيرُهُ يَسَعُ إِلَّا عُثْمَانَ وَوَاحِدًا مِنْهُمْ، فَأَقْبَلَ الْوَلِيدُ يَوْمًا فَجَلَسَ، فَجَاءَ الْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ فَأَوْمَأَ عُثْمَانُ إِلَى الْوَلِيدِ، فَزَحَلَ لَهُ عَنْ مَجْلِسِهِ، فَلَمَّا قَامَ الْحَكَمُ قَالَ الْوَلِيدُ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ تَلَجَّلَجَجَ فِي صَدْرِي بَيْنَاقِ قَلْبُهُمَا حِينَ رَأَيْتُكَ آثَرْتَ ابْنَ عَمَّتِكَ عَلَى ابْنِ أُمِّكَ - وَكَانَ الْحَكَمُ عَمَّ عُثْمَانَ، وَالْوَلِيدُ أَخَاهُ

لأُمّه - فقال عثمان : إن الحَكَمَ شيخُ قريش ؛ فما البيتان ؟ فقال :
 رأيتُ لعمِّ المرءِ زُلْفَى قِرابَةٍ دُوَيْنَ أَخِيهِ حَدَثًا لم يكن قَدَمًا
 فأملتُ عمرا أن يَشِبَّ وخالدا لكي يَدْعُواني يَوْمَ نائِبَةِ عَمَّا
 يعنى عمراً وخالداً أبنَى عثمان . قال : فرق له عثمان وقال : قد وليتكَ الكوفة ،
 فأخْرَجَه إليها ^(١) .

قال أبو الفَرَجِ : وأخْبَرَني أحمدُ بنُ عبد العزيز ، قال : حدَّثني عمرُ بنُ شُبّة ، قال : حدَّثني
 بعضُ أصحابنا ، عن ابنِ ^(٢) دَأْب قال : لَمَّا وَلِيَ عثمانُ الوليدَ بنَ عقبة الكوفة قَدِمَها
 وعليها سعدُ بنُ أبي وقاص ، فأخْبِرَ بِقُدُومِهِ ولم يَعْلَمْ أَنَّهُ قد أُمِّرَ ، فقال : وما صنع ؟ قالوا :
 وَقَفَ في السُّوقِ فهو يحدِّثُ الناسَ هناك ، ولسنا ننكر شيئاً من أمرِهِ ، فلم يَلْبَثْ أن جاءه
 نصفُ النهار ، فاستأذن على سعد ، فأذِنَ له ، فسَلَّمَ عليه بالإمْرَةِ ، وجلس معه ، فقال له
 سعد : ما أقدَمَكَ يا أبا وهب ؟ قال : أَحْبَبْتُ زيارَتَكَ ؛ قال : وعلى ذاك ، أَجِئْتُ بِريدا ؟ قال :
 أنا أَرزَنُ من ذلك ، ولكنَّ القومَ أحتاجوا إلى عملهم فسرَّحوني إليه ، وقد أَسْتَعْمَلَنِي
 أميرُ المؤمنين على الكوفة . فسَكَتَ سعدٌ طويلاً ، ثم قال : لا والله ما أَدْرِي أَصْلَحْتَ بَعْدَنا
 أم فَسَدَنا بَعْدَكَ ! ثم قال :

يَكِينِي وَجُرَيْبِي ضَباعُ وَأَبْشَرِي بَلَحْمُ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدَ اليَوْمَ ناصِرُهُ
 فقال الوليد : أما والله لَأَنَا أَقُولُ للشَّعْرِ منك ، وأروى له ، ولوشئتُ لأَجِبْتُكَ ، ولكنِّي
 أَدْعُ ذاكَ لما تَعَلَّم . نَعَمْ والله لقد أُمِرْتُ بِمَحاسِبَتِكَ ، والنَّظَرِ في أَمْرِ عَمَّاك . ثمَّ بعثَ إلى
 عَمَّا سعد فحَبَسَهُم وَضَيَّقَ عَلَيْهِم ، فكَتَبُوا إلى سعد يستغيثون به ، فكَلَّمَهُ فِيهِمْ فقال له :
 أوَّ للمعروف عندك مَوْضِع ؟ قال : نعم ، نُخَلِّي سَبِيلَهُم ^(٣) .

(١) الأغاني ٤ : ١٧٤ (سأسى) . وفي د « فأخرج » .

(٢) في د « عن زاذان » .

(٣) الأغاني ٤ : ١٧٥ ، ١٧٦ (سأسى) .

قال أحمد^(١) : وحدّثني عمرُ ، عن أبي بكر الباهليّ ، عن هُشيمٍ ، عن العوامِ ابنِ حَوْشَب . قال : لما قدم الوليدُ على سعد قال له سعد : والله ما أدري كَسَتْ بعدنا أم حقنا بعدك ! فقال : لا تجزَعَنَّ يا أبا إسحاق ، فإنه المُلكُ يتعدّاه قوم ويتعشاه آخرون . فقال سعد : أراكم والله ستجعلونه مُلكاً^(٢) .

قال أبو الفرج : وحدّثنا أحمد قال : حدّثني عمر قال : حدّثني هارون بنُ معروف ، عن ضَمْرَةَ بن ربيعة ، عن ابنِ شَوْذَب قال : صَلَّى الوليدُ بأهل الكوفة الغداة أَرْبَعَ رَكَعَات ، ثم التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ فقال عبدُ الله بنُ مسعود : ما زِلْنَا معك في زيادةٍ منذ اليوم^(٣) .

. قال أبو الفرج : وحدّثني أحمد قال : حدّثنا عمر ، قال : حدّثنا محمد بنُ مُحمّد ، قال : حدّثنا جَرِيرٌ ، عن الأجلح ، عن الشَّعْبِيّ قال : قال الحُطَيْيئةُ يذكر الوليد :
شهد الحُطَيْيئةُ يوم يلقى ربّه أَنَّ الوليدَ أحقُّ بالغَدْرِ^(٤)
نادى وقد نَمَتْ صلاتُهم أَأَزِيدُكُمْ - سُكْرًا - ولم يَدْرِ^(٥)
فأَبَوْا أبا وَهْبٍ ولو أَذِنُوا لَقَرَنْتَ بين الشَّفْعِ والْوَتْرِ^(٦)
كفّوا عنانَكَ إذ جَرَيْتَ ولو تَرَكَوا عنانَكَ لم تَزَلْ تَجْرِي^(٧)

(١) هو أحمد بن عبد العزيز الجوهري .

(٢) الأغاني ٤ : ١٧٦ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٧٦ . (٤) الأغاني ٤ : ١٧٦ وفي د « حين يذكر ربه » .

(٥) الديوان : « أزيدكم ثَملاً » .

(٦) الديوان . « ليزيدهم خيراً ولو قبلوا » .

(٧) الديوان : « خلعوا عنانك » ؛ وبعده :

ورأوا شمائلَ ماجدٍ أنِفٍ يعطى على اليسور والعُسْرِ
قرّعت مكدوباً عليك ولم تُردّد إلى عُذْرِ وَلَا فقيرٍ

وقال الحطيئة أيضاً :

تكلّم في الصلاة وزادَ فيها علائنةً وأعلنَ بالنِّفاقِ^(١)
ومَجَّ الحمرَ في سَنَنِ المصلّي ونادى والجميعُ إلى افتراقِ
أزِيدُكمُ على أنْ تحمدوني فالكمُ ومالي منْ خَلْقٍ!^(٢)

قال أبو الفرج : وأخبرنا محمد بنُ خلفٍ وكيع قال : حدّثنا حمّاد بن إسحاق ، قال : حدّثني أبي قال : قال أبو عُبَيْدة وهشامُ بنُ الكلبيّ والأصمعيّ : كان الوليدُ زانياً يَشْرَبُ الخمرَ ، فَشَرِبَ بالكوفةَ وقام ليصليَ بهم الصبحَ في المسجد الجامع ، فصلّى بهم أربعَ رَكَعاتٍ ثم التفت إليهم فقال : أزِيدُكمُ ؟ وتقيّاً في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصَّلَاة :

عَلِقَ القلبُ الرَّبَّابَا بعد ما شابتْ وشابَا

فَشَخَّصَ أَهْلُ الكوفةِ إلى عثمان فأخبروه بخبره ، وشَهِدُوا عليه بِشُرْبِ الخمرِ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَأَمَرَ رجلاً من المسلمين أن يَضْرِبَهُ الحَدَّ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ قال : نَشَدْتُكَ اللَّهُ وقرابتي من أمير المؤمنين ! فَتَرَكَهُ ، نَحَافَ عَلِيّ بن أبي طالب عليه السلام أن يُعْطَلَ الحَدَّ ، فقام إليه لِحَدِّهِ بِيَدِهِ ، فقال الوليد : نَشَدْتُكَ اللَّهُ والقرابة ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : اسْكُتْ أَبَا وَهْبَ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ بنو إسرائيلَ لَتَعْطِيلِهِمُ الحُدُودَ ؛ فَلَمَّا ضَرَبَهُ وَفَرَّغَ مِنْهُ قال : لتدعوني قريش بعدها جَلَّاداً . قال إسحاق : وحدثني مصعبُ بنُ الزَّيْبِرِ قال : قال الوليدُ بعد ما شَهِدُوا عليه فجلد : اللهم إنهم قد شهدوا عليّ بزُورٍ ، فلا تُرْضِهِمْ عن أميرٍ ، ولا تُرْضِ عَنْهُمْ أميراً ، قال : وقد عكس الحطيئةُ آياته فجعلها مدحاً للوليد :

شَهِدَ الحطيئةُ حين يلقى رَبَّهُ أنَّ الوليدَ أَحَقُّ بِالْعُدْرِ

(١) ملحق ديوانه ١١٩ ، وفيه : « وجاهر بالنفاق » .

(٢) الأغاني ٤ : ١٧٦ .

كَفَّوْا عَنَّا نَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكَوْا عَنَّا نَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي
وَرَأَوْا شَمَائِلَ مَا جَدِ أَنْفٍ يُغْطِي عَلَى الْمَيْسُورِ وَالْعُسْرِ
فَنَزَعْتَ مَكْذُوبًا عَلَيْكَ وَلَمْ تُنْزِعْ عَلَى طَمَعٍ وَلَا ذُعْرٍ^(١)
قال أبو الفرج : ونسختُ من كتاب هارون بن الرّباب بخطّه ، عن عمر بن شُبّة ؛
قال : شهد رجلٌ عند أبي العجاج - وكان على قضاء البصرة - على رجل من المَعِيطِينَ
بشهادة ، وكان الشاهد سكران ، فقال المشهود عليه ، وهو المَعِيطِيّ : أعزّك الله أيّها
القاضي ، إنّه لا يُحْسِنُ مِنَ السُّكْرِ أَنْ يَقْرَأَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ، فقال الشاهد : بلى أحسن ،
قال : فاقراً ، فقال :

عَلِقَ الْقَلْبُ الرِّبَابَا بَعْدَ مَا شَابَتْ وَشَابَا

يَمَجُنُّ^(٢) بذلك ، وَيَحْكِي مَا قَالَهُ الْوَلِيدُ فِي الصَّلَاةِ ، وكان أبو العجاج أحمق ،
فَظَنَّ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَيَلْكُمُ ، كَمْ
تَعْمَلُونَ وَلَا تَعْمَلُونَ!^(٣)

قال أبو الفرج : وأخبرني أحمدُ بن عبد العزيز ، قال : حدثنا عمرُ بن شُبّة ، عن
الدائنيّ ، عن مبارك بن سلام ، عن فُطْرُ بن خليفة ، عن أبي الضّحى ، قال : كان ناسٌ من
أهل الكوفة يتطلّبون عَثْرَةَ الْوَلِيدِ بن عقبة ، منهم أبو زَيْنَبِ الْأَزْدِيُّ ، وأبو مَوَرَّع ،
فَجَاءَ يَوْمًا وَلَمْ يَحْضُرِ الْوَلِيدُ الصَّلَاةَ ، فَسَأَلَا عَنْهُ ، فَتَلَطَّفَا حَتَّى عَلِمَا أَنَّهُ يَشْرَبُ ، فَاقْتَحَمَا الدَّارَ
فَوَجَدَاهُ يَقِي ، فَاحْتَمَلَاهُ وَهُوَ سَكْرَانٌ حَتَّى وَضَعَاهُ عَلَى سَرِيرِهِ ، وَأَخَذَا خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ ،
فَأَفَاقَ ، فَأَفْتَقَدَ خَاتَمَهُ ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَهُ ، فَقَالُوا : لَا نَدْرِي ، وَقَدْ رَأَيْنَا رَجُلَيْنِ دَخَلَا عَلَيْكَ

(١) الأغاني ٤ : ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) يمجُن : يقول قولاً لا يدري ما عقِبته ؛ ومنه الماَجَنُ ؛ وفي الأغاني : «ولمّا تماجن » .

(٣) الأغاني ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ .

فاحتَمَلَاكَ فَوَضَعَاكَ عَلَى سُرِيرِكَ . فقال : صفوها لى ، فقالوا : أَحَدُهُمَا آدَمُ ^(١) طَوَالُ حَسَنَ
الوجه ، والآخر عريض مَرَبُوعٌ عَلَيْهِ خَمِيصَةٌ ^(٢) ، فقال : هذا أبو زينب ، وهذا أبو مورع ؛
قال : وَلَقِيَ أَبُو زَيْنَبٍ وَصَاحِبَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ حُبَيْشٍ الْأَسَدِيَّ وَعَلَقْمَةَ بْنَ يَزِيدَ الْبَكْرِيَّ
وغيرهما ، فَأَخْبَرُوهُمْ ، فقالوا : اشخصوا إلى أمير المؤمنين فأعلموه ، وقال بعضهم : إِنَّهُ لَا يَقْبَلُ
قَوْلَكُمْ فِي أَخِيهِ ، فَشَخَّصُوا إِلَيْهِ ، فقالوا : إِنَّا جِئْنَاكَ فِي أَمْرٍ ، وَنَحْنُ مُخْرَجُوهُ إِلَيْكَ مِنْ
أَعْنَاقِنَا ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّكَ لَا تَقْبَلُهُ ، قال : وما هو ؟ قالوا : رأينا الوليد وهو سكرانٌ من
خَمْرِ شَرَبَهَا ، وَهَذَا خَاتَمُهُ أَخَذْنَاهُ مِنْ يَدِهِ وَهُوَ لَا يَعْقِلُ . فَأَرْسَلَ عُمَانُ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ
السلام فَأَخْبَرَهُ ، فقال : أَرَى أَنْ تُشَخِّصَهُ ، فَإِذَا شَهِدُوا عَلَيْهِ بِحَضْرٍ مِنْهُ حَدِّثْهُ . فكتب
عُمَانُ إِلَى الْوَلِيدِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ ، فَشَهِدَ عَلَيْهِ أَبُو زَيْنَبٍ وَأَبُو مُورَعٍ وَجُنْدَبُ الْأَزْدِيُّ وَسَعْدُ
ابْنُ مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ ، فقال عُثْمَانُ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلامُ : قُمِ يَا أَبَا الْحَسَنِ فَأَجْلِدْهُ ، فقال عليٌّ عليه
السلام لِلْحَسَنِ ابْنِهِ : قُمِ فَاضْرِبْهُ ؛ فقال الحسن : مالك ولهذا ، يكفيك غيرك ؛ فقال عليٌّ
لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ : قُمِ فَاضْرِبْهُ ، فَضْرَبَهُ بِمِخْصَرَةٍ ^(٣) فِيهَا سَيْرٌ لَهُ رَأْسَانٌ ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ
قال : حَسْبُكَ .

قال أبو الفرج : وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ قَالَ : حَدَّثَنَا عُمَرُ قَالَ : حَدَّثَنِي الْمَدَائِنِيُّ
عَنِ الْوَقَاصِيِّ ، عَنِ الزَّهْرِيِّ قَالَ : خَرَجَ رَهْطٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَى عُثْمَانَ فِي أَمْرِ الْوَلِيدِ ،
فَقَالَ : أَكَلِمَا غَضِبَ رَجُلٌ عَلَى أَمِيرِهِ رَمَاهُ بِالْبَاطِلِ ! لَنْ أَصْبَحْتُ لَكُمْ لِأَنْتَ كَلَنْتُمْ بِكُمْ ،
فَاسْتَجَارُوا بِعَائِشَةَ ، وَأَصْبَحَ عُثْمَانُ فَسَمِعَ مِنْ حُجْرَتِهَا صَوْتًا وَكَلَامًا فِيهِ بَعْضُ الْغِلْظَةِ ،
فَقَالَ : أَمَا يَجِدُ فُسَّاقُ الْعِرَاقِ وَمُرَاقِبُهَا مَلْجَأً إِلَّا بَيْتَ عَائِشَةَ ! فَسَمِعْتُ ، فَرَفَعْتُ نَعْلَ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَالَتْ : تَرَكْتُ سَنَةَ صَاحِبِ هَذَا النِّعْلِ . وَتَسَامَعُ النَّاسُ فِجَاءً وَاحْتَى
مَلَأُوا الْمَسْجِدَ ، فَمِنْ قَائِلٍ : قَدْ أَحْسَنْتُ ، وَمِنْ قَائِلٍ : مَا لِلنِّسَاءِ وَلِهَذَا ! حَتَّى تَنَحَّصُوا

(١) الآدم : الأسمر . (٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

(٣) المخرصة : ما اختصره الإنسان بيده فأمسكه من عصا أو مقرعة أو عكازة وما أشبهها .

وَتَضَارَبُوا بِالنِّعَالِ، ودخل رهطٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان فقالوا له:
اتَّقِ اللهَ ولا تُعْطِلِ الحدودَ ، واعزل أخاك عنهم ؛ ففعل^(١) .

قال أبو الفرج : حدثنا أحمد قال : حدثني عمر ، عن المدائني ، عن أبي محمد الناجي ،
عن مطر الوراق ، قال : قَدِمَ رجلٌ من أهل الكوفة إلى المدينة فقال لعثمان : إِنِّي صَلَّيْتُ
صلاة الغداة خلف الوليد ، فالتفت في الصلاة إلى الناس ، فقال : أأزيدكم ، فَإِنِ أَجِدُ اليَوْمَ
نشاطاً ؟ وشيئنا منه رائحة الخمر ، فَضَرَبَ عثمانُ الرَّجُلَ ؛ فقال الناس : عَطَلتِ الحدودَ ،
وَضَرَبْتَ الشُّهُودَ^(٢) .

قال أبو الفرج : وحدثنا أحمد ، قال : حدثنا عمر قال : حدثنا أبو بكر الباهلي ، عن
بعض من حدثه قال : لَمَّا شَهِدَ على الوليد عند عثمانَ بِشُرْبِ الخمر كَتَبَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ
بِالشَّخْصِ ؛ فخرج معه قومٌ يَعْذِرُونَهُ ، منهم عَدِيٌّ بن حاتم الطائي ، فزَلَّ الوليدُ
يَوْمًا يَسُوقُ بِهِمْ ، فَارْتَجَزَ وقال :

لَا تَحْسِبْنَا قَدْ نَسِينَا الْأَحْقَافَ^(٣) وَالنَّشَوَاتِ مِنْ مُعْتَقٍ صَافٍ

* وَعَزَفَ قَيْنَاتٍ عَلَيْنَا عُرَافَ *

فقال عدي : فَأَيْنَ تَذْهَبُ بِنَا إِذْنَ ! فَأَقِمَّ^(٤) .

قال أبو الفرج : وقد رَوَى أحمد عن عمر ، عن رجاله ، عن الشَّعْبِيِّ ، عن جُنْدَبِ
الْأَزْدِيِّ ، قال : كُنْتُ فِيمَنْ شَهِدَ على الوليد عند عثمانَ ، فَلَمَّا اسْتَتَمَّنا عَلَيْهِ الشَّهَادَةَ حَبَسَهُ
عثمانُ . ثُمَّ ذَكَرَ بَاقِي الْخَبَرِ وَضَرَبَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِيَّاهُ ، وَقَوْلَ الْحَسَنِ ابْنِهِ : « مَا لَكَ
وَهَذَا » ، وَزَادَ فِيهِ ، وَقَالَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَسْتُ إِذْنَ مُسْلِمًا ؛ أَوْ قَالَ : مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

(١). الأغاني ٤ : ١٧٨ . (٢) الأغاني ٤ : ١٧٨ .

(٣) الأغاني : « الإيجاف » ؛ وهو ضرب من السير .

(٤) الأغاني ٤ : ١٧٨ ، ١٧٩ . (٥) الأغاني ٤ : ١٧٩ .

قال أبو الفرج : وأخبرني أحمد ، عن عمر عن رجاله ، أن الشهادة لما تمت قال عثمان لعلي عليه السلام : دونك ابن عمك فأقم عليه الحد . فأمر علي عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام ، فلم يفعل ، فقال : يكفيك غيرك ! فقال علي عليه السلام : بل ضعفت ووهنت وعجزت ؛ قم يا عبد الله بن جعفر فاجلده ، فقام فجلده ، وعلى عليه السلام يمد حتى بلغ أربعين ، فقال له علي عليه السلام : أمسك حبسك ، جلد رسول الله صلى الله عليه وآله أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ؛ وكمّلها عمر ثمانين ؛ وكل سنة (١) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد ، عن عمر ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد ابن سعيد ، قال : وأخبرني بذلك أيضاً إبراهيم بن محمد بن أيوب ، عن عبد الله بن مسلم ، قالوا جميعاً : لما ضرب عثمان الوليد الحد ، قال : إنك لتضر بني اليوم بشهادة قوم ليقتلنك عاماً قابلاً (٢) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عبد العزيز الجوهري ، عن عمر بن شبة ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد بن سعيد . وأخبرني أيضاً إبراهيم ، عن عبد الله ، قالوا جميعاً : كان أبو زبيد الطائي نديماً للوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة ، فلما شهدوا عليه بالسكر من الخمر خرج عن الكوفة ممزولاً ، فقال أبو زبيد يتذكر أيامه وندامته :

من يرى العير أن تمشي على ظهر الرورى خداتهن عجال !
 ناعجات والبيت بيت أبي وهب خلا تحن فيه الشمال
 يعرف الجاهل المضلل أن السدّ فيه النكراه والزلال
 ليت شعري كذاكم العهد أم كانوا أناساً كمن يزول فزالوا !

(١) الأغاني ٤ : ١٧٩ . (٢) الأغاني ٤ : ١٧٩ .

(٣) ابن أروى ، هو الوليد بن عقبة ؛ وأروى هي أم عثمان بن عفان .

بعد ما تعلمين يا أمِّ عمرو
 ووجوه تودُّنا مشرقاتٌ ونوالٌ إذا أُريدَ النّوالُ
 أصبح البيتُ قد تبدَّلَ بالْحَيِّ وجوهاً كأنها الأقيالُ^(١)
 كلُّ شيءٍ يَحْتالُ فيه الرجالُ غير أنْ ليسَ لهنايا احتيالُ
 ولعمري الإله لو كان للسيِّفِ مضاءٌ وللسانِ مقالُ^(٢)
 ما تناسَّيتُكَ الصِّفاءُ ولا الودَّ ولا حالَ دونك الإشغالُ
 ولحرمتُ لحْمَكَ التَّمَضَّى ضَلَّةً ضَلَّ حِلْمُهُمْ ما اغتالوا^(٣)
 قولهم شُرْبُكَ الحرامِ وقد كان شرابٌ سوى الحرامِ حلالُ
 وأبى ظاهرُ العداوةِ والشَّنةِ آتٍ إلّا مقالُ ما لا يُقالُ
 من رجالٍ تقارضوا مُنْكراتٍ لِيَنالوا الذي أرادُوا فنالوا
 غير ما طالبين ذَخْلاً ولكن مالَ دهرٍ على أناسٍ فالوا
 من يَحْنُكَ الصِّفاءُ أو يَتَبَدَّلُ أو يَزُلْ مِثْلَ ما يَزُولُ الظُّلالُ
 فاعلمن أني أخوكَ أخو الودِّ حياتي حتى تزولَ الجبالُ
 ليس يُبْخِلَ عليك يوماً بمالٍ أبداً ما أقلَّ فعلاً قِبَالَ^(٤)
 ولك النصرُ باللسانِ وبالكفِّ إذا كانَ لليدينِ مصالُ^(٥)

قال أبو الفرج : وحدَّثني أحمد قال : حدَّثني عمرُ قال : لما قدم الوليد بنُ عُقبة
 الكوفة قدم عليه أبو زُبَيْدٍ فَأَنزَلَهُ دارَ عَقِيلِ بنِ أَبِي طالبٍ على بابِ المسجدِ ، وهى التى

(١) الأقيال : الملوك الحيريون . وفى الأغاني : « الأقتال » جمع قتل ؛ وهو العدو .
 (٢) الأغاني : « مصال » ، يقال : صال على قرنه ، وإذا وثب عليه واستطال .
 (٣) التَّمَضَّى : التَّطْعَمَ والمنفَرَق . (٤) قبال النعل : زمام بين الإصبع والى تليها .
 (٥) الأغاني ٤ : ١٧٩ ، ١٨٠ .

تُعرف بدار القبطى ، فكان مما احتجّ به عليه أهل الكوفة أن أبا زيد كان يخرج إليه من داره وهو نصرانىّ يخترق المسجد فيجعله طريقاً (١) .

قال أبو الفرج : وأخبرنى محمد بن العباس اليزيدىّ قال : حدثنى عمى عبيد الله ، عن ابن حبيب عن ابن الأعرابىّ ، أن أبا زيد وفد على الوليد حين استعله عثمان على الكوفة ، فأنزله الوليد دار عقيل بن أبى طالب عند باب المسجد ، واستوهمها منه ، فوهبها له ، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة ، لأنّ أبا زيد كان يخرج من داره حتى يشقّ المسجد إلى الوليد فيسمرّ عنده ، ويشرب معه ، ويخرج فيشقّ المسجد وهو سكران ، فذلك نهبهم عليه . . قال : وقد كان عثمان ولّى الوليد صدقات بني تغلب ، فبلغه عنه شعر فيه خلاعة ، فمزّله . قال : فلما ولّاه الكوفة اختصّ أبا زيد الطائى وقرّبه ، ومدحه أبو زيد بشعر كثير ، وقد كان الوليد استعمل الربيع بن مريّ بن أوس بن حارثة بن لأم الطائى على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجذبت الجزيرة ؛ وكان أبو زيد فى بنى تغلب نازلاً ، ففرج بإبلهم ليرعيهم ، فأبى عليهم الربيع بن مريّ ومنعهم ، وقال لأبى زيد : إن شئت أرعيتك وخذك فعلت ؛ فأتى أبو زيد إلى الوليد فشكاه ، فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام ، إلى القصور الحمر من الحيرة ، وجعلها له حمى ، وأخذها من الربيع ابن مريّ ، فقال أبو زيد يدعُ الوليد ، والشعر يدلّ على أن الحمى كان بيد مريّ بن أوس ، لا بيد الربيع ابنه ، وهكذا هو فى رواية عمر بن شبة :

لعمركم أياك يا بن أبى مريّ لغيرك من أبايح لنا الديارا (٢)

أبايح لنا أبارق ذات قورٍ ونزعى القفّ منها والقفارا (٣)

(١) الأغاني ٤ : ١٨٠ . (٢) الأغاني : « لها الديارا » .

(٣) الأبارق : جمع الأبرق ، وهو الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة . والقف ما ييس من البقول وتناثر حبه وورقه ؛ ترطاه الإبل وتضمن عليه .

بحمد الله ثم فتى قريش أبي وهب غدت بُدْنا غزارا^(١)
أباح لنا ولا نحمي عايكم إذا ما كنتم سنةً جزارا
قال : يقول : إذا أُجِدْتُمْ فإننا لا نحميها عايكم ، وإذا كنتم أساتم وحميتموها علينا
فتى طالت يده إلى المعالي وطحطحت المجذمة القصارا^(٢)
قال : ومن شعر أبي زبيد فيه يذكر نصره له على مري بن أوس بن حارثة :
يا ليت شعري بأبناء أنبؤها قد كان يعنى بها صدري وتقديرى
عن امرئ ما يزده الله من شرف أفرح به ومري غير مسرور
إن الوليد له عندى وحق له ودّ الخليل ونصح غير مذخور
لقد دعاني وأدنانى وأظهرنى على الأعدى بنصر غير تغير
وشدب القوم عني غير مكثر حتى تناهوا على رغم وتصغير
نفسى فداه أبى وهب وقل له يا أم عمرو فحلى اليوم أو سبرى^(٣)
وقال أبو زبيد يمدح الوليد ويتألم لفراقه حين عزل عن الكوفة :
لعمري لئن أمسى الوليد ببلدة سواى لقد أمسىت للدهر معورا^(٤)
خلا أن رزق الله غايه ورائح وإنى له راجع وإن سار أشمرا
وكان هو الحصن الذى ليس مسلمى إذا أنا بالنكراء هيّجت معشرا
إذا صادفوا دونى الوليد فأنما يرون بوادى ذى حماس مزرعرا^(٥)

(١) غزارا : جمع غزيرة ؛ وهى من الإبل الكثيرة اللبن .

(٢) طحطح الرجل ماله : فرقة . (٣) الأغاني ٤ : ١٨٠ .

(٤) الدور : الذى لا حافظ له .

(٥) ذو حماس : موضع تلقاء عرعر ، أو مأسدة . والمزعر : الأسد الورد ، وبعده فى الأغاني :

خضيب بنان ما يزال براكب يخبّ وضاحي جلده قد تقشّرا .

وهي طويلة يصفُ فيها الأسد^(١) .

قال أبو الفرج : وحدثنا أحمد بن عبد العزيز قال : حدثنا عمر عن رجاله ، عن الوليد قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم ، فيدعو لهم بالبركة ، ويمسح يده على رؤوسهم ، فجاءني إليه وأنا مخلق ، فلم يمسنى ، وما منعه إلا أن أمي خلقتني بخلق ، فلم يمسنى من أجل الخلق^(٢) .

قال أبو الفرج : وحدثني إسحاق بن بنان الأنماطي ، عن حنيس بن ميسر ، عن عبد الله ابن موسى ، عن أبي ليلى ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لملي بن أبي طالب عليه السلام : أنا أحد منك سنانا ، وأبسط منك لسانا ، وأملاً للكتيبة ؛ فقال علي عليه السلام : اسكت يا فاسق ، فنزل القرآن فيهما : ﴿ أفن كان مؤمناً مكن كان فاسقاً لا يستون ﴾^(٣) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عبد العزيز ، عن عمر بن شبة ، عن محمد ابن حاتم ، عن يونس بن عمر ، عن شيبان ، عن يونس ، عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾^(٤) . قال : هو الوليد بن عقبة ، بمته النبي صلى الله عليه وآله مُصدّقاً إلى بني المصطلق ، فلما رأوه أقبلوا نحوه ، فهابهم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له : إنهم ارتدّوا عن الإسلام ، فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالد بن الوليد ، فعلم علمهم ، وأمره أن يتثبت ، وقال له : انطلق ولا تعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، وأتقذ عيونه نحوه ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمع أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى الرسول صلى الله عليه وآله فأخبره ، فنزلت هذه الآية^(٥) .

(١) الأغاني ٤ : ١٨٢ .
(٢) الأغاني ٤ : ١٨٢ .
(٣) سورة السجدة : ١٨ .
(٤) سورة الحجرات ٦ .
(٥) الأغاني ٤ : ١٨٢ .

قلت : قد لَمَحَ أَبُو عَبْدِ الْبَرِّ صَاحِبُ كِتَابِ "الاستيعاب" ، في هذا الموضع نكتةً حَسَنَةً ، فقال في حديثِ الْخَلْقِ : هذا حديثٌ مضطربٌ منكراً ، لا يصحُّ ، وليس يمكن أن يكونَ مَنْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ مُصَدِّقاً صَبِيحاً يَوْمَ الْفَتْحِ ؛ قال : ويدلُّ أيضاً على فَسَادِهِ أَنَّ الزَّيْرَ بْنَ بَكَّارٍ وَغَيْرَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالسَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ ذَكَرُوا أَنَّ الْوَلِيدَ وَأَخَاهُ عُمَارَةَ ابْنَيْ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ خَرَجَا مِنْ مَكَّةَ لِيُرِدَا أَخْتَهُمَا أُمَّ كَثُومَ عَنِ الْهَجْرَةِ ، وَكَانَتْ هَجْرَتُهُمَا فِي الْهُدْنَةِ الَّتِي بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَمَنْ كَانَ غُلَاماً مُخْلَقاً بِالْخَلْقِ يَوْمَ الْفَتْحِ لَيْسَ يَجِيءُ مِنْهُ مِثْلُ هَذَا . قال : ولا خلافَ بين أَهْلِ الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ أَنَّ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أَنْزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ مُصَدِّقاً ، فَكَذَّبَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَقَالَ : إِنَّهُمْ ارْتَدَوْا وَامْتَنَعُوا مِنْ أَدَاءِ الصَّدَقَةِ . قال أَبُو عَمْرٍو : وفيه وفي عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ^(١) ؛ في قِصَّتِهِمَا الْمَشْهُورَةِ . قال : ومن كَانَ صَبِيحاً يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَجِيءُ مِنْهُ مِثْلُ هَذَا ، فَوَجِبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي حَدِيثِ الْخَلْقِ ، فَإِنَّهُ رَوَاةُ جَعْفَرِ بْنِ بَرْقَانَ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنْ الْحِجَّاجِ ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْهَمْدَانِيِّ ؛ وَأَبُو مُوسَى مَجْهُولٌ لَا يَصَحُّ حَدِيثُهُ .

ثمَّ نَعُودُ إِلَى كِتَابِ أَبِي الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيِّ ؛ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَأَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَبَّةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى ، عَنْ نَعِيمِ بْنِ حَكِيمٍ ، عَنْ أَبِي مَرْثَمٍ ، عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّ امْرَأَةً الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَشْتَكِي إِلَيْهِ الْوَلِيدَ ، وَقَالَتْ : إِنَّهُ يَضْرِبُهَا ، فَقَالَ لَهَا : ارْجِعِي إِلَيْهِ وَقُولِي لَهُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَجَارَنِي ، فَاَنْطَلَقْتُ ، فَكَثْتُ سَاعَةً ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَقَالَتْ : إِنَّهُ

ما أَقْلَعَ عَنِّي ، فَقَطَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُدْبَهُ^(١) مِنْ ثَوْبِهِ وَقَالَ : اذْهَبِي بِهَا إِلَيْهِ وَقُولِي لَهُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَجَارَنِي ، فَاَنْطَلَقْتُ فَكَثْتُ سَاعَةً ثُمَّ رَجَعْتُ فَقَالَتْ : مَا زَادَنِي إِلَّا ضَرْبًا ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْوَلِيدِ » مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا^(٢) .

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَاخْتَصَّ الْوَلِيدُ لَمَّا كَانَ وَالِيَا بِالْكُوفَةِ سَاحِرًا كَادَ يَفْتِنُ النَّاسَ ، كَانَ يُرِيهِ كَتِيبَتَيْنِ تَقْتَتِلَانِ فَتَحْمِلُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَتَهْزِمُهَا ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَيْسُرُكَ أَنْ أُرِيكَ الْمَهْزِمَةَ تَغْلِبُ الْغَالِبَةَ فَهْزِمُهَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَجَاءَ جُنْدُبُ الْأَزْدِيُّ مُشْتِمِلًا عَلَى سَيْفِهِ ، فَقَالَ : أَفِرْجُوا لِي ، فَأَفْرَجُوا فَضْرَبَهُ حَتَّى قَتَلَهُ ، فَحَبَسَهُ الْوَلِيدُ قَلِيلًا ثُمَّ تَرَكَ^(٣) .

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ رَجَالِهِ ، أَنَّ جُنْدُبًا لَمَّا قَتَلَ السَّاحِرَ حَبَسَهُ الْوَلِيدُ ، فَقَالَ لَهُ دِينَارُ بْنُ دِينَارٍ : فِيمَ حَبَسْتَ هَذَا ، وَقَدْ قَتَلَ مَنْ أَعْلَنَ بِالسَّحَرِ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ثُمَّ مَضَى إِلَيْهِ فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْحَبْسِ ، فَأَرْسَلَ الْوَلِيدَ إِلَى دِينَارِ بْنِ دِينَارٍ فَقَتَلَهُ^(٤) .

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : حَدَّثَنِي عَمِّي الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنِي الْخُرَازِيُّ ، عَنْ الْمَدَائِنِيِّ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ ، عَنْ الزَّهْرِيِّ وَغَيْرِهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أَنْصَرَفَ عَنْ غَزَاةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ نَزَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَسَاقَ بِالْقَوْمِ وَرَجَزَ ، ثُمَّ آخَرَ فَسَاقَ بِهِمْ وَرَجَزَ ، ثُمَّ بَدَأَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يُوَاسِيَ أَصْحَابَهُ ، فَنَزَلَ فَسَاقَ بِهِمْ وَرَجَزَ ، وَجَعَلَ يَقُولُ فِيمَا يَقُولُ :

جُنْدَبُ وَمَا جُنْدَبُ وَالْأَقْطَعُ زَيْدُ الْخَلِيزِ

(١) الاستيعاب . (٢) الأغاني ٤ : ١٨٣ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٨٣ . (٤) الأغاني ٤ : ١٨٣ .

فدنا منه أصحابه فقالوا : يا رسول الله ، ما ينفعنا سيرنا مخافة أن تهشك دابة ، أو
تصيبك نكبة . فركب ودنوا منه وقالوا : قلت قولاً لا ندري ماهو ؟ قال : وما ذاك ؟ قالوا :
كنت تقول : جندب وما جندب ، والأقطع زيد الخير .

فقال : رجلان يكونان في هذه الأمة يضرب أحدهما ضربة يفرق بين الحق والباطل ،
وتقطع يد الآخر في سبيل الله ، ثم يديم الله آخر جسده بأوله ، وكان زيد ، هو زيد بن
صوحان ، وقطعت يده في سبيل الله يوم جلواء ، وقتل يوم الجمل مع علي بن أبي طالب
عليه السلام ؛ وأما جندب هذا فدخل على الوليد بن عتبة وعنده ساحر يقال له :
أبو شيان ، يأخذ عين الناس ، فيخرج مصارين بطنهم ثم يردها ، فجاء من خلفه
فضر به فقتله ، وقال :

العن وليداً وأبا شيان وابن حبيش راكب الشيطان

* رسول فرعون إلى هامان ^(١) *

قال أبو الفرج : وقد روى أن هذا الساحر كان يدخل عند الوليد في جوف بقرة
حية ، ثم يخرج منها ؛ فرآه جندب فذهب إلى بيته ، فاشتمل على سيف ، فلما دخل
الساحر في البقرة قال جندب : ﴿ أَفْتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ^(٢) ، ثم ضرب وسط
البقرة فقطعها وقطع الساحر معها ، فدعر الناس ، فسجنه الوليد ، وكتب بأمره
إلى عثمان ^(٣) .

قال أبو الفرج : فرأى أحمد بن عبد العزيز ، عن حجاج بن نصير ، عن قرّة ، عن

(١) الأغاني ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ . (٢) سورة الأنبياء ٣ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٨٤ .

نحمد بن سيرين ، قال : انطلق مجندب بن كعب الأزدي قاتل الساحر بالكوفة إلى السجن ، وعلى السجن رجل نصراني من قبل الوليد ، وكان يرى جندب بن كعب يقوم بالليل ويصبح صائماً ، فوكل بالسجن رجلاً ، ثم خرج فسأل الناس عن أفضل أهل الكوفة ؛ فقالوا : الأشعث بن قيس ، فاستضافه ، فجعل يراه ينام الليل ثم يصبح فيدعو بنداؤه ، فخرج من عنده وسأل : أي أهل الكوفة أفضل ؟ قالوا : جرير بن عبد الله ، فذهب إليه فوجدته ينام الليل ثم يصبح فيدعو بنداؤه ، فاستقبل القبله ، وقال : ربّي ربّ جندب ، وديني دين جندب . ثم أسلم^(١) .

قال أبو الفرج : فلما نزع عثمان الوليد عن الكوفة أمر عليها سعيد بن العاص ، فلما قدمها قال : اغسلوا هذا المنبر ، فإن الوليد كان رجلاً نجساً ، فلم يصعده حتى غسل . قال أبو الفرج : وكان الوليد أسنّ من سعيد بن العاص ، وأسخى نفساً ، وألين جانباً ، وأرضى عندهم ، فقال بعض شعرائهم :

وجاءنا من بعده سعيد^(٢) ينقص في الصاع ولا يزيد

وقال آخر منهم :

قررت من الوليد إلى سعيد كاهل الحجر إذ فرّوا فباروا

يلينا من قرش كل عام أمير محدث أو مستشار

لنا نار تحرقنا فنخشى وليس لهم سولا يخشون نار^(٣)

قال أبو الفرج : وحدّثنا أحمد ، قال : حدّثنا عمر ، عن المدائني ، قال : قدّم الوليد بن

(١) الأغاني ٤ : ١٨٣ . (٢) أول الرجز في الأغاني :

* يا ويلنا قد ذهب الوليد *

(٣) الأغاني ٤ : ١٨٤ .

عقبة الكوفة في أيام معاوية زائراً للمغيرة بن شعبة ، فأتاه أشراف الكوفة فسلموا عليه . وقالوا : والله مارأينا بمدك مثلك ؛ فقال : أخيراً أم شراً ! قالوا : بل خيراً ، قال : ولكني مارأيتُ بعدكم شراً منكم . فأعادوا الثناء عليه ، فقال : بعض ما تأتون به ! فوالله إنَّ بُغضكم لتأف ، وإنَّ حَسَمَ لصلف^(١) .

قال أبو الفرج : وَرَوَى عُمَرُ بْنُ شُبَّةٍ ؛ أَنَّ قَبِيصَةَ بْنَ جَابِرٍ كَانَ مِمَّنْ كَثُرَ^(٢) عَلَى الْوَلِيدِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ يَوْمَ الْوَلِيدِ وَقَبِيصَةُ عَنْده : يَا قَبِيصَةُ ، مَا كَانَ شَأْنُكَ وَشَأْنُ الْوَلِيدِ ؟ قَالَ : خَيْرٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ وَصَلَ الرَّحِمَ ، وَأَحْسَنَ الْكَلَامَ ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ شُكْرِ وَحُسْنِ ثَنَاءٍ ، ثُمَّ غَضِبَ عَلَى النَّاسِ وَغَضِبُوا عَلَيْهِ ، وَكُنَّا مَعَهُمْ ، فِيمَا ظَالُمُونَ فَتَسْتَغْفِرُ اللَّهُ ، وَإِنَّمَا مَظْلُومُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ ؛ فَخُذْ فِي غَيْرِ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ يُنْسِي الْقَدِيمَ . قَالَ مُعَاوِيَةُ : مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَدْ أَحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَبَسَطَ الْخَيْرَ ، وَقَبَضَ الشَّرَّ . قَالَ : فَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ أَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ فَافْعَلْهُ ، فَقَالَ : اسْكُتْ لَا سَكْتَ ، فَسَكْتَ وَسَكَّتِ الْقَوْمُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ بَعْدَ يَسِيرٍ : مَا لَكَ لَا تَتَسَكَّمُ يَا قَبِيصَةُ ؟ قَالَ : نَهَيْتَنِي عَمَّا كُنْتُ أَحِبُّ فَسَكْتُ عَمَّا لَا أَحِبُّ .

قال أبو الفرج : ومات الوليدُ بنُ عقبة فُوقَ الرِّقَّةِ ، ومات أبو زُبَيْدٍ هناك ، فدُفِنَا جَمِيعًا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ أَشْجَعُ السُّلْتَمَى وَقَدْ مَرَّ بِقَبْرَيْهِمَا :

مَرَرْتُ عَلَى عِظَامِ أَبِي زُبَيْدٍ وَقَدْ لَاحَتْ يَبْلَقَةُ صَلَودِ
فَكَانَ لَهُ الْوَلِيدُ نَدِيمَ صِدْقٍ فَنَادَمَ قَبْرُهُ قَبْرَ الْوَلِيدِ
وَمَا أَذْرَى بَعْنَ تَبْدُو النَّيَا بِحَمْزَةٍ أَمْ بِأَشْجَعِ أَمْ يَزِيدِ !

قيل : هم إخوته ، وقيل : نُدَمَاؤُهُ^(٣) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عبد العزيز ، عن محمد بن زكريا النِلابي ،

(١) الأغاني ٤ : ١٨٤ . (٢) كذا في ١ ، د ، و ، ب : « كبر » . (٣) الأغاني ٤ : ١٨٥ .

عن عبد الله بن الضحّاك ، عن هشام بن محمد ، عن أبيه ، قال : وفد الوليدُ بنُ عقبة - وكان جواداً - إلى معاوية ، فقيل له : هذا الوليدُ بنُ عقبة بالباب ، فقال : والله ليرجعنّ مغيضاً غيرَ مُعطى ، فإنه الآن قد أتانا يقول : على ديني وعلى كذا ، أئذن له ، فأذن له ، فسأله وتحدث معه ، ثم قال له معاوية : أما والله إن كنّا لنحبّ إتيانَ مالك بالوادي ، ولقد كان يُعجب أميرَ المؤمنين ، فإن رأيتَ أن تهبه ليزيدَ فافعل ، قال : هو ليزيد ، ثم خرج وجعل يختلف إلى معاوية ، فقال له يوما : انظر يا أميرَ المؤمنين في شأني ، فإن على مؤونة ، وقد أرهقني دين ، فقال له : ألا تستحي لنفسك وحسبك ، تأخذ ما تأخذ فتبذره ، ثم لا تنفك تشكرو دينا ! فقال الوليد : أفعل ، ثم أنطلق من مكانه ، فسار إلى الجزيرة ، وقال يخاطب معاوية :

فإذا سئلتَ تقول : « لا » وإذا سألتَ تقول : هاتِ
تأبىَ فعَالَ الخير لا تُروى وأنتَ على الفراتِ
أفلا تَميلُ إلى « نعم » أو تتركِ « لا » حتى الماتِ
وبلغ معاويةَ شُخوصُه إلى الجزيرة نخافه ، وكتب إليه : أقبل ، فكتبَ :
أعِفْ وأستعِفِ كما قد أمرتني فأعطِ سِوَايَ ما بَدَا لَكَ وأبخلِ
سأحدو رِكابِي عنكَ إن عَزِمَتِي إذا نَابَنِي أمرٌ كسَلَةٍ مُنْصَلِ
وإني امرؤُ للِنَّأى مِنِّي تَطْرُبُّ وليس شَبَابٌ قُفْلٍ عَلَى بِمُقْلِ
ثم رحل إلى الحجاز ، فبعث إليه معاوية بجائزة^(١) .

وأما أبو عمر بنُ عبد البر فإنه ذكر في « الاستيعاب » ، في باب الوليد ، قال : إن له أخبارا فيها شناعة تقطع على سوء حاله ، وقبح أفعاله ؛ غفر الله لنا وله ؛ فلقد كان من رجال قريش

(١) الأغاني ٤ : ١٨٧ .

ظرفاً وحِلماً وشجاعةً وجُوداً وأدباً ، وكان من الشعراء المطبوعين . قال : وكان الأصمعيّ وأبو عُبَيْدة وابنُ الكلبيّ وغيرهم يقولون : إنّه كان فاسقاً شَرِيبَ خمرٍ ، وكان شاعراً كريماً . قال : وأخبارُهُ في شُرْبِهِ الخمرِ ومَنادَمَتِهِ أبا زُبَيْدِ الطائِيّ كثيرةٌ مشهورةٌ ، وَيَسْمُجُ بنا ذِكْرُها ، ولكنّا نذكرُ منها طَرَفًا . ثمّ ذَكَرَ ما ذَكَرَهُ أبو الفَرَجِ في الأغاني ، وقال : إنَّ حَبْرَ الصلاةِ وهو سَكْرانٌ ، وقوله : « أَأَزيدُكم ؟ » خبرٌ مشهورٌ رَوَتْهُ الثَّقَاتُ من نَقْلَةِ الحديثِ .

قال أبو عمر بنُ عبدِ البرِّ : وقد ذَكَرَ الطَّبْرِيُّ في روايةٍ أَنَّهُ تَغَضَّبَ عَلَيْهِ قومٌ من أَهْلِ الكوفةِ حَسَداً وَبَغْيًا ، وشهدوا عليه بِشُرْبِ الخمرِ ، وقال : إنَّ عُمَانَ قالَ له : يا أَخِي اصْبِرْ ، فإنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكَ وَيَبْوءُ القَوْمُ بِإِثْمِكَ .

قال أبو عمر : هذا الحديث لا يَصِحُّ عند أَهْلِ الأخبارِ ونَقْلَةِ الحديثِ ، ولا لَهُ عند أَهْلِ العِلْمِ أَصْلٌ ؛ والصَّحِيحُ ثَبُوتُ الشَّهادَةِ عَلَيْهِ عِنْدَ عُمَانَ ، وَجَلْدُهُ الحَدِّ ، وَأَنَّ عَلِيًّا هُوَ الَّذِي جَلَّدَهُ . قال : ولم يَجْلِدْهُ بِيَدِهِ ، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِجَلْدِهِ ، فَنُسِبَ الجَلْدُ إِلَيْهِ .

قال أبو عمر : ولم يَرَوْا الوليدُ من السَّنَةِ ما يَحْتَاجُ فِيها إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ حارِثَةَ بْنَ مُضَرَّبٍ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قالَ : « ما كانت نبوءة إلا كان بعدها مُلْكٌ »^(١) .

(١) الاستيعاب ١٥٥٢ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) .

(٦٣)

الأضل :

ومن كتابه عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري وهو عامله على الكوفة ،
وقد بلغه عنه تشبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ : أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي
عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَأَرْفَعْ ذِيْلَكَ ، وَاشْدُدْ مِزْرَكَ ،
وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ ، وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَأَنْفُذْ ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَأَبْمُدْ ،
وَإِنَّمُ اللَّهُ لَتَوْتِنِينَ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكَ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَأْثَرِكَ ، وَذَائِبُكَ
بِجَامِدِكَ ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قَعْدَتِكَ ، وَتَحْذَرَ مَنْ أَمَامَكَ ، كَحَذَرِكَ مَنْ خَلْفَكَ ،
وَمَا هِيَ بِأَلْهَوِيَّتِي الَّتِي تَرْجُو ، وَلَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى ، يُرَكَّبُ بِجَلْمِهَا ، وَيُذَلَّ
صَعْبُهَا ، وَيُسَهَّلُ جَبْلُهَا . فَأَعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَأَمْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُذْ نَصِيْبَكَ وَحَظَّكَ ، فَإِنْ
كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ ، وَلَا فِي نَجَاةٍ ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيْنَ وَأَنْتَ نَأِيمٌ حَتَّى لَا يُقَالَ :
أَيْنَ فُلَانٌ ! وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقُّ مَعَ مُحِقٍّ وَمَا يُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ ! وَالسَّلَامُ .

الشَّيْخُ :

المراد بقوله : « قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ » ، أَنْ أَبَا مُوسَى كَانَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ :
إِنْ عَلَيَّا إِمَامٌ هُدًى ، وَبَيْعَتُهُ صَحِيحَةٌ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقِتَالُ مَعَهُ لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ
بَعْضُهُ حَقٌّ ، وَبَعْضُهُ بَاطِلٌ .

وقوله : « فَارْفَعْ ذَيْلَكَ » ، أى شَمِّرْ لِلنَّهْوضِ مَعِيَ وَاللَّحَاقِ بِي ، لِشَهْدِ حَرْبِ أَهْلِ
البصرة ، وكذلك قوله : « وَأَشْدُدْ مِثْرَكَ » ، وكَلَّتَاهَا كَنَيَاتَانِ عَنِ الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ
فِي الْأَمْرِ .

قال : « وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ » ، أَمْرٌ لَهُ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَنْزِلِهِ لِلْحَاقِ بِهِ ، وَهِيَ كِنَايَةٌ
فِيهَا غَضٌّ مِنْ أَبِي مُوسَى وَأُسْتَهَانَةٌ بِهِ لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ إِعْظَامَهُ لَقَالَ : وَاخْرُجْ مِنْ خَيْسِكَ ^(١) ،
أَوْ مِنْ غَيْبِكَ ^(٢) كَمَا يُقَالُ لِلْأَسَدِ ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَهُ ثَعْلَبًا أَوْ ضَبًّا .
قال : « وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ » ، أى ، وَانْدُبْ رَعِيَّتَكَ مِنْ أَهْلِ الْكَوْفَةِ إِلَى الْخُرُوجِ مَعِيَ
وَاللَّحَاقِ بِي .

ثم قال : « وَإِنْ تَحَقَّقْتَ فَانْقُذْ » أى أَمْرُكَ مَبْنًى عَلَى الشَّكِّ ، وَكَلَامُكَ فِي طَاعَتِي
كَالْمُتَنَاقِضِ ، فَإِنْ حَقَّتْ لَزُومَ طَاعَتِي لَكَ فَانْقُذْ ، أى سِرِّ حَتَّى تَقْدُمَ عَلَيَّ ، وَإِنْ أَقْتَمَ عَلَى
الشَّكِّ فَأَعْتَزِلِ الْعَمَلَ ، فَقَدْ عَزَلْتُكَ .

قوله : « وَأَيُّمَ اللَّهُ لَتُؤْتَيْنَّ » معناه إِنْ أَقْتَمَ عَلَى الشَّكِّ وَالْأَسْتِرَابَةِ وَتَثْبِيطِ أَهْلِ
الْكُوفَةِ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى وَقُولِكَ لَهُمْ : لَا يَحِلُّ لَكُمْ سَلُّ السِّيفِ لَا مَعَ عَلِيٍّ وَلَا مَعَ طَلْحَةَ ،
وَالزَّمَّوْا بِيُوتَكُمْ ، وَاسْكُرُوا سَيُوفَكُمْ ، لِيَأْتِيَنَّكُمْ . وَأَنْتُمْ فِي مَنَازِلِكُمْ بِالْكُوفَةِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ
مَعَ طَلْحَةَ ، وَنَأْتِيَنَّكُمْ نَحْنُ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْحِجَازِ ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْكُمْ سَيْفَانِ مِنْ أَمَامِكُمْ وَمِنْ
خَلْفِكُمْ ، فَتَكُونَ ذَلِكَ الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى الَّتِي لَا شَوَاةَ لَهَا .

قوله : « وَلَا تَتْرِكْ حَتَّى يَخْلُطَ زُبْدُكَ بِخَائِرِكَ » تَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا ضَرَبْتَهُ حَتَّى أُثْمِنْتَهُ :
لَقَدْ ضَرَبْتَهُ حَتَّى خَلَطْتُ زُبْدَهُ بِخَائِرِهِ ، وَكَذَلِكَ حَتَّى خَلَطْتُ ذَائِبَهُ بِجَامِدِهِ ، وَالْخَائِرُ :
الْبَلْبَنُ الْغَلِيظُ ، وَالزُّبْدُ خِلَاصَةُ اللَّبَنِ وَصَفْوَتُهُ ، فَإِذَا أُثْمِنْتَ الْإِنْسَانَ ضَرْبًا كُنْتَ كَأَنَّكَ

(١) الخيس : مَعْرَسُ الْأَسَدِ (٢) الغيل : الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمُلْتَفِّ .

خلطت ما رَقَّ ولَطُف من أخلاطه بما كَثُفَ وغَلُظَ منها ، وهذا مَثَل ، ومعناه لتَفْسُدَنَّ حالك وتُخْلَطَنَّ ، وليضربنَّ ما هو الآن منتظمٌ من أمرِك .

قوله : « وحتى تُعَجَّلَ عن قِمَدَتِكَ » ، القِعدة بالكسر هيئة القعود كالجلسة والركبة أى وليعجلنَّك الأمرُ عن هيئة قعودك ، يصف شدة الأمر وصعوبته .

قوله : « وتحذر من أَمَامِكَ كحذرِكَ من خَلْفِكَ » ، يعنى يَأْتِيكَ مِنْ خَلْفِكَ إِنْ أَقَمْتَ . على مَنْع الناس عن الحرب معنا ومعهم أهل البصرة . وأهل المدينة ، فتكون كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) .

قوله : « وما هى بالهَوَيْنَى التى ترجو » ، الهَوَيْنَى تصغير « الهوى » التى هى أنثى « أَهْوَنَ » ، أى ليست هذه الداهية والجائحة التى أذكركها لك بالشئ الهين الذى ترجو اندفاعه وسهولته .

ثم قال : بل هى الداهية الكبرى ستفعل لا محالة إن استمرت على ما أنت عليه ، وكنى عن قوله : « ستفعل لا محالة » بقوله : « يركب جلها » وما بعده ، وذلك لأنها إذا رُكِبَ جلها ، وذلك صعبها وسهل وعُرْها فقد فعلت ، أى لا تقل : هذا أمرٌ أعظمٌ صعبُ المرام ، أى قصد الجيوش من كلا الجانبين الكوفة ، فإنه إن دام الأمرُ على ما أشرت إلى أهل الكوفة من التخاذل والجلوس فى البيوت ، وقولك لهم : « اكن عبد الله المقتول » لنقعن بموجب ما ذكرته لك ، وليرتكبنَّ أهل الحجاز وأهل البصرة هذا الأمرَ المستصعب ، لأننا نحن نطلب أن نملك الكوفة ، وأهل البصرة كذلك ، فيجتمع عليها الفريقان .

ثم عاد إلى أمره بالخروج إليه فقال له : « فاعقل عقلك ، واملِك أمرَك ، وخذ نصيبك

وَحَظَّكَ ، ، أى من الطاعة ، وَاَتَّبَعَ الْإِمَامَ الَّذِي لَزِمْتُكَ بِيَعْتَهُ ، فَإِنْ كَرِهْتَ ذَلِكَ ،
فَتَنَحَّ عَنْ الْعَمَلِ فَقَدْ عَزَلْتُكَ . وَاَبْدُ عَنَّا لَا قِيَّ رَحْبٍ ، أى لَا فِي سَعَةٍ ، وَهَذَا ضِدُّ قَوْلِهِمْ :
مَرْحَبًا .

ثُمَّ قَالَ : فَجَدِيرُهُ أَنْ تَكْفِيَ مَا كُفِّفْتَهُ مِنْ حُضُورِ الْحَرْبِ وَأَنْتَ نَائِمٌ ، أى لست
معدودا عندنا ولا عند الناس من الرجال الذين تفتقر الحروب والتدبيرات إليهم ،
فَسُيْعُنِي اللَّهُ عَنْكَ وَلَا يَقَالُ : أَيْنَ فَلَانُ ؟

ثُمَّ أَقْسَمَ أَنَّهُ لِحَقٍّ ، أى أَتَى فِي حَرْبٍ هَؤُلَاءِ لَعَلِّي حَقٌّ ، وَإِنْ مِنْ أَطَاعَنِي مَعَ إِمَامٍ
مُحِقٍّ لَيْسَ يُبَالَى مَا صَنَعَ الْمَلْحَدُونَ ، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :
« اللَّهُمَّ أَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ » .

(٦٤)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتابه * :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَالْيَوْمَ أَنَا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ
إِلَّا كَرَهَا ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَرْبًا .
وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَشَرَدْتُ بِعَائِشَةَ ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ،
وَذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتُ عَنْهُ ، فَلَا عَلَيْكَ ، وَلَا الْمَذْرُوفُ فِيهِ إِلَيْكَ .

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَايَرِي فِي جَمْعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدْ انْقَطَعَتِ الْهَجْرَةُ يَوْمَ
أُسِرَ أَخُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهِ ، فَإِنِّي إِنْ أُرُوكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ
اللَّهُ إِتْمَامًا بِمَنْئِي إِلَيْكَ لِلنَّقْمَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ تَزُرَّنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ :

مُسْتَقِيمِلِينَ رِيَّاحَ الصَّيْفِ تَضُرُّهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلُودٍ
وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجِدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ .

فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتَ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ ، وَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ :
إِنَّكَ رَقِيتَ سُلْمًا أَطْلَعَكَ مَطْلَعُ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ ،
وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ ، وَطَلَبْتَ أَمْرًا لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا فِي مَعْدِنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ
مِنْ فِعْلِكَ !

وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأُخْوَالٍ ! حَمَلَتْهُمْ الشَّقَاوَةُ وَتَمَنَّى الْبَاطِلُ ، عَلَى
الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ يَدْفَعُوا
عَظِيمًا ، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيمًا ، يَوْقَعُ سَيْوِفٍ مَا خَلَا مِنْهَا الْوَعَى ، وَلَمْ تُمَاشِهَا
الْهُوَيْنَى .

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قِتَاةِ عُثْمَانَ ؛ فَادْخُلْ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَى ،
أَحْمِكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ ؛ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ
فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

الشَّرْحُ :

[كِتَابُ مَعَاوِيَةَ إِلَى عَلِيٍّ]

أَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي كَتَبَهُ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ ، وَهَذَا الْكِتَابُ جَوَابُهُ ، فَهُوَ :

مِنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَمْ نَزَلْ نَنْزِعُ مِنْ قَلْبٍ وَاحِدٍ ، وَنَجْرِي فِي حَلْبَةٍ وَاحِدَةٍ ،
لَيْسَ لَبَمَضْنَا عَلَى بَعْضِ فَضْلٍ ، وَلَا لِقَاعُنَا عَلَى قَاعِدِنَا نَحْرُ ؛ كَلْتُنَا مُؤْتَلِفَةٌ ، وَأَلْفَتُنَا جَامِعَةٌ ،
وَدَارُنَا وَاحِدَةٌ ، يَجْمَعُنَا كَرَمُ الْعِرْقِ ، وَيَحْوِينَا شَرَفُ النَّجَارِ ، وَيَحْنُو قَوْيُنَا عَلَى ضَعِيفِنَا ،
وَيُوَاسِي غَنِيَّتُنَا فَقِيرَنَا ، قَدْ خَلَصَتْ قُلُوبُنَا مِنْ وَغَلِ الْحَسَدِ ، وَطَهِّرَتْ أَنْفُسُنَا مِنْ خُبْثِ
النِّيَّةِ ، فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَ مِنْكَ مَا كَانَ مِنَ الْإِدْهَانِ فِي أَمْرِ ابْنِ عَمِّكَ ، وَالْحَسَدِ لَهُ ،
وَنُصْرَةِ النَّاسِ عَلَيْهِ ، حَتَّى قُتِلَ بِمَشْهَدٍ مِنْكَ ؛ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدٌ . فَلَيْتَكَ

أظهرت نصره ، حيث أسرت خبره ، فكنت كالمتعلق بين الناس بمذري^(١) وإن ضعف ،
 والمتبري من دمه بدفع وإن وهن ، ولكنك جلست في دارك تدس إليه الدواهي ،
 وترسل إليه الأفاعي ؛ حتى إذا قضيت وطرك منه ، أظهرت شامة ، وأبدت طلاقة ،
 وحسرت للأمر عن ساعدك ، وشمّرت عن ساقك ، ودعوت الناس إلى نفسك ،
 وأكرهت أعيان المسلمين على بيعتك ، ثم كان منك بعد ما كان ؛ من قتلك شيخى المسلمين
 أبى محمد طلحة وأبى عبد الله الزبير ، وهما من الموعودين بالجنة ، والبشر قاتل أحدها بالنار
 في الآخرة ، هذا إلى تشريك بأم المؤمنين عائشة وإحلالها محلّ الهون ، مبتدلة بين أيدي
 الأعراب وفسقة أهل الكوفة ، فمن بين مشهر لها ، وبين شامت بها ، وبين ساخر منها .
 ترى ابن عمك كان بهذه لو رآه راضيا ، أم كان يكون عليك ساخطا ، ولك عنه زاجراً !
 أن تؤذى أهله وتشرّد بحليته ، وتسفك دماء أهل ملته . ثم ترك دار الهجرة التي قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : « إن المدينة لتنفى خبثها كما ينفي الكبير^(٢) خبث الحديد » ،
 فلمعمرى لقد صبح وعده وصدق قوله ، ولقد نفّت خبثها ، وطردت عنها من ليس بأهل أن
 يستوطنها ، فأقت بين المصرين ، وبعُدت عن بركة الحرمين ، ورضيت بالكوفة بدلا
 من المدينة ، وبمجاورة الخورنق والحيرة عوضا عن مجاورة خاتم النبوة ، ومن قبل ذلك ما
 عبّت خليفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام حياتهما ، ففعدت عنهما وألّبت عليهما ،
 وامتنعت من بيعتهما ، ورمت أمر الميراث الذي تمالى له أهلا ، ورقيت سلماً وعراً ، وحاولت
 مقاما دخضا ، وادّعت ما لم تجد عليه ناصراً ؛ ولعمري لو وليتها حينئذ لما ازدادت
 إلا فسادا واضطرابا ، ولا أعقت ولا يتكها إلا انتشارا وارتدادا ؛ لأنك الشامخ بأنفه ،
 الذاهب بنفسه ، المستطيل على الناس بلسانه ويده ؛ وها أنا سائر إليك في جمع

(١) : ١ : « بدو » .

(٢) الكبير : زق ينفخ فيه المداد .

من المهاجرين والأنصار تحفهم سيوف شاميّة ، ورماح قحطانيّة ، حتى يحاكموك إلى الله .
فانظر لنفسك وللمسلمين ، واذفع إلى قتلة عثمان ؛ فإنهم خاصتك وخلصاؤك والمحدقون بك ،
فإن أبيت إلا سلوك سبيل اللجاج ، والإصرار على النى والضلال ، فاعلم أن هذه الآية إنما
نزلت فيك وفي أهل العراق معك : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا
رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

* * *

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل ومعانيه ، قال عليه السلام : لعمرى إنا كنا بيتاً واحداً
في الجاهلية ، لأننا بنو عبد مناف ، إلا أن الفرقة بيننا وبينكم حصلت منذ بعث الله محمداً
صلى الله عليه وآله ، فإننا آمنّا وكفرتم ، ثم تأكّدت الفرقة اليوم بأنّا استقمنا على منهاج
الحقّ وفنّتم .

ثم قال : « وما أسلم من أسلم منكم إلا كرهاً » ، كأبي سفيان وأولاده يزيد ومعاوية
وغيرهم من بنى عبد شمس .

قال : « وبعد أن كان أنف الإسلام محارباً لرسول الله صلى الله عليه وآله » أى فى
أول الإسلام ، يقال : كان ذلك فى أنف دولة بنى فلان ، أى فى أولها ، وأنف كلّ شيء
أوله وطرفه ، وكان أبو سفيان وأهله من بنى عبد شمس أشدّ الناس على رسول الله صلى
الله عليه وآله فى أول الهجرة ، إلى أن فتح مكة ، ثم أجابه عن قوله : « قتلت طلحة
والزبير ، وشرّدت بعائشة ، ونزلت بين المصريّن » بكلام مختصر أعرض فيه عنه

هَوَانًا بِهِ ، فقال : هذا أمرٌ غِبتَ عنه ، فليس عليك كان العدوان الذي تَزْعُمُ ، ولا العذرُ إليك لو وجب على العذرُ عنه .

فأما الجواب المفصل فأن يقال : إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما بينهما ونكسهما ، ولو استقاما على الطريقة لسليما ، ومن قتله الحق فدمه هدر ، وأما كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغير مدفوع ؛ ولكن العيب يحدث ، وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمين على ما صنعا ، وكذلك تقول نحن ؛ فإن الأخبار كثرت بذلك ، فهما من أهل الجنة لتوبتهما ؛ ولولا توبتهما لكانا هالكين كما هلك غيرهما ، فإن الله تعالى لا يحابي أحدا في الطاعة والتقوى ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (١) .

وأما الوعد لهما بالجنة فشروط بسلامة العاقبة ، والكلام في سلامتهما ، وإذا ثبتت توبتهما فقد صحَّ الوعد لهما وتحقق ؛ وقوله : « بشر قاتل ابن صفية بالنار » ، فقد اختلف فيه ، فقال قومٌ من أرباب السير وعلماء الحديث : هو كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام غير مرفوع ، وقوم منهم جعلوه مرفوعا ، وعلى كل حال فهو حق ، لأن ابن جرّوز قتله موليا خارجا من الصف ، مفارقا للحرب ؛ فقد قتله على توبة وإنابة ورجوع من الباطل ، وقاتل من هذه حاله فاسقٌ مستحقٌ للنار ؛ وأما أم المؤمنين عائشة فقد صحّت توبتها ، والأخبار الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير ، لأنها عاشت زمانا طويلا ، وهما لم يبقيا ، والذي جرى لها كان خطأ منها ، فأى ذنب لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك ! ولو أقامت في منزلها لم تُبتدل بين الأعراب وأهل الكوفة ؛ على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرمها وصانها وعظم من شأنها ، ومن أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة . ولو كانت فعلت بعمر ما فعلت به ، وشقت عصا الأمة عليه ، ثم ظفر بها ، لقتلها ومنعها إربا إربا ، ولكن عليا كان حليما كريما .

وأما قوله : « لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرّك هل كان يرضى لك أن تؤذى حليته ! » فلملّى عليه السلام أن يقلب الكلام عليه ، فيقول : أفتراه لو عاش أكان يرضى لحليته أن تؤذى أخاه ووصيه ! وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لك يا بن أبي سُفيان أن تُتَنَازَعَ عليا الخِلافة وتُفَرَّق جماعة هذه الأمة ! وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزيبر أن ييايعا ، ثم ينكثا لا لسبب ، بل قالا : جئنا نطلب الدراهم ، فقد قيل لنا : إن بالبصرة أموالا كثيرة ! هذا كلام يقوله مثلهما !

فأما قوله : « تركت دار الهجرة » ، فلا عيبَ عليه إذا انتقضت عليه أطراف الإسلام بالبغى والفساد أن يخرج من المدينة إليها ، ويهذب أهلها ؛ وليس كلُّ من خرج من المدينة كان خبيثا ، فقد خرج عنها عمرُ مرارا إلى الشام . ثم لملىّ عليه السلام أن يقلب عليه الكلام فيقول له : وأنت يامعاوية ؟ قد نفقتك المدينة أيضا عنها ، فأنت إذا خبت ، وكذلك طلحة والزيبر وعائشة الذين تتمصّب لهم وتحتجّ على الناس بهم ، وقد خرج عن المدينة الصالحون ، كابن مسعود وأبي ذرٍّ وغيرهما ، وماتوا في بلادٍ نائيةٍ عنها .

وأما قوله : « بعدت عن حرمة الحرمين ، ومجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فكلام إقناعي ضعيف ، والواجب على الإمام أن يقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام ، وتقديم قتال أهل البغى على المقام بين الحرمين أولى . فأما ما ذكره من خذلانه عثمان وشماتته به ودعائه الناس بعد قتله إلى نفسه وإكراهه طلحة والزيبر وغيرها على بيعته فكلّه دعوى والأمْر بخلافها ، ومن نظر كتب السير عرّف أنّه قد بهتّه وادّعى عليه ما لم يقع منه .

وأما قوله : « التويت على أبي بكر وعمر ، وقعدت عنهما ، وحاولت الخِلافة بمدرّس رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فإنّ عليّا عليه السلام لم يكن يجحد ذلك ولا يُنكره ، ولا ريب

أَبَهُ كَانَ يَدْعَى الْأَمْرَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِنَفْسِهِ عَلَى الْجُلَّةِ ، إِمَّا لِنَصْرِ
كَمَا تَقُولُهُ الشَّيْعَةُ ، أَوْ لِأَمْرِ آخَرَ كَمَا يَقُولُهُ أَصْحَابُنَا . فَأَمَّا قَوْلُهُ : « لَوْ وَلِيَتْهَا حِينَئِذٍ لَفَسَدَ الْأَمْرُ
وَأُضْطَرَبَ الْإِسْلَامُ » ، فَهَذَا عِلْمٌ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَعَلَّهُ لَوْ وَلِيَهَا حِينَئِذٍ لَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ
وَصَلَحَ الْإِسْلَامُ وَتَمَهَّدَ ، فَإِنَّهُ مَا وَقَعَ الْأُضْطِرَابُ عِنْدَ وَلَايَتِهِ بَعْدَ عُثْمَانَ إِلَّا لِأَنَّ أَمْرَهُ هَانَ
عِنْدَهُمْ بِتَأَخُّرِهِ عَنِ الْخِلَافَةِ ، وَتَقَدَّمَ غَيْرُهُ عَلَيْهِ ، فَصَغُرَ شَأْنُهُ فِي النُّفُوسِ ، وَقَرَّرَ مِنْ تَقَدُّمِهِ
فِي قُلُوبِ النَّاسِ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَهَا كُلِّ الصَّلَاحِيَةِ ، وَالنَّاسُ عَلَى مَا يَحْصُلُ فِي نَفُوسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ
وَلِيَّتَهَا ابْتِدَاءً وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا أَيَّامَ حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَالْأَخْتِصَاصِ الَّذِي كَانَ لَهُ ، لَكَانَ الْأَمْرُ غَيْرَ الَّذِي رَأَيْنَاهُ عِنْدَ وَلَايَتِهِ
بَعْدَ عُثْمَانَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : « لِأَنَّكَ الشَّامِخُ بِأَنْفِهِ ، الذَّاهِبُ بِنَفْسِهِ » ، فَقَدْ أُسْرِفَ فِي وَصْفِهِ بِمَا
وَصَفَهُ بِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عِنْدَهُ زَهْوٌ لَكِنْ لَا هَكْذَا ، وَكَانَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ مَعَ زَهْوِهِ أَلْطَفَ النَّاسِ خُلُقًا .

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى تَفْسِيرِ أَلْفَاظِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ قَوْلُهُ : « وَذَكَرْتُ أَنَّكَ زَائِرِي فِي جَمْعٍ مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدْ أُنْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ » هَذَا الْكَلَامُ تَكْذِيبٌ لَهُ
فِي قَوْلِهِ : « فِي جَمْعٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » ، أَيْ لَيْسَ مَعَكَ مُهَاجِرٌ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ مَعَكَ
مِمَّنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هُمْ أَبْنَاءُ الطُّلُقَاءِ ، وَمَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَقَدْ قَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ » .

وَعَبَّرَ عَنْ يَوْمِ الْفَتْحِ بِعِبَارَةِ حَسَنَةٍ فِيهَا تَقْرِيعٌ لِمَاوِيَةَ وَأَهْلِهِ بِالْكَفْرِ ، وَأَنْتَهُمْ لَيْسُوا
مِنْ ذَوِي السَّوَابِقِ ، فَقَالَ : « قَدْ أُنْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ » ، يَعْنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي
سُفْيَانَ أُسِرَ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي بَابِ الْحَنْدَمَةِ ، وَكَانَ خَرَجَ فِي تَقْرِيمِ قَرِيشٍ يُحَارِبُونَ وَيَمْنَعُونَ

من دخول مكة ، فقتل منهم قومٌ وأُسرَ يزيدُ بنُ أبي سفيان ، أسره خالدُ بنُ الوليد ، فخلصه أبو سفيان منه ، وأدخله داره ؛ فأمن لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « من دخل دارَ أبي سفيانَ فهو آمن » .

[ذكر الخبر عن فتح مكة]

ويجب أن نذكر في هذا الموضع ملخص ما ذكره الواقدي في كتاب " المغازي " ، في فتح مكة ، فإن الموضع يقتضيه ؛ لقوله عليه السلام : « ما أسلم مسلمكم إلا كرها » ، وقوله : « يوم أسر أخوك » .

قال محمد بن عمر الواقدي في كتاب " المغازي " :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هادن قريشاً في عام الحديبية عشر سنين ، وجعل خزاعة داخله معه ، وجعلت قريش بنى بكر بن عبد مناة من كنانة داخله معهم ، وكان بين بنى بكر وبين خزاعة ترات في الجاهلية ودماء ، وقد كانت خزاعة من قبل حلفت عبد المطلب بن هاشم ، وكان معها كتاب منه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعرف ذلك ، فلما تم صلح الحديبية وأمن الناس ، سمع غلامٌ من خزاعة إنساناً من بنى كنانة يقال له : أنس بن زُئيم الدؤلي^(١) يُنشد هجاء له في رسول الله صلى الله عليه وآله ، فضربه فشجّه ، فخرج أنس إلى قومه فأراهم شجته فثار بينهم الشر ، وتذاكروا أحقادهم القديمة ، والقوم مجاورون بمكة ، فاستنجدت بكر بن عبد مناة^(٢) قريشاً على خزاعة ، فمن قريش مَنْ كره ذلك وقال : لا أنقض عهد محمد ، ومنهم من خف إليه . وكان أبو سفيان أحد من كره ذلك ، وكان صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص

(١) ا الدلي . (٢) ب : « مناف » ، وصوابه في ١ ، د .

مَنْ أَعَانَ بَنِي بَكْرٍ ، وَدَسَّوْا إِلَيْهِمُ الرِّجَالَ بِالسَّلَاحِ سِرًّا ، وَبَيَّتُوا خُرَاعَةَ لَيْلًا ، فَأَوْقَعُوا بِهِمْ ،
فَقَتَلُوا مِنْهُمْ عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا عَاتَبُوا قُرَيْشًا ، فَجَحَدَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهَا أَعَانَتْ بَكْرًا ،
وَكَذَبَتْ فِي ذَلِكَ ، وَتَبَرَّأَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّا جَرَى ، وَشَخَّصَ قَوْمٌ مِنْ خُرَاعَةَ
إِلَى الْمَدِينَةِ مُسْتَصْرِحِينَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ ،
فَقَامَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيُّ فَأَنشَدَهُ :

لَا هُمْ إِيَّيَ نَاشِدٌ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْنَا وَأَيُّهُ الْإِتْلَادُ^(١)
لَكُنْتُ وَالِدًا وَكُنَّا وَلَدًا^(٢) ثَمَّتَ أَسْلَمُنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدًا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
هُمْ يَبْتَئُونَ بِالْوَتِيرِ هُجَّجًا^(٣) تَتْلُو الْقُرْآنَ رُكْعًا وَسُجَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدًا وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا
فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَبَدًا^(٤) وَاذْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا^(٥)
فِي فَيْلِقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدًا^(٦) فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
* قَرَّمْ لِقَوْمٍ مِنْ قُرُومٍ أَصِيدَا *

ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُ مَا أَثَارَ الشَّرِّ ، وَقَالُوا لَهُ : إِنَّ أَنَسَ بْنَ زُنَيْمٍ هَجَاكَ ، وَإِنَّ صَفْوَانَ
ابْنَ أُمَيَّةَ وَفُلَانًا وَفُلَانًا دَسَّوْا إِلَيْنَا رَجَالَ قُرَيْشٍ مُسْتَنْصِرِينَ ، فَبَيَّتُونَا بِمَنْزِلِنَا بِالْوَتِيرِ فَقَتَلُونَا ،
وَجِئْنَاكَ مُسْتَصْرِحِينَ بِكَ ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَامَ مُغَضِبًا يَجْرُ رِدَاءَهُ
وَيَقُولُ : « لَا نَصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ خُرَاعَةَ فِيمَا أَنْصُرُ مِنْهُ نَفْسِي ! » .

(١) فِي الْآصُولِ : « الْأَمْلَادُ » وَصَوَابُهُ مِنْ ابْنِ هِشَامٍ ٤ : ١٠ . وَالْإِتْلَادُ : الْقَدِيمُ .
(٢) ابْنُ هِشَامٍ : « قَدْ كُنْتُمْ وَلَدًا » . (٣) الْوَتِيرُ : اسْمُ مَاءٍ بَعِيْنُهُ .
(٤) أَيْدًا : قَوِيًّا ؛ وَفِي ب : « أَبَدًا » ؛ وَالصَّوَابُ مَا فِي ابْنِ هِشَامٍ .
(٥) الْمَدَدُ : الْغَوْنُ . (٦) الْفَيْلِقُ : الْعَسْكَرُ .

قلتُ : فصَادَفَ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله إشارا وحُبًّا لنقض العهد ، لأنه كان يريد أن يفتح مكة وهمَّ بها في عام الحُدَيْبِيَّةِ فَصُدَّ ، ثمَّ همَّ بها في عمرة القُضَيْيَّةِ ، ثم وقف لأجل العهد والميثاق الذي كان عقده معهم ، فلما جرى ماجرَى على خُزَاعَةِ اغْتَنَمَهَا .

قال الواقدي : فكتب إلى جميع الناس في أقطار الحجاز وغيرها يأمرهم أن يكونوا بالمدينة في رمضان من سنة ثمان للهجرة ، فوافته الوفود والقبائل من كل جهة ، فخرج من المدينة بالناس يوم الأربعاء لعشر خَلَوْنَ من رمضان في عشرة آلاف ، فكان المهاجرون سبعمائة ، ومعهم من الخيل ثلثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مَرْيَنَةُ أَلْفًا ، فيها من الخيل مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ، فيها من الخيل ثلاثون فرسا ، وكانت جُهَيْنَةُ ثمانمائة معها خمسون فرسا ، ومن سائر الناس تمام عشرة آلاف ، وهم بنو ضَمْرَةَ وبنو غِفَارٍ وأشجع وبنو سُليم وبنو كَعْبِ بْنِ عمرو وغيرهم . وعقد للمهاجرين ، ثلاثة ألوية : لواء مع عليّ ، ولواء مع الزبير ، ولواء مع سعد ابن أبي وقاص ، وكانت الرايات في الأنصار وغيرهم ، وكنتم عن الناس الخبر ، فلم يعلم به إلا خواصه ، وأما قريش بمكة فنَدِمَتْ على ما صنعتْ بِخُزَاعَةِ ، وعرفتْ أَنَّ ذلك انقضاء ما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من العهد ، ومَشَى الحارثُ بْنُ هِشَامٍ وعبدُ الله بْنُ أَبِي رِييمَةَ إلى أَبِي سُفْيَانَ فقالا له : إِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا بَدَّ لَهُ أَنْ يُصْلَحَ ، والله إن لم يُصْلَحْ لَا يَرُوعُكُمْ إِلَّا مُحَمَّدٌ فِي أَحْبَابِهِ . وقال أبو سُفْيَانَ : قد رَأَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ رَوِيَا كَرِهَتَهَا وَأَفْظَعَتَهَا ، وخفتُ من شرِّها ، قالوا : ما رَأَتْ ؟ قال : رَأَتْ كَأَنَّ دَمًا أَقْبَلَ مِنَ الْحِجَابِ يَسِيلُ حَتَّى وَقَفَ بِالْخُنْدَمَةِ مَلِيًّا ، ثمَّ كَانَ ذَلِكَ الدَّمُ لَمْ يَكُنْ ؛ فَكَرِهَ الْقَوْمُ ذَلِكَ وَقَالُوا : هَذَا شَرٌّ .

قال الواقدي : فلما رأى أبو سُفْيَانَ مَا رَأَى مِنَ الشَّرِّ قَالَ : هَذَا وَاللَّهِ أَمْرٌ لَمْ أَشْهَدْهُ

ولم أغب عنه ، لا يحمل هذا إلا على ، ولا والله ما شورت ولا هونت^(١) حيث بلغني ، والله ليغزونا محمد إن صدق ظني وهو صادق ، ومالي بُد أن آتي محمدا فأكلمه أن يزيد في الهدنة ، ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر . قالت قريش : قد والله أصبت ؛ وندمت قريش على ما صنعت بخزاعة وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وآله لابد أن يغزوها ؛ فخرج أبو سفيان وخرج معه مولى له على راحلتين ، وأسرع السير وهو يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : وقد روي الخبر على وجه آخر ، وهو أنه لما قدم ركب خزاعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بمن قتل منهم ، قال لهم : بمن تهتمكم وطلبتكم ؟ قالوا : بنو بكر بن عبد مناة ، قال : كلها ؟ قالوا : لا ، ولكن تهمتنا بنو نفاثة قصرة^(٢) ، ورأسهم نوفل بن معاوية الضفائي ؛ فقال : هذا بطن من بكر ، فأنا باعث إلى أهل مكة فسأئلهم عن هذا الأمر ، وغيرهم في خصال . فبعث إليهم ضمرة يخبرهم بين إحدى خلال ثلاث : بين أن يدوا خزاعة ، أو يبرءوا من حلف نفاثة ، أو ينبذ إليهم على سواء . فأتاهم ضمرة فخيرهم بين الخلال الثلاث ، فقال قريظة بن عبد عمرو الأعمى : أما أن ندي قتل خزاعة ، فإننا إن ودناهم لم يبق لنا سبب ولا بد^(٣) ، وأما أن نبرأ من حلف نفاثة ، فإنه ليس قبيلة تحب هذا البيت أشد تعظيما له من نفاثة ، وهم خلفاؤنا فلا نبرأ من حلفهم ، ولكننا ننبد إليه على سواء . فعاد ضمرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وندمت قريش أن ردت ضمرة بما ردت به .

قال الواقدي : وقد روي غير ذلك ؛ روي أن قريشا لما ندمت على قتل خزاعة وقالت : محمد غازينا ، قال لهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو يومئذ كافر مرتد

(١) ب . « هويت » ، وأثبت ما في أ ، د . (٢) قصرة : أي هم دون غيرهم .

(٣) يقال : ما له سيد ولا لبد ؛ أي لا قليل ولا كثير .

عندهم - : إنَّ عندى رأياً ؛ إنَّ محمداً ليس يَفْزُوكُمْ حَتَّى يُنْذِرَ إِلَيْكُمْ وَيُخَيِّرَكُمْ فِي خِصَالِ كُلِّهَا ،
أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ مِنْ غَزْوِهِ ، قالوا : ما هِىَ ؟ قال : يرسل إليكم أن تَدُوا قَتْلَى خُزَاعَةَ ، أو تَبْرَأُوا
مِنْ حِلْفٍ مِنْ تَقْضِى الْعَهْدِ وَهُمْ بَنُو نَفَاثَةَ ، أو يَنْبِذَ إِلَيْكُمْ الْعَهْدَ . فقال القَوْمُ : آخرِ بما قال
ابنُ أَبِي سَرْحٍ أن يكون ! فقال سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو : ما خَصْلَةٌ أيسر علينا من أن نبرأ من حلف
نُفَاثَةَ ، فقال شَيْبَةُ بْنُ عُثْمَانَ الْعَبْدَرِيُّ : حُطَّتْ أَخْوَالكُ ^(١) خُزَاعَةَ ، وغضبت لهم ! قال
سُهَيْلُ : وأى قُرَيْشٍ لم تَلِدْ خُزَاعَةَ ! قال شَيْبَةُ : لا ، ولكن نَدَى قَتْلَى خُزَاعَةَ فَهَرَّ أَهْوَنُ
عَلَيْنا . فقال قُرَيْظَةُ بْنُ عَبْدِ عَمْرٍو : لا والله لا نَدِيهِمْ ولا نَبْرَأُ عَنْ نُفَاثَةَ أَبْرَ الْعَرَبِ بِنَا ،
وَأَمْرُهُمْ لَبِيتَ رَبَّنَا ، ولكنْ نَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءٍ . فقال أَبُو سُفْيَانٍ : ما هذا بِشَيْءٍ ، وما
الرأى إِلَّا جَعْدُ هَذَا الْأَمْرِ أن تكون قُرَيْشٌ دَخَتْ فِي تَقْضِى الْعَهْدِ ، أو قطع مَدَّةً ، فإن
قطعه قومٌ بغير هَوًى مِنَّا ولا مَشُورَةٍ فاعلينا ! قالوا : هذا هو الرأى ، لا رأى إِلَّا الْجَعْدُ
لِكُلِّ ما كان من ذلك ؛ فقال : أنا أقسم أنى لم أَشْهَدْ ولم أَؤَامِرْ ، وأنا صادق ؛ لقد كرهتُ
ما صَنَعْتُمْ ، وعرفتُ أن سيكون له يومُ غَمَاسٍ ^(٢) ، قالت قُرَيْشٌ لِأَبِي سُفْيَانٍ : فأخرج أنتَ
بذلك ؛ فخرج .

قال الواقديّ : وحدثني عبد الله بن عامر الأسلميّ ، عن عطاء بن أبي مروان ، قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة صبيحة الليلة التي أوقعت فيها نُفَاثَةَ وَقُرَيْشٌ بِخُزَاعَةَ
بِالْوَتِيرِ : يا عائشة لقد حَدَثَ اللَّيْلَةَ فِي خُزَاعَةَ أَمْرٌ ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قُرَيْشًا
تَجْتَرِى عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ! أَيْنَقْضُونَ وَقَدْ أَفْنَاهُمُ السِّيفُ ! فقال : العهدُ لِأَمْرِ يَرِيدُهُ
اللهُ بِهِمْ ، فقالت : خيرٌ أم شرٌّ يا رسول الله ؟ فقال : خير .

قال الواقديّ : وحدثني عبد الحميد بن جعفر ، قال : حدثني عمران بن أبي أنس ، عن
ابن عباس ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَجْرُ طَرَفَ رِدَائِهِ ويقول :

(١) ب : « إخوانك » ، وما أثبتته من أ ، د . (٢) يوم غموس ، أى شديد .

« لَا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ - يَعْنِي خَزَاعَةَ - فَيَا أَنْصُرْ مِنْهُ نَفْسِي ! » .

قال الواقدي : وحدثني حرام بن هشام ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَكُمْ أَنْكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ يَقُولُ : جَدُّ الْعَهْدِ وَزِدُّ فِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ رَاجِعٌ بِسَخَطِهِ . وقال لبني خَزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ وَأَصْحَابُهُ : ازْجِعُوا وَتَفَرَّقُوا فِي الْأَوْدِيَةِ ، وَقَامَ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ وَهُوَ مُنْغَضِبٌ ، فَدَعَا بِمَاءٍ ، فَدَخَلَ يَغْتَسِلُ ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ : فَأَسْمَحُ يَقُولُ وَهُوَ يَصُبُّ الْمَاءَ عَلَى رِجْلَيْهِ : « لَا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ ! »

قال الواقدي : فَأَمَّا أَبُو سُفْيَانَ فَنَجَرَ مِنْ مَكَّةَ وَهُوَ مَتَخَوِّفٌ أَنْ يَكُونَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ وَرَهْطُهُ مِنْ خَزَاعَةَ سَبَقُوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ الْقَوْمُ لَمَّا رَجَعُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا الْأَبْوَاءَ تَفَرَّقُوا كَمَا أَوْصَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَى السَّاحِلِ تَعَارِضُ الطَّرِيقِ ، وَلَزِمَ بُدَيْلُ بْنُ أُمٍّ أَصْرَمَ الطَّرِيقِ فِي تَفَرُّعِهِ مَعَهُ ، فَلَقِيَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ أَشْفَقَ أَنْ يَكُونُوا لِقَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ كَانَ الْيَقِينُ عِنْدَهُ ، فَقَامَ لِلْقَوْمِ : مِنْذُكُمْ عَهْدُكُمْ يَثْرِبُ ؟ قَالُوا : لَا عَهْدَ لَنَا بِهَا ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ كَتَمُوهُ ، فَقَالَ : أَمَا مَعَكُمْ مِنْ تَمْرٍ يَثْرِبُ شَيْءٌ تُطْعِمُونَاهُ ، فَإِنْ لَمْ يَثْرِبْ فَضَلَا عَلَى تَمْرِ يَهَامَةَ ؟ قَالُوا : لَا ، ثُمَّ أَبَتْ نَفْسُهُ أَنْ تَقَرَّ ، فَقَالَ : يَا بُدَيْلُ ، هَلْ جِئْتُ مُحَمَّدًا ؟ قَالَ : لَا وَلَكِنِّي سَرْتُ فِي بِلَادِ خَزَاعَةَ مِنْ هَذَا السَّاحِلِ فِي قَتِيلٍ كَانَ بَيْنَهُمْ حَتَّى أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ . قَالَ : يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ : إِنَّكَ - وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ - بَرٌّ وَاصِلٌ . فَلَمَّا رَاحَ بُدَيْلٌ وَأَصْحَابُهُ جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى أَبْعَارٍ إِبْلِهِمْ فَفَتَّهَا فَأَذَابَ فِيهَا النَّوَى ، وَوَجَدَ فِي مَنْزِلِهِمْ نَوَى مِنْ تَمْرِ عَجْوَةٍ كَأَنَّهُ أُلْسُنَةُ الْعَصَافِيرِ ، فَقَالَ : أَحْلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ الْقَوْمُ مُحَمَّدًا . وَأَقْبَلَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ كُنْتُ غَائِبًا فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِ ، فَأَشَدُّ الْعَهْدِ وَزِدْنَا فِي الْمَدَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَلِلذَلِكَ قَدِمْتَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَلْ كَانَ قَبْلَكَ حَدَّثَ ؟

فقال : معاذ الله ! فقال رسول الله : فنحن على موتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نفتر ولا نبذل . فقام من عنده فدخل على أبنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته دونه ، فقال : أرغبت بهذا الفراش عني ، أم رغبت بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت أمرؤ نجس مشرك . قال : يا بنيّة ، لقد أصابك بعدي شر ، فقالت : إن الله هداني للإسلام ، وأنت يا أبت سيّد قريش وكبيرها ، كيف يخفى عنك فضل الإسلام ، وتعبّد حجراً لا يسمع ولا يبصر ! فقال : يا عجبا ! وهذا منك أيضا ! أترك ما كان يعبد آباي وأتبع دين محمد ! ثم قام من عنده فلقى أبا بكر ، فكلّمه ، وقال : تكلّم أنت محمّداً ، وتجير أنت بين الناس . فقال : أبو بكر : جوارى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لقى عمر فكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر ، فقال عمر : والله لو وجدت السّمور تقاتلكم لأعنتها عليكم . قال أبو سفيان : جزييت من ذى رجم شراً ! ثم دخل على عثمان بن عفّان فقال له : إنه ليس في القوم أحد أمسى بي رَحماً منك ، فزِدني الهدنة وجَدّد العهد ، فإنّ صاحبك لا يردّ عليك أبداً ؛ والله ما رأيت رجلاً قطّ أشدّ إكراماً لصاحب من محمّد لأصحابه ، فقال عثمان : جوارى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أبو سفيان حتّى دخل على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلّمها ، وقال : أجبري بين الناس ، فقالت : إنّما أنا امرأة ، قال : إنّ جوارك جائز ، وقد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز محمّد ذلك . فقالت فاطمة : ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأبت عليه ، فقال : مَرى أحد هذين ابنك يُجبر بين الناس ، قالت : إنّهما صبيان ، وليس يجبر الصبي . فلما أبت عليه أتى عليّاً عليه السلام فقال : يا أبا حسن ، أجز بين الناس وكلّم محمّداً ليزيد في المدة ، فقال عليّ عليه السلام : ويحك يا أبا سفيان ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّم

أَلَا يَفْعَلُ ، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلمه في شيء يكرهه ، قال أبو سُفْيَان : فما رأى عندك فتشيراً لأمرى ، فإنه قد ضاقَ على ؟ فرنى بأمرٍ ترى أنه نافعى ، قال على عليه السلام : والله ما أجد لك شيئاً مثل أن تقوم فتجبر بين الناس ، فإنك سيدٌ كَنَانَةٌ ، قال : أترى ذلك مُنِيَا غَنَى شيئاً ؟ قال على : إني لا أظن ذلك والله ، ولكنى لا أجد لك غيره . فقام أبو سُفْيَان بين ظهرَى الناس فصاح : ألا إني قد أجرتُ بين الناس ، ولا أظنَّ محمدًا^(١) يحقرنى . ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد ما أظن أن تردَّ جوارى ! فقال عليه السلام : أنت تقول ذلك يا أبا سُفْيَان ! ويقال : إنه لما صاح لم يأت النبي صلى الله عليه وسلم وركب راحلته وأطلق إلى مكة . ويروى أنه أيضاً أتى سعدَ بنَ عُبَادَةَ فكلمه في ذلك : وقال : يا أبا ثابت ، قد عرفتَ الذى كان بينى وبينك ، وإني كنتُ لك في حَرَمنا جاراً ، وكنتُ لى يثربَ مثلَ ذلك ، وأنتَ سيدُ هذه المدرة ، فأجرُ بين الناس ، وزِدنى فى المدة . فقال سعد : جوارى جوارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما يجيرُ أحدٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما انطلق أبو سُفْيَان إلى مكة ، وقد كان طالت غيبته عن قريش وأبطأ ، فاتَّهَموه وقالوا : نراه قد صَبَا واتَّبَعَ محمدًا سرّاً ، وكتَمَ إسلامه ؛ فلما دخل على هندٍ ليلاً قالت : قد احتَبَسْتَ حَتَّى اتَّهَمَكَ قومك ، فإن كنتَ جئتَهم بنَجْجٍ فأنت الرجل . وقد كان دنا منها لينفشاها ، فأخبرها الخبر وقال : لم أجد إلا ما قال لى على ، فضرَبْتُ برجلها فى صدوره وقالت : قُبِحَتْ من رسولِ قوم !

قال الواقدي : خدثنى عبدُ الله بنُ عثمان ، عن أبي سليمان ، عن أبيه ، قال : لما أصبح أبو سُفْيَان حَلَقَ رأسه عند الصَّتَمِينَ : أساف وناثلة ، وذبحَ لهما ، وجعل يمسح بالدم رموسهما ، ويقول : لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما ماتَ عليه أبى . قال : فعَل ذلك ليبرئى نفسه مما اتَّهَمْتُه قريش به .

(١) د : « يجيرنى » .

قال الواقديّ : وقالت قريش لأبي سُفْيَان : ما صنعت ؟ وما وراءك ؟ وهل جئتنا بكتاب من محمد وزيادة في المدة ؟ فإنّا لا نأمن من أن يَغزُونَا ، فقال : والله لقد أتى عليّ ، ولقد كلمت عليه أصحابه فما قدرتُ على شيء منهم ، ورموني بكلمة منهم واحدة ، إلا أن عليّاً قال لما ضاقت بي الأمور : أنت سيّد كِنَانَة ، فأجروا بين الناس ، فنادتُ بالجوار ، ثم دخلتُ على محمد فقلت : إني قد أجرتُ بين الناس ، وما أظنّ محمداً يردّ جوارى ، فقال محمد : أنت تقول ذاك يا أبا سُفْيَان ! لم يزد على ذلك ، قالوا : ما زاد عليّ على أن يَلَبّ بك تلعباً ؟ قال : فوالله ما وجدتُ غير ذلك .

قال الواقديّ : فحدثني محمد بن عبد الله ، عن الزّهريّ ، عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم ، قال : لما خرج أبو سُفْيَان عن المدينة قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : جهّزينا وأخفي أمرَك . وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : اللهم خذْ عن قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بفتة ؟ ورؤي أنه قال : اللهم خذْ عليّ أبصارهم فلا يروني إلا بفتة ، ولا يسمعون بي إلا فجأة . قال : وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأثقاب وجعل عليها الرجال ، ومنع مَنْ يخرج من المدينة ، فدخل أبو بكر على عائشة وهي تجهّز رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، تعمل له قمحاً سويقاً ودقيقاً ، وتمراً ، فقال لها : أهنّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بغزو ؟ قالت : لا أدري ؛ قال : إن كان همّ بسفرٍ فأذينا نهيّاً له ؛ قالت : لا أدري لعله أراد بني سليم ، لعله أراد ثقيفاً أو هوازين ! فاستعجمت^(١) عليه ، فدخل عليّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله فقال : يا رسولَ الله ، أردتَ سفراً ؟ قال : نعم ، قال : أفأجهّز ؟ قال : نعم ، قال : وأين تريد ؟ قال : قريشا ، وأخف ذلك يا أبا بكر ، وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله الناس فتجهّزوا ، وطوى عنهم الوجه الذي يريد ، وقال له أبو بكر : يا رسولَ الله ، أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟ فقال : إنهم غدّروا ونقضوا العهد ،

(١) يقال : استعجمت عليه ؛ إذا سكت ولم يجر جواباً .

فأنا غازیهم ، فاطور ما ذكرتُ لك ، فكان الناسُ بینَ ظانٍ یظُنُّ أنه یریدُ سُلَیماً ، وظانٍ یظُنُّ أنه یریدُ هَوازِنَ ، وظانٍ یظُنُّ أنه یریدُ ثَقِیفاً ، وظانٍ یظُنُّ أنه یریدُ السَّامَ ، وبعثَ رسولُ الله صلی الله علیه وآله أبا قتادةَ بنِ ربیعٍ فی قمرٍ إلى بطنِ لیظنُّ الناسُ أن رسولَ الله صلی الله علیه وآله قدَّم أَمامه أولئك الرجالَ لتوجَّهه إلى تلكَ الجهة ، ولتذهب بذلك الأخبارُ .

قال الواقديّ : حدَّثني المنذرُ بنُ سعد ، عن یزیدَ بنِ رومان ، قال : لما أجمَعَ رسولُ الله صلی الله علیه وآله المسیرَ إلى قریش ، وعَلِمَ بذلكَ مَنْ عَلِمَ من الناسِ ، كتبَ حاطبُ ابنُ أبی بلتعةَ إلى قریشٍ یُخبرهم بالذی أجمَعَ علیه رسولُ الله صلی الله علیه وآله فی أمرهم ، وأعطی الكتابَ امرأةً من مُزَینة ، وجعلَ لها على ذلكَ جُملاً علی أن تُبلِّغه قریشاً ، فجعلتُ الكتابَ فی رأسِها ، ثم فَتَلَّتْ علیه قُرُونَهَا وخرجتُ به ، وأتی الخبرُ إلى النبیِّ صلی الله علیه وآله من السماء بما صَنَعَ حاطبٌ ، فبعثتُ علیاً علیه السلام والزَّبیرَ فقال : أدْرِکَا امرأةً من مُزَینة قد کَتَبَ معها حاطبٌ کتاباً یُحذِرُ قریشاً ، فخرَجَا وأدْرَکَها یدِی الخلیفة ، فاستنزلاها وألتمَسَا الكتابَ فی رَحْلِها فلم یَجِدَا شیئاً ، فقالا له : نَحْلِفُ بالله ما کَذَبَ رسولُ الله صلی الله علیه وسلَّم ولا کَذَبْنَا ، ولتُخرجَنَّ الكتابَ أو لَنکْشِفَنَّکَ . فلما رأتُ منهما الجِدَّ حَلَّتْ قُرُونَهَا ، واستخرجتِ الكتابَ فدفعتهُ إليهما ، فَأَقْبَلَا به إلى رسولِ الله صلی الله علیه وآله ، فدعا حاطباً وقال له : ما حَمَلَکَ على هذا ؟ فقال : یا رسولَ الله ، والله إني لَمُسْلِمٌ مؤمنٌ بالله ورسوله ، ما غَیَرْتُ ولا بَدَلْتُ ، ولکنی کنتُ امرأً لیس لی فی القومِ أَصْلٌ ولا عَشِیرة ، وكان لی بین أظهرهم أهلٌ وولَدٌ ، فصانعتُهم . فقال عمر : قاتلکَ الله ! ترى رسولَ الله صلی الله علیه وسلَّم یأخذُ بالأنقابِ وتکتبُ إلى قریشٍ تحذَرهم ! دَغْنی یا رسولَ الله أَضْرَبَ عُنُقَه ، فَإِنَّه قد نَافَقَ ، فقال رسولُ الله صلی الله

عليه وآله : وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! قال الواقدي : فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة بالأنوية المعقودة والرايات بعد العصر من يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان لم يحلّ عقده حتى انتهى إلى الصلصل^(١) ، والمسلمون يقودون الخيل ، وقد امتطوا الإبل ، وقدم أمامه الزبير بن العوام في مائتين ؛ قال : فلما كان بالبدياء نظر إلى عنان السماء ، فقال : إني لأرى السحاب تستهل^(٢) بنصر بني كعب - يعني خزاعة .

قال الواقدي : وجاء كعب بن مالك ليعلم أي جهة يقصد ؟ فبرك بين يديه على ركبتيه ، ثم أنشده :

قَضَيْنَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ نَحْبٍ^(٣) وَخَيْبَرٍ تَمَّ أَحْمِينَا السُّيُوفَا
فَسَائِلُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاضِيَهُنَّ دَوْسَا أَوْ ثَقِيفَا
فَلَسْتُ بِمَخَاضِرٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنْهَا أُلُوفَا
فَنَنْتَزِعُ الْخِيَامَ بِيْطُنٍ وَجَّ وَنَتْرُكُ دُورَكُمْ مِنْهَا خُلُوفَا

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بين لك رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً ، فلم تزل الناس كذلك حتى نزلوا بمنزلة الظهران .

قال الواقدي : وخرج العباس بن عبد المطلب ومخرمة بن نوفل من مكة يطلبان رسول الله صلى الله عليه وآله ظناً منهما أنه بالمدينة يريدان الإسلام ، فلقياه بالسُّقْيَا .

(١) صلصل : بنواحي المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح . ياقوت .
(٢) استهل السحاب ؛ إذا كثرت أنصابه .
(٣) النحب : النذر .

قال الواقدي : فلما كانت الليلة التي أصبح فيها بالبحفة رأى فيها أبو بكر في منامه أن النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه قد دنوا من مكة فخرجت عليهم كلبة تهر^(١) فلما دنوا منها استلقت على قفاها ، وإذا أطباؤها^(٢) تشخب لبنا . فقصصها على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ذهب كلبهم ، وأقبل درهم ، وهم سائلونا بأرحامهم ، وأنتم لاقون بعضهم ، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

قال الواقدي : وإلى أن وصل مرة الظهران لم يبلغ قريشاً حرف واحد من حاله ، فلما نزل بمر الظهران أمر أصحابه أن يوقدوا النار ، فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وأجمعت قريش أن يبعثوا أبا سفيان يتجسس لهم الأخبار ، فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء . قال : وقد كان العباس بن عبد المطلب قال : واسوء صباح قريش ! والله إن دخلها رسول الله صلى الله عليه وآله عنوة إنه لهلك قريش آخر الدهر ؛ قال العباس : فأخذت بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء فركبتها ، وقلت : ألتبس حطاباً أو إنساناً أبعثه إلى قريش فيلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخلها عليهم عنوة ؛ فوالله إني لفي الأراك ليلاً أبتنى ذلك إذ سمعت كلاماً يقول : والله إن رأيت كالليلة ناراً ، قال : يقول بديل بن ورقاء : إنها نيران خزاعة جاشها^(٣) الحرب . قال : يقول أبو سفيان : خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ؛ فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ! فعرّف صوتي ، فقال : لبيك أبا الفضل ! فقلت : ويحك ! هذا رسول الله في عشرة آلاف ، وهو مصبّحكم ؛ فقال : بأبي وأمي ، فهل من حيلة ! فقلت : نعم ، تركب عجز هذه البغلة ، فأذهب بك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه إن طفر بك دون ذلك ليقتلنك ؛ قال : والله أنا أرى ذلك ، فركب خلفي ، ورحل

(١) تهر : تنبح .

(٢) الأطباء : حملات الضرع من ذات الحف والظلف والمخار .

(٣) جاشها الحرب : أفرعها .

يُدِيل وحكيم فتوجهت به فلما مررتُ به على نار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوني قالوا : عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بَغلة رسول الله ، حتى مررتُ بنار عمر بن الخطاب ، فلما رآني قال : من هذا ؟ قلت : العباس ، فذهب ينظرُ فرأى أبا سُفيان خلني ، فقال : أبو سُفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد ! ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ، ورَكَضَتِ البَغلة حتى أُجتمعا جميعا على باب قُبَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخلتُ ودخل عمرُ بن الخطاب على أثري ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا أبو سُفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عهد ، فدعني أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إني قد أجزته ، ثم لُزمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ : والله لا يُنَاجِيهِ الليلةُ أحدٌ دوني ، فلما أَكثَرَ عمرُ فيه قلتُ : مهلا يا عمر ! فإنه لو كان رجلا من عديّ بن كعب ما قلت هذا ، ولكنه أحدُ بني عبد مناف . فقال عمر : مهلا يا أبا الفضل ، فوالله لإسلامك كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب - أو قال : من إسلام رجلٍ من وَلَدِ الخطاب - لو أسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اذهب به فقد أجزناه ؛ فليئتُ عندك حتى تغدو به علينا إذا أصبحت . فلما أصبحتُ غدوتُ به ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال : وَيْحَكَ يا أبا سُفيان ! ألم يَأْنِ لَكَ أن تعلم أن لا إلهَ إلا الله ! قال : بأبي أنت ما أحلَمَكَ وأكرمَكَ وأعظمَ عَفْوَكَ ! قد كان يَقَعُ في نفسي أن لو كان مَعَ الله إله آخر لأغني ؛ قال : يا أبا سُفيان ألم يَأْنِ لَكَ أن تعلم أني رسول الله ! قال : بأبي أنت ما أحلَمَكَ وأكرمَكَ وأعظمَ عَفْوَكَ ! أمّا هذه فوالله إنَّ في النفس منها شيئاَ بعدُ ، قال العباس : فقلتُ وَيْحَكَ ! تشهد وقل لا إلهَ إلا الله محمد رسول الله قبل أن تُقَتَّل . فتشهد . وقال العباس : يا رسول الله ، إنَّكَ قد عرفت أبا سُفيان وفيه الشرف والفخر ، فأجعل له شيئا ، فقال : مَنْ دخل دارَ أبي سُفيان فهو آمن ، ومن أغلق دارَه فهو آمن ، ثم قال : خذْهُ فأحبسه بِمَضِيقِ الوادي إلى حَظْمِ الجبل

حَتَّى تَمَرَّ عَلَيْهِ جُنُودُ اللَّهِ فَيَرَاهَا . قَالَ الْعَبَّاسُ : فَعَدَلْتُ بِهِ فِي مَضِيقِ الْوَادِي إِلَى خَطْمِ الْجَبَلِ فَحَبَسْتُهُ هُنَاكَ ، فَقَالَ : أَغْدِرْ يَا بَنِي هَاشِمٍ ! فَقَاتُلْهُ : إِنَّ أَهْلَ التَّبَوَةِ لَا يَغْدِرُونَ ، وَإِنَّمَا حَبَسْتُكَ لِحَاجَةٍ ؛ قَالَ : فَهَلَّا بَدَأْتَ بِهَا أَوَّلًا فَأَعْلَمْتَنِيهَا ، فَكَانَ أَفْرَخٌ لِرُوعَى ! ثُمَّ مَرَّتْ بِهِ الْقِبَائِلُ عَلَى قَادَتِيهَا ، وَالْكَتَائِبُ عَلَى رَايَاتِهَا ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ مَرَّ بِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي بَنِي سُكَيْمٍ ، وَهَمُّ أَلْفٍ ، وَلَهُمْ لَوَاءٌ إِنْ يَحْمِلُ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ بْنُ مُرْدَاسٍ وَالْآخَرُ خُفَّافُ بْنُ نُدْبَةَ ، وَرَايَةَ يَحْمِلُهَا الْمَقْدَادُ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ ، يَا أَبَا الْفَضْلِ ، مَنْ هَؤُلَاءُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءُ بَنُو سُكَيْمٍ ، وَعَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، قَالَ : الْغَلَامُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَلَمَّا حَاضَى خَالِدُ الْعَبَّاسَ وَأَبَا سُفْيَانَ كَبَّرَ ثَلَاثًا وَكَبَّرُوا مَعَهُ ، ثُمَّ مَضُوا . وَمَرَّ عَلَى أَثَرِهِ الزَّيْبِرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي خَمْسَمِائَةٍ ، فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَقَوْمٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ ، وَمَعَهُ رَايَةٌ سُودَاءُ ، فَلَمَّا حَاضَاهَا كَبَّرَ : ثَلَاثًا وَكَبَّرَ أَصْحَابُهُ فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا الزَّيْبِرُ ، قَالَ : ابْنُ أَخْتِكَ ! قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : ثُمَّ مَرَّتْ بِهِ بَنُو غِفَارٍ فِي ثَلَاثَمِائَةٍ يَحْمِلُ رَايَتَهُمْ أَبُو ذَرٍّ - وَيُقَالُ : إِيمَاءُ بْنُ رَحْضَةَ - فَلَمَّا حَاضَوْهَا كَبَّرُوا ثَلَاثًا ، قَالَ : يَا أَبَا الْفَضْلِ : مَنْ هَؤُلَاءُ ؟ قَالَ : بَنُو غِفَارٍ ؛ قَالَ : مَالِي وَلِبْنَى غِفَارٍ ! ثُمَّ مَرَّتْ بِهِ أَسْلَمُ فِي أَرْبَعَمِائَةٍ يَحْمِلُ لَوَاءَهَا يَزِيدُ بْنُ الْخَصِيبِ ، وَلَوَاءُ آخَرٍ مَعَ نَاجِيَةِ بْنِ الْأَنْجَمِ ، فَلَمَّا حَاضَوْهُ كَبَّرُوا ثَلَاثًا ، فَسَأَلَ عَنْهُمْ فَقَالَ : هَؤُلَاءُ أَسْلَمٌ ، فَقَالَ : مَالِي وَلَا أَسْلَمُ ! مَا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ تَرَّةٌ قَطَّ ، ثُمَّ مَرَّتْ بَنُو كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ خُزَاعَةَ فِي خَمْسَمِائَةٍ يَحْمِلُ رَايَتَهُمْ بَشْرُ بْنُ سُفْيَانَ ، فَقَالَ : مَنْ هَؤُلَاءُ ؟ قَالَ : كَعْبُ بْنُ عَمْرِو ، قَالَ : نَعَمْ حَلْفَاؤُ مُحَمَّدٍ ، فَلَمَّا حَاضَوْهُ كَبَّرُوا ثَلَاثًا . ثُمَّ مَرَّتْ مُزَيْنَةُ فِي أَلْفٍ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَلْوِيَةِ مَعَ التَّمَنانِ بْنِ مَقْرَظٍ ، وَبِلَالُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو ، فَلَمَّا حَاضَوْهَا كَبَّرُوا ، قَالَ : مَنْ هَؤُلَاءُ ؟ قَالَ : مُزَيْنَةُ ، قَالَ : يَا أَبَا الْفَضْلِ ، مَالِي وَلِمُزَيْنَةَ ، قَدْ جَاءَتْنِي تُقَمِّعُ مِنْ شَوَاهِقِهَا ^(١) .

(١) الشواهد : الجبال .

ثم مرّت جُهينة في ثمانمائة ، فيها أربعة ألوية مع معبد بن خالد ، وسويد بن صخر ، ورافع بن مكيث ، وعبد الله بن بدر ، فلما حاذوه كبروا ثلاثا فسأل عنهم ، ف قيل : جُهينة . ثم مرّت بنو كنانة وبنو ليث وضمرة وسعد بن أبي بكر في مائتين ، يحمل لواءهم أبو واقد الليثي ، فلما حاذوه كبروا ثلاثا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر . قال : نعم أهل شؤم هؤلاء الذين غزانا محمد لأجلهم ! أما والله ما شورت فيهم ، ولا علمتُهُ ، ولقد كنت له كارها حيث بلغني ، ولكنه أمرته خُم^(١) ، قال العباس ، لقد خار الله لك في غزو محمد إياكم ، ودخلتم في الإسلام كافة ، ثم مرّت أشجع - وهم آخر من مرّ به قبل أن تأتي كتيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثة يحمل لواءهم معقل بن سنان ، ولواء آخر مع نعيم بن مسعود فكبروا - قال : من هؤلاء ؟ قال : أشجع ، فقال : هؤلاء كانوا أشدّ العرب على محمد ، قال العباس : نعم ؛ ولكن الله أدخل الإسلام قلوبهم ؛ وذلك من فضل الله . فسكت وقال : أما مرّ محمد بعد ؟ قال : لا ، ولو رأيت الكتيبة التي هو فيها لرأيت الحديد والخيل والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة ، فلما طلعت كتيبة رسول الله صلى الله عليه وآله الخضراء طلّع سواد شديد وغبرة من سناك الخيل ، وجعل الناس يمرّون ، كلّ ذلك يقول : أما مرّ محمد بعد ؟ فيقول العباس : لا ، حتّى مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله يسير على ناقته القصوى بين أبي بكر وأسيّد بن حضير ، وهو يحدّثهما ، وقال له العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وآله في كتيبته الخضراء ، فأ نظر ، قال : وكان في تلك الكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار ، وفيها الألوية والرايات ، وكلّهم منغمسون في الحديد لا يُرى منهم إلّا الحديق ، ولعمري بن الخطاب فيها زجل^(٢) وعليه الحديد ، وصوته عال ، وهو يزعها ، فقال : يا أبا الفضل ، من هذا المتكلم ! قال : هذا

(١) خم ، أى وقع .

(٢) زجل ، أى صوت .

عمرُ بن الخطاب؛ قال: لقد أمر أمرُ بنى عديّ بعدَ قلةٍ وذِلَّةٍ! فقال: إنَّ اللهَ يرفع من يشاء بما يشاء، وإنَّ عمرَ ممَّن رفعه الإسلام، وكان في الكتيبة ألفا دارع، وراية رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مع سعد بن عبادة، وهو أمام الكتيبة، فلما حاذها سعد نادى: يا أبا سفيان:

اليومَ يومُ الملحمةِ اليومَ تُسبى الحرمةُ

اليومَ أذلَّ الله قريشا، فلما حاذها رسولُ الله صلى الله عليه وآله ناداه أبو سفيان: يا رسولَ الله، أمرت بقتل قومك؟ إنَّ سعدا قال:

اليومَ يومُ الملحمةِ اليومَ تُسبى الحرمةُ

اليومَ أذلَّ الله قريشا، وإنِّي أنشدك الله في قومك فأنْتَ أبرُّ الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس. فقال عثمان بن عفان وعبدُ الرحمن بن عوف: يا رسولَ الله، إنا لا نأمنُ سعدا أن يكون له في قريش صولة، فوقف رسولُ الله صلى الله عليه وآله وناداه، يا أبا سفيان، بل اليومَ يومُ المرحمة، اليومَ أعزَّ الله قريشا، وأرسل إلى سعدٍ فمزَّله عن اللواء. وأُختلِفَ فيمن دَفَعَ إليه اللواءَ فقيل: دَفَعَه إلى عليِّ بنِ أبي طالب عليه السلام، فذهب به حتَّى دخل مكة، فغرَّزه عند الرِّكن - وهو قولِ ضرار بن الخطاب الفهري - وقيل: دَفَعَه إلى قيس بن سعد بن عبادة - ورأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أنَّه لم يُخرجه عن سعد حيث دَفَعَه إلى ولده، فذهب به حتَّى غرَّزه بالحجون؛ قال: وقال أبو سفيان للعباس: ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط، ولا أخبرني به خبر، سبحان الله! ما لأحد بهؤلاء طاقة ولا يدان! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عباس عظيما، قال: فقلت: ويحك! إنَّه ليس بملك، وإنَّها النبوة؛ قال: نعم.

قال الواقدي: قال العباس: فقلت له: أنج ويحك، فأدرك قومك قبل أن يدخل

عليهم ؛ فخرج أبو سُفيانَ حتى دخل من كداء وهو يُنادي : مَنْ دَخَلَ دارَ أبي سُفيان فهو آمِنٌ ، ومن أَعْلَقَ عليه بابه فهو آمِنٌ ، حتى أَتَتْهُ إلى هِنْدِ بنتِ عُتبَةَ ، فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا مُحَمَّدٌ في عَشْرَةِ آلَافٍ ، عليهم الحديد ، وقد جَعَلَ لي أَنَّهُ من دَخَلَ دارِي فهو آمِنٌ ، ومن أَعْلَقَ عليه بابه فهو آمِنٌ ، وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فهو آمِنٌ ، فقالت : قَبِّحَكَ اللَّهُ من رسول قوم ! وجَعَلْتُ تقول : وَيُحْكِم ! اقتلوا وافدَكم قَبِّحَهُ اللَّهُ من وافد قوم ! فيقول أبو سُفيان : وَيُحْكِم ! لا تَغَرَّتْكُمْ هَذِهِ من أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ ما لَمْ تَرَوْا : الرِّجَالَ ، وَالْكُرَاعَ ، وَالسَّلَاحَ ، ليس لأحدٍ بهذا طَاقَةٌ ، مُحَمَّدٌ في عَشْرَةِ آلَافٍ ، فَأَسْلِمُوا تَسْلَمُوا . وقال البرد في « الكامل » ، : أَمْسَكَتْ هِنْدُ برأسَ أبي سُفيان وقالت : بئسَ طليعةُ القوم ! والله ما خدشت خدشا ، يا أهلَ مَكَّةَ ، عليكم الحِميتُ الدِّسَمُ فاقتلوه . قال : الْحِميتُ : الزَّقُّ المَزَقُّ .

قال الواقدي : وخرج أهلُ مَكَّةَ إلى ذِي طُوًى يَنْظُرُونَ إلى رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ ، وَاَنْضَوَى إلى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةٍ وَعِكرَمَةَ بنِ أَبِي جَهْلٍ وَسُهَيْلَ بنِ عمرو ناسٍ من أهلِ مَكَّةَ ومن بني بكرٍ وهَذِيلٍ ، فَلَبِسُوا السِّلَاحَ ، وَأَقْسَمُوا لا يَدْخُلُ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ عَنَوةً أَبَداً . وكان رجلٌ من بني الدَّوَلِ يقال له : حَاسِ بنُ قَيْسِ بنِ خَالِدِ الدَّوَلِيِّ لَمَّا سَمِعَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ جَلَسَ يُصَلِّحُ سِلَاحَهُ ، فقالت له امرأته : لِمَ تَعِدُّ السِّلَاحَ ؟ قال : لِحَمْدِ وَأَصْحَابِهِ ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَخْدِمَكَ مِنْهُمْ خادِماً ، فَإِنَّكَ إِلَيْهِ مُحْتَاجَةٌ ، قالت : وَيَحْكُ لا تَفْعَل ! لا تُقَاتِلْ مُحَمَّدًا ، وَاللَّهِ لَيُضِلَّنَّ هَذَا عَنكَ لو رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ ؟ قال : سَتَرَيْنَ ، وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وهو على ناقته القِصَواءَ معْتَجِراً^(١) مُبِرِّدَ حَبْرَةٍ ، وعليه عمامةٌ سوداء ، ورايته سوداء ، ولواؤه أسود ، حتَّى وَقَفَ بِذِي طُوًى ، وَتَوَسَّطَ النَّاسَ ، وَإِنْ عُثْنُونَهُ لَيْسَ واسِطَةً الرَّحْلَ ، أَوْ يَقْرُبُ مِنْهُ تَوَاضَعَا لِلَّهِ حَيْثُ رَأَى ما رَأَى من الفَتْحِ وكثرةِ المسلمين ، وقال : لا عِيشَ إِلَّا عِيشُ الْآخِرَةِ .

(١) معْتَجِراً : لاِبْساً .

وجعلت الخيلُ تعجّ بذى طوى في كل وجه ، ثم ثابتٌ وسكنت ، والتفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسيد بن حضير ، فقال : كيف قال حسان بن ثابت ؟ قال : فأنشده :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّعَمَ مَوْعِدُهَا كَدَاهُ (١)
تَظَلَّ جِيَادُنَا مَتَمَطَّرَاتٍ تُلَطَّمُنَّ بِالْخَمْرِ النَّسَاءُ (٢)

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحمد الله ، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل من كداه ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من الليط ، وأمر قيس بن سعد أن يدخل من كدّى ، ودخل هو صلى الله عليه وآله من أذاخر .

قال الواقدي : وحدثنى مروان بن محمد ، عن عيسى بن عميلة الفزاري ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة بين الأقرع بن حابس وعُيَيْنَةَ بن حصن .

قال الواقدي : وروى عيسى بن مَعْمَر ، عن عَبَّاد بن عبد الله ، عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : صعد أبو قحافة بصغرى بناته وأسمها قريية ، وهو يومئذ أعمى ، وهي تقوده حتى ظهرت به إلى أبي قبيس ، فلما أشرفت به قال : يا بُنَيَّة ، ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً مقبلاً كثيراً ! قال : يا بُنَيَّة ، تلك الخيل ، فانظري ماذا ترين ؟ قالت : أرى رجلاً يسمي بين ذلك السواد مُقْبِلاً ومدبراً ، قال : ذاك الوازع ، فانظري ماذا ترين ؟ قالت : قد تفرق السواد ، قال : قد تفرق الجيش ، البيت البيت ؟ قالت : فنزلت الجارية به وهي تُرْعِبُ لما ترى ، فقال : يا بُنَيَّة ، لا تخافي ، فوالله إن أذاك عتيقاً لآثر أصحاب محمد عند محمد ؛ قالت : وعليها طوق من فضة ، فاختلسه بعض من دخل ،

(١) ديوانه ه والنعم : الفبار .

(٢) متمطرات : مسرعات . والخمر : جمع خمار .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة جعل أبو بكر يُنادي : أنشدكم الله آيها الناس طَوْقَ أُخْتِي ؛ فلم يردَّ أحدٌ عليه ، فقال : يَا أُخْتِي احتسبي طَوْقَكَ ، فَإِنَّ الْأَمَانَةَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ .

قال الواقديّ : وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنِ الْحَرْبِ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ سِتَّةِ رِجَالٍ وَأَرْبَعِ نِسْوَةٍ : عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَهَبَارُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ ، وَمَقْبِسُ بْنُ صُبَابَةَ اللَّيْثِي ، وَالْحَوَيْرِثُ بْنُ تَفِيلٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَلَالٍ بْنُ خَطْلٍ الْأَدْرَمِيُّ ، وَهَنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ ، وَسَارَّةُ مَوْلَاةُ لَبْنَى هَاشِمٍ ، وَقَيْنَتَيْنِ لَابْنِ خَطْلٍ : قَرِيْبًا وَقَرِيْبَةً ، وَيُقَالُ : قَرِيْنًا وَأَرْب .

قال الواقديّ . وَدَخَلَتِ الْجُنُودُ كُلُّهَا ، فَلَمْ تَلَقَ حَرَبًا إِلَّا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَإِنَّهُ وَجَدَ جَمْعًا مِنْ قَرِيْشٍ وَأَحَاطَ بِهَا قَدْ جَمَعُوا لَهُ ، فِيهِمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَنَمَوْهُ الدَّخُولَ ، وَشَهَرُوا السَّلَاحَ ، وَرَمَوْهُ بِالنَّبْلِ ، وَقَالُوا : لَا تَدْخُلْهَا عَنُودٌ أَبَدًا ؛ فَصَاحَ خَالِدٌ فِي أَصْحَابِهِ ، وَقَاتَلَهُمْ ، فَقُتِلَ مِنْ قَرِيْشٍ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ ، وَمِنْ هَذِيلٍ أَرْبَعَةٌ ، وَانْهَزَمُوا أَقْبَحَ انْهِزَامٍ حَتَّى قُتِلُوا بِالْحِزْوَةِ ، وَهُمْ مُؤَكَّدُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، وَأَنْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَوْقَ رِءُوسِ الْجِبَالِ ، وَأَتَبَعَهُمُ الْمَسْلُومُونَ ، وَجَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ يَنَادِيَانِ : يَا مَعْشَرَ قَرِيْشٍ ، عِلَامُ تَقْتُلُونِ أَنْتُمْ سَكَمَ ؟ مَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ وَضَعَ السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْتَمِعُونَ الدَّوْرَ وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابَ ، وَيَطْرَحُونَ السَّلَاحَ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمَسْلُومُونَ .

قال الواقديّ : وَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ عَلَى نَبِيَّةٍ أَذَاخِرَ ، فَنَظَرَ إِلَى الْبَارِقَةِ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ الْبَارِقَةُ ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَنِ الْقِتَالِ ؟ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ

قُوْرِتِل ، ولو لم يُقاتَل ما قَاتَلَ ؛ فقال : قضاء الله خير ، وأقبل ابنُ خُطَل مدججاً في الحديد على فرس ذَنُوب^(١) بيده قَنَاة يقول : لا والله لا يدْخُلها عَنُوة حتى يرى ضَرْباً كَأَفْواه المزاد ، فلَمَّا أَنتهى إلى الخَنْدَمَة ورأى القتال دَخَلَ رُعب حتى ما يَسْتَمْسِك من الرُّعدة ، ومَرَّ هارباً حتى أَنتهى إلى السكبة ، فدخل بين أَسْتارها بعد أن طرح سلاحه وترك فرسه ، وأقبل حماس بن خالد الدؤليّ منهزماً حتى أتى بَيْتَه فدَقَّه ، ففتحت له امرأته فدخل ، وقد ذهبت رُوحُه ، فقالت : أين الخادم التي وعدتني؟ مازلت مُنْتَظِرَتِكَ منذُ اليوم ، تَسخر به ، فقال : دعى هذا وأغلق الباب ، فإنّه من أَغْلَق بابَه فهو آمِن ، قالت : وَيْحَكَ ! أَلَمْ أَنهَكَ عن قتالِ مُحَمَّد ! وقلت لك : إِنِّي ما رأيته يقاتلكم مرّةً إلّا وظَهَرَ عليكم ، وما بابُنا ؟ قال : إِنَّه لا يفتح على أَحَدٍ بابَه ، ثم أنشدّها^(٢) :

إِنْكَ لو شَهِدْتَنَا بِالْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكرَمَةُ
وَبُو يَزِيدُ كَالْعَجُوزِ الْمُؤْتَمَةِ وَضَرَبْنَا هُمُ بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ^(٣)
لَهُمْ زُئِيرٌ خَلَفْنَا وَغَمَمُهُ لَمْ تَنْطِقْ فِي الْيَوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ^(٤)

قال الواقديّ : وحدثني قُدَامة بن موسى ، عن بشير مولى المازنيتين ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كنتُ ممن لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر ، فلما أشرف نظر إلى بيوت مكة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ونظر إلى موضع قُبّة بالأبطح تُجَاه شعب بنى هاشم حيث حُصِر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاث

(١) ذَنُوب . وافر الذنب بالتحرّيك .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٢٧ .

(٣) المؤتمة : التي قتل زوجها فبقى لها أولاد أيتام ، والمسلمة ، أراد السالمين ، وبعده في ابن هشام :

يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُجِمَهُ ضَرْباً فَلَا يَسَعُ إِلَّا نَعْمُهُ

(٤) ابن هشام : « لهم نهيت » .

سنين ؛ وقال : يا جابر ، إنَّ منزلنا اليومَ حيث تقاسمتُ علينا قریش في كُفْرها ؛ قال جابر : فذكرتُ كلما كنتُ أسمعُه في المدينة قبل ذلك ، كان يقول : منزلنا غداً إن شاء الله إذا فتَحَ علينا مكة في الخيف حيث تقاسموا على الكُفْر .

قال الواقديّ : وكانت قَبْته يومئذ بالأدَم ضُرِبَتْ له بالحجون ، فأقبل حتى انتهى إليها ومعه أمّ سلمة وميمونة .

قال الواقديّ : وحدثني معاوية بن عبد الله بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبي رافع ، قال : قيل للنبيّ صَلَّى الله عليه وآله : ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ قال : وهل ترك الناعِيق من منزل ! وكان عَقِيل قد باع منزل رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة ، فقيل لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله : فانزل في بعض بيوت مكة من غير منازلك . فأبى وقال : لا أدخل البيوت ؛ فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي إلى المسجد من الحجون ، قال : وكذلك فعل في عُمره القضية وفي حجّته .

قال الواقديّ : وكانت أمّ هاني بنتُ أبي طالب تحت هُبيرة بن أبي وهب المخزومي فلما كان يوم الفتح دخل عليها حمّان لها : عبدُ الله بنُ أبي ربيعة والحارث بن هشام المخزوميّان ، فاستجارا بها ، وقالوا : نحن في رجوارك ؛ فقالت : نعم أنما في جوارى . قالت أمّ هاني : فهما عندي إذ دخل عليّ فارسٌ مدجّج في الحديد ولا أعرفه ، فقلت له : أنا بنت عمّ رسول الله ، فأسفر عن وجهه ، فإذا عليّ أخى ، فاعتنقته ، ونظر إليهما فشهّر السيف عليهما ، فقلتُ : أخى من بين الناس تصنع بي هذا ؟ فألقيتُ عليهما ثوباً ، فقال : أتجبرين المشركين ! فخلتُ دونهما ، وقلت : لا والله وأبتديّ بي قبلهما ؛ قالت : فخرج ولم يكذ ، فأغلقتُ عليهما بيتاً ، وقلت : لا تخافاً ، وذهبتُ إلى خِباء رسولِ الله صَلَّى الله

عليه وآله بالبطحاء فلم أجده ، ووجدتُ فيه فاطمة ، فقلت لها : ما لقيتُ من ابن أُمى على !
 أجرت سَحَوَيْنِ لى من المشركين ، فَتَقَلَّتْ عليهما ليقتلها ، قالت : وكانت أشدَّ على من
 زوجها ، وقالت : لِمَ تُجِيرِينِ المشركين ! وَطَلَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعليه الغبار ،
 فقال : مرحباً بفاختة - وهو اسمُ أم هانئ - فقلتُ : ماذا لقيت من ابن أُمى على ما كدتُ
 أفلت منه ! أجرت سَحَوَيْنِ لى من المشركين ، فَتَقَلَّتْ عليهما ليقتلها ، فقال : ما كان ذلك
 له ، قد أَجَرْنَا من أجرتِ وَأَمَّنَّا من أَمَّنْتَ ، ثم أمر فاطمة فَسَكَبَتْ له غُسْلاً فاغتسل ، ثم
 صلى ثمانى ركعات في ثوب واحد ملتحفاً به وقت الضحى ؛ قالت : فرجعتُ إليهما وأخبرتهما ،
 وقلت : إن شئكما فأقياً ، وإن شئكما فارجعا إلى منازلكما ، فأقاما عندى في منزلى يومين ؛ ثم
 انصرفا إلى منزلهما .

وَأَتَى آتٍ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فقال : إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ
 ابْنَ أَبِي رَيْمَةَ جَالِسَانِ فِي نَادِيهِمَا مُتَفَضِّلَانِ فِي الْمَلَأِ الْمَرْعُوفِ ، فقال : لا سبيل
 إليهما ، قد أجَرناهما .

قال الواقدي : ومكث رسول الله صلى الله عليه وآله في قُبَّةِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ ، ثُمَّ
 دَعَا بِرَاحِلَتِهِ بَعْدَ أَنْ اغْتَسَلَ وَصَلَّى ، فَأَدْرِنَتْ إِلَى بَابِ الْقُبَّةِ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ السَّلَاحُ وَالْمَغْفَرُ
 عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَدْ صُفِّ لَهُ النَّاسُ ، فَرَكِبَهَا وَالْخَيْلُ تَمَجَّجٌ ^(١) مَا بَيْنَ الْخُنْدَمَةِ إِلَى الْحُجُونَ ، ثُمَّ
 مَرَّ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَى جَانِبِهِ عَلَى رَاحِلَةٍ أُخْرَى يَسِيرُ وَيُجَادِثُهُ ، وَإِذَا بَنَاتُ أَبِي
 أُحَيَّةَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِالْبُطْحَاءِ حِذَاءَ مَنْزِلِ أَبِي أُحَيَّةَ ، وَقَدْ نَشَرْنَ شَعُورَهُنَّ ، فَلَطَمْنَ
 وَجْهَهُ الْخَيْلَ بِالْخُرِّ ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَتَبَسَّمَ وَأَنْشَدَهُ
 قَوْلَ حَسَّانَ :

(١) تَمَجَّجٌ : تَسْرَعُ .

تَظَلَّ جِيادُنا مَتَمَطَّراتٍ تُتَلَطَّمَنَّ بِالْخُجْرِ النَّسَاءِ

فلما انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته ، فاستلم الركن بحجّته ، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره ، وعجّوا بالتكبير حتى ارتجّت مكة ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يشير إليهم أن اسكتوا ، والمشركون فوق الجبال ينظرون ، ثم طاف بالبيت على راحلته ، ومحمد بن مسلمة آخِذٌ بزمامها ، وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً مرصوصة بالرصاص ، وكان هُجُلُ أعظَمَها ، وهو تجاه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث يَنْحَرُونَ ويذبحون الذبائح ، فجعل كلما يمرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول : **يَا لِحَقِّ الْحَقِّ** وزهق الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً ؛ فيقع الصنم لوجهه ، ثم أمر بهبَل فكسر وهو واقف عليه ، فقال الزبير لأبي سفيان : يا أبا سفيان ، قد كسر هُجُل ، أما إنك قد كنت منه يوم أُحُد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال : دع هذا عنك يا بن العوام ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان .

قال الواقدي : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ناحية من المسجد وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بالفتح ، مفتاح الكعبة ، فقال عثمان : نعم ، فخرج إلى أمّه وهي بنت شيبّة ، فقال لها والمفتاح عندها يومئذ : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد طلب المفتاح ، فقالت : أعيدك بالله أن يكون الذي يذهب مأثرة قومه على يده ! فقال : فوالله لتأتيني به أو ليأتينك غيري فيأخذها منك ، فأدخلته في حُجْرَتِها ، وقالت : أيّ رجل يدخل يده ها هنا ! فبينما هما على ذلك وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدار ، وعمر رافع صوته حين رأى عثمان أبطأ : يا عثمان اخرج ، فقالت أمّه : خذ المفتاح ، فلأن تأخذَه أنت أحبُّ إليّ من أن يأخذَه تيم وعدى ، فأخذَه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما تناوَلَه بسَطَ العباس بن عبد المطلب يده وقال : يا رسول الله ، بآبي أنت ! اجمع لنا بين السّقاء والحجّابة ؛ فقال : إنما أُعطيكم ما ترضون فيه ، ولا أُعطيكم ما ترزّون منه ،

قالوا : وكان عثمانُ بنُ طلحة قد قَدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وآله مع خالد بن الوليد وعمر بن العاص مسلما قبل الفتح .

قال الواقدي : وبَعَثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة ، وأمره أن يَفْتَحَ البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالا إلا صورة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخا كبيرا يستقسم بالأزلام^(١) .

قال الواقدي : وقد روى أنه أمره بمحو الصور كلها لم يستثن ، فترك عمر صورة إبراهيم ، فقال لعمر : ألم أمرُكَ ألا تدع فيها صورة ؟ فقال عمر : كانت صورة إبراهيم ، قال : فاحمها ، وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام !

قال : ومحا صورة مريم . قال : وقد رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وآله محا الصور بيده ، روى ذلك ابن أبي ذئب ، عن عبد الرحمن بن مهران ، عن عُمَيْرِ مولى ابن عباس ، عن أسامة بن زيد ، قال : دخلتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله الكعبة ، فرأى فيها صوراً ، فأمرني أن آتيه في الدلو بماء ، فجعل يُبلُّ به الثوب ويضرب به الصور ويقول : « قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون ! » .

قال الواقدي : وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالكعبة فأُغْلِقَتْ عليه ، ومعه فيها أسامة بن زيد ، وبلال بن رباح ، وعثمان بن طلحة ، فكث فيها ما شاء الله ، وخالد بن الوليد واقف على الباب يَدُبُّ الناس عنه ، حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوقف وأخذ بمضادتي^(٢) الباب ، وأشرف على الناس وفي يده المفتاح ، ثم جعله في كفه ، وأهل مكة قياماً تحته ، وبعضهم جلوس قد ليطأ بهم ؛ فقال الحمد لله الذي

(١) الأزلام : القداح . (٢) عضادتا الباب : حانياه .

صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ماذا تقولون؟ وماذا تظنون؟ قالوا:
 نقول خيرا، ونظن شرا! أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال: إني أقول
 كما قال أخى يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
 ألا إن كل رباً فى الجاهلية أودم أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين إلا سيادة الكعبة
 وسقاية الحاج. ألا وفى قتيل شبه العمدة؛ قتيل العصا والسوط الديعة مغلظة مائة ناقة، منها
 أربعون فى بطونها أولادها. إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بأبائها، كلكم
 لآدم، وآدم من تراب. وأكرمكم عند الله أتقاكم. ألا إن الله حرم مكة يوم خلق
 السموات والأرض، فهى حرام بحرم الله، لم تحل لأحد كان قبل، ولا تحل لأحد يأتى
 بعدي، وما أحلت لى إلا ساعة من النهار. قال: يقصدها رسول الله صلى الله عليه وآله
 بيده هكذا. لا ينفر صيدها، ولا يعضد عضاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يمتلئ
 خلاها. فقال العباس: إلا الإذخر يارسول الله، فإنه لا بد منه للقبور والبيوت، فسكت
 رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة ثم قال إلا الإذخر، فإنه حلال، ولا وصية لوارث،
 والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مالها إلا بإذن زوجها،
 والمسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، يذو واحدة على من سواهم، تكافأ دماؤهم، يسعى
 بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أفصاهم، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهده،
 ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، والبينة
 على من أدعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى حرم،
 ولا صلاة بعد العصر، ولا بعد الصبح، وأنها كم عن صيام يومين: يوم الأضحى ويوم
 الفطر. ثم قال: ادعوا لى عثمان بن طلحة، فجاء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله
 قال له يوما بمكة قبل الهجرة ومع عثمان الفتح: لعلك سترى هذا الفتح بيدي يوما أضعه
 حيث شئت؛ فقال عثمان: لقد هلك قريش إذا وذلت! فقال عليه السلام: بل عمرت
 وعزت؛ قال عثمان: فلما دعانى يومئذ والفتح بيده ذكرت قوله حين قال: فاستقبلته

بِيشِر ، فاستقبَلَنِي بِمِثْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : خَذُوهَا يَا بَنِي أَبِي طَلْحَةَ خَالِدَةَ تَالِدَةَ ، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ . يَا عَثْمَانُ ، إِنَّ اللَّهَ اسْتَأْمَنَكُمْ عَلَى بَيْتِهِ ، فَكُلُوا بِالْمَعْرُوفِ ؛ قَالَ عَثْمَانُ : فَلَمَّا وَلَّيْتُ نَادَانِي فَرَجَعْتُ ، فَقَالَ : أَلَمْ يَكُنِ الَّذِي قُلْتُ لَكَ ! يَعْنِي مَا كَانَ قَالَهُ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ ، فَقُلْتُ : بَلَى أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

قال الواقديّ : وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله يومئذ برَفْعِ السلاح ، وقال : إِلَّا خُرَاقَةً عَنْ بَنِي بَكْرٍ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ . نَجَبُطُوهُمْ بِالسَّيْفِ سَاعَةً ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي أُحِلَّتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

قال الواقديّ : وقد كان نوفل بن معاوية الدؤليّ من بني بكر استأمن رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه ، فأمنه ، وكانت خُرَاقَةُ تَطْلُبُهُ بِدَمَاءٍ مِنْ قَتَلَتْ بِكَرٍ وَقَرِيشٍ مِنْهَا بِالْوَتِيرِ ، وقد كانت خُرَاقَةُ قَالَتْ أَيْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنَّ أَنَسَ بْنَ زُنَيْمٍ هَجَاكَ ، فَهَدَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دَمَهُ ، فَلَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ هَرَبَ وَأُلْتَحِقَ بِالْجِبَالِ ، وقد كان قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَكَّةَ قَالَ شعرا يَعْتَذِرُ فِيهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مِنْ مُجْلَتِهِ :

أَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعَدَّةً بِأَمْرِهِ	بَكَ اللَّهُ يَهْدِيهَا وَقَالَ لَهَا أُرْشِدِي
فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كَوْرِهَا	أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ عَمْدٍ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَوْسَعَ نَائِلًا	إِذَا رَاحَ يَهْتَرُ اهْتِزَازَ الْمَهْنَدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخِلَالِ قَبْلَ ارْتِدَائِهِ	وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي	وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ	عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ تِهَامٍ وَمُنْجِدِ
وَنُبِّىَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّى هَجْوَتِهِ	فَلَا رَفَعْتَ سَوْطِي إِلَى إِذْنِ يَدِي
سَوَى أَنِّي قَدْ قُلْتُ يَا وَنِيعَ فَنِيَّةٍ	أَصِيبُوا بِنَحْسِ يَوْمٍ طَلَقَ وَأَسْعُدِ !

أَصَابَهُمْ مِنْ لَمْ يَكُنْ لِدَمَائِهِمْ كِفَاءً فَعَزَّتْ عَصْبَتِي وَتَلَدِي
ذُؤْيَا وَكُلُّثُومًا وَسَلَى تَتَابَعُوا جَمِيعًا فَإِلَّا تَدَمَعَ الْعَيْنُ أَكَمَدِ
عَلَى أَنَّ سَلَى لَيْسَ مِنْهُمْ كَثِيلُهُ وَإِخْوَتُهُ وَهَلْ مُلُوكٌ كَأَعْبُدِ !
فَاتَى لَا عَرْضًا خَرَقَتْ وَلَا دَمًا بَهَرَقَتْ فَفَكَّرَ عَالِمُ الْحَقِّ وَأَقْصِدِ

قال الواقدي : وكانت كلمته هذه قد بلغت رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يفتح مكة ، فنهنت عنه ، وكلمه يوم الفتح نوفل بن معاوية الدؤلي ، فقال : يا رسول الله ، أنت أولى الناس بالأمور ، ومن منا لم يمارك ولم يؤذك ، ونحن في جاهلية لا ندرى ما نأخذ وما ندع ، حتى هدانا الله بك ، وأنقذنا بيمنك من الهلكة ، وقد كذب عليه الركب ، وكثروا في أمره عندك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : دع الركب عنك ، إنما لم نجد بتهامة أحداً من ذوى رحم ولا بعيد الرحم كان أبراً بنا من خزاعة ، فاسكت يا نوفل ؛ فلما سكت قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قد عفوت عنه فقال نوفل : فذاك أبي وأمي .

قال الواقدي : وجاءت الظُّهر ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بلالا أن يؤذن فوق ظهر الكعبة وقريش في رؤوس الجبال ، ومنهم من قد تغيب وسر وجهه خوفاً من أن يقتلوا ، ومنهم من يطلب الأمان ، ومنهم من قد آمن . فلما أذن بلال وبلغ إلى قوله : « أشهد أن محمداً رسول الله » ، صلى الله عليه وآله رفع صوته كأشد ما يكون ؛ قال : تقول جويرية بنت أبي جهل : قد لعمري رفع لك ذكرك ، فأما الصلاة فسنصلي ، ولكن والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً ، ولقد كان جاء أبي الذي جاء محمداً من النبوة ؛ فردّها ولم يردّ خلاف قومه .

وقال خالد بن سميد بن العاص : الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يدرك هذا اليوم ؛

وقال الحارث بن هشام : وأُكَلِّاه ! لِيَتَنَى مِتَّ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ بِلَا يَنْهَقُ
فَوْقَ الْكَعْبَةِ ! وقال الحكم بن أبي العاص : هذا والله أَلَحَدَثِ الْعَظِيمِ ، أَنْ يَصِيحَ عَبْدُ
بَنِي مُجَجَّ ، يَصِيحُ بِمَا يَصِيحُ بِهِ عَلَى بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ ؛ وقال سُهِيلُ بْنُ عَمْرٍو ، إِنْ كَانَ هَذَا
سُخْطًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَسْغِرْهُ ، وَإِنْ كَانَ لِلَّهِ رِضًا فَيَسْقِرْهُ ؛ وقال أَبُو سُفْيَانَ : أَمَّا أَنَا فَلَا أَقُولُ
شَيْئًا ، لَوْ قُلْتُ شَيْئًا لَأَخْبَرْتَهُ هَذِهِ الْحَصْبَاءُ ، قَالَ : فَأَتَى جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْبَرَهُ مَقَالَתَهُ الْقَوْمِ .

قال الواقدي : فكان سُهِيلُ بْنُ عَمْرٍو يَحْدِثُ فَيَقُولُ ؛ لَمَّا دَخَلَ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ انْقَمَعَتْ
فَدَخَلْتُ بَيْتِي وَأَغْلَقْتُهُ عَلَيَّ ، وَقُلْتُ لِابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُهِيلٍ : اذْهَبْ فَاطْلُبْ لِي جَوَازًا
مِنْ مُحَمَّدٍ ، فَإِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ أَقْتَلَ ، وَجَعَلْتُ أَنْذَرُ أَثَرِي عِنْدَهُ وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ فَلَا أَرَى أَسْوَأَ أَثَرًا
مَنِّي ، فَإِنِّي لَقِيتُهُ يَوْمَ الْحَدِيثِيَّةِ بِمَا لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ بِهِ ، وَكُنْتُ الَّذِي كَاتَبَهُ ، مَعَ حَضُورِي
بَدْرًا وَأَحَدًا ، وَكَلَّمَا تَحَرَّكَتْ قُرَيْشٌ كُنْتُ فِيهَا ، فَذَهَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُهِيلٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أِبْنُ تَوَمَّنَةٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، هُوَ آمَنَ بِأَمَانِ اللَّهِ ،
فَلْيُظْهِرْ ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ : مَنْ لَقِيَ سُهِيلَ بْنَ عَمْرٍو فَلَا يُشَدِّنَ النَّظَرَ إِلَيْهِ .
ثُمَّ قَالَ : قُلْ لَهُ : فَلْيَخْرُجْ ، فَلَمَعَمْرَى إِنَّ سُهِيلًا لَهُ عَقْلٌ وَشَرَفٌ ، وَمَا مِثْلُ سُهِيلٍ جَهْلُ
الْإِسْلَامِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَا كَانَ يُوضَعُ فِيهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَتَابِعٌ ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى أَبِيهِ فَأَخْبَرَهُ
بِمَقَالَتِهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالَ سُهِيلٌ : كَانَ وَاللَّهِ بَرًّا صَغِيرًا وَكَبِيرًا ، وَكَانَ
سُهِيلٌ يُقْبَلُ وَيُدَبَّرُ غَيْرَ خَائِفٍ ، وَخَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ عَلَى
شِرْكِهِ حَتَّى أَسْلَمَ بِالْجُمُرَانَةِ .

تم الجزء السابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
وبليه الجزء الثامن عشر

فهرس الكتب *

- ٤٦ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ٣
- ٤٧ - من وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم ٥ - ٦
- ٤٨ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٢
- ٤٩ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا ١٤
- ٥٠ - من كتاب له عليه السلام إلى أمراءه على الجيوش ١٥
- ٥١ - من كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج ١٩ - ٢٠
- ٥٢ - من كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة ٢٢
- وبيان اختلاف الفقهاء في أوقات الصلوات ٢٢ - ٢٩
- ٥٣ - من كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي لما ولّاه على مصر ٣٠ - ٣٧
- ٥٤ - من كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخراجي ١٣١
- ٥٥ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٣٥
- ٥٦ - من كتاب له عليه السلام أوصى به شريح بن هاني لما جعله على مقدمته
- إلى الشام ١٣٩
- ٥٧ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة مسيره من المدينة إلى البصرة ١٤٠
- ٥٨ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه
- وبين أهل صفين ١٤١
- ٥٩ - من كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان ١٤٥
- ٦٠ - من كتاب له عليه السلام إلى المهمل الذين يطأ عملهم الجيوش ١٤٧

- ٦١ - من كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله على هيت ١٤٩
- ٦٢ - من كتاب كتبه له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشر
لما ولّاه ولايتها ٢٢٦-١٥١
- ٦٣ - من كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري وهو عامله على
الكوفة ، وقد بلغه عنه تثبيت الناس عن الخروج إليه لما نذبهم للحرب
أصحاب الجبل ٢٤٦
- ٦٤ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتابه ٢٥١، ٢٥٠

فهرسالموضوعات *

١١- ٨	فصل في ذكر الآثار الواردة في حقوق الجار
٣٨٠ ٣٧	فصل في النهى عن ذكر عيوب الناس وما ورد في ذلك من الآثار
٤١- ٣٩	فصل في النهى عن سماع السعاية وما ورد في ذلك من الآثار
٥٨- ٥٥	رسالة الإسكندر إلى أرسطو ورد أرسطو عليه
٦٨- ٦١	فصل في القضاة وما يلزمهم، وذكر بعض نواذرهم
٧٥٠ ٧٤	عهد سابور بن أردشير إلى ابنه
٧٨- ٧٦	فصل فيما يجب على مصاحب الملك
٨٠٠ ٧٩	فصل في الكتاب وما يلزمهم من الآداب
٨٣- ٨٠	فصل في ذكر ما نصحت به الأوائل الوزراء
٩٦- ٩١	ذكر الحجاب وما ورد فيه من الخبر والشعر
١٠٦- ٩٨	طرف من أخبار عمر بن عبد العزيز ونزاهته في خلافته
١١٠٠، ١٠٩	فصل فيما جاء في الحذر من كيد العدو
١٣٠- ١١٨	فصل في ذكر بعض وصايا العرب
١٣٢	عمران بن الحصين
١٣٣، ١٣٢	أبو جعفر الإسكافي
١٣٩	شريح بن هاني*
١٥٠٠، ١٤٩	كميل بن زياد ونسبه
٢٢٥- ١٥٤	ذكر ما طعن به الشيعة في إمامة أبي بكر والجواب عنها
١٦٤- ١٥٥	الطعن الأول في ذكر ما طعن به عليه فيه من أمر فدك
١٦٨- ١٦٤	الطعن الثاني في قوله : ليتني كنت سألت رسول الله عند موته عن ثلاثة ...

(*) وهي الموضوعات الواردة في شرح نهج البلاغة .

- الطعن الثالث في توليته عمر مع أن رسول الله لم يوله شيئاً من أعماله ١٦٨-١٧٥
- الطعن الرابع لتأخيره إقناذ جيش أسامة ١٧٥-١٩٤
- الطعن الخامس بمناسبة أن الرسول عليه السلام لم يوله الأعمال وولى غيره ١٩٥-٢٠١
- الطعن السادس في أنه لم يعرف الفقه وأحكام الشريعة ٢٠١، ٢٠٢
- الطعن السابع في عدم إقامته الحد على خالد بن الوليد وقد قتل مالك بن نويرة ٢٠٢-٢١٤
- الطعن الثامن فيما تم من دفنه وعمر مع رسول الله في بيته ، وقد منع الله تعالى الكل من ذلك في حال حياته ٢١٤-٢١٩
- الطعن التاسع في أنه نص على عمر بالخلافة مخالفاً في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - بزعمهم ٢١٩، ٢٢٠
- الطعن العاشر في أنه سمى نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اعترافه بأنه لم يستخلفه ٢٢١
- الطعن الحادي عشر في أمره بحرق الفجاءة السلمى بالنار وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ٢٢٢
- الطعن الثاني عشر في أنه تكلم في الصلاة قبل التسليم ٢٢٢، ٢٢٣
- الطعن الثالث عشر في أنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو على الشام يأمره أن يقتل سعد بن عباد - بزعمهم ٢٢٣، ٢٢٤
- الطعن الرابع عشر في أنه لما استخلف قطع لنفسه على بيت المال أجرة كل يوم ثلاثة دراهم ٢٢٤
- الطعن الخامس عشر في أنه أمر في خلافته بأن من كان عنده شيء من كلام الله فليأته به ؛ مع أن القرآن قد بان بفصاحته عن فصاحة البشر ٢٢٤، ٢٢٥
- أخبار الوليد بن عقبة ٢٢٧-٢٤٥
- كتاب معاوية إلى عليّ ٢٥١-٢٥٣
- ذكر الخبر عن فتح مكة ٢٥٧-٢٨٤

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثامن عشر

دار الجيل

بيروت

حقوق الطبع محفوظة للناس

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

يشتمل هذا الجزء على بقية المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله إلى أعدائه وأمرائه
بلاده ، ثم على طائفة من مختار حكمه ومواعظه ، وأجوبة مسائله ، والكلام القصير الخارج
في سائر أغراضه .

وقد روجع على الجزء الثالث من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها
المحفوظ بمكتبة المتحف البريطاني برقم ١٢٦ ؛ وهي النسخة التي رمزت لها بالحرف (ا) .
وأصل هذا الجزء مكتوب بخط نسخ حديث واضح ، يبدو أنه كتب في القرن الثاني عشر ؛
ويكاد يكون خاليا من الشكل والضبط ؛ حتى فيما جاء فيه من أصل كلام الإمام . ويبدأ
من الشرح ببقية الكلام على فتح مكة ؛ إلا أن بآخره نقضا يبدأ في أثناء الكلام على
شرح قول أمير المؤمنين : « الإعجاب يمنع من الازدياد » ، إلى آخر الجزء . ويقع في ٥٦
ورقة ، مسطرتها ٢٩ سطرا ، وفي كل سطر ١٥ كلمة تقريبا ، ولا يوجد فيه ذكر لاسم ناسخه
ولا تاريخ نسخه .

كما روجع أيضا على الجزء الثاني من المجلد الأخير من مخطوطة دار الكتب برقم ١٨٦٨ -
أدب ، وهي التي رمزت لها بالحرف (د) ، وسبق وصفها في مقدمة الجزء السادس عشر ،
وعلى النسخة المطبوعة على الحجر في طهران سنة ١٣٧١ هـ ؛ وهي التي رمزت لها بالحرف (ب) .
وأسأل الله أن يوفق ويعين .

محمد أبو الفضل إبراهيم

٢٤ رمضان سنة ١٣٨٢ هـ
١٨ فبراير سنة ١٩٦٣ م

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[ذكر بقيّة الخبر عن فتح مكة]

قال الواقدي : وهرب هبيرة بن أبي وهب وعبدُ الله بن الزُّبَيْرِ جميعاً حتّى انتهيا إلى نَجْرَان فلم يأمنّا الخوف حتّى دخلا حصن نَجْرَان ؛ فقيل : ما شأنكما ؟ قالا : أمّا قريش فقد قُتِلَتْ ودخل محمد مكة ، ونحن والله نرى أن محمداً سائر إلى حصنكم هذا ، فجعلت بلحارث بن كعب يُصلحون ما رث من حصنهم ، وجمعوا ماشيتهم ؛ فأرسل حسان بن ثابت إلى ابن الزُّبَيْرِ :

لا تعدمَنْ رجلاً أحلك بُغضُهُ نجران في عيشٍ أجَدَّ ذَمِيمِ^(٢)
بليت قناتك في الحروب فألفيت جوفاء ذات معايبٍ ووُصومِ^(٣)
غضب الإله على الزُّبَيْرِ وابنه بعذابٍ سوءٍ في الحياة مقيمِ

فلما جاء ابن الزُّبَيْرِ شعرُ حسان تهيباً للخروج ، فقال هبيرة بن وهب : أين تريد يا ابن عمّ ؟ قال له : أريد والله محمداً ، قال : أتريد أن تتبعه ؟ قال : أى والله ، قال هبيرة : ياليت أنّي كنتُ رافقُ غيرك ، والله ما ظننتُ أنّك تتبع محمداً أبداً . قال ابن الزُّبَيْرِ : هو ذاك ، فعلى أىّ شيء أقيمُ مع بنى الحارث بن كعب وأترك ابن عمّي وخير الناس وأبرّهم ، وبين قومي وداري ! فأنحدر ابن الزُّبَيْرِ حتّى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) د : « لطفك اللهم لإتمامه بالخير » . (٢) ديوانه ٣٦٠ .

(٣) الوصوم : العيوب ؛ جمع وصم ، ورواية الديوان : « خانة جوفاء ذات وصوم » .

وهو جالس في أصحابه ، فلما نظر إليه قال : هذا ابنُ الزُّبَيْرِ ومعه وجهٌ فيه نورُ الإسلام ، فلما وقف على رسول الله صلى الله عليه وآله قال : السَّلامُ عليك يا رسولَ الله ، شهدتُ أن لا إله إلا الله ، وأنتَ عبدهُ ورسوله ، والحمد لله الذي هداني للإسلام ، لقد عاديتُك وأجلبتُ عليك ، وركبتُ الفرسَ والبعيرَ ، ومَشَيْتُ على قَدَمي في عَدَاوتِكَ ، ثم هربتُ منك إلى نَجْرَانَ ، وأنا أريدُ ألا أقربَ الإسلامَ أبداً ؛ ثم أَرَادَنِي اللهُ مِنْهُ بِخَيْرٍ ، فَأَلْقَاهُ فِي قَلْبِي ، وَحَبَّبَهُ إِلَيَّ ، وَذَكَرْتَ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَأَتَّبَعْتُ مَا لَا يَنْفَعُ ذَا عَقْلٍ ؛ مِنْ حَجَرٍ يُعْبَدُ ، وَيُذَبِّحُ لَهُ لَا يَدْرِي مِنْ عَبَدِهِ وَمَنْ لَا يَعْبُدُهُ . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : الحمدُ لله الذي هدَاكَ للإسلام ، أَحَدِ اللهُ ، إِنَّ الإسلامَ يَحِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ . وَأَقَامَ هُبَيْرَةُ بَنَجْرَانَ ، وَأَسْلَمْتُ أُمَّ هَانِيَّ ، فَقَالَ هُبَيْرَةُ حِينَ بَلَغَهُ إِسْلَامُهَا يَوْمَ الْفَتْحِ يُؤْنِسُهَا شِعْرًا مِنْ مُجْلَتِهِ (١) :

وإن كنتِ قد تابعتِ دينَ مُحَمَّدٍ وقطعتِ الأرحامَ منكِ حِبَالُهَا (٢)
فكوني على أعلى سَحُوقٍ بِهِضْبَةٍ (٣) مُلَمِّمَةً غِبْرَاءَ يَبْسُ بِلَالُهَا (٤)
فَأَقَامَ بَنَجْرَانَ حَتَّى مَاتَ مُشْرَكَ .

قال الواقدي : وهرب حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ فدخل حَائِطًا (٥) بِمَكَّةَ ، وجاء أَبُو ذَرٍّ لِحَاجَتِهِ ، فدخل الحائطَ فَرَأَاهُ ، فَهَرَبَ حُوَيْطِبُ ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : تَعَالَ فَأَنْتَ آمِنٌ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَنْتَ آمِنٌ ؛ فَذَهَبَ حَيْثُ شِئْتَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَدْخِلْتُكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأِلَى مَنْزِلِكَ . قَالَ : وَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى مَنْزِلِي أَلْفَى فَأَقْتُلَ قَبْلَ أَنْ أُصِلَ إِلَى مَنْزِلِي ،

(١) من قصيدة له في ابن هشام ٤ : ٤٢ ؛ وأولها :

أَشَاقَتُكَ هِنْدُ أُمَّ أَتَاكَ سُؤَالُهَا كَذَلِكَ النَّوَى أَسْبَابُهَا وَأَنْفِتَالُهَا

(٢) ابن هشام : « وعطفت الأرحام منك حبالها » .

(٣) كذا في ١ ، وفي ب « سخوف » ؛ وفي د : « سجوف » . وفي ابن هشام : « سحيق » .

(٤) المللمة : المستديرة ، والغبراء : التي علاها الغبار . واليبس : المكان اليابس .

(٥) الحائط هنا : البستان .

أو يدخل على منزلي فأقتل ! قال: فأنا أبلغ معك منزلك ، فبلغ معه منزله ، ثم جعل يُنادى على بابه : إنَّ حَوِيطِيَا آمِنَ فلا يَهَيِّج . ثم أنصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره فقال : أو ليس قد أمتنا الناس كلهم إلّا من أمرت بقتله !

قال الواقدي : وهرب عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن حتى ركب البحر ، قال : وجاءت زوجته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في نسوةٍ منهن هند بنت عتبة - وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتلها - والبغوم^(١) بنت المعدّل الكِنَانِيَّة امرأة صفوان بن أمية ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام ، وهند بنت عتبة . بن الحجاج أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله بالأبطح ، فأسكنهم ، ولما دخلن عليه دخلن وعنده زوجاته وابنته فاطمة ونساء من نساء بني عبد المطلب وسألن أن يُبايعهن ، فقال : إني لا أصافح النساء - ويقال : إنه وضع على يده ثوباً فسحّن عليه ، ويقال : كان يؤتى بقَدَح من ماء فيدخل يده فيه ثم يرفعه إليهن ، فيدخلن أيديهن فيه - فقالت أمّ حكيم امرأة عكرمة : يا رسول الله ، إنَّ عكرمة هرب منك إلى اليمن ، خاف أن تقتله ، فأمنته ، فقال : هو آمن . فخرجت أمّ حكيم في طلبه ، ومعها غلامٌ لها روميّ ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تمنيّه حتى قدّمت به على حيّ ، فاستغاث بهم عليه ، فأوثقوه رباطاً ، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة ، فركب البحر ، فهاج بهم ، فجعل نوحى السفينة يقول له : أن أخلص ، قال : أى شيء أقول ؟ قال : قل لا إله إلا الله ، قال عكرمة : ما هربتُ إلّا من هذا ، فجاءت أمّ حكيم على هذا من الأمر ، فجعلت تُلحّ عليه وتقول : يا بن عمّ ، جئتُك من عند خير الناس ، وأوصل الناس ، وأبرّ الناس ، لا تَهلك نفسك ، فوقف لها حتى أدركته ، فقالت : إني قد استأمنت لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنك ، قال :

(١) ب : « البوم » . د : « النعوم » ، تحريف ، والصواب ما أثبتته ، وانظر القاموس .

أَنْتِ فَعَلْتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَنَا كَلَّمْتُهُ، فَأَمَّنَكَ، فَرَجَعَ مَعَهَا، فَقَالَتْ: مَا لَقِيتِ مِنْ غَلَامِكَ الرَّوْمِيِّ! وَأَخْبَرْتَهُ خَبْرَهُ، فَقَتَلَهُ عِكْرَمَةُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ مَكَّةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: يَأْتِيَكُمُ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُوْذِي الْحَيَّ. وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ. فَلَمَّا وَصَلَ عِكْرَمَةُ وَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَثَبَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ رِداءُ فَرَحًا بِهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَوْقَ عِكْرَمَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ مَنْقَبَةٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ هَذِهِ أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ أَمْنَتَنِي؛ فَقَالَ: صَدَقْتَ، أَنْتِ آمِنٌ، فَقَالَ عِكْرَمَةُ: فَإِلَّا مَ تَدْعُو؟ فَقَالَ: إِلَى أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ. . . وَعَدَّ خِصَالِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ عِكْرَمَةُ: مَا دَعَوْتَ إِلَّا إِلَى حَقٍّ، وَإِلَى حَسَنِ جَمِيلٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَوْتَ إِلَيْهِ، وَأَنْتِ أَصْدَقُنَا حَدِيثًا، وَأَعْظَمُنَا بَرًّا. ثُمَّ قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لَا تَسْأَلُنِي الْيَوْمَ شَيْئًا أُعْطِيهِ أَحَدًا إِلَّا أُعْطَيْتُكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي كُلَّ عِدَاوَةٍ عَادَيْتُكَهَا أَوْ مَسِيرٍ أَوْضَعْتُ فِيهِ، أَوْ مُقَامٍ لَقِيتُكَ فِيهِ، أَوْ كَلَامٍ قُلْتُهُ فِي وَجْهِكَ، أَوْ أَنْتِ غَائِبٌ عَنْهُ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ عِدَاوَةٍ عَادَانِيهَا، وَكُلَّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَيَّ يَرِيدُ بِذَلِكَ إِطْفَاءَ نُورِكَ، وَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنِّي وَمِنْ عِرْضِي؛ فِي وَجْهِهِ أَوْ أَنَا غَائِبٌ عَنْهُ. فَقَالَ عِكْرَمَةُ: رَضِيتُ بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَا أَدَعُ تَفَقُّهَ كُنْتُ أَنْفَقُهَا فِي صِدْقٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا أَتَقَتُ ضَعْفَهَا فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَأَجْتَهِدَنَّ فِي الْقِتَالِ بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى أَقْتَلَ شَهِيدًا؛ قَالَ: فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمْرَانَهُ بِذَلِكَ التَّسْكَاحِ الْأَوَّلِ.

قال الواقدي: وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشَّعْبَةَ، وجعل يقول للعلامة

يسار - وليس معه غيره : وَيَحْك ! أَنْظِرْ مِنْ تَرَى ! فقال : هذا عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ ؛ قال صفوان : ما أصنع بِعُمَيْرٍ ؟ والله ما جاء إِلَّا يريد قَتْلِي ، قد ظاهَرَ مُحَمَّدًا عَلِيًّا ، فليحقه ، فقال صفوان : يا عُمَيْرُ ، مالك ؟ ما كفاك ما صنعتَ ، حملتني دَيْنَكَ وعيالك ، ثم جئتَ تريد قَتْلِي ! فقال : يا أبا وهب ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ! جِئْتُكَ مِنْ عِنْدَ خَيْرِ النَّاسِ ، وَأَبْرَ النَّاسِ وَأَوْصَلَ النَّاسِ ، وقد كان عُمَيْرٌ قال لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله : يا رسول الله ، سَيِّد قَوْمِي صفوان بن أمية خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر ؛ خاف ألا تؤمِّنَه ، فأمنَه فداك أبي وأمي ! فقال : قد أمنتُه ، فخرج في أثره ، فقال : إن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم قد أمنتك صفوان : لا والله حتى تأتيني بعلامةٍ أعرفُها ، فرجع إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله فأخبره وقال : يا رسول الله ، جئته وهو يريد أن يقتل نفسه فقال : لا أرجع إِلَّا بعلامةٍ أعرفُها ، فقال : خذ عمامتي ، فرجع عُمَيْرٌ إليه بعمامة رسول الله صَلَّى الله عليه وآله - وهي البرْدُ الذي دخل فيه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله مَكَّةَ معتجراً به ، برد حَبْرَةِ أَحْمَرٍ - فخرج عُمَيْرٌ في طلبه الثانية^(١) حتى جاءه بالبرْد فقال : يا أبا وهب ، جِئْتُكَ مِنْ عِنْدَ خَيْرِ النَّاسِ وَأَوْصَلَ النَّاسِ وَأَبْرَ النَّاسِ وَأَحْلَمَ النَّاسِ ، مَجْدُهُ مَجْدُكَ ، وَعِزُّهُ عِزُّكَ ، وَمُلْكُهُ مُلْكُكَ ، ابْنُ أَبِيكَ وَأَمِّكَ ، أَذْكَرُكَ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ ، فقال : أَخَافُ أَنْ أَقْتَلَ ؛ قال : فَإِنَّهُ دَعَاكَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ رَضِيتَ وَإِلَّا سِيرَكَ شَهْرَيْنِ فَهُوَ أَوْفَى النَّاسِ وَأَبْرَهُمْ ، وقد بعث إليك ببردٍ الذي دخل به معتجراً ، أتعرفُه ؟ قال : نعم ، فأخرجه ، فقال : نعم هو هو ، فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله فوجده يصلي العصر بالناس ، فقال : كم يصلُّون ؟ قالوا : خمس صلوات في اليوم والليلة قال : أحمدهُ يصلِّي بهم ؟ قالوا : نعم ، فلما سلَّم من صلاته صاح صفوان : يا محمد ، إن عُمَيْرَ

(١) ا ، ب : « ثابته » ؛ وأثبت ما في د .

ابن وهب جاءني بِرُؤدك ، وزَعَمَ أَنَّكَ دعوتني إلى القدوم إليك ، فإن رضيت أمرا ، وإلا سیرتني شهرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : انزل أبا وهب ، فقال : لا والله أو تبين لي ؟ قال : بل سیر أربعة أشهر . فنزل صفوانُ وخرج معه إلى حُنين وهو كافر ، وأرسل إليه يستعير أدراعه - وكانت مائة درع - فقال : أطوعاً أم كرها ؟ فقال عليه السلام : بل طوعاً عارياً مؤداة ، فأعاره إياها ، ثم أعادها إليه بعد انقضاء حُنين والطائف ، فلما كان رسول الله صلى الله عليه وآله بالجمرانة يسير في غنائم هوازن ينظر إليها ، فنظر صفوان إلى شعب هناك مملوء نَعْمًا وشاء ورعاءً ، فأدام النظر إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يَرُمُّقه ، فقال : أبا وهب : يعجبك هذا الشعب ! قال : نعم ، قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبيٍّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأَنَّكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : فأما عبدُ الله بن سعد بن أبي سرح فكان قد أسلم ، وكان يَكْتُبُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي ، فربما أُملي عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله « سميعٌ عليم » فيكتبُ « عزيزٌ حكيم » ونحو ذلك ، ويقرأُ على رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول : كذلك الله ، ويقرأُ ، فافتتن ؛ وقال : والله ما يدري ما يقول : ! إني لأكتب له ما شئتُ فلا يُنكر ، وإنه ليوحى إليَّ كما يُوحى إلى محمد ، وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتدّاً ، فأهدر رسول الله دمه ، وأمر بقتله يوم الفتح ، فلمّا كان يومئذ جاء إلى عثمان - وكان أخاه من الرضاعة - فقال : يا أخى ، إني قد أجرتك فاحتبسني ها هنا وأذهب إلى محمد فكلّمه فيّ ، فإن محمداً إن رآني ضَرَبَ عُنُقِي ، إن جرّمي أعظمُ الجرم ، وقد جئتُ تائباً ؛ فقال عثمان : قم فاذهب معي إليه ، قال : كلا ، والله إنه إن رآني ضَرَبَ عُنُقِي ولم يناظرني ، قد أهدر دمي وأصحابه يطلبونني في كلِّ موضع ، فقال عثمان : انطلق معي فإنّه لا يقتلك إن شاء الله - فلم يُرْع رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بعثمان

آخذاً يَدَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ واقفين بين يديه ، فقال عثمان : يا رسول الله ، هذا أخى من الرضاعة ، إن أمه كانت تحملى وتمشي وترضعني وتقطمه وتلطفني وتتركه ، فهبته لى . فأعرض رسول الله صلى الله عليه وآله عنه ، وجعل عثمان كلما أعرض رسول الله عنه أستقبله بوجهه ، وأعاد عليه هذا الكلام ، وإنما أعرض عليه السلام عنه إرادةً لأن يقوم رجلٌ فيضرب عنقه ، فلما رأى ألا يقوم أحدٌ وعثمان قد أنكبَّ عليه يقبل رأسه ويقول : يا رسول الله ، بإيعه فذاك أبى وأسى على الإسلام ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : نعم ، فبايعه .

قال الواقدي : قال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك للمسلمين : ما منعكم أن تقومَ منكم واحدٌ إلى هذا الكلب فيقتله - أو قال : الفاسق ! فقال عباد بن بشر : والذي بعثك بالحق ، إنى لأتبع طرفك من كل ناحية ، رجاء أن تشير إلى فأضرب عنقه . ويقال : إن أبا البشير هو الذى قال هذا ؛ ويقال : بل قاله عمر بن الخطاب ، فقال عليه السلام : إنى لا أقتل بالإشارة ؛ وقيل : إنّه قال : إن النبی لا يكون له خائنة الأعين .

قال الواقدي : فجعل عبد الله بن سعد يفر من رسول الله صلى الله عليه وآله كلما رآه ، فقال له عثمان : بأبى أنت وأسى ! لو ترى ابن أم عبد يفر منك كلها رآك ! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقال : أو لم أبايعه وأؤمته ؟ قال : بلى ، ولكنه يتذكر عظم جرمه فى الإسلام ، فقال : إن الإسلام يحب ما قبله .

قال الواقدي : وأما الحويرث بن مَعْبِد - وهو من ولد قصي بن كلاب - فإنه كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ، فأهدر دمه ، فبينما هو فى منزله يوم الفتح وقد أغلق عليه بابه ، جاء على عليه السلام يسأل عنه ، فقيل له : هو فى البادية ، وأخبر الحويرث أنه جاء يطلبه وتنحى على عليه السلام عن بابه ، فخرج الحويرث يريد أن

يَهْرَبُ مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ آخَرَ ، فَتَلْقَاهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ .
 قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَأَمَّا هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمْرًا أَنْ
 يُحْرِقَهُ بِالنَّارِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَمْدُبُ بِالنَّارِ رَبُّ النَّارِ ، أَقْطَعُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ إِنْ قَدَرْتُمْ
 عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَقْتُلُوهُ ، وَكَانَ جُرْمُهُ أَنْ نَخَسَ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا
 هَاجَرَتْ ، وَضْرَبَ ظَهْرَهَا بِالرَّمْحِ وَهِيَ حُبْلَى ، فَأَسْقَطَتْ ، فَلَمْ يَقْدِرِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ يَوْمَ
 الْفَتْحِ ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ طَلَعَ هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَائِلًا :
 أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
 إِسْلَامَهُ ، فَخَرَجَتْ سُلَمَى مَوْلَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَتْ : لَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَلَيْنَا !
 أَنْتَ الَّذِي فَعَلْتَ وَفَعَلْتَ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهَبَّارُ يَمْتَدِّرُ إِلَيْهِ : إِنْ الْإِسْلَامُ
 مَحَا ذَلِكَ . وَنَهَى عَنِ التَّمَرُّضِ لَهُ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : قَالَ أَبُو بَنْ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
 وَهَبَّارَ يَمْتَدِّرُ إِلَيْهِ وَهُوَ يُطَاطِئُ رَأْسَهُ اسْتِحْيَاءً مِمَّا يَمْتَدِّرُ هَبَّارُ وَيَقُولُ لَهُ : قَدْ
 عَفَوْتُ عَنْكَ !

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَأَمَّا أَبُو بَنْ خَطْلٍ فَإِنَّهُ خَرَجَ حَتَّى دَخَلَ بَيْنَ أُسْتَارِ الْكُمْبَةِ ، فَأَخْرَجَهُ
 أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ مِنْهَا ، فَضْرَبَ عُنُقَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ - وَيُقَالُ : بَلَّ قَتْلَهُ عَمَّارُ بْنُ
 بَاسِرٍ ، وَقِيلَ : سَعْدُ بْنُ حُرَيْثٍ الْخَزَوِيُّ ، وَقِيلَ : شُرَيْكُ بْنُ عَبْدِ الْعَجْلَانِيِّ ؛ وَالْأَثْبَتُ
 أَنَّهُ أَبُو بَرْزَةَ - قَالَ : وَكَانَ جُرْمُهُ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ سَاعِيًا^(١) ، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ فَقَتَلَهُ ، وَسَاقَ مَا أَخَذَ مِنْ مَالِ الصَّدَقَةِ ،
 وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ ، فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : لَمْ أَجِدْ دِينًا خَيْرًا مِنْ دِينِكُمْ ،
 وَكَانَتْ لَهُ قِمَتَانِ : إِحْدَاهُمَا قَرِينِي ، وَالْأُخْرَى قَرِينَةُ - أَوْ أَرْنَبُ ، وَكَانَ أَبُو بَنْ خَطْلٍ يَقُولُ

(١) سَاعِيًا : أَيْ جَائِيًا لِلزَّكَاةِ .

الشَّعْرَ يَهْجُو به رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ويفنيان به ، ويدخل عليه المشركون بيته
فيشربون عنده الخمر ، ويسمعون الغناء بهجاء رسول الله صَلَّى الله عليه وآله .

قال الواقدي : وأما مقيس بن صُبابة فإنَّ أمه سهمية ، وكان يومَ الفتح عند أخواله
بنى سَهْم ، فاصطبَحَ الخمرَ ذلك اليوم في ندائى له ، وخرجَ تَمَلًّا يتغنَّى ويتمثلُ بأبياتٍ
منها :

دَعَيْني أَصْطَبِحْ يَا بَكْرُ إِنِّي رَأَيْتُ الْمَوْتَ نَقَبَ عَنْ هِشَامِ
وَقَبَّ عَنْ أَبِيكَ أَبِي يَزِيدٍ أَخِي الْقَيْنَاتِ وَالشَّرْبِ الْكِرَامِ
يَخْبِرُنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنَّ سَنَحِيًّا وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامِ !
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَالَ بِمَنْكِبَيْهِ فَقَدْ شَبِعَ الْأَيْسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَتَقْتُلُنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا وَتُحْيِيْنِي إِذَا رَمَتْ عِظَامِي !
فَلَقِيَهُ نَمِيلَةٌ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيَّ وَهُوَ مِنْ رَهْطِهِ ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهُ ، فَقَالَتْ
أَخْتُهُ تَرْثِيهِ :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَخْزَى نَمِيلَةٌ رَهْطُهُ وَقَجَّعَ أَصْنَافَ النِّسَاءِ بِمَقْيَسِ
فَلَلَّهَ عَيْنَانِ مَنْ رَأَى مِثْلَ مَقْيَسِ إِذَا النُّفْسَاءُ أَصْبَحَتْ لَمْ تَخْرُسْ (١)

وكان جُرْمُ مَقْيَسٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ أَخَاهُ هَاشِمُ بْنُ صُبابَةَ أَسْلَمَ وَشَهِدَ الْمُرَيْسِيعَ مَعَ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ رَهْطِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - وَقِيلَ : مِنْ بَنِي عَمْرِو
ابْنِ عَوْفٍ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ - فَظَنَّهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَضَى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
بِالدِّيَةِ عَلَى الْعَاقِلَةِ ، فَقَدِمَ مَقْيَسٌ أَخُوهُ الْمَدِينَةَ فَأَخَذَ دِيَّتَهُ ، وَأَسْلَمَ ، ثُمَّ عَادَ عَلَى قَاتِلِ أَخِيهِ ،
فَقَتَلَهُ ، وَهَرَبَ مَرْتَدًا كَافِرًا يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ بِالشَّعْرِ ، فَأُهْدَرَ دَمُهُ .

(١) يقال : خرسَت المرأة تخريساً ؛ إِذَا أَطْعَمَتْ فِي وَلَادَتِهَا ؛ وَالْبَيْتُ فِي الْإِسَانِ (خرس) .

قال الواقدي : فأما سارة مولاة بني هاشم - وكانت مغنية نواحة بمكة ، وكانت قد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة تطلب أن يصلها ، وشكت إليه الحاجة وذلك بعد بدر وأحد - فقال لها : أما كان لك في غنائك ورياحك ما يُغنيك ! قالت : يا محمد ، إن قريشا منذ قُتل من قُتل منهم يبدرون تركوا استماع الغناء ، فوصلها رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأوقر لها بغيراً طعماً ، فرجعت إلى قريش وهي على دينها ، وكانت يُلقى عليها هجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فتغني به ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أن تقتل ، فقتلت ، وأما قينتا ابن خطل فقتل يوم الفتح إحداها ، وهي أرنب ، أو قرينة ، وأما قريني فاستؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأتمها وعاشت حتى ماتت في أيام عثمان .

قال الواقدي : وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل وخشي يوم الفتح ، فهرب إلى الطائف ، فلم يزل بها مقيماً حتى قدم مع وفد الطائف على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدخل عليه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، فقال : أوحشي ؟ قال : نعم ، قال : اجلس وحدثني كيف قتلت حمزة ؟ فلما أخبره قال : قم وغيب عني وجهك ، فكان إذا رآه توأرى عنه .

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي ذئب ومعمّر عن الزهري ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبي عمرو بن عدي بن أبي الحمراء ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول بعد فراغه من أمر الفتح وهو يريد الخروج من مكة : أما والله إنك لخير أرض الله ، وأحب بلاد الله إلي ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت .

وزاد محمد بن إسحاق في كتاب " المغازي " ، أن هند بنت عتبة جاءت إلى رسول الله

صلى الله عليه وآله مع نساء قريش متنكراً متنقباً لحدثها الذي كان في الإسلام ، وما صنعت بحمزة حين جدعته وبقرت بطنه عن كبده ؛ فهي تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله بحدثها ذلك ، فلما دنت منه ، وقال حين بايعنه على ألا يشرك بالله شيئاً قلن : نعم ؛ قال : ولا يسرقن ، فقالت هند : والله أنا كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنية فما أعلم أحلال ذلك أم لا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأنت لهند ! قالت ، نعم ، أنا هند ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فاعفُ عما سلف عفا الله عنك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ولا يزبن ، فقالت هند : وهل ترى الحرّة ! فقال : لا ، ولا يقتلن أولادهن ، فقالت هند : قد لعمري ربينا صغاراً وقتلتهم كباراً بيدٍ ، فأنت وهم أعرف . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى أسفرت نواحيه ، قال : ولا يأتين بهتان [يفتريته^(١)] ، فقالت هند : إن إتيان البهتان لقبيح ، فقال : ولا يمصينك في معروف ؛ فقالت : ما جلسنا هذه الجلسة ونحن نريد أن نعصيك .

قال محمد بن إسحاق : ومن جيد شعر عبد الله بن الزبير الذي اعتذر به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين قدم عليه :

مَنَعَ الرَّقَادَ بِلَابِلٍ وَهُمُومٌ	فَاللَّيْلُ مَمْتَدُّ الرِّوَاقِ بِهِمٌ ^(٢)
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَنْبِ	فِيهِ ، فَبِتَّ كَأَنِّي مَحْمُومٌ
يَاخِرَ مَنْ حَلَّتْ عَلَى أَوْصَالِهَا	عَيْرَانَةٌ سُرُحُ الْيَدَيْنِ سَعُومٌ ^(٣)

(١) من د .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٩ . البلايل : الوسواس المختاطة . والبهيم : الذي لا ضياء فيه . وفي ابن هشام : « والليل معتلج الرواق » .

(٣) العيرانة : الناقة التي تشبه المير (حمار الوحش) في شدته ونشاطه . سرح اليدين : خفيتهما . وسعوم : سريعة . وفي ابن هشام : « غشوم » .

إِنِّي لَمَعْتِدِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي أَسَدَيْتَ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمٌ^(١)
 أَيْتَنَ^(٢) تَأْمُرُنِي بِأَعْوَى خُطَّةٍ سَمَهُمْ ، وَتَأْمُرُنِي بِهِ مَخْرُومٌ
 وَأَمَدُّ أَسْبَابَ الرَّدَى وَيَقُودُنِي أَمْرُ الْغَوَاةِ وَأَمْرُهُمْ مَشْتُومٌ
 فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَلْبِي ، وَمُخْطِئِ هَذِهِ مَحْرُومٌ
 مَضَتْ الْعِدَاوَةُ وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا وَدَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنِنَا وَحُلُومٌ^(٣)
 فَغَفِرَ فِدَى لَكَ وَالَّذِي كَلَاهُمَا زَلَلِي ، فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومٌ
 وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ الْمَلِكِ عِلَامَةٌ نَوْرٌ أَغْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ
 أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بَرَهَانُهُ شَرَفًا وَبُرْهَانَ الْإِلَهِ عَظِيمٌ
 وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقٌ بَرٌّ وَشَأْنُكَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمٌ
 وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفَى مُتَقَبَّلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمٌ
 فَرَعٌ عَلَا بِنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ دَوْحٌ تَمَكَّنَ فِي الْعُلَا وَأُرُومٌ^(٤)

قال الواقدي : وفي يوم الفتح سَمَّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أهلَ مكة الذين دخلها عليهم الطلقاء ، لَمَنَّهُ عليهم بعد أن أظفره الله بهم ، فصاروا أرقاء له . وقد قيل له يوم الفتح : قد أمكنك الله تعالى نخذ ما شئت من أقمارٍ على غصون - يعنون النساء ؛ فقال عليه السلام : يَأْتِي ذلك إطعامهم الضيف ، وإكرامهم البيت ، وَوَجَّوْهُمَ مناحِرَ الهدى .

ثم نعود إلى تفسير ما بقى من ألفاظ الفصل^(٥)؛ قوله : « فَإِنْ كَانَ فِيكَ تَجَلُّلٌ فَاسْتَرْفِهِ »

(١) أسديت : صنعت . (٢) في د : « أ يام » .

(٣) الخلوم : جمع حلم ؛ وهو العقل . (٤) ابن هشام :

قَرُمٌ عَلَا بِنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ فَرَعٌ تَمَكَّنَ فِي الدَّرَا وَأُرُومٌ

قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها » .

(٥) انظر ص ٢٥٠ من الجزء السابع عشر من هذا الكتاب

أى كن ذا رَفَاهِيَّة ، ولا تُرَهِّقَنَّ نفسك بالعجل ، فلا بدَّ من لقاء بعضنا بعضا ، فأى حاجة بك إلى أن تعجل ! ثم فسّر ذلك فقال : إن أُرُركَ فى بلادك ، أى إن غَزَوْتَكَ فى بلادِكَ تخليق أن يكون الله بعثنى للانتقام منك ، وإن زُرْتَنى - أى إن غَزَوْتَنى فى بلادى وأقبلتَ بجموعك إلىّ .

كنتم . كما قال أخو بنى (١) أسد؛ كنت أسمعُ قديما أن هذا البيت من شعر بشر بن أبى خازم الأسدى ؛ والآن فقد تصفّحتُ شعره فلم أجده ، ولا وقتُ بعدُ على قائله ، وإن وقَّفتُ فيما يُستقبل من الزّمان عليه ألحقته .

وريحٌ حاصِبٌ ، تحملُ الحُصْبَاءَ ، وهى صِغارُ الحصى ، وإذا كانت بين أغوار - وهى ما سفلُ من الأرض وكانت مع ذلك ريحَ صيف - كانت أعظمَ مشقةً ، وأشدَّ ضررا على مَنْ تُلاقِيه . وجُلُودُ ، يمكن أن يكون عَطفا على « حاصِبٍ » ، ويمكن أن يكون عطفًا على « أغوار » ، أى بين غَوْرٍ من الأرض وحرّةٍ ، وذلك أشدَّ لأذاها لما تكسبُهُ الحرّة من لَفْحِ السَّمُومِ وَوَهْجِهَا . والوجه الأوّل أليق .

وأعضضته أى جعلته معضوضا برءوس أهلِكَ ، وأكثر ما يأتى « أفعلته » أن يجعله « فاعلا » ، وهى ها هنا من المقلوب ، أى أعضضت رءوس أهلِكَ به ، كقوله : « قد قطع الجبل بالمرود » .

وجدّه عُتْبَةُ بن ربيعة ، وخاله الوليدُ بنُ عتبة ، وأخوه حَنْظَلَةُ بن أبى سفيان ، قتلهم على عليه السلام يوم بدر .

والأغْلَفَ القلب : الذى لا بصيرة له ، كأنّ قابه فى غِلافٍ ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ (٢) .

(١) وهو قوله :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَّاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ

بِحَاصِبِ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلُودٍ

(٢) سورة البقرة ٨٨ .

والمقارب العقل ، بالكسر : الذى ليس عقله بجيد ؛ والعامّة تقول فيما هذا شأنه : مقارب ، بفتح الراء .

ثم قال : الأولى أن يقال هذه الكلمة لك .
ونشدت الضالة : طلبتها ، وأنشدتها : عرّفتها ، أى طلبت ما ليس لك .
والسائمة : المال الراعى ؛ والكلامُ خارجٌ مخرج الاستعارة .
فإن قلت : كلّ هذا الكلام يطابق بعضه بعضاً إلاّ قوله : « فما أبعد قولك من فعلك »
وكيف استبعد عليه السلام ذلك ولا بُعدَ بينهما ، لأنه يطلبُ الخلافة قولاً وفعلًا ! فأى بُعد
بين قوله وفعله !

قلت : لأنّ فعله البغى ، والخروج على الإمام الذى ثبتت إمامته وصحّت ، وتفريق جماعة
المسلمين ، وشقّ العصا ، هذا مع الأمور الّتى كانت تظهر عليه وتقتضى الفسق ؛ من لبس
الحرير ، والمنسوج بالذهب ، وما كان يتعاطاه فى حياة عثمان من المنكرات الّتى لم تثبت
توبته منها ، فهذا فعله .

وأما قوله ؛ فزعمه ^(١) أنه أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، وهذا القولُ بعيدٌ من ذلك
الفعل جدا .

و « ما » فى قوله : « وقريب ما أشبهت » مصدرية ، أى وقريب شبهك بأعمام وأخوال .
وقد ذكرنا من قُتل من بنى أميّة فى حرُوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تقدّم ، وإليهم
الإشارة بالأعمام والأخوال ، لأن أخوال معاوية من بنى عبد شمس ، كما أنّ أعمامه من
بنى عبد شمس .

قوله : « ولم تماشها الهوينى » أى لم تصحبها ، يصفها بالسرعة والمضىّ فى الرءوس الأعناق

(١) ١ : « لزعمه » .

وأما قوله : « ادخل فيما دخل فيه الناس وحاكم القوم » ، فهي الحجة التي يحتج بها أصحابنا له في أنه لم يسلم قتلة عثمان إلى معاوية ، وهي حجة صحيحة ، لأن الإمام يجب أن يطاع ، ثم يتحاكم إليه أولياء الدم والمتهمون ، فإن حكم بالحق استديمت حكومته ، وإلا فسق وبطلت [إمامته ^(١)] .

قوله : « فأما تلك التي تريد » ؛ قيل : إنه يريد ^(٢) التعلق بهذه الشبهة ، وهي قتلة عثمان ، وقيل : أراد به ما كان معاوية يكرّر طلبه من أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو أن يقرّ على الشام وحده ، ولا يكلفه البيعة ، قال : إن ذلك كمخادعة الصبي في أول فطامه عن اللبن بما تصنعه النساء له مما يكره إليه الثدي ويسليه عنه ، ويُرغبه في التعوض بغيره ، وكتاب معاوية الذي ذكرناه لم يتضمن حديث الشام .

(٢) في د « يعني » .

(١) من د .

(٦٥)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام أيضا :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ آتَى لَكَ أَنْ تَنْتَفِجَ بِاللَّمَحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ، فَلَقَدْ سَلَكْتَ
مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِإِدْعَائِكَ الْبَاطِلِ ، وَاقْتِحَامِكَ غُرُورِ الْمَيِّنِ وَالْأَكْذِيبِ ؛ مِنْ
انْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَابْتِرَازِكَ لِمَا قَدْ اخْتَرَنَ دُونَكَ ؛ فِرَارًا مِنَ الْحَقِّ ،
وَجُحُودًا لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَمُلِيَ بِهِ صَدْرُكَ ؛
فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَبِمَدِّ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ !

فَاخْذَرِ الشُّبُهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسِهَا ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَقَتْ جَلَابِيهَا ،
وَأُعْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلُمَتُهَا . وَقَدْ آتَانِي كِتَابُ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَمَعَتْ قُورَاهَا
عَنِ السَّلَمِ ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحْكُمِهَا عَنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ ، أَصْبَحَتْ مِنْهَا كَالْخَائِبِ
فِي الدَّهَاسِ ، وَالْخَائِبِ فِي الدَّيَاسِ ، وَتَرَقَّيْتُ إِلَى مَرْقَبَةٍ بِعِيدَةِ الْعَرَامِ ، نَازِحَةٍ
الْأَعْلَامِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنْوُقُ ، وَيُحَاذِي بِهَا الْعَيُوقُ ؛ وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلَى لِلْمُسْلِمِينَ
مِنْ بَمْدَى صَدْرًا أَوْ وَرْدًا ، أَوْ أُجْرَى لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْدًا أَوْ نَعْمًا ! فَمَنْ الْآنَ
فَتَدَارَكَ نَفْسَكَ وَانْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يُنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللَّهِ أُرْتَبِعَتْ
عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، وَمُنِمَتْ أَمْرًا هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ ، وَالسَّلَامُ .

الشُّرْحُ :

أَن لَّكَ وَأَنَّى لَكَ بَعْثِي ، أَى قَرْبُ وَحَان ، تقول : أَن لَكَ أَن تَفْعَلَ كَذَا يَشِينُ أَيْنًا ،
وقال :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ لِي تُجَلَ عَنِّي عَمَائِي وَأَقْصُرَ عَن لَيْلِي ، بَلَى قَدْ أَنَّى لِيَا
فَجَمَعَ بَيْنَ اللَّغَتَيْنِ ، وَ « أَنَّى » مَقْلُوبَةٌ عَن « أَن » ؛ وَمِمَّا يَجْرِي جَعْلُ الْمَثَلِ قَوْلَهُمْ لِمَنْ
يُرْوَاهُ شَيْئًا شَدِيدًا يُبْصِرُهُ وَلَا يَشْكُ فِيهِ : قَدْ رَأَيْتَهُ لِحَا بَاصِرًا ، قَالُوا : أَى نَظَرًا بِتَحْدِيقٍ
شَدِيدٍ ، وَخَرَجَهُ مَخْرَجَ رَجُلٍ لَابِنٍ وَتَامِرٍ ، أَى ذُو لَبَنٍ وَتَمَرٍ ، فَعَسَى « بَاصِر »
ذُو بَصَرٍ ؛ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَاوِيَةَ : قَدْ حَانَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِمَا تَعَلَّمَهُ مِنْ مَعَايِنَةِ الْأُمُورِ
وَالْأَحْوَالِ وَتَتَحَقَّقَهُ يَقِينًا بِقَلْبِكَ ؛ كَمَا يَتَحَقَّقُ ذُو اللَّحْمِ الْبَاصِرُ مَا يُبْصِرُهُ بِحَاسَّةِ بَصَرِهِ ،
وَأَرَادَ بَيَانِ الْأُمُورِ هَاهُنَا مَعَايِنَتَهَا ، وَهُوَ مَا يَعْرِفُهُ ضَرُورَةٌ مِنْ اسْتِحْقَاقِ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
لِلْخَلَافَةِ دُونَهُ ، وَبِرَاءَتِهِ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ يَنْسُبُهَا إِلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ : « فَقَدْ سَلَكْتَ » ، أَى اتَّبَعْتَ طَرِيقَ أَبِي سُفْيَانَ أَيْبِكَ وَغُتْبَةَ جَدِّكَ
وَأَمْثَالَهُمَا مِنْ أَهْلِكَ ذَوِي الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ .

وَالْأَبَاطِيلُ : جَمْعُ بَاطِلٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ ، كَأَنَّهُمْ جَمَعُوا إِطِيلًا .

وَالْأَقْتِحَامُ : إِقْتَاءُ النَّفْسِ فِي الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ .

وَالْمَيْنُ الْكَذِبُ . وَالْعُرُورُ بِالْضَمِّ الْمَصْدَرُ وَبِالْفَتْحِ الْأَسْمُ .

وَاتْتَحَلَّتْ الْقَصِيدَةُ ، أَى ادَّعَيْتَهَا كَذِبًا .

قال : « مَا قَدْ عَلَا عَنكَ » ، أَى أَنْتَ دُونَ الْخَلَافَةِ ، وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا وَالْأَبْتَازُ :

الْأَسْتِلَابُ .

قال : « لما قد آخترن دونك » ، يعنى التسمى بإمرة المؤمنين .
ثم قال : « فرارا من الحق » ، أى فعلت ذلك كله هربا من التمسك بالحق والدين ،
وجبا للكفر والشقاق والتغلب .

قال : « وجُحودا لما هو أزم » ، يعنى فرض طاعة على عليه السلام ، لأنه قد وعّاها
سمعه ؛ لا ريب فى ذلك ، إّما بالنص فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله كما تذكره
الشيعة - فقد كان معاوية حاضرا يوم القدير لأنه حجّ معهم حجة الوداع ، وقد كان أيضا
حاضرا يوم تبوك حين قال له بمحض من الناس كافة : « أنت منى بمنزلة هارون من
موسى » ، وقد سُمع غير ذلك - وإّما بالبيعة كما ذكره نحن فإنه قد اتصل به خبرها ،
وتواتر عنده وقوعها ، فصار وقوعها عنده معلوما بالضرورة كعلمه بأن فى الدنيا بلدا أسماها
مصر ، وإن كان ما رآها .

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنه يريد المعنى الأول ! ونحن نخرج
على وجه لا يلزم منه ما تقوله الشيعة ، فنقول : لنفرض أن النبى صلى الله عليه وآله مانص
عليه بالخلافة بعده ، أليس يعلم معاوية وغيره من الصحابة أنه لو قال له فى ألف مقام : « أنا
حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت » ، ونحو ذلك من قوله : « اللهم عاد من عاداه » ،
والى من وآلاه » ، وقوله : « حربك حربى وسلمك سلمى » ، وقوله : « أنت مع الحق
والحق معك » ، وقوله : « هذا منى وأنا منه » ، وقوله : « هذا أخى » ، وقوله : « يحب الله
ورسوله ، ويحب الله ورسوله » ، وقوله : « اللهم آتني بأحب خلقك إليك » ، وقوله : « إنه
ولى كل مؤمن [ومؤمنة ^(١)] بعدى » ، وقوله : فى كلام قاله : « خاصف النعل » ، وقوله :
« لا يحبّه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلا منافق » ، وقوله : « إن الجنة لتشتاق إلى أربعة » ، وجمله
أوّلهم ؛ وقوله لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » ، وقوله : « ستقاتل الناكثين والقاسطين

والمارقين بعدى » ، إلى غير ذلك مما يطول تعداده جداً ، ويحتاج إلى كتاب مفرد يوضع له ، أفا كان ينبغي لمعاوية أن يفكر في هذا ويتأمله ، ويخشى الله ويتقيه ! فلعله عليه السلام إلى هذا أشار بقوله : « وجُحوداً لما هو أَلَزَم لك من لَحْمِكَ وَدَمِكَ مما قد وعاه سَمْعُكَ ، ومُلَى به صَدْرُكَ » .

قوله : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ! ﴾ ^(١) كلمة من الكلام الإلهي المقدس . قال : « وبعد البَيان إِلَّا اللبس » ، يقال : لبست عليه الأمر لبساً ، أى خلطته ، والمضارع يلبس بالکسر .

قال : « فاحذر الشبهة وأشتالها » على اللبسة بالضم ، يقال فى الأمر لبسة أى اشتباه ولبس بواضح ؛ ويجوز أن يكون « أشتال » مصدراً مضافاً إلى معاوية ، أى أحذر الشبهة وأحذر أشتالك إياها على اللبسة ، أى ادراعك بها وتقمصك بها على ما فيها من الإبهام والأشتياء ؛ ويجوز أن يكون مصدراً مضافاً إلى ضمير الشبهة فقط ، أى أحذر الشبهة واحتواءها على اللبسة التى فيها .
وتقول : أغدفت المرأة قناعها ، أى أرسلته على وجهها ، وأغدفت الليل ، أى أرخى سدوله ، وأصل الكلمة التَّفْطِيطُ .

والجلابيب : جمع جلباب ، وهو الثوب .
قال : « وأعشت الأبصار ظلمتها » : أى أكسبتها العشى وهو ظلمة العين . وروى « وأعشت » بالعين المعجمة « ظلمتها » بالنصب ، أى جعلت الفتنة ظلمتها غشاء للأبصار .
والأفانين : الأساليب المختلفة .

قوله : « ضعفت قواها عن السلم » ، أى عن الإسلام ، أى لا تصدر تلك الأفانين

(١) سورة يونس : ٣٢ .

المختلطة عن مُسْلِم ، وكانَ كَتَبَ إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَفْرِدَهُ بِالشَّامِ ، رَأَى يَوْمَئِذٍ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَلَّا يَكْلِفُهُ الْحَضُورَ عِنْدَهُ . وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو : ﴿ اُدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً ﴾ ^(١) ؛ وَقَالَ : لَيْسَ الْمَعْنَى بِهَذَا الصَّلَاحِ ، بَلِ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ لَا غَيْرَ ، وَمَعْنَى « ضَعُفَتْ قُوَاهَا » ، أَيْ لَيْسَ لَتِلْكَ الطَّلِبَاتِ وَالذَّعَاوَى وَالشُّبُهَاتِ الَّتِي تَضُمُّنَهَا كِتَابُكَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ التَّمَسُّكُ بِهِ مُسْلِمًا ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ لَا يَقُولُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ ؛ إِمَّا كَافِرٌ مُنَافِقٌ أَوْ فَاسِقٌ ، وَالْكَافِرُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ ، وَالْفَاسِقُ أَيْضًا لَيْسَ بِمُسْلِمٍ - عَلَى قَوْلِ أَصْحَابِنَا - وَلَا كَافِرٌ .

ثُمَّ قَالَ : « وَأَسَاطِيرُ لَمْ يَحْكُمْهَا مِنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ » ، الْأَسَاطِيرُ : الْأَبَاطِيلُ ، وَاحِدُهَا أُسْطُورَةٌ بِالضَّمِّ وَإِسْطَارَةٌ بِالْكَسْرِ وَالْأَلْفِ . وَحَوْكُ الْكَلَامِ : صَنَعْتُهُ وَنَظَّمْتُهُ . وَالْحِلْمُ : الْمَعْقِلُ ، يَقُولُ لَهُ : مَا صَدَرَ هَذَا الْكَلَامُ وَالْمُتَجَرِّعُ الْفَاسِدُ عَنْ عَالَمٍ وَلَا عَاقِلٍ .

وَمِنْ رَوَاهَا « الدِّهَاس » بِالْكَسْرِ فَهُوَ جَمْعُ دَهَسَ ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِالْفَتْحِ فَهُوَ مُفْرَدٌ ، يَقُولُ ؛ هَذَا دَهَسٌ وَدِهَاسٌ بِالْفَتْحِ ، مِثْلُ لَبَثٌ وَلَبَاثٌ لِلْمَكَانِ السَّهْلِ الَّذِي لَا يَبْأَغُ أَنْ يَكُونَ رَمَلًا ، وَلَيْسَ هُوَ بِتَرَابٍ وَلَا طِينٍ .

وَالدِّيمَاسُ بِالْكَسْرِ : السَّرَبُ الْمُظْلِمُ تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَفِي حَدِيثِ الْمَسِيحِ : « إِنَّهُ سَبَّطَ الشَّعْرَ ، كَثِيرُ خِيَلَانِ الْوَجْهِ ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ » ، يَعْنِي فِي نَضْرَتِهِ وَكَثْرَةِ مَاءِ وَجْهِهِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ كِنٍّ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي وَصْفِهِ : كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ مَاءً ، وَكَانَ لِلْحَبِجَّاجِ سِجْنٌ أَسْمَهُ الدِّيمَاسِ لظُلُمَتِهِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ دَمَسَ الظَّلَامَ يَدْمُسُ أَيْ اشْتَدَّ ، وَلَيْلٌ دَامِسٌ وَدَامُوسٌ ، أَيْ مُظْلِمٌ : وَجَاءَ نَا فَلَانٌ بِأُمُورِ دُمُسَ ، أَيْ مُظْلِمَةٍ عَظِيمَةٍ ، يَقُولُ لَهُ : أَنْتَ فِي كِتَابِكَ هَذَا كَالْخَائِضِ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ الرَّخْوَةِ ، وَتَقُومُ وَتَقَعُ وَلَا تَتَخَلَّصُ ، وَكَالْخَابِطِ فِي اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَمُتُّ وَيَنْهَضُ وَلَا يَهْتَدِي الطَّرِيقَ .

والمرقبة : الموضع العالى. والأعلام : جمع علم ، وهو ما يهتدى به فى الطرقات من المنار ، يقول له : سمت همتك إلى دعوى الخلافة ، وهى منك كالمرقبة التى لا ترام بتعدى على من يطلبها ، وليس فيها أعلام تهدى إلى سلوك طريقها ، أى الطرق إليها غامضة ، كالجبيل الأملس الذى ليس فيه درج ومراق يسلك منها إلى ذروته .

والأنوق على « فمول » بالفتح كأكول وشروب : طائر ، وهو الرخمة . وفى المثل : « أعز من بيض الأنوق » ؛ لأنها تحرزه ولا يكاد أحد يظفر به ، وذلك لأن أوكارها فى ردوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة .

والعيوق : كوكب معروف فوق زحل فى الثلث ، وهذه أمثال ضربها فى بُعد معاوية عن الخلافة .

ثم قال : « حاش لله أن أولئك شيئا من أمور المسلمين بعمدى » ، أى معاذ الله ، والأصل إثبات الألف فى « حاشا » ، وإنما اتبع فيها المصحف .
والورد والصدور : الدخول والخروج ، وأصله ، فى الإبل والماء . وينهد إليك عباد الله ، أى ينهض . وأرتجت عليك الأمور : أغلقت .

وهذا الكتاب هو جواب كتاب وصل من معاوية إليه عليه السلام بعد قتل على عليه السلام الخوارج ، وفيه تلويح بما كان يقوله من قبل : إن رسول الله وعدنى بقتال طائفة أخرى غير أصحاب الجمل وصفين ، وإنه سبأهم المارقين ، فلما واقعهم عليه السلام بالنهر وان وقتلهم كلهم بيوم واحد وهم عشرة آلاف فارس أحب أن يذكر معاوية بما كان يقول من قبل ، ويعد به أصحابه وخواصه ، فقال له : قد آن لك أن تنتفع بما عاينت وشاهدت معاينة ومشاهدة ، من صدق القول الذى كنت أقوله للناس ويبلغك فتسهزئ به .

(٦٦)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبدالله بن العباس ، وقد تقدم ذكره

بخلاف هذه الرواية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَيُفَوِّتُهُ ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ
الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَيُصِيبُهُ ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ ،
أَوْ شِفَاءٍ غَيِظٍ ؛ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ ، وَإِحْيَاءُ حَقٍّ .
وَلَيْكُنْ سُورُوكَ بِمَا قَدَّمْتَ ، وَأَسْفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

الشرح :

هذا الفصل قد تقدم شرح نظيره ، وليس في ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تفسير ،
ولكننا سنذكر من كلام الحكماء والصالحين كلمات تناسبه .

[نبذ من كلام الحكماء]

فمن كلام بعضهم : ما قُدِّرَ لك أُنَّاكَ ، وما لم يُقَدَّرْ لك تَمَدَّاكَ ، فَعَلَامَ تَفْرَحُ بِمَا لَمْ
يَكُنْ بَدْءًا مِنْ وَصُولِهِ إِلَيْكَ ، وَعَلَامَ تَحْزَنُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لِيَقْدَمَ عَلَيْكَ !

ومن كلامهم : الدنيا تقبل إقبال الطالب ، وتدبر إدبار الهارب ، وتصل وصال التهالك ،
وتفارق فراق البغض الفارك ، نخيرها يسير ، وعيشها قصير ، وإقبالها خدعة ، وإدبارها

فَجَمَّةٌ ، وَلَذَاتُهَا فَانِيَةٌ ، وَتَبِيعَاتُهَا بَاقِيَةٌ ، فَاعْتَنِمِ غَفْلَةَ الزَّمَانِ ، وَانْتَهِزْ فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ ،
وَاخْذِ مِنْ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ، وَتَزَوَّدْ مِنْ يَوْمِكَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نَقَادِ الْمُدَّةِ ، وَزَوَالِ الْقُدْرَةِ ،
فَلِكُلِّ امْرَأٍ مِنْ دُنْيَاهَا مَا يَنْفَعُهُ عَلَى عِمَارَةِ آخِرَاهَا .

وَمِنْ كَلَامِهِمْ : مَنْ نَكَّدَ الدُّنْيَا أَنَّهَا لَا تَبْقَى عَلَى حَالَةٍ ، وَلَا تَخْلُو مِنْ اسْتِحَالَةٍ ،
تُصْلِحُ جَانِبًا بِإِفْسَادِ جَانِبٍ ، وَتُسَرُّ صَاحِبًا بِمَسَاءَةِ صَاحِبٍ ؛ فَالْتَّكُونُ فِيهَا خَطَرٌ ،
وَالْتَّقَى إِلَيْهَا غَرَرٌ ، وَالْتَّجَاءُ إِلَيْهَا مُحَالٌ ، وَالْاعْتِمَادُ عَلَيْهَا ضَلَالٌ .

وَمِنْ كَلَامِهِمْ : لَا تَبْتَهِجَنَّ لِنَفْسِكَ بِمَا أَدْرَكَتَ مِنْ لَذَاتِهَا الْجَسْمَانِيَّةِ ، وَابْتَهِجْ لَهَا
بِمَا تَنَالَهُ مِنْ لَذَاتِهَا الْعَقْلِيَّةِ . وَمَنْ الْقَوْلُ بِالْحَقِّ ، وَالْعَمَلُ بِالْحَقِّ ، فَإِنَّ اللَّذَاتِ الْحَسَنِيَّةَ
خَيَالٌ يَنْفَدُ ، وَالْمَعَارِفُ الْعَقْلِيَّةُ بَاقِيَةٌ بَقَاءَ الْأَبَدِ .

(٦٧)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ ،
فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتَى ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ ، وَذَكِّرِ^(١) الْعَالِمَ ، وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ
إِلَّا لِسَانَكَ ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهَكَ .

وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا ، فَإِنَّهَا إِنْ زِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وَرْدِهَا
لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا .

وَانْظُرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللَّهِ فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ
وَالْمَجَاعَةِ ، مُصِيبًا بِهِ مَوَاضِعَ الْمَفَاقِرِ وَالْخَلَّاتِ ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا
لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قَبْلَنَا .

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْرًا ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ :
﴿ سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾^(٢) فَالْعَاكِفُ : الْمُقِيمُ بِهِ ، وَالْبَادِ : الَّذِي يَحْجُجُ إِلَيْهِ
مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَفَقَّنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابَبِهِ ؛ وَالسَّلَامُ .

البشرح :

قد تقدم ذكر قُثم ونسبه . أمّره أن يقيم للناس حجّهم ، وأن يذكرهم بأيّام الله ، وهي أيّام الإنعام ، وأيّام الانتقام ، لتحصّل الرغبة والرّغبة . واجلس لهم العَصْرين : الغداة والعشي .

ثم قسّم له ثمرة جلوسه لهم ثلاثة أقسام : إمّا أن يفتي مُستفتيا من العامة في بعض الأحكام ، وإمّا أن يعلم متعلّما يطلب الفقه ، وإمّا أن يُذكر^(١) علما ويُباحثه ويُفاديه ، ولم يذكر السياسة والأمور السلطانية لأنّ غرضه متعلّق بالحجيج ، وهم أضيافه ، يقيمون لپالى سيرة ويقفون ؛ وإنّما يذكر السياسة وما يتعلّق بها فيما يرجع إلى أهل مكّة ، ومن يدخل تحت ولايته دائما ، ثمّ نهّاه عن توسّط السّفراء والحجّاب بينه وبينهم ، بل ينبغي أن يكون سفيره لسانه ، وحاجبه وجهه ، ورؤي « ولا يكن إلّا لسانك سفيراً لك إلى الناس » يجعل « لسانك » اسم كان مثل قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾^(٢) ، والرواية الأولى هي المشهورة ، وهو أن يكون « سفيرا » اسم كان ، و « لك » خبرها ، ولا يصحّ ما قاله الروانديّ : إنّ خبرها « إلى الناس » ، لأنّ « إلى » هاهنا متعلّقة بنفس « سفير » ، فلا يجوز أن تكون الخبر عن « سفير » ، تقول : سفرتُ إلى بني فلان في الصّبح ، وإذا تعلّق حرف الجرّ بالكلمة صار كالشيء الواحد .

ثم قال : فإنّها إن زِيدت أى طُرِدَتْ ودُفِعَتْ .

كان أبو عباد ثابتُ بن يحيى كاتبُ المأمون إذا سئل الحاجة يشتمُ السائل ، ويسطو عليه ويُخجله ، ويُسكّته ساعةً ثمّ يأمر له بها ؛ فيقوم وقد صارت إليه ، وهو يذمه ويلعنه قال عليّ بنُ جبلة العكوك :

(١) في د « يذكر » . (٢) سورة النمل ٥٦ .

لَعَنَ اللَّهُ أَبَا عَبَّادَ لَعْنًا يَتَوَالَى
يُوسِعُ السَّائِلَ شِمًا ثُمَّ يُعْطِيهِ السَّوَالَا

وكان الناس يُقِفون لأبي عَبَّادَ وقتَ رُكوبه ، فيتقدّم الواحدُ منهم إليه بقصّته ليناوله
إِيَّاهَا ، فيركّله برجله بالرّكاب ، وَيَضْرِبُهُ بِسَوْطِهِ ، وَيَطِيرُ غَضَبًا ، ثُمَّ لَا يَنْزِلُ عَنْ فَرْسِهِ
حَتَّى يَقْضَى حَاجَتَهُ ، وَيَأْمُرُ لَهُ بِطَلْبَتِهِ ، فينصرف الرجلُ بِهَا وهو ذائمٌ له ساخطٌ عليه ؛
فقال فيه دِعْبِلُ :

أَوَّلَى الْأُمُورِ بَضِيعَةٌ وَفَسَادٌ مُلْكٌ يَدْبِرُهُ أَبُو عَبَّادٍ^(١)
مَتَعَمِّدٌ بِدَوَاتِهِ جُلَسَاءَهُ^(٢) فَضْرَجٌ وَخَضْبٌ بِعَدَادٍ
وَكَأَنَّهُ مِنْ دَيْرٍ هَزَقْلٍ مُفْلَتٌ حَرْبٌ يَجْرُ سَلَّاسِلُ الْأَفْيَادِ^(٣)
فَأَشَدُّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفَادَهُ بِأَشَدِّ مِنْهُ فِي يَدِ الْحَدَادِ

وقال فيه بعضُ الشعراء :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ قَيْدٌ وَزِيرٌ إِنَّهُ رَكَّالٌ
فَلَسَوْطُهُ بَيْنَ الرُّؤُوسِ مَسَالِكٌ وَلِرَجْلِهِ بَيْنَ الصُّدُورِ مَجَالٌ

والفاجر : الحاجات ؛ يقال : سدّ الله مَفَاقِرَهُ ، أَيْ أَغْنَى الله فَقْرَهُ ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَ
أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْحَاجِّينَ أَجْرَةَ مَسْكَنٍ ، وَاحْتِجَّ عَلَى ذَلِكَ بِالْآيَةِ ،
وَأَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ يَتَمَسَّكُونَ بِهَا فِي امْتِنَاعِ بَيْعِ دُورِ مَكَّةَ وَإِجَارَتِهَا ، وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ

(١) ديوانه ٧١ ، وروايته : « أَمْرٌ يَدْبِرُهُ أَبُو عَبَّادٍ » وبعده هناك :

خِرْقٌ عَلَى جُلَسَائِهِ فَكَأَنَّهُمْ حَضَرُوا لِلْحَمَةِ وَيَوْمَ جَلَادٍ
(٢) الديوان : « يَسْطُو عَلَى كِتَابِهِ بِدَوَانِهِ » .

(٣) الديوان : « حَرْدٌ » ودير هزقل : مجتمع المجانين كان .

المسجد الحرام هو مَكَّة كلها ، والشافعي يرى خلاف ذلك ، ويقول : إنه الكعبة ، ولا يمنع من بيع دُور مَكَّة ولا إجارتها ، ويحتج بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾^(١) ، وأصحاب أبي حنيفة يقولون : إنها إضافة اختصاص لا إضافة تمليك ، كما تقول : جلّ الدابة ، وقرأ « سواء » بالنصب على أن يكون أحد مفعولي « جعلنا » أى جعلناه مُستَوياً فيه العاكف والباد ، ومن قرأ بالرفع جعل الجملة هي^(٢) المفعول الثاني .

(١) الحج ٤ . (٢) في د « على » .

(٦٨)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسي رحمه الله قبل أيام خلافته:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ^(١) الْحَيَّةِ ، لَيِّنٌ مَسْهًا ، قَاتِلٌ سَمُهَا ، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُمَجِّبُكَ فِيهَا ، لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا ، لِمَا أَيقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرَّفِ حَالَاتِهَا ، وَكُنْ آتِسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَخَذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورِ اشْخَصَتَهُ إِلَى مَحْذُورٍ ، أَوْ إِلَى إِيْنَاسٍ أَرَاَلَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيْحَاشٍ ؛ وَالسَّلَامُ .

الشيْرُخ :

[سلمان الفارسي وخبر إسلامه]

سَلْمَانُ ، رَجُلٌ مِنْ فَارِسَ مِنْ رَامَهْرْمُزْ ؛ وَقِيلَ : بَلْ مِنْ أَصْبَهَانَ ، مِنْ قَرِيْبٍ يُقَالُ لَهَا جَبِّي ، وَهُوَ مَعْدُودٌ مِنْ مَوَالِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ وَكُنِيْتُهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، وَكَانَ إِذَا قِيلَ : ابْنُ مَنْ أَنْتَ ؟ يَقُولُ : أَنَا سَلْمَانُ ، ابْنُ الْإِسْلَامِ ، أَنَا مِنْ بَنِي آدَمَ .
وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ قَدْ تَدَاوَلَهُ أَرْبَابُ كَثِيْرَةٍ ، بِضِعَةِ عَشَرَ رَبًّا ؛ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرٍ حَتَّى أَفْضَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ^(٢) .

وَرَوَى أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ " الْاِسْتِيْعَابِ " ، أَنَّ سَلْمَانَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ

(١) فِي د « كَتْل » .

(٢) الْاِسْتِيْعَابُ ٦٣٤ وَمَا بَعْدَهَا (طَبْعَةُ نَهْضَةِ مِصْر) ، وَبَعْدَهَا هُنَاكَ : « وَمِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالإِسْلَامِ » .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِصَدَقَةٍ ، فَقَالَ : هَذِهِ صَدَقَةٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أَصْحَابِكَ ، فَلَمْ يَقْبَلْهَا ، وَقَالَ :
إِنَّهُ لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ ، فَرَفَعَهَا ، ثُمَّ جَاءَ مِنَ الْقَدْرِ بِمِثْلِهَا وَقَالَ : هَدِيَّةٌ هَذِهِ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : كُلُوا .
وَأَشْتَرَاهُ مِنْ أُرْبَابِهِ ، وَهُمْ قَوْمٌ يَهُودٌ بِدْرَاهِمَ ، وَعَلَى أَنْ يَغْرِسَ لَهُمْ مِنَ النَّخِيلِ كَذَا
وَكَذَا ، وَيَعْمَلُ فِيهَا حَتَّى تُدْرِكَ ، فَغَرَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ ذَلِكَ النَّخْلَ كُلَّهُ بِيَدِهِ
إِلَّا نَخْلَةً وَاحِدَةً غَرَسَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَأَطْعَمَ النَّخْلَ كُلَّهُ إِلَّا تِلْكَ النَخْلَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « مَنْ غَرَسَهَا ؟ » قِيلَ : عُمَرُ ؛ فَقَلَعَهَا وَغَرَسَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ بِيَدِهِ فَأَطْعَمَتْ (١) .

قال أبو عمر : وكان سلمانُ يَسِفُّ (٢) الخوص وهو أميرٌ على المدائن ويبيعه ويأكل
منه : ويقول : لَا أُحِبُّ أَنْ آكُلَ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِي ، وكان قد تعلم سَفَّ الخوص
من المدينة .

وأوّل مشاهدته الخندق ، وهو الَّذِي أشار بحفره ، فقال أبو سفيان وأصحابه لما رأوه :
هذه مَكِيدَةٌ ما كانت العرب تكيدها .

قال أبو عمر : وقد رُوِيَ أَنَّ سَلْمَانَ شَهِدَ بَدْرَ وَأُحُدًا ، وهو عبدٌ يومئذٍ ؛ والأكثر أَنَّ
أوّل مشاهدته الخندق ، ولم يفتّه بعد ذلك مشهد .

قال : وكان سلمان خَيْرًا ، فاضلاً ، حَبْرًا ، عالماً ، زاهداً ، متقشفاً .

قال : وذَكَرَ هشامُ بْنُ حَسَّانٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، قَالَ : كَانَ عَطَاءُ سَلْمَانَ خَمْسَةَ
آلَافٍ ، وكان إذا خرج عطاؤه تصدّق به ، ويأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وكانت له عِبَادَةٌ يَفْرِشُ
بعضها ويلبّس بعضها .

(١) بعدها في الاستيعاب : « من عامها » .

(٢) يسف الخوص ، أى ينسجه ، وفي اللسان : « وفي حديث أبي ذر ، قالت له امرأة : مائ بيتك سفة

ولا هفة ؛ السفة : ما يسف من الخوص كالزليل ونحوه » .

قال : وقد ذكر ابن وهب وابن نافع أن سلمان لم يكن له بيت ، إنما كان يستظلُّ بالجدُر والشَّجَر ، وأن رجلاً قال له : ألا أبني لك بيتاً تسكن فيه ؟ قال : لا حاجة لي في ذلك ؛ فما زال به الرجلُ حتَّى قال له : أنا أعرفُ البيتَ الَّذي يوافقُك ؛ قال : فصِفْه لي ، قال : أبني لك بيتاً إذا أنتَ قمتَ فيه أصابَ رأسك سَقْفُه ، وإن أنتَ مددتَ فيه رجلَكَ أصابَهما [الحِدار ^(١)] ؟ قال : نعم ، فبَنَيْتُ له .

قال أبو عمر : وقد رُوِيَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله من وجوه أنه قال : « لو كان الدِّين في الثَّرى لَنالَه سلمان » ، وفي روايةٍ أخرى « لَنالَه رجلٌ من فارس » .
قال : وقد رَوَيْنَا عن عائشةَ قالت : كان لسلمان مجلسٌ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ينفرد به بالليل حتَّى كاد يَغْلِبُنَا على رسولِ الله صلى الله عليه وآله .
قال : وقد رُوِيَ من حديثِ ابنِ بُرَيْدَةَ ، عن أبيه أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : « أمرَني ربِّي بحُبِّ أربعة ، وأخبرَني أَنَّهُ يحبُّهم : عليٌّ ، وأبو ذرٍّ ، والمقداد ، وسلمان » .

قال : وروى قتادة عن أبي هُرَيْرَةَ ، قال : « سلمان صاحبُ الكِتابين » يعنى الإنجيلَ والقرآن .

وقد روى الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البَخْتَرِيِّ ، عن عليٍّ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عن سلمان فقال : عَلِمَ العِلْمَ الأوَّلَ ، والعِلْمَ الآخرَ ، ذاكَ بحرٌ لا يُنْزَفُ ، وهو مِنَّا أهلُ البَيْتِ .

قال : وفي روايةٍ زاذانَ ، عن عليٍّ عليه السلام : سلمانُ الفارسيُّ كلُّهمَا الحكيم .

قال : وقال فيه كَتَبَ الأخبار : سلمانٌ حُشِيَ عِلْمًا وحِكْمَةً .

قال: وفي الحديث المروى أن أبا سُفْيَانَ مرَّ على سَلْمَانَ وَصُهِيبَ وَبِلَالٍ فِي تَفْرِجٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا: مَا أَخَذْتَ السَّيْفَ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا - وَأَبُو سُفْيَانَ يَسْمَعُ قَوْلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهَا! وَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، لَكَ أَغْضَبْتَهُمْ! لَنْ كُنْتُ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ اللَّهَ، فَأَتَاهُمُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا إِخْوَتَاهُ، لَعَلِّي أَغْضَبْتُكُمْ! قَالُوا: لَا يَا أَبَا بَكْرٍ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ .
قال: . وَآخِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ لَمَّا آخَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .

قال: وَرِيسْلَمَانَ فَضَائِلُ سَجَّةٍ، وَأَخْبَارُ حَسَّانٍ؛ وَتَوَفَّى فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ؛ وَقِيلَ: تَوَفَّى فِي أَوَّلِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ. وَقَالَ قَوْمٌ: تَوَفَّى فِي خِلَافَةِ عُمَرَ، وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ.

وَأَمَّا حَدِيثُ إِسْلَامَ سَلْمَانَ فَقَدْ ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ^(١) وَرَوَوْهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ ابْنَ دِهْقَانَ^(٢) قَرْيَةٍ جَاءَ مِنْ أَصْبَهَانَ، وَبَلَغَ مِنْ حُبِّ أَبِي لِي أَنْ حَبَسَنِي فِي الْبَيْتِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَّةُ، فَأَجْتَهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى صَرْتُ قَطْنَ^(٣) بَيْتِ النَّارِ، فَأَرْسَلَنِي أَبِي يَوْمًا إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ، فَرَرْتُ بِكَنِيسَةِ النَّصَارَى، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ، فَأَعْجَبْتَنِي صَلَاتُهُمْ، فَقُلْتُ: دِينَ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْ دِينِي؛ فَسَأَلْتُهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: بِالشَّامِ، فَهَرَبْتُ مِنْ وَالِدِي حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَدَخَلْتُ عَلَى الْأَسْقَفِ^(٤) فَجَعَلْتُ أَعْدُمُهُ وَأَتَعَلَّمُ مِنْهُ، حَتَّى حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ: إِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ فَقَالَ: قَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَتَرَكَوْا دِينَهُمْ إِلَّا رَجُلًا بِالْمَوْصِلِ فَالْحَقُّ بِهِ، فَلَمَّا قَضَى نَحْبَهُ لَحَقْتُ بِذَلِكَ الرَّجُلِ

(١) وَقَدْ ذَكَرَ خَيْرُ إِسْلَامِهِ أَيْضًا ابْنَ هِشَامٍ؛ أَوْرَدَهُ فِي السِّيرَةِ ١: ٢٣٣ - ٢٤٢ .

(٢) الدِّهْقَانُ: شَيْخُ الْقَرْيَةِ فِي بِلَادِ فَارَسَ .

(٣) قَطْنُ النَّارِ: خَادِمُهَا .

(٤) الْأَسْقَفُ: مِنْ وَطَائِفِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَهُوَ فَوْقَ الْقَيْسِ وَدُونَ الْعِلْرَانِ .

فلم يَلْبَثْ إِلَّا قليلا حتى حضرته الوفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ تُوصِي بي؟ فقال : ما أعلم رجلا بقى على الطريقة المستقيمة إِلَّا رجلا بنصيبين ، فلحقتُ بصاحب نصيبين . قالوا : وتلك الصَّومعة اليوم باقية ، وهى التى تعبد فيها سلمان قبل الإسلام . قال : ثم احتضِر صاحب نصيبين ، فبعثنى إلى رجل بعمورية من أرض الروم ، فأتيته وأقمتُ عنده ، واكتسبتُ بُقيراتٍ وغنيمات ، فلما نزل به الموت قلتُ له : بمن تُوصي بي؟ فقال : قد ترك الناس دينهم ، وما بقى أحدٌ منهم على الحقِّ ؛ وقد أظلّ زمانُ نبيٍّ مبعوثٍ بدينِ إبراهيم ، يخرجُ بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حَرَّتَيْنِ ، لها نخل ، قلتُ : فما علامته؟ قال : يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كَتِفَيْهِ خاتم النبوة .

قال : ومر بي رَكَبٌ من كَلْبٍ ، فخرجتُ معهم ، فلما بلغوا بى وادى القرى ظلمونى وباعونى من يهودى ، فكنتُ أعملُ له فى زَرْعِهِ ونخله ، فبينما أنا عنده إذ قدم ابن عمِّ له ، فابتاعنى منه ، وحملى إلى المدينة ، فوالله ما هو إِلَّا أن رأيتها فعرفتُها ، وبعث اللهُ محمدا بمكة ، ولا أعلم بشيء من أمره ، فبينما أنا فى رأس نخلة إذ أقبلَ ابنُ عمِّ لسيِّدى ، فقال : قاتل الله بنى قَيْلَةٍ ، قد اجتمعوا على رَجُلٍ بِقَبَاءٍ قدم عليهم من مكة ، يزعمون أنه نبيٌّ ؛ قال : فأخذنى القرى والانتفاض ، ونزلتُ عن^(١) النخلة ، وجعلتُ أستقصى فى السَّوَالِ ، فأكَلَنى سيِّدى بكلمة ، بل قال : أقبِلْ على شَأْنِكَ ، ودَعْ ما لا يَعْنِيكَ . فلما أُمِسَّتْ أخذتُ شيئا كان عندى من التمر ، وأتيتُ به النبىَّ صلى الله عليه وآله فقلتُ له : بلغنى أنك رجلٌ صالح ، وأن لك أصحابا غُرَباء ذوى حاجة ، وهذا شيء عندى للصدقة ، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم ، فقال عليه السلام لأصحابه : كلوا ، وأمسك فلم يأكل ؛ فقلتُ فى نفسى : هذه واحدة ، وانصرفتُ ، فلما كان من الغد أخذتُ ما كان بقىَ عندى وأتيته به ، فقلتُ له : إني رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية ،

(١) ب « من » .

فقال : كلوا وأكل معهم ، فقلتُ إنه لمَ ، فأُكبت عليه أقبَّله وأبكي ؛ فقال : مالك ؟
فقصصْتُ عليه القصَّة ؛ فأعجبته ، ثم قال : يا سَلَمَان ، كاتِبُ صاحِبِكَ ، فكانتبه على
ثَلَاثَةِ نَحْلَةٍ وأربعين أوقية ، فقال رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وآله للأَنْصار : « أَعِينُوا أَخَاكُمْ » ،
فأعانوني بالنَّخل حتى جمعت ثَلَاثَةَ وُدِيَّة ، فوضعها رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وآله بيده ،
فصَحَّتْ كُلُّهَا ، وأتاه مالٌ من بعضِ الْغَزَايِ ، فأعطاني منه ، وقال : أدِّ كِتَابَتَكَ ،
فأَدَّيْتُ وَعَتَّقْتُ .

وكان سَلَمَانٌ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَاصَّتُهُ ، وَتَزَعُمُ الْإِمَامِيَّةُ أَنَّهُ أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ
الَّذِينَ حَلَقُوا رءُوسَهُمْ وَأَتَوْهُ مُتَقَلِّدِي سِيَرِهِمْ فِي خَيْرٍ يَطُولُ ؛ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهِ ،
وَأَصْحَابُنَا لَا يَخَالِفُونَهُمْ فِي أَنَّ سَلَمَانَ كَانَ مِنَ الشَّيْعَةِ ، وَإِنَّمَا يَخَالِفُونَهُمْ فِي أَمْرِ أَزِيدٍ مِنْ ذَلِكَ ؛
وَمَا يَذْكُرُهُ الْمُحَدِّثُونَ مِنْ قَوْلِهِ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ : كَرِيدٌ وَنَكَرْدِيدٌ مَحْمُولٌ عِنْدَ أَصْحَابِنَا
عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ صَنَعْتُمْ شَيْئًا وَمَا صَنَعْتُمْ ، أَيْ اسْتَخْلَقْتُمْ خَلِيفَةً وَنَعِمَ مَا فَعَلْتُمْ ، إِلَّا أَنْتُمْ عَدَلْتُمْ
عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، فَلَوْ كَانَ الْخَلِيفَةُ مِنْهُمْ كَانَ أَوْلَى ؛ وَالْإِمَامِيَّةُ تَقُولُ : مَعْنَاهُ : « أَسَلَّمْتُمْ
وَمَا أَسَلَّمْتُمْ » ، وَاللَّفْظَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْفَارْسِيَّةِ لَا تُعْطَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْفِعْلِ
وَالْعَمَلِ لَا غَيْرَ ، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ أَصْحَابِنَا أَنَّ سَلَمَانَ عَمِلَ لِعَمْرٍ عَلَى الْمَدَائِنِ ، فَلَوْ كَانَ
مَا تَنْسِبُهُ الْإِمَامِيَّةُ إِلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَعْمَلْ لَهُ .

فَأَمَّا أَلْفَاظُ الْفَصْلِ وَمَعَارِنُهُ فَظَاهِرَةٌ ، وَمِمَّا يُنَاسِبُ مَضْمُونَهُ قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ :
تَمَرَّزَ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا مُنِعْتَهُ ، بِقَلَّةِ صَحْبَتِهِ لَكَ إِذَا أُعْطِيَتْهُ .
وَكَانَ يُقَالُ : الْمَالِكُ عَلَى الدُّنْيَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ نَافَسَ فِي عِزِّهَا ، وَرَجُلٌ أَنْفَ
مِنْ دُلَّهَا .

ومرّ بعض الزهاد بياب دارٍ وأهلها يكون مَيِّتاً لهم ؛ فقال : واعجبا لقومٍ مسافرين !
 سيكون مسافرا قد بلغ منزله !
 وكان يقال : يا بن آدم ، لا تأسف غلى مفقود لا يرده عليك القوت ، ولا تفرح بموجود
 لا يتركه عليك الموت .

لقى عالمٌ من العلماء راهبا فقال : أيها الراهب ، كيف ترى الدنيا ؟ قال : تُخْلَق
 الأبدان ، وتجدد الآمال ، وتُباعِدُ الأمنية ، وتقربُ المنية ؛ قال : فما حالُ أهلها ؟ قال :
 من ظفر بها نصب ، ومن فاته أسف ؛ قال : فكيف الغنى عنها ؟ قال : بقطع الرجاء منها ؛
 قال : فأى الأصحاب أبرّ وأوفى ؟ قال : العمل الصالح ؛ قال : فأَيُّهم أضرّ وأُنكى ؟ قال :
 النفسُ والهوى ؛ قال : فكيف المخرج ؟ قال : فى سلوكِ النهج ، قال : وبماذا أسلستكم ؟
 قال : بأن تخلع لباس الشهوات الفانية ، وتعمل للدّارِ الباقية .

(٦٩)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمداني :

وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَانْتَصَحَهُ ، وَأَحْلَلَ حَلَالَهُ ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ ، وَصَدَّقَ
بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ ، وَاعْتَبَرَ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا ، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ
بِمَعْضَا ، وَآخِرَهَا لَا حِقُّ بِأَوَّلِهَا ، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ .

وَعَظَّمَ اسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ ، وَأَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ،
وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ .

وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرْ
كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ ، وَيُسْتَعْنَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ . ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ
إِذَا سُرِّبَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ وَاعْتَذَرَ مِنْهُ . وَلَا تَجْعَلْ عَرْضَكَ غَرَضًا لِنَبَالِ الْقَوْمِ ،
وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا ، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ
كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا .

وَإِكْظِمِ الْغَيْظَ ، وَاحْلَمْ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ
تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ ، وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً
مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ ، وَلْيَرَّ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِيمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَإِنَّكَ مَا تَقْدِمُ
مِنْ خَيْرٍ يَبْقَى لَكَ ذِكْرُهُ ، وَمَا تُؤَخِّرُهُ يَكُنْ لغيرِكَ خَيْرُهُ .

وَاحْذَرِ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ ، وَيُنْكِرُ عَمَلُهُ ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ .

وَاسْكُنِ الْأُمُصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرِ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ ، وَقِلَّةِ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَاقْصِرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَمِينُكَ .

وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ ، وَمَعَارِضُ الْفِتَنِ . وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فَضَّلَتْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ .

وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ . وَأَطِيعِ اللَّهَ فِي مُجَلِّ أُمُورِكَ ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا . وَخَادِعُ نَفْسِكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرْهَا ، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا ، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا ، وَتَعَاهُذِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا .

وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلِبِ الدُّنْيَا . وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفَسَاقِ ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ .

وَوَقِّرِ اللَّهَ ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ ، وَاحْذَرِ الْغَضَبَ ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ ، وَالسَّلَامُ .

الشَّرْحُ :

[الحارث الأعور ونسبه]

هو الحارث الأعور صاحبُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهو الحارث بن عبد الله ابن كعب بن أسد بن نَخْلَةَ بن حَرِث بن سَبْع بن صَعْب بن معاوية الهمداني ، كان أحد

الْفُقهاء ، له قولٌ في الْفُتْيَا ، وكان صاحب عليّ عليه السلام ، وإليه تنسب الشَّيْعة الْخطاب
الذي خاطبه به في قوله عليه السلام :

يَا حَارِ هَمْدَانِ مِنْ يَتِّ يَرَانِي مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ مُنَافِقٍ قَبْلَا
وهي أبياتٌ مشهورة قد ذكرناها فيما تقدّم .

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جلييلة الموقع :

منها قوله : « وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ » ، جاء في الخبر المرفوع لما ذكر الثَّقَلَيْنِ فقال :

أحدهما كتابُ الله ، جبل ممدود من السماء إلى الأرض طَرَفَ بيد الله وطرف بأيديكم .

ومنها قوله : « انتصحه » أي عُدّه ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه .

ومنها قوله : « وَأَجِلْ حِلَالَهُ وَحَرِّمْ حَرَامَهُ » ، أي احكم بين الناس في الحلال والحرام
بما نصّ عليه القرآن .

ومنها قوله : « وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنْ الْحَقِّ » أي صدِّق بما تضمّنه القرآن من أيام الله
وَمُثْلَاتِهِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ لِمَا عَصَوْا وَكَذَّبُوا .

ومنها قوله : « وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا » ، وفي المثل : إذا شئت أن تنظر
الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك ، وقال الشاعر :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرُ أَنَّا أَقْنَا قَلِيلًا بِمَدْهُمْ ثُمَّ نَرْحَلُ^(١)

ويناسب قوله : « وَآخِرُهَا لِاحِقٌ بِأَوَّلِهَا ، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ » قوله أيضا عليه السلام

(١) في د « وترحلوا » والمعنى عله يستقيم أيضا .

في غير هذا الفصل الماضي : « للمقيم عبرة ، والميت للحى عظة ، وليس لأمس عودة ، ولا لالأمس من غدٍ على ثقة ، الأول للأوسط رائد ، والأوسط للأخير قائد ؛ وكلٌّ بكلِّ لاحق ، والكلُّ للكلِّ مفارق » .

ومنها قوله : « وعَظَّم اسم الله أن تذكره إلا على حق » ، قال الله سبحانه : ﴿ ولا تجملوا الله عُرْضَةً لِّإِيْمَانِكُمْ ﴾^(١) ، وقد نهى عن الحلف بالله في الكذب والصدق ، أمّا في أحدهما فحَرَّم وأما في الآخر فسكره ، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى في لغو القول والهزء والعبث . ومنها قوله : « وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت » ، جاء في الخبر المرفوع : « أكثرُوا ذكر هادم^(٢) اللذات^(٣) » ، وما بعد الموت : العقاب والثواب في القبر وفي الآخرة .

ومنها قوله : « ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق » ، هذه كلمة شريفة عظيمة القدر ، أى لا تتمنّ الموت إلا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدّيك إلى الجنة ، وتُنقذك من النار ؛ وهذا هو معنى قوله تعالى . ﴿ إِنَّ زَعَمَ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءَ لِلّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾^(٤) .

ومنها قوله : « واحذر كلَّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ، ويكرهه لعامة المسلمين ، واحذر كلَّ عمل يُعطل في السّتر ، ويُستحيا منه في العلانية ، واحذر كلَّ عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه » ، وهذه الوصايا الثلاث متقاربة في المعنى ، ويشملها معنى قول الشاعر :

لا تنه عن خُلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم^(٥)

(١) سورة البقرة . (٢) هادم اللذات ، من الهدم وهو القطع .

(٣) سورة الجمعة ٦ ، ٧ . (٤) لأبي الأسود الدؤلي من قصيدته الميمية ، أوردها صاحب

الجزالة في ٣ : ٦١٨ .

وقال الله تعالى حاكياً عن نبيٍّ من أنبيائه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلَفَكُمْ ﴾ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ^(١) .

ومن كلام الجنيد الصوفي : لِيَكُنْ تَمَلُّكَ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِكَ كَعَمَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الزَّجَاجِ الصَّافِي . وفي المثل وهو منسوبٌ إلى عليٍّ عليه السلام : إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ .

ومنها قوله : « وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنَبَالِ الْقَوْمِ » ، قال الشاعر :

لَا تَسْتَتِرْ أَبَدًا مَا لَا تَقُومُ لَهُ وَلَا تَهَيِّجَنَّ مِنْ عَرِيْسِهِ الْأَسَدَا ^(٢)
إِنَّ الزَّنايِرَ إِنْ حَرَّ كَتَهَا سَفَهًا مِنْ كُورِهَا أَوْجَعَتْ مِنْ لَسَعِهَا الْجَسَدَا

وقال :

مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنْهَدِرٍ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

ومنها قوله : « وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ ، فَكُنْ بِذَلِكَ كَذِبًا » ، قد نهى أن يحدث الإنسان بكلِّ ما رأى من العجائب فضلاً عما سمع ، لأنَّ الحديث الغريب المعجب تُسارع النفسُ إلى تكذيبه ، وإلى أن تقوم الدَّلالة على صِدْقِهِ قد فَرَطَ من سوء الظنِّ فيه ما فَرَطَ .

ويقال : إِنَّ بَعْضَ الْعُلُوِّيَّةِ قَالَ فِي حَضْرَةِ عَصُدِ الدَّوْلَةِ بِيغْدَاد : عِنْدَنَا فِي الْكُوفَةِ نَبِيٌّ وَزَنُّ كُلِّ نَبِيَّةٍ مِثْقَالَانِ . فَاسْتَطَرَفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، وَكَادَ يَكْذِبُهُ الْحَاضِرُونَ ، فَلَمَّا قَامَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِأَيِّهِ ، فَأَرْسَلَ سَاحِماً كَانَ عِنْدَهُ فِي الْحَالِ إِلَى الْكُوفَةِ بِأَمْرِ وَكَلَاءِهِ بِإِرْسَالِ مَائَةِ حَامَةٍ ، فِي رَجُلِي كُلِّ وَاحِدَةٍ نَبَقَتَانِ مِنْ ذَلِكَ النَّبَقِ ، فَجَاءَ التَّبَقُّ فِي بُكْرَةِ النَّدَى وَنُحِلَ إِلَى عَصُدِ الدَّوْلَةِ ، فَاسْتَحْسَنَهُ وَصَدَّقَهُ حِينَئِذٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لَعَمْرِي لَقَدْ صَدَقْتَ ،

(١) هود ٨٨ (٢) العريسة : مأوى الأسد .

ولكن لا تحدث فيما بعدُ بكلِّ ما رأيتَ من الغرائب ، فليس كلَّ وقت يتهيأ لك إرسال الحمام .

وكان يقال : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون ؛ والأصدق نوع تحت جنس الأحسن .

ومنها قوله : « ولا تردّ على الناس كلَّ ما حدثوك ، فكفى بذلك جهلاً » ، من الجهل المبادرة بإنكار ما يسمعه ، وقال ابنُ سينا في آخره « الإشارات » ، : إياك أن يكون تكذيبك وتبرؤك من العامة ، هو أن تنبرى منكراً لكلِّ شيء ، فلذلك عجز وطيش ، وليس الخرق في تكذيبك ما لم يستبنّ لك بعد جلّيته دون الخرق في تصديقك بما لم تقم بين يديك بينة ، بل عليك الاعتصام بحبل التوقّف وإن أزعجك استنكار ما يؤعيه سمعك ممّا لم يبرهن على استحالتك له ، فالصواب أن تسرح أمثال ذلك إلى بُقعة الإمكان ، ما لم يدّدك عنها قائمُ البرهان .

ومنها قوله : « واكظم الغيظ » قد مدّح الله تعالى ذلك فقال : ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ ^(١) ، ورؤي أن عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدم إليه صحيفة فيها طعام حارّ ، فمجل فصبّها على رأسه ووجهه ، فغضب ، فقال له : ﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ ؛ قال : قد كظمت ، قال : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ قال : قد عفوت ، قال ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١) ، قال : أنت حرّ لوجه الله ، وقد نحلّلتك ضيعتي الفلانيّة .

ومنها قوله : « وأحلم عند الغضب » ، هذه مناسبة الأولى ، وقد تقدّم من قول كثير في الحلم وفضله ؛ وكذلك القول في قوله عليه السلام : « وتجاوز عند القدرة » ، وكان يقال : القدرة تذهب الحفيظة .

(١) سورة آل عمران ١٣٤ .

ومنها قوله : « واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة » ؛ هذه كانت شيمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشيمة على عليه السلام ؛ أمّا شيمة رسول الله صلى الله عليه وآله فظفر بمشركي مكة وعفا عنهم ، كما سبق القول فيه في عام الفتح ؛ وأمّا على عليه السلام فظفر بأصحاب الجمل وقد شقوا عصا الإسلام عليه ، وطعنوا فيه وفي خلافته ، فعفا عنهم ، مع علمه بأنهم يُفسدون عليه أمره فيما بعد ، ويصّيرون إلى معاوية ، إمّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم ، وهذا أعظم من الصفح عن أهل مكة ، لأنّ أهل مكة لم يبق لهم لما فُتحت فئةٌ يتحيزون إليها ، ويُفسدون الدين عندها .

ومنها قوله : « وأستصلح كلّ نعمة أنعمها الله عليك » معنى أستصلحها أستدّمها ، لأنّه إذا استدّامها فقد أصلحها ، فإنّ بقاءها صلاحٌ لها ، واستدّامتها بالشكر .
ومنها قوله : « ولا تضيعنّ نعمة من نعم الله عندك » ، أى واس الناس منها ، وأحسن إليهم ، وأجعل بعضها لنفسك وبمضها للصدقة والإيثار ، فإنّك إن لم تفعل ذلك تكن قد أضعتّها .

ومنها قوله : « وليرّ عليك أثرُ النعمة » قد أمر بأن يظهر الإنسان على نفسه آثار نعمة الله عليه ، وقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(١) . وقال الرشيد الجعفر : قم بنا لنمضى إلى منزل الأصمى ، فضيا إليه خفية ومعهما خادمٌ معه ألف دينار ليُدْفَع ذلك إليه ، فدخلا داره فوجدا كساء جرداء ، وبارية ^(٢) سبلاء ، وحصيرا مقطوعا ، وخباء قديمة ، وأباريق من خرف ، ودواة من زجاج ، ودفاتر عليها التراب وحيطان مملوءة من نسج العنكب ، فوجم الرشيد ، وسأله مسائل غشّة لم تكن من غرضه ، وإنما قطع بها خجله ؛ وقال الرشيد الجعفر : ألا ترى إلى نفس هذا المهين ، قد برّزناه بأكثر

(١) الضحى ١١ . (٢) البارية : الحصيرة .

من خمسين ألف دينار وهذه حاله ، لم تظهر عليه آثارُ نعمتنا ! والله لا دفعتُ إليه شيئاً ، وخرج ولم يُعطه .

ومنها قوله : « وأعلم أن أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمه من نفسه وأهله وماله » ، أى أفضلهم إتقائهم البر والخير من ماله ، وهى التقدمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ﴾ (١) ، فأما النفس والأهل ، فإن تقدمتهما فى الجهاد ، وقد تكون التقدمة فى النفس بأن يشفع شفاعة حسنة أو يحضر عند السلطان بكلام طيب ، وثناء حسن ، وأن يصلح بين المتخاصمين ، ونحو ذلك . والتقدمة فى الأهل أن يحج بولده وزوجته ويكلفهما المشاق فى طاعة الله ، وأن يؤدب ولده إن أذنب ، وأن يقيم عليه الحد ، ونحو ذلك :

ومنها قوله : « وما تقدم من خير يبق لك زُخره وما تؤخره يكن لغيرك خيرُهُ » ، وقد سبق مثلُ هذا ، وأنَّ ما يتركه الإنسان بعده فقد حُرِمَ نفعه ، وكأنَّما كان يكده لغيره ، وذلك من الشقاوة وقلة التوفيق .

ومنها قوله : « وأحذر صحابة من يفيلُ رأيه » الصَّحابة بفتح الصاد ، مصدرٌ صحبت والصَّحابة بالفتح أيضاً جمعُ صاحب ، والمرادُ ها هنا الأوَّل ، وقال رأيه : فسَدَ ؛ وهذا المعنى قد تكرر ، وقال طرفة :

عن المرء لا تسألُ وسلَّ عن قرينه
فإنَّ القرينَ بالمقارن يقتدى
ومنها قوله : « واسكن الأمصار العظام » ، قد قيل : لا تسكن إلا فى مصر فيه سوق قائمة ، ونهر جارٍ ، وطبيبٌ حاذق ، وسلطانٌ عادل ، فأما منازل الفلَّة والجفاء ، فمثلُ قرى السواد الصغار ، فإنَّ أهلها لا نورَ فهم ، ولا ضوءَ عليهم ، وإنما هم كالدوابِّ

والأنعام ، همهم الحَرْث والفَلاحة ، ولا يفقهون شيئاً أصلاً ، فجاءَورَهم تَعَمَّى القلب ، وتُظْلِمَ الحسَّ ، وإذا لم يَحْجِد الإنسانُ مَنْ يُعِينُهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَلَى تَعَلُّمِ الْعِلْمِ قَصَّرَ فِيهِمَا .

ومنها قوله : « وأقصر رأيك على ما يعينيك » ؛ كان يقال : مَنْ دَخَلَ فِيْهَا لَا يَعْنِيهِ فَاتَهُ مَا يَعْنِيهِ .

ومنها نهيهُ إِيَّاهُ عَنِ الْقُعُودِ فِي الْأَسْوَاقِ ؛ قَدْ جَاءَ فِي الْمَثَلِ : الشُّوقُ حَلَّ الْفُسُوقِ . وجاءَ فِي الْخَبَرِ الْمَرْفُوعِ : « الْأَسْوَاقُ مَوَاطِنُ إِبْلِيسَ وَجَنَدِهِ » ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا قَلَمًا تَخْلُو عَنْ الْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ ، وَالْبَيُوعِ الْفَاسِدَةِ ، وَهِيَ أَيْضًا تَجْمَعُ النِّسَاءَ الْمُوسِمَاتِ ، وَفَجَّارَ الرِّجَالِ ، وَفِيهَا أَجْتَمَعَ أَرْبَابُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ ، فَلَا يَخْلُو أَنْ يَتَجَادَلَ اثْنَانِ مِنْهُمَا فِي الْمَذَاهِبِ وَالنَّحْلِ فَيُفْضِيَ إِلَى الْفِتَنِ .

ومنها قوله : « وَأَنْظِرْ إِلَى مَنْ فَضَّلْتَ عَلَيْهِ » ؛ كَانَ يُقَالُ : انْظُرْ إِلَى مَنْ دُونَكَ ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ فَوْقَكَ . وَقَدْ بَيَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ السِّرَّ فِيهِ فَقَالَ : إِنْ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِأَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ جَاهِلًا وَأَنْتَ عَالِمٌ ، أَوْ عَالِمًا وَأَنْتَ أَعْلَمُ مِنْهُ ، أَوْ فَقِيرًا وَأَنْتَ أَغْنَى [مِنْهُ] ^(١) ؛ أَوْ مُبْتَلًى بِسَقَمٍ وَأَنْتَ مُعَافٍ عَنْهُ ، كَانَ ذَلِكَ بَاعِثًا وَدَاعِيًا لَكَ إِلَى الشُّكْرِ .

ومنها نهيهُ عَنِ السَّفَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا النِّهْيُ عَنِ السَّفَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ ، وَأَمَّا بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَلَا بَأْسَ بِهِ ، وَاسْتَشْنَى فَقَالَ : إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ شَاخِصًا إِلَى الْجِهَادِ .

قال : « أَوْ فِي أَمْرٍ تُعَذَّرُ بِهِ » ، أَوْ لِمُضَرَّةٍ دَعَتْكَ إِلَى ذَلِكَ .

(١) تكملة من ١ .

وقد وَرَدَ نهْيٌ كَثِيرٌ عَنِ السَّفَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ أَدَاءِ الْفَرَضِ ، عَلَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ أَيْضًا ، وَهُوَ قَوْلُ شَاذٍ .

ومنها قوله : « وَأَطِعِ اللَّهَ فِي جَمَلِ أُمُورِكَ » ، أَيْ فِي جُمْلَتِهَا ، وَفِيهَا كُلِّهَا ، وَلَيْسَ يَعْنِي فِي جُمْلَتِهَا دُونَ تَفَاصِيلِهَا . قَالَ : « فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى غَيْرِهَا » ، وَصَدَقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِأَنَّهَا تَوْجِبُ السَّعَادَةَ الدَّائِمَةَ ، وَالْخِلَاصَ مِنَ الشَّقَاءِ الدَّائِمِ ، وَلَا أَفْضَلَ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ .

ومنها قوله : « وَخَادِعُ نَفْسِكَ فِي الْعِبَادَةِ » ؛ أَمْرَهُ أَنْ يَتَلَطَّفَ بِنَفْسِهِ فِي النَّوَافِلِ ، وَأَنْ يُخَادِعَهَا وَلَا يَقْهَرَهَا فِتْمَلًا وَتَضَجَّرَ وَتَتْرُكَ^(١) ، بَلْ يَأْخُذَ عَفْوَهَا ، وَيَتَوَخَّى أَوْقَاتِ النَّشَاطِ ، وَأَنْشِرَاحَ الصَّدْرِ لِلْعِبَادَةِ .

قَالَ : فَأَمَّا الْفَرَائِضُ فَحُكْمُهَا غَيْرُ هَذَا الْحُكْمِ ، عَلَيْكَ أَنْ تَقُومَ بِهَا ؛ كَرِهَتْهَا النَّفْسُ أَوْ لَمْ تَكْرَهْهَا . ثُمَّ أَمْرَهُ أَنْ يَقُومَ بِالْفَرِيضَةِ فِي وَقْتِهَا ، وَلَا يُؤَخِّرَهَا عَنْهُ فَتَصِيرَ قَضَاءً .

ومنها قوله : « وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمُنُونُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا » ؛ هَذِهِ وَصِيَّةٌ شَرِيفَةٌ جَدًّا ، جَعَلَ طَالِبَ الدُّنْيَا الْمُرُوضَ عَنِ اللَّهِ عِنْدَ مَوْتِهِ كَالْعَبْدِ الْآبِقِ يَقْدُمُ بِهِ عَلَى مَوْلَاهُ أَسِيرًا مَكْتُوفًا نَاكِسَ الرَّأْسِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ حِينَئِذٍ !

ومنها قوله : « وَإِيَّاكَ وَمَصَاحِبَةَ الْفُسَّاقِ ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ » ؛ يَقُولُ : إِنَّ الطَّبَاعَ يَنْزِعُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَلَا تَصْحَبَنَّ الْفُسَّاقَ فَإِنَّهُ يَنْزِعُ بِكَ مَا فِيكَ مِنْ طَبْعِ الشَّرِّ إِلَى مَسَاعِدَتِهِمْ عَلَى الْفُسُوقِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا كَالنَّارِ تَقْوَى بِالنَّارِ ، فَإِذَا لَمْ تُجَاوِرْهَا وَتُمَازِجْهَا نَارٌ كَانَتْ إِلَى الْإِنْطِفَاءِ وَالْحُمُودِ أَقْرَبَ .

(١) : « وَتَزَلْ » .

ورُوي « مُلْحِق » بكسر الحاء ، وقد جاء ذلك في الخبر النبوي « فَإِنْ عَذَابَكَ
بِالْكَفَّارِ مُلْحِقٌ » بالكسر .

ومنها قوله : « وَأَحِبَّ أَحِبَّاءَهُ » ، قد جاء في الخبر : « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ امْرِئٍ حَتَّى
يُحِبَّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ ، وَيُبْغِضَ مَنْ أَبْغَضَ اللَّهُ » .

ومنها قوله : « واحذر الغضب » ، قد تقدّم لنا كلامٌ طويل في الغضب . وقال إنسانٌ
للنبيّ صلى الله عليه وآله : أوصني ؛ قال : « لَا تَغْضَبْ » ، فقال : زدني ؛ فقال :
« لَا تَغْضَبْ » ؛ قال : زدني ؛ قال : « لَا أَجِدُ لَكَ مَزِيداً » ، وإِنَّمَا جَعَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
جُنْدًا عَظِيمًا مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ ، لِأَنَّهُ أَصْلُ الظُّلْمِ وَالْقَتْلِ وَإِفْسَادِ كُلِّ أَمْرٍ صَالِحٍ ،
وهو إحدى القوتين المشئومتين اللتين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان ، وهما مَنَبَعُ الشَّرِّ :
الغضب والشهوة .

(٧٠)

الأبطل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حنيف الأنصاري وهو عامله على المدينة ، في معنى قوم من أهلها لحقوا ب معاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِمَّنْ قَبْلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَقُولُكَ مِنْ عَدْوِهِمْ ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ ، فَكْفَى لَهُمْ غِيًّا ، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِيًّا فَرَأَاهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَإِيضًا عَنْهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا ، وَمُتَطْعُونَ إِلَيْهَا ، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ ، فَبَعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا ! إِنَّهُمْ وَاللَّهِ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرِ ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذِلَّ اللَّهُ لَنَا صَعْبَهُ ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزَنَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الشيخ :

قد تقدم نسب سهل بن حنيف وأخيه عثمان فيما مضى .
ويتسللون : يخرجون إلى معاوية هارين في خفية واستتار .
قال : « فلا تأسف » أى لا تحزن . والنفى : الضلال .
قال : « ولك منهم شافيا » ، أى يكفيك فى الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم
أنهم يتسللون إلى معاوية .

قال: الأرض لمن غاب عنك غيبته ، فذاك ذنبٌ عِقَابُهُ فيه .

والإيضاح : الإسراع . وَضَعَ البعيرُ أى أَسْرَعَ ، وَأَوْضَعَهُ صاحِبُهُ ، قال :

رَأَى بَرْقًا فَأَوْضَعَ فوقَ بَكْرِه فلا يَكُ ما أَسَالَ ولا أَعَمَّا

وَمُهْطِمْونَ : مُسْرِعُونَ^(١) أيضا ، والآثَرَةُ : الاستئثار ، يقول : قد عَرَفُوا أَنِّي لا أُقِيمُ
إِلَّا بالسَّوِيَّةِ ، وَأَنْتَ لا تُنْقِلُ قوماً على قومٍ ، ولا تُعْطِي على الأَحْسابِ والأنسابِ كما فعل
غيري ، فَتَرَكوني وَهَرَبُوا إِلَيَّ مِنْ يَسْتَأْذِرُ وَيُؤْذِرُ .

قال : « فَبُعْدًا لَهُمْ وَسُجُفًا » ، دعاء عليهم بالبُعدِ والهِلاكِ .

وَرُوي أَنَّهُمْ لم « يَنْفَرُوا » بالنُّونِ ، مِنْ نَفَرَ ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ رَاجِعٌ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَذَلَّ لَهُ
سَبَبَ هَذَا الْأَمْرِ ، وَيُسَهِّلُ لَهُ حَزَنَهُ ؛ وَالْحَزَنُ ، ما غَلِظَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَضِدُّهُ السَّهْلُ .

(١) ل : أ : « مهطمين : مسرعين » .

(٧١)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدى وقد كان استعمله على بعض النواحي ، فخان الأمانة في بعض ما ولاه من أعماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَيْكَ غَرَّني مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رَفَيْتَ إِلَى عَنكَ لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا ، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عِتَادًا ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ ؛ وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ . وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ نَفْرٌ ، أَوْ يُنْقَدَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدَرٌ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جَبَايَةٍ ، فَأَقْبِلْ إِلَى حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قال الرضى رضى الله عنه :

الْمُنْذِرُ [بن الجارود] (١) هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ لَنَظَّارٍ فِي عِطْفِيهِ مُخْتَلٍ فِي بُرْدِيهِ ، تَقَالُ فِي شِرَاكِيهِ .

البِنْخُ :

[ذكر المنذر وأبيه الجارود]

هو المنذر بن الجارود . واسم الجارود بشر بن خنيس بن الملقى ؛ وهو الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة بن جذيمة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز ابن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دُعْمَيَّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد ابن عدنان ، يبتهم بيت الشرف في عبد القيس ، وإنما سُمي الجارود لبَيْتِ قَالِه بعضُ الشعراء فنه في آخره :

* كما جرد الجارود بكر بن وائل * (١)

ووفد الجارود على النبي صلى الله عليه وآله في سنة تسع ، وقيل : في سنة عشر . وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " ، (٢) أنه كان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان قد وفد مع المنذر بن ساوى في جماعة من عبد القيس ، وقال : شهدت بأبى الله حقاً وسأحت بنات فؤادى بالشهادة والنهض فأبلغ رسول الله منى رسالة بأبى حنيف حيث كنت من الأرض قال : وتد اختلف في نسبه اختلفا كثيراً ، فقيل : بشر بن الملقى بن خنيس ؛ وقيل : بشر بن خنيس بن الملقى ، وقيل : بشر بن عمرو بن العلاء ، وقيل : بشر بن عمرو بن الملقى ، وكنيته أبو عتاب ، ويكنى أيضاً أبا المنذر .

وسكن الجارود البصرة ، وقيل بأرض فارس ؛ وقيل : بل قتل بها وندم مع النعمان ابن مقرن . وقيل : إن عثمان بن العاص بعث الجارود في بعث نحو ساحل فارس ، فقتل

(١) صدره .:

* ودسناهم بالخيال من كل جانب *

(١) الاستيعاب (نهضة مصر) ٢٦٢ - ٢٦٤ .

بمَوْضِع يُعْرَفُ بِمَقْبَةِ الْجَارُودِ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِمَقْبَةِ الطَّيْنِ ؛ فَلَمَّا قَتَلَ الْجَارُودُ فِيهِ عَرَقَهُ النَّاسُ بِمَقْبَةِ الْجَارُودِ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعَشْرِينَ .

وَقَدْ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَحَادِيثٌ وَرَوَى عَنْهُ ، وَأُمُّهُ دَرِيمَةُ بِنْتُ رُوَيْمِ الشَّيْبَانِيَةِ .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى فِي كِتَابِ " التَّاج " ، : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَكْرَمَ الْجَارُودِ وَعَبْدَ الْقَيْسِ حِينَ وَفَدَا إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِلْأَنْصَارِ : « قَوْمُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ ، وَأَشْبَهَ النَّاسَ بِكُمْ » ؛ قَالَ : لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ نَخْلٍ ، كَمَا أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ أَصْحَابُ نَخْلٍ ، وَمَسْكَتُهُمُ الْيَحْرِينَ وَالْيَمَامَةَ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي قَرِيشٍ لَمَا عَدَلْتُ بِالْخِلَافَةِ عَنِ الْجَارُودِ ابْنِ بَشْرِ بْنِ الْمُعَلَّى ، وَلَا تُخَالِجَنِي فِي ذَلِكَ الْأُمُورَ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : وَلَعَبْدَ الْقَيْسِ سِتُّ خِصَالٍ فَاقَتْ بِهَا عَلَى الْعَرَبِ ؛ مِنْهَا : أَسْوَدُ الْعَرَبِ بَيْتًا ، وَأَشْرَفُهُمْ رَهْطًا الْجَارُودُ هُوَ وَوَلَدُهُ .

وَمِنْهَا أَشْجَعُ الْعَرَبِ حَكِيمُ بْنُ جَبَلَةَ ، قُطِعَتْ رِجْلُهُ يَوْمَ الْجَمَلِ ، فَأَخَذَهَا بِيَدِهِ وَزَحَفَ عَلَى قَاتِلِهِ فَضْرَبَهُ بِهَا حَتَّى قَتَلَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ :

يَا نَفْسُ لَا تُرَاعِي إِنْ قُطِعَتْ كُرَاعِي

* إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي *

فَلَا يُعْرَفُ فِي الْعَرَبِ أَحَدٌ صَنَعَ صَنِيعَهُ .

وَمِنْهَا أَعْبَدُ الْعَرَبِ هَرَمُ بْنُ حَيَّانٍ صَاحِبُ أَوَيْسِ الْقَرَنِيِّ .

وَمِنْهَا أَجُودُ الْعَرَبِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَوَادٍ بْنُ هَمَّامٍ ، غَزَا السُّنْدَ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ، فَفَتْحَهَا ، وَأَطْعَمَ الْجَيْشَ كُلَّهُ ذَاهِبًا وَقَافِلًا ، فَبَاغَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْجَيْشِ مَرَضٍ ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا ،

فأمر باتخاذ الخبيص لأربعة آلاقي إنسان ، فأطعمهم حتى فضل ، وتقدم إليهم ألا يؤقد أحده منهم نارا لطعام في عسكره مع ناره .

ومنها أخطب العرب مصقلة بن رقة ، به يضرب المثل فيقال : أخطب من مصقلة .
ومنها أهدى العرب في الجاهلية وأبعدهم مغاراً وأثراً في الأرض في عدوه ، وهو دُعَيْمِيص^(١) الرمل كان يُعرف بالنجوم هدايةً ، وكان أهدى من القطا ، يدفن بيض النعام في الرمل مملوءاً ماءً ثم يعود إليه فيستخرجه .

فلما المنذر بن الجارود فكان شريفاً ، وابنته الحكم بن المنذر يتلوه في الشرف ،
بوالمنذر غير معدود في الصحابة ، ولا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا ولد له في أيامه ، وكان تأمهاً معجباً بنفسه ، وفي الحكم ابنه يقول الرازي :

يا حَكِيمَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ أَنْتَ الْجَوَادُ ابْنُ الْجَوَادِ الْمُحْمَدِ
* سُرَادِقُ الْجَلِيدِ عَلَيْكَ مَمْدُودُ *

وكان يقال : أظوعُ الناسِ في قَوْمِهِ الْجَارُودُ بْنُ بَشْرِ بْنِ الْمَعْلَى ، لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله فأرادت العرب ، خطب قومه فقال : أيها الناس ، إن كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، ومن ذهب له في هذه الفتنة دينارٌ أو درهم أو بقرنة أو شاة فعلى مثله ، فخالفه من عبد القيس أحد .

قوله عليه السلام : « إن صلاح أهلك غرتي منك » ، قد ذكرنا حال الجارود وصحبته وصلاحه ، وكثيراً ما ينتز الإنسان بحال الآباء فيظن أن الأبناء على منهاجهم ، فلا يكون والأمر كذلك ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ .
قوله : « فيما رُفِّي » بالتشديد ، أي فيأرفع إلى ؛ وأصله أن يكون الإنسان في موضع عالٍ

(١) ب : دميمس ، وانظر القاموس .

فريق إليه شيء ، وكأنّ العلوّ ها هنا هو علوّ المرتبة بين الإمام والأمير ، ونحوه قولهم : تعال باعتبار علوّ رُتبة الأمر على المأمور . واللام في « لهواك » متعلّقة بمحذوف دلّ عليه « انقيادا » ، ولا يتعلّق بنفس « انقياد » لأنّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر .

والعتاد : العُدّة .

قوله : « وتصل عشيرتك » ، كان فيما رُفّي إليه عنه أنه يقتطع المال ويُفِيضه على رَهْطه وقومه ويُخْرِج بعضه في لذّاته ومآربه .

قوله « لَجَمَل أَهْلِكَ » ، العَرَب تَضْرِب بِالْجَمَلِ الْمَثَلُ فِي الْهَوَانِ قَالَ :

لَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ وَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ^(١)
يُصِرُّهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ وَجْهِ وَيُجْبِسُهُ عَلَى الْخُسْفِ الْجَرِيرُ
وَتَضْرِبُهُ الْوَلِيدَةُ بِالْمِرَاوِي فَلَا غَيْرَ لَهُ وَلَا نَكِيرُ

فَأَمَّا شَسْعُ النَّعْلِ فَضَرَبَ الْمَثَلُ بِهَا فِي الْإِسْتِهَانَةِ مَشْهُورٌ ، لَا بُدَّ لَهَا وَوُطْئُهَا الْأَقْدَامِ فِي التَّرَابِ .

ثم ذكر أنّه من كان بصفته فليس بأهلٍ لكذا ولا كذا ، إلى أن قال : « أو يشرك في أمانة » ؛ وقد جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْبِلَادَ وَالرَّعَايَا أَمَانَةً فِي ذِمَّةِ الْإِمَامِ ، فَإِذَا اسْتَعْمَلَ الْعَمَلُ عَلَى الْبِلَادِ وَالرَّعَايَا فَقَدْ شَرَّكَهُمْ فِي تِلْكَ الْأَمَانَةِ .

قال : « أو يؤمن على جباية » ، أى على أَسْتِجْبَاءِ الْخَرَجِ وَجَمْعِهِ ، وَهَذِهِ الرَّوَايَةُ الَّتِي سَمِعْنَاهَا ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَوِيهَا « عَلَى خِيَانَةٍ » وَهَكَذَا رَوَاهَا الرَّوَنْدِيُّ ، وَلَمْ يَرَوِ الرَّوَايَةَ الصَّحِيحَةَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا نَحْنُ ؛ وَقَالَ يَكُونُ « عَلَى » مُتَعَلِّقَةً بِمَحْذُوفٍ ، أَوْ « بِيُؤْمِنُ » نَفْسَهَا ، وَهُوَ بَعِيدٌ وَمُتَكَلِّفٌ .

(١) للعباس بن مرداس السلمي ، ديوان الحماسة ٤١٩ — بشرح الرزوقي .

ثم أمره أن يُقبل إليه ، وهذه كنايةٌ عن العزل .

فأمّا الكلمات التي ذكرها الرضى عنه عليه السلام في أمر المنذر فهي دالة على أنه
نسبه إلى التيه والمعجب ، فقال : «نظّار في عطفه» ، أي جانيبه ، ينظر تارة هكذا وتارة هكذا ،
ينظر لنفسه ، ويستحسن هيئته ولبسته ، وينظر هل عنده نقص في ذلك أو عيب فيستدرّكه
بإزالته ، كما يفعل أربابُ الزهو ومن يدّعي لنفسه الحسن والملاحه .

قال : «مُختالٌ في بُرديه : يمشي الخيلاء عجباً» قال محمد بن واسع لابن له وقد رآه
يختال في برده : أدن ، فدنا فقال : من ابن جاءتك هذه الخيلاء ويك ! أمّا أمك فأمة
ابتعتها بمائتي درهم ، وأمّا أبوك فلا أكثر الله في الناس أمثاله .

قوله : «تفال في شراكيه» ، الشراك : السير الذي يكون في التعل على ظهر القدم .
والتفل بالسكون : مصدر تفل أي بصق ، والتفل محركا البصاق نفسه ، وإنما يفعله
المعجب والثائه في شراكية لينهب عنهما النبار والوسخ ، يتفل فيهما ويمسحهما
ليعودا كالجديدين .

(٧٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رضى الله عنه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ ، وَلَا مَرُزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ
الدَّهْرَ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ
أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ .

الشرح :

قد تقدم شرح مثل هذا الكلام ، وهذا معنى مطروق ، قد قال الناس فيه فأكثر والـ
قال الشاعر :

قد يُرْزَقُ العاجزُ الضعيفُ وما شَدَّ بَكُورٍ رَحْلا ولا قَتَبًا^(١)
ويُجْزَمُ المُرُوءُ ذو الجِلْدَةِ والرائي ومن لا يزال مُفْتَرِبًا
ومن جَيِّدٍ ما قِيلَ في هذا المعنى قول أبي يعقوب الخريزي^(٢) :

هل الدهرُ إِلَّا صَرَفُهُ ونَوَائِبُهُ وسَرَّاءُ عَيْشٍ زَائِلٌ ومَصَائِبُهُ
يقولُ الفَتَى تَمَرَّتْ مَالِي وإِنَّمَا لَوَارِثُهُ ما ثَمَرَ المَالُ كَسِبُهُ

(١) من أبيات نسبها صاحب الأغاني (١٥٠ : ٢١٠ - سامني) إلى ابن عبد الأسد برواية مخالفة .

(٢) ب : « الخريزي » تحريف .

يُحَاسِبُ فِيهِ نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ
فَكُلُّهُ وَأَطْعَمُهُ وَخَالِسُهُ وَارْتَا
أَرَى الْمَالَ وَالْإِنْسَانَ لِلدَّهْرِ نُهْبَةً
لِكُلِّ امْرِئٍ رِزْقٌ وَلِلرِّزْقِ جَالِبٌ
يُخَيِّبُ الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يُرْزَقُ غَيْرُهُ
يُسَاقُ إِلَى ذَا رِزْقِهِ وَهُوَ وَادِعٌ
وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي: أَرْزُقُكَ فِي الَّذِي
تَنَاسَ ذُنُوبَ الْأَقْرَبِينَ فَإِنَّهُ
لَهُ هَفَوَاتٌ فِي الرَّخَاءِ يَشْوُبُهَا
تَرَاهُ غُدُوًّا مَا أَمِنْتَ وَتَتَّقِي
لِكُلِّ امْرِئٍ إِخْوَانٌ بَوْسٌ وَنِعْمَةٌ
وَيَتْرَكُهُ نَهْبًا لِمَنْ لَا يَحَاسِبُهُ
شَحِيحًا وَدَهْرًا تَعْتَرِيكَ نَوَائِبُهُ
فَلَا الْبَخْلُ مُبْقِيهِ وَلَا الْجُودُ خَارِبُهُ
وَلَيْسَ يَقْوَتُ الْمَرْءُ مَا خَطَّ كَاتِبُهُ
وَيُغْطَى الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يُحْرَمُ صَاحِبُهُ
وَيُحْرَمُ هَذَا الرِّزْقَ وَهُوَ يَفَالِحُهُ
تَطَالِبُهُ أَمْ فِي الَّذِي لَا تَطَالِبُهُ؟
لِكُلِّ حِمِيمٍ رَاكِبٌ هُوَ رَاكِبُهُ
بِنَصْرَةٍ يَوْمَ لَا تَوَارَى كَوَاكِبُهُ
بِجَبْهَتِهِ يَوْمَ الْوَفَى مَنْ يَخَارِبُهُ
وَأَعْظَمُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ أَقَارِبُهُ

(٧٣)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى كِتَابِكَ، لَمْوَهْنٌ رَأَيْتُ ،
وُخْطِي، فِرَاسَتِي، وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ، وَتُرَاجِعُنِي الشُّطُورَ، كَأَلَمْ تُسْتَنْقِلِ النَّاسِمَ
تُكْذِبُهُ أَحْلَامُهُ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ؛ لَا يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ،
وَلَسْتُ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ.

وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَوْ لَا بَعْضُ الْإِسْتِيقَاءِ، لَوَصَلَتْ مِنِّي إِلَيْكَ قَوَارِعُ تَفَرُّعِ الْعَظَمِ،
وَتَنَهَسُ اللَّحْمَ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ
نَصِيحِكَ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

الشرح :

روى « نوازع » جمع نازعة ، أى جاذبة قالعة ، وروى « تهليس اللحم » و « تلہس »
بتقديم اللام ، وتهليس يكسر اللام : تذييه حتى يصير كبدن به الهلاس ، وهو السل ؛
وأما تلہس فهو بمعنى تلحس ، أبدلت الحاء هاء ؛ وهو عن لحست كذا بلسانى بالكسر ،
ألحسه ، أى تأتى على اللحم حتى تلحسه لحسا ، لأن الشئ إنما يلحس إذا ذهب وبقي أثره ،
وأما « يَنهَس » وهى الرواية المشهورة ، فعناه يعترق .

وتأذن بفتح الذال، أى تسمع .

قوله عليه السلام « إني لو هُئِن رأيتُ بالتشديد؛ أى إني لائم نفسي ، ومستضعف رأيي في أن جعلتك نظيرا ، أكتبُ وتحييني ، وتكتبُ وأجيبك ؛ وإنما كان ينبغي أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانك .

فإن قلت : فما معنى قوله : « على التردد ؟ » .

قلت : ليس معناه التوقف ، بل معناه التردد والتكرار ؛ أى أنا لائم نفسي على أني أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عما تكتبه .

ثم قال : وإنك في مناظرتي ومقاومتي بالأمور التي تحاولها ، والكتب التي تكتبها كالنائم يرى أحلاما كاذبة ، أو كمن قام مقاما بين يدي سلطان ، أو بين قوم عقلاء ليعتذر عن أمر ، أو ليخطب بأمر في نفسه ، قد بهظه مقامه ذلك ؛ أى أثقله فهو لا يدري : هل ينطق بكلام هو له ، أم عليه ! فيتجبر ويتبذل ، ويدركه العيُّ والخصر .

قال : وإن كنتَ لستَ بذلك الرجل فإنك شبيه به ؛ أمّا تشبيهه بالنائم ثم ذى الأحلام ، فإن معاوية لو رأى في المنام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه خليفةٌ يخاطب بإمرة المؤمنين ، ويحارب عليا على الخلافة ، ويقوم في المسلمين مقام رسول الله صلى الله عليه وآله لما طلب لذلك المنام تأويلا ولا تعبيرا ، ولعدّه من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام ؛ وكيف وأئني له أن يخطر هذا بباله ، وهو أبعد الخلق منه ! وهذا كما يخطر للنفاط^(١) أن يكون مكيكاً ، ولا تنظرن إلى نسبة في المناقب^(٢) ، بل انظر إلى أن

(١) النفاط : مستخرج النفط ؛ وهو الزيت .

(٢) حاشية ب : « قوله ولا تنظرن في المناقب » ؛ قال في القاموس : « النقاب ، بالكسر : الرجل .

العلامة والبطن ، ومنه : « فرخان في نقاب » يضرب للمتشابهين ؛ فعلى هذا يريد بالمناقب المشابهة بالنسب .

الإمامة هي نبوة مختصرة ، وأن الطليق العدود من المؤلفة قلوبهم المكذب بقلبه وإن أقرّ بلسانه ، الناقص المنزلة عند المسلمين ، القاعد في أخريات الصف ؛ إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين ، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه ويملكها ويسمه الناس وسمها ، ويكون للمؤمنين أميرا ، ويصير هو الحاكم في رقاب أولئك العظماء من أهل الدين والفضل ! وهذا أعجب من العجب ، أن يجاهد النبيّ صَلَّى الله عليه وآله قوماً بسيفه ولسانه ثلاثا وعشرين سنة ، ويلعنهم ويعدّهم عنه ، وينزل القرآن بدمهم ولعنهم ، والبراءة منهم ، فلما تمهدت له الدولة ، وغلب الدين على الدنيا ، وصارت شريعة دينية محكمة ، مات فشيّد دينه الصالحون من أصحابه ، وأوسموا رقعة ملّته ، وعظم قدرها في النفوس ، فتسلمها منهم أولئك الأعداء الذين جاهدهم النبيّ صَلَّى الله عليه وآله فلسكوها وحكموا فيها ، وقتلوا الصلحاء والأبرار وأقارب نبيّهم الذين يظهرون طاعته ، وآت تلك الحركة الأولى وذلك الاجتهاد السابق إلى أن كان ثمرته لهم ؟ فليته كان يبعث فيرى معاوية الطليق وابنه ، ومروان وابنه خلفاء في مقامه ، يحكمون على المسلمين ، فوضح أن معاوية فيما يراجعه ويكتبه به ؛ كصاحب الأحلام .

وأما تشبيهه إياه بالقائم مقاماً قد بهظه ؛ فلأن الحجج والشبه والمعاذير التي يذكرها معاوية في كتبه وأهـن من نسج المنكبوت ، فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام يخبط خبط العشواء ، ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من الناس أنه سفة وباطل .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « لولا بعض الاستبقاء » ؟ وهل كانت الحال تقتضى أن يستبق ! وما تلك القوارع التي أشار إليها ؟

= يعني أن معاوية وإن كان في النسب له بعض المشابهة بنسبه عليه السلام من حيث القرشية والقرابة ولكنه . إذا نظرت إلى أن الإمامة هي نبوة مختصرة لا يصلح لها إلا من اجتمعت فيه فضائل من النبوة ومناقب تبارعها وسوابق تتلوها ، وأما الطلقاء وأبناء الطلقاء فليس لهم أن يتمرضوا لأن يكونوا من أدنى موالى أربابها .

قلت : قد قيل : إنَّ النبي صلى الله عليه وآله فَوَّضَ إليه أمرَ نسائه بعد موته ، وجعل إليه أن يقطع عصمة أَيْتِهِنَّ شاءَ إذا رأى ذلك ، وله من الصحابة جماعةٌ يشهدون له بذلك ، فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أمِّ حبيبة ، ويبيح نكاحها الرِّجال عقوبة لها ولماوية أخيها ، فإنَّها كانت تُبْغِضُ علياً كما يُبْغِضُه أخوها ، ولو فعل ذلك لانتَهَسَ لحمه ، وهذا قول الإمامية ، وقد رووا عن رجالهم أنه عليه السلام تَهَدَّدَ عائشة بضربٍ من ذلك ، وأما نحن فلا نصدِّق هذا الخبر ، وتفسَّر كلامه على معنى آخر ، وهو أنه قد كان معه من الصحابة قوم كثيرون سمِعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله يلعن معاوية بعد إسلامه ، ويقول : إنَّه منافق كافر ، وإنَّه من أهل النار ، والأخبار في ذلك مشهورة ؛ فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك ، ويسمعهم قولهم ملافةً ومشافهةً لفعل ، ولكنه رأى العدول عن ذلك ، مصلحةً لأمر يعلمه هو عليه السلام ، ولو فعل ذلك لانتَهَسَ لحمه ، وإنما أبقى عليه .

وقلت لأبي زيد البصري : لِمَ أبقَى عليه ؟ فقال : والله ما أبقَى عليه مراعاة له ، ولا رفقاً به ، ولكنه خاف أن يفعل كفعله ، فيقول لعمر بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسَير بن أبي أرطاة وأبي الأعور وأمثالهم : ارووا أنتم عن النبي صلى الله عليه وآله أن علياً عليه السلام منافق من أهل النار ، ثم يُحمَل ذلك إلى أهل العراق ؛ فلهذا السبب أبقَى عليه .

(٧٤)

الأفضل :

ومن حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن - ونقل من خط هشام

ابن الكلبي :

هَذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ،
أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ ،
لَا يَشْتَرُونَ بِهِ كَمَنَّا قَلِيلًا ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلًا ، وَأَنَّهُمْ يَدُّ وَاحِدَةً عَلَى مَنْ خَالَفَ
ذَلِكَ وَتَرَكَهُ ، وَأَنَّهُمْ أَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، دَعَوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ
لِمُعْتَبَةٍ عَاتِبٍ ، وَلَا لِفَضْبٍ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِدْلَالِ قَوْمٍ قَوْمًا ، وَلَا لِمُسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْمًا ،
عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَسَفِيهِمْ وَعَالِمُهُمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ .
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ كَانَ مَسْئُولًا .
وَكُتِبَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ .

الشَّيْخ :

الحِجْلُ : العهد ، أى ومن كتاب حِجْلٍ ؛ فحذف المضاف . واليمن : كلٌّ من ولده
قحطان ؛ نحو حمير ، وعكّ ، وجُذَام ، وكِنْدَةَ ، والأزد ، وغيرهم .

وربيعة ، هو ربيعة بن زرار بن معد بن عدنان ؛ وهم بكر وتغلب ، وعبد القيس .
وهشام ، هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، نَسَابَةُ ابْنِ نَسَابَةٍ ؛ عالم بآيام العرب
وأخبارها ، وأبوه أعلم منه ، وهو يروى عن أبيه .

والحاضر : ساكنو الحَضَر : والبَادِي : ساكنو البادية ؛ واللفظ لفظ المفرد والمعنى الجمع .

قوله : « إنهم على كتاب الله » حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف ، أى مجتمعون .
قوله : « لا يشترون به ثمنًا قليلًا » ، أى لا يتموّضون عنه بالثمن ، فسمّى التموّض اشتراء ؛ والأصل هو أن يشتري الشيء بالثمن لا الثمن بالشيء ، لكنه من باب اتّساع العرب ، وهو من ألفاظ القرآن العزيز ^(١) .

وأنهم يذّ واحدة ، أى لا خلف بينهم .
قوله : « لمعتبة عاتب » ، أى لا يؤثّر في هذا العهد والحلف ، ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم ؛ لأنه استجداه فلم يُجِدْه ، أو طلب منه أمرا فلم يَقم به ، ولا لأنّ أحداً منهم غضب من أمرٍ صدر من صاحبه ، ولا لأنّ عزيزاً منهم استدلّ ذليلاً منهم ، ولا لأنّ إنساناً منهم سبّ أو هجا بعضهم ، فإنّ أمثال هذه الأمور يتعدّ ارتفاعها بين الناس ؛ ولو كانت تنقض الحلف لما كان حلف أصلاً .

واعلم أنه قد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ حلف كان في الجاهليّة فلا يزيده الإسلام إلّا شدة » ؛ ولا حلف في الإسلام ، لكنّ فعل أمير المؤمنين عليه السلام أولى بالاتباع من خبر الواحد ؛ وقد تحالفت العرب في الإسلام مراراً ، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ .

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

(٧٥)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة في أول ما يبيع له بالخلافة - ذكره الواقدي في كتاب الجمل :

مَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ :
أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ ، حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ
وَلَا دَفْعَ لَهُ ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَذْبَرَ مَا أَذْبَرَ ، وَأَقْبَلَ
مَا أَقْبَلَ ، فَبَايَعَ مَنْ قَبْلَكَ ، وَأَقْبَلَ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ . وَالسَّلَامُ .

الشرح :

كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبني أمية جميعا . قال : « وقد علمت إعذارى فيكم » ،
أى كوني ذا عذرٍ لو لُمتُكم أو ذممتكم - يعنى في أيام عثمان .

ثم قال : « وإعراضى عنكم » أى مع كوني ذا عذرٍ لو فعلت ذلك فلم أفعله ، بل أعرضت
عن إساءتكم إليّ وضربت عنكم صفحا . حتى كان ما لا بدّ منه - يعنى قتل عثمان
وما جرى من الرّجبة بالمدينة .

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له : والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أذبر
ذلك الزمان ، وأقبل زمان آخر ، فبايع وأقدم ؛ فلم يبايع ولا قدم ، وكيف يبايع

وعينه طامحة إلى الملك والرئاسة منذ أُمِّره عمر على الشام ؛ وكان على الهمة ، تَوَاقاً إلى معالي الأمور ، وكيف يطيع عليّاً والمحرضون له على حربِه عدد الحصا ! ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة لكني ، وكيف يسمع قوله :

فوالله ما هندُ بأَمِّك إن مضى النهارُ ولم يثأرَ بعمانِ ثائرُ

أَيَقْتُلُ عبدُ القومِ سيِّدَ أهلِهِ ولم تقتلوه ، ليت أَمِّك عاقرُ

ومن عجبٍ أنْ بتَّ بالشامِ وادعاً قريراً وقد دارت عليه الدوائرُ !

ويطيع عليّاً ، ويبايع له ، ويُقدم عليه ، ويسلِّم نفسه إليه ، وهو نازل بالشام في وسط قحطان ودونه منهم حرّة لا ترام ؛ وهم أطوع له من نعله ، والأمر قد أمكنه الشروع فيه ؛ وتالله لو سمع هذا التحريضُ أجبنُ الناس وأضعفهم نفساً وأنقصهم همّةً لحركة وشجدة من عزمه ؛ فكيف معاوية ، وقد أيقظ الوليدُ بشعره من لا ينام !

(٧٦)

الأفضل :

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة :

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ
مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللَّهِ يُقَرِّبُكَ
مِنَ النَّارِ .

الشَّيْخ :

روى : « وحلمك » . والقرب من الله ، هو القرب من ثوابه ؛ ولا شبهة أن ما قرب
من الثواب باعد من العقاب ، وبالعكس لتنافيها .

فأما وصيته له أن يسع الناس بوجهه ومجلسه وحكمه ، فقد تقدّم شرح مثله ، وكذلك
القول في الغضب :

وطيرة من الشيطان : بفتح الطاء وسكون الياء ، أى خفة وطيش
قال الكمي :

وَحِلْمُكَ عِزٌّ إِذَا مَا حَلُمْتَ وَطَيْرَتُكَ الصَّابُ وَالْحَنِظْلُ^(١)

(١) الصحاح ٤ : ٧٢٨ .

(٧٧)

الأفضل

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس أيضا لما بعثه للاحتجاج

على الخوارج :

لا تُخَاصِمَهُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ سَمَّالٌ ذُو وُجُوهِ ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ ... وَلَكِنْ حَاجِبُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصًا .

الشَّيْخُ

هذا الكلام لا نظير له في شرفه وعلوِّ معناه ، وذلك أن القرآن كثير الاشتباه ، فيه مواضع يُظَنُّ في الظاهر أنها متناقضة متنافية ، ونحو قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(٢) ، ونحو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ^(٤) ، ونحو ذلك ، وهو كثير جدًا ؛ وأما السنة فليست كذلك ، وذلك لأن الصحابة كانت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وتستوضح منه الأحكام في الوقائع ، وما عساه يشتبه عليهم من كلامهم ؛ يراجعونه فيه ؛ ولم يكونوا يراجعونه في القرآن إلا فيما قلّ ؛ بل كانوا يأخذونه منه تلقفًا ، وأكثرهم لا يفهم معناه ،

(١) سورة الأنعام ١٠٣ . (٢) سورة القيامة ٢٣ .

(٣) سورة يس ٩ . (٤) سورة فصلت ١٧ .

لا لأنه غير مفهوم ؛ بل لأنهم ما كانوا يتعاطون فهمه ؛ إما إجلالا له أو لرسول الله أن يسألوه عنه ، أو يجرونه مجرى الأسماء الشريفة التي إنما يراد منها بركتها لا الإحاطة بمعناها ؛ فلذلك كثر الاختلاف في القرآن . وأيضا فإن ناسخه ومنسوخه أكثر من ناسخ السنة ومنسوخها ؛ وقد كان في الصحابة من يسأل الرسول عن كلمة في القرآن يفسرها له تفسيراً موجزاً ، فلا يحصل له كل الفهم ، لما أنزلت آية الكَلَالَةِ^(١) ، وقال في آخرها : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾^(٢) ، سأله عمر عن الكَلَالَة ماهو ؟ فقال له : يكفيك آية الصيف ، لم يزد على ذلك ، فلم يراجع عمر وانصرف عنه ، فلم يفهم مراده ، وبقي عمر على ذلك إلى أن مات ، وكان يقول بعد ذلك : اللهم مهما بَيَّنْتَ ، فإن عمر لم يَتَبَيَّنْ ، يشير إلى قوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ وكانوا في السنة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة ، فلذلك أوصاه علي عليه السلام أن يحاجهم بالسنة لا بالقرآن .

فإن قلت : فهل حاجهم بوصيته ؟

قلت : لا ، بل حاجهم بالقرآن ، مثل قوله : ﴿ فَابْتَغُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِيهَا ﴾^(٣) ومثل قوله في صيد المحرم : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾^(٤) ؛ ولذلك لم يرجعوا والتجتمت الحرب ، وإنما رجع باحتجاجه نقر منهم .

فإن قلت : فما هي السنة التي أمره أن يحاجهم بها ؟

قلت : كان لأمر المؤمنين عليه السلام في ذلك غرض صحيح ، وإليه أشار ، وحوله كان يطوف ويحوم ، وذلك أنه أراد أن يقول لهم : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « على مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار » ، وقوله : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، ونحو ذلك من الأخبار التي

(١) يريد قوله تعالى في آخر آية من سورة النساء : « يسألونك عن الكَلَالَة » الخ .

(٢) سورة النساء ١٢ . (٣) سورة النساء ٣٥ .

(٤) سورة المائدة ٩٥ .

كانت الصحابة قد سمعها من فلق فيه صلوات الله عليه ، وقد بقى ممن سمعها جماعة
تقوم الحجة وثبت بنقلهم ، ولو احتج بها على الخوارج في أنه لا يحل مخالفته والعدول عنه
بحالٍ لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين في حاجتهم ، وأغراض أخرى أرفع وأعلى منهم ؛
فلم يقع الأمر بموجب ما أراد ، وقضى عليهم بالحرب ؛ حتى أكلتهم عن آخرهم ، وكان
أمر الله مفعولا .

(٧٨)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعري عن كتاب كتبه إليه من المكان الذي اتعدوا فيه للحكومة - وذكر هذا الكتاب سعيد ابن يحيى الأموى فى كتاب المغازى :

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا ، وَنَطَقُوا بِالْهَوَى ؛ وَإِنِّ نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنَزِلًا مُعْجِبًا ؛ اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَأَنَا أَدَاوِي مِنْهُمْ قَرَحًا أَخَافُ أَنْ يَعُودَ عَلَقًا يَمُودُ ، وَلَيْسَ رَجُلٌ - فَأَعْلَمُ - أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْفَتْيَاهَا مِنِّي ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ ، وَكَرَمَ الْمَالِ .
وَسَأْفِي بِالَّذِي وَابْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنْ تَغَيَّرَتْ عَنْ صَالِحٍ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجَرُّبَةِ ، وَإِنِّي لَأَعْبُدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ يَبَاطِلُ ، وَأَنْ أَفْسِدَ أَمْرًا قَدْ أَصْلَحَهُ اللَّهُ ، فَدَعُ عَنْكَ مَا لَا تَعْرِفُ ، فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقْوِيلِ الشُّوءِ ، وَالسَّلَامُ .

الشَّيْخُ :

روى : « ونطقوا مع الهوى » ، أى مائلين مع الهوى .
وروى : « وأنا أدارى » بالراء ، من المدايرة ، وهى الملاينة والمساهلة .

وروى: « نفع ما أولى » باللام ؛ يقول : أوليته معروفا .

وروى: « إن قال قائل يبطل ويفسد أمرا [قد أصْلَحَهُ الله ^(١)] » .

واعلم أن هذا الكتاب كتاب مَنْ شكَّ في أبي موسى واستوحش منه ؛ ومن قد نقل عنه إلى أبي موسى كلاماً إما صدقا وإما كذباً . [وقد نَقَلَ عن أبي موسى إليه كلاماً إما صدقا أيضاً وإما كذباً ^(٢)] ، قال عليه السلام : إنَّ الناس قد تغيَّر كثير منهم عن حظِّهم من الآخرة ، فالوا مع الدنيا . وإنَّي نزلت من هذا الأمر منزلاً معجِبا ، بكسر الجيم ، أى يعجب مَنْ رآه ، أى يجعله متعجباً منه .

وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونُصَّاره من أهل العراق ؛ فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديداً جداً . والمنزل والنزول هاهنا مجاز واستعارة ، والمعنى أتى حصلت في هذا الأمر الذى حصلت فيه على حال معجبة لمن تأملها ؛ لأنَّي حصلت بين قوم كلِّ واحد منهم مستبدِّ برأى يخالف فيه رأى صاحبه ؛ فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر ؛ وإن حكمت عليهم برأى أراه أنا خالفوه ونصَّوه ، ومن لا يطاع فلا رأى له ، وأنا معهم كالطبيب الذى يداوى قرْحاً ، أى جراحة قد قاربت الاندمال ولم تندمل بعد ؛ فهو يخاف أن يعود علقماً ، أى دماً .

ثم قال له : ليس أحد - فاعلم - أحرص على ألفة الأئمة وضمِّ نشر المسلمين .

وأدخل قوله : « فاعلم » بين اسم ليس وخبرها فصاحة ، ويجوز رفع « أحرص » بجعله

صفةً لاسم « ليس » ؛ ويكون الخبر محذوفاً - أى ليس فى الوجود رجل .

وتقول : قد وأيت وأياً ، أى وعدت وعداً ، قال له : أما أنا فسوف أفى بما وعدت وما

استقرَّ بينى وبينك ؛ وإن كنت أنت قد تغيَّرت عن صالح ما فارقتنى عليه .

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون قوله : « وإن تغيّرت » من جملة قوله فيما بعد « فإنّ الشقّ » كما تقول : إن خالفتني فإنّ الشقّ من يخالف الحق .
قلت : نعم ؛ والأوّل أحسن ؛ لأنه أدخل في مدح أمير المؤمنين عليه السلام كأنه يقول : « أنا أفى وإن كنت لا تنى ، والإيجاب يحسنه السلب الواقع في مقابلته :
* والضدّ يظهر حسنه الضدّ *

ثمّ قال : « وإنّ لأعبد » أى آنف ، من عبيد بالكسر أى أنف ، وفسروا قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(١) بذلك ، يقول : إنى لآنف من أن يقول غيرى قولاً باطلاً ، فكيف لا آنف أنا من ذلك لنفسى ! ثمّ تختلف الروايات فى اللفظة بعدها كما ذكرنا .
ثمّ قال : « فدع عنك ما لا تعرف » أى لا تبهن أمرك إلا على اليقين والعلم القطعى ، ولا تُصغِرْ إلى أقوال الوشاة ونقلة الحديث ؛ فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيراً ، فلا تصدّق ما عساه يبلّغك عني شرار الناس ؛ فإنّهم سراع إلى أقوال السوء ؛ ولقد أحسن القائل فيهم :

إِنْ يَسْمَعُوا الْخَيْرَ يُخَفُّوهُ وَإِنْ سَمِعُوا شَرًّا أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا كَذَبُوا
ونحو قول الآخر :
إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا وَإِنْ ذُكِرَتْ بُخَيْرٌ عَنْدهُمْ دَفَنُوا^(٢)

(١) سورة الزخرف ٨١ . (٢) لقنّب بن أمّ صاحب ، مختارات ابن الشجرى ١٠ : ٧

(٧٩)

الأضل :

ومن كتاب كتبه عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ ،
وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَأَقْتَدَوْهُ .

الشَّيْخُ :

أى ممنوعوا الناس الحق فاشترى الناس الحق منهم بالرشا والأموال ، أى لم يضعوا
الأمور مواضعها ، ولا ولّوا الولايات مستحقّيها ، وكانت أمورهم الدينية والدنيوية تجري
على وفق الهوى والفرس الفاسد ، فاشترى الناس منهم الميراث والحقوق كما تشتري السلع
بالمال .

ثم قال : « وأخذوهم بالباطل فاقْتَدَوْهُ » ، أى حملوهم على الباطل فجاء الخلف من بعد
السلف، فاقْتَدَوْا بآبائهم وأسلافهم فى ارتكاب ذلك الباطل ظناً أنه حق لما قد ألفوه ونشئوا
وربّوا عليه .

وروى « فاشْتَرَوْهُ » بالسین المهملة أى اختاروه ، يقال استريتُ خيارُ المال ، أى اخترته
ويكون الضمير عائداً إلى « الظلمة » لا إلى « الناس » ، أى ممنوعوا الناس حقهم من المال
واختاروه لأنفسهم واستأثروا به .

باب الحكم والمواعظ

باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه
ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير
الخارج من سائر أغراضه

التهنئة :

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالروح من البدن ، والسواد من العين ؛ وهو الدرّة
المكنونة التي سائر الكتاب صدّفها ؛ وربما وقع فيه تكرار لبعض ما تقدّم يسير جدّاً ؛
وسبب ذلك طول الكتاب وبعد أطرافه عن الذهن ، وإذا كان الرضى رحمه الله قد سها
فكرّ في مواضع كثيرة في ” نهج البلاغة “ ، على اختصاره كنّا نحن في تكرار يسير
في كتابنا الطويل أعذر .

(١)

الأفضل :

كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ ؛ لَا ظَهْرَ فَيْرٍ كَبَ ، وَلَا ضَرْعَ فَيْحَلَبَ .

الشَّيْخُ :

ابن اللَّبُونِ : ولد النَّاقَةِ الذَّكَرَ إِذَا اسْتَكْمَلَ السَّنَةَ الثَّانِيَةَ ودخل في الثالثة ؛ ولا يقال
للأنثى : ابنة اللَّبُونِ ؛ وذلك لأنَّ أمَّهما في الأغلب ترضع غيرها ، فتكون ذات لبن ،
واللَّبُونُ من الإبل والشاة : ذات اللَّبَنِ ، غزيرة كانت أو بَكِيَّة^(١) ، فإذا أرادوا الغزيرة
قالوا : لَبْنَةٌ ، ويقال : ابن لَبُونٍ وابن اللَّبُونِ ، منكراً أو معرفاً ، قال الشاعر :
وابن اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبَزْلِ الْقَنَاعِيْسِ^(٢)
وابن اللَّبُونِ لا يكون قد كمل وقوى ظهره على أن يركب ، وليس بأنثى ذات ضرع
فَيُحَلَبُ وهو مطروح لا يُنْتَفَعُ به .

وأَيَّامُ الْفِتْنَةِ هي أَيَّامُ الْحَصُومَةِ والحرب بين رُئُوسَيْنِ ضَالِّينِ يدعوان كلاهما إلى ضلالة
كفتنة عبد الملك وابن الزبير ، وفتنة مروان والضَّحَّاك ، وفتنة الْحَجَّاجِ وابن الأشعث
ونحو ذلك ، فأما إِذَا كَانَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَ حَقٍّ فَلَيْسَتْ أَيَّامُ فِتْنَةٍ كَالْجُلِّ وَصِفَيْنِ ونحوهما
بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسلِّ السَّيْفِ والنهي عن النكر وبذل النفس في إعزاز
الدين وإظهار الحق .

(١) الْبَكِيَّةُ : قليلة اللبن . (٢) لجرير ، ديوانه ٣٢٣ . القرن : الجبل . والقناعيس : الشداد .

قال عليه السلام : أَخْمِلْ نَفْسَكَ أَيَّامَ الْفِتْنَةِ ، وَكُنْ ضَعِيفًا مَغْمُورًا بَيْنَ النَّاسِ لَا تَصْلُحْ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَلَا بِمَالِكَ وَلَا تَنْصُرْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ .

وقوله : « فَيُرَكَّبَ » « فَيُحْلَبَ » ، منصوبان لأنهما جوابان للنفي ، وفي الكلام محذوف تقديره : « له » ؛ وهو يستحق الرفع ، لأنه خبر المبتدأ ، مثل قولك : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، تقديره « لنا » ، أو « في الوجود » .

(٢)

الأفضل :

أَزْرَىٰ بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ ،
وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ أَمَرٍ عَلَيْهَا لِسَانُهُ .

الشَّرْحُ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول في الطمع : قوله عليه السلام « أزرى بنفسه » ، أى قصر بها .
من استشعر الطمع ، أى جعله شعاره أى لازمه .
وفي الحديث المرفوع : « إن الصفا الزلزال الذى لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع » .
وفي الحديث أنه قال للأَنْصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »
أى عند طمع الرزق .

وكان يقال : أكثر مصارع الأبواب تحت ظلال الطمع .

وقال بعضهم : العبيد ثلاثة : عبد رق ، وعبد شهوة ، وعبد طمع .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغنى ، فقال : « اليأس عما فى أيدي الناس ،
ومن مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً » .

وقال أبو الأسود :

إِلَيْسَ عَدُوُّكَ فِي رِفْقٍ وَفِي دَعَاةٍ طَوَّبَ لِي إِدْبِيَّةٌ لِلدَّهْرِ لَبَاسِ
وَلَا تَغْرُبْكَ أَحْقَادُ مَرْمَلَةٍ قَدْ يُرَكَّبُ الدَّيْرُ الدَّامِي بِأَحْلَاسِ
وَاسْتَغْنِ عَنِ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ إِنَّ الْغَنَى الَّذِي اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ
قال عمر : ما الخمر صِرْفًا بِأَذْهَبَ لِعُقُولِ الرِّجَالِ مِنَ الطَّمَعِ .

وفي الحديث المرفوع : « الطمع الفقر الحاضر » .

قال الشاعر :

رَأَيْتُ خَيْلَةً فَطِمِنَتْ فِيهَا وَفِي الطَّمَعِ الْمَذَلَّةُ لِلرَّقَابِ
الفصل الثاني في الشكوى : قال عليه السلام : « من كشف للناس ضره » أى شكى
إليهم بؤسه وفقره ، « فقد رضى بالذل » .
كان يقال : لَا تَشْكُوَنَّ إِلَى أَحَدٍ ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ عَدُوًّا سَرَّهَ ، وَإِنْ كَانَ صَدِيقًا سَاءَهُ
وَلَيْسَتْ مَسَرَّةُ الْعَدُوِّ وَلَا مَسَاءَةُ الصَّدِيقِ بِمَحْمُودَةٍ .

سمع الأحنف رجلاً يقول : لَمْ أَنْمِ اللَّيْلَةَ مِنْ وَجَعِ ضِرْسِي ؛ فَجَعَلَ يَكْثُرُ ، فَقَالَ : يَا هَذَا
لِمَ تَكْثُرُ ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ ذَهَبَتْ عَيْنِي مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً فَمَا شَكُوتُ ذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ ، وَلَا أَعْلَمْتُ
بِهَا أَحَدًا .

الفصل الثالث في حفظ اللسان : قد تقدّم لنا قولُ شافٍ في ذلك ، وكان يقال : حَفِظْ
اللسانَ راحةَ الإنسان ، وكان يقال : رَبِّ كَلِمَةٍ سَفَكْتَ دَمًا ، وَأَوْرَثْتَ نَدَمًا .

وفي الأمثال العامية ، قال اللسان للرأس : كَيْفَ أَنْتَ ؟ قَالَ : بِخَيْرٍ لَوْ تَرَكْتَنِي .
وفي وصيه المهلب لولده ، يَا بَنِيَّ تَبَاذَلُوا تَحَابُّوْا ، فَإِنَّ بَنِي الْأَعْيَانِ يَخْتَلِفُونَ فَكَيْفَ يَبْنِي
الْمَلَأَتْ ، إِنَّ الْبِرَّ يَنْسَأُ فِي الْأَجْلِ ، وَيَزِيدُ فِي الْعَدَدِ ، وَإِنَّ الْقَطِيعَةَ تَوْرِثُ الْقَلَّةَ ، وَتَعْقِبُ

النار بعد الذلّة . اتقوا زلة اللسان فإن الرجل تزلّ رجله فينتعش ، ويزلّ لسانه فيهلك ،
وعليكم في الحرب بالمكيدة ، فإنها أبلغ من النجدة ، وإن القتال إذا وقع وقع القضاء ،
فإن ظفر الرجل ذو الكيد والحزم سعد ، وإن ظفر به لم يقولوا : فرط .

وقال الشاعر في هذا المعنى :

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه وليس يموتُ المرء من عثرة الرجل

(٣)

الأفضل :

البخلُ عارٌ، والجبنُ منقصةٌ، والفقرُ يُخرِسُ أَلْفَطِينَ عَنْ حَاجَتِهِ، وَالْمَقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلَدَتِهِ .

* * *

الشرح :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول في البخل . وقد تقدّم لنا كلام مقنع في ذلك .
ومن كلام بعض الحكماء في ذلك : ما أقلّ مَنْ يحمده الطالب ، وتستقلّ به العشائر ،
ويرضى عنه السائل ، وما زالت أمّ الكرم نزُورا وأمّ اللؤم ذلولا . وأكثر الواجدين
مَنْ لا يجود ، وأكثر الأجواد مَنْ لا يجد .
وما أحسن قول القائل : كفى حزناً أنّ الجواد مقترّ عليه ، ولا معروف عند بخيل .
وكان يقال : البخل مهانة ، والجود مهابة .

ومن أحسن ما نقل من جُود عبد الله المأمون أنّ عمر بن مسعدة كاتبه مات في سنة
سبع عشرة ومائتين ، وخلف تركّة جلييلة ، فبعث أخاه أبا إسحاق المعتصم وجماعة معه من
الكتاب ليحصروا مبلغها ، فجاء المعتصم إليه وهو في مجلس الخلافة ، ومعه الكتاب ، فقال :
ما رأيتم ؟ فقال المعتصم معظما لما رآه : وجدنا عيّنا ، وصامتا ، وضياعا ، قيمة ذلك أجمع
ثمانية آلاف ألف دينار . ومدّ صوته - فقال المأمون : إنا لله ! والله ما كنت أرضاها

لتابع من أتباعه ليوقر هذا على مخلّفيه ! فنجعل المعتصم حتى ظهر خجله للحاضرين.

الفصل الثاني في الجبن ، وقد تقدم قولنا في فضل الشجاعة .

وقال هشام بن عبد الملك لمسلمة أخيه : يا أبا سعيد ، هل دخلك دُعر في حرب قطّ شهدتّها ؟ قال : ما سلمت في ذلك عن دعر ينبّه على حيلة ، ولا غشيّني دعر سلّبنى رأيي ، فقال له هشام : هذه والله البسالة ، قال أبو دلامة ، وكان جباناً :

إني أعوذ برّوح أن يقدّمني إلى القتال فتشقي بي بنو أسدٍ
إنّ المهلب حبّ الموت أورثكم ولم أرث رغبةً في الموت عن أحدٍ
قال النصور لأبي دلامة في حرب إبراهيم : تقدّم ويلي ! قال : يا أمير المؤمنين ؛ شهدت مع مروان بن محمد أربعة عساكر كلّها انهزمت وكسرت ؛ وإني أعيذك بالله أن يكون عسكرك الخامس .

الفصل الثالث في الفقر . وقد تقدّم القول فيه أيضا .

ومثل قوله : « الفقر يخرس الفطن عن حاجته » قول الشاعر :

سأعمل نصّ العيس حتى يكفني غنى المال يوماً أو غنى الحداث
فللموت خير من حياة يرى لها على الحرّ بالإفلال وسّم هوان
متى يتكلّم يُبلغ حُكم كلامه وإن لم يقلّ قالوا عديم بيان
كان الغنى عن أهله بورك الغنى بغير لسان ناطق بلسان
ومثل قوله عليه السلام : « والمقلّ غريب في بلده » قول خلف الأحمر :
لا تظنّني أنّ الغريب هو التناي ولكنّا الغريب المقلّ
وكان يقال : مالك نورك ، فإن أردت أن تنكسف فقره وأتلفه .

قيل للإسكندر : لم حفظت الفلاسفة المالَ مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا ؟ قال : لئلا
تُحوجهم الدنيا إلى أن يقوموا مقاماً لا يستحقونه .
وقال بعض الزهاد : ابدأ برغيفيك فاحرُزْهُمَا ثم تعبّد .
وقال الحسن عليه السلام : مَنْ زعم أنه لا يحبّ المال فهو عندي كاذب ، فإن علمت
صدقه فهو عندي أحمق .

(٤)

الأفضل :

العَجْزُ آفَةٌ ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ ، وَالزُّهْدُ ثَرَوَةٌ ، وَالْوَرَعُ جَنَّةٌ ، وَنِعَمَ الْقَرِينُ
الرِّضَا .

السُّنْحُ :

فهذه فصول خمسة :

الفصل الأول : قوله عليه السلام « العجز آفة » ، وهذا حقّ لأن الآفة هي النقص
أو ما أوجب النقص ، والعجز كذلك .

وكان يقال : العجز المفرط ترك التأهب للمعاد .

وقالوا : العجز عجزان ، أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر ، والثاني الجدّ في طلبه
وقد فات .

وقالوا : العجز نائم ، والحزم يقظان .

الفصل الثاني في الصبر والشجاعة : قد تقدّم قولنا في الصبر .

وكان يقال : الصبر مرّ ، لا يتجرّعه إلا حرّ .

وكان يقال : إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالاً كأعمار الناس وآجالهم ؛

فاصبروا لزمانِ السوء حتى يفنى عمره ، ويأتى أجله .

وكان يقال : إذا تضيّفتك نازلةٌ فاقرّها الصبر عليها ، وأكرم مثواها لديك بالتوكلِ .

والاحتساب لترحل عنك ، وقد أبقت عليك أكثر مما سلّبت منك ، ولا تنسها عند رخائك ، فإنّ تذكّرك لها أوقات الرّخاء يبعد السوء عن فعلك ، وينفي التساوة عن قلبك ويوزعك حمّد الله وتقواه .

الفصل الثالث : قوله : « والزهد ثروة » ، وهذا حقّ ، لأنّ الثروة ما استغنى به الإنسان عن الناس ، ولا غناء عنهم كالزّهد في دنياهم ؛ فالزّهد على الحقيقة هو الغنى الأكبر .

وروى أنّ عليا عليه السلام قال لعمر بن الخطاب أوّل ما ولى الخلافة : إنّ سرّك أن تلحق بصاحبك فقصر الأمل ؛ وكلّ دون الشّعب ، وارقع القميص ، واخصف الثّعل ، واستغن عن الناس بفقرك تلحق بهما .

وقف ملك على سقراط وهو في المشرفة قد أسند ظهره إلى جبّ كان يأوى إليه ، فقال له : سل حاجتك ، فقال : حاجتي أن تتنحّى عني ، فقد منعني ظلك المرفق بالشمس ، فسأله عن الجبّ ، قال : آوى إليه ، قال : فإن انكسر الجبّ لم ينكسر المكان .
وكان يقال : الزّهد في الدنيا هو الزهد في المحمّدة والرياسة ، لا في الطعام والمشرب ، وعند العارفين : الزهد ترك كل شيء يشغلك عن الله .

وكان يقال : العالم إذا لم يكن زاهدا لكان عقوبة لأهل زمانه ، لأنهم يقولون : لولا أنّ علمه لم يصوّب عنده الزهد لزّهد ، فهم يقتدون بزهده في الزهد .

الفصل الرابع : قوله : « والورع جنة » ؛ كان ، يقال : لاعصمة كعصمة الورع والعبادة ؛ أمّا الورع فيعصمك من المعاصي ، وأمّا العبادة فتعصمك من خصمك ؛ فإنّ عدوك لو رآك قائما تصلّى وقد دخل ليقنتك لصدّ عنك وهابك .

وقال رجل من بنى هلال لبنيه : يا بَنِي أَظْهَرُوا النَّسْكَ فَإِنَّ النَّاسَ إِنْ رَأَوْا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ بِخَلَا ، قالوا : مقتصد لا يحب الإسراف ، وإن رَأَوْا عِيًّا ، قالوا : مُتَوَقِّ يكره الكلام ، وإن رَأَوْا جُبْنًا قالوا : متحرج يكره الإقدام على الشبهات .

الفصل الخامس : قوله : « ونعم القرينُ الرضا » ، قد سبق منا قول مقنع في الرضا .
وقال أبو عمرو بن العلاء : دفعت إلى أرض مجدبة بها نفرٌ من الأعراب ، فقلت لبعضهم : ما أرضكم هذه ؟ قال : كما ترى ، لا زرع ولا ضرع ، قلت : فكيف تعيشون ؟ قالوا : نحترش^(١) الضباب ، ونصيد الدواب ، قلت : فكيف صبركم على ذلك ؟ قالوا : يا هذا ، سلْ خالقَ الخلق ؛ هل سويت ؟ فقال : بل رضيتُ .

وكان يقال : مَنْ سَخِطَ القضاء طاحَ ، ومن رضى به استراح .

وكان يقال : عليك بالرضا ، ولو قُلِبَتْ على جَمْر الغضا .

وفي الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى : « من لم يرض بقضائي فليتخذ ربًّا سوائى » .

(١) في اللسان : « حرش الضب يحرشه حرشاً ، واحترشه وتحرش وتحعر به : أتى قفا جحره فقعق بعصاه عليه وأتلىج طرفها في جحره فإذا سمع الصوت حسبه دابة تريد أن تدخل عليه فجاء يرحل على رجله ويجزه مقاتلا ويضرب بذنبه فناهزه الرجل فأخذ بذنبه فضب عليه — أى شد القبض — فلم يقدر أن يفحصه — أى يفلت منه » .

(٥)

الأضل :

العلمُ وِرائَةُ كَرِيَمَةٍ ، والآدابُ حُلُلٌ مُجَدَّدَةٌ ، والفِكرُ مِرَاةٌ صَافِيَةٌ .

النَّزْحُ :

إنما قال : « العلم وِرائَةُ » لأنَّ كلَّ عالمٍ من البشر إنما يكتسب علمه من أستاذٍ يَهْدِيهِ وموقِّفٍ يعلمه ؛ فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المالَ عن أبيه ، وقد سبق منا كلام شافٍ في العلم والآدب .

وكان يقال : عطية العالم شبيهة بمواهب الله عزَّ وجلَّ ، لأنها لا تنفذ عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها .

وكان يقال : الفضائل العلميَّة تشبه النخل ، بطيء الثمرة ، بعيد الفساد .
وكان يقال : ينبغي للعالم ألا يترفع على الجاهل ، وأن يتطامنَّ له بمقدار ما رفعه الله عليه ، وينقله من الشكِّ إلى اليقين ، ومن الحيرة إلى التبيين ، لأن مكافئته قسوة والصبر عليه وإرشاده سياسة .

ومثاله قول بعض الحكماء : الخَيْرُ من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحقُّ منه بالغلظة ، ويمعذره بنقصه فيما فرط منه ولا يعذر نفسه في التأخُّر عن هدايته .

وكان يقال : العلم في الأرض بمنزلة الشمس في الفلك ، لولا الشمس لأظلم الجو ، ولولا العلم لأظلم أهل الأرض .

وكان يقال : لا حلة أجمل من حلة الأدب ، لأن حُلَّ الثياب تبلى ، وحلَّ الآداب تبقى ، وحُلَّ الثياب قد يفتصبها الناصب ، ويسرقها السارق ، وحُلَّ الآداب باقية مع جوهر النفس .

وكان يقال : الفكرة الصحيحة إصطربلابٌ روحاني .

وقال أوس بن حجر يرثي :

إِنَّ الَّذِي جَمَعَ السَّامَةَ وَالنَّجْدَةَ وَالْحَزْمَ وَالنَّهْيَ جَمًّا^(١)

الْأَلْمَى الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَن قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمَّا

ومن كلام الحكماء : النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن يخمدها ألا تجد حطباً ،

وكذلك العلم لا يُفْنِيهِ الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه .

قيل لبعضهم : أى العلوم أفضل ؟ قال : ما العامة فيه أزهده .

وقال أفلاطون : مَنْ جهل الشيء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين .

وكان يقال : ثلاثة لا تجربة معهن : أدب يزين ، ومجانبة الرئية ، وكف الأذى .

وكان يقال : عليكم بالأدب ؛ فإنه صاحبٌ في السفر ، ومؤنس في الوحدة ، وجمال في

الحفيل ، وسبب إلى طلب الحاجة .

وكان عبد الملك أديبا فاضلا ، ولا يجالس إلا أديبا .

وروى الهيثم بن عدي عن مسعر بن كدام ، قال : حدثني سعيد بن خالد الجَدَلِيّ ،

قال : لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مُصعب دَعَا الناس يعرضهم على فرائضهم ،
فخضرنَا بنى يديه ، فقال : من القوم ؟ قلنا : جَدِيلَة ، فقال : جَدِيلَة عَدُوَان ؟ قلنا : نعم ،
فَأَنشده :

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدُوَا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ^(١)
بَنَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يَرَعُوا عَلَى بَعْضِ
وَمِنْهُمْ كَانَتِ السَّادَا تُ وَالْمَوْفُونَ بِالْقَرْضِ
وَمِنْهُمْ حَكْمٌ يَقْضِي : فَلَا يُنْقَضُ مَا يَقْضِي
وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِيزُ النَّاسَ بِاللَّسَنَةِ وَالْفَرْضِ

ثم أقبل على رجل منّا وسيم جسيم قدّمناه أماننا ، فقال : أيكم يقول هذا الشعر ؟
قال : لا أدري ، فقلت أنا من خلفه : يقوله ذو الإصبع ، فتركتني وأقبل على ذلك الرجل
الجسيم ، فقال : ما كان اسم ذى الإصبع ؟ قال : لا أدري ، فقلت أنا من خلفه : اسمه
حُرثَان ، فتركتني وأقبل عليه ، فقال له : ولم سَمِي ذَا الإصْبَع ؟ قال : لا أدري ، فقلت أنا
من خلفه : نهشته حَيَّةٌ فى إصبعه ، فأقبل عليه وتركني ، فقال : مِنْ أَيِّكُمْ كَانَ ؟ فقال :
لا أدري ، فقلت أنا من خلفه : من بنى تاج الذين يقول الشاعر فيهم :

فَأَمَّا بَنُو تَاجٍ فَلَا تَذْكُرْنَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْنِ عَيْنَاكَ مَنْ كَانَ هَالِكَا

فأقبل على الجسيم ، فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة درهم ، فأقبل علىّ ، وقال :
وكم عطاؤك أنت ؟ قلت : أربعمائة ، فقال : يا أبا الزّعيزعة ، حط من عطاء هذا ثلثمائة ،
وزدّها فى عطاء هذا ، فرحت وعطأتى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة^(٢) :

وَأَنشَد مَنشَدَ بَحْضَرَةِ الْوَائِقِ هَارُونَ بْنُ الْمُعْتَصِمِ :

(١) يقال للرجل الصعب المنيع : حية الأرض .

(٢) الخبر فى الأغاني ٣ : ٩١ ، ٩٢ .

أَظْلَمُ إِنَّ مُصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامِ تَحِيَّةً ظُلمٌ^(١)

فقال شخص: رجل هو خبر «إن»، ووافقه على ذلك وقم وخالفه آخرون، فقال الواصل:
من بق من علماء النحويين؟ قالوا: أبو عثمان المازني بالبصرة، فأمر بإشخاصه إلى
سُرْمَنْ رَأَى بعد إزاحة علته، قال أبو عثمان: فأشخصت، فلما أدخلت عليه قال: ممن الرجل؟
قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم مازن قيس، أم مازن
اليماني؟ قلت: من مازن ربيعة، قال: باسمك؟ بالباء؟ يريد: «ما اسمك» لأن لغة مازن
ربيعة هكذا، يبدلون الميم بباء والباء ميما - فقلت: مكرأى «بكر»، فضحك وقال: اجلس
واطمئن، فجلست فسألني عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر إن؟ فقلت:
«ظلم» قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن البيت إن لم يجعل «ظلم»
خبر «إن» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة! فلما كررت القول عليه فهم، وقال:
قبح الله من لا أدب له، ثم قال: ألك ولد؟ قلت: بنية، قال: فما قالت لك حين ودعتها؟
قلت: ما قالت بنت الأعشى:

تقول ابنتي حين جدّ الرّحيلُ أَرَانَا سَوَاءً وَمَنْ قَدْ يَتِمُّ^(٢)
أَبَانَا فَلَا رِمَتْ مِنْ عِنْدَنَا فَإِنَّا بِمُخِيرٍ إِذَا لَمْ تَرَمْ
أَبَانَا إِذَا أَضْمَرْتُكَ الْبَلَا دُ نَجْفَى وَتُقَطَّعَ مِنْ الرّحِمِ

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير:

ثَقِيَ بِاللّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ^(٣)
فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى، ثم أمر لي بألف دينار وكسوة، ورددني إلى البصرة^(٤).

(١) نسبة ابن خلّكان والحري في درة النواص ٤٣ إلى المرجعي، ونسبه البغدادي في الخزانة ١: ٣١٧ إلى الحارث بن خالد الخزومي.

(٢) ديوانه ٣٣. (٣) ديوانه ٣٦.

(٤) الخبر في طبقات الزبيدي ٩٣، ٩٤.

(٦)

الأصل

وَصَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ ، وَالْإِحْتِمَالُ قَبْرُ الْمُيُوبِ .
وَرُؤْيَى أَنَّهُ قَالَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا : الْمُسَالَمَةُ خَبَاءُ الْمُيُوبِ .

الشيخ

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله : « صدر العاقل صندوق سرّه ، قد ذكرنا فيما تقدم طرقاً
صالحاً في كتمان السر .

وكان يقال : لا تُنْكِحْ خَاطِبَ سِرِّكَ .

قال معاوية للنّجار العذريّ : ابغِ لي محدثاً ، قال : معى يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ،
أستريح منك إليه ، ومنه إليك ، وأجعله كتوماً ، فإنّ الرجل إذا اتّخذ جليساً ألقي إليه
عُجْرُهُ وَبُجْرُهُ .

وقال بعض الأعراب : لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك .

وقالوا : إذا كان سرّ الملك عند اثنين دخلت على الملك الشبهة ، وآتست على الرّجلين
المعاذير ؛ فإن عاقبهما عند شياعه ، عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريثا

بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة عليه .

الفصل الثانى : قوله : « البشاشة حباله المودة » ، قد قلنا فى البشر والبشاشة فيما سبق قولاً مقنعاً .

وكان يقال : البشر دالّ على السخاء من ممدوحك ، وعلى الودّ من صديقك دلالة النور على الثمر^(١) .

وكان يقال : ثلاث بُبين لك الودّ فى صدر أخيك : تلقاه ببشرٍك ، وتبدؤه بالسّلام ، وتوسّع له فى المجلس .

وقال الشاعر :

لا تدخلنك ضجيرة من سائلٍ	فلخير دهرٍك أن ترى مسئولا
لا تجهن بالردّ وجه مؤملٍ	قد رام غيرك أن يرى مأمولا
تلقى الكريم فتستدلّ ببشره	وترى المَبوس على اللّثم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائرٌ	خبراً فكن خبراً يروق جميلا

وقال البحرى :

لو أنّ كفك لم تجدْ لمؤمل	لكفاه عاجلُ بشرِك التهلّل ^(٢)
ولو أنّ مجدك لم يكن متقادماً	أغناك آخر سُوددٍ عن أوّل
أدركت مافات الكهول من الحجا	من عُنفوان شبابك المستقيّل
فإذا أمرت فما يقال لك اتّئدْ	وإذا حكمتَ فما يقال لك : اعدلِ

الفصل الثالث : قوله : « الاحتمال قبر العيوب » ، أى إذا احتملت صاحبك وحملت

(١) فى د : « دلالة النور على القمر » : (٢) ديوانه ٢ : ٢١٨ .

عنه سترَ هذا الخلق الحسن منك عيوبك ، كما يستر القبرُ الميت ، وهذا مثل قولهم في الجود :
كلّ عيبٍ فالكرمُ ينطيه .

فأما الخبءُ فمصدر خبأته أخبؤه ، والمعنى في الروایتين واحد ، وقد ذكرنا في فضل
الاحتمال والمسألة فيما تقدّم أشياء صالحة .

ومن كلامه عليه السلام : وجدت الاحتمال أنصرّ لي من الرجال .

ومن كلامه : مَنْ سالم النَّاس سلم منهم ، ومن حارب النَّاس حاربوه ؛ فإنّ العثرة
للكاثر .

وكان يقال : العاقل خادم الأحمق أبداً ، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرّب إليه
بدّاً ؛ وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدّاً .

وأسمع رجل يزيد بن عمر بن هُبيرة فأعرض عنه ، فقال الرجل : إياك أعنى ، قال :
وعنك أعرض .

وقال الشاعر :

إذا نطقَ السفیهُ فلا تجبهُ نغیرُ من إجابته السُّكُوتُ
سكتَ عن السفیه فظنّ أني عَمِيتُ عن الجواب وما عَمِيتُ

(٧)

الأفضل :

مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّخَطُ عَلَيْهِ ، وَالصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنِجِحٌ ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نَصَبٌ أُعْيِنَهُمْ فِي آجِلِهِمْ .

الشَّيْخُ :

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله « من رضى عن نفسه كثر السخط عليه » . قال بعض الفضلاء
لرجل كان يرضى عن نفسه ويدعى التميز على الناس بالعلم : عليك بقوم تروقهم بزبرجك ،
وتروعهم بزخرفك ، فإنك لا تعدم عزاً ، ولا تفقد غمراً ، لا يبلغ مسبارها غورك ،
ولا تستغرق أقدارها طورك .

وقال الشاعر :

أَرَى كُلَّ كَلِّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ وَيَعْمَى عَنِ الْعَيْبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ
وَمَا خَيْرٌ مَنْ تَخَفَى عَلَيْهِ عيوبُهُ وَيَسْدُو لَهُ الْعَيْبُ الَّذِي بِأَخِيهِ
وقال بعضهم : دخلت على ابن منارة وبين يديه كتاب قد صنفه ، فقلت : ما
هذا ؟ قال : كتاب عملته مدخلاً إلى التورية ، فقلت : إنَّ الناس ينكرون هذا ،
فلو قطعت الوقت بغيره ^(١) ! قال : النَّاسُ جُهَّالٌ ، وَأَنْتَ ضِدِّهِمْ ؟ قال : نعم ، قلت :

(١) في د : « بغير هذا » .

— ١٠١ —

فينبغي أن يكون ضدّهم جاهلاً عندهم ، قال : كذاكَ هو ! قلت : فقد بقيتَ أنتَ جاهلاً بإجماع الناس . ، والناس جهّال بقولك وحدك ؛ ومثل هذا المعنى قول الشاعر :

إذا كنتَ تقضى أنّ عقلك كاملٌ وأنّ بني حواءَ غيرك جاهلٌ
وأن مفيضَ العلم صدرُك كلّهُ فمن ذا الذي يدري بأنّك عاقل !

الفصل الثاني : « الصدقة دواءٌ منجج » ، قد جاء في الصدقة فضل كثير، وذكرنا بعض ذلك فيما تقدم . وفي الحديث المرفوع : « تاجروا الله بالصدقة ترحبوا » ؛ وقيل : الصدقة صدّاق الجنة .

وقيل للشبليّ : ما يجب في مائتي درهم ؟ فقال : أمّا من جهة الشرع فخمسة دراهم، وأمّا من جهة الإخلاص فالكُلّ .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل فقيل : أيّ الصدقة أفضل ؟ فقال : « أن تعطى وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا » .

ومثل قوله عليه السلام : « الصدقة دواء منجج » ، قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « داووا مرضاكم بالصدقة » .

الفصل الثالث : قوله : « أعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم » ، هذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ

لَوْ أَنَّ يَمِينَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا^(١) ﴿١﴾ . وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢) .

ومن كلام بعضهم : إنما تَقَدَّم على ما قَدَّمت ، ولست تَقَدَّم على ما تَركت ؛ فآثر
ما تلقاه غدا على ما لا تراه أبدا .

ومن حكمة أفلاطون : اكنتم حسنَ صنيعك عن أعين البشر ؛ فإنَّ له ممن بيده
ملكوت السماء أعيناً ترمُّقه فتجازي عليه .

١: (١) سورة آل عمران ٣٠ . (٢) سورة الزلزلة ٧ ، ٨ .

(٨)

الأضل :

اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشجْم ، ويتكلم بلحْم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس
من حرم .

الشريح :

هذا كلام محمول بعضه على ظاهره ، لما تدعو إليه الضرورة من مخاطبة العامة بما يفهمونه
والعدول عما لا تقبله عقولهم ، ولا تميم قلوبهم .

أما الإبصار ؟ فقد اختلف فيه ، فقليل : إنه بخروج شعاع من العين يتصل بالمرئى .
وقيل : إن القوة المبصرة التى فى العين تلاقى بذاتها المرئيات فتبصرها . وقال قوم : بل
بتكيف الهواء بالشعاع البصرى من غير خروج ، فيصير الهواء باعتبار تكيفه بالشعاع به آلة
العين فى الإدراك .

وقال المحققون من الحكماء : إن الإدراك البصرى هو بانطباع أشباح المرئيات فى
الرطوبة الجلدية من العين عند توسط الهواء الشفاف المضىء ، كما تنطبع الصورة فى المرآة .
قالوا : ولو كانت المرآة ذات قوة مبصرة لأدركت الصور المنطبعة فيها ؛ وعلى جميع الأقوال
فلا بد من إثبات القوة المبصرة فى الرطوبة الجلدية ، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارته
عليه السلام بقوله : « ينظر بشجْم » .

وأما الكلام فحلّه اللسان عند قوم . وقال قوم : ليس اللسان آلة ضرورية فى الكلام
لأن من يقطع لسانه من أصله يتكلم ، وأما إذا قطع رأسه لم يتكلم . قالوا : وإنما الكلام

باللهوات ، وعلى كلا القولين فلا بد أن تكون آلة الكلام لحما ، وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وليس هذه البنية المخصوصة شرطا في الكلام على الإطلاق لجواز وجوده في الشجر والجماد عند أصحابنا ؛ وإنما هي شرط في كلام الإنسان ، ولذا قال أمير المؤمنين : « احبوا لهذا الإنسان » .

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق ، وإنما هو بالقوة المؤذغة في العصب المفروش في الصمخ كالنشاء ، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل في ثقب الأذن المنتهي إلى الصمخ بعد تعويجات فيه جعلت لتجري مجرى اليراعة المصوتة ، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصب الحامل للقوة السامعة حصل الإدراك . وبالجملة فلا بد من عظم ؛ لأن الحامل اللحم والعصب إنما هو العظم .

وأما التنفس فلا ريب أنه من خرم ؛ لأنه من الأنف ، وإن كان قد يمكن لو سد الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو خرم أيضاً ، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحار عن القلب وإدخال النسيم البارد إليه ، فجعلت الرئة كالروحة تنبسط وتنقبض ، فيدخل الهواء بها ويخرج من قصبتها النافذة إلى المنخرين .

(٩)

الأصل:

إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى قَوْمٍ أَعَارَتْهُمْ مَحَاسِنَ غَيْرِهِمْ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُمْ سَلَبَتْهُمْ
مَحَاسِنَ أَنْفُسِهِمْ .

الشرح :

كان الرشيد أباهم كان حسن الرأي في جعفر بن يحيى ، يحلف بالله أن جعفرأ أفصح من
قُسَّ بن ساعدة ، وأشجع من عامر بن الطفيل ، وأكتب من عبد الحميد بن يحيى ، وأسوس
من عمر بن الخطاب ، وأحسن من مُصعب بن الزبير - وكان جعفر ليس بحسن الصورة ،
وكان طويل الوجه جدا - وأنصح له من الحجاج لعبد الملك ، وأصح من عبد الله بن جعفر ،
وأعف من يوسف بن يعقوب ؛ فلما تغير رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقية التي لا يختلف
اثنان أنها فيه ، نحو كياسته وسماحته . ولم يكن أحد يجسر أن يرد على جعفر قولا ولا رأيا ،
ف يقال : إن أول ما ظهر من تغير الرشيد له أنه كلم الفضل بن الربيع بشيء فردّه عليه
الفضل ، ولم تجر عادته من قبل أن يفتح فاه في وجهه ، فأنكر سليمان بن أبي جعفر
ذلك على الفضل ، فعضب الرشيد لأنكار سليمان ، وقال : ما دخلك بين أخى ومولاى ؟
كالرأى بما كان من الفضل ، ثم تكلم جعفر بشيء قاله للفضل ، فقال الفضل :
اشهد عليه يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر : فض الله فاك يا جاهل ! إذا كان أمير المؤمنين
الشاهد ، فمن الحاكم المشهود عنده ؟ فضحك الرشيد ، وقال : يا فضل ، لا تمار جعفرا ؛ فإنك
لا تقع منه موقعا .

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قاله عليه السلام في العلوم والفضائل والخصائص
النفسانية ، دَعُ حديث الدنيا والسلطان والرياسة ، فإن المحفوظ من علم أو من فضيلة تضاف
إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفن ؛ مثاله حظّ عليّ عليه السلام من الشجاعة ،
ومن الأمثال الحكميّة قلّ أن ترى مثلاً شارداً أو كلمة حكمية إلا وتضيفها الناس إليه ،
وكذلك ما يدعى العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال حتى يقال : إنه حمل على سبعين ألفاً
فهمزهم ، وقتل الجنّ في البئر ، وقتل الطوق الحديد في عُنق خالد بن الوليد . وكذلك حظّ
عنتر بن شداد في الشجاعة ، يُذكر له من الأخبار ما لم يكن ، وكذلك ما اشتهر به
أبو نُوَاس في وصف الخمر ، يضاف إليه من الشعر في هذا الفن ما لم يكن قاله ، وكذلك
جود حاتم وعبدالله بن جعفر ونحو ذلك ؛ وبالعكس من لا حظّ له ينفي عنه ما هو حقيقة له ،
فقد رأينا كثيراً من الشعر الجيد يُنفى عن قائله استحقاقاً له ، لأنه حامل الذكر ، وينسب
إلى غيره ، بل رأينا كتباً مصنفة في فنون من العلوم تحلّ ذكر مصنّفها ونسبت إلى غيرهم
من ذوى النباهة والصيّت ، وكل ذلك منسوب إلى الجَدّ والإقبال .

(١٠)

الأُضْلُ :

خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ .

البُزْجُ :

وقد روى : « خَنُوا » بالخاء المعجمة ، من الحنين ؛ وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء . وإلى تتعلق بمحذوف ، أى حنوا شوقاً إليكم .

وقد ورد فى الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما تقدم .

وفى الخبر المرفوع : « إذا وسعتم الناس ببسط الوجوه ، وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، فكأنما وسعتموهم بالمال » .

وقال أبو الدرداء : إنا لنهشّ فى وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لتقلّهم .

وقال محمد بن الفضل الهاشمي لأبيه : لم تجلسُ إلى فلان وقد عرفتَ عداوته ؟ قال : أخبى ناراً ؛ وأقبح عن ودّ .

وقال المهاجر بن عبد الله :

وإني لأقصى المرء من غير بغضة وأدنى أخا البغضاء متى على عمد

ليحدث ودّاً بعد بغضاء أو أرى له مصرعاً يُردى به الله من يُردى

وقال غقال بن شبة التميمي : كنتُ ردّف أبى ، فلقية جرير بن الحطفي على بَغْلَةٍ ،

فخياه أبي وألفظه ، فلما مضى قلّيت له : أبعَد أن قال لنا ما قال ! قال : يا بنيّ أفأوسّع جرحي !

وقال محمد بن الحنفية عليه السلام : قد يُدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه .

وقال الحسن عليه السلام : حُسْن السؤال نصف العلم ، ومداراة الناس نصف العقل ، والقصد في المعيشة نصف المؤونة .

وهمدح ابن شهاب شاعراً فأعطاه ؛ وقال : إنَّ من ابتغاء الخير اتقاء الشرّ .

وقال الشاعر :

وَأَنْزَلَنِي طَوْلُ النَّوَى دَارَ غَرْبَةٍ مَتَى شئتُ لَاقِيتُ امْرَأً بِلاَ الشَّائِكَةِ
أَخَا ثِقَةٍ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةً وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلَهُ

وفي الحديث المرفوع : « للمسلم على المسلم ستّ : يسلم عليه إذا لقّيه ، ويحييه إذا دغاه ، ويُسَمِّته إذا عطس ، ويعودّه إذا مرض ، ويحبّ له ما يحبّ لنفسه ، ويشيع جنازته إذا مات » .

ووقف صلى الله عليه وآله على عجز ، فجعل يسألها ويتحقّاها ، وقال : « إنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان ، إنَّها كانت تأتينا أيامَ خديجة » .

(١١)

الأضل :

إِذَا قَدَرْتَ عَلَىٰ عَدُوَّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ .

الشَّيْخ :

قد أخذت أنا هذا المعنى ، فقلت في قطعة لي :

إِنَّ الْأَمَانِيَّ أَكْسَابُ الْجَهْلِ فَلَا تَقْنَعُ بِهَا وَارْكَبِ الْأَهْوَالَ وَانْخَطِرَا
وَاجْعَلْ مِنَ الْعَقْلِ جَهْلًا وَاطْرَحْ نَظْرًا فِي الْمَوْبِقَاتِ وَلَا تَسْتَشِعِرِ الْحَذَرَا
وإِنْ قَدَرْتَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مُنْتَصِرًا فَاشْكُرْ بِمَقْوِكَ عَنْ أَعْدَائِكَ الظَّفَرَا
وقد تقدّم لنا كلام طويل في الحِلْمِ والصَّفْحِ والعَفْوِ .

ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك : شَجَرَ بَيْنَ أَبِي مُسْلِمٍ وَبَيْنَ صَاحِبِ مَرَوْ كَلَامٌ
أَرَبِّي فِيهِ صَاحِبُ مَرَوْ عَلَيْهِ ، وَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْقَوْلِ ، فَاحْتَمَلَهُ أَبُو مُسْلِمٍ ، وَنَدِمَ صَاحِبُ مَرَوْ ،
وَقَامَ بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي مُسْلِمٍ مُعْتَذِرًا ، وَكَانَ قَالَ لَهُ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَ : يَا لَقِيْطُ ! فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ :
مَهْ ! لِسَانُ سَبْقٍ ، وَوَهْمُ أَخْطَا ، وَالغَضَبُ شَيْطَانٌ وَأَنَا جَرَّأتُكَ عَلَىِّ بِاحْتِمَالِكَ قَدِيمًا ؛ فَإِنْ
كَفَتَ لِلذَّنْبِ مُعْتَذِرًا ، فَقَدْ شَارَكَكَ فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ مَغْلُوبًا فَالْعَفْوُ يُسَعِّكَ . فَقَالَ
صَاحِبُ مَرَوْ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ عَظَمَ ذَنْبِي يَمْنَعُنِي مِنَ الْمُسَدِّ . فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : يَعْجَبُ !
أَقَابِلَكَ بِإِحْسَانٍ ، وَأَنْتَ مُسِيءٌ ، ثُمَّ أَقَابِلَكَ بِإِسَاءَةٍ وَأَنْتَ حَسَنٌ ! فَقَالَ : الْآنَ
وَتَقْتَ بِمَقْوِكَ .

وأذنب بعضُ كتاب المأمون ذنبًا ، وتقدّم إليه ليحتجّ لنفسه ، فقال : يا هذا ، قِفْ

مَكَانَكَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عُذْرٌ أَوْ يَمِينٌ ، فَقَدْ وَهَبْتَهُمَا لَكَ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ مِنْكَ ذَلِكَ ، فَلَا تَزَالُ تَسِيءُ
وَنَحْسَنُ ، وَتَذْنِبُ وَتَغْفِرُ ؛ حَتَّى يَكُونَ الْعَفْوُ هُوَ الَّذِي يَصْلُحُكَ !
وَكَانَ يُقَالُ : أَحْسَنُ أَعْمَالِ الْقَادِرِ الْعَفْوُ ، وَأَقْبَحُهَا الْإِنْتِقَامُ .
وَكَانَ يُقَالُ : ظَفَرَ الْكَرِيمِ عَفْوٌ ؛ وَعَفْوٌ ^(١) اللَّثِيمِ عَقُوبَةٌ .
وَكَانَ يُقَالُ : رَبُّ ذَنْبٍ مَقْدَارُ الْعَقُوبَةِ عَلَيْهِ إِعْلَامُ الْمَذْنِبِ بِهِ ، وَلَا يَجَاوِزُ بِهِ حَدَّ الْإِرْتِفَاعِ
إِلَى الْإِيقَاعِ .

وَكَانَ يُقَالُ : مَا عَفَا عَنِ الذَّنْبِ مِنْ قُرْعٍ بِهِ .
وَمِنْ الْحِلْمِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ كِبَرًا مُسْتَحْسِنًا ؛ مَارَوْى أَنْ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ لَمَّا وَلِيَ الْعِرَاقَ
عَرَضَ النَّاسَ لِيُدْفَعَ إِلَيْهِمْ أَرْزَاقُهُمْ ، فَنَادَى مُنَادِيهِ : أَيْنَ عَمْرُو بْنُ جُرْمُوزٍ ؟ فَقِيلَ لَهُ :
أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ إِنَّهُ أَبْعَدُ فِي الْأَرْضِ ؛ قَالَ : أَوْ ظَنَّ الْأَحَقُّ أَنِّي أَقْتَلُهُ بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ ! قَوْلُوا لَهُ :
فَلْيُظْهِرْ آمَنًا ، وَلْيَأْخُذْ عَطَاءَهُ مُسَلِّمًا .
وَأَكْثَرُ رَجُلٍ مِنْ سَبِّ الْأَحْنَفِ وَهُوَ لَا يَجِيبُهُ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : وَيْلَى عَلَيْهِ ! وَاللَّهِ
مَا مَنَعَهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي عِنْدَهُ !
وَقَالَ لَقِيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ :

فَقُلْ لِبَنِي سَعْدٍ وَمَالِي وَمَالِكُمْ تَرِيقُونَ مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَعْتَقُ
أَغْرَكُمُ أَنِّي بِأَحْسَنِ شِمَةِ بَصِيرٌ وَأَنْتِ بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ !
وَأَنْتَ قَدْ سَابَبْتَنِي فَقَهَرْتَنِي هَنِيئًا مَرِيئًا أَنْتَ بِالْفَحْشِ أَحْدَقُ

وَقَالَ الْمُأْمُونُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِيِّ لَمَّا ظَفَرَ بِهِ : إِنِّي قَدْ شَاوَرْتُ فِي أَمْرِكَ ؛ فَأَشِيرْ عَلَيَّ
بِقَتْلِكَ ؛ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ قَدْرَكَ فَوْقَ ذَنْبِكَ ؛ فَكَرِهْتُ قَتْلَكَ لِلْإِزْمِ حَرَمَتِكَ . فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ الْمَشِيرَ أَشَارَ بِمَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ ، وَتَوْجِيهِ الْعَادَةُ ؛ إِلَّا أَنَّكَ أَيْتَ أَنْ

(١) مِنْ د : « وَظَفَرَ » .

تطلب النصر إلا من حيث عودته من العفو ؛ فإن قتلت فلك نظراء ؛ وإن عفوت فلا نظير لك . قال : قد عفوت ، فأذهب آمناً .

ضلّ الأعشى في طريقه ، فأصبح بأبيات علقمة بن علاثة ، فقال قائده ، وقد نظر إلى قباب الأدم : واسوء صباحاً يا أبا بصير ! هذه والله أبيات علقمة ؛ فخرج فتیان الحى ، فقبضوا على الأعشى ، فأتوا به علقمة ، فثقل بين يديه ، فقال : الحمد لله الذى أظفرنى بك من غير دمة ولا عقد ؛ قال الأعشى : أو تدرى لم ذلك جعلت فداك ! قال : نعم ، لأنهم اليوم منك بتقوالك على الباطل مع إحسانى إليك ؛ قال : لا والله ، ولكن أظفرك الله بى ليلو قدر حلمك فى . فأطرق علقمة ، فاندفع الأعشى فقال :

أَعْلَقَمَ قَدْ صَيَّرَتْنِ الْأُمُورُ إِلَيْكَ وَمَا كَانَ بِي مَنَكْصُ^(١)
كَسَاكَمُ عُلَاثَةُ أَثْوَابَهُ وَوَرَّكُمُ حِلْمُهُ الْأَحْوصُ
فَهَبْ لِي نَفْسِي فَدَتِكَ النَّفُوسُ فَلَا زِلْتَ تَنَعَى وَلَا تَنْقُصُ

فقال : قد فعلت ؛ أما والله لو قلت فى بعض ما قلته فى عامر بن عمر ، لأغنيك طول حياتك ، ولو قلت فى عامر بعض ما قلته فى ما أذاقك برّ الدّياة .

قال معاوية بن خالد بن معمر السّدوسى : على ماذا أحببت علياً ؟ قال : على ثلاث : حلمه إذا غضب ، وصدقه إذا قال ، ووفاءه إذا وعد .

(١٢)

الأصل :

أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ
ظَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ .

الشرح :

قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيات فيما تقدم . وفي الحديث المرفوع أن النبي
صلى الله عليه وآله بكى لما قُتِلَ جعفر بمؤتة ، وقال : « المرء كثير بأخيه » .
وقال جعفر بن محمد عليه السلام : لكل شيء حلية وحلية الرجل أوداؤه .
وأنشد ابن الأعرابي :

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرة ولكن إخوان الصفاء الذخائرُ

وكان أبو أيوب السخيتاني^(١) يقول : إذا بلغني موت أخ كان لي ؛ فكأنما سقط
عضو مني .

وكان يقال : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة كالدواء
يحتاج إليه عند المرض ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدا .

وكان يقال : صاحبك كرقعة في قيصك ، فانظر بما ترقع قيصك !

(١) ب : « السجستاني » ، والصواب ما أثبتته من أ .

وكان يونس بن عبيد يقول : اثنان ما في الأرض أقلّ منهما ، ولا يزُدادان إلا قلة :
درهم يوضع في حقّ ، وأخ يُسكّن إليه في الله .

وقال الشاعر :

أخاك أخاك إنّ من لا أخا له كساعٍ إلى الهيجاء بغير سلاحِ
وإنّ ابن عمّ الرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح ؟

وقال آخر :

ولن تنفك تُحسد أو تُعادى فأكثر ما استطعت من الصديقِ
وبفضك^(١) للثقيّ أقلّ ضرّاً وأسلم من مودة ذى الفسوق^(٢)
وأوصى بعضهم ابنه ، فقال : يا بنيّ ، إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرّجال فاصحب مَنْ
إذا صحبتهم زانك ، وإذا خدمته صانك ، وإذا عرضت لك مُؤنة أعانك ؛ وإن قلت صدق
قولك ، وإن صُلّت شدّ صولك ؛ وإن مددت يدك لأمر مدّها ، وإن بدت لك^(٣) عورة
سدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن سألتّه أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت
بك ملّة واساك ؛ من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختار^(٤) عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك
عند الحقائق .

ومن الشعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام :

إنّ أخاك الحقّ من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدّعتك شئت فيك شمله ليجمعك

(١) في د « وبفضاء الثقي » وهو وجه أيضاً . (٢) ١ : « عنك » .

(٣) في د « ولا تختلف » .

ومن الشعر المنسوب إليه عليه السلام أيضاً :

أخوك الذى إن أجزتكَ ملةٌ من الدهر لم يبرح لها الدهرَ واجباً
وليس أخوك بالذى إن تشعبتْ عليك أمورٌ ظلَّ يلحاك لائماً

وقال بعض الحكماء : ينبغي للإنسان أن يوكّل بنفسه كالثّنين : أحدهما يكلّؤه من أمامه ،
والآخر يكلّؤه من ورائه ؛ وهما عقله الصحيح ، وأخوه النصيح ؛ فإنّ عقله وإن صحّ فلن
يبصّره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه فى المرأة ، ويخفى عليه ما خلفه ، وأما
أخوه النصيح فيبصّره ما خلفه وما أمامه أيضاً

وكتب ظريف إلى صديق له : إني غير محمود على الاتقياد إليك ، لأننى صادقتك من
جوهر نفسى ، والنفس يتبع بعضها بعضاً .

وفى الحديث المرفوع : « إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعمله » .

وقال الأحنف : خير الإخوان من إذا استغنيت عنه لم يزدك ودّاً ، وإن احتجت إليه
لم ينقصك .

وقال أعشى باهلة يرثى المنتشر بن وهب :

إماسكت سيلاً كنت سالكها فاذهب فلا يُبعدنك الله منتشر^(١)
من ليس فى خيره شرٌّ ينكده على الصديق ولا فى صفوه كدرٌ
وقال آخر يرثى صديقاً له :

أخ طالماً سرّيتي ذكره وأصبحت أشجى لدى ذكره
وقد كنت أغدو إلى قصره فأصبحت أغدو إلى قبره
وكنت أراى غنياً به عن الناس لو مدّ فى عمره
إذا جئته طالباً حاجة فأمري يجوز على أمره

رأى بعض الحكماء مصطحبين لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : صديقان ، قال : فما
بال أحدهما غنياً والآخر فقيراً !

(١٣)

الأُضْلُ :

وقال عليه السلام في الذين اعتزلوا القتال معه :

خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ .

الشَّيْخُ :

قد سبق ذكر هؤلاء فيما تقدّم ، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ، وأنس بن مالك ؛ وجماعة غيرهم .

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين في ” الفرر “ ، أن أمير المؤمنين عليه السلام لما دعاهم إلى القتال معه ، واعتذروا بما اعتذروا به ، قال لهم : أتُنكرون هذه البيعة ؟ قالوا : لا ، لكنّا لا نقاتل ؛ فقال : إذا بايعتم فقد قاتلتم ؛ قال : فسلموا بذلك من الذّم ؛ لأن إمامهم رضى عنهم .

ومعنى قوله : « خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل » ، أى خذلوني ولم يحاربوا معي معاوية ؛ وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف في هؤلاء ، وإلى هذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافي .

(١٤)

الأَصْلُ :

إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ الدَّعَمِ فَلَا تُنْفِرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ .

الشَّيْخُ :

قد سبق القول في الشكر ، ونحن نذكرها هنا زيادة على ذلك .
قال بعضهم : ما شيبتني السنون ، بل شكرى من احتاج أن أشكره .
وقالوا : العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة النى .
وقالوا : من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره .
ومن جيد ما قيل في الشكر قول أبي نواس :

قد قلتُ للعباس معتذرا من ضعف شكره ومعتزفاً^(١)
أنت امرؤ سملتني نعماً^(٢) أو هت قوى شكرى فقد ضمنا
فإليك منى اليوم معذرة^(٣) جاءتك بالتصريح منكسفا
لا تسدين إلى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال البحتري :

فإن أنا لم أشكر لنعمك جاهداً فلانلتُ نعمى بمدها توجب الشكراً^(٤)

(١) ديوانه ٧١ . (٢) الديوان . « جللتني » .

(٣) الديوان : « قبل اليوم مقدمة » .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٦ .

وقال أيضاً :

سأجهدُ في شكرِى لِنِعْمِكَ إِنِّنى أرى الكُفْرَ للنِّعماءِ ضرباً من الكُفْرِ

وقال ابن أبي طاهر :

شكرتُ عليّاً ربّه وبلاءه وما أنا من شكرى عليّاً بواحدٍ
فقصّرَ بي سُكْرى وإنى لجاهدٌ ولكنّه فى الفضلِ والجودِ واحدٌ

وقال أبو الفتح البستي :

لا تظنّ بي وبرُّكَ حَيٌّ أنا أرضٌ وراحَتُكَ سَحَابٌ
أنّ شكرى وشكرَ غَيْرِى مَوَاتٌ والأيدى وبُلٌّ وشكرى نَبَاتٌ

وقال أيضاً :

وخرّ لما أوليتُ شكرى ساجداً ومثلُ الذى أوليتَ يعبدُهُ الشكرُ

البحترى :

أراك بعين المكنتى ورق الغنى ويمجبنى فقرى إليك ولم يكنْ
بألائك اللّاقى يمدّدها الشُّكرُ ليمجبنى لولا محبَّتُكَ الفقرُ

آخر :

بدأتُ بمعروفٍ وثّبتتُ بالرضا وبأشريتُ أمرى واعتنيتُ بحاجتى
وصدقتُ لى ظنى، وأنجزتُ موعدى فإن نحن كافأنا بشكر فواجبٌ
وثلثتُ بالحسنى وربّعتُ بالكرمِ وأخّرتُ «لا» عَنّى وقدّمتُ لى «نعم»
وطبّبتُ به نفساً ولم تتبع النَّدَمُ وإن نحنُ قصّرنا فما الودّ متهمٌ

(١٥)

الأفضل :

مَنْ ضِيَعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ .

الشَّخْرُ :

إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَنْصُرُهُ مَنْ لَا يَرْجُو نَصْرَهُ وَإِنْ أَهْمَلَهُ أَقْرَبُوهُ وَخَذَلُوهُ ، فَقَدْ تَقُومُ بِهِ الْأَجَانِبُ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ وَجَدْنَا ذَلِكَ فِي حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ضِيَعَهُ أَهْلُهُ وَرَهْطُهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَذَلُوهُ ، وَتَمَالَّثُوا عَلَيْهِ ، فَقَامَ بِنَصْرِهِ الْأَوْسُ وَالْخُزَرَجُ ، وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ نَسَبًا مِنْهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ عَدْنَانَ وَهُمْ مِنْ قُحْطَانَ ، وَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لَا يَحِبُّ الْآخَرَ حَتَّى تَحِبَّ الْأَرْضُ الدَّمَّ . وَقَامَتْ رِبِيعَةٌ بِنَصْرِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفِّينَ ، وَهُمْ أَعْدَاءُ مُضَرٍّ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ وَرَهْطُهُ ، وَقَامَتْ الْيَمِينُ بِنَصْرِ مُعَاوِيَةَ فِي صِفِّينَ ، وَهُمْ أَعْدَاءُ مُضَرٍّ ، وَقَامَتْ الْخُرَاسَانِيَّةُ وَهُمْ عَجَمٌ بِنَصْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَهِيَ دَوْلَةُ الْعَرَبِ . وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السَّيْرَ وَجَدْتَ هَذَا كَثِيرًا شَائِعًا .

(١٦)

الأصل :

مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ .

الشرح :

هذه الكلمة قالها علي عليه السلام لسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعبد الله
ابن عمر لما امتنعوا من الخروج معه لحرب أصحاب الجمل ، ونظيرها أو قريب منها
قول أبي الطيب :

فَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ وَلَا كُلُّ قَوَّالٍ لَدَى يُجَابُ^(١)
وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَفْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ

(١) لم أجدهما في ديوانه .

(١٧)

الأفضل :

تَنَزَّلُ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ ، حَتَّى يَكُونَ الْخُفُّ فِي التَّدْبِيرِ .

الْبُنْجُ :

إِذَا تَأَمَّاتِ أَحْوَالُ الْعَالَمِ وَجَدْتَ صِدْقَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ظَاهِرًا ، وَلَوْ شِئْنَا أَنْ نَذْكُرَ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ لِلَّهِ كَرَّمْنَا مَا يَحْتَاجُ فِي تَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابَةِ إِلَى مِثْلِ حَجْمِ كِتَابِنَا هَذَا ، وَلَكِنَّا نَذْكُرُ لِحَا وَنُكْتَا وَأَطْرَافًا وَدُرَرًا مِنَ الْقَوْلِ .

فَرَسَ مِرْوَانَ بْنُ مُحَمَّدٍ - وَقَدْ لَقِيَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَلِيٍّ - أَنْطَاعًا وَبَسَطَ عَلَيْهَا الْمَالَ ، وَقَالَ : مَنْ جَاءَنِي بِرَأْسٍ فَلَهُ مِائَةُ دَرَاهِمٍ ، فَمَجَزَتِ الْحَفَظَةُ وَالْحُرَّاسُ عَنْ حِمَايَتِهِ ، وَأَشْتَغَلَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْجُنْدِ بَنَهِبِهِ ، وَتَهَافَتَ الْجَيْشُ عَلَيْهِ لِيَنْتَهَبُوهُ ، فَغَشِيَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بِعَسَاكِرِهِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَا لَا يُحْصَى ، وَهَزِمَ الْبَاقُونَ .

وَكَسَّرَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ جَيْشَ أَبِي جَعْفَرٍ الْمُتَصَوِّرِ بِبَاخْمَرَى وَأَصْرَ أَصْحَابِهِ بِاتِّبَاعِهِمْ ، فَخَالَ نِيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَصْحَابِ أَبِي جَعْفَرٍ مَاءَ ضَحَضَاحٍ ، فَكَرِهَ إِبْرَاهِيمُ وَجَيْشُهُ خَوْضَ ذَلِكَ الْمَاءِ ، وَكَانَ وَاسِعًا ، فَأَمَرَ صَاحِبَ لَوَائِهِ أَنْ يَتَعَرَّجَ بِاللَّوَاءِ عَلَى مَسْنَةِ^(١) كَانَتْ عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ يَابِسَةً ، فَسَلَكَهَا صَاحِبُ اللَّوَاءِ وَهِيَ تَفْقِضُ بِانْعِرَاجٍ وَأُنْعَكَاسٍ إِلَى الْأَرْضِ الْيَبِسِ ، فَلَمَّا رَأَى عَسْكَرُ أَبِي جَعْفَرٍ أَنَّ لَوَاءَ الْقَوْمِ قَدْ تَرَاجَعَ

(١) المسناة : ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء .

الْعَهْقَرَى ظَنُّوْهُم مِّنْهُمْ مِّمَّنْ ، فَعَطَّقُوا عَلَيْهِمْ ، قَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَجَاءَ سَهْمٌ غَرْبٌ^(١) فَأَصَابَ إِبْرَاهِيمَ فَقَتَلَهُ .

وقد دبرت من قبل قريش في حاية العير بأن تفرّت على الصّعب والدّلّول لتدفع رسول الله صلى الله عليه وآله عن اللّطيمة^(٢) ، فكان هلاكها في تدبيرها .

وكسرت الأنصار يوم أحد بأن أخرجت النّبيّ صلى الله عليه وآله عن المدينة ظلماً منها أن الظفر والنّصرّة كانت بذلك ، وكان سبب عطبها وظفر قريش بها ، ولو أقامت بين جدران المدينة لم تظفر قريش منها بشيء .

ودبر أبو مسلم الدّولة الهاشميّة ، وقام بها حتّى كان حتفه في تدبيره .

وكذلك جرى لأبي عبد الله المحتسب مع عبد الله المهديّ بالمغرب .

ودبر أبو القاسم بن المسلمة رئيسُ الرّؤساء في إخراج البساسيريّ عن العراق حتّى كان هلاكه على يده ، وكذلك أيضاً انعكس عليه تدبيره في إزالة الدّولة البويهيّة من الدّولة السلجوقيّة ظلماً منه أنّه يدفع الشرّ ، بغير الشرّ فدفع الشرّ بما هو شرٌّ منه .
وأمثالُ هذا ونظائرُه أكثرُ من أن تُحصى .

(١) سهم غرب : لا يدري راميّه .

(٢) اللطيمة : فافلة تحمل العطور .

(١٨)

الأنزل :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : غَيْرُوا الشَّيْبَ ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَلِكَ وَالَّذِينَ قُلْتُ ، فَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ ، وَضَرَبَ بِحِجْرَانِهِ ، فَاْمُرُوْا مَا اخْتَارَ .

الشَّيْبُ :

اليهودُ لا تَخْضِبُ ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أمرُ أصحابه بالخِضَابِ لِيَكُونُوا فِي مَرَأَى الْعَيْنِ شَبَابًا فَيَجْبِنَ الْمُشْرِكُونَ عَنْهُمْ حَالِ الْحَرْبِ ، فَإِنَّ الشَّيْبَ مَظَنَّةُ الضَّعْفِ .

قال عليُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « كَانَ ذَلِكَ وَالْإِسْلَامُ قُلٌّ » ، أَيْ قَلِيلٌ ؛ وَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بِحِجْرَانِهِ فَقَدْ نَسَقَطَ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَصَارَ الْخِضَابُ مُبَاحًا غَيْرَ مَنْدُوبٍ .

وَالنِّطَاقُ : ثَوْبٌ تَلْبَسُهُ الْمَرْأَةُ لِبَسَةً مَخْصُوصَةً لَيْسَ بِصُدْرَةٍ وَلَا سُرْوَالٍ ، وَتُسَمَّى أَسْمَاءُ بَنَتْ أَبِي بَكْرٍ ذَاتِ النَّطَاقَيْنِ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ مِنْ ثَوْبِهَا ذَلِكَ قِطْعَةً شَدَّتْ بِهَا سَفْرَةَ لَهَا حَمَلِهَا أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ حِينَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَ الْهِجْرَةِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « لَقَدْ أَبْدَلَهَا اللَّهُ بِهَا نِطَاقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » ، وَكَانَ تَقَرُّ الشَّامُ يُنَادُونَ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَهَا حِينَ حَصَرَ الْحِجَّاجَ بِمَكَّةَ يَشْتُمُونَهُ كَمَا زَعَمُوا : يَا بْنَ ذَاتِ النَّطَاقَيْنِ ، فَيَضْحَكُ عَبْدُ اللَّهِ مِنْهُمْ ، وَقَالَ لابْنُ أَبِي عَتِيقٍ : أَلَا تَسْمَعُ ! يَظْلُونَهُ ذِمًّا ثُمَّ يَقُولُ :

* وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها (١) *

واستعمارُ أميرِ المؤمنين عليه السلام هذه اللفظة لسمة رُقمة الإسلام ، وكذلك استعمار قوله : « وضربَ بجِرانه » ، أى أقام وثبت ، وذلك لأن البعير إذا ضَرَبَ بجِرانه الأرض - وجِرانه مُقدَّم عنقه - فقد استناخ وبرك .
وامرؤ مبتدأ وإن كان نكرةً ، كقولهم : « شرُّ أهرَّ ذاناب » ، لخصول الفائدة ، والواو بمعنى « مع » ، وهى وما بعدها الخبر ، وما مصدرية ، أى امرؤ مع اختياره .

[نبذ مما قيل فى الشيب والخضاب]

فأما القول فى الخُضاب فقد روى قومٌ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بدا شيبٌ يسيرٌ فى لحيته ، فغَيَّرَهُ بِالْخُضَابِ ، خَضَبَ بِالْحَنَاءِ وَالْكَتَمِ ، وقال قومٌ : لم يَشِبْ أصلاً .
وروى أنَّ عائشة قالت : ما كان الله لَيَسِّينَهُ بالشيب ، فقيل : أَوْشَيْنٌ هو يا أمَّ المؤمنين !
قالت : كلِّم يكرهه . وأما أبو بكر فصَحَّ الخبر عنه بذلك ، وكذلك أمير المؤمنين ، وقيل : إنه لم يَخْضَبْ . وقُتِلَ الحسينُ عليه السلام يومَ الطَّفِّ وهو مَخْضُوبٌ . وفى الحديث المرفوع رواه عقبه بنُ عامر : « عليكم بِالْحَنَاءِ ، فإنه خِضَابُ الإسلام ، إنه يَصْفِي البَصَرَ وَيَذْهَبُ البُصْدَاعَ ، وَيَزِيدُ فى البَهاءِ ، وَإِيَّاكُمْ والسَّوَادَ ، فإنه من سَوَدَ ، سَوَّدَ الله وجهه يومَ القيامة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « عليكم بِالْخُضَابِ ، فإنه أَهْيَبُ لعدوِّكم وأعَجَبُ إلى نَسَائِكُمْ » .

(١) لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا *

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٢١ .

ويقال في أبواب الكناية للمختضب ، هو يسود وجهه النذير ، لأن النذير الشيب ؛ قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ ^(١) : إنه الشيب .

وكان عبد الرحمن بن الأسود أبيض الرأس واللحية ، فأصبح ذات يوم وقد حمرها ؛ وقال : إن عائشة أرسلت إليّ البارحة جاريها فأقسمت عليّ لأغيرن ، وقالت : إن أبا بكر كان يصبغ .

وروى قيس بن أبي حازم قال : كان أبو بكر يخرج إلينا وكان لحيته ضرام عرّفع .

وعن أبي عامر الأنصاري : رأيت أبا بكر يغير بالحناء والكتّم ، ورأيت عمر لا يغير شيئاً من شيبه ، وقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة » ، ولا أحب أن أغير نوري .

وكان أنس بن مالك يحنّض ويُنشد :

نُسودُ أعلاها وتأتى أصولها وليس إلى ردّ الشباب سبيلُ

وروى أن عبد المطلب وفد على سيف بن ذي يزن ، فقال له : لو خضبت ! فلما عاد إلى مكة خضب ، فقالت له امرأته نثيلة أمّ العباس وضرار : ما أحسن هذا الخضاب لو دام ! فقال :

فلو دام لي هذا الخضابُ حَمِدْتُهُ وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرمَ
تمتعتُ منه والحياةُ قصيرةٌ ولا بد من موتٍ - نثيلةٌ - أو هنَمَ
وموتٍ جهيزٍ عاجلٍ لا شوى له أحبُّ إلينا من مقالِكُم حَكَمُ

قال : يعني أنه صار شيخاً ، فصار حكماً بين الناس ، من قوله :

لا تَغْطِ المرءُ أن يقال له . أضحى فلانٌ لسنّه حكماً

وقال أسماء بنُ خارجةَ لجاريته : اخْضِبِي ، فقالت حتى متى أرقمُكِ ! فقال :
عَيَّرْتَنِي خَلَقًا أَبْلَيْتُ جِدَّتَهُ وَهَلْ رَأَيْتِ جَدِيدًا لَمْ يَعُدْ خَلَقًا!
وأما من يَروى أَنَّ عليًّا عليه السلام ما خَضَبَ ، فيحتجُّ بقوله ، وقد قيل له : لو غَيَّرْتَ
شَيْبَكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فقال : الْخَضَابُ زِينَةٌ ، وَنَحْنُ فِي مَصِيبَةٍ — يَعْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

وَسُئِلَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْخَضَابِ ، فَقَالَ : هُوَ جَزَعٌ قَبِيحٌ . وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ :
يَا خَاضِبَ الشَّيْبِ الَّذِي فِي كُلِّ ثَالِثَةٍ يَعُودُ
إِنَّ الْخَضَابَ إِذَا مَضَى فَكَأَنَّهُ شَيْبٌ جَدِيدٌ
فَدَعِ الْمَشِيبَ وَمَا يُرِيدُ فَلَنْ تَعُودَ كَمَا تُرِيدُ
وَقَدْ رَوَى قَوْمٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَرَاهِيَةَ الْخَضَابِ ، وَأَنَّهُ قَالَ : لَوْ اسْتَقْبَلْتُمْ
الشَّيْبَ بِالتَّوَاضُعِ لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ .
قال الشاعر :

وَصَبَغْتُ مَا صَبَغَ الزَّمَانُ فَلَمْ يَدُمْ صَبْنِي وَدَامَتْ صِبْغَةُ الْأَيَّامِ
وقال آخر :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَغِيرُ شَيْبَهُ كَيْمَا تُعَدُّ بِهِ مِنَ الشَّبَّانِ
أَقْصِرْ فَلَوْ سَوَّدَتْ كُلَّ حَمَامَةٍ بِيضَاءَ مَا عُذَّتْ مِنَ الْغُرَبَانِ
ويقولون في ديوان عَرُضِ الْجَيْشِ بِبَغْدَادَ لَمَنْ يَخْضِبُ إِذَا نَذَرَ كُرُوحَ حِلْيَتِهِ : مُسْتَعَارٌ ،
وهي كنايةٌ لطيفةٌ . وَأَنَا أَسْتَحْسِنُ قَوْلَ الْبُحْتَرِيِّ : خَضَبْتُ بِالْقِرَاضِ : كُنَايَةٌ عَنْ قَصِّ
الشَّعْرِ الْأَبْيَضِ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ خِضَابَهُ عِرْضًا عَنِ الصَّبْغِ ، وَالْأَيَّاتُ هَذِهِ :
لَا بَسَّ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ نَاضٍ وَمَلِيحٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ رَاضٍ ^(١)

(١) ديوانه ٢ : ٧٢ ، من قصيد يمدح فيها ابن الفياض .

وإذا ما امتعضتُ من وَلَعِ الشَّيِّ ب برأسى لم يَثْنِ ذاكَ امْتِعاظِي
 ليس يَرْضَى عن الزَّمانِ امرؤُ فيهِ ه إِلَّا عن غَفْلَةٍ أو تَقاضِي
 والبَواقي مِنَ اللَّيالي وإنْ خا لَفَنَ شَيْئًا شَبِيهَةً بِالْمَوَاضِي^(١)
 وأَبَتْ تَرْكِى الغُدَيَّاتِ والآ صالٍ حَتَّى خَضِبْتُ بِالْمِقْرَاضِ
 ودواهٍ المَشِيبِ كالبَخِصِ في عَيْنِي فقل فيهِ في الميُونِ المِراضِ
 طال حُزْنِي على الشَّبابِ وما بَيَّضَ مِنْ لَوْنٍ صَبْغُهُ الفَضْفَاضِ
 فهل الحادِثاتُ يابْنَ عُويْفٍ تاركاتِي ولُبْسَ هذا البَيَاضِ !

(١) الديوان : « فشيهاة » .

(١٩)

الأضل

مَنْ جَرَى فِي عَفَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ .

الشنخ

قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ في الأمل ، ونذكرها هنا زيادةً على ذلك :
قال الحسن عليه السلام : لو رأيت الأجلَ ومسيره ، لنسيت الأملَ وغروره ،
وَيُقَدِّرُ الْمُقَدَّرُونَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ .

وروى أبو سعيد الخدري أن أسامة بن زيد اشترى وليدةً بمائة دينار إلى شهر ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ يَشْتَرِي إِلَى شَهْرٍ ! إِنَّ أُسَامَةَ
لَطَوِيلُ الْأَمَلِ » .

أبو عثمان النهدي : قد بلغتُ نحواً من ثلاثين ومائة سنةٍ فما من شيءٍ إلا
قد عرفتُ فيه النقصَ إلا أُملي ، فإنه كما كان .

قال الشاعر :

أَرَاكَ تَزِيدُكَ الْإِيَّامُ حِرْصًا عَلَى الدَّيَا كَأَنَّكَ لَا تَمُوتُ
فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صَرْتَ يَوْمًا إِلَيْهَا قُلْتُ حَسْبِي قَدْ رَضِيتُ !

وقال آخر :

مَنْ تَمَنَّى الْمُنَى فَاعْرِقَ فِيهَا مَاتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنَالَ مُنَاهُ
لَيْسَ فِي مَالٍ مَنْ يَتَّبَعِ فِي اللَّذَاتِ فَضْلٌ عَنْ نَفْسِهِ لِسِوَاهُ

(٣٠)

الأفضل :

أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتَهُنَّ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُنَّ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللَّهِ
يَرْفَعُهُ .

الشيخ :

[نبذ مما قيل في المروءة]

قد رُوِيََتْ هذه الكلمة مرفوعة ، ذكر ذلك ابنُ قُتَيْبَةَ في ” عيون الأخبار “
وأحسن ما قيل في المُرُوءَةِ قولُهُم : اللَّذَّةُ تَرْكُ المُرُوءَةِ ، والمُرُوءَةُ تَرْكُ اللَّذَّةِ .

وفي الحديث أن رجلاً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسول الله ،
أأستُ أفضلَ قومي ! فقال : إن كان لك عقلٌ فلك فضلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك مُرُوءَةٌ ،
وإن كان لك مالٌ فلك حَسَبٌ ، وإن كان لك تَقَى فلك دينٌ .

وسئل الحسن عن المروءة فقال : جاء في الحديث المرفوع : « إنَّ اللهَ تعالى يحبُّ معاليَ
الأمورِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » .

وكان يقال : من مُرُوءَةِ الرجلِ جُلُوسُهُ بِيَابِ دَارِهِ .

وقال الحسن : لا دينَ إِلَّا بِمُرُوءَةٍ .

وقيل لأبن هُبيرة : ما المُرُوءة ؟ فقال : إصلاحُ المال ، والرَّزَاقَةُ في المجلس ، والغَدَاءُ والعِشاءُ بالفِئاء .

وجاء أيضا في الحديث الرفوع : « حَسَبَ الرَّجُلُ مَالُهُ ، وَكَرَمُهُ دِينُهُ ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ » . وكان يقال : ليس من المُرُوءة كثرةُ الألتفات في الطريق .

ويقال : سُرعةُ المَشْيِ تذهبُ بِمُرُوءَةِ الرَّجُلِ .

وقال معاوية لعمر : ما أَلَدَ الأشياء ؟ قال : مَرُّ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ أَنْ يَقُومُوا ؛ فَلَمَّا قَامُوا قال : إسقاطُ المُرُوءَةِ .

وكان عُرُوءَةُ بَنِي الزَّيْزِرِ يقول لبنيهِ : يَا بَنِيَّ اَلْعَبُوا ، فَإِنَّ المُرُوءَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ اللَّيْلِ . وقيل للأحنف : ما المُرُوءَةُ ؟ قال : العِفَّةُ وَالْحِرْفَةُ ، تَعَفٌّ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَتَحْتَرِفُ فِيهَا أَحَلَّ اللَّهُ .

وقال محمد بن عمران التيمي : لا أشدَّ من المُرُوءَةِ ، وَهِيَ أَلَّا تَعْمَلَ فِي السِّرِّ شَيْئًا تَسْتَحْيِي مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ . وسئل النظام عن المُرُوءَةِ ، فَأَنْشَدَ بَيْتَ زُهَيْرٍ :

الِسْتِرْدُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرٍ^(١)

وقال عمر : تعلموا العربيَّةَ فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي المُرُوءَةِ ، وَتَعَلَّمُوا النَّسَبَ قُرْبُ رَحِمٍ مَجْهُولَةٍ قَدْ وُصِلَتْ بِهِ .

وقال ميمونُ بْنُ مِهْرَانَ : أَوَّلُ المُرُوءَةِ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ ، وَالثَّانِي التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ ، وَالثَّالِثُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ .

وقال مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : مُرُوءَتَانِ ظَاهِرَتَانِ : الرِّيَاشُ وَالْفَصَاحَةُ .

وكان يقال : تُعْرَفُ مُرُوءَةُ الرَّجُلِ بِكَثْرَةِ دُيُونِهِ .

وكان يقال : العقلُ يَأْمُرُكَ بِالْأَنْفَعِ ، وَالمُرُوءَةُ تَأْمُرُكَ بِالْأَجْمَلِ .

(١) ديوانه ٩٥ .

لَا مَ مَعَاوِيَةَ يُزِيدَ ابْنَهُ عَلَى سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَحُبِّ الْقِيَانِ ، وَقَالَ لَهُ : أَسَقَطْتَ مَرُوءَتَكَ ،
فَقَالَ يُزِيدُ : أَتَكَلِّمُ بِلِسَانِي كَلِمَةً ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَبِلِسَانِ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَهَنْدِ
بِنْتِ عُثْبَةَ مَعَ لِسَانِكَ ، قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - وَاسْتَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ ابْنَهُ
عَبْدَ اللَّهِ بِصَدَقِهِ - أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ كَانَ يَخْلَعُ عَلَى الْمَغْنَى الْفَاضِلِ وَالْمُضَاعَفِ مِنْ ثِيَابِهِ ،
وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَنَّ جَارِيَتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ غَنَّتَاهُ يَوْمًا فَأَطْرَبَتْهُ ، فَجَعَلَ يَخْلَعُ عَلَيْهِمَا
أَثْوَابَهُ ثَوْبًا ثَوْبًا حَتَّى تَجَرَّدَ تَجَرَّدَ الْعَيْرِ ، وَلَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَقَّانُ ابْنُ أَبِي الْعَاصِ رُبَّمَا سَحَلَا
جَارِيَةَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ عَلَى أَعْنَاقِهِمَا ، فَرَّابَهَا عَلَى الْأَبْطَحِ وَجِلَّةَ قَرِيشٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمَا ؛
مَرَّةً عَلَى ظَهْرِ أَبِيكَ ، وَمَرَّةً عَلَى ظَهْرِ عَقَّانِ ، فَمَا الَّذِي تَنْكُرُ مِنِّي ! فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : اسْكُتْ
لِحَاكِ اللَّهِ ! وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَلْحَقَ بِأَبِيكَ هَذَا إِلَّا لِيُغْرِكَ وَيَفْضَحَكَ ، وَإِنْ كَانَ أَبُو سَفْيَانَ
مَا عَلِمْتَ لِثَقِيلُ الْحِلْمِ ، يَقْظَانُ الرَّأْيَ ، عَازِبُ الْهَوَى ، طَوِيلُ الْأَنَاءِ ، بَعِيدُ الْقَعْرِ ،
وَمَا سَوْدَتُهُ قَرِيشٌ إِلَّا لِفَضْلِهِ .

(٢١)

الأضل :

قُرِنتَ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ،
فَانْتَهَزُوا فُرْصَ الْخَيْرِ .

الشرح :

في المثل : مَنْ أَوَّاهُ لَمْ يَنْدَمْ ، وقال الشاعر :

ليس للحاجات إلا من له وجهٌ وقاحُ
ولسانٌ طَرْمِذِيٌّ^(١) وغُدُوٌّ ورواحُ
فعليه السميُّ فيها وعلى الله النجاحُ

وكان يقال : الفرصة ما إذا حاولته فأخطأك نفعه ، لم يصل إليك ضرره .

ومن كلام ابن المقفع : انتهز الفرصة في إحراز المآثر ، وأغتنم الإمكان بأصطناع
الخير ، ولا تلتظر ما تُعامل فتُجازي عنه بمثله ، فإنك إن غوملت بمكروه واشتغلت برصد
المكافأة عنه قصر العمر بك عن اكتساب فائدة ، وأقتناء منقبة ، وتصرمت أيتامك
بين تعدد عليك ، وانتظارٍ للظفر بإدراك الثأر من خصمك ، ولا عيشة في الحياة أكثر
من ذلك .

كانت العرب إذا أوفدت وفدا قالت له : إيتاك والهيبة ؛ فإنها خيبة ؛ ولا تبت عند
ذنب الأمر وبت عند رأسه .

(١) طرمذي : يمدح بما ليس فيه .

(٢٢)

الأفضل :

لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ الْإِبِلِ ، وَإِنْ طَالَ الشَّرَى . .

قَالَ الرَّضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ لَطِيفِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّا إِنْ لَمْ نَعْطَ حَقَّنَا كُنَّا أَذِلَّاءَ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّدِيفَ يَرُكَبُ عَجْزَ الْبَعِيرِ ، كَالْعَبْدِ وَالْأَسِيرِ وَمَنْ يَجْرِي بِجَرَّاهَا .

الشَّنْحُ :

هذا الفصل قد ذكره أبو عبيد المروى في " الجمع بين الغريبين " وصورته :
إِنْ لَنَا حَقًّا إِنْ نَعْطِهِ نَأْخُذْهُ ، وَإِنْ مُنِعَ نَرْكَبُ أَعْجَازَ الْإِبِلِ ، وَإِنْ طَالَ الشَّرَى . قَالَ
قد فسروه على وجهين : أحدهما أَنَّ رَاكِبَ عَجْزِ الْبَعِيرِ يَلْحَقُهُ مَشَقَّةٌ وَضَرٌّ ، فَأَرَادَ : أَنَّا
إِذَا مُنِعْنَا حَقَّنَا صَبَرْنَا عَلَى الْمَشَقَّةِ وَالْمَضَرَّةِ ، كَمَا يَصْبِرُ رَاكِبُ عَجْزِ الْبَعِيرِ ؛ وَهَذَا التفسير
قريبٌ مما فسره الرضى . والوجه الثانى أَنَّ رَاكِبَ عَجْزِ الْبَعِيرِ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ غَيْرُهُ قَدْ
رَكِبَ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ ، وَرَاكِبُ ظَهْرِ الْبَعِيرِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى رَاكِبِ عَجْزِ الْبَعِيرِ ، فَأَرَادَ أَنَّا إِذَا
مُنِعْنَا حَقَّنَا تَأَخَّرْنَا وَتَقَدَّمَ غَيْرُنَا عَلَيْنَا ، فَكُنَّا كَالرَّاكِبِ رَدِيفًا لِمُتَبِعِهِ ، وَأَكَّدَ الْمَعْنَى
عَلَى كَلَا التفسيرين^(١) بقوله : « وَإِنْ طَالَ الشَّرَى » ، لِأَنَّهُ إِذَا طَالَ الشَّرَى كَانَتِ الْمَشَقَّةُ

(١) في د : « التقديرين » .

— ١٣٣ —

على راكب عَجَز البعير أعظم ، وكان الصبر على تأخر راكب عَجَز البعير عن الراكب على ظهره أشدّ وأصعب .

وهذا الكلام تزعم الإمامية أنه قاله يوم السَّقِيفَة أو في تلك الأيام ، ويذهب أصحابنا إلى أنه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماع الجماعة لاختيار واحد من الستة ، وأكثر أرباب السير ينقلونه على هذا الوجه .

(٢٣)

الأصل :

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُنْرِعْ بِهِ حَسْبُهُ .

الشيخ :

هذا الكلام حَثٌّ وَحَضٌّ وَتَحْرِيزٌ عَلَى الْعِبَادَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمْثَالُهُ^(١) ، وَسَيَأْتِي لَهُ
نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، إِنِّي
لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلِبِ ، إِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،
﴿ إِنَّا أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾^(٢) .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(١) في د د مثله .

(٢٤)

الأفضل :

مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَالتَّغْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ .

الشيخ :

قد جاء في هذا المعنى آثار كثيرة ، وأخبار جميلة . كان العتّابي قد أُمْلِقَ ، فجاء فوقَ بِيَابِ الْمُأْمُونِ يَسْتَرْزِقُ اللَّهَ عَلَى يَدَيْهِ ، فَوَافَى يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ ، فَعَرَضَ لَهُ الْعَتَّابِيُّ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَهْلَ الْقَاضِي أَنْ تُعَلِّمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَكَانِي فَاغْمِزْ ، فَقَالَ : لَسْتُ بِحَاجِبٍ ؛ قَالَ : قَدْ عَلِمْتُ ، وَلَكِنَّكَ ذُو فَضْلٍ ، وَذُو الْفَضْلِ مِعْوَانٌ ، فَقَالَ : سَلَكْتُ بِي غَيْرَ طَرِيقٍ ؛ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَتَمَحَفَّكَ مِنْهُ بِجَاهٍ وَنِعْمَةٍ ، وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَيْكَ بِالزَّيَادَةِ إِنْ شَكَرْتَ ، وَبِالتَّغْيِيرِ إِنْ كَفَرْتَ ، وَأَنَا لَكَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ لِنَفْسِكَ ، لِأَنِّي أَدْعُوكَ إِلَى مَا فِيهِ ازْدِيَادُ نِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ تَأْتِي عَلَىَّ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ، وَزَكَاةُ الْجَاهِ رِفْدُ الْمُسْتَعِينِ . فَدْخَلَ يَحْيَى فَأَخْبَرَ الْمُأْمُونُ بِهِ ، فَأَحْضَرَهُ وَحَادَثَهُ وَلَا طَفَنَهُ وَوَصَلَهُ .

(٢٥)

الأصل :

يَا بَنَ آدَمَ ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاخْذَرُهُ .

التشريح :

هذا الكلام تخويف وتحذير من الاستدراج ؛ قال سبحانه : ﴿ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) ؛ وذلك لأن العبد بغروره يعتقد أن موالاة النعم عليه وهو عاص من باب الرضا عنه ، ولا يعلم أنه استدراج له ونقمة عليه .

فإن قلت : كيف يصح القول بالاستدراج على أصولكم في العدل ؟ أليس معنى الاستدراج إيهام العبد أنه سبحانه غيرُ ساخط فعله ومعصيته ! فهل هذا الاستدراج إلا مفسدةٌ وسببٌ إلى الإصرار على القبيح !

قلت : إذا كان المكلف عالماً بقبح القبيح ، أو متمكناً من العلم بقبحه ثم رأى النعم تتوالى عليه وهو مُصرٌّ على المعصية ، كان ترادف تلك النعم كاللبنه له على وجوب الحذر ، مثال ذلك من هو في خدمة ملك ، وهو عون ذلك الملك في دولته ، ويعلم أن الملك قد عرف حاله ، ثم يرى نعم الملك مترادفةً إليه ، فإنه يجب بمقتضى الاحتياط أن يشتدَّ حذرُهُ ، لأنه يقول : ليست حالي مع الملك حال من يستحق هذه النعم ، وما هذه إلا مكيدة وتحتها غائلة ، فيجب إذن عليه أن يحذر .

(٢٦)

الاضل :

مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَاتَاتِ لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ .

الشَّيْخُ :

قال زهيرُ بنُ أبي سلمى :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعْلَمُ^(١)

وقال آخر :

تَجَبَّرَنِي الْمَيَّانُ مَا الْقَلْبُ كَاتِمٌ وَمَا جَنَّ بِالْبَغْضَاءِ وَالنَّظَرِ السَّزِيمِ

وقال آخر :

وَفِي عَيْنِكَ تَرْجَمَةٌ أَرَاهَا تَدُلُّ عَلَى الضَّغَائِنِ وَالْحُقُودِ
وَأَخْلَاقٌ عَهْدَتُ اللَّيْنَ فِيهَا غَدَتُ وَكَأَنَّهَا زُبُرُ الْحَدِيدِ
وَقَدْ عَاهَدْتُنِي بِخِلَافٍ هَذَا وَقَالَ اللَّهُ : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »

وكان يقال : العين والوجه واللسان أصحاب أخبار على القلب ، وقالوا : القلوب كالمرآيات المتقابلة ؛ إذا ارتسمت في إحداهن صورة ظهرت في الأخرى .

(٢٧)

الأصل :

امشِ بدائكَ مَا مَشَى بِكَ .

الشَّيْخُ :

يقول : مهما وجدتَ سبيلاً إلى الصَّبْرِ على أمرٍ من الأمور الَّتِي قد دُفِعَتْ إليها ،
وفيها مشقة عليك ، وضرر لاحقٌ بك ، فاصبر ولا تلتمسُ طريقاً إلى تغيير ما دُفِعَتْ إليه
أن تسلكها بالهُنْفِ ، ومُرَاعَمةِ الوقت ، ومعاونةِ الأَقْضية والأَقْدَارِ ؛ ومِثَال ذلك
من يَعْرِضُ له مَرَضٌ ما يُمكنه أن يَحْتَمِلَه ويدافع الوقت ، فإنه يجب عليه ألا يَطْرَحَ جانبَه
إلى الأرض ، ويَحُلِدُ إلى النوم على الفِراش ، ليعالج ذلك المرض قوَّةً وقهراً ؛ فربما
أَفْضَى به مقاهرة ذلك المرض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيراً مُعْضِلاً .

(٢٨)

الأضل :

أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ .

* * *

الشَّيْخُ :

إنما كان كذلك لأنَّ الجهرَ بالعبادة والزَّهادة والإعلان بذلك قلَّ أن يَسلم من مخالطة
الرِّياء ، وقد تقدّم لنا في الرِّياء أقوالٌ مُقنعة .

رأى المنصورُ رجلاً واقفاً يبابه ، فقال : مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقفٌ
ببابنا ! فقال الربيع : نعم ، لأنّه ضُرب على غير السَّكة .

شاعر :

مَعشَرُهُ أَثْبَتَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ لِحِبَابِهِ يَشْقُهَا الْمِحْرَابُ
عَمَرُوا مَوْضِعَ التَّصَنُّعِ مِنْهُمْ وَمَكَانُ الْإِخْلَاصِ مِنْهُمْ خَرَابُ

(٢٩)

الأبْصَلُ :

إِذَا كُنْتُ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلتَقَى !

الشَّيْخُ :

هذا ظاهر ، لأنَّه إذا كان كلَّما جاء نفى إدبار ، والموتُ كلَّما جاء فنى إقبال ،
فياسرَّعان ما يلتقيان ! وذلك لأنَّ إدبارَه هو توجُّهُه إلى الموت ، وإقبال الموت هو توجُّهُه
الموت إلى نحوه ، فقد حُقَّ إذن الالتقاء سرِّيا ، ومثالُ ذلك سفينتان بدِجْلَةٌ أو غيرها ،
تَصْعَدُ إحداها ، والأخرى تَنْحَدِرُ نحوَها ، فلا رَيْبَ أنَّ الالتقاء يكون وشيكا .

— ١٤١ —

(٣٠)

الأصل :

الْحَذَرَ الْحَذَرَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَتَرَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

الشرح :

قد تقدّم هذا المعنى وهو الاستدراج الذى ذكرناه آنفاً.

(٣١)

الأفضل :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ : الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعٍ دَعَائِمٌ : عَلَى الصَّبْرِ ،
وَالْيَقِينِ ، وَالْعَدْلِ ، وَالْجِهَادِ .

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الشَّوْقِ ، وَالشَّقَقِ ، وَالزُّهْدِ ، وَالترَّقُّبِ ؛
فَمَنْ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنْ الشَّهَوَاتِ ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ ،
وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنْ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ .

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى تَبَصُّرِ الْفِطْنَةِ ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ
الْعِبَرَةِ ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ ، تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ
الْحِكْمَةُ ، عَرَفَ الْعِبَرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبَرَةَ ، فَكَانَ كَانٍ فِي الْأَوَّلِينَ .

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ ، وَزَهْرَةِ
الْحِكْمِ ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ ، فَمَنْ فَهِمَ عِلْمَ غَوْرِ الْعِلْمِ ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ
عَنْ شَرَائِعِ الْحِلْمِ ، وَمَنْ حَلَمَ لَمْ يَفْرِطْ فِي أَمْرِهِ ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدًا .

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَالصَّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ ، وَشَتَاتِ الْفَاسِقِينَ ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْوْفَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَّقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ ،
وَمَنْ شَتَّى الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمٍ : عَلَى التَّعَمُّقِ ، وَالتَّنَازُعِ ، وَالزَّيْغِ ، وَالشَّقَاقِ ؛
فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ ، وَمَنْ كَثُرَ زَوَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ ،

وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ ، وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ ،
وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ .
وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى التَّمَادِي ، وَالْهَوْلِ ، وَالتَّرَدُّدِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ ؛
فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَنًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ ،
وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيِّبِ ، وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ ، وَمَنْ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَبِمَدِّ هَذَا كَلَامٍ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الْإِطَالَةِ
وَالْخُرُوجِ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

الْتَّنِيْخُ :

من هذا الفصل أخذتِ الصُّوفِيَّةُ وأصحابُ الطريقة والحقيقة كثيرا من فنونهم في
علومهم ؛ ومن ثَمَّ لَمْ يَكُنْ سَهْلَ بنِ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيّ وكَلَامُ الْجُنَيْدِ وَالسَّرِيِّ وغيرهم رأى
هذه الكلمات في فَرْشِ كَلَامِهِمْ تَلُوحُ كَالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ وَكُلِّ الْقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ الْمَذْكُورَةِ
فِي هَذَا الْفَصْلِ قَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُنَا فِيهَا .

[نُبَذُ وَحَايَاتِ مَا وَقَعَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ]

ونذكر هاهنا الصدق في المواطن ، وبين يَدَيِ الْمُلُوكِ ، وَمَنْ يَنْغَضِبُ اللَّهُ ، وَيَنْهَى عَنِ
النِّكَرِ ، وَيَقُومُ بِالْحَقِّ وَلَا يُبَالِي بِالسُّلْطَانِ وَلَا يُرَاقِبُهُ .

دخل عمرُ بنُ عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه - وهو يومئذ وليُّ عهده - قد عقد له من بعده ، فجاء إنسانٌ يَطْلُبُ ميراثا من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئا ، فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ! وأين كتابُ الله ! فقال سليمان : يا غلام ، اذهب فأتني بسجلِّ عبد الملك الذي كُتب في ذلك ، فقال له عمر : لكأنك أرسلتَ إلى المصحف ! فقال أيوب بن سليمان : والله ليوشكنَّ الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين . فلا يشعر حتى يفارقه رأسه ؛ فقال عمر : إذا أفصى الأمرُ إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشدَّ مما يخشى عليكم من هذا القول ، ثم قام فخرج .

وروى إبراهيم بن هشام بن يحيى ، قال : حدثني أبي ، عن جدِّي ، قال : كان عمرُ بن عبد العزيز يَهَيِّ سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية ، ويقول : ضَمَنَهُمُ الجبوس حتى يُحْدِثُوا توبةً ، فَأَتَى سليمان بحرورى مستقتل ، وعنده عمرُ بن عبد العزيز ، فقال سليمان للحرورى : ماذا تقول ؟ قال : ما أقول يا فاسق يا ابن الفاسق ! فقال سليمان لعمر : ما ترى يا أبا حفص ؟ فسكت ، فقال : أقسمتُ عليك لتخبرني ماذا ترى عليه ! فقال : أرى أن تَشْتِمَهُ كما شَتَمْتَ ، وتَشْتِمُ أباه كما شَتَمَ أباك ، فقال سليمان : ليس إلا ! قال : ليس إلا ؛ فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بضرب عنق الحرورى .

وروى ابنُ قتيبة في كتاب " عيون الأخبار " قال : بينا المنصور يطوف ليلا بالبيت سَمِعَ قائلا يقول : اللهم إليك أشكو ظهور البغي والفساد ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع . فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلَّى ركعتين ، وأستلم الرُّكنَ ، وأقبل على المنصور فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذى سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق

وأهله من الطمع؟ فو الله لقد حشوت مسامعي ما أَرْمَضَنِي^(١) فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَمْنَتَنِي عَلَى نَفْسِي أَنْبَأْتُكَ بِالْأُمُورِ مِنْ أَصُولِهَا، وَإِلَّا احْتَجَزْتُ مِنْكَ، وَاقْتَصَرْتُ عَلَى نَفْسِي فَلَ فِيهَا شَاغِلٌ؛ قَالَ: أَنْتَ آمِنٌ عَلَى نَفْسِكَ، فَقُلْ؛ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي دَخَلَ الطَّمْعُ حَتَّى حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِصْلَاحِ مَا ظَهَرَ مِنَ الْبَغْيِ وَانْفُسَادِ لَأَنَّتِ، قُلْ: وَيَحْكُ! وَكَيْفَ يَدْخُلُنِي الطَّمْعُ وَالصَّفَرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ فِي قَبْضَتِي، وَالْخَلْوُ وَالْحَامِضُ عِنْدِي! قَالَ: وَهَلْ دَخَلَ أَحَدٌ مِنَ الطَّمْعِ مَا دَخَلَكَ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَرَعَاكَ الْمَسَاهِينَ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَغْفَلْتَ أُمُورَهُمْ، وَاهْتَمَمْتَ بِجَمْعِ أَمْوَالِهِمْ، وَجَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حُجُبًا مِنَ الْجِصِّ وَالْأَجْرِ، وَأَبْوَابًا مِنَ الْحَدِيدِ، وَحَجَبَةً مَعَهُمُ السِّلَاحَ، ثُمَّ سَجَنْتَ نَفْسَكَ فِيهَا مِنْهُمْ، وَبَعَثْتَ عُمَّالَكَ فِي جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا، فَقَوَّيْتَهُمْ بِالسِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ، وَأَمَرْتَ بِأَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلَّا فُلَانٌ وَفُلَانٌ، نَفَرْتُ سَمِيَّتِهِمْ، وَلَمْ تَأْمُرْ بِإِصْالِ الْمَظْلُومِ وَالْمُهْلُوفِ، وَلَا الْجَائِعِ وَالْفَقِيرِ، وَلَا الضَّعِيفِ وَالْعَارِي، وَلَا أَحَدٍ مِمَّنْ لَهُ فِي هَذَا الْمَالِ حَقٌّ، فَازَالَ هَؤُلَاءِ النِّفَرُ الَّذِينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ، وَآثَرْتَهُمْ عَلَى رِعْيَتِكَ، وَأَمَرْتَ أَلَّا يُحْجَبُوا عَنْكَ، يَجِبُونَ الْأَمْوَالِ وَيَجْمَعُونَهَا وَيَحْجُبُونَهَا، وَقَالُوا: هَذَا رَجُلٌ قَدْ خَانَ اللَّهَ، فَالْنَا لَا نَحْنُوهُ، وَقَدْ سَخَرْنَا! فَاتُّمَرُوا عَلَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْكَ مِنْ أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَرَادُوا، وَلَا يَخْرُجُ لَكَ عَامِلٌ فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا بِمَقْصُودِهِ^(٢) عِنْدَكَ وَبَقْوَةِ الْفَوَائِلِ، حَتَّى تَسْقُطَ مَنْزِلَتُهُ وَيَصْغُرَ قَدْرُهُ. فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُمْ أَعْظَمُهُمُ النَّاسُ وَهَابُوهُمْ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ صَانَعَهُمْ عُمَّالُكَ بِالْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ لِيَقْوُوا بِهَا عَلَى ظِلْمِ رِعْيَتِكَ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذَوُو الْقُدْرَةِ وَالثَّرَةِ مِنْ رِعْيَتِكَ لِيَنَالُوا بِهِ ظِلْمَ مَنْ دُونَهُمْ، فَامْتَلَأَتْ بِلَادُ اللَّهِ بِالطَّمْعِ بَغْيًا وَفَسَادًا، وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ شُرَكَاءُكَ فِي سُلْطَنَتِكَ وَأَنْتَ غَافِلٌ، فَإِنَّ جَاءَ مَتَظَلِّمٌ حَيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ

(١) ب: «أمرضى»؛ والصواب ما أثبتته من أ، د وعيون الأخبار.

(٢) عيون الأخبار: «قصبوه» أي عابوه.

دارِكْ ، وإن أراد رَفَعَ قِصَّتَهُ إِلَيْكَ عند ظهورك وجدك وقد نهيتَ عن ذلك ، ووقفت للناس رَجَلا ينظر في مظالمهم ، فإن جاء المتظلم إليه أرسَلوا إلى صاحب المظالم ألا يرفع إليك قِصَّتَهُ ، ولا يكشف لك حاله ؛ فيجيبهم خوفاً منك ، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه ، ويلوذ به ، ويستغيثُ إليه وهو يدفعه ، ويمتلئ عليه ؛ وإذا أجهد وأُحْرِج ، وظهرت أنت لبعض شأنك صَرَخَ بين يديك ، فيضرب ضرباً مبرِّحاً ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر ولا تُنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا !

ولقد كنتُ أيام شببتي أسافر إلى الصين فقدِمْتُها مرّةً وقد أصيب مَلِكُها بِسَمِّهِ ، فبَكَى بكاءً شديداً ، خداه ^(١) جلساؤه على الصبر ، فقال : أما إنى لست أبكى للبلية النازلة ، ولكن أبكى للمظلوم بالباب يصرخ فلا أسمعُ صوته ! ثم قال : أما إذ ذهب سمي فإن بصرى لم يذهب ، نادوا في الناس ألا يلبس ثوبا أحمرَ إلا مظلوم ^(٢) ، ثم كان يركب الفيل طرقيّ نهاره ينظر هل يرى مظلوما ! فهذا مُشرك بالله غلبتْ رأفتهُ بالمشرِكين على شُحِّ نفسه ، وأنتَ مؤمنٌ بالله من أهل بيتِ نبيّه لا تغلبُكَ رأفتُكَ بالمسلمين على شُحِّ نفسك ! فإن كنتَ إنما تجتمع المال لولَدِكَ فقد أراك الله تعالى عبْرًا في الطفل يسقط من بطن أمه ، ماله على الأرض مال ، وما من مال يومئذٍ إلا ودونه يدٌ شحيحة تحويه ، فلا يزال الله يَلطُفُ بذلك الطفلَ حتّى تعظمَ رغبةُ الناس إليه ، ولست بالَّذى تُعطى ، ولكن الله يُعطى من يشاء ما يشاء . وإن قلتَ : إنما أجمع المال لتشديد السلطان ، فقد أراك الله عبْرًا في بنى أمية ، ما أغنى عنهم ما جَمَعُوا من الذهب والفضة ، وأعدُّوا من الرجال والسلاح والكُراع حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلتَ : أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنتَ فيه إلا منزلةٌ لا تُدرِكُ إلا بخلاف ما أنتَ عليه ؛ انظر هل تعاقب من عصاك بأشدّ من القتل ؟ قال : لا ، قال : فإن الملك الذى خَوَّلَكَ ما خَوَّلَكَ

(١) عيون الأخبار : « خنه » . (٢) د : « متظلم » .

لا يُعَارِبُ مَنْ عَصَاهُ بِالْقَتْلِ ، بِالْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ! وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبك ، وعملته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحتَه يدك ومشت إليه رجلاك . وانظر هل يُغْنِي عَنْكَ مَا شَحَحْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا إِذَا أَنْزَعَهُ مِنْ يَدِكَ ودعاك إلى الحساب على ما مَنَحَكَ !

فبكى المنصورُ وقال : ليتنى لم أُخْلَقْ ! وَيَحْكَ ! فكيف أحتال لنفسي ؟ قال : إنَّ للناس أعلاما يَفْرَعُونَ إِلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ ، وَيَرْضَوْنَ بِقَوْلِهِمْ ، فَاجْلِهِمْ بِطَانَتِكَ يُرْشِدُوكَ ، وشاورهم في أمرك يُسَدِّدُوكَ ؛ قال : قد بعثت إليهم فهرَبوا مِنِّي ؛ قال : نعم ، خافوا أنْ تَحْمِلَهُمْ عَلَى طَرِيقِكَ ، وَلَكِنْ أَفْتَحْ بَابَكَ ، وَسَهِّلْ حِجَابَكَ ، وانظر المظلومَ ، واقمَّع الظالمَ ، وخذ الفَيءَ والصَّدَقَاتِ مِمَّا حَلَّ وطاب ، وَأَقْسِمَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَأَنَا الضَّامِنُ عَنْهُمْ أَنْ يَأْتُوكَ وَيُسْعِدُوكَ عَلَى صَلَاحِ الْأُمَّةِ .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، ونادوا بالصلاة ، فقام وصلى ، وعاد إلى مجلسه ، فطلب الرجل فلم يُوجَدْ (١) .

وروى ابنُ قُتَيْبَةَ أيضًا في الكتاب المذكور أنَّ عمرو بنَ عُبَيْدٍ قال للمنصور : إنَّ الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وأذكر ليلةَ تَمَخَّضَ لَكَ صَبِيحَتُهَا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قال : يعنى ليلةَ موته - فَوَجَّهَ المنصورُ ، فقال الربيع : حَسْبُكَ ، فقد عَمَّتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فقال عمرو بنُ عُبَيْدٍ : إنَّ هَذَا صَحْبَكَ عَشْرِينَ سَنَةً لم يَرَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْصَحَكَ يَوْمًا وَاحِدًا ، ولم يَعْمَلْ وراءَ بابِكَ شَيْءًا مِمَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ ! قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلتُ لك ؛ خاتمي في يدك فهل أنت وأصحابك فأُكْفِي ، فقال عمرو : دَعْنَا بَمَذَلِكَ نَسْخُ بِأَنْفُسِنَا بِمَوْنِكَ ، وبِإِيَّاكَ مَظَالِمَ كَثِيرَةٍ (٢) ، فَأَرُدُّهَا نَعْمَ أَنْتَ صَادِقٌ (٣) .

(١) عيون الأخبار ٢ : ٣٣٣ - ٣٣٧ . (٢) عيون الأخبار : « ألف مظلة » .

وقال ابن قتيبة في الكتاب المذكور : وقد قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك بنحو هذا ، قال له : إني مكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام [فيه بعض الغلظة]^(١) فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تحبّ ، قال : قل ، قال : إني سأطيق لسانى بما خرّست عنه الألسن من عظمتك تأديةً لحقّ الله . إنك قد تكنتك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دُنياهم بدّينهم ، فهم حربُ الآخرة ، سلّمُ الدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة خسفاً ، وأنت مسئول عما اجتراحوا ، وليسوا مسئولين عما اجتاحت ، فلا تصلح دُنياهم بفساد آخرتك . فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدُنيا غيره . قال : فقال سليمان : أما أنت يا أعرابي ، فإنك قد سلّلت علينا عاجلاً لسانك ، وهو أقطعُ سيفيّك ؛ فقال : أجل ، لقد سلّلته ، ولكن لك لا عليك^(٢) .

(٣٢)

الأصل :

فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ .

البُخَر :

قد نظمتُ أنا هذا اللفظ والمعنى ، فقلتُ في جملة أبيات لي :

خيرُ البضائع للإنسان مَكْرُمَةٌ تَنْعِي وتَزْكُو إذا بَارَتْ بِضَائِعُهُ
فَالْخَيْرُ خَيْرٌ وَخَيْرٌ مِنْهُ فَاعِلُهُ وَالشَّرُّ شَرٌّ وَشَرٌّ مِنْهُ صَانِعُهُ

فإن قلت : كيف يكون فاعلُ الخير خيراً من الخير ، وفاعلُ الشرّ شراً من الشرّ ، مع أن فاعل الخير إنما كان ممدوحاً لأجل الخير ، وفاعل الشرّ إنما كان مذموماً لأجل الشرّ ، فإذا كان الخير والشرّ هما سبباً المدح والذمّ - وهما الأصل في ذلك - فكيف يكون فاعلاهما خيراً وشرّاً منهما ؟

قلت : لأنّ الخير والشرّ ليسا عبارة عن ذات حيّة قادرة ، وإنّما هما فعلان ، أو فعل وعدم فعل ، أو عدَمَان ، فلو قطع النظر عن الذات الحيّة القادرة التي يصدُران عنها ، لما انتفع أحدُهما ولا استضرّ ، فالنفع والضرر إنّما حصّلا من الحيّ الموصوف بهما لا منهما على اتقاردهما ، فلذلك كان فاعلُ الخير خيراً من الخير ، وفاعلُ الشرّ شراً من الشرّ .

(٣٣)

الأضل :

كُنْ مَمْنَحًا ، وَلَا تَكُنْ مُبَدِّرًا ، وَكُنْ مُقَدِّرًا ؛ وَلَا تَكُنْ مُقَرَّرًا .

الشَّيْخُ :

كلُّ كلامٍ جاء في هذا فهو مأخوذٌ من قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (١) .
ونحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٢) .

(١) سورة الإسراء ٢٧ . (٢) سورة الإسراء ٢٩ .

(٣٤)

الأضل :

أَشْرَفُ الْغِنَى ، تَرَكَ الْمُنَى .

الشَّرْحُ :

قد سبق منا قول كثير في المنى ، ونذكرها هنا ما لم نذكره هناك .

سئل عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ : أَى شَىءٍ أَدْوَمَ مَتَاعاً ؟ فقال : الْمُنَى .

وقال بلال بن أبي بُرْدَةَ : مَا يَسُرُّنِي بِنَصِيبِي مِنَ الْمُنَى مُحَرَّمُ النَّعَمِ .

وكان يقال : الْأَمَانِيُّ لِلنَّفْسِ كَالرَّوْنَقِ لِلْبَصَرِ .

ومن كلام بعض الحكماء : الْأَمَانِيُّ تُعْمَى أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ ، وَالْحَظْظُ يَأْتِي مِنَ لَا يَأْتِيهِ ، وَرَبِّمَا كَانَ الطَّمَعُ وَغَاءَ حَشْوُهُ الْمُتَالَفُ ، وَسَائِقًا يَدْعُو إِلَى النَّدَامَةِ ، وَأَشَقَى النَّاسِ بِالسَّلْطَانِ صَاحِبُهُ ؛ كَمَا أَنَّ أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ إِلَى النَّارِ أَسْرَعُهَا إِخْرَاقًا ، وَلَا يُدْرِكُ الْغِنَى بِالسَّلْطَانِ إِلَّا نَفْسٌ خَائِفَةٌ ، وَجَسَمٌ تَعَبٌ ، وَدِينٌ مِنْكُمْ ، وَإِنْ كَانَ الْبَحْرُ كَدِرَ الْمَاءُ ، فَهُوَ بِعَمِيدِ الْهَوَاءِ .

(٣٥)

الأصل:

مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ ، قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَمْلِكُونَ .

الشرح :

هذا المعنى كثيرٌ واسع ، ولتقتصرُ ها هنا فيه على حكاية ذكرها المبرد في " الكامل " .

[في مجلس قتيبة بن مسلم الباهلي]

قال : لما فتح قتيبة بن مسلم سمرقند أفضى^(١) إلى أثاث لم يُرَ مثله^(٢) ، وإلى آلاتٍ لم يُرَ مثلها ، فأراد أن يرى الناس عظيمَ ما أنعم الله به عليه ، ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم ، فأمر بدارٍ ففرشت وفي صحنها قدُور يُرتقى إليها بالسلالم ، فإذا الحُصَيْن ابنُ المنذر بن الحارث بن وُعلة الرقاشي قد أقبل والناسُ جلوسٌ على مراتبهم ، والحُصَيْن شيخٌ كبير ، فلما رآه عبد الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة : انْذَنْ لِي فِي مَعَابَتِهِ ؛ قال : لا تردّه لأنه خبيثُ الجواب ؛ فأبى عبد الله إلا أن يأذن له — وكان عبد الله يضعف ، وقد كان تسوّر حائطا إلى امرأةٍ قبل ذلك — فأقبل على الحُصَيْن ، فقال : أَمِنَ الباب دخلت يا أبا ساسان ؟

(١) أفضى ؛ أى اتسع وصار عريضا . (٢) الكامل : « مثلها » .

قال : أَجَلٌ ، أَسَنَّ عُمُكَ عَنْ تَسْوَرِ الْحَيْطَانِ . قال : أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْقُدُورُ ؟ قال : هِيَ أَعْظَمُ
مَنْ أَلَّا تُرَى : قال : مَا أَحْسَبُ بَكَرِ بْنِ وَاثِلٍ رَأَى مِثْلَهَا ، قال : أَجَلٌ ، وَلَا غَيْلَانُ ،
وَلَوْ كَانَ رَأَاهَا مَتَّى شَبْعَانَ ، وَلَمْ يَسَمَّ غَيْلَانُ ، قال له عَبْدُ اللَّهِ : يَا أَبَا سَاسَانَ أُنَعْرِفُ
الَّذِي يَقُولُ :

عُرِّنَا وَأَمِّرْنَا وَبَكَرُ بْنُ وَاثِلٍ تَجَرَّ خُصَاهَا تَبْتَغِي مَنْ تُحَالِفُهُ ^(١)

قال : أَجَلٌ أَعْرِفُهُ ، وَأَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

بَأَذَنِي الْعَزْمِ قَادَ بَنَى قُشَيْرٍ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَسْرَى كَلَابِ
وَحَيْبَةٍ مِنْ يَحْيَبُ عَلَى غَنَى وَبَاهِلَةٍ بَنَ يَعْصُرَ وَالرَّكَبِ

يريد : يَا حَيْبَةَ مِنْ يَحْيَبُ . قال : أَفَتَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

كَأَنَّ فِقَاحَ الْأَزْدِ حَوْلَ ابْنِ مِصْمَعٍ إِذَا عَرِقَتْ أَفْوَاهُ بَكَرِ بْنِ وَاثِلٍ

قال : نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

قَوْمٌ قَتِيبَةُ أُمِّهِمْ وَأَبُوهُمْ لَوْلَا قَتِيبَةُ أَصْبَحُوا فِي سَجْهَلٍ

قال : أَمَّا الشُّعْرُ فَأَرَاكَ تَرَوِيهِ ، فَهَلْ تَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا ؟ قال : أَقْرَأُ مِنْهُ الْأَكْثَرَ
الْأَطْيَبَ : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ^(٢)
فَأَغْضَبَهُ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ امْرَأَةَ الْحَضِينِ مُجِلَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ حُبْلَى مِنْ غَيْرِهِ .

(١) هُوَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ - رَغْبَةُ الْأَمَلِ .

(٢) سُورَةُ الْإِنْسَانِ ١ .

قال : فأتحرك الشيخُ عن هيئته الأولى ، ثم قال على رسله ، وما يكون ! تلد غلاما على فراشي ، فيقال : فلانُ ابنُ الحُضَيْنِ ، كما يقال : عبدُ الله بنُ مسلم . فأقبل فتيةُ على عبد الله وقال : لا يبعد الله غيرك !

قلت : هو الحُضَيْنُ بالضاد المعجمة ، وليس في العرب من اسمه « الحُضَيْنِ » بالضاد المعجمة غيره^(١) .

(١) الكامل ٣ : ١٣ ، ١٤ ؛ قال أبو العباس : « الحُضَيْنُ بن المنذر بن الحارث بن وعلة . وكان الحُضَيْنُ يده لواء على بن أبي طالب رحمه الله على ربيعة ؛ وله يقول القائل :
لَمَنْ رَايَهُ سَوْدَاءَ يَخْفِقُ ظِلُّهَا إِذَا قِيلَ قَدَّمَهَا حُضَيْنٌ تَقْدَمًا

— ١٥٥ —

(٣٦)

الأصل :

مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ ، أَسَاءَ الْعَمَلَ .

الشرح :

قد تقدّم منا كلامٌ في الأمل .

وقيل لبعض الصالحين : ألك حاجةٌ إلى بغداد ؟ قال : ما أحبّ أن أبسط أُملي

حتى تذهب إلى بغداد وتعود .

وقال أبو عثمان النهدي : قد أنت على ثلاثون ومائة سنة ؛ ما من شيء إلا وأجد فيه

النقص إلا أُملي ، فإني وجدته كما هو أو يزيد .

(٣٧)

الأضل :

وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجلوا له واشتدوا بين يديه :

مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ ؟ فَقَالُوا : خُلِقْنَا مِنْكُمْ بِهْ أَمْرَاءَنَا ؛ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أَمْرًاؤُكُمْ ، وَإِنَّكُمْ لَتَشَقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ ، وَتَشَقُّونَ بِهْ فِي آخِرَاتِكُمْ ؛ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ ، وَأَرْبَحَ الدَّعَاةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ !

الشيخ :

اشتدوا بين يديه : أسرعوا شيئاً ، فهاهم عن ذلك وقال : إنكم تشقون به على أنفسكم لما فيه من تعب الأبدان . وتشقون به في آخرتكم : تخضعون للولادة ، كما زعمتم أنه خلق وعادة لكم ؛ خضوعاً تطلبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها ، وكلّ خضوع وتذلّل لغير الله فهو معصية .

ثم ذكر أن الخسران المبين مشقة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة والربح المبين دعة عاجلة يتبعها الأمان من النار .

(٣٨)

الأفضل :

قال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام :

يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعًا وَأَرْبَعًا ؛ لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ : إِنْ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ ،
وَأَكْبَرَ الْفَقْرَ الْحَقُّ ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةَ الْمُعْجَبُ ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ .
يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ الْأَحْمَقِ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ ، وَإِيَّاكَ
وَمُصَادَقَةُ الْبَخِيلِ ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَخَوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ
الْفَاجِرِ ، فَإِنَّهُ يَبِيْعُكَ بِالتَّافِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ الْكَذَّابِ ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقْرَبُ
عَلَيْكَ الْبَعِيدَ ، وَيُبْعَدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ .

التيشرح :

هذا الفصل يتضمن ذِكْرَ العقل والحق، والعجب وحسن الخلق، والبخل والفجور،
والكذب ، وقد تقدّم كلامنا في هذه الخصال أجمع ، وقد أخذت قوله عليه السلام :

« إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ » فقلتُ في أبياتٍ لى :

حَيَاتِكَ لَا تَصْحَبَنَّ الْجَهْلَ	فَلَا خَيْرَ فِي مُصْحَبَةِ الْأَخْرَقِ
يَظُنُّ أَخُو الْجَهْلِ أَنَّ الضَّلَا	لَ عَيْنُ الرِّشَادِ فَلَا يَتَّبِعِي
وَيَكْسِبُ صَاحِبُهُ مُحَمَّةَ	فَيَسْرِقُ مِنْهُ وَلَا يُسْرِقُ ^(١)
وَأَقْسِمُ أَنْ الْمَدْوِ اللَّيْدِ	بِخَيْرٍ مِنَ الْمَشْفِقِ الْأَحْمَقِ

(١) في البيت إقواء .

(٢٩)

الأفضل :

لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَصْرَتْ بِالْفَرَائِضِ .

الشيخ :

هذا الكلام يمكن أن يحمل على حقيقته ، ويمكن أن يحمل على مجازه ، فإن حمل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثير من الفقهاء ، وهو مذهب الإمامية ، وهو أنه لا يصح التنفل ممن عليه قضاء فريضة فائته لا في الصلاة ولا في غيرها ؛ فأما الحج فمُتَّفَقٌ عليه بين المسلمين أنه لا يصح الابتداء بنفله ، وإذا نوى نيّة النفل ، ولم يكن قد حجَّ حجة الإسلام وقع حجُّه فرضاً ، فأما نوافل الزكاة فاعرفتُ أحداً قال : إنه لا يثاب المتصدق بها ، وإن كان لم يؤدّ الزكاة الواجبة . وأما إذا حمل على مجازه ، فإن معناه يجب الابتداء بالأهم وتقديمه على ما ليس بأهم ، فتدخل هذه الكلمة في الآداب السلطانية والإخوانية ، نحو أن تقول لمن توصيه : لا تبدأ بخدمة حاجب الملك قبل أن تبدأ بخدمة ولد الملك ، فإنك إنما تروم القربة للملك بالخدمة ، ولا قربة إليه في تأخير خدمة ولده وتقديم خدمة غلامه ؛ وسحلُ الكلمة على حقيقتها أولى ، لأن اهتمام أمير المؤمنين عليه السلام بالأمور الدينية والشرعية في وصاياه ومنثور كلامه أعظم .

(٤٠)

الأضل :

لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ .

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وهذا من ألمعاني العجيبة الشريفة ، والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية ، ومؤامرة الفكرة ، والأحمق تسبق خدات لسانه ، وفلتات كلامه ، مراجعة فكره ، ومما خصة رأيه ، فكان لسان العاقل تابع لقلبه ، وكان قلب الأحمق تابع للسانه .

قال : وقد روى عنه عليه السلام هذا المعنى بلفظ آخر ، وهو قوله : « قلب الأحمق في فيه ، ولسان العاقل في قلبه » ومعناها واحد .

الشرح :

قد تقدم القول في العقل والحق ، ونذكر هاهنا زيادات أخرى .

[أقوال وحكايات حول الحق]

قالوا : كل شيء يعز إذا قل ، والعقل كلما كان أكثر كان أعز وأعلى .

وكان عبد الملك يقول : أنا للعاقل المدير أرجى منى للأحمق المقيل .

قيل لبعضهم : ما جماع العقل ؟ فقال : ما رأيته مجتمعاً في أحد فأصفه ، وما لا يوجد كاملاً فلا حد له .

— ١٦٠ —

وقال الزُّهرى : إِذَا أَنْكَرْتَ عَقْلَكَ فَاقْدَحْهُ بِعَاقِلٍ .
 وقيل : عَظُمَتِ الثُّنُونَةُ فِي عَاقِلٍ مُتَجَاهِلٍ ، وَجَاهِلٍ مُتَعَاوِلٍ .
 وقيل : الْأَحْمَقُ يَتَحَفَّظُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ .
 وقيل لبعضهم : الْعَقْلُ أَفْضَلُ أَمْ الْجَدُّ ؟ فَقَالَ : الْعَقْلُ مِنَ الْجَدِّ .
 وخطب رجلان إلى ديماءوس الحكيم ابنته ، وكان أحدهما فقيرا والآخر غنيا ، فزوجها
 من الفقير ، فسأله الإسكندر عن ذلك ، فقال : لِأَنَّ الْغَنَى كَانَ أَحْمَقَ ، فَكَنتُ أَخَافُ عَلَيْهِ
 الْفَقْرَ ، وَالْفَقِيرَ كَانَ عَاقِلًا ، فَرَجَوْتُ لَهُ الْغَنَى .
 وقال أرسطو : الْعَاقِلُ يُوَافِقُ الْعَاقِلَ ، وَالْأَحْمَقُ لَا يُوَافِقُ الْعَاقِلَ ، وَلَا أَحْمَقُ كَالْمُودِ
 الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُسْتَقِيمِ ؛ فَأَمَّا الْمَوْجُ فَإِنَّهُ لَا يَنْطَبِقُ عَلَى الْمَوْجِ وَلَا
 عَلَى الْمُسْتَقِيمِ .
 وقال بعضهم : لِأَنَّ أَزَاوِلَ أَحْمَقٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَزَاوِلَ نَصَفٍ أَحْمَقٍ - أَعْنَى
 الْجَاهِلِ الْمُتَعَاوِلِ .

* * *

واعلم أن أخبار الحق ونوادرهم كثيرة ، إلا أنا نذكر منها ها هنا ما يليق بكتابنا ، فإنه
 كتاب تزهناه عن الخلعة ! وَالْفُحْشُ إِجْلَالًا لِنَصِيبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .
 قال هشام بن عبد الملك يوما لأصحابه : إِنَّ سَمَقَ الرَّجُلِ يُعْرَفُ بِخِصَالِ أَرْبَعٍ :
 طَوَّلِ رِجْلَيْهِ ، وَبِشَاعَةِ كُنْيَتِهِ ، وَنَقْشِ خَاتَمِهِ ، وَإِفْرَاطِ نَهْمَتِهِ . فدخل عليه شيخٌ طويلُ
 العُنُونِ ، فقال هشام : أَمَّا هَذَا فَقَدْ جَاءَ بِوَاحِدَةٍ ، فَانظُرُوا أَيْنَ هُوَ مِنَ الْبَاقِي ؛ قَالُوا
 لَهُ : مَا كُنْيَةُ الشَّيْخِ ؟ قَالَ : أَبُو الْيَاقُوتِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ نَقْشِ خَاتَمِهِ ، فَإِذَا هُوَ :

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾^(١) ف قيل له : أى الطعام تشتهي؟ قال : الدُّبَاءُ^(٢) بازيت ؛ فقال هشام : إن صاحبكم قد كمل .
وسمِع عمرُ بنُ عبدِ العزيز رجلاً يُنادي آخرَ : يا أبا العُمَرَيْن ؛ فقال : لو كان له عقلٌ لكفاه أحدهما .

وأرسل ابنُ لجعل بن الجيم^(٣) فرساً له في حلبة ، فجاء سائِقاً ، ف قيل له : سُمَّه باسمٍ يُعرف به ، فقام ففَقَأَ عَيْنَهُ وقال : قد سَمَّيْتُهُ الأَعْوَر ، فقال شاعرٌ يَهْجُوهُ :
رمتني بنو عجل بداءٍ أبيهمُ وأى عباد الله أنوكُ من عجلٍ !
أليس أبوهم عارَ عَيْنَ جَوادِهِ فأضحتُ به الأمثالُ تُضربُ بالجهلِ
وقال أبو كعب القاصُّ في قصصه : إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وآله قال في كَيْدِ حمزةَ
ما علمتم ، فادعوا الله أن يُطعمنا من كَيْدِ حمزة !

وقال مرَّةً في قصصه : اسمُ الذئبِ الَّذِي أَكَلَ يوسفَ كذا وكذا ، ف قيل له : إنَّ يوسفَ لم يأكلهُ الذئبُ ؟ فقال : فهذا اسمُ الذئبِ الَّذِي لم يأكل يوسفَ .
ودخل كعبُ البَقَرِ الهاشميُّ على محمد بن عبدِ الله بنِ طاهر يعزِّيهِ في أخيه ، فقال له :
أعظمَ الله مُصِيبَةَ الأمير ! فقال الأمير : أمّا فيك فقد فَعَلَ ، واللهِ لقد هَمَمْتُ أن أحلِقَ
لحيَتَكَ ؛ فقال : إنما هي لِحْيَةُ اللهِ وَلِحْيَةُ الأميرِ فليفعل ما أَحَبَّ .

وكان عامرُ بنُ كُرَيْزٍ أبو عبدِ الله بنِ عامر ، مِنْ حَمَتَى قريش ، نظر إلى عبدِ الله وهو
يَخْطُبُ والناسُ يَسْتَحْسِنُونَ كلامَهُ ، فقال للإنسانِ إلى جانبِهِ : أنا أخرجُكَ من هذا — وأشار
إلى مَتاعِهِ .

(١) سورة يوسف ١٨ . (٢) الدُّبَاءُ : الفرع .

(٣) ورد الاسمُ معرفاً في ١ ، ب . وأصلحته من د ، والعقد ٦ : ١٥٦ .

ومن حمقى قريش العاص بن هشام الخزومي ، وكان أبو لهب قامره فقمره ماله ثم داره ، ثم قليله وكثيره وأهله ونفسه ، فاتخذ عيدا ، وأسلمه قينا ، فلما كان يوم بدر بعث به بدिला عن نفسه ، فقتل بيدر ، قتله عمر بن الخطاب ، وكان ابن عم أمه .

ومن الحمقى الأحوص بن جعفر بن عمرو بن حريث ، قال له يوما مجالسوه : ما بال وجهك أصفر ! أتشتكي شيئا ؟ فرجع إلى أهله ، وقال : يا بني الخيبة ، أنا شاك ولا تعلموني ! اطرخوا على الثياب وأبعثوا إلى الطبيب .

ومن حمقى بني عجل حسان بن الغضبان من أهل الكوفة ، ورث نصف دار أبيه ، فقال : أريد أن أبيع حصتي من الدار ، وأشتري بالثمن النصف الباقي ، فتصير الدار كلها لي .

ومن حمقى قريش بكار بن عبد الملك بن مروان ، وكان أبوه ينهاه أن يجالس خالد ابن يزيد بن معاوية لما يعرف من محقه ، فجلس يوما إلى خالد ، فقال خالد يعث به : هذا والله المردد في بني عبد مناف ، فقال بكار : أجل ، أنا والله كما قال الأول :

* مردد في بني اللخناء ترديدا *

وطار ليكار هذا بازي ، فقال لصاحب الشرطة : أغلق أبواب دمشق لئلا يخرج البازي .

ومن حمقى قريش معاوية بن مروان بن الحكم ، بينا هو واقف بباب دمشق ينتظر أخاه عبد الملك على باب طحان ، وجمار الطحان يدور بالرحا وفي عنقه جمل ، فقال للطحان : لم جعلت في عنق هذا الحمار جملًا ؟ فقال : ربما أدركتني نعمة أو سامة ، فإذا لم أسمع صوت الجمل علمت أنه قد نام ، فصاحت به ، فقال : أرايته إن قام وحرك رأسه ، ما علمك به أنه قائم ؟ فقال : ومن لحماري بمثل عقل الأمير !

وقال معاوية لِحَمِيهِ وقد دَخَلَ بِأَبْنَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَاغْتَضَّهَا : لقد ملأَتْنا ابْنَتُكَ البارحة دماً ؛ فقال : إِنْهَا مِنْ نِسْوَةٍ يَخْبَأُنْ ذَلِكَ لِأَزْوَاجِهِمْ .

ومن سَحَقَى قُرَيْشٍ سُلَيْمَانُ بْنُ زَيْدٍ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، قال يوماً : لعنَ اللهُ الْوَلِيدَ أَخِي ! فلقد كان فاجراً ، أَرَادَنِي عَلَى الْفَاحِشَةِ ، فقال له قَاتِلْ مِنْ أَهْلِهِ ، اسْكُتْ وَيَحْكُكْ ، فوالله إِنْ كَانَ هَمٌّ لَقَدْ فَعَلَ !

وخطبَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ عَائِشَةَ ابْنَةَ عُمَانَ ، فقالت : هو أَحَقُّ ، لَا أَتَزَوِّجُهُ أَبَدًا ، بِهِ يَرْذَوْنَانِ لَوْ سَهُمَا وَاحِدَ عِنْدَ النَّاسِ ، وَيَحْمِلُ مِثْلَهُ أَثْنَيْنِ .

وَمَنْ كَانَ يُحَقِّقُ مِنْ قُرَيْشٍ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ قَيْسِ بْنِ نَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ وَسَهْلُ بْنُ عَمْرِو أَخُو سُهَيْلِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ . وكان عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يَقُولُ : أَحَقُّ بَيْتٍ فِي قُرَيْشٍ آلُ قَيْسِ ابْنِ نَخْرَمَةَ .

ومن القبائل المشهورة بِالْحَقِّ الْأَزْدُ ، كتبَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى زَيْدِ ابْنِ الْمُهَلَّبِ لَمَّا خَرَجَ عَلَيْهِمْ : إِنَّكَ لَسْتَ بِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ ، إِنَّ صَاحِبَهُ مَغْمُورٌ مَوْتُورٌ ، وَأَنْتَ مَشْهُورٌ غَيْرُ مَوْتُورٍ . فقامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ ، فقال : قَدِّمْ أَبْنَكَ نَحْلُدَا حَتَّى يُقْتَلَ فَتُصِيرَ مَوْتُورًا .

وقامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ إِلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللهُ الْأَمِيرُ ! إِنَّ امْرَأَتِي هَلَكَتْ ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ أُمِّهَا ، وَهَذَا عَرِيفِي فَأَعِنِّي فِي الصَّدَاقِ ، فقال : فِي كَمْ أَنْتَ مِنَ الْمِطَاءِ ؟ فقال : فِي سَبْعِمِائَةٍ ، فقال : خُطُّوْا مِنْ عَطَائِهِ أَرْبَعِمِائَةٍ ، يَكْفِيكَ ثَلَاثُمِائَةٌ . وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنْهُمْ الْمُهَلَّبَ فَقَالَ :

نعم أميرُ الرِّفْقَةِ الْمُهَلَّبُ . أَبْيَضُ وَضَّاحٌ كَتَيْسُ الْحَلْبُ

فقال المهلب : حَسْبُكَ يَرْحَمَكَ اللهُ !

وكان عبدُ الملك بنُ هلالٍ عنده زَنْبِيلٌ^(١) مملوءٌ حصاً للتسبيح ، فكان يسبِّحُ بواحدة واحدة ، فإذا مَلَّ طَرَحَ اثنتين اثنتين ، ثم ثلاثاً ثلاثاً ، فإذا أزدادَ مَلَأَهُ قَبْضَ قبضةٍ وقال : سبحانَ اللهِ عَدَدُكَ ! فإذا ضَجِرَ أخذَ بُمراً الزَنْبِيلِ وَقَلَبَهُ ، وقال : سبحانَ اللهُ بعدَ هذا .

ودخَلَ قومٌ منزلَ الخُرَيْمِيِّ لبعضِ الأمرِ ، فجاء وقتُ صلاةِ الظهر ، فسألوه عن القبلة ، فقال : إنما تركتها منذ شهر .

وحَكَى بعضهم ، قال : رأيتُ أعرابياً يَبْكِي ، فسألتُهُ عن سببِ بكائه ، فقال : بلغني أن جالوتَ قتلَ مظلوماً .

وَصَفَ بعضهم أحمقَ ، فقال : يَسْمَعُ غيرَ ما يقال ، وَيَحْفَظُ غيرَ ما يَسْمَعُ ، وَيَكْتُبُ غيرَ ما يَحْفَظُ ، وَيُحَدِّثُ بغيرِ ما يَكْتُبُ .

قال المأمونُ لثَمَامَةَ : ما جَهِدَ البلاءُ يا أبا مَعْنٍ ؟ قال : عالمٌ يَجْرِي عليه حُكْمُ جاهلٍ . قال : من أين قلتَ هذا ؟ قال : حبسني الرشيدُ عندَ مسرورِ الكبير ، فضَيَّقَ عليَّ أنفاسي ، فسمعتُهُ يوماً يقرأ : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾^(١) بفتحِ الذال ؛ فقلتُ له : لا تقلَ أيها الأميرُ هكذا ، قل : ﴿ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ؛ وكسرتُ له الذال ، لأنَّ المكذِّبينَ هم الأنبياءُ ، فقال : قد كان يقالُ لي عنك : إنك قَدَرِي ، فلا نجوتُ إنْ نجوتُ اللَّيلةَ مَنِّي ! فعاينتُ منه تلكَ اللَّيلةَ الموتَ من شدَّةِ ما عَذَّبَنِي .

قال أعرابيٌّ لأبْنِهِ : يا بنيَّ كُنْ سَبْعاً خالِصاً ، أو ذنباً حائِصاً^(٢) ، أو كَلْباً حارِصاً ، ولا تكنَ أحمقَ ناقِصاً .

(١) الزنبيل ، بالكسر وقد يفتح : القفة أو الجراب أو الوعاء .

(٢) سورة المرسلات ١٩ . (٣) يقال ؛ يحوس الذئب الغنم ؛ أي يتخللها ويفرقها .

وكان يقال : لولا ظلمة الخطأ ما أشرق نور الصواب .

وقال أبو سعيد السيراقي : رأيت متكلماً بينداد بلغ به نقصه في العربية أنه قال في مجلس مشهور : إن العبد « مضطر » بفتح الطاء ، والله « مضطر » بكسرها ؛ وزعم أن من قال : « الله مضطر عبد إلى كذا » ، بالفتح كافر ، فانظر أين بلغ به جهله ، وإلى أي رذيلة أداه نقصه !

وصف بعضهم إنساناً أحمق ، فقال : والله للحكمة أزلّ عن قلبه من السداد عن الأديم الدهين .

مرّ عمر بن الخطاب على رومة غرض ، فسمع بعضهم يقول : أخطيت وأسبّت ؛ فقال له : مه ، فإن سوء اللحن شرّ من سوء الرماية .

تضجّر عمر بن عبد العزيز من كلام رجل بين يديه ، فقال له صاحب شُرطته : قم فقد أوديت أمير المؤمنين ! فقال عمر : والله إنك لأشدّ أذى لي بكلامك هذا منه .

ومن حمقى العرب وجُهلاءهم كلاب بن صعصعة ، خرج إخوته يشترون خيلاً ، فرج معهم ، فجاء بعجل يقوده ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : فرسٌ أشتريته ؛ قالوا : يامائق^(١) ؛ هذه بقرة ، أما ترى قرنيها ! فرجع إلى منزله ففكّ قرنيها ، ثم قاده ، فقال لهم : قد أعدتُها فرسا كما تريدون ، فأولادُه يُدعَوْنَ بنى فارس البقرة .

وكان شذرة بن الزبرقان بن بدر من الحُمق ، جاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع فأخذ بمضادتي^(٢) الباب ، ثم رفع صوته : سلامٌ عليكم ، أيلج شذرة ؟ فقيل له : هذا يوم لا يُستأذن فيه ، فقال : أو يلج مثلي على قومٍ ولم يُعرف له مكانه .

(١) المائق : الأحمق .

(٢) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .

واستعمل معاويةُ عاملاً من كُتّاب ، فخطبَ يوماً ، فذكرَ المجوسَ ، فقال : لَعَنَهُمُ اللهُ ! يَنْكِحُونَ أُمَّهَاتِهِمْ ، وَاللّهِ لو أُعْطِيتُ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ما نَكَحْتُ أُمِّي ، فبلغ ذلك معاويةَ ، فقال : قَبِّحَهُ اللهُ ! أَتَرَوْنَهُ لو زادوه فَعَلَ ! وَعَزَلَهُ .

وشرَدَ بَعِيرٌ لَهْبَنَّةٌ - واسمُه يزيدُ بنُ شروان - فجعل يُنادي : لمن أتى به بَعِيرَانِ ، فقيل له : كيف تَبَذَّلَ وَيَلِكُ بَعِيرَيْنِ في بَعِيرٍ ! فقال لَحْلَاوَةُ الوجدان .

وسُرِقَ من أعرابيٍّ حمارٌ ، فقيل له : أُسْرِقَ حمارُك ؟ قال : نَعَمْ ، وأحمدُ اللهَ ، فقيل له : على ماذا تَحَمِّدُه ؟ قال : كيف ! لم أكن عليه .

وخطبَ وكيعُ بنُ أبي سود^(١) بخراسانَ ، فقال : إِنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ في سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فقيل له : إِنَّهَا سِتَّةُ أَيَّامٍ ، فقال : وَاللهِ لَقَدْ قُلْتُهَا وَأَنَا أَسْتَقِيلُهَا !

وأَجْرِيَتْ خَيْلٌ فَطَلَعَ فِيهَا فَرَسٌ سَابِقٌ ، فجعل رجلٌ من النَّظَّارَةِ يَكْبُرُ وَيَتَّبِعُ مِنَ الْفَرَسِ ، فقال له رجلٌ إلى جانبِه : يافتي ، أَهَذَا الْفَرَسُ السَّابِقُ لَكَ ؟ قال : لا وَلَكِنْ اللَّجَامَ لِي .

وقيل لأبي السَّفَّاحِ الأعرابيِّ عند موته : أَوْصِ ، فقال : إِنَّا الْكَرَامُ يَوْمَ طَخْفَةِ^(٢) ، قالوا : قلْ خيراً يَا أبا السَّفَّاحِ ، قال : إِن أَحَبَّتْ أُمْرَأَتِي فَأَعْطُوهَا بَعِيراً ، قالوا : قل خيراً ، قال : إِذَا مَاتَ غُلَامِي فَهُوَ حُرٌّ .

وقيل لرجلٍ عند موته : قل لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَأَعْرَضَ ، فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَراراً ، فقال لهم : أَخْبِرُونِي عَنْ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَتْهَا عِنْدَ مَوْتِهِ ؟ قالوا : وما أنتَ وأبو طَالِبٍ ! فقال : أَرْغَبُ بِنَفْسِي عَنْ ذَلِكَ الشَّرِيفِ .

(١) ب : « أسود » تصحيف صوابه في د .

(٢) طخفة : موزم في طريق البصرة إلى مكة ؛ ويوم طخفة من أيامهم ، لبني يربوع على المنذر بن ماء السماء

وقيل لآخر عند موته : ألا تُوصي ؟ فقال : أنا مغفورٌ لي ، قالوا : قل : إن شاء الله ،
قال : قد شاء الله ذلك ، قالوا : يا هذا لا تدع الوصية ، فقال : لابنِ أخيه ، يا بنى حريث ،
ارفعوا وسادي ، واحتفظوا بالحلة الجياد^(١) ، فإنما حولكما الأعدى .
وقيل : لمعلم ابن معلم : مالك أحمق ؟ فقال : لو لم أكن أحمق ؛ لكنتُ ولدَ زِناء .

(٤١)

الأفضل :

وقال عليه السلام لبعض أصحابه في علة اعتلها :

جَعَلَ اللَّهُ مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ وَيَحْتُمُّهَا حَتَّ الْأَوْرَاقِ ، وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ ، وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسِّرِّيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ .

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وأقول : صدق عليه السلام ، إِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، لَأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ مَا يُسْتَحَقُّ عَلَيْهِ الْعِوَضُ ؛ لِأَنَّ الْعِوَضَ يُسْتَحَقُّ عَلَى مَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَبْدِ مِنَ الْآلَامِ وَالْأَمْرَاضِ وَمَا يَجْرَى بِجَرَى ذَلِكَ ، وَالْأَجْرُ وَالثَّوَابُ يُسْتَحَقَّقَانِ عَلَى مَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ فِعْلِ الْعَبْدِ ، فَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ قَدْ بَيَّنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُ الثَّاقِبُ وَرَأْيُهُ الصَّائِبُ .

البُخ :

ينبغي أن يُحْمَلُ كَلَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْفَصْلِ عَلَى تَأْوِيلٍ يُطَابِقُ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَالْأَلْأُ يُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَرَضَ إِذَا اسْتَحَقَّ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ

العوض لم يَجُزْ أن يقال : إنَّ العِوَضَ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ بنفسه ، لا على قول أصحابنا ، ولا على قول الإمامية ، أمَّا الإمامية فإنهم مُرَجِّئَةٌ ، لا يَذْهَبُونَ إلى التَّحَابُطِ ، وأمَّا أصحابنا فإنهم لا تَحَابُطَ عندهم إلا في الثَّوَابِ والعقاب ؛ فأمَّا العقاب والعِوَضَ فلا تَحَابُطَ بينهما ؛ لأنَّ التَّحَابُطَ بين الثَّوَابِ والعقاب ، إنما كان باعتبار التَّنَافِي بينهما من حيثُ كان أحدهما يتضمَّن الإجلال والإعظام ، والآخَرُ يتضمن الاستخفاف والإهانة ، ومَحَالٌّ أن يكون الإنسان الواحد مُهَانًا معظَّمًا في حالٍ واحدة ؛ ولما كان العِوَضُ لا يتضمَّن إجلالًا وإعظامًا ، وإنما هو نَمْعٌ خالص فقط ، لم يكن منافيا للعقاب ، وجاز أن يجتمع للإنسان الواحد في الوقت الواحد كونه مستحقًّا للعقاب والعِوَضَ ، إمَّا بأن يوفَّرَ العِوَضُ عليه في دار الدنيا ، وإمَّا بأن يوصَلَ إليه في الآخرة قبل عِقَابِهِ ، إن لم يمنع الإجماع من ذلك في حقِّ الكافر ، وإمَّا أن يُخَفَّفَ عليه بعضُ عقابه ، ويجعل ذلك بدلًا من العِوَضِ الذي كان سبيله أن يوصَلَ إليه . وإذا ثبت ذلك وجَبَ أن يُجعل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على تأويل صحيح ، وهو الذي أَرَادَهُ عليه السلام ، لأنه كان أعَرَفَ الناسَ بهذه المعاني ، ومنه تَعَلَّمَ المتكلمون علم الكلام ، وهو أن المرض والألم يَحُطُّ اللهُ تعالى عن الإنسان المبتلى به ما يستحقُّه من العقاب على معاصيه السالفة تَفَضُّلاً منه سبحانه ، فلما كان إسقاط العقاب متمقِّبًا للمرض ، وواقعا بعده بلا فَصْلٍ ، جاز أن يُطلق اللفظ بأنَّ المرض يَحُطُّ السيئات ويَحْتَمِلُهَا حَتَّى الْوَرَقِ ، كما جاز أن يُطلق اللفظ بأنَّ الجماع يُجِبُّ المرأة ، وبأنَّ سَقَى الْبَذْرِ الماء ينبتُه ، إن كان الولد والزرع عند المتكلمين وقما من الله تعالى على سبيل الاختيار ، لا على الإيجاب ؛ ولكنه أجرى العادة ؛ وأن يفعل ذلك عَقِيبَ الجماع وعَقِيبَ سَقَى الْبَذْرِ الماء .

فإن قلت :: أَيْجُوزُ أن يقال : إنَّ الله تعالى يمرض الإنسان المستحقَّ للعقاب ، ويكون

إنما أمرضه لِيُسْقَطَ عنه العقاب لا غير ؟

قلت : لا ، لأنه قادر على أن يُسْقِطَ عنه العقاب ابتداءً ، ولا يجوز إنزال الألم إلا حيث لا يمكن اقتناص العوض الجزى به إليه إلا بطريق الألم ، وإلا كان فعلُ الألم عبثاً، ألا ترى أنه لا يجوز أن يستحق زيدٌ على عمرٍ و ألف درهم فيضرب به ويقول : إنما أضربه لأجعل ما يناله من ألم الضرب مُسْقِطاً لما أُسْتَحَقَّه من الدراهم عليه ؟ وتذمه العقلاء ويسفهونه ، ويقولون له فهلاً وهبتّها له ، وأسقطتها عنه من غير حاجة إلى أن تضربه وتؤله ! والبحث المستقصى في هذه المسائل المذكور في كُتُب الكَلَامِيَّة ، فليرجع إليها . وأيضاً فإن الآلام قد تنزل بالأنبياء وليسوا ذَوِي ذُنُوب وَمَعَاصٍ ليقال : إنّها تحطها عنهم .

فأما قوله عليه السلام : « وإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ . . . » إلى آخر الفصل ، فإنه عليه السلام قَسَمَ أسباب الثواب أقساماً ؛ فقال : لما كان الرّض لا يقتضى الثواب لأنه ليس فعل المكفّ - وإنما يستحق المكف الثواب على ما كان من فعله - وَجَبَ أن يبيّن ما الذى يستحق به المكف الثواب ، والذى يستحق المكف به ذلك أن يفعل فعلاً إما مِنْ أفعال الجوارح ؛ وإما من أفعال القلوب ، فأفعال الجوارح إما قول باللسان أو عمل ببعض الجوارح وعبرَ عن سائر الجوارح - عدا اللسان - بالأيدي والأقدام ، لأن أكثر ما يُفعل بها ، وإن كان قد يُفعل بغيرها نحو مجامعة الرجل زوجته إذا قُصِدَ به تحصيلها وتحصيله عن الزنا ، ونحو أن يُنَحَّى حَجَرٌ ثَقِيلاً برأسه عن صدر إنسانٍ قد يُقْتَلُ، وغير ذلك، وأما أفعال القلوب فهي العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم ، فمُبرّر عليه السلام عن جميع ذلك بقوله : « بصدق النية والسريّة الصالحة ، واكتفى بذلك عن تعديد هذه الأجناس .

فإن قلت : فإنّ الإنسان قد يستحق الثواب على ألا يفعل القبيح، وهذا يخرم الحصر الذى حصّره أمير المؤمنين ؟

قلت : يجوز أن يكون يذهب مذهب أبي عليّ في أن القادر بقدرته لا يخلو عن الأخذ والترك .

(٤٢)

الأُضَلُّ :

وقال عليه السلام في ذكر خباب :

رَحِمَ اللَّهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرْثِ ! فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا ، وَهَاجَرَ طَالِمًا ، وَوَعَّاشَ مُجَاهِدًا . طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَقَنِيعَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِيَ عَنْ اللَّهِ !

السُّنْحُ :

[خَبَّابُ بْنُ الْأَرْثِ]

هو خَبَّابُ بْنُ الْأَرْثِ بْنُ جَنْدَلَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ ابْنِ تَيْمٍ ، يَكْنَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ - وَقِيلَ : أَبَا مُحَمَّدٍ وَقِيلَ : أَبَا يَحْيَى - أَصَابَهُ سَبْيٌ فَبِيعَ بِمَكَّةَ ^(١) . وَكَانَتْ أُمُّهُ خَتَّانَةَ ، وَخَبَّابُ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارِهِمْ ، وَكَانَ بِهِ مَرَضٌ ، وَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَيْنًا حِدَادًا يَعْمَلُ السُّيُوفَ ، وَهُوَ قَدِيمُ الْإِسْلَامِ ؛ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ سَادِسَ سِتَّةٍ ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ ، وَهُوَ مَعْدُودٌ فِي الْمُعَذِّبِينَ فِي اللَّهِ ؛ سَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

(١) الاستيعاب : « كَانَ قَيْنًا يَعْمَلُ السُّيُوفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَصَابَهُ سَبَاءٌ فَبِيعَ بِمَكَّةَ ، فَاشْتَرَتْهُ أُمُّ أَعْمَارِ بِنْتُ سَبَاعِ الْخَزَاعِيَّةِ » .

أيام خلافته : ما لقيت من أهل مكة ؟ فقال : انظر إلى ظهري ؛ فنظر فقال : ما رأيت
كالיום ظهرَ رجل ! فقال خَبَّاب : أوقدوا لي نارا وسُحِبْتُ^(١) عليها ، فما أطفأها إلا
وَدَكَ ظَهْرِي .

وجاء خَبَّاب إلى عمر ، فجعل يقول : ادنُهُ ، ادنُهُ ، ثم قال له : ما أحدٌ أحقُّ بهذا
المجلس منك ؛ إلا أن يكون عَمَّارُ بْنُ يَاسِر . نزل خَبَّابُ إلى الكوفة ، ومات بها في سنة
سبع وثلاثين ، وقيل : سنة تسع وثلاثين ، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام
صِفِّينَ وَهْرَوانَ ، وصلى عليه عليٌّ عليه السلام ، وكانت سنُّه يومَ مات ثلاثا وسبعين سنة ،
ودُفِنَ بِظَهْرِ الكوفة^(٢) .

وهو أوَّل من دُفِنَ بِظَهْرِ الكوفة ، وعبدُ الله بن خَبَّاب هو الذي قتلته الخوارج ،
فاحتجَّ على عليه السلام به وطلبهم بدَمِهِ ، وقد تقدَّم ذكرُ ذلك .

(١) ب : « وسخنت » ، وأثبت ما في ا ، د ، والاستيعاب .

(٢) انظر ترجمة خباب في الاستيعاب ١ : ٤٣٨ .

(٤٣)

الأصل :

وقال عليه السلام :

لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ، وَلَوْ صَبَبْتُ
الدُّنْيَا بِجَمَائِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَأَنْقَضِيَ عَلَى
لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ ، لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ،
وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » .

الشرح :

جَمَائِهَا بالفتح : جمعُ جَمَّة ، وهي المكان يجتمع فيه الماء وهذه استعارة ، والخيشوم :
أقصى الأنف .

ومرادؤه عليه السلام من هذا الفصل إذكّار الناس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه
وآله ، وهو : « لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » ؛ وهي كلمة حقّ ، وذلك لأنّ
الإيمان وبغضه عليه السلام لَا يَجْتَمِعَان ، لأنّ بغضه كبيرة ، وصاحب الكبيرة عندنا
لَا يَسْمَى مُؤْمِنًا ، وأما المنافق فهو الذي يُظْهَرُ الْإِسْلَامَ وَيُخْفِي الْكُفْرَ ، والكافرُ بعقيدته
لَا يُحِبُّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لأنّ المراد من الخبر الْحُبُّ الدِّينِيّ ، ومن لَا يَعْتَقِدُ الْإِسْلَامَ
لَا يُحِبُّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، لِإِسْلَامِهِ وَجِهَادِهِ فِي الدِّينِ ، فَقَدْ بَانَ أَنَّ الْكَلِمَةَ حَقٌّ ؛
وهذا الخبر مَرْوِيٌّ فِي الصَّحَاحِ بِغَيْرِ هَذَا اللفظ : « لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضُكَ
إِلَّا مُنَافِقٌ » ، وقد فسرناه فيما سبق .

(٤٤)

الأصل :

سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

الشرح :

هذا حقّ ، لأن الإنسان إذا وقع منه القبيح ثمّ ساء ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كَفَرَتْ توبته معصيته ، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب ، وحصل له ثوابُ التوبة ، وأمّا من فعل واجبا واستحقّ به ثوابا ثمّ خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه ، والتّيه على الناس بعبادته واجتهاده ، فإنه يكون قد أحبط ثواب عبادته بما شَفَعَهُ من القبيح الذي أتاه ، وهو العُجْب والتّيه والإدلال على الله تعالى ، فيعود لا مُثَابَا ولا مُعَاقِبَا ، لأنه يتكافأ الاستحقاقان .

ولا ريب أنّ من حَصَلَ له ثواب التوبة ، وسَقَطَ عنه عقاب المَعْصِيَةِ ؛ خيرٌ ممّن خرج من الأمرين كَفَافاً^(١) لا عليه ولا له .

(١) الكفاف من الشيء ، مثله .

(٤٥)

الأصل :

قَدَرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدَرِ هِمَّتِهِ ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدَرِ مَرْوَاتِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدَرِ أَنْفَتِهِ ،
وَعَفَّتُهُ عَلَى قَدَرِ غَيْرَتِهِ .

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ في كلّ هذه الشّيم والخصال ، ثم نقول ها هنا : إنّ كِبَرِ الهمة خلق
مختصّ بالإنسان فقط ، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك ، وإنّما يتجرّأ كلّ
نوع منها الفعل بقدر ما في طبعه ، وعلوّ الهمة حالٌ متوسطة محمودة بين حالتين طرفي رذيلتين ،
وهما الندح ، وتسميه الحكاء التفتّح - وصغر الهمة - وتسميه الناس الدّناءة ، فالتفتّح تأهل
الإنسان لما لا يستحقّه ، وصغر الهمة تركه لما يستحقّه لضعفٍ في نفسه ، فهذان مذمومان ،
والعدالة وهي الوَسَطُ بينهما محمودة ، وهي علوّ الهمة ، وينبغي أن يعلم أن التفتّح جاهلٌ
أحمق ، وصغيرُ الهمة ليس بجاهل ولا أحمق ، ولكنه ذئبٌ ضعيف قاصر ، وإذا أردت
التحقيق ، فالكبير الهمة من لا يرضى بالهمم الحيوانيّة ، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند
رعاية بطنه وفرجه ؛ بل يجتهد في معرفة صانع العالم ومصنوعاته ، وفي اكتساب المكارم
الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه في الدّنيا ، ومجاوريه في الآخرة . ولذلك
قال : مَنْ عَظُمَتْ هِمَّتُهُ لَمْ يَرْضَ بِقُنْيَةٍ مُسْتَرْدَّةٍ ، وَحَيَاةٍ مُسْتَعَارَةٍ ، فَإِنْ أَمَكْنَكَ

— ١٧٦ —

أن تقتنى فنية مؤبّدة ، وحياة مخلّدة ، فافعل غير مكترث بقلة مَنْ يصحبك ويمينك
على ذلك فإنه كما قيل :

* إذا عظم المطلوب قل المساعد *

وكما قيل :

* طرقُ العلاء قليلة الإيناس *

وأما الكلام في الصدق والروءة والشجاعة والأنفة والعفة والغيرة ، فقد تقدّم
كثيرٌ منه ، وسيأتى ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(٤٦)

الأفضل :

الظفر بالحزم والحزم بإجالة الرأي ، والرأي بتخصيص الأسرار .

الشيخ :

قد تقدم القول في كتمان السر وإذاعته .

وقال الحكماء : السر ضربان : أحدهما ما يلقى إلى الإنسان من حديث ليستكتم ، وذلك إما لفظا كقول القائل : أكنتم ما أقوله لك ، وإما حالا وهو أن يجهر^(١) بالقول حال أنفراد صاحبه ، أو يخفض صوته حيث يخاطبه ، أو يخفيه عن مجالسيه ؛ ولهذا قيل : إذا حدثك إنسان والتفت إليه فهو أمانة .

والضرب الثاني نوعان : أحدهما أن يكون حديثاً في نفسك تستبجح إشاعته ، والثاني أن يكون أمراً تريد أن تفعله .

وإلى الأول أشار النبي صلى الله عليه وآله بقوله : « من أتى منكم شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عز وجل » ، وإلى الثاني أشار من قال : « من ألوهن والضعف إعلان الأمر قبل إحكامه » ، وكتمان الضرب الأول من الوفاء ، وهو مخصوص بموأم الناس ، وكتمان الضرب الثاني من المروءة والحزم ؛ والنوع الثاني من نوعيه أخص بالملوك وأصحاب السياسات .

قالوا : وإذاعة السر من قلة الصبر ، وضيق الصدر ، ويوصف به ضعفة الرجال

(١) ب : « يحدث » .

والنساء والصبيان . والسبب في أنه يصعب كتمان السرّ أن للإنسان قوتين : إحداهما آخذة ، والأخرى مُعْطِيَّة ، وكل واحدةٍ منهما تنشوق إلى فعلها الخاص بها ، ولولا أن الله تعالى وَكَّلَ العطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبار مَنْ لَمْ تُزَوِّد ، فعلى الإنسان أن يُمسِكَ هذه القوة ولا يُطْلِقَهَا إِلَّا حيثَ يَجِبُ إطلاقُها ، فإنها إن لم تُزَمَّ وتُخَطَمَ ؛ تَقَحَّمَتْ بِصاحبها في كلِّ مَهَلَكَةٍ .

(٤٧)

الأفضل

احذروا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ .

الشرح :

ليس معنى بالجوع والشَّبَعُ ما يتعارفُهُ الناس ، وإنما المراد : احذروا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ
إِذَا ضِيمَ ، وَاْمْتُهُنَ ، واحذروا صَوْلَةَ اللَّئِيمِ إِذَا أُكْرِمَ . ومثل المعنى الأول قولُ الشاعر :
لا يصيرُ الحرُّ تحتَ ضَيْمِهِ وإنما يصيرُ الحمارُ

ومثلُ المعنى الثاني قولُ أبي الطيّب :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا^(١)

(١) ديوانه ١ : ٢٨٨ .

(٤٨)

الأفضل :

قُلُوبُ الرِّجَالِ وَخَشِيَّةٌ ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

الشَّيْخُ :

هذا مثلُ قولهم : من لَانَ اسْتَمَالَ ، ومن قَسَا نَقَرَ ، وما اسْتَعْبِدَ الْحَرَّ بِمِثْلِ الْإِحْسَانِ
إِلَيْهِ . وقال الشاعر :

وَإِنِّي لَوَحْشِيٌّ إِذَا مَا زَجَرْتَنِي وَإِنِّي إِذَا أَلْفَتَنِي لَأَلُوفُ
فَأَمَّا قَوْلُ عُمَارَةَ بْنِ عَقِيلٍ :

تَبَحَّثْتُمْ سُخْطِي فَكَدَّرَ بِحُكْمٍ نَخِيلَةَ نَفْسٍ كَانَ صَفْوَاً ضَمِيرُهَا^(١)
وَلَمْ يَلْبِثِ التَّخْشِينَ نَفْساً كَرِيمَةً عَلَى قَوْمِهَا أَنْ يَسْتَمِرَّ صَرِيرُهَا
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا نَظْفَةٌ بِقِرَارَةٍ إِذَا لَمْ تَكْدَّرْ كَانَ صَفْوَاً غَدِيرُهَا

فيكاد يُخَالِفُ قَوْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْأَصْلِ ، لِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
جَعَلَ أَصْلَ طَبِيعَةِ الْقُلُوبِ التَّوَحُّشَ ، وَإِنَّمَا تُسْتَمَالَ لِأَمْرِ خَارِجٍ^(٢) ، وَهُوَ التَّأَلُّفُ وَالْإِحْسَانُ ؛
وَعُمَارَةُ جَعَلَ أَصْلَ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الصَّفْوَ وَالسَّلَامَةَ ، وَإِنَّمَا تَكْدَّرُ وَتَجْمَعُ لِأَمْرِ خَارِجٍ^(٢) ،
وَهُوَ الْإِسَاءَةُ وَالْإِيحَاشُ .

(١) الكامل للمبرد ١ : ٢٩ . (٢) ١ : « من خارج » .

(٤٩)

الأفضل :

عَيْبُكَ مَسْتَوْرٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ .

* * *

البُخْرُ :

قد قال الناسُ في الجَدِّ فأكثرُوا ، وإلى الآن لم يتحقَّق معناه ؛ ومن كلام بعضهم :
إذا أقبل البُخْتُ باضت الدَّجاجة على الوَدِّ ، وإذا أدبر البُخْتُ أسعَرَ الهالونُ
في الشَّمْسِ .

ومن كلام الحكماء : إنَّ السَّعادةَ لتلحظ الحِجَرَ فيُدعى رَبًّا .

وقال أبو حيان : نوادر ابن الجصاص الدالة على تنفُّله وبَلَهه كثيرة جدًا ، قد صُنِّف
فيها الكُتُب . مِنْ بَجَلَتِها أَنَّهُ سَمِعَ إِنساناً يُنْشِدُ نَسِيئاً فِيهِ ذِكْرُ هِنْدَ ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ ،
وقال : لا تذكروا حَمَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَأَشْيَاءٌ عَجِيبَةٌ أَظَرَفَ مِنْ هَذَا .
وكانت سعادته تُضْرَبُ بِهَا الْأَمْثالُ ، وَكَثْرَةُ أَمْوالِهِ الَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ لِقَارُونَ مِثْلُهَا . قال
أبو حيان : فكان الناسُ يَعْجَبُونَ مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى أَنَّ جَماعَةً مِنْ شُيوخِ بَغدادَ كانوا
يقولون : إنَّ ابْنَ الْجِصاصِ أَعْقَلَ النَّاسِ ، وَأَحْزَمَ النَّاسِ ، وَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَلْحَمَ الْحالَ
بَيْنَ الْمُعْتَصِدِ وَبَيْنَ خَمارَوَيْهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ ، وَسَفَرَ بَيْنَهُمَا سِفارةً عَجِيبَةً ، وَبَلَغَ مِنْ
الْجَهَّتَيْنِ أَحْسَنَ مَبْلَغٍ ؛ وَخَطَبَ قَطْرَ النَّدى بِنْتِ خَمارَوَيْهِ لِلْمُعْتَصِدِ ، وَجَهَّزَهَا مِنْ مِصرَ

على أَجَلٍ وَجْهٍ وأعلى ترتيب ، ولكنه كان يَقْصِدُ أن يتغافل ويتجاهل ويُظهر البَلَهَ والنقص ، يَسْتَبْقِي بذلك ماله ، ويحْرُسُ به نِعْمَتَهُ ، ويدْفَعُ عنه عينَ الكَلالِ ، وحَسَدَ الأعداءِ .

قال أبو حَيَّان : قلتُ لأبي غَسَّانَ البَصْرِيَّ : أَظُنُّ ماقاله هؤلاءِ صَحِيحًا ، فإنَّ المعتَصِدَ مع حَزْمِهِ وعَقْلِهِ وكَلالِهِ وإِصابةِ رأيه ما أختاره للسَّفارةِ والصِّلحِ إلَّا والمرجُوُّ منه فيما يأتِيهِ ويستَقْبِلُهُ من أَيَّامِهِ نظير ما قد شُوهِدَ منه فيما مَضَى من زمانِهِ ؛ وهل كان يجوزُ أن يصلُحَ أمرُهُ قد تفاقَمَ فسادُهُ وتعاظَمَ واشتدَّ برسالةِ أحمقٍ ، وسِفارةِ أخرقٍ ! فقال أبو غَسَّانَ : إنَّ الجَدَّ يَلْسَخُ حالَ الأخرقِ ، ويَسْتُرُ عَيْبَ الأحمقِ ، ويَذُبُّ عن عِرْضِ التَّلَطُّحِ ، ويَقْرُبُ الصَّوابَ بمنطقهِ ، والصَّحَّةَ برأيه ، والنجاحَ بسَعْيِهِ ؛ والجَدُّ يستخدمُ العقلاءَ لصاحبهِ ، ويَسْتَعْمِلُ آراءَهُم وأفكارَهُم في مَطالِبِهِ ، وابنُ الجِصَّاصِ على ما قيل وروى وحدث وحكى ، ولكنَّ جَدَّهُ كفاه غائلةُ الحُمقِ ، وسحاه عواقبُ الخُرْقِ ، ولو عرفتَ خَبِطَ العاقلِ وتمسَّسَهُ وسوءُ تأتِيهِ وأَنْقِطاعَهُ إذا فارقه الجَدُّ ، لَعَلِمْتَ أنَّ الجاهلَ قد يصيبُ بِجَهْلِهِ ما لا يُصِيبُ العالمَ بِعِلْمِهِ مع حِرْمانِهِ .

قال أبو حَيَّان : فقلتُ له : فما الجَدُّ ؟ وما هذا المعنى الَّذِي عَلَّقْتَ عليه هذه الأحكامُ^(١) كلَّها ؟ فقال : ليس لي عنه عبارةٌ معيَّنة ، ولكن لي به عِلْمٌ شافيٌ ، استفدته بالاعتبارِ والتَّجربةِ والسَّماعِ العريضِ من الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ولهذا^(٢) تُسَمِّعُ من أُمْرَأَةٍ من الأعرابِ تُرْقِصُ ابْنًا لها فتقولُ له : رَزَقَكَ اللهُ جَدًّا يَخْدُمُكَ عليه ذُووُ العُقُولِ ، ولا رَزَقَكَ عَقْلاً تَخْدُمُ به ذُووُ الجُدودِ .

(١) د: « الأجوال » . (٢) ١ : « وقد سمع » .

(٥٠)

الأنضد :

أَوَّلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ .

الشيخ :

قد تقدم لنا قول مُقْنِعٍ فِي الْعَفْوِ وَالْحِلْمِ .

وقال الأحنف : ما شيء أشدَّ اتِّصَالاً بِشَيْءٍ مِنْ الْحِلْمِ بِالْعِزِّ .

وقالت الحكماء : ينبغي للإنسان إذا عاقب من يستحق العقوبة ، ألا يكون سبعا في انتقامه ، وألا يعاقب حتى يزول سلطان غضبه ، لئلا يُقدِّم على ما لا يجوز ، ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر في جرمه ، ويُعيد النظر فيه .

وأتى الإسكندر بمذنب فصّح عنه ؛ فقال له بعض جلسائه : لو كنت إياك أيها الملك لقتلته ؛ قال : فإذا لم تكن إياي ولا كنت إياك لم يقتل .

وانتهى إليه أن بعض أصحابه يعيبه ، ف قيل له : أيها الملك ، لو نهكته عقوبة ! فقال : يكون حينئذ أبسط لساناً وعُدراً في اجتنابي .

وقالت الحكماء أيضاً : لذة العفو أطيب من لذة التشفى والانتقام ، لأن لذة العفو يشفعها حميد العاقبة ، ولذة الانتقام يلحقها ألم الندم . وقالوا : العقوبة ألام حالات ذي القدرة وأذناها ، وهي طرف من الجزع ، ومن رضي ألا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق فلينتصف .

(٥١)

الأفضل :

السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً ، فَإِذَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاةً وَتَذَمُّمًا .

الشَّيْخُ :

يُعْجِبُنِي فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ ابْنِ حَيْثُوسَ :

إِنِّي دَعَوْتُ نَدَى الْكِرَامِ فَلَمْ يُجِبْ فَلَا شُكْرَ نَدَى أَجَابٍ وَمَا دُعِيَ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبُ جَمَّةٌ شُكْرُهُ يَطِيءُ عَنْ نَدَى الْمُسْرَعِ

وَقَالَ آخَرُ :

مَا اعْتَضَ بِإِذِلِّ وَجْهِهِ بِسْؤَالِهِ عِوَضًا وَلَوْ نَالَ الْغِنَى بِسْؤَالِ
وَإِذَا النَّوَالُ إِلَى السُّؤَالِ قَرْنَتْهُ رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالٍ

(٥٢)

الأضل :

لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالأدب ، ولا ظهير كالمشاور .

الشرخ :

روى أبو العباس في "الكامل" عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : خمس من لم يكن فيه لم يكن فيه كثير مستمتع : العقل ، والدين ، والأدب ، والحياء ، وحسن الخلق .

وقال أيضا : لم يُقسم بين الناس شيء أقل من خمس : اليقين ، والقناعة ، والصبر ، والشكر ، والخامسة التي يكمل بها هذا كله العقل .

وعنه عليه السلام : أول ما خلق الله العقل ، قال له : أقبل ، فأقبل ؛ ثم قال له : أدبر ، فأدبر ، فقال : ما خلقت خلقا أحب إلي منك ، لك الثواب ، وعليك العقاب .

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله ليُبغض الضعيف الذي لا زبر له ، قال : الزبر : العقل .

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما قسم الله للعباد أفضل من العقل ، فنومُ العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وفطرُ العاقل أفضل من صوم الجاهل ، وإقامةُ العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، وما بعث الله رسولا حتى يستكمل العقل ،

وحتى يكون عقله أفضل من عقول جميع أمته ، وما يُضمره في نفسه أفضل من اجتهد جميع المجتهدين ، وما أدى العبد فرائض الله تعالى حتى عَقَلَ عنه ، ولا يبلغ جميع العابدين في عباداتهم ما يبلغه العاقل ، والعقلاء هم أولو الألباب ، الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

قال أبو العباس : وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول ، بل يروى^(١) مرفوعا : إذا بلغكم عن رجلٍ حُسن الحال فانظروا في حُسن عقله ، فإنما يجازى بعقله . يابن رسول الله ، إن لي جارا كثير الصدقة ، كثير الصلاة ، كثير الحج ، لا بأس به ! فقال : كيف عقله ؟ فقال : ليس له عقل ؛ فقال : لا يرتفع بذاك منه .

وعنه عليه السلام : ما بعث الله نبيا إلا عاقلا ، وبعض النبيين أَرَجَحُ من بعض ، وما استخلف داود سليمان عليه السلام حتى اختبر عقله ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فسكر في ملكه ثلاثين سنة .

وعنه مرفوعا : صديق كل امرئ عقله ، وعدوه جهله .

وعنه مرفوعا : إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم .

قال أبو العباس : وسئل أبو عبد الله عليه السلام : ما العقل ؟ فقال : ما عُيِدَ به الرحمن ، واكتسبت به الجنان .

قال : وقال أبو عبد الله : سئل الحسن بن علي عليه السلام عن العقل ، فقال : التجرع للغصة ، ومداهنة الأعداء .

قلت : هذا كلام الحسن عليه السلام ، وأنا أقطع بذلك .

(١) : « يروى » .

قال أبو العباس : وقال أبو عبد الله : العاقل لا يُحدث من يخافُ تكذيبه ، ولا يسأل من يخافُ منعه ، ولا يثق بمن يخافُ عذره ، ولا يرجو من لا يوثق برجائه .

قال أبو العباس : ورؤي عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : كان موسى عليه السلام يُدني رجلا من بني إسرائيل لطول سجوده ، وطول صمته ، فلا يكاد يذهب إلى موضع إلا وهو معه ، فبينما هو يوما من الأيام إذ مرَّ على أرض مُعشبة تهتز ، فتأوه الرجل ، فقال له موسى : على ماذا تأوَّهْتَ ؟ قال : تمنيت أن يكون لربي حمارٌ وأرعا^(١) ها هنا ، فأكبَّ موسى طويلاً ببصره إلى الأرض اغتما بما سمع منه ، فأنحطَّ عليه الوحى ، فقال : ما الذى أنكرت من مقالة عبدى ! إنما آخذ عبادى على قدر ما آتيتهم .

قال أبو العباس : ورؤي عن على عليه السلام : هبط جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويدع اثنتين ، وهى : العقل ، والحياء ، والدين ؛ فاختار العقل ، فقال جبرائيل للحياء والدين : انصرفا ؛ فقالا : إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان ، فقال : فشأنكما ! ففاز بالثلاث .

فأما قوله عليه السلام : « ولا ميراث كالأدب » فإنى قرأتُ فى حِكْمِ الفُرس عن بُزْجَمَهْر : ماورثت الآباءُ أبناءها شيئا أفضل من الأدب ، لأنها إذا ورثتها الأدب اكتسبت بالأدب المال ، فإذا ورثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل ، وقعدت صِفرا من المال والأدب .

قال بعض الحكماء : من أدب ولده صغيرا ، سُربَه كبيرا .
وكان يقال : من أدب ولده أرغم حاسده .
وكان يقال : ثلاثة لا غربة معهم : بجانب الرِّيب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى .

(١) د : « أرعا » .

وكان يقال : عليكم بالأدب ، فإنه صاحبٌ في السفر ، ومؤنسٌ في الوحدة ، وجمالٌ في المحفل ، وسببٌ إلى طلب الحاجة .

وقال بُزْجَمَهْرُ : مَنْ كَثُرَ أَدَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ قَبْلُ وَضِيماً ، وَبَعْدَ صِيَّتِهِ وَإِنْ كَانَ خَمَلاً ، وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيباً ، وَكَثُرَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ مُقَلّاً .

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه : ما خيرٌ ما يُرزقه العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ؛ قال : فإن عَدِمَهُ ؟ قال : أدبٌ يتحلّى به ، قال : فإن عَدِمَهُ ؟ قال : مالٌ يَسْتَتِرَ به ؛ قال : فإن عَدِمَهُ ؟ قال : صاعقة تُحْرِقُهُ فَتُريحُ مِنْهُ العباد والبلاد .

وقيل لبعض الحكماء : متى يكون العلم شراً من عَدَمِهِ ؟ قال : إذا كَثُرَ الأدب ونَقَصَتِ القريحة — يعني بالقريحة العقل .

فأما القول في المَشُورَةِ فقد تقدّم ، ورُبُّمَا ذَكَرْنَا مِنْهُ نُبْذاً فيما بعد .

(٥٣)

الأصل :

الصَّبْرُ صَبْرَان : صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ .

الشرح :

النوع الأول أشق من النوع الثاني ، لأن الأول صبرٌ على مَصْرَّةٍ نازلة ، والثاني صبرٌ على محبوب متوقع لم يحصل ، وقد تقدم لنا قول طويل في الصبر .

سئل بُزْرَجُهر في بليته^(١) عن حاله ، فقال : هوّن علىّ ما أنا فيه فكُرى في أربعة أشياء : أولها أنّي قلت : القضاء والقدر لا بدّ من جريانهما ، والثاني أنّي قلت : إن لم أصبر فما أصنع ! والثالث أنّي قلت : قد كان يجوز أن تكون المحنة أشدّ من هذه ! والرابع أنّي قلت : لعلّ الفرج قريب !

وقال أنوشروان : جميعُ أمر الدنيا منقسم إلى ضربين لا ثالث لهما : أمّا ما في دفعه حيلة فالاضطراب دواؤه ، وأمّا ما لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه .

(١) د : « بلواه » .

(٥٤)

الأصل :

أَلْغِنِي فِي الْغُرْبَةِ وَطَنِي ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ .

الشرح :

قد تقدم لنا قولٌ مُقنعٌ في الفقر والغنى ومدحهما وذمهما على عادتنا في ذكر الشيء ونقيضه ، ونحن نذكرُ هاهنا زيادةً على ذلك .

قال رجلٌ لبقرط (١) : ما أشدَّ فقرَكَ أيُّها الحكيم ؟ قال : لو عرفتَ راحةَ الفقر لشغلك التوجعُ لنفسك عن التوجع لي ؛ الفقر ملكٌ ليس عليه مُحاسبة .
وكان يقال : أضعفُ الناس من لا يحتملُ الغنى .

وقيل للسكندري : فلانٌ غنيٌّ ؛ فقال : أنا أعلمُ أنَّهُ مالا ، ولكني لا أعلمُ : أغنيُّ هو أم لا ! لأنني لا أدري كيف يعمل في ماله !

قيل لابن عمر : توفي زيد بن ثابت وترك مائة ألف درهم ، قال : هو تركها لكنّها لم تتركه .

وقالوا : حسبك من شرف الفقر أنك لا ترى أحدا يعصى الله ليفتقر ؛ أخذهُ الشاعرُ فقال :

يا عائبَ الفقرِ ألا تزدِجِرُ عَيْبُ الْغِنَى أَكْبَرُ لَوْ تَعْتَبِرُ
إِنَّكَ تَعْصِي اللَّهَ تَبْغِي الْغِنَى وَلَيْسَ تَعْصِي اللَّهَ كِي تَفْتَقِرُ

وكان يقال : الحلال يَقْطُرُ ، والحرامُ يَسِيلُ .

(١) : « سقراط » .

وقال بعض الحكماء : ألا ترَوْنَ ذا الْغِنَى ما أَدَوَمَ نَصْبَهُ ، وأَقْلَّ راحَتَهُ ، وأَخْسَرَ
 من ماله حَظَّهُ ، وأشدَّ من الأيام حَذَرَهُ ، وأَغْرَى الدهرَ بنقصه وثَمَلَهُ ! ثمَّ هو بين سلطان
 يراعاه ، وحقوقٍ تسترعيه ، وأَكْفَاءٍ يُنافِسونه ، ووَلَدٍ يودِّون موته ، قد بَهِتَ الغنى عليه
 من سلطانه العناء ، ومن أَكْفائِهِ الحَسَدَ ، ومن أعدائه البَغى ، ومن ذَوِي الحقوق الذَمَّ ،
 ومن الوَلَدِ المَلالَةَ وتمنَّى الفَقْدَ ، لا كَذِبِ البُلْغَةِ قَنَعَ فِدَامَ له السرور ، ورَفَضَ الدنيا
 فسَلِمَ من الحَسَدِ ، ورَضِيَ بِالْكَفَافِ فَكُفِيَ الْحُقُوقَ .

(٥٥)

الأفضل :

القنّاعةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

قال الرضى رحمه الله تعالى : وقد روى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله :

الشّرخ :

قد ذكرنا نُكْتاً جليّةً المَوْقعَ فى القنّاعةِ فيما تقدّم ونذكرُها هنا زيادةً على ذلك .
فمن كلام الحكماء : قاوم الفقرَ بالقنّاعةِ ، وقاهرِ الفنى بالتعفّف ، وطاول عناءَ الحاسدِ
بِحُسْنِ الصُّنْعِ ، وغالبِ الموتَ بالذكّرِ الجميل .
وكان يقال : الناسُ رجلانِ واجِدٌ لا يَكْتَفى ، وطالِبٌ لا يَمُجِدُ ، أَخَذَهُ الشّاعرُ
فقال :

وما الناسُ إلا واجِدٌ غيرُ قانعٍ بأرزاقِهِ أو طالِبٌ غيرُ واجِدٍ
قال رجل لبقرط (١) ورآه يأْكُلُ العُشْبَ (٢) : لو خدمتَ المَلِكَ لم تَحْتِجْ إلى أن
تأْكُلَ الحشيشَ ، فقال له : وأنتَ إنْ أَكَلْتَ الحشيشَ لم تَحْتِجْ أنْ تَخْدِمَ المَلِكَ !

(١) ا ، ب : « سقراط » . (٢) د : « عشب » .

(٥٦)

الأفضل :

المالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ .

الشيخ :

قد تقدّم لنا كلامٌ في المال مدحا وذمّا .

وقال أعرابيٌّ لبنيهِ : اجمعوا الدراهم فإنّها تُلَيِّسُ اليَلَمَقَ ، وتطعِمُ الجِرْدَقَ ^(١) .

وقال أعرابيٌّ وقد نَظَرَ إلى دينار : قَاتَلَكَ اللهُ ! ما أصغرَ قَمَّتِكَ ، وأكبرَ هِمَّتِكَ ! .

ومن كلام الحكماء : ما اخترتَ أن تَحْيَا به فت دَوْنَهُ .

سئل أفلاطونُ عن المال ، فقال : ما أقولُ في شيءٍ يُعطِيهِ الحِظُّ وَيَحْفَظُهُ اللُّؤْمُ ،

ويبلِّغُهُ الكَرَمُ !

وكان يقال : ثلاثة يؤثرون المالَ على أنفُسِهِمْ : تاجرُ البَحْرِ ، والمقاتِلُ بالأجرِ ، والمرتشي

في الحُكْمِ ، وهو شرٌّهم ؛ لأنَّ الأوَّلَيْنِ ربَّما سَلِمَا ، ولا سلامةَ للثالثِ من الإثمِ .

ثم قالوا : وقد سَمَّى اللهُ تعالى المالَ خَيْرًا في قوله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ ^(٢) ، وفي قوله :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ^(٣) .

كان عبدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ يقول : حبذا المالُ ، أصُونُ به عِرْضِي ، وأقرضُهُ رَبِّي

(١) اليلق : القباء المحشو ؛ وهو بالفارسية : « يلمه » والجردق : الرغيف ؛ فارسية أيضا .

(٢) سورة البقرة ١٨٠ . (٣) سورة العاديات ٨ .

فِيضَاعَفَهُ لِي . وَقَالُوا فِي ذِمِّ الْمَالِ : الْمَالُ مِثْلُ الْمَاءِ غَادٍ وَرَائِحٌ ، طَبَعُهُ كَطَبْعِ الصَّبِيِّ لَا يُوقَفُ
عَلَى سَبَبِ رِضَاهُ وَلَا سَخَطِهِ . الْمَالُ لَا يَنْفَعُكَ مَا لَمْ تُفَارِقْهُ .

وفيه قال الشاعر :

وَصَاحِبِ صِدْقٍ لَيْسَ يَنْفَعُ قَرْبُهُ وَلَا وُدُّهُ حَتَّى تُفَارِقَهُ عَمْدًا
وَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى الْحَرِيرِيُّ فَقَالَ :
وَلَيْسَ يُغْنِي عَنْكَ فِي الْمَضَائِقِ إِلَّا إِذَا فَرَّ فِرَارَ الْآبِقِ

وقال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ رَبَّهُ إِذَا جَمَّ آتِيَهُ وَسَدَّ طَرِيقَهُ
وَمَنْ جَاوَزَ الْبَحْرَ الْغَزِيرَ بِقَحْمَةٍ وَسَدَّ طَرِيقَ الْمَاءِ فَهُوَ غَرِيقُهُ

(٥٧)

الأفضل :

مَنْ حَذَرَكَ ، كَمَنْ بَشَرَكَ .

الشَّرْحُ :

هذا مِثْلُ قولِهِم : اتَّبِعْ أَمْرَ مُبْكِيَاتِكَ ، لَا أَمْرَ مُضْحِكَاتِكَ^(١) . ومِثْلُهُ : صديقك من نِهَاكَ ، لَا من أَغْرَاكَ . ومِثْلُهُ : رَحِمَ اللهُ امرأً أَهْدَى إِلَى عِيَوِي .

والتحذير هو النَّصِيح ، والنَّصِيح واجب ، وهو تعريفُ الإنسان ما فِيهِ صَلَاحُهُ ، ودفعُ الْمَضَرَّةِ عَنْهُ ، وقد جَاءَ فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، لِمَنْ؟ فَقَالَ : « لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ » . وَأَوَّلُ مَا يَحِبُّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُحَذَّرَ نَفْسَهُ وَيَنْصَحَها ، فَمَنْ غَشَّ نَفْسَهُ فَقَلَّمَا يُحَذَّرُ غَيْرَهُ وَيَنْصَحُهُ ، وَحَقٌّ مَنْ أَسْتُنْصَحَ أَنْ يَبْذُلَ غَايَةَ النَّصِيحِ وَلَوْ كَانَ فِي أَمْرٍ يَضُرُّهُ ، وَإِلَى ذَلِكَ وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾^(٢) ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾^(٣) .

ومعنى قوله عليه السلام « كَمَنْ بَشَرَكَ » أَي يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُسَرَّ بِتَحْذِيرِهِ لَكَ ، كَمَا تُسَرُّ لَوْ بَشَرَكَ بِأَمْرٍ تَحِبُّهُ ، وَأَنْ تَشْكُرَهُ عَلَى ذَلِكَ كَمَا تَشْكُرُهُ لَوْ بَشَرَكَ بِأَمْرٍ تَحِبُّهُ ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ بِكَ الْخَيْرَ لَمَا حَذَرَكَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ .

(١) المِثْلَانِ ١ : ٣٠ ، وَلَفْظُهُ هُنَاكَ : « أَمْرَ مُبْكِيَاتِكَ لَا أَمْرَ مُضْحِكَاتِكَ » .

(٢) سُورَةُ النِّسَاءِ ١٣٥ . (٣) سُورَةُ الْأَنْعَامِ ١٥٢ .

(٥٨)

الأفضل :

اللِّسَانُ سَبِيحٌ ، إِنَّ خُلِّيَّ عَنْهُ عَمَرَ .

الشَّيْخُ

قد تقدم لنا كلام طويل في هذا المعنى .

وكان يقال : إن كان في الكلام دَرَكٌ ففي الصَّمت عافية .

وقالت الحكماء : النطق أشرف ما خُصَّ به الإنسان ، لأنَّه صورته المعقولة التي بآينَ بها سائر الحيوانات ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾^(١) ، ولم يقل : « وعلمه » بالواو لأنَّه سبحانه جعل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ تفسيراً لقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ؛ لا عطفاً عليه ؛ تنبيهاً على أنَّ خلقه له وتخصيصه بالبيان الذي لو تَوَهَّم مرتفعاً لارتفعت إنسانيته ؛ ولذلك قيل : ما الإنسانُ لولا اللسانُ إلا بهيمةٌ مُهمَّلةٌ ، أو صورةٌ ممثلةٌ .

وقال الشاعر :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ فلم يبقَ إلا صورة اللحمِ والدمِ^(٢)
قالوا : والصَّمت من حيثُ هو صَمْتُ مَذْمُومٌ ، وهو من صفات الجمادات ، فضلاً

(١) سورة الرحمن ٣، ٤ .

(٢) ينسب لزهير ، من معلقته بشرح الزوزنى ٩٤ .

عن الحيوانات ، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وغيره من العُلَماء في مَدْح الصَّمْتِ
محمول على مَنْ يَسِيءُ الكلامَ فيَقَعُ منه جِنَايَاتٌ عَظِيمَةٌ في أُمُورِ الدِّينِ والدُّنْيَا ،
كما رُوِيَ في الخبر : إِنَّ الإنسانَ إِذَا أَصْبَحَ قالَ أَعْضَاؤُهُ لِلسانِ : اتَّقِ اللهَ فِينَا ،
فإنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ نَجَوْنَا ، وَإِنِ زُغْتَ هَلَكْنَا » ، فأما إِذا اعتُبرَ النُّطْقُ والصَّمْتُ
بذاتَيْهِما فقط ، فمُحالٌ أَنْ يُقالَ في الصَّمْتِ فَضْلٌ ، فضلا عن أَنْ يُخايرَ وَيُقايَسَ بينَهُ
وبين الكلامِ .

(٥٩)

الأصل :

المرأة عقرَبْ، خلوة اللسبة .

الشئخ :

اللسبة : اللسة ، لَسَبَتْهُ العَقْرَب بالفتح : لسعته . وَلَسِبْتُ العسل بالكسر ، أى لَعَقْتُهُ .
وقيل لِسْقَراط : أى السباع أجسر ؟ قال : المرأة .
ونظرَ حَكِيمٌ إلى امرأة مصلوبة على شجرة ، فقال : لَيْتَ كُلَّ شَجَرَةٍ تحمل مثل
هذه الثمرة .

مرّت بسقراط امرأة وهى تنشوّف^(١) ، فقالت : يا شيخ ، ما أَقْبَحَكَ ؟ فقال :
لولا أنّك من الرايا الصّديّة لَمَعْنَى ما بان مِن قُبْحِ صورتي فيك .
ورأى بعضهم مؤدّباً يعلمّ جارية الكتابة ، فقال : لا تَزِدِ الشرّ شراً ، إنما تسقى
سَهْمًا سَمًا لترى به يوماً ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمل نارا ، فقال : نارٌ على نار ، والحامل شرٌّ من المحمول .
وتزوَّج بعضهم امرأةً نحيفة ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : اخترتُ من الشرّ أقلّه .
كتب فيلسوفٌ على بابه : ما دَخَلَ هذا المنزل شرٌّ قطّ ، فقال له بعضهم : اكتبُ :
« إلا المرأة » .

(١) د : « تنشرف » .

ورأى بعضهم امرأة غريقة في الماء ، فقال : زادت الكدَرُ كدَرًا ، والشرُّ بالشرِّ يهلك .

وفي الحديث الرفوع : استعينوا بالله من شرار النساء ، وكونوا من خيارهنَّ على حذر .

وفي كلام الحكماء : اعصِ هَوَاكَ والنساء ، وافعل ما شئت .
دعا بعضهم لصاحبه ، فقال : أَمَاتَ اللهُ عدوك ؟ فقال : لو قلت : زوج الله عدوك ، لكان أبلغ في الانتقام !

ومن الكنايات المشهورة عنهنَّ : « سِلَاحُ إبليس » .
وفي الحديث الرفوع : « إنهنَّ ناقصاتُ عقلٍ ودين » .
وقد تقدّم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب ما هو شرحٌ وإيضاح لهذا المعنى .

وجاء في الحديث أيضا : « شاوروهنَّ وخالِفوهنَّ » .
وفي الحديث أيضا : « النساءُ حبائلُ الشيطان »
وفي الحديث أيضا : « ما تركتُ بعدى فتنةً أضُرَّ من النساءِ على الرجال » .
وفي الحديث أيضا : « المرأةُ ضِلَعٌ عَوَّجاءُ إن دَارَيْتَها استمتمت بها ، وإن رُمِيت تقويمها كسَرَتْها » وقال الشاعر في هذا المعنى :

هي الضِّلَعُ العَوَّجاءُ لستَ تَقِيمُها ألا إنَّ تقويمَ الضَّلوعِ انكِسارُها
أيجمعن ضعفاً واقتداراً على الفتى أليسَ عجيباً ضعُفُها واقتدارُها ؟
ومن كلام بعض الحكماء : ليس ينبغي للماقل أن يمدح امرأةً إلا بعد موتها .
وفي الأمثال : لا تحمَدَنَّ أُمَّةً عامِ شِرائِها ، ولا حُرَّةً عامِ بنائها .

ومن كلام عبد الله المأمون : إنهن شرُّ كلِّهنَّ ، وشرُّ ما فيهنَّ ألاَّ غِيَّيَ عنهنَّ .
وقال بعضُ السلف : إنَّ كَيْدَ النِّسَاءِ أَكْبَرُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ ، لأنَّ الله تعالى ذَكَرَ
الشَّيْطَانَ ، فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾^(١) .

وذكر النساء فقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾^(٢) .
وكان يقال : من الفواقر امرأةٌ سوءٌ إنَّ حَضَرَ تَهَا لَسَبَّتْكَ ، وإنَّ غَبَتْ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا .
وقال حكيم : أضرَّ الأشياءُ بالمال والنفس والدين والعقل والعرض شِدَّةُ الإِغْرَامِ بالنساء ؛
ومن أعظم ما يبتلى به المَغرَمُ بهنَّ أَنَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْهُنَّ وَلَوْ كُنَّ أَلْفًا ، وَيَطْمَحُ
إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ مِنْهُنَّ .

وقال بعضُ الحكماء : مَنْ يُحْصِي مَسَاوِيَ النِّسَاءِ ! اجتمع فيهنَّ نَجَاسَةُ الْخَيْضِ
وَالِاسْتِحَاضَةِ ، وَدُمُ النَّفَاسِ ، وَنَقْصُ الْعَقْلِ وَالْدِينِ ، وَتَرْكُ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَيَّامِ
الْعُمْرِ ، لَيْسَتْ عَلَيْهِنَ جَمَاعَةٌ وَلَا جُمُعَةٌ ، وَلَا يَسْلَمُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَا يَكُونُ مِنْهُنَّ إِمَامٌ وَلَا قَاضٍ
وَلَا أَمِيرٌ وَلَا يَسَافِرُونَ إِلَّا بَوَلَى .

وكان يقال : مَا نَهَيْتِ امْرَأَةً عَنْ أَمْرٍ إِلَّا أَتَتْهُ .
وفي هذا المعنى يَقُولُ طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ :

إِنَّ النِّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبْتَنَ مَعًا هُنَّ الْمُرَارُ وَبَعْضُ الْمُرِّ مَا كَوَلُ
إِنَّ النِّسَاءَ مَتَى يُنْهَيْنَ عَنْ خُلُقٍ فَإِنَّهُ وَاجِبٌ لَا بَدَّ مَفْعُولُ

(٦٠)

الأفضل :

إِذَا حُيِّتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيَّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرَبِّي عَلَيْهَا ، وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِي .

الشَّيْخُ :

اللفظة الأولى من القرآن^(١) العزيز ، والثانية تتضمن معنى مشهورا .
وقوله : « وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِي » ، يقال في الكرم والحث على فعل الخير .
وروى المدائني ، قال : قَدِمَ عَلَى أُسْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسَيْرِيِّ بِخِرَاسَانَ رَجُلٌ ، فَدَخَلَ
مَعَ النَّاسِ ، فَقَالَ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنَّ لِي عِنْدَكَ يَدًا ؛ قَالَ : وَمَا يَدُكَ ؟ قَالَ : أَخَذْتُ
بِرُكَابِكَ يَوْمَ كَذَا قَالَ : صَدَقْتَ ؛ حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : تَوَلَّيْنِي أَبِي يُوْرَدُ ؛ قَالَ : لِمَ ؟ قَالَ :
لَأَكْسِبَ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؛ قَالَ : فَإِنَّا قَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِهَا السَّاعَةَ ، فَتَكُونُ قَدْ بَلَغْنَاكَ
مَا تَحِبُّ ، وَأَقْرَبْنَا صَاحِبَنَا عَلَى عَمَلِهِ ، قَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنَّكَ لَمْ تَقْضِ ذِمَّتِي ؛
قَالَ : وَلِمَ ؟ وَقَدْ أُعْطِيتُكَ مَا أَمَلْتُ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ الْإِمَارَةُ ؟ وَأَيْنَ حُبُّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ !
قَالَ : قَدْ وَلَّيْتُكَ أَبِي يُوْرَدُ ، وَسَوَّغْتُ لَكَ مَا أَمَرْتُ لَكَ بِهِ ، وَأَعْفَيْتُكَ مِنَ الْحَاسِبَةِ إِنْ
صَرَفْتُكَ عَنْهَا ؛ قَالَ : وَلِمَ تَصْرِفُنِي عَنْهَا وَلَا يَكُونُ الصَّرْفُ إِلَّا مِنْ عَجْزٍ أَوْ خِيَانَةٍ ،

(١) وهو قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾

وأنا برىء منهما ؟ قال : اذهب فأنْتَ أميرُها مادامتْ لنا خُراسان ؛ فلم يزلْ أميراً على أبيوردَ حتَّى عُرِلَ أسد .

قال المدائني : وجاء رجلٌ إلى نصر بنِ سَيَّارٍ يذكُرُ قرابةً^(١) ، قال : وما قرابتُك ؟ قال : ولدْتُني وإيَّاكَ فُلانة ! قال نصر : قرابة عورة ، قال : إنَّ العورة كاللَّشَنِ البالي ، يَرَقمه أهله فينتفعون به ؛ قال : حاجتُك ؛ قال : مائة ناقةٍ لارِج ، ومائة نَمِجةٍ رُبِّي - أي معها أولادُها - قال : أمَّا النِّعاجُ فخذُها ؛ وأمَّا النُّوقُ فنأمرُك بأنَّماها .

وروى الشَّعْبِيُّ ، قال : حضرتُ مجلسَ زيادٍ وحضره رجلٌ فقال : أيُّها الأمير ، إنَّ لي حُرْمَةً أفأذكرُها ؟ قال : ها هيَا ، قال : رأيْتُكَ بالطائف وأنتَ عُليِّمٌ ذو ذُؤابة ، وقد أحاطتْ بك جماعةٌ من العِلِّمان ، وأنتَ ترْكُضُ هذا مرَّةً بِرجلك ، وتَنطَحُ هذا مرَّةً برأسك ، وتَكْدمُ مرَّةً بأُنيابك ، فكانوا مرَّةً يَنثالون عليك ، وهذه حالُهم ؛ ومرَّةً يَنِدُّون عنك وأنتَ تَتَّبِعُهُمْ ؛ حتَّى كاثَرُواك وأَسْتَقَوْا عليك ، فجئتُ حتَّى أخرجتُك من بينهم وأنتَ سَلِيمٌ وكلُّهم جريحٌ ؛ قال : صدقت ، أنتَ ذاكَ الرجلُ ! قال : أنا ذاك ؛ قال حاجتُك ، قال : الغِنَى عن الطَّلب ؛ قال : يا غلام ، أعطِه كلَّ صَفراءٍ وبَيْضَاءٍ عندَكَ ، فنظر فإذا قيمةٌ كلِّ ما يَمْلِكُ ذلكَ اليومَ من الذَّهبِ والفضَّةِ أربعةٌ وخمسون ألفَ دِرْهَمٍ . فأخذَها وأنصَرَفَ ، فقليلٌ له بعد ذلك : أنتَ رأيتَ زياداً وهو غلامٌ بذلك الحال ؟ قال : إي والله ، لقد رأيته وقد أُكْتَنَفَه صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ كأَنَّهما من سِخالِ المَعِزِّ ، فلولا أنَّي أدركته لظننتُ أنَّهما يَأْتِيَانِ على نفسه .

وجاء رجلٌ إلى معاويةَ وهو في مجلسِ العامَّةِ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ لي حُرْمَةً^(٢) ، قال : وما هي ؟ قال : دنوتُ من رِكابِكَ يومَ صِفِّين ، وقد قربتُ فرسُكَ لتفرَّ ، وأهلُ

(١) د : « قرابته » .

(٢) د : « حرمة وذمما » .

المراق قد رأوا الفتح والظفر ، فقلتُ لك : والله لو كانت هند بنتُ عُتبة مكانك ما فرت
ولا اختارت إلا أن تموت كريمة أو تعيش حميدة ، أين تفرّ وقد قلّدتك العربُ
أزمة أمورِها ، وأعطتك قيادَ أعينها ! فقلتُ لي : اخفض صوتك لا أمّ لك !
ثمّ تماسكت وثبتت وثابت إليك هاتك ، وتمثلت حينئذٍ بشعرٍ أحفظ منه :
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تُحمدي أو تستريحي^(١)
فقال معاوية : صدقت ، وددتُ أنك الآن أيضا خفضت من صوتك ؛ يا غلام أعطه
خمسین ألف درهم ، فلو كنت أحسنت في الأدب لأحسننا لك في الزيادة .

(١) لابن الإطابة ؛ الكامل ٤ : ٦٨ ، وقوله :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالثَمَنِ الرَّيِّحِ
وَأَجْشَأِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَشِيحِ

(٦١)

الأفضل :

الشفيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ .

* * *

الشَّنْرُحُ :

جاء في الحديث مرفوعاً : « اشفعوا إليَّ تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » .

وقال : المأمونُ لأبراهيمَ بن المهدى لما عفا عنه : إنَّ أعظمَ يداً عندك من عَفْوِي عنك أنِّي لم أجركَ مرارة امتنانِ الشافعين .

ومن كلامِ قابوسَ بنِ وَشَمَكِينٍ : بزَّند الشفيعِ تُورَى نارُ النَّجَاحِ ، ومن كَفِّ المُفِيسِ يُنتَظَرُ فوزُ القِدَاحِ .

قال المبرد : أتاني رجل يستشفع بي في حاجة ، فأنشدني لنفسه :

إني قصدتك لا أدلي بمعرفةٍ ولا بقربى ، ولكن قد فشت ريمك
فبت حيران مكروبا يؤرقي ذلَّ الغريب ويعشيني الكرى كرمك
ولو هممت بغير العرف ما علقته به يداك ولا أقتادت له شيمك
ما زلت أنكب حتى زلزلت قدمي فاحتل لتشيبتها لا زلزلت قدمك

قال : فشفت له وقتُ بأمره حتى بلغت له ما أحب .

بُزْزَجِمِر : من لم يستغن بنفسه عن شفعه ووسائله وهت قوى أسبا به ؛ وكان إلى

الحرمان أقرب منه إلى بلوغ المراد. ومثله : من لم يرغب أوداؤه في اجتنابه لم يحظَ بمدح شُفعائه . ومثله : إذا زرتَ الملوكَ فإنَّ حَسْبِي شفيعا عندهم أن يَمْرِفُونِي .
كَلِمَ الْأَحْنَفُ مُصْعَبَ بْنَ الزَّيْبِرِ فِي قَوْمٍ حَبَسَهُمْ ، فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ ! إِنْ كَانَ هَؤُلَاءُ حُبَسُوا فِي بَاطِلٍ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا حُبِسُوا فِي حَقٍّ فَالْعَفْوُ يَسْمُهُمْ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِمْ .

آخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْطِفْكَ إِلَّا شَفَاعَةٌ فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَكُونُ بِشَافِعٍ
خرج العطاء في أيام المنصور ، وأقام الشُّقْرَانِيَّ - من وَلَدِ شُقْرَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَبَاهُ أَيَّامًا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ عَطَاؤُهُ ؛ فَخَرَجَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ مِنَ عِنْدِ الْمَنْصُورِ ، فَقَامَ الشُّقْرَانِيَّ إِلَيْهِ ، فَذَكَرَ لَهُ حَاجَتَهُ ، فَحَبَّ بِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ ثَانِيًا إِلَى الْمَنْصُورِ ، وَخَرَجَ وَعَطَاهُ الشُّقْرَانِيَّ فِي كُمِهِ فَصَبَّهُ فِي كُمِهِ ثُمَّ قَالَ : يَا شُقْرَانُ ، إِنَّ الْحَسَنَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَسَنٌ ، وَإِنَّهُ مِنْكَ أَحْسَنُ لِمَكَانِكَ مِنَّا ، وَإِنَّ الْقَبِيحَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قَبِيحٌ ، وَهُوَ مِنْكَ أَقْبَحُ لِمَكَانِكَ مِنَّا . فَاسْتَحَسَّنَ النَّاسُ مَا قَالَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشُّقْرَانِيَّ كَانَ صَاحِبَ شَرَابٍ . قَالُوا : فَانْظُرْ كَيْفَ أَحْسَنَ السَّعَى فِي اسْتَنْجَازِ طَلِبَتِهِ ، وَكَيْفَ رَحَّبَ بِهِ وَأَكْرَمَهُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِحَالِهِ ، وَكَيْفَ وَعَظَلَهُ وَنَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى وَجْهِ التَّعْرِيزِ ! قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ .

كَتَبَ سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ شَفَاعَةً لِرَجُلٍ : كِتَابِي هَذَا كِتَابُ مُعْتَنٍ بِمَنْ كَتَبَ لَهُ ، وَاتَّقِ بِمَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ ، وَلَنْ يَضِيعَ حَامِلُهُ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالْعَنَايَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
أَبُو الطَّيِّبِ :

إِذَا عَرَضَتْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ فَتَنَفَّسْهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ مُشْفَعٌ^(١)

[محمد بن جعفر والمنصور]

كان المنصورُ مُعْجَبًا بِمُحَادَثَةِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وكان الناسُ لعظمِ قدرِهِ عندَ المنصورِ يَفْرَعُونَ إِلَيْهِ فِي الشَّفَاعَاتِ وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ ، فَتَقَلَّ ذَلِكَ عَلَى المنصورِ فَحَجَّجَهُ مَدَّةً ، ثُمَّ تَتَبَعْتَهُ نَفْسُهُ ، فَحَادَثَ الرَّبِيعَ فِيهِ ، وَقَالَ : إِنَّهُ لَا صَبْرَ لِي عَنْهُ لَكُنِّي قَدْ ذَكَرْتُ شَفَاعَاتِهِ ، فَقَالَ الرَّبِيعُ : أَنَا أَشْتَرُطُ إِلَّا يَمُودَ ، فَكَلَّمَهُ الرَّبِيعُ ، فَقَالَ : نَعَمْ ، فَكَتَّ أَيَّامًا لَا يَشْفَعُ ، ثُمَّ وَقَفَ لَهُ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ بِرِقَاعٍ وَهُوَ يَرِيدُ دَارَ المنصورِ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَأْخُذَ رِقَاعَهُمْ ، فَقَصَّ عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ ، فَضَرَعُوا إِلَيْهِ وَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : أَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ قَبُولَ الثَّدْرِ فَإِنِّي لَا أَقْبِضُهَا مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ هَلُمُّوا فَأَجْعَلُوهَا فِي كُمِّي ؛ فَقَذَفُوهَا فِي كُمِّهِ ، وَدَخَلَ عَلَى المنصورِ وَهُوَ فِي الْخُضْرَاءِ يُشْرِفُ عَلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ وَمَا حَوْلَهَا بَيْنَ الْبَسَاتِينِ وَالضِّيَاعِ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا تَرَى إِلَى حُسْنِهَا ! قَالَ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا آتَاكَ ، وَهَتَاكَ بِإِتْمَامِ رِزْمَتِهِ عَلَيْكَ فِيمَا أُعْطَاكَ ! فَا بَنَتِ الْعَرَبُ فِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا الْعَجَمُ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ ؛ أَحْصَنَ وَلَا أَحْسَنَ مِنْ مَدِينَتِكَ ، وَلَكِنْ سَمَّجَتْهَا فِي عَيْنِي خَصْلَةً ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : لَيْسَ لِي فِيهَا ضَيْعَةٌ ، فَضَحِكَ وَقَالَ : نَحْسُهَا فِي عَيْنِكَ ، ثَلَاثُ ضِيَاعٍ قَدْ أَقْطَعْتُكَهَا ؛ فَقَالَ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شَرِيفُ الْمَوَارِدِ ، كَرِيمُ الْمَصَادِرِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ بِأَقْيَ عَمْرِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَاضِيهِ ؛ وَجَعَلَتِ الرَّقَاعُ تَبْدُرُ مِنْ كُمِّهِ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ وَخُطَابِهِ لِمَنْصُورٍ ، وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا وَيَقُولُ : ارْجِعْنِ خَاسِئَاتٍ ، ثُمَّ يَمُودُ إِلَى حَدِيثِهِ ، فَقَالَ المنصورُ : مَا هَذِهِ بِحَقِّي عَلَيْكَ ؟ أَلَا أَعْلَمْتَنِي خَبَرَهَا ! فَأَعْلَمَهُ ، فَضَحِكَ فَقَالَ : أَيْبَتُ يَا بْنَ مَعْلَمِ الْخَيْرِ إِلَّا كَرَمًا ! ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَمَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَكَلُّ^(١)
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
ثُمَّ أَخَذَهَا وَتَصَفَّحَهَا وَوَقَعَ فِيهَا كُلَّهَا بِمَا طَلَبَ أَصْحَابُهَا .
قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ : نَخْرَجُ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ رَجَحْتُ وَأَرْجَحْتُ .

قَالَ الْمُبَرِّدُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَاقَانَ : أَنَا أَشْفَعُ إِلَيْكَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فِي أَمْرِ فُلَانٍ ، فَقَالَ
لَهُ : قَدْ سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ ، وَسَأَفْعَلُ فِي أَمْرِهِ كَذَا ، فَمَا كَانَ مِنْ نَقْصٍ فَعَلِيَّ ، وَمَا كَانَ مِنْ زِيَادَةٍ
فَلَهُ ؛ قَالَ الْمُبَرِّدُ : أَنْتَ - أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِكَ - كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ :

وَجَارٍ سَارَ مَعْتَمِدًا إِلَيْنَا أَجَاءَتْهُ الْخَافَةُ وَالرَّجَاءُ^(٢)
ضَمْنًا مَالَهُ فَعَدَا سَلِيمًا عَلَيْنَا نَقْصُهُ وَلَهُ التَّمَاءُ

وَقَالَ دِعْبِيلُ :

وَإِنَّ أَمْرًا أَسْدَى إِلَى بَشَافِعِ إِلَيْهِ وَيَرْجُو الشُّكْرَ مِنِّْي لِأَحَقِّ^(٣)
شَفِيعُكَ يَا شُكْرَ الْحَوَائِجِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

آخِرُ :

مَضَى زَمَنِي وَالنَّاسُ يُسْتَشْفَعُونَ بِي فَهَلْ لِي إِلَى لَيْلِي الْغَدَاةَ شَفِيعُ !

آخِرُ :

وَنَبِئْتُ لَيْلَى أَرْسَلْتُ بِشَفَاعَةٍ إِلَيَّ ، فَهَلَا تَقْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا^(٤) !
أَأَكْرِمُ مِنْ لَيْلَى عَلَى فَتَبْتَنِي بِهِ . الْجَاءَ ، أَمْ كُنْتُ أَمْرًا لَا أُطِيعُهَا !

(١) فِي د : « كَرَمْتُ » . (٢) دِيَوَانُهُ ٧٧ .

(٣) دِيَوَانُهُ ١١٢ . (٤) لِلْجَنُونَ ، دِيَوَانُهُ ١٩٥ .

آخر :

وَمَنْ يَكُنِ الْفَضْلُ بِنُ يُحْيِي بِنُ خَالِدٍ شَفِيعاً لَهُ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ يَنْجَحُ

آخر :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَسْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ ، فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ
وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ الْآخَرِ :

وَعَطَاءٌ غَيْرُكَ إِنْ بَدَدَ تَعْنِيَةً فِيهِ عَطَاؤُكَ

ابن الرومي :

يَنَامُ الَّذِي اسْتَسْعَاكَ فِي الْأَمْرِ إِنْهُ إِذَا أُيْقِظَ الْمَلْهُوفُ مِثْلَكَ نَامَاً
كَفَى الْعَوْدُ مِنْكَ الْبَدَاءُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَجُرِّدَتْ لِلْجُلَى فَكُنْتَ حُسَامَاً
فَالِكِ تَنْبُو فِي يَدَي عَنْ ضَرْبِي وَلَمْ أَرِثْ مِنْ هَزٍّ وَكُنْتَ كَهَامَا !

(٦٢)

الأضل :

أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكَبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

الشَّنْخُ :

هذا التشبيه واقعٌ وهو صورة الحال لا محالة .

وقد أتيتُ بهذا المعنى في رسالةٍ لي كتبْتُها إلى بعض الأصدقاء تعزيةً ، فقلت :
« ولو تأملَ الناسُ أحوالَهُمْ^(١) ، وتبيَّنوا مآلَهُمْ ، لعَلِمُوا أَنَّ المقيمَ منهم بوطنِهِ ،
والساكنَ إلى سَكَنِهِ ، أخو سَفَرٍ يُسَرَّى به وهو لا يَسَرِّي ، وراكِبُ بَحْرِ يُجَرَّى به
وهو لا يَذَرِّي » .

(١) : « في أحوالهم » .

(٦٣)

الأضلُ :
فَقَدْ الْأَحِبَّةُ غُرَبَةً .

الشَّيْخُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :
فَلَا تَحْسَبِي أَنَّ الْغَرِيبَ الَّذِي نَأَى وَلَكِنْ مَنْ تَنَأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبٌ^(١)
ومِثْلُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْغَرِيبُ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَبِيبٌ » .

وقال الشاعر :

أُسْرَةُ الْمَرْءِ وَالِدَاهُ وَفِيهَا بَيْنَ حِضْنَيْهِمَا الْحَيَاةُ تَطِيبُ^(٢)
وَإِذَا وَلَّىا عَنِ الْمَرْءِ يَوْمًا فَهُوَ فِي النَّاسِ أَجْنَبِيٌّ غَرِيبُ
وقال آخر :

إِذَا مَاضَى الْقَرْنُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِمْ وَخُلِّفَتْ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ^(٣)

(١) نَأَى : بعد . (٢) الحِضْنُ : ما دون الإبط إلى الكشح .

(٣) القرن : الجيل من الناس .

— ٢١١ —

(٦٤)

الأفضل :

فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلِبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا .

الشُّرْحُ :

قد سَبَقَ هذا المعنى ، وذَكَرْنَا كثيراً ممّا قيل فيه .

وكان يقال : لا تَطْلُبُوا الحوائِجَ إلى ثلاثة : إلى عَبْدٍ يقول : الأمر إلى غيري ،

وإلى رجلٍ حديثِ الغِنَى ، وإلى تاجِرٍ هَمَّتْهُ أَنْ يَسْتَرْبِحَ في كلِّ عشرين ديناراً حَبَّةً واحدةً^(١) .

(١) ساقطة من ١ .

(٦٥)

الأفضل :

لَا تَسْتَحِرَّ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقْلُ مِنْهُ .

الشرح :

هذا نوعٌ من ألحَثٍ على الإفضال والجود لطيف ، وقد استعمل كثيراً في الهدية والاعتذار لقلتها ؛ وقد تقدم منا قول شافٍ في مدح السخاء والجود .
وكان يقال : أفضل على من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عن من شئت تكن نظيره .
وسئل أرسطو : هل من جودٍ استطاع أن يتناول به كلُّ أحد ؟ قال : نعم ، أن تنوي الخير لكل أحد .

(٦٦)

الأضل :

العَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى .

الشَّرْحُ :

من الأبيات المشهورة :

فَإِذَا افْتَقَرْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَخَنِّعًا وَتَجَمَّلْ

ومن أمثالهم المشهورة : « تجوعُ الحرّةُ ولا تأكلُ بثدييها » (١) .

وأنشد الأصمعي لبعضهم :

أَقْسِمُ بِاللّهِ لَمَصُّ النَّوَى وَشَرْبُ مَاءِ الْقُلْبِ الْمَالِحَةِ

أَحْسَنُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْ سَوَالِ الْأَوْجُهِ الْكَالِحَةِ

فَاسْتَفْنِ بِاللّهِ تَكُنْ ذَا غِنَى مُغْتَبِطًا بِالصَّفْقَةِ الرَّابِحَةِ (٢)

طُوبَى لِمَنْ تُصْبِحَ مِيزَانُهُ يَوْمَ يُلَاقِي رَبَّهُ رَاجِحَةً

وقال بعضهم : وَقَفْتُ عَلَى كَنِيفٍ وَفِي أَسْفَلِهِ كَنَافٌ ؛ وَهُوَ يُنْشِدُ :

وَأَكْرِمُ نَفْسِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ أَلَا إِنَّ إِكْرَامَ النَّفُوسِ مِنَ الْعَقْلِ

(١) الميداني ١ : ٨١ ؛ قال : أى لا تكون ظئراً وإن أذاها الجوع . ويروى : « ولأنا أكل ثدييها »

قال : « وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدي » في خبر معروف ذكره هناك .

(٢) ب : « منبسطاً » تحريف .

— ٢١٤ —

وَأَجْلُ بِالْفَضْلِ الْمُبِينِ عَلَى الْأَلَى رَأَيْتُهُمْ لَا يُكْرِمُونَ ذَوِي الْفَضْلِ
وَمَا شَانِي كَنْسُ الْكَنِيفِ وَإِنَّمَا يَشِينُ الْفَتَى أَنْ يَجْتَدِيَ نَائِلَ النَّذْلِ^(١)
وَأَقْبَحُ مِمَّا بِي وَفَوْفِي مُؤَمَّلًا نَوَالَ فَتَى مِثْلِي ، وَأَيُّ فَتَى مِثْلِي !
وَأَمَّا كَوْنُ الشُّكْرِ زِينَةَ الْغِنَى ، فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْقَوْلِ مَا هُوَ كَافٍ .
وَكَانَ يُقَالُ : الْعِلْمُ بَغِيرُ عَمَلٍ قَوْلٌ بَاطِلٌ ، وَالنَّعْمَةُ بَغِيرُ شُكْرٍ جَيِّدٌ عَاطِلٌ .

(١) النذل : المحتقر من الناس في جميع أحواله .

(٦٧)

الأصل :

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ ، فَلَا تُبَلِّ كَيْفَ كُنْتَ !

الشرح :

قد أعجم تفسير هذه الكلمة على جملة من الناس ، وقالوا : المشهور في كلام الحكماء :
إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ، ولا معنى لقوله : « فلا تُبَلِّ كيف كنت » ! وجهلوا
مراده عليه السلام .

ومراده : إذا لم يكن ما تريد فلا تُبَلِّ بذلك ، أى لا تكثر بفوت مرادك
ولا تبنتس بالحُرمان ، ولو وقف على هذا لم يكمل المعنى ، وصار هذا مثل
قوله : « فلا تُكثِر على ما فاتك منها أسفا » ، ومثل قول الله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى
مَا فَاتَكُمْ ﴾ (١) ؛ لكنه تتم وأكد فقال : « كيف كنت » ، أى لا تُبَلِّ بفوت ما كنت
أملته ، ولا تحمل لذلك همًا كيف كنت ، وعلى أى حال كنت ، من حبس أو مرض أو
فقر أو فقد حبيب ؛ وعلى الجملة ، لا تُبالِ الدهر ، ولا تكثر بما يعكس عليك من
غرضك ، وبحرملك من أملك ؛ وليكن هذا الإخوان به والاحتقار له مما تعتمد دائما
على أى حال أفنى بك الدهر إليها . وهذا واضح .

(٦٨)

الأفضل :

لَا يُرَى الْجَاهِلُ إِلَّا مُفْرِطًا أَوْ مُفَرِّطًا .

الشرح :

العدالة هي الخلق المتوسط ، وهو محمود بين مذمومين ، فالشجاعة محفوفة بالتهور واللين ، والذكاء بالغباء والجريزة^(١) ، والجود بالشح والتبذير ، والحلم بالجمادية والاستشاطعة ، وعلى هذا كلّ ضدّين من الأخلاق فينبهما خلق متوسط ، وهو المسمى بالعدالة ، فذلك لا يُرَى الجاهلُ إِلَّا مُفْرِطًا أَوْ مُفَرِّطًا ، كصاحب الفيرة ، فهو إمّا أن يفرط فيها ، فيخرج عن القانون الصحيح فيغار لا مِنْ مُوجب ، بل بالوهم والخيال وبالوسواس ، وإمّا أن يُفرط فلا يبحث عن حالِ نسائه ولا يُبالى ما صنعن ، وكلا الأمرين مذموم ، والمحمود الاعتدال .

ومن كلام بعض الحكماء^(٢) : إذا صحّ العقل التّجَمَّ^(٣) بالأدب كالتّجَمَّ^(٤) بالطعام بالجسد الصحيح ، وإذا مرضَ العقلُ نَبَا عنه ما يستمتع من الأدب كما يقى المَعُود ما أكل من الطعام ، فلو آثر الجاهلُ أن يتعلَّم شيئاً من الأدب لتحوّل ذلك الأدبُ جهلاً ، كما يتحوّل ما خالط جوفَ المريض من طيب الطعام داءً .

(١) الجريزة : الحب والمكر . (٢) : « ومن كلام الحكماء » .

(٣) : « التأم » .

(٤) : « كالتّام » .

— ٢١٧ —

(٦٩)

الأفضل :

إِذَا تَمَّ الْعَمَلُ نَقَصَ الْكَلَامُ .

الشرح :

قد سبق القول في هذا المعنى .

وكان يقال : إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ^(١) يُطِيلُ الصَّمْتَ وَيَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ ، فَاقْرُبُوا مِنْهُ
فإنه يلقي الحكمة .

(١) : « رجلا » .

(٧٠)

الأُنسل .

الدَّهْرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ ، وَيُبَاعِدُ الْأُمْنِيَّةَ . مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصَبٌ ، وَمَنْ فَاتَهُ تَعَبٌ .

التَّشْنُجُ :

قد سبق لنا قول طويل عريض في ذكر الدهر والدنيا ، ونذكر الآن شيئاً آخر ، قال بعضُ الحكماء : الدُّنْيَا تَسْرُّ لَتَغُرُّ ، وَتُقَيِّدُ لَتَكِيدُ ، كَمَ رَاقِدٍ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْقَظَتْهُ ، وَوَاتَّقِ بِهَا قَدْ خَذَلَتْهُ ، بِهَذَا الْخُلُقِ عُرِفَتْ ، وَعَلَى هَذَا الشَّرْطِ صُوِّجَتْ .

وكتب الاسكندرُ إلى أَرِسْطُوطَالِيسَ : عِظْنِي ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ : إِذَا صَفَتْ لَكَ السَّلَامَةُ فَجَدِّدْ ذِكْرَ الْعَطَبِ ، وَإِذَا أَطْمَأَنَّ بِكَ الْأَمْنُ فَاسْتَشِعِرْ الْخَوْفَ ، وَإِذَا بَلَغْتَ نَهَايَةَ الْأَمَلِ فَادْكُرِ الْمَوْتَ ، وَإِذَا أَحْبَبْتَ نَفْسَكَ فَلَا تَجْعَلْ لَهَا نَصِيباً فِي الْإِسَاءَةِ ، وَقَالَ شَاعِرٌ فَأَحْسَنَ :

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَى	وَلَمْ تَرَ بِالْبَاقِينَ مَا صَنَعَ الدَّهْرُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ	عَفَاها حَالُ الرِّيحِ بِمَدَّكَ وَالْقَطَرُ
وَهَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ حَيًّا بِمَنْزِلِ	عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا بِالْعَرَاءِ لَهُ قَبْرُ
فَلَا تَحْسِبَنَّ الْوَفَرَ مَالاً جَمَعْتَهُ	وَلَكِنْ مَا قَدَمْتَ مِنْ صَالِحٍ وَفَرُ

مَضَى جَامِعُ الْأَمْوَالِ لَمْ يَتَزَوَّدُوا	سَوَى الْفَقْرِ يَا بُؤْسَى لِمَنْ زَادَهُ الْفَقْرُ !
فَحْتَامَ لَا تَصْحُوْ وَقَدْ قَرَبَ الْمَدَى	وَحَتَّامَ لَا يَنْجَابُ عَنْ قَلْبِكَ السُّكْرُ !
بَلَى سَوْفَ تَصْحُوْ حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا	وَتَذَكُرُ قَوْلِي حِينَ لَا يَنْفَعُ الذِّكْرُ
وَمَا بَيْنَ مِيلَادِ الْفَتَى وَوَفَاتِهِ	إِذَا انْتَصَحَ الْأَقْوَامُ أَنْفُسَهُمْ عُمر ^(١)
لَأَنَّ الَّذِي يَأْتِيهِ شِبْهُ الَّذِي مَضَى	وَمَا هُوَ إِلَّا وَقْتُكَ الصَّبِيحُ النَّزْرُ
فَصَبْرًا عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى تَجُوزَهَا	فَعَمَّا قَلِيلٍ بِمَدِّهَا يُحَمَّدُ الصَّبْرُ

(٧١)

الأصل :

مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ ؛
وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ
مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ .

الشرح :

الفروع تابعة للأصول ، فإذا كان الأصل معوجًا استحال أن يكون الفرع مستقيماً ،
كما قال صاحب المثل : « وهل يستقيم الظلّ والعود أعوج » ، فمن نصب نفسه للناس إماماً ،
ولم يكن قد علم نفسه ما انتصب ليعلمه الناس ، كان مثل من نصب نفسه ليُعلم الناس
الصياغة ، والنجارة ، وهو لا يُحسن أن يصوغ خاتماً ، ولا ينجز لوحاً ، وهذا نوعٌ من السّفه ،
بل هو السّفهُ كُلُّهُ ؛ ثم قال عليه السلام : وينبغي أن يكون تأديبه لهم بفعله وسيرته
قبل تأديبه لهم بلسانه ، وذلك لأنّ الفعل أدلّ على حال الإنسان من القول .

ثم قال : ومعلم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم . وهذا حقّ ،
لأنّ من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظمُ قدراً ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غيرُ عامل
بشيء منه ، فأما من علم نفسه وعلم الناس فهو أفضل^(١) وأجلّ ممن اقتصر على تعليم نفسه
فقط لا شبهة في ذلك .

(١) : « وأعظم » .

(٧٢)

الأضل :

نفس المرء خطاه إلى أجله .

البنح :

وجدت هذه الكلمة منسوبة إلى عبد الله بن المعتز في فصل أوله : « الناس وفد البلاء ، وسكان الثرى ، وأتقاس الحى خطاه إلى أجله ، وأمله خادع له عن عمله ، والدنيا أكلب وإعديه ، والنفس أقرب أعديه ، والموت ناظر إليه ، ومنتظر فيه أمراً يُمضيه » فلا أدري هل هي لابن المعتز ، أم أخذها من أمير المؤمنين عليه السلام !
والظاهر^(١) أنها لأمر المؤمنين عليه السلام ، فإنها بكلامه أشبه ، ولأن الرضى قد رواها عنه ، وخبر العدل معمول به .

(١) : « ويظهر » .

(٧٣)

الأصل :

كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

الشرح :

الكلمة الأولى تؤكد مذهب جمهور المتكلمين في أن العالم كله لا بد أن ينقضى وَيَفْتَنَى ، ولكن المتكلمين الداهيين إلى هذا القول لا يقولون : يجب أن يكون فانياً ومنقضياً لأنه معدود ، فإن ذلك لا يلزم ؛ ومن الجائز أن يكون معدوداً ولا يجب فناؤه ، ولهذا قال أصحابنا : إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا من طريق العقل ، فيجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يطابق ذلك ، وهو أنه ليس معنى أن العدد علة في وجوب الانقضاء ، كما يشعر به ظاهر لفظه ، وهو الذي يسميه أصحاب أصول الفقه إيماء ، وإنما مراده ^(١) كل معدود فاعلموا أنه فاني ومنقضي ، فقد حكم على كل معدود بالانقضاء حكماً مجرداً عن العلة ، كما لو قيل : زيد قائم ، ليس يعني أنه قائم ، لأنه يسمى زيدا .

فأما قوله : « وكل متوقع آت » فيأثله قول العامة في أمثالها : « لو انتظرت القيامة لقامت » ؛ والقول في نفسه حق ، لأن العقلاء لا ينتظرون ما يستحيل وقوعه ، وإنما ينتظرون ما يمكن وقوعه ، وما لا بد من وقوعه ، فقد صح أن كل منتظر سيأتي .

(٢) ١ : « ومراده » .

(٧٤)

الأضل :

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اُعْتَبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا .

الشَّرخ :

روى : « إِذَا اشْتَبَهَتْ » ، والمعنى واحد وهو حق ، وذلك أن المقدمات تدلّ على النتائج ، والأسباب تدلّ على المسببات ، وطالما كان الشيطان ليسا عِلَّةً ومعلولا ، وإنما بينهما أدنى^(١) تناسب ، فيُستدلّ بحالٍ أحدهما على حال الآخر ، وإذا كان كذلك واشتبهت أمورٌ على العاقل الفطن ولم يعلم إلى ماذا تتول ، فإنه يُستدلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفوائدها ، كالرعية ذات السلطان الركيك الضعيف السياسة ، إذا ابتدأت أمورٌ مملكته تضطرب ، واستبهم على العاقل كيف يكون الحال في المستقبل ، فإنه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها ، ويعلم أنه سيفضي أمرٌ ذلك الملك إلى انتشار وانهلال في مستقبل الوقت ، لأنّ الحركات الأولى مُنذرة بذلك ، وواعدة بوقوعه ، وهذا واضح .

(١) : « أقرب » .

(٧٥)

الأصل :

ومن خبر ضرار بن ضمرة الضابي عند دخوله على معاوية ، وسأله له عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : فأشهد لقد رأيته في بعض موافقه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته ، يتململ يتململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وهو يقول :

يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكَ عَنِّي ، أَيْ تَعَرَّضْتَ ، أَمْ إِلَى تَشَوَّقٍ ! لَا حَانَ حَيْنُكَ ، هَيْهَاتَ ، غُرِّي غَيْرِي ، لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ ، قَدْ طَلَّقْتُكَ ثَلَاثًا ، لَا رَجْمَةَ فِيهَا ، فَعَيْشُكَ قَصِيرٌ ، وَخَطَرُكَ يَسِيرٌ ، وَأَمْلُكَ حَقِيرٌ . آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ ، وَطُولِ الطَّرِيقِ ، وَبُعْدِ السَّفَرِ ، وَعَظِيمِ الْأَمُورِ !

الشرح :

السُّدُولُ : جَمْعُ سَدِيلٍ ، وَهُوَ مَا أُسْدِلَ عَلَى الْهَوْدَجِ ، وَيَجُوزُ فِي جَمْعِهِ أَيْضًا أُسْدَالٌ وَسَدَائِلٌ ، وَهُوَ هَاهُنَا اسْتِعَارَةٌ . وَالتَّمَلُّمُ وَالتَّمَلُّلُ أَيْضًا : عَدَمُ الْاسْتِقْرَارِ مِنَ الْمَرَضِ ، كَأَنَّهُ عَلَى مَكَّةَ ، وَهِيَ الرَّمَادُ الْحَارَّةُ .

وَالسَّلِيمُ : الْمُسَوِّعُ .

وَيُرْوَى « تَشَوَّقَتْ » بِالْقَافِ .

وَقَوْلُهُ : « لَا حَانَ حَيْنُكَ » ، دَعَاءٌ عَلَيْهَا ، أَيْ لَا حَظَرَ وَقْتُكَ ، كَمَا تَقُولُ : لَا كُنْتُ .

فأما ضِرَارُ بنِ ضَمْرَةَ ، فَإِنَّ الرِّيَاشِيَّ رَوَى خَبْرَهُ ، وَنَقَلْتُهُ أَنَا مِنْ كِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ إِسْمَاعِيلَ بنِ أَحْمَدَ الحُلِيِّ فِي « التَّنْذِيلِ عَلَى نَهْجِ الْبَلَاغَةِ » ، ، قَالَ : دَخَلَ ضِرَارٌ عَلَى مُعَاوِيَةَ - وَكَانَ ضِرَارٌ مِنْ صَحَابَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : يَا ضِرَارُ ، صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : أَوْ تُعَفِّينِي ! قَالَ : لَا أَغْفِيكَ ، قَالَ : مَا أَصْفَ مِنْهُ ! كَانَتْ (١) وَاللَّهُ شَدِيدَ الْقُوَى ، بَعِيدَ الْأَمَدَى ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ أَنْحَائِهِ ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ أَرْجَائِهِ ، حَسَنَ الْمَعَاشِرَةِ ، سَهْلَ الْمُبَاشَرَةِ ، خَشِنَ الْمَأْكَلُ ، قَصِيرَ الْمَلَبَسِ ، غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يَقْلِبُ كَفَّهُ ، وَيَخَاطِبُ نَفْسَهُ ، وَكَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَا ، وَيَبْتَدِئُنَا إِذَا سَكَتْنَا ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيبِهِ لَنَا أَشَدَّ مَا يَكُونُ صَاحِبٌ لِمَا يَحِبُّ هَيْبَةً ، لَا نَبْتَدِئُهُ الْكَلَامَ لِعَظَمَتِهِ ، يُحِبُّ الْمَسَاكِينَ ، وَيَقْرُبُ أَهْلَ الدِّينِ ، وَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ . . . وَتَمَامُ الْكَلَامِ مَذْكُورٌ فِي الْكِتَابِ .

وَذَكَرَ أَبُو عَمْرٍو بنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ « الْأُسْتِيعَابِ » ، ، هَذَا الْخَبَرَ ، فَقَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ يُونُسَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بنُ مَالِكٍ بنِ عَائِدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ مُقْلَةَ الْبَغْدَادِيِّ بِمِصْرَ . وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنِ الْحَسَنِ بنِ دُرَيْدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا الْعُكْلِيُّ ، عَنْ الْحَرِّ مَازِيٍّ ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ هَمْدَانَ ، قَالَ : قَالَ مُعَاوِيَةُ لِضِرَارِ الضَّبَابِيِّ (٢) : يَا ضِرَارُ صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : اعْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَالَ : لَتَصِفَنَّهُ ؛ قَالَ : أَمَّا إِذَا لَا بَدَّ مِنْ وَصْفِهِ ، فَكَانَ وَاللَّهُ بَعِيدَ الْمَدَى ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَصْلًا ، وَيَحْكُمُ عَدْلًا ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَأْنَسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ ، [وَكَانَ] (٣) غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يُعْجِبُهُ مِنَ الْبَلَّاسِ مَا قَصُرَ ، وَمِنْ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ . كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَا ، وَيُبْنِئُنَا إِذَا اسْتَفْتَيْنَاهُ ؛ وَنَحْنُ وَاللَّهُ

(١) ب : « وَكَانَ » ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَهُ . (٢) فِي الْأُسْتِيعَابِ : « الصَّدَائِقُ » .

(٣) مِنَ الْأُسْتِيعَابِ .

مع تقرّبه إيتانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلّمه هيّة له . يعظم أهل الدين ، ويقرب
 الساكنين . لا يطعم القوى في باطله ، ولا يئس الضعيف من عدله ؛ وأشهد لقد رأيته .
 في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، قابضا على لحيته ، يتملّل .
 يتملّل السليم^(١) ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دُنْيا غُرّى غَيْرى ، أبى^(٢) تعرّضت !
 أم إلى تشوّفت ! هيهات هيهات ! قد باينتُك ثلاثا لا رجعة لى فيها ، فمُمرّك قصير ،
 وخطرُك حقير ! آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! فبكى معاوية وقال :
 رَحِمَ اللهُ أبا حسن ، كان والله كذلك ؛ فكيف حُزنُك عليه يا ضِرار ؟ قال : حزنُ
 مَنْ دُيِّحَ ولدُها في حِجرها^(٣) .

(١) السليم : اللدين . (٢) الاستيعاب : « ألى » .

(٣) الاستيعاب ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، وهو أيضا فى أمالى القالى ٢ : ١٤٧ -

(٧٦)

الأضل :

ومن كلامه عليه السلام للسائل الشامي لما سأله : أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره ؟ بعد كلام طويل هذا مختاره :

وَيَحْتَكَ ! أَمَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءَ لَازِمًا ، وَقَدَرًا حَاتِمًا ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْذِيرًا ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيرًا ، وَكَفَلَ يَسِيرًا ، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيرًا ، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا ، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوبًا ، وَلَمْ يُطْعَ مُكْرِهًا ، وَلَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِبًا ، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثًا ، وَلَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ؛ ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ .

الْبَزْجُ :

قد ذكر شيخنا أبو الحسين رحمه الله هذا الخبر في كتاب « الزَّرَر » ورواه عن الأصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ ، قال : قام شيخٌ إلى علي عليه السلام فقال : أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء الله وقدره ؟ فقال : والذي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ ، مَا وَطِئْنَا مَوْطِئًا ، وَلَا هَبَطْنَا وادِيًا إِلَّا بِقضاء الله وقدره . فقال الشيخ ! فَعِنْدَ اللَّهِ أَحْتَسِبُ عَنَائِي ! مَا أَرَى مِنْ الْأَجْرِ شَيْئًا ! فقال : مَهْ ! أَيُّهَا الشَّيْخُ ، لَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكُمْ فِي مَسِيرِكُمْ وَأَنْتُمْ سَائِرُونَ ، وَفِي مُنْصَرَفِكُمْ وَأَنْتُمْ مُنْصَرِفُونَ ، وَلَمْ تَكُونُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالَاتِكُمْ مُكْرَهِينَ ،

ولا إليها مضطربين . فقال الشيخ : وكيف القضاء والقدر ساقان ؟ فقال : وَيَحْك ! لَمَّا ظننتَ قضاءً لازماً ، وقدرًا ختماً ! لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، ولم تأتِ لائمة من الله لمُذنب ، ولا تحمداً لمُحسِن ، ولم يكن المُحسِن أولى بالمدح من السيء ، ولا السيء أولى بالذم من المُحسِن ؛ تلك مقالة عبَاد الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قَدَرِيَّةُ هذه الأمة ومجوسُها ؛ إِنَّ الله سبحانه أمرٌ تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يُعص مغلوباً ، ولم يُطع مُكرهاً ، ولم يُرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يُخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ ذلك ظنّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار ﴾ (١) فقال الشيخ : فما القضاء والقدر اللذان ما سِرنا إلا بهما ؟ فقال : هو الأمر من الله والحكم ، ثم تلا قوله سبحانه : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٢) ، فنهض الشيخُ مسروراً وهو يقول :

أنتَ الإمامُ الذي نرجو بطاعته يومَ النشورِ من الرحمنِ رضواناً
أوضحتَ مِن ديننا ما كان مُلتبساً جزاك ربُّك عِناً فيه إحساناً
ذكرَ ذلك أبو الحسين في بيانِ أن القضاء والقدر قد يكون بمعنى الحكم والأمر ،
وأنَّه من الألفاظ المشتركة .

(٢) سورة الإسراء : ٢٣ .

(١) سورة ص ٢٧ .

(٧٧)

الأضل :

خُذِ الْحِكْمَةَ أَتَى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلْجَلِجُ فِي صَدْرِهِ ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ .
قَالَ الرَّضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ .

* * *

الشَّيْخُ :

خَطَبَ الْحِجَّاجُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِطَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَكِفَانًا مِثْوَةَ الدُّنْيَا ، فَلَيْتَنَا كُفِينَا مِثْوَةَ الْآخِرَةِ ، وَأَمَرْنَا بِطَلَبِ الدُّنْيَا !
فَسَمِعَهَا الْحَسَنُ فَقَالَ : هَذِهِ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ خَرَجَتْ مِنْ قَلْبِ الْمُنَافِقِ .
وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يُعْجِبُهُ كَلَامُ أَبِي سَحْمَةَ الْخَارِجِيِّ وَيَقُولُ : ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ عَلَى لِسَانِ الْمُنَافِقِ . تَقْوَى اللَّهِ أَكْرَمُ سَرِيرَةٍ ، وَأَفْضَلُ ذَخِيرَةٍ ، مِنْهَا ثِقَةُ الْوَائِقِ ، وَعَلَيْهَا مِقَّةُ الْوَامِقِ .
لِيَعْمَلَ كُلُّ امْرِئٍ فِي مَكَانِ نَفْسِهِ وَهُوَ رَخِي اللَّبَبِ ، طَوِيلُ السَّبَبِ ، لِيَعْرِفَ تَمَدُّ يَدِهِ ، وَمَوْضِعَ قَدَمِهِ ، وَلِيَحْذَرَ الزَّلَلِ ، وَالْبَلَلِ الْمَانِعَةَ مِنَ الْعَمَلِ . رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا آثَرَ التَّقْوَى ، وَأَسْتَشْعَرَ شِمَارَهَا ، وَاجْتَنَى ثِمَارَهَا ، بَاعَ دَارَ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْآبَادِ ، الدُّنْيَا كَرَوْضَةٍ يُونُقُ مَرْعَاهَا ، وَتُعْجِبُ مَنْ رَأَاهَا . تَمُجُّ عُرُوقُهَا الثَّرَى ، وَتَنْطَفِ فُرُوعُهَا بِالنَّدَى ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْعُشْبُ إِنَاهُ ، وَأَنْتَهَى الزُّبُرُجُ مُنْتَهَاهُ ، ضُفِّ الْعُمُودُ ، وَذَوَى الْعُودُ ، وَتَوَلَّى مِنَ الزَّمَانِ مَا لَا يَعُودُ ؛ حَتَّتِ الرِّيحُ الْوَرَقَ ، وَفَرَّقَتْ مَا كَانَ اتَّسَقَ ، فَأَصْبَحَتْ هَشِيمًا ، وَأُمْسَتْ رَمِيمًا .

(٧٨)

الأفضل :

قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ .

قَالَ الرَّضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا تُصَابُ لَهَا قِيَمَةٌ ، وَلَا تُوزَنُ بِهَا حِكْمَةٌ ، وَلَا تُقَرَّنُ إِلَيْهَا كَلِمَةٌ .

البشر :

قد سَلَفَ لَنَا فِي فَضْلِ الْعِلْمِ أَقْوَالٌ شَافِيَةٌ ، وَنَحْنُ نَذْكُرُهَا هُنَا نُسَكِّتُ أُخْرَى .

يَقَالُ : إِنَّ مِنْ كَلَامِ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابِكٍ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ : بِحَسْبِكُمْ دَلَالَةٌ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ مَدْحٌ بِكُلِّ لِسَانٍ ، يَتَرَبَّنُ بِهِ غَيْرُ أَهْلِهِ ، وَيَدَّعِيهِ مَنْ لَا يِلْصِقُ بِهِ . قَالَ : وَبِحَسْبِكُمْ دَلَالَةٌ عَلَى عَيْبِ الْجَهْلِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَنْتَفِي مِنْهُ ، وَيَفْضُبُ أَنْ يَسْمَى بِهِ .

وَقِيلَ لِأَنُوشَرَوَانَ : مَا بِالْكُمِ لَا تَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا إِلَّا زَادَكُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ حِرْصًا ؟ قَالَ : لِأَنَّا لَا نَسْتَفِيدُ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا زَادَنَا بِهِ رِفْعَةً وَعِزًّا . وَقِيلَ لَهُ : مَا بِالْكُمِ لَا تَأْتَفُونَ مِنَ التَّعَلُّمِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ؟ قَالَ : لَعَلَّمْنَا أَنَّ الْعِلْمَ نَافِعٌ مِنْ حَيْثُ أَخَذَ .

وَقِيلَ لِبُزْرِجَهْرٍ : بِمِ أَدْرَكَتَ مَا أَدْرَكَتَ مِنَ الْعِلْمِ ؟ قَالَ : يَكُونُ كَبُكُورِ الْفُرَابِ ، وَحِرْصِ كَحِرْصِ الْخَنْزِيرِ ، وَصَبْرِ كَصَبْرِ الْحِمَارِ .

وَقِيلَ لَهُ : الْعِلْمُ أَفْضَلُ أَمْ الْمَالُ ؟ فَقَالَ : الْعِلْمُ ، قِيلَ : فَمَا بَالُنَا نَرَى أَهْلَ الْعِلْمِ عَلَى

— ٢٣١ —

أبواب أهل المال أكثر مما نرى أصحاب الأموال على أبواب العلماء ! قال : ذاك أيضا عائد
إلى العلم والجهل ، وإنما كان كما رأيتم ، لعلم العلماء بالحاجة إلى المال ، وجهل أصحاب المال
بفضيلة العلم .

وقال الشاعر :

تَعْلَمُ فليس المرءُ يُخَلِّقُ عالِماً وليس أخو علمٍ كمن هوَ جاهلٌ
وإن كَبِيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عنده صغيرٌ إذا التفتَ عليه المَحافلُ

(٧٩)

الأفضل :

أَوْصِيَكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلًا : لَا يَرْجُونَ
أَحَدًا مِنْكُمْ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ ، وَلَا يَسْتَحِينَ أَحَدًا مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا
لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ : لَا أَعْلَمُ ، وَلَا يَسْتَحِينَ أَحَدًا إِذَا لَمْ يَعْنَمْ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، وَعَلَيْكُمْ
بِالصَّبْرِ ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ ،
وَلَا خَيْرَ فِي إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ .

الشنخ :

قد تقدّم الكلام في جميع الحكم المنطوية عليها هذا الفصل ؛ وقال أبو المتأهية :
والله لا أرجو سوا لك ولا أخاف سواي ذنوبي
فاغفر ذنوبي يا رحيم فأنّت ستار العيوب
وكان يقال : من استخيا من قول : « لا أدري » كان كمن يستخى من كشف ركبته ،
ثم يكشف سوءه ، وذلك لأنّ من امتنع من قول : « لا أدري » وأجاب بالجهل والخطأ
فقد واقع ما يجب في الحقيقة أن يستخيا منه ، وكفّ عما ليس بواجب أن يستخيا منه ،
فكان شبيها بما ذكرناه في الرّكبة والعورة .
وكان يقال : يحسن الإنسان التعام ما دام يقبح منه الجهل ، وكما يقبح منه الجهل ما
دام حيّا كذلك يحسن به التعلم ما دام حيّا .
وأما الصبر فقد سبق فيه كلام مقنع ، وسيأتي فيما بعد جملة من ذلك .

(٨٠)

الأضل

وقال عليه السلام لرجلٍ أفرطَ في الثناء عليه - وكان له مُتَمِّها : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ،
وفوقَ مَا فِي نَفْسِكَ .

الشنخ :

قد سبقَ مِنَّا قولٌ مُقْنِعٌ في كراهية مدح الإنسان في وجهه .
وكان عمرُ جالساً وعنده الدُّرَّةُ ، إذ أقبلَ الجارودُ العبديُّ ، فقال رجل : هذا الجارود
سيدُّ ربِيعه ؟ فسَمِعَها عمرُ ومن حوله ، وسَمِعَها الجارود ، فلما دنا منه خَفَقَ بالدُّرَّةِ
فقال : ما لي ولك يا أمير المؤمنين ! قال : ما لي ولك ! أما لقد سَمِعَها ؟ قال : وما سَمِعَها فـه !
قال : ليخالطنَ قلبك منها شيء ، وأنا أحبُّ أن أطأطأ منك .

وقالت الحكماء : إنَّه يحدثُ للممدوح في وجهه أمرانِ مُهِلِكَانِ : أحدهما الإعجاب
بنفسه ، والثاني إذا أثنى عليه بالدين أو العلم فَتَرَ وَقَلَ اجتِهاده ، ورضى عن نفسه ،
ونقصَ تسميرُهُ وِجْدَهُ في طلب العلم والدين ، فإنه إنما يتشمر من رأى نفسه مقصراً
فأما مَنْ أَطْلَقَتِ الألسُنُ بالثناء عليه ، فإنه يظنُّ أنه قد وصل وأدرك ، فيقلُّ اجتِهاده ،
ويَتَكَلَّ على ما قد حَصَلَ له عند الناس ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن مدَّح

إنسانا كاد يسمعه : « وَيْحَكَ ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ، لَوْ سَمِعَهَا لِمَا أَفْلَحَ » .
 فَمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ : « وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ » ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَنْبِئَهُ عَلَى أَنَّهُ
 قَدْ عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ يَقَعُ فِيهِ ، وَيَنْحَرِفُ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ تَعْرِيفَهُ ذَلِكَ لِمَا رَأَاهُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ ،
 إِنَّمَا لَفْظُهُ أَنَّهُ يُقْلَعُ عَمَّا كَانَ يَذِمُّهُ بِهِ ، أَوْ لِيُعَلِّمَهُ بِتَعْرِيفِهِ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ ، أَوْ لِيُخَوِّفَهُ
 وَيُزْجِرَهُ ، أَوْ لِنُفْرِ ذَلِكَ .

(٨١)

الأضل :

بَقِيَّةُ السَّيْفِ أُنْعَمَى عَدَدًا ، وَأَكْثَرُ وَلَدًا .

الشَّنْخُ :

قال شيخنا أبو عثمان : لَيْتَهُ لِمَا ذَكَرَ الْحَكَمَ ذِكْرَ الْعِلَّةِ !

ثم قال : قد وجدنا مصداق قوله في أولاده وأولاد الزبير وبنى المهلب وأمثالهم ممن أسرع القتلُ فيهم .

وَأَتَى زِيَادٌ بَامْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ فَقَالَ لَهَا : أَمَا وَاللَّهِ لَأُخْصِدَنَّكُمْ حَصْدًا ، وَلَأَفْنِيَنَّكُمْ عَدَا ، فَقَالَتْ : كَلَّا إِنَّ الْقَتْلَ لِيَزْرَعُنَا ، فَلَمَّا هَمَّ بِقَتْلِهَا تَسَرَّتْ بِثُوبِهَا ، فَقَالَ : اهْتَكُوا سِتْرَهَا لِحَاثِهَا اللَّهُ^(١) ! فَقَالَتْ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْتِكُ سِتْرَ أَوْلِيَائِهِ ، وَلَكِنْ أَلْتَى هُتَكَ^(٢) سِتْرَهَا عَلَى يَدِ ابْنِهَا سُمَيَّةَ ، فَقَالَ : عَجِّلُوا قَتْلَهَا أَبْعِدْهَا اللَّهُ ! فَقُتِلَتْ .

(١) لحاه الله ، أى فجأة ولعن . (٢) : « هتك » .

(٨٢)

الأبْضَلُ :

مَنْ تَرَكَ قَوْلَ : « لَا أُدْرِى » أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ .

الشَّيْخُ :

جاءت امرأة إلى بُزُرْجُمَهْرَ ، فسألته عن مسألة فقال : لا أدري ، فقالت : أيعطيك
المَلِكُ كلَّ سنةٍ كذا كذا وتقول : لا أدري ؛ فقال : إنما يعطيني الملك على ما أدري ،
ولو أعطاني على ما لا أدري لما كفاني بيت ماله .
وكان يقول : قولُ « لَا أَعْلَمُ » نِصْفُ الْعِلْمِ .
وقال بعضُ الفضلاء : إذا قال لنا إنسانٌ : « لَا أُدْرِى » عَلَّمَنَاهُ حَتَّى يَدْرِى ، وإن قال :
أدري ، امتحَنَاهُ حَتَّى لَا يَدْرِى .

(٨٣)

الأصل :

رَأَى الشَّيْخُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلَامِ .
وَيُرَوَّى : « مِنْ مَشْهَدِ الْغُلَامِ » .

الشَّيْخُ :

إنما قال كذلك لأنَّ الشيخ كثيرُ التَّجربة ، فيبلغ من العَدُوِّ برأيه ما لا يبلُغ بشجاعته
الغلام الَّحدَث غير المجرَّب ، لأنَّه قد يغرَّر بنفسه فيهلك ويُهْلِك أصحابه ، ولا ريب أنَّ الرأى
مقدَّم على الشجاعة ، ولذلك قال أبو الطَّيِّب :

الرأى قبلَ شجاعةِ الشُّجْعانِ هو أوَّلُ وهى المحلُّ الثَّانِى^(١)
فإذا ما اجتمعَا لنفسٍ مرَّةٍ بلغتُ من العُلَمَاءِ كلَّ مكانٍ^(٢)
ولربما طعنَ الفتى أقرانه بالرأى قبلَ تطاعنِ الأقربانِ
لولا العقولُ لكانَ أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ
ولما تفاضلتِ الرجالُ ودبَّرتُ أيدي الكُماةِ عوالي المُرَّاتِ

وَمِنْ وَصَايَا أَبِرْوَيْزَ إِلَى ابْنِهِ شَيْرُويَه : لا تستعمل على جيشك غلاما غمرا ترِّفا ،
قد كثر إيجابه بنفسه ، وقلَّت تجاربه فى غيره ، ولا هَرِمَا كبيرا مدبرا قد
أَخَذَ الدهرُ مِنْ عقله ، كما أَخَذَتِ السنُّ مِنْ جِسْمِهِ ؛ وَعَلَيْكَ بِالْكُهُولِ
ذَرِّ الرأى !

(١) ديوانه ٤ : ١٧٤ ، ١٧٥ (٢) النفس المرة : القوية الشديدة . من قوله تعالى « ذمرة فاستوى » .

وقال لقيط بن يعمّر الإياديّ في هذا المعنى :

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمْ رَحْبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِّمًا^(١)
 لَا مُتَرَفًا إِنْ رَخَاهُ الْعَيْشُ سَاعِدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَمًا^(٢)
 مَا زَالَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مَتِّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعًا^(٣)
 حَتَّى اسْتَمَرَّ عَلَى شَرْزٍ مَرِيرَةٍ مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لَا فَخْمًا وَلَا ضِرْعًا^(٤)

(١) مختارات ابن الشجري ١ : هـ . مضطلما ، من الضلاعة ؛ وهي القوة .

(٢) خشم ، أى خضم للأمر .

(٣) ابن الشجري : « ما افك يحلب » :

(٤) الشزر : قتل الحبل مما يلى اليسار والفحم : الشيخ الكبير السن لهم . والضرع : الرجل الضعيف .

(٨٤)

الأصل :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الْإِسْتِغْفَارُ .

الشرح :

قالوا : الاستغفار حَوَارِسُ الذنوب .

وقال بعضهم : العبدُ بين ذَنْبٍ وَنِعْمَةٍ لَا يُصْلِحُهُمَا إِلَّا الشُّكْرُ وَالِاسْتِغْفَارُ .

وقال الربيع بن خثيم^(١) : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » فَيَكُونُ ذَنْبًا وَكَذِبًا إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ .

وقال الفضيل : الاستغفار بلا إقلاع^(٢) توبةُ الكذابين .

وقيل : مَنْ قَدَّمَ الْإِسْتِغْفَارَ عَلَى النَّدَمِ ، كَانَ مُسْتَهْزَأًا بِاللَّهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ .

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « خثيم » . (٢) الإقلاع : ترك الذنوب .

(٨٥)

الأفضل :

وحكى عنه أبو جعفر محمد بن على الباقر عليهما السلام أنه كان عليه السلام قال :
كان في الأرض أمانان من عذاب الله ، وقد رُفِعَ أحدهما ، فدوّنكم الآخرَ
فتمسّكوا به ، أما الأمان الذي رُفِعَ فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما الأمان
الباقي فالاستغفار ، قال الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم وما كان الله
لمعذبهم وهم يستغفرون ﴾ (١) .

قال الرضوي رحمه الله تعالى : وهذا من حُسن الاستخراج ، ولطائف
الاستنباط .

الشرح :

قال قوم من المفسرين : ﴿ وهم يستغفرون ﴾ ، في موضع الحال : والمراد نفي الاستغفار
عنهم ، أي لو كانوا ممن يستغفرون لما عذبهم ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وما كان ربك
لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٢) ؛ فكأنه قال : لكنهم لا يستغفرون فلا
انتفاء للعذاب عنهم .

وقال قوم : معناه ، وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفروهم المسلمون بين أظهرهم من
تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من المستضعفين (٣) .

(١) سورة الأنفال ٣٣ .

(٢) سورة هود ٧١١ . (٣ - ٣) ساقط من ١ .

ثم قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾^(١) ، أى ولأى سَبَب لا يعذبهم الله مع وجود ما يقتضى العذاب ، وهو صدّهم المسلمين والرّسول عن البيت فى عام الحديبية ! وهذا يدلّ على أنّ ترتيب القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث ، لأنّ سورة الأنفال نزلت عقيب وقعة بدرٍ فى السنّة الثانية من الهجرة ، وصدّ الرّسول صلّى الله عليه وآله عن البيت كان فى السنّة السادسة ، فكيف يجعل آية نزلت فى السنة السادسة فى سورة نزلت فى السنة الثانية !

وفى القرآن كثيرٌ من ذلك ، وإِنّما رتبّه قومٌ من الصحابة فى أيام عثمان .

(١) سورة الأنفال ٣٤

(٨٦)

الْأَضْلُ :

مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .
وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللَّهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ .
وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ .

الشَّرْحُ :

مِثْلُ الْكَلِمَةِ الْأُولَى قَوْلُهُمْ : رِضَا الْمَخْلُوقِينَ عُقْوَانُ رِضَا الْخَالِقِ ؛ وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ .
الرَّفُوعُ : « مَا مِنْ وَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا أَرْضَى عَنْهُ رَعِيَّتَهُ » .

وَمِثْلُ الْكَلِمَةِ الثَّانِيَةِ دُعَاءُ بَعْضِهِمْ فِي قَوْلِهِ :

أَنَا شَاكِرٌ أَنَا مَادِحٌ أَنَا حَامِدٌ أَنَا خَائِفٌ أَنَا جَائِعٌ أَنَا عَارٍ
هِيَ سِتَّةٌ وَأَنَا الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا فَكُنْ الضَّمِينِ بِنِصْفِهَا يَا بَارِي

وَمِثْلُ الْكَلِمَةِ الثَّلَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

(٨٧)

: الأضل :

أَلْفَقِيهِ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ،
وَلَمْ يُؤْمَنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ .

: الشنخ :

قلّ موضعٌ من الكتاب العزيز يذكّر فيه الوعيد إلا ويمزّجه بالوعد ، مثل أن يقول :
« إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ » ثم يقول : « وإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ » ، والحكمة تقتضي هذا ليكون
المكلف متردداً بين الرغبة والرّبة .

ويقولون في الأمثال الرموزة : لَقِيَ مُوسَى وَهُوَ ضَاكِكٌ مُسْتَبْشِرٌ عِيسَى وَهُوَ كَالِخٍ
قَاطِبٍ ، فقال عيسى : مَالِكَ كَأَنَّكَ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فقال موسى عليه السلام : مَالِكَ
كَأَنَّكَ آيسٌ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمَا : مُوسَى أَجْبَسَكَ إِلَى شِعَارَا ، فَإِنَّ عِنْدَ حُسْنِ
ظَنِّ عَبْدِي بِي .

واعلم أن أحبابنا وإن قالوا بالوعيد ؛ فإنهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنطونه من
رحمة الله ، وإنما يحثّونه على التوبة ، ويخوّفونه إن مات من غير توبة ، وبحقّ
ما قال شيخنا أبو الهذيل : لولا مذهب الإرجاء لَمَا عُصِيَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ ؛
وهذا لا ريب فيه ، فإن أكثر العصاة إنما يؤوّلون على الرحمة ، وقد أشتهر

واستفاض بينَ الناس أن الله تعالى يَرَحِمَ المذنبين ، فإنه وإن كان هُناكَ عِقَاب
فأوقاتاً معدودة ، ثمَّ يخرجون إلى الجنّة ، والنفوس تُحِبُّ الشهوات العاجلة ،
فتَهافتُ الناس على المَعاصي وبلوغِ الشّهوات والمآرب ، معوّلين على ذلك ،
فلولا قولُ المرجئة وظهورُهُ بين الناس لكان العصيانُ إمّا معدوماً ، أو قليلاً
جداً .

(٨٨)

الأضل :

أَوْضَعَ الْعِلْمَ مَا وَقَفَ عَلَى اللِّسَانِ ، وَأَرْفَعَهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ .

الشيخ :

هذا حق ، لأن العالم إذا لم يظهر من علمه إلا لقلّة لسانه من غير أن تظهر منه العبادات ، كان علماً ناقصاً ، فأما إذا كان يفيد الناس بأفلاظه ومنطقه ، ثم يشاهده الناس على قدمٍ عظيمةٍ من العبادة ، فإنّ النفع يكون به عامّاً تامّاً ، وذلك لأنّ الناس يقولون : لو لم يكن يعتدّ حقيقة ما يقوله ، لما أدّأب نفسه هذا الدّأب .

وأما الأوّل فيقولون فيه : كلّ ما يقوله نفاق وباطل ، لأنّه لو كان يمتدّد حقيقة^(١) ما يقول لأخذ به ، ولظهور ذلك في حرّكاته ، فيقتدون بفعله لا بقوله ، فلا يستغل^(٢) أحدٌ منهم بالعبادة ولا يهتمّ بها .

(٢) : ١ « يشتغلون » .

(١) د : « أحمية » .

(٨٩)

الأصل :

إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ .

الشرح :

لو قال : إِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَأَحْضُوا ^(١) كما نقل عن غيره مُلْجِل ذلك على أَنَّهُ أراد نَقْلَهَا إِلَى الْفُكَاهَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَشْعَارِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ قَالَ : « فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ » ، فَوَجَبَ أَنْ يُحْمَلَ كَلَامُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ الْقُلُوبَ تَمَلُّ مِنَ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ ، فِي الْبَرَاهِينِ الْكَلَامِيَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ ، فَابْتَغُوا لَهَا عِنْدَ مَلَالِهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ ، أَيْ الْأَمْثَالَ الْحُكْمِيَّةَ الرَّاجِعَةَ إِلَى الْحِكْمَةِ الْخَلْقِيَّةِ ، كَمَا نَحْنُ ذَاكِرُوهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ فُصُولِ هَذَا الْبَابِ ، مِثْلَ مَدْحِ الصَّبْرِ ، وَالشَّجَاعَةِ ، وَالزَّهْدِ ، وَالْمَعَّةِ ، وَذَمِّ الْغَضَبِ ، وَالشَّهْوَةِ ، وَالْهَوَى ، وَمَا يَرْجِعُ إِلَى سِيَاسَةِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ ، وَوَلَدَهُ ، وَمَنْزِلَهُ ، وَصَدِيقَهُ ، وَسُلْطَانَهُ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ هَذَا عِلْمٌ آخَرٌ وَفَنٌّ آخَرٌ ، لَا تَحْتَاجُ الْقُلُوبَ فِيهِ إِلَى فِكْرٍ وَأَسْتِنْبَاطٍ ، فَتَتَعَبُ وَتَسْكُلُ بِتَرَادُفِ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ عَلَيْهَا ، وَفِيهِ أَيْضاً لَذَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلنَّفْسِ .

وقد جاء في إجماع النفس كثيرٌ .

قال بعضهم : رَوَّحُوا الْقُلُوبَ بِرَوَاتِعِ ^(٢) الذِّكْرِ .

(١) يقال : أَحْضَى التَّوَمَ إِحْضَاً ؛ إِذَا أَفْضَوْا فِيهَا يُؤْنِسُهُمْ مِنَ الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ ، كَمَا يَقَالُ : فَكَّ وَتَفَكَّ .

(٢) د : « تَعَى » .

وعن سلمان الفارسيّ : أنا أحتسب نوميّ كما أحتسب قوميّ .
وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : إنّ نفسي راحلتي ، إنّ كلّفتُها فوقَ طاقتها انقطعت بي .
وقال بعضهم : روّحوا الأذهان ، كما تروّحوا الأبدان .
وقال أردشيرُ بنُ بابك : إنّ للأذانَ سَجَّةً ، وللقلوبَ مَلَّةً ؛ ففرّقوا بين الحكمتين^(١)
بلهوى يَكُنْ ذلك استِجْماماً .

(١) د : « الحكيم » .

(٩٠)

الأصل :

لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مَنْ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاحِطُ لِرِزْقِهِ ، وَالرَّاضِيَ بِقَسَمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ لِيَتَّظَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي يَبْهَمُ بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الدُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ ، وَبَعْضُهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ ، وَيَكْرَهُ انْتِلَامَ الْحَالِ .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَهَذَا مِنْ غَرِيبٍ مَا مُسِمِعَ مِنْهُ عَايَةُ السَّلَامِ فِي التَّفْسِيرِ .

الشرح :

الفتنة لفظ مشترك ؛ فتارة تطلق على الجائحة والبليّة تصيب الإنسان ، تقول : قد افتتن زيد وفين فهو مفتون إذا أصابته مصيبة فذهب ماله أو عقاه ، أو نحو ذلك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ عَذَّبُوهم بِمَكَّة ليرتدوا عن الإسلام ، وتارة تطلق على الاختبار والامتحان ، يقال : فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتتظّر ما جودته ، ودينار مفتون ، وتارة تطلق على الإحراق ؛ قال تعالى :

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾^(١) وَوَرِقَ مَفْتُون ، أَيْ فِضَّةٌ مُحَرَّقَةٌ ، وَيُقَالُ لِلْحَرَّةِ :
فَتَيْنَ كَأَنَّ حِجَارَتَهَا مُحَرَّقَةٌ ، وَتَارَةً تُطْلَقُ عَلَى الضَّلَالِ ، يُقَالُ رَجُلٌ فَاتِنٌ وَمُفْتِنٌ ،
أَيْ مُضِلٌّ عَنِ الْحَقِّ جَاءَ ثَلَاثِيًا وَرُبَاعِيًّا ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ
هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾^(٢) أَيْ بِمُضِلِّينَ ، وَقَرَأَ قَوْمٌ «مَفْتَبِينَ» ، فَنَ قَالَ . إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَأَرَادَ الْجَائِئَةَ ، أَوْ الْإِحْرَاقَ أَوْ الضَّلَالَةَ ، فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ ، وَإِنْ أَرَادَ الْإِخْتِبَارَ
وَالْإِمْتِحَانَ فَغَيْرُ جَائِزٍ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّلَاحَةِ ، وَلَهُ أَنْ يَخْتَبِرَ عِبَادَهُ لَا لِيَعْلَمَ
حَالَهُمْ ، بَلْ لِيَعْلَمَ بَعْضُ عِبَادِهِ حَالَ بَعْضٍ ، وَعِنْدِي أَنَّ أَصْلَ اللَّفْظَةِ هُوَ الْإِخْتِبَارُ وَالْإِمْتِحَانُ ،
وَأَنَّ الْإِعْتِبَارَاتِ الْآخَرَى رَاجِعَةٌ إِلَيْهَا ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ عَلِمْتَ صِحَّةَ مَا ذَكَرْنَاهُ .

(١) سورة الذاريات ١٣ . (٢) سورة الصافات ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٩١)

الأصل :

وسُئِلَ عنِ الْخَيْرِ مَا هُوَ ؟
فَقَالَ : لَيْسَ الْخَيْرُ أَنَّ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ ، وَلَكِنَّ الْخَيْرُ أَنَّ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ،
وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدَتَ اللَّهَ ، وَإِنْ
أَسَأْتَ اسْتَغْفَرَتَ اللَّهَ . وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِلرَّجُلَيْنِ : رَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوبًا فَهُوَ
يَقْدَارُ كُفَّهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَرَجُلٌ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ ؛ وَلَا يَقِلُّ عَمَلُهُ مَعَ التَّقْوَى ، وَكَيْفَ
يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ !

الشرح :

قد قال الشاعر لهذا المعنى :

ليس السعيدُ الذي دُنِيَاهُ تُسَعِّدُهُ بل السعيد الذي يَنْجُو من النارِ
قوله عليه السلام : « وَلَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى » ، أى مع اجتناب الكبائر ، لأنه لو
كان مَوْقِعاً لِكَبِيرَةٍ لما تُقَبَّلُ منه عملٌ أصلاً على قول أصحابنا ، فوجب أن يكون المراد بالتقوى
اجتناب الكبائر ؛ فأما مذهبُ الرَجْثَةِ فإنهم يحملون التقوى ها هنا على الإسلام ، لأنَّ
المسلم عندهم تتَقَبَّلُ أعماله ، وإن كان مَوْقِعاً لِكَبَائِرٍ .

فإن قلت : فهل يجوز حملُ لفظة « التقوى » على حقيقتها ، وهى الخوف ؟

قلت : لا . أما على مذهبنا فلا من يخافُ الله ويواقع الكبائر لا تتقبل أعماله ،

وأما مذهب المرجئة فلأن من يخاف الله من مخالفي ملة الإسلام لا تتقبل أعماله ،
فتثبت أنه لا يجوز حمل التقوى ها هنا على الخوف .
فإن قلت : مَنْ هو مخالف لملة الإسلام لا يخاف الله لأنه لا يعرفه .
قلت : لا نسلم ، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصفاته ، كما نعرفه نحن ، ويجحد النبوة
لشبهة وقعت له فيها ، فلا يلزم من جحد النبوة عدم معرفة الله تعالى .

(٩٢)

الأصل :

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ الآية .
ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لِحُمَتُهُ ، وَإِنْ عَدُوٌّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قُرْبَتْ قَرَابَتُهُ .

الشرح :

هكذا الرواية « أعلمهم » ، والصحيح « أعلمهم » ، لأن استدلاله بالآية يقتضى ذلك ، وكذا قوله فيما بعد . « إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ . . . » إلى آخر الفصل ، فلم يذكر العلم ، وإنما ذكر العمل . واللحمة بالضم : النسب والقربة ، وهذا مثل الحديث المرفوع : « اتنوني بأعمالكم ، ولا تأتوني بأنسابكم ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ؛ وفي الحديث الصحيح : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، إِنِّي لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً » .

وقال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : أرأيت قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ فَاطِمَةَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فحَرَّمَ اللَّهُ ذَرْيَتَهَا عَلَى النَّارِ » ، أليس هذا أماناً لكل فاطمى فى الدنيا ؟ فقال : إِنَّكَ لِأَحَقُّ ، إِنَّمَا أَرَادَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا ، لِأَنَّهُمَا مِنْ لَحْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ ، فَأَمَّا مَنْ عَدَاهَا فَمِنْ قَعْدٍ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَنْهَضْ بِهِ نَسَبُهُ .

(٩٣)

الأفضل :

وَسَمِعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْحَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ ، فَقَالَ :
نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ ، خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ عَلَى شَكٍّ .

الشرح :

هذا نهى عن التعرض للعبادة مع الجهل بالمعبود ، كما يصنع اليوم كثير من الناس ،
ويظنون أنهم خير الناس ، والعقلاء الألباء من الناس يضحكون منهم ، ويستهزئون بهم ،
والحرورية : الخوارج ، وقد سبق القول فيهم . وفي نسبتهم إلى حروراء^(١) .
يقول عليه السلام : ترك التنفل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية ، خير من
الاشتغال بالنوافل وأوراد الصلاة مع عدم العلم ؛ وهو المعنى بقوله : « في شك » ،
فإذا كان عدم التنفل خيرا من التنفل مع الشك فهو مع الجهل المحض - وهو الاعتقاد الفاسد -
أولى بأن يكون .

(١) حروراء : قرية بظاهر الكوفة ، نزل بها الخوارج الذين خالفوا على بن أبي طالب ؛ وبها كان
أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا عليه .

(٩٤)

الأضل :

اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية ، فإن رُواة العلم كثير ،
ورُعاته قليل .

الشرح :

نهام عليه السلام عن أن يقتصروا إذا سمعوا منه أو من غيره أطرافاً^(١) من العلم
والحكمة ، على أن يرووا ذلك رواية كما يفعله اليوم المحدثون ، وكما يقرأ أكثر الناس
القرآن دراسةً ولا يدري من معانيه إلا اليسير .
وأمرهم أن يعقلوا ما يسمعون عقل رعاية أى معرفة وفهم .
ثم قال لهم : « إن رُواة العلم كثير ، ورُعاته قليل » ، أى من يُراعيه ويتدبره ؛
وصدق عليه السلام !

(١) : « طرنا » .

(٩٥)

الأصل :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، فَقَالَ :
إِنِّي قَوْلُنَا « إِنَّا لِلَّهِ » إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمِلْكِ ، وَقَوْلُنَا : « وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »
إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ .

الشرح :

قوله إِنَّا لِلَّهِ اعترافٌ بأننا مملوكون لله وعبيدٌ له ، لأنَّ هذه اللامُ التمليك ، كما تقول :
الدارُ لِزَيْدٍ ؛ فأما قوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ^(١) ؛ فهو إقرارٌ وأُعْرَانٌ بالنشور
والقيامة ، لأنَّ هذا هو معنى الرجوع إليه سبحانه ، واقتنع أميرُ المؤمنين عن التصريح
بذلك ، فذكر الهُلْكَ ، فقال : إنَّه إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ ، لأنَّ هُلْكَنا مُفْضٍ إِلَى
رجوعنا يومَ القيامة إليه سبحانه ، فعبرَ بمقدمة الشيء عن الشيء نفسه ، كما يقال : الفقرُ
المَوْتُ ، والحَمَى الموت ، ونحو ذلك .

ويمكن أن يفسر ذلك على قول مُثَبِّتِي النَّفْسِ الناطقة بتفسير آخر فيقال : إنَّ النفس
ما دامت في أسْرِ تدابير البدن فهي بمنزلةٍ عن مبادئها ، لِأَنَّهَا مُشْتَغَلَةٌ مُسْتَغْرِقَةٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ ،
فإذا مات البدن رجعت النفسُ إلى مبادئها ، فقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ^(١) إِقْرَارٌ بِمَا
لا يصحَّ الرجوع بهذا التفسير إلَّا مَعَهُ ، وهو الموت المعبر عنه بِالْهُلْكِ .

(١) سورة البقرة ١٥٦ .

(٩٦)

الأضل :

وقال عليه السلام ومدحه قوم في وجهه :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ . اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْرًا
مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ !

الْبُخ :

قد تقدم القول في كراهية مدح الإنسان في وجهه . وفي الحديث الرفوع : « إذا
مدحت أخاك في وجهه ، فكأثما أمررت على خلقه موسى وميضة » .

وقال أيضا لرجل مدح رجلا في وجهه : « عقرت الرجل عقرك الله ! » .

وقال أيضا : « لو مشى رجل إلى رجل بسيف مرهف كان خيرا له من أن يثبني عليه

في وجهه » .

ومن كلام عمر : المدح هو الذبح ؛ قالوا : لأن المذبح ينقطع عن الحركة والأعمال ،
وكذلك الممدوح يفتر عن العمل .

ويقول : قد حصل في القلوب والنفوس ما استغنى به عن الحركة والجد .

ومن أمثال الفلاحين : إذا طار لك صيئ بين الحصاد ، فأكسر منجلك .

— ٢٥٧ —

وقال مطرف بن الشَّخِير : ما سمعتُ من ثناء أحدٍ عليّ ، أو مدحةٍ أحدٍ لي ، إلّا وتصاغرتُ
إليّ نفسي . وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحدٌ سَمِع ثناءً أحدٍ عليه إلّا وتراءى له
شيطان ، ولكنّ المؤمن يراجع .

فلما ذُكر كلاهما لابن المبارك قال : صدَقا ؛ أمّا قول زياد فتلك قلوبُ العوامِّ ،
وأمّا قول مطرف فتلك قلوبُ الخواصِّ .

(٩٧)

الأضل :

وقال عليه السلام :

لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِاسْتِغْنَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتُظَهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ .

الشنخ :

قد تقدّم لنا قول مستقصى في هذا النحو ، وفي الحوائج وقضائها واستنجاحها .
وقد جاء في الحديث المرفوع : « استعينوا على حاجاتكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

وقال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ، ولا تطلبوها إلى غير أهلها ، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمنع خلقاء .

وكان يقال : لكل شيء أس ، وأس الحاجة تعجيل أروح من التأخير .

وقال رجل لمحمد بن الحنفية : جئتك في حويجة ، قال : فاطلب لها رجلاً !

وقال شبيب بن شبة بن عقال : أمران لا يجتمعان إلا وجب النجح ، وهما العاقل لا يسأل إلا ما يجوز ، والعاقل لا يرُدُّ سائله عما يمكن .

وكان يقال : من استعظم حاجة أخيه إليه بعد قضائها امتناناً بها فقد استصغر نفسه .

وقال أبو تمام في المَطل^(١) :

وكان المَطل في بدءٍ وعَوْدٍ دُخاناً للصَّنيعة وهي نارُ^(٢)
نسبَ البُخلُ مُذْ كانا وإلا يكنُ نَسَبُ فبينهما جِوارُ
لذلك قيل : بعضُ المنع أدنى إلى جُودٍ ، وبعضُ الجودِ عارُ

(١) ديوانه ٢ : ١٥٩ - بشرح التبريزي

(٢) قال شارح ديوانه : «أى يتأذى بالمطل كما يتأذى بالدخان ؛ فكما أن المحمود من النار أن تخلص من الدخان ؛ كذلك المحمود من العطاء خلوصه من المطل » .

(٩٨)

الأفضل :

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاجِلُ ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ ،
وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ ؛ يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْمًا ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنًّا ،
وَالْعِبَادَةَ اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الْإِمَاءِ ، وَإِمَارَةِ
الصَّبْيَانِ ، وَتَدْرِيبِ الْخَصِيَانِ .

الْبُخْ :

الْحَلْ : المكر والكيد ؛ يقال مَحَلَّ بِهِ إِذَا سَمَى بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَهُوَ مَاجِلٌ وَمَحُولٌ ؛
وَالْمُحَالَّةُ : الْمَاكِرَةُ وَالْمُكَايِدَةُ .

قوله : « وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ » ، لَا يَعُدُّ النَّاسُ الْإِنْسَانَ ظَرِيفًا إِلَّا إِذَا كَانَ
خَلِيعًا مَاجِنًا مُتَظَاهِرًا بِالْفِسْقِ .

وقوله : « وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ » ، أَيْ إِذَا رَأَوْا إِنْسَانًا عِنْدَهُ وَرَعَ وَإِنْسَافٌ
فِي مُعَامَلَتِهِ النَّاسَ عَدُوَّهُ ضَعِيفًا ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الرُّكَّةِ وَالرَّخَاوَةِ ، وَلَيْسَ الشَّهْمُ عِنْدَهُمْ
إِلَّا الظَّالِمُ .

ثم قال : « يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ غُرْمًا » ، أَيْ خُسَارَةً^(١) ، وَيَمْنُونُ إِذَا وَصَلُوا الرَّحِمَ

(١) : أ : « غُرْمًا وَخُسَارَةً » .

— ٢٦١ —

وإذا كانوا ذوى عِبادَة استطالوا بها على الناس وتبجّجوا بها ، وأعجبّتهم أنفسهم ،
واحتقروا غيرهم .

قال : فمئذ ذلك يكون السلطان والحكم بين الرعايا بمشورة الإماء . . . إلى آخر
الفصل ، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهي إحدى آياته ، والمعجزات المختصّ بها
دون الصّحابة .

(٩٩)

الأصل :

وقال عليه السلام :

وَقَدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلَقَ مَرْقُوعٌ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ :
يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ ، وَتَدِلُّ بِهِ النَّفْسُ ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ .

الشَّيْخُ :

قد تقدم القولُ في هذا الباب ، وذكرنا أنَّ الحكماء والعارفين فيه على قسمين :
منهم من آثر لبسَ الأذنى على الأعلى ، ومنهم من عكس الحال ، وكان عمرُ بنُ الخطاب
من أصحاب المذهب الأول ، وكذلك أميرُ المؤمنين ، وهو شعار عيسى بن مريم
عليه السلام ، كان يلبسُ الصوف وغليط الثياب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يلبسُ النوعين جميعاً ، وأكثَرُ لبسه كان الجيّد من الثيابِ مثل أبرد البين ، وما شاكل
ذلك ، وكانت ملحفته موروثة^(١) حتى إنها لتردع^(٢) على جلده كما جاء في الحديث .
ورُئيَ محمد بن الحنفية عليه السلام واقفا بعرفات على بِرْدُونٍ أصفر ، وعليه مُطَرَفٌ خَزِّيٌّ
أصفر ، وجاء فرقد السَّبَخِي^(٣) إلى الحسن وعلى الحسن مُطَرَفٌ خَزِّيٌّ ، فجعل ينظرُ إليه
وعلى فرقد ثيابٌ صوف ، فقال الحسن : ما بالكَ تنظرُ إلىّ وعلىّ ثيابُ أهلِ الجنة ،

(١) موروثة ، أى مصبوغة بالورس ؛ وهو نبت أصفر يكون باليمن ، تصبغ به الثياب .

(٢) في اللسان عن ابن عباس : « لم ينه عن شيء من الأردية إلا عن المزعفرة التي تردع على الجلد »

قال : أى تنفض صبغها عليه ، وثوب رديع ؛ مصبوغ بالزعفران .

(٣) ب : « السنجي » ، والصواب ما أثبتته ، منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، ذكره ياقوت ؛

وذكر بنسبة فرقد إليه .

وعليك ثيابُ أهلِ النار ! إن أحدكم ليَجْعَلَ الزَّهْدَ في ثيابه والكِبَرَ في صدره ، فَلَهُوْ أشدُّ عجباً بصوفه من صاحبِ الطُّرْف .

وقال ابن السَّمَك لأصحاب الصَّوف : إن كان لباسُكم هذا موافقاً لسرائركم فلقد أحببتم أن يُطلع الناسُ عليها ، ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم .

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطاب في ملبوسه ، وكان قبلَ الخلافة يلبس الثياب المَشْنَةَ جدّاً ، كان يقول : لقد خِفْتُ أن يَعْجَزَ ما قَسَمَ اللهُ لي من الرِّزْقِ عمّاً أريدُه من الكسوة ، وما لبستُ ثوباً جديداً قطّ إلّا وخِئْلٌ لي حين يراه الناسُ أنه شَمِلْتُ أو بَالٍ ، فلما ولى الخلافة تَرَكَ ذلك كلّه .

وروى سَعِيدُ بْنُ سُويْدٍ ؛ قال : صَلَّى بنا عمرُ بْنُ عبد العزيزِ الجمعة ، ثُمَّ جَلَسَ وعليه قميص مرقوع الجُيْب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : إِنَّ اللهَ أعطاك يا أمير المؤمنين ؛ فلو لبستَ ؛ فنكسَ مَلَيّاً ثُمَّ رَفَعَ رأسه فقال : إِنَّ أَفْضَلَ القَصْدِ ما كان عند الجَدَّة ، وأَفْضَلُ العَفْوِ ما كان عند المَقْدَرَةِ .

وروى عاصمُ بْنُ مَعْدَلَةَ : كُنْتُ أَرَى عمرَ بْنَ عبد العزيزِ قبلَ الخلافة فَأَعْجَبَ مِنْ حُسْنِ لَوْنِهِ وجودةِ ثِيَابِهِ وَبَزَّتِهِ ، ثُمَّ دَخَاتْ عَلَيْهِ بعدَ أَنْ ولى ، وَإِذَا هُوَ قد احترق واسودَّ وَلَصِقَ جِلْدُهُ بِعَظْمِهِ ؛ حتّى ليس بين الجلد والعظم لحم ، وَإِذَا عَلَيْهِ قُلَسُوءَةٌ بيضاء قد اجتمع قَطْنُهَا ويعلم أنها قد غسِلَتْ ، وعليه سُحْقٌ^(١) أَنْبِجَانِيَّةٌ قد خرجَ سَدَاها ، وهو على شاذِ كَوْنَةٍ^(٢) ؛ قد لَصِقَتْ بالأَرْضِ تحت الشاذِ كَوْنَةُ عِبَاءَةٍ قَطَوَانِيَّةٍ^(٣) مِنْ مُشَاقَةِ الصَّوْفِ ، وعنده رجل يتكلم ، فرفع صَوْتَهُ ، فقال له عمر : اخْفِضْ قليلاً من صَوْتِكَ ، فَإِنَّمَا يَكْفِي الرَّجُلَ من الكلام قَدْرُ ما يُسْمِعُ صاحِبَهُ .

وروى عبيدُ بْنُ يَعْقُوبَ أَنَّ عمرَ بْنَ عبد العزيزِ كان يلبس القَرَوَ الغليظ من الثياب ، وكان سِراجُه على ثلاثِ قَصَبَاتٍ فوقَهنَّ طِينٌ .

(١) جمع سحْق ؛ وهو الثوب البالي . (٢) الشاذِ كَوْنَةُ : ثياب غلاظ تعمل بالين .

(٣) قَطَوَانِيَّةٌ : منسوبة إلى قَطَوَان ، موضع بالكوفة .

(١٠٠)

الأُضَلُ :

إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَعَاوِتَانِ ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّىهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَعَادَاهَا ، وَهُمَا يَمْتَرِلُةَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا شِ بَيْنَهُمَا ، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ ، وَهُمَا بِعَدُ خَرَّتَانِ .

الشَّنْخُ :

هذا الفصل بَيَّنَّ فِي نَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الدَّارَيْنِ مُضَادٌّ لِعَمَلِ الْآخَرَى ، فَعَمَلُ هَذِهِ : الْاِكْتِسَابُ ، وَالْاِضْطِرَابُ^(١) فِي الرِّزْقِ ، وَالْاِهْتِمَامُ بِأَمْرِ الْمَعَاشِ ، وَالْوَلَدُ وَالزَّوْجَةُ ، وَمَا نَاسَبَ ذَلِكَ . وَعَمَلُ هَذِهِ : قَطْعُ الْعِلَاقِ ، وَرَفْضُ الشَّهَوَاتِ ، وَالْاِنتِصَابُ لِلْعِبَادَةِ ، وَصَرْفُ الْوَجْهِ عَنْ كُلِّ مَا يَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَيْنِ الْعَمَلَيْنِ مُتَضَادَّانِ ، فَلَا جَرَمَ كَانَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ضَرَّتَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ !

(١) : « والضرب في سبيل الرزق » .

(١٠١)

الأفضل:

وَعَنْ نَوْفٍ الْبَسْكَائِيِّ - وَقِيلَ الْبَسْكَائِيُّ بِاللَّامِ ؛ وَهُوَ الْأَصَحُّ - قَالَ :
رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ إِلَى
النَّجُومِ ، فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، أَرَأَيْدِ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ ؟ قُلْتُ : بَلِ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛
فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا ، الرَّاعِيَيْنِ فِي الْآخِرَةِ ! أَوْلَيْكَ قَوْمٌ
اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بَسَاطًا ، وَتَرَاهَا فِرَاشًا ، وَمَاءَهَا طَبِيبًا ، وَالْقُرْآنَ شِعَارًا ، وَالِدُعَاءَ
دِثَارًا ، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ . يَا نَوْفُ ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَقَالَ : إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا
اسْتُجِيبَ لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَسْكُونَ عَشَارًا ، أَوْ عَرِيفًا ، أَوْ شُرْطِيًّا ، أَوْ صَاحِبَ عَرُطَبَةٍ
- وَهِيَ الطَّنْبُورُ - أَوْ صَاحِبَ كُوتَبَةٍ ، وَهِيَ الطَّيْلُ .
وَقَدْ قِيلَ أَيْضًا : إِنَّ الْعَرُطَبَةَ الطَّيْلُ ، وَالْكُوتَبَةُ الطَّنْبُورُ .

الشَّيْخُ :

قال صاحبُ المسحاح : نَوْفُ الْبَسْكَائِيِّ كَانَ صَاحِبَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .
وقال ثعلب : هو منسوبٌ إلى قبيلة تُدْعَى بَسْكَالَةَ ، ولم يذكر من أى العرب هي ،
والظاهر أنها من اليَمَن ، وأما بكيل فحى من همدان ، وإليهم أشار السَّكْمِيَّتُ بقوله :
* فقد شَرِكتُ فيه بكيلٌ وأَرْحَبُ * (١)

(١) صدره : * يَقُولُونَ لَمْ يُوْرَثْ وَلَوْلَا تَرَائُهُ *

فَأَمَّا الْبَكَالَىٰ فِي نَسَبِ نَوْفٍ فَلَا أَعْرِفُهُ .

قوله : أم راق ، أي أم مستيقظ ترمق السماء والنجوم ببصرك .

قوله : قرَضُوا الدُّنْيَا ، أي تَرَكَوْهَا وَخَلَّفُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا

غَرَبَتِ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ (١) أي تَتَرُكُهُمْ وَتُخَلِّفُهُمْ شَمَالًا ، ويقول الرجل لصاحبه :

هل سمرت بمكان كذا ، يقول : نعم قرَضْتَهُ لَيْلًا ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَأَنْشَدَ لَذَى الرِّمَّةِ :

إِلَى طُعْنٍ يَقْرِضُنْ أَجْوَاذَ مَشْرِفٍ شَمَالًا وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ (٢)

قالوا : مشرف والفوارس : موضعان ، يقول : نظرتُ إِلَى طُعْنٍ يَجُزُنْ بَيْنَ هَذَيْنِ

الموضعين .

(١٠٢)

الأضل :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدْعَهَا نِسْيَانًا فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا .

الشنخ :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ (١) .

وجاء في الأثر : أبهيموا ما أبهم الله .

وقال بعضُ الصالحين لبعض الفقهاء : لم تفرض مسائل لم تقع وأتعبت فيها فكرك !
حسبك بالمتداول بين الناس .

قالوا : هذا مثل قولهم في باب المسح على الخفين : فإن مسح على خف من زجاج ؛
ونحو ذلك من النوادر الغريبة .

وقال شريك في أبي حنيفة : أجهلُ الناس بما كان ، وأعلمهم بما لم يكن .

وقال عمر : لا تتنازعوا فيما لم يكن فتختلفوا ، فإن الأمر إذا كان أعان الله عليه ،
وانتهاك الحرمة : تناولها بما لا يحل ، إثمًا بارتكاب ما نهى عنه ، أو بالإخلال
بما أمر به .

— ٢٦٨ —

(١٠٣)

الأُضْلُ :

لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ .

الشُّنْجُ :

مثال ذلك إنسان يضيّع وقتَ صلاةِ الفريضة عليه ، وهو مشتغل بمحاسبة وكيه
ومخافته على ماله ، خوفاً أن يكون خانته في شيء منه ، فهو يحرص على مناقشته عليه ،
فتفوته الصلاة .

قال عليه السلام : مَنْ فَعَلَ مِثْلَ هَذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ وَمَالِهِ مَا هُوَ
أَضْرُّ عَلَيْهِ مِمَّا رَامَ أَنْ يَسْتَدْرِكَه بِإِهَالِهِ الْفَرِيضَةَ .

(١٠٤)

الأفضل :

رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَمْ يَنْفَعَهُ .

الشَّيْخُ :

قد وقع مثل هذا كثيرا ، كما جرى لعبد الله بن المقفع ، وفضله مشهور ، وحِكْمَتُهُ أَشْهَرُ
من أن تذكر ، ولو لم يكن له إلا كتاب ” اليتيمة “ ، لكفَى .

[محنة المقفع]

واجتمع ابنُ المقفع بالخليل بن أحمد ، وسمع كلَّ منهما كلام الآخر ، فسئل الخليلُ عنه
فقال : وجدتُ علمه أكثر من عقله ؛ وهكذا كان ، فإنه كان مع حكيمته متهوراً ، لا جرَمَ
تهوُّره قَتَلَهُ ! كتب كتابَ أمان لعبد الله بن عليٍّ عمِّ المنصور ويوجد فيه خطُّه ، فكان
من جملة : ومتى غدر أمير المؤمنين بعَمِّه عبد الله ، أو أبطن غير ما أظهر أو تأوَّل في شيء
من شروط هذا الأمان ففساؤه طوالقُ ، ودوابُّه حُبْس ، وعبيدُه وإماؤه أحرار ، والمسلمون
في حِلٍّ من بَيْعَتِهِ . فاشتدَّ ذلك على المنصور لما وقف عليه ، وسأل : مَنْ الذي كتَبَ له
الأمان ؟ فقيل له : عبد الله بنُ المقفع كاتبُ عمِّيك عيسى وسليمان ، ابني عليٍّ بالبصرة ،
فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سُفيان بن معاوية يأمره بقتله .

وقيل : بل قال : أمّا أحدُ يكفيني ابنَ المقفع ! فكتب أبو الخصب بها إلى

سفيان بن معاوية المهلبى أمير البصرة يومئذ - وكان سفيان واجداً على ابن المقفع لأنه كان يبعث به ويضحك منه دائماً ، فعضب سفيان يوماً من كلامه ، واقترب عليه ، فرد ابن المقفع عليه ردّاً فاحشاً ، وقال له : يا ابن المغتلمة ! وكان يمتنع ويمتصم بعيسى وسليمان ابني علي بن عبد الله بن العباس ، فحقدوا سفيان عليه - فلما كوتب في أمره بما كوتب اعترم قتله ، فاستأذن عليه جماعة من أهل البصرة ، منهم ابن المقفع ، فأدخل ابن المقفع قبلهم ، وعدل به إلى حجرة في دهليزه ، وجلس غلامه بدايته ينتظره على باب سفيان ، فصادف ابن المقفع في تلك الحجرة سفيان بن معاوية ، وعنده غلامه وتنور نار يسجر ، فقال له سفيان : أتذكر يوم قلت لي كذا ! أمي مغتلمة ! إن لم أقتلك قتله لم يقتل بها أحد ؛ ثم قطع أعضاءه عضواً عضواً ، وألقاها في النار وهو ينظر إليها حتى آتى على جميع جسده ، ثم أطبق التنور عليه ، وخرج إلى الناس فكلمهم ، فلما خرجوا من عنده تخلف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرج ، فمضى وأخبر عيسى بن علي وأخاه سليمان بحاله ، فخاصما سفيان بن معاوية في أمره ، فبحجد دخوله إليه ، فأشخصاه إلى المنصور ، وقامت البيئة العادلة أن ابن المقفع دخل دار سفيان حياً سليماً ولم يخرج منها . فقال المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر إن شاء الله غداً ؛ فجاء سفيان ليلاً إلى المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله في صليعتك ومتبع أمرك ، قال : لا ترع ، وأحضروهم في غد ، وقامت الشهادة ، وطلب سليمان وعيسى القصاص ، فقال المنصور : رأيتم إن قتلت سفيان بابن المقفع ، ثم خرج ابن المقفع عليكم من هذا الباب - وأوماً إلى باب خلفه - من ينصب لي نفسه حتى أقتله بسفيان ؟ فسكتوا ، واندفع الأمر ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكر ابن المقفع بعدها ، وذهب دمه هدراً .

قيل للأصمعي : أيما كان أعظم ذكاءً وفطنةً الخليل أم ابن المقفع ؟ فقال : كان ابن المقفع أفصح وأحكم ، والخليل أدب وأقل ؛ ثم قال : شتان ما بين فطنة أفصت بصاحبها إلى القتل ، وفطنة أفصت بصاحبها إلى النسل والزهد في الدنيا ! وكان الخليل قد نesk قبل أن يموت .

(١٠٥)

لَقَدْ عُلقَ بِبَيَاطِ هَذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ الْقَلْبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ
مَوَادَّ مِنْ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَادًا مِنْ خِلَافِهَا ، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ ، وَإِنْ
هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْخَرَصُ ، وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسَفُ ، وَإِنْ عَرَضَ
لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ ، وَإِنْ أَسَمَدَهُ الرِّضَا نَسِيَ التَّحَفُّظَ ، وَإِنْ غَالَهُ الْخَوْفُ
شَنَلَهُ الْخَذَرُ ، وَإِنْ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْرُ اسْتَلَبَتْهُ الْغَرَّةُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَصَحَّحَتْهُ
الْجُرْعُ ، وَإِنْ أَفَادَ مَالًا أَطْفَأَهُ الْفَنَى ، وَإِنْ عَصَتْهُ الْفَاقَةُ شَنَلَهُ الْبَلَاءُ ، وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ
قَعَدَتْ بِهِ السَّعَةِ ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشَّبَعُ كَطَنَتْهُ الْبِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ ،
وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

التَّبَيُّنُ :

رُوي : « قَمَدٌ بِهِ الضَّمَف » . والتَّيَاط : عِرْقٌ عُلقَ بِهِ الْقَلْبُ مِنَ الْوَتَنِ ، فَإِذَا قُطِعَ مَاتَ
صَاحِبُهُ ، وَيُقَالُ لَهُ التَّيَاطُ أَيْضًا . وَالبَضْعَةُ بَفَتْحِ الْبَاءِ : الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ ، وَالْمَرَادُ بِهَا هَا هُنَا
الْقَلْبُ ؛ وَقَالَ : يَمْتَوِرُ الْقَلْبُ حَالَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ مُتَضَادَّاتٌ ، فبَعْضُهَا مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَبَعْضُهَا
— وَهُوَ الْمُضَادُّ لَهَا — مُنَافٍ لِلْحِكْمَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرْهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَيْسَتْ الْأُمُورُ الَّتِي عَدَّهَا
شَرًّا لِيَا قَدَمَهُ مِنْ هَذَا السَّكَلَامِ الْمُجْمَلِ ، وَإِنْ ظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهُ أَرَادَ ذَلِكَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْأُمُورَ
الَّتِي عَدَّهَا لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ بَابِ الْحِكْمَةِ وَخِلَافِهَا !

فإن قلت : فما مثال الحكمة وخلافها ، وإن لم يذكر عليه السلام مثاله ؟
 قلت : كالشجاعة في القلب، وضدّها الجبن ، وكالجود وضدّه البخل ، وكالعفة وضدّها
 الفجور ، ونحو ذلك .

فأمّا الأمور التي عدّها عليه السلام فكلاماً مستأنف ، إنما هو بيان أن كلّ شيء مما
 يتملّق بالقلب يلزمه لازم آخر نحو الرّجاء ، فإنّ الإنسان إذا اشتدّ رجاءه أذله الطمع ،
 والطمع يتبع الرّجاء ، والفرق بين الطمع والرّجاء أن الرّجاء توقّع منفعة بمن سببها أن
 تصدّر تلك المنفعة عنه ، والطمع توقّع منفعة بمن يستبعد وقوع تلك المنفعة منه ؛ ثم قال :
 وإن هاج به الطمع قتلته الحرص ، وذلك لأنّ الحرص يتبع الطمع ، إذا لم ينام الطامع أنّه
 طامع ، وإنما يظن أنّه راج .

ثم قال : وإن مكّ اليأس ، قتلته الأسف ، أكثر الناس إذا يئسوا أسفوا .
 ثم عدّد الأخلاق وغيرها من الأمور الواردة في الفصل إلى آخره ، ثمّ ختمه بأن قال :
 « فكلّ تقصير به مضرّ ، وكلّ إفراط له مفسد » ؛ وقد سبق كلامنا في المدّة ، وإنّها الدرجة
 الوسطى بين طرفين هارذيلتان ، والمدّة هي الفضيلة ، كالجود الذي يكتفيه التبذير والإسالك ،
 والدّكاء الذي يكتفيه النباوة . والجرّزة^(١) ، والشجاعة التي يكتفيها المروج والجبن ،
 وشرخنا ما قاله الحكماء في ذلك شرحاً كافياً ، فلا معنى لإعادته .

(١) الجرّزة : الحب والحديعة .

(١٠٦)

الأصل :

نَحْنُ النَّمْرُوقَةُ الْوُسْطَى الَّتِي يَنْحَقُّ بِهَا النَّالِي ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي .

الشيخ :

النَّمْرُوقُ والنَّمْرُوقَةُ بالضم فيهما : وَسَادَةٌ صَغِيرَةٌ ، وَيَجُوزُ النَّمْرُوقَةُ بِالْكَسْرِ فِيهِمَا ؛ وَيُقَالُ لِلطَّنْفِيسَةِ فَوْقَ الرَّحْلِ نَمْرُوقَةٌ . وَالْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَإِنَّهَا مَجْتَمِعَةٌ بِطَرَفَيْنِ مَعْدُودَيْنِ مِنَ الرِّذَائِلِ كَمَا أَوْضَحْنَاهُ آيِفًا ، وَالْمُرَادُ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ هُمُ الْأَمْرُ الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمَذْمُومَيْنِ ، فَكُلُّ مَنْ جَاوَزَهُمْ فَالْوَجَابُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْهُمْ فَالْوَجَابُ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ .

فإن قلت : فلم أستعار لفظ النمرقة لهذا المعنى ؟

قلت : لما كانوا يقولون : قد ركب فلان من الأمر مُنْكَرًا وقد أرتكب الرأي الفلاني ، وكانت الطنفسة فوق الرحل مما يُركب ، استعار لفظ النمرقة لما يراه الإنسان مَسْدَهَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَكُونُ كَالرَّائِي لَهُ ، وَالْجَالِسِ عَلَيْهِ ، وَالتَّوَدُّكِ فَوْقَهُ .

ويجوز أيضًا أن تكون لفظة « الوُسْطَى » يراد بها الْفُضْلَى ؛ يُقَالُ : هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوُسْطَى ، وَالْحَايِقَةُ الْوُسْطَى ، أَيْ الْفُضْلَى ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُكُمْ ﴾ ^(١) أَيْ أَفْضَلُهُمْ ، وَمِنْهُ : ﴿ جَمَعْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ^(٢) .

(١) سورة القلم ٢٨ . (٢) سورة البقرة ١٤٣ .

(١٠٧)

الأصل :

لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ ، وَلَا يُضَارِعُ ، وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ .

الشرح :

قد سبق من كلام عمرَ شيءٌ يُناسب هذا إن لم يكن هو بعينه ؛ والمُصَانَعَةُ : بَدَلُ الرِّشْوَةِ . وفي المثل : مَنْ صَانَعَ بِالْمَالِ ، لم يَحْتَشِمِ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ .
فإن قلت : كان ينبغي أن يقول : « من لا يصانع » بالفتح .
قلتُ : المُفَاعَلَةُ تدلُّ عَلَى كَوْنِ الْفِعْلِ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ كَالْمُضَارَبَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ .
ويضارع : يَتَمَرَّضُ لَطَلَبِ الْحَاجَةِ ؛ ويجوز أن يكون من الضَّرَاعَةِ وهى اَلْخَضْوَعُ
أى يُخَضِّعُ لِزَيْدٍ لِيَخْضَعَ زَيْدٌ لَهُ ؛ ويجوز أن يكون من المِضَارَعَةِ بمعنى المِشَاهِدَةِ ،
أى لا يَتَشَبَّهُ بِأُمَّةِ الْحَقِّ أَوْ وُلَاةِ الْحَقِّ ، وليس منهم .
وأما اتِّبَاعُ الْمَطَامِعِ فمَعْرُوفٌ .

(١٠٨)

الأصل :

وقال عليه السلام ، وقد توفّي سهل بن حنيف الأَنْصَارِيُّ بالكوفةَ بعدَ مرّجهِ
مِنْ صِفِّينَ مَعَهُ ، وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ :
لَوْ أَحْبَبَنِي جَبَلٌ لَتَهَافَّتَ .

قال الرضّى رحمه الله تعالى :

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَحَنَةَ تَغْلُظُ عَلَيْهِ ، فَتُسْرِعُ الْمَصَائِبُ إِلَيْهِ ، وَلَا يُفَعِّلُ ذَلِكَ
إِلَّا بِالْإِتْقِيَاءِ الْأَبْرَارِ ، الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ . وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ
أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلَيْسَتْ عِدَّةٌ لِلْفَقْرِ جَلْبَابًا » وَقَدْ يُؤَوَّلُ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى آخَرَ لَيْسَ هَذَا
مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

الشَّيْخُ :

قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله قال له : « لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ؛ وَلَا يَبْغُضُكَ
إِلَّا مُنَافِقٌ » .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إِنْ الْبَلَاوَى أُسْرِعُ إِلَى الْمُؤْمِنِ مِنَ
الْمَاءِ إِلَى الْحَدُورِ » .

وفى حديث آخر : « الْمُؤْمِنُ مُلْقَى ، وَالْكَافِرُ مُوقَى » .

وفى حديث آخر : « خَيْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُكُمْ مَصَائِبَ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ » .

وهاتان المقدمتان يلزمهما نتيجة صادقة ، وهى أنه عليه السلام لو أحبه جبلٌ لتهافت .

ولعل هذا هو مراد الرضى بقوله : « وقد يؤوّل ذلك على معنى آخر ليس هذا موضع ذكره » .

(١٠٩)

الأصل :

لا مالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا وَحْدَةً أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ ، وَلَا عَقْلَ كَالْتَدْيِيرِ ،
ولا كَرَمَ كَالْتَقْوَى ، ولا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخَلْقِ ، ولا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ ، ولا فَائِدَ
كَالتَوْفِيقِ ، ولا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، ولا زَرْعَ كَالثَّوَابِ ، ولا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ
عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، ولا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ ، ولا عِلْمَ كَالْتَفْكِيرِ ، ولا عِبَادَةَ
كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ .

ولا إِيْمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ ، ولا حَسَبَ كَالْتَوَاضُعِ ، ولا شَرَفَ كَالْعِلْمِ ، ولا عِزَّةَ
كَالْحِلْمِ ، ولا مَظَاهِرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمَشَاوِرَةِ .

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ في جميع هذه الحكم .

أما المالُ فَإِنَّ الْعَقْلَ أَعُوذُ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ الْأَحَقُّ ذَا الْمَالِ طَالَمَا ذَهَبَ مَالُهُ بِحِمْمَةٍ ، فَعَادَ أَحَقَّ
فَقِيرًا ، وَالْعَاقِلُ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ طَالَمَا اكْتَسَبَ الْمَالَ بِعَقْلِهِ ، وَبَقِيَ عَقْلُهُ عَلَيْهِ .
وَأما الْعُجْبُ فيوجبُ الْمَقْتَّ ، وَمِنْ مُقْتٍ أَفْرَدَ عَنِ الْمَخَالِطَةِ وَاسْتَوْحِشَ مِنْهُ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ
التدبير هو أفضلُ الْعَقْلِ ، لِأَنَّ الْعَيْشَ كُلَّهُ فِي التَّدْبِيرِ .

وَأما التَّقْوَى فَقَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ (١) .

وأما الأدب فقالت الحكماء : ما وَرَثَتِ الآباءُ أبنائها كالآدب .

وأما التوفيق فمن لم يكن قائده ضلّ .

وأما العمل الصالح ، فإنه لشرفُ التجارات ، فقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ^(١) .
ثم عدّ الأعمال الصالحة .

وأما الثواب فهو الربح الحقيقي ، وأما ربح الدنيا فشيءٌ يحلم النائم .

وأما الوقوف عند الشبهات فهو حقيقة الورع ، ولا ريب أن من يزهد في الحرام أفضّل ممن يزهد في المباحات ، كالمأكل اللذيذة ، والملابس الناعمة ، وقد وصف الله تعالى أرباب التفكر فقال : ﴿ وَيتفكرون في خلقِ السموات والأرض ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ولا ريب أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل . والحياء مخ الإيمان ، وكذلك الصبر والمتواضع مصيدة الشرف ، وذلك هو الحسب ، وأشرف الأشياء العلم ، لأنه خاصّة الإنسان ، وبه يقع الفضل بينه وبين سائر الحيوان .

والمشورة من الحزم فإن عقل غيرك تستضيفه إلى عقلك . ومن كلام بعض الحكماء :
إذا استشارك عدوك في الأمر فاحضنه النصيحة في الرأي ، فإنه إن عمل برأيك وانتفع نديم على إفراطه في مناوأتك ، وأفضت عداوته إلى المودة ، وإن خالفك واستضرّ عرف قدر أمانتك بنصحه ، وبلغت منك في مكروهه .

(١١٠)

الأصل :

إِذَا اسْتَوَى الصَّلَاحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرَ مِنْهُ حَوْبَةٌ ، فَقَدْ ظَلَمَ ، وَإِذَا اسْتَوَى النَّسَادُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ .

الشَّيْخُ :

يريد أنه يتعين على العاقل سوء الظنّ حيث الزمان فاسد ، ولا ينبغي له سوء الظنّ حيث الزمان صالح ، وقد جاء في الخبر المرفوع النهي عن أن يظنّ المسلم بالمسلم ظنّ السوء ، وذلك محمولٌ على المسلم الذي لم تظهر منه حَوْبَةٌ ، كما أشار إليه عليّ عليه السلام ؛ والحَوْبَةُ : المعصية ، والخبر هو ما رواه جابر قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فقال : « مرحباً بك من بيتٍ ! ما أعظمك وأعظم حرمتك ! والله إن المؤمن أعظم حرمة منك عند الله عز وجل ؛ لأن الله حرّم منك واحدة ، ومن المؤمن ثلاثة : دمه وماله وأن يظنّ به ظنّ السوء . »
ومن كلام عمر ؛ ضَعُ أمر أخيك على أحسنه حتى يجيء ما يغلبك منه ، ولا تُظنّ بكلمة خرجت من في أخيك المسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، ومن عَرَّض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظنّ .

شاعر :

أَسَأْتُ إِذَا أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

قيل لعالم : من أسوأ الناس حالاً ؟ قال : من لا يثق بأحدٍ لسوء ظنّه ، ولا يثق به أحدٌ لسوء فعله .

شاعر :

وقد كان حُسنُ الظنِّ بعضَ مَذاهِبِي فَأَدْبَنِي هَذَا الزَّمانُ وَأَهْلُهُ

قيل لصوفي : ما صناعتك ؟ قال : حُسنُ الظنِّ بالله ، وسوءُ الظنِّ بالناس .
وكان يقال : ما أحسنَ حُسنَ الظنِّ إِلَّا أنَّ فيه العجز ، وما أقبحَ سوءَ الظنِّ إِلَّا أنَّ فيه الحُزْم .

ابن المعتز :

تَفَقَّدَ مَسَاقِطَ لَحْظِ الرِّيبِ فَإِنَّ العِيونَ وجوهُ القلوبِ (١)
وطالِعَ بَوَادِرَهُ فِي الكلامِ فَإِنَّكَ تَجِنِّي ثَمَارَ العُيُوبِ

(١١١)

الأضل :

وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ :
كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ ، وَيَسْقُمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ .

الشَّيْخُ :

هذا مِثْلُ قَوْلِ عَبْدِ بْنِ الطَّيِّبِ :

أَرَى بَصِيرِي قَدْ رَأَيْتَنِي بِمَدِصِحَةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ نَصِيحَ وَتَسْلَمَا
وَلَنْ يَلْبَثَ الْمَصْرَانِ يَوْمَ وَلِيلَةٍ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَيْمَمَا
وَقَالَ آخَرُ :

كَانَتْ قَنَاقِي لَا تَلِينُ لِغَاِمِرٍ فَأَلَانَهَا الإِصْبَاحَ وَالْإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدَا لِيُخَيِّرَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاهَا

(١١٢)

الأضل :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِمُحْسِنِ
الْقَوْلِ فِيهِ ! وَمَا ابْتَلَى اللَّهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

الشُّنْخُ :

قد تقدّم القول في الاستدراج والإملاء .

فأما القول في فتنة الإنسان بِمُحْسِنِ الْقَوْلِ فِيهِ فقد ذَكَرْنَا أَيْضًا طَرَفًا صَالِحًا يَتَعَلَّقُ بِهَا .
وقال رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِرَجُلٍ مَدَحَ رَجُلًا وَقَدْ مَرَّ بِمَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَسْمَعْ ، وَلَكِنْ قَالَ : « وَيَحْكُ لَكَدَتَ تَضْرِبُ عُنُقَهُ ، لَوْ سَمِعَهَا
لَا أَفْلَحَ » .

(١١٣)

الأفضل :

هَلَكَ فِي رَجُلَانِ : مُحِبُّ غَالٍ ، وَمُبْغِضٌ قَالَ .

الشيخ :

قد تقدم القول في مثل هذا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « والله لولا أنني أشفق أن تقول طوائف من أمتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم ، لقلت فيك اليوم مقالا لا تمر بأحد من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة » .
ومع كونه صلى الله عليه وآله لم يقل فيه ذلك المقال فقد غلت فيه غلاة كثيرة العدد منتشرة في الدنيا ، يعتقدون فيه ما يمتد النصارى في ابن مريم ، وأشنع من ذلك الاعتقاد .

فأما المُبْغِضُ القالي فقد رأينا مَنْ يَبْغِضُهُ ، ولكن ما رأينا من يَلْعَنُهُ ويصرح بالبراءة منه ، ويقال : إن في عُمان وما والاها من صُحار وما يجري بحرأها قوماً يعتقدون فيه ما كانت الخوارج تعتقده فيه ، وأنا أبرا^(١) إلى الله منهما .

(١) « ونحن نبرا » .

— ٢٨٣ —

(١١٤)

الأفضل :

إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ.

الشيخ :

فِي الْمَثَلِ : انْتَهَزُوا الْفُرْصَ ، فَإِنَّهَا تَعْرِى مَرَّ السَّحَابِ .

وقال الشاعر :

وإن أمكنتُ فرصةً في العدوِّ	فلا يَكُ هَمُّكَ إِلَّا بِهَا
فإن تَكَ لم تَأْتِ مِنْ بَابِهَا	أَتَاكَ عَدُوُّكَ مِنْ بَابِهَا
وإِيَّاكَ مِنْ نَدَمٍ بَعْدَهَا	وتَأْمِيلٍ أُخْرَى ، وَأَتَى بِهَا ..؟

(١١٥)

الأفضل :

مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسْهًا ، وَالسُّمُّ النَّافِعُ فِي جَوْفِهَا ؛ يَهْوِي إِلَيْهَا
النَّيِّرُ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللَّبِّ الْعَاقِلُ .

الشَّنْخُ :

قد تقدّم القولُ في الدنيا مرارا ، وقد أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :
إِنَّمَا الدَّهْرُ أَرْقَمُ لَيِّنُ الْمَسِّ وَفِي نَائِبِهِ السَّقَامُ الْعُقَامُ

(١١٦)

الأصل :

وقال عليه السلام : وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ :
أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرِيحَانَةٌ قُرَيْشٍ ، تُحِبُّ حَدِيثَ رَجَالِهِمْ ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ .
وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْدَهُمْ رَأْيًا ، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا ، وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْدَلُ لِمَا
فِي أَيْدِينَا وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ
وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ .

الشرح :

[فصل في نسب بني مخزوم وطرف من أخبارهم]

قد تقدم القول في مُفَاخَرَةِ هَاشِمٍ وَعَبْدِ شَمْسٍ ، فَأَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَإِنَّهُمْ بَعْدَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ
أَنْفَرُ قُرَيْشٍ وَأَعْظَمُهَا شَرَفًا .

قال شيخنا أبو عثمان : حظيتُ مَخْزُومٌ بِالْأَشْعَارِ ، فانتشر لهم صيتٌ عظيمٌ بها ، واتفق
لهم فيها ما لم يَتَّفَقْ لِأَحَدٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُضْرَبُ بِهِمُ الْمَثَلُ فِي الْعِزِّ وَالْمَعْمَةِ وَالْجُودِ وَالشَّرَفِ
وَأَوْضَعُوا فِي كُلِّ غَايَةٍ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ سِيحَانَ الْجَسْرِيِّ حَلِيفِ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي كَلِمَةٍ لَهُ :

* وَحِينَ يَنَاقِي الرَّكْبُ مَوْتَ هِشَامِ *

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا تَقُولُهُ مَخْزُومٌ فِي التَّارِيخِ حَقٌّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : كَانَتْ قُرَيْشٌ
وَكَثَانَةٌ وَمِنْ الْإِثْمِ مِنَ النَّاسِ يُوَرِّخُونَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : كَانُوا يَقُولُونَ : كَانَ ذَلِكَ زَمَنَ

مَبْنَى الكعبة ، وكان ذلك من مجيء الفيل ، وكان ذلك عام مات هشامُ بنُ المغيرة . كما كانت العرب تُورِّخ فتقول : كان ذلك زمنَ الفِطْحِل ، وكان ذلك زمنَ الحَيَّان ، وكان ذلك زمنَ الحِجَارَة ، وكان ذلك عامَ الحِجَاف ، والرُّوَاة تجعل ضرب المثل من أعظم المفاخر ، وأظهر الدلائل . والشعر - كما علمت - كما يرفع يضع ، كما رفع من بنى أنف الناقة قول الحطيئة :

قومٌ هم الأنف والأذنانُ غيرُهُم
ومن يسوَّى بأنفِ الناقةِ الذَّنْبَا ؟
وكما وضع من بنى نُمَيْرٍ قولُ جرير :
فَعُضَّ الطرفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كَمَبًا بلغتَ ولا كِلَابًا
فلقيتُ نُمَيْرٍ من هذا البيت ما لقيتُ .

وجعلهم الشاعر مثلاً فيمن وضعه الهجاء ، وهو يهجو قوماً من العرب :

وسوف يزيدُكم ضعةً هجائي كما وضع الهجاءُ بنى نُمَيْرٍ
ونُمَيْرٍ قبيلٌ شريف ، وقد كَلَّم في شرفهم هذا البيت .

وقال ابنُ غزالة الكِنْدِيُّ ؛ وهو يمدح بنى شَيْبَانَ ولم يكن في موضع رغبة إلى بنى غزوم ، ولا في موضع رهبة :

كأنِّي إذ حطَّطُ الرجلَ فيهمُ بمكةَ حينَ حلَّ بها هشامُ
فَضَرَبَ بهِشامُ المثل .

وقال رجلٌ من بنى حَزَمٍ أحدُ بنى سُلَمَى ، وهو يمدح حربَ بنَ معاوية الخفاجيَّ وخفاجة من بنى عُقَيْل :

إلى حَزَنِ الحَزُونِ سَمْتُ رِكَابِي بوابلِ خلفها عَسَلَانُ جَيْشِي

فلَمَّا أنْ أُنَحْتُ إِلَى ذُرَاهُ أُمِنْتُ فَرَّاشِي مِنْهُ بِرَيْشِـ
تَوَسَّطَ بَيْتُهُ فِي آلِ كَعْبِ كَبِيتَ بَنِي مَغِيرَةَ فِي قُرَيْشِـ
فَضْرَبَ الْمَثَلَ بَيْنَهُمْ فِي قُرَيْشِـ .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ :
مَارَسْتُ أَكْيَسَ مِنْ بَنِي قَحْطَانَ صَعَبَ الذَّرَا مَتَمَنِّعَ الْأَرْكَانِـ
إِنِّي طَمَعْتُ بِفَخْرٍ مِنْ لَوْ رَامَهُ آلُ الْمُغِيرَةِ أَوْ بَنُو ذَكْوَانَـ
لَمَلَأْتُهَا خَيْلًا تَضِبُّ لثَائِهَا مِثْلَ الدَّبَّاءِ وَكَوَاسِرِ الْعُقْبَانِـ
مِنْهُمْ هِشَامٌ وَالْوَلِيدُ وَعِدْلُهُمْ وَأَبُو أُمَيَّةَ مَفْزَعُ الرُّكْبَانِـ
فَضْرَبَ الْمَثَلَ بِآلِ الْمُغِيرَةِ .

وَأَمَّا بَنُو ذَكْوَانَ فَبَنُو بَدْرَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَوِيَّةَ بْنِ ذَكْوَانَ أَحَدِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ فَزَّارَةَ
مِنْهُمْ خَذِيفَةُ وَحَمَلُ وَرَهْطُهُمَا ، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ نُوَيْرَةَ :

أَلَمْ يَنْهَ عَنَّا فُخْرَ بَكْرِ بْنِ وَاثِلِـ هَزَيْتَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَزَامِـ
فَنَهَنَ يَوْمَ الشَّرِّ أَوْ يَوْمَ مَتَمِجِـ وَبِالْجَزَعِ إِذْ قَسَمَنَ حَيَّ عَصَامِـ
أَحَادِيثُ شَاعَتْ فِي مَعَدٍّ وَغَيْرِهَا وَخَبَّرَهَا الرُّكْبَانُ حَيَّ هِشَامِـ
فَجَعَلَ قُرَيْشًا كُلَّهَا حَيًّا لِهِشَامِ :
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَوْرٍ الْخَلَفَاجِيُّ :

وَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مَقْشِعِرًا كَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ^(١)
وَهَذَا مِثْلٌ وَفَوْقَ الْمَثَلِ .

قَالُوا : وَقَالَ الْخُرُوفُ السَّكَلِيُّ - وَقَدْ مَرَّ بِهِ نَاسٌ مِنْ تَجَّارِ قُرَيْشٍ يَرِيدُونَ الشَّامَ بَاقِينَ

(١) السَّكَلِيُّ الْمَسْرُودُ ٢ : ١٤٢ مِنْ غَيْرِ نَسَبَةٍ : قَالَ فِي شَرْحِهِ : « يَقُولُ : هُوَ وَلَئِنْ كَانَ مَاتَ فَهُوَ
مَدْفُونٌ فِي الْأَرْضِ ؛ فَقَدْ كَانَ يَجِبُ مِنْ أَجْلِهِ أَلَّا يَنْالَهَا جَدْبٌ » .

قشفين - : مالكم معاشر قريش هكذا أجدبتم أم مات هشام ، فجعل موت هشام يازاء
الجدب والحل ، وفي هذا المعنى قال مسافر بن أبي عمرو :

تقول لنا الرُّكبانُ في كلِّ مَنْزِلٍ : أماتَ هشامُ أم أصابَكُمُ جدْبُ ؟
فجعل موتَ هشام وفقدَ الغيثِ سواء .

وقال عبدُ الله بنُ سلمة بن قشير :
دَعَيْني أَصْطَبِحُ يابِكرُ إِنِّي رأيتُ الموتَ نَقَبَ عنْ هشام^(١) .

وقال أبو الطَّمَحانِ القينيّ - أو أخوه :
وكانت قريشٌ لا تخون حريمها من الخوفِ حتى ناهضتْ بهشام .

وقال أبو بكر بن شعوب لقورمه كنانة :
يا قومنا لا تهلكوا إخفاتاً إنَّ هشامَ القرشيَّ ماتاً

وقال خِدْاشُ بنُ زهير :
وقد كنتُ هَجَاءَ لَهمْ ثمَّ كَفَّكَفُوا نوافذَ قَوْلِي بالهمامِ هشام .

وقال عليّ بن هرمة ؛ عمّ إبراهيم بن هرمة :
ومن يَرْتَبِي مدحِي فإنَّ مدأحِي نوافقُ عند الأكرمين سوام .

نوافقُ عندالشرِّ الحمدُ بالندى نفاقَ بناتِ الحارثِ بنِ هشام .

وقال الشاعر وهو يهجو رجلاً :
أَحْسَبْتُ أَنَّ أَباك يومَ نَسَبَتَنِي في المجد كان الحارثَ بنَ هشام .

أولى قريشٍ بالكارمِ كلِّها في الجاهليّة كان والإسلام .

(١) الكامل ٢: ١٤٣ من غير نسبة ؛ ونقب ، أي طوف حتى أصاب هشاماً ، وانظر نسب قريش ٣٠١

وقال الأسود بن يعفر النهشلي :

إن الأكرام من قريش كلها شهدوا فراموا الأمر كل مرام
حتى إذا كثرت التجادل بينهم حزم الأمور الحارث بن هشام
وقال ثابت قطنة - أو كعب الأشقرى لمحمد بن الأشعث بن قيس :

أتوعدني بالأشعثي ومالك وتنفخ جهلاً بالوسيط الطماطم !
كانك بالبطحاء تذر حارثاً وخالد سيف الدين بين الملاحم

وقال الخزاعي في كلته التي يذكر فيها أبا أحيحة :

له سرّة البطحاء والعدّ والثرى ولا كهشام الخير والقلب مردف

وسأل معاوية صمصمة بن صوحان العبدى عن قبائل قريش ، فقال : إن قلنا : غضبتم ،
وإن سكّتنا غضبتم ، فقال : أقسمت عليك ، قال : فيمن يقول شاعركم :

وعشرة كلّهم سيّد آباء سادات وأبناؤها
إن يسألوا يمعطوا وإن يمدموا يبيّض من مكة بطحاؤها

وقال عبد الرحمن بن سيحان الجسرى حليف بنى أمية وهو يهجو عبد الله بن مطيع

من بنى عدى :

حرام كنتى منى بسوء وأذكر صاحبي أبدا بدام^(١)
لقد أصرمت ودّ بنى مطيع حرام الدهر للرجل الحرام
وإن خيف الزمان مددت حبلاً متينا من حبال بنى هشام
وريق عودهم أبدا رطيب إذا ما اهتز عيدان الكرام

(١) الأغاني ٢ : ٢٥٥ مع اختلاف في الرواية .

وقال أبو طالب بن عبد المطلب وهو يفخر بخاليه : هشام والوليد على أبي سفيان
ابن حرب^(١) :

وخالي هشام بن المغيرة ثاقبٌ إذا همَّ يوماً كالحسام المهند
وخالي الوليد العدل عالٍ مكانه وخالي أبي سفيان عمرو بن مرثد

وقال ابن الزبيري فيهم :

لهم مشيةٌ ليست تليقُ بغيرهم إذا احدودب المثلون في السنة الجذب

وقال شاعر من بني هوازن ، أحد بني أنف الناقة حين سقى إبله عبد الله بن أبي أمية
المخزومي بعد أن منعه الزرقان بن بدر :

أتدرى من منعت سيال حوضٍ سليل خضارم منعوا البطاح
أزاد الركب تمنع أم هشاماً وذا الرمحين أمنهم سلاحا
هم منعوا الأباطح دون فيهم ومن بالخياف والبلد الكفاحا
بضرب دون يبيضهم طلخف^(٢) إذا للمهوف لاذ بهم وصاحا
وما تدرى بأيهم تلاقى صدور الشرقيّة والرماحا

فقال عبد الله ابن أبي أمية مجيباً له :

لعمري لأنت المرء يحسن بادياً وتحسن عودا شيمه وتصنعاً
عرفت لقوم مجدهم وقديمهم وكنت لما أسديت أهلاً وموضعا

قالوا : وكان الوليد بن المغيرة يجلس بنى المجاز فيحكم بين العرب أيام عكاظ
وقد كان رجل من بني عامر بن لؤي رافق رجلاً من بني عبد مناف بن قصي ، فجرى
بينهما كلام في جبل ، فعلاه بالعصا حتى قتله ، فكاد دمه يطال ، فقام دونه أبو طالب

(١) ديوانه ٧٦ . (٢) الطلخف : الضرب الشديد .

ابن عبد المطلب وقدمه إلى الوليد ، فاستخلفه خمسين يمينا أنه ما قتله ، ففي ذلك يقول أبو طالب :

أَمِنْ أَجْلِ جَبَلٍ ذِي رِمَامٍ عُلُوَّتَهُ بِنَسَاءٍ قَدْ جَاءَ جَبَلٌ وَأَحْبَلُ^(١)
هَلُمَّ إِلَى حُكْمِ ابْنِ صَخْرَةٍ إِنَّهُ سِيحُكُمْ فِيمَا بَيْنَنَا ثُمَّ يَعْدِلُ

وقال أبو طالب أيضا في كلمة له :

وَحُكْمُكَ يُبْقِي الْخَيْرَ إِنْ عَزَّ أَمْرُهُ تَخَمَّطَ وَاسْتَمَلَى عَلَى الْأَضْعَفِ الْفَرْدُ

وقال أبو طالب أيضا يرثي أبا أمية زاد الركب وهو خاله :

كَأَنَّ عَلَى رَضْرَاضٍ قَصِيٍّ وَجَنْدَلٍ مِنَ الْيَسْرِ أَوْ تَحْتَ الْفَرَاشِ الْجَامِرِ^(٢)
عَلَى خَيْرِ حَافٍ مِنْ مَعَدٍّ وَنَاعِلٍ إِذَا الْخَيْرُ يُرْجَى أَوْ إِذَا الشَّرُّ حَاسِرُ
أَلَا إِنْ زَادَ الرِّكْبَ غَيْرُ مَدَافِعِ بِسَرٍّ سُحَّيْمٍ غَيَّبَتْهُ الْقَابِرُ
تَنَادَوْا بِأَنْ لَا سَيِّدَ الْيَوْمَ فِيهِمْ وَقَدْ فُجِعَ الْحَيَّانُ كَبُّهُ وَعَامِرُ
وَكَانَ إِذَا يَأْتِي مِنَ الشَّامِ قَافِلًا تَقَدَّمَ قَبْلَ الدُّنُوِّ الْبَشَائِرُ
فِيصْبَحُ آلُ اللَّهِ بِيضًا ثِيَابِهِمْ^(٣) وَقَدَّمَ جَبَاهُمْ وَالْعَيُونَ كَوَاسِرُ
أَخْوَجَفَنَهُ لَا تَبْرَحَ الدَّهْرُ عِنْدَنَا مُجْتَمِعَةً تَدْمِي وَشَاءَ وَبَاقِرُ
ضُرُوبٌ بِنَصْلِ السِّيفِ سَوْقَ سَمَانِهَا إِذَا أُرْسِلُوا يَوْمًا فَإِنَّكَ عَاقِرُ
فِيَالِكَ مِنْ رَاعٍ رُمِيتَ بِآلَةٍ شَرَاعِيَةٍ تَخْضَرُّ مِنْهُ الْأَطَافِرُ

وقال أبو طالب أيضا يرثي خاله هشام بن المنيرة :

(١) ديوانه ١٤٢ . (٢) ديوانه ٧٧ .

وكان ختنه يخرج تاجرا إلى الشام فأت بموضع يقال له سرد سحيم .

(٣) الديوان : « كَانَمَا » .

(٤) الديوان : « كَسْتُهُمْ حَيًّا رِيْدَةً وَمَعَانِرَ » .

فقدنا عميدَ الحى والركنَ خاشعاً كَفَقَدَ أبا عُثْمَانَ وَالْبَيْتَ وَالْحَجَرَ (١)
 وكان هشامُ بن المغيرة عَصَمَةً إِذَا عَرَكَ النَّاسَ الْخَافُونَ وَالْفَقْرُ
 بأبياته كانت أرامِلُ قومِهِ تَلَوْذُ وَأَيْتَامُ الْعَشِيرَةِ وَالسَّفَرُ
 فَوَدَّتْ قَرِيشٌ لَوْ فَدَتْهُ بِشَطْرِهَا وَقَلَّ لَعَمْرَى لَوْ فَدَوْدَ لَهُ الشَّطْرُ
 تقول لعمري أنتَ منه وإننا لَنَرْجُوكَ فِي جُلِّ الْمُلَمَّاتِ يَا عَمْرُو
 عمرو هذا هو أبو جهل بن هشام ، وأبو عثمان هو هشام .

وقالت ضُبَاعَةُ بنتُ عامر بنِ سلمة بنِ قرطَ ترثيه :

إِنَّ أبا عُثْمَانَ لَمْ أَنْسَهُ وَإِنَّ صَبْرًا عَنْ بُكَاءِ لَحُوبٍ
 تَفَاقَدُوا مِنْ مَعْشَرٍ مَا لَهْمُ أَى ذَنْوبٍ صُوبُوا فِي الْقَلْبِ
 وقال حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وهو يهجو أبا جَهْلٍ ، وكان يُكْنَى أبا الْحَكَمِ :
 النَّاسُ كَنَوْهُ أبا حَكَمٍ وَاللَّهُ كَنَاهُ أبا جَهْلٍ (٢)
 أَبَقْتُ رِيَاسَتَهُ لِأَسْرَتِهِ لَوْمَ الْفُرُوعِ وَدِقَّةِ الْأَصْلِ (٣)
 فأعترف له بالرياسة والتقدم .

وقال أبو عُبَيْدٍ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى : لَمَّا تَنَافَرَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَعَلَقْمَةُ بْنُ مُعَلَّاتٍ
 إِلَى هَرَمِ بْنِ قُطَيْبَةَ وَتَوَارَى عَنْهُمَا ، أَرْسَلَ إِلَيْهِمَا : عَلَيْكُمَا بِالْفَتْحِ الْحَدِيثُ السَّنَّ ، الْحَدِيدُ
 الذَّهْنُ ؛ فَصَارَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ :

فَلَا تَحْكُمُ فِدَاكَ أَبِي وَخَالِي وَكُنْ كَالرَّءِ حَاكِمِ آلِ عَمْرُو

(١) ديوانه ٨٠ .

(٢) ديوانه ٣٤٤ ، وروايته :

سَمَاهُ مَعْشَرُهُ أبا حَكَمٍ وَاللَّهُ سَمَاهُ أبا جَهْلٍ

(٣) الديوان :

أَبَقْتُ رِيَاسَتَهُ لِمَعْشَرِهِ غَضِبَ الْإِلَهِ وَذِلَّةَ الْأَصْلِ

أَبَى أَنْ يَحْكُمَ ، فَرَجَعَا إِلَى هَرَمٍ .
وقال عبدُ الله بنُ ثور :

هَرِيقًا مِنْ دُمُوعِكُمَا سِجَامًا ضُبَاعُ وَحَارِبِي نَوْحًا قِيَامًا
فَمَنْ لِلرَّكْبِ إِذْ جَاءُوا طُرُوقًا وَغُلَّتِ الْبُيُوتُ فَلَا هِشَامًا
وقال أيضا في كَلِّه له :

وما وَلَدَتْ نِسَاءَ بَنِي زَرَارٍ وَلَا رَشَّحْنَ أَكْرَمَ مِنْ هِشَامٍ
هشامُ بنُ المغيرةِ خيرُ فِهْرٍ وأفضلُ من سقى صَوْبَ النِّعَامِ
وقال عُمارة بنُ أبي طَرْفَةَ الهُدَلِيِّ ، سمعتُ ابنَ جُرَيْجٍ يقولُ في كلامٍ له : هَلَاكَ سَيِّدُ
الْبَطْحَاءِ بِالرُّعَافِ ؟ قلتُ : ومن سَيِّدِ الْبَطْحَاءِ ؟ قال : هشامُ بنُ المغيرةِ .
وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : «لَوْ دَخَلَ أَحَدُنَا مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْجَنَّةَ لَدَخَلَهَا هِشَامُ
ابنُ المغيرةِ ، كَانَ أَبْدَلَهُمْ لِلْمَعْرُوفِ ، وَأَهْمَلَهُمْ لِلْكَفْرِ .
وقال عُمرُ بنُ الْخَطَّابِ ، لَا قَلِيلٌ فِي اللهِ ، وَلَا كَثِيرٌ فِي غَيْرِ اللهِ . وَلَوْ بِالْخَلْقِ الْجَزَلُ
وَالْفَعَالُ الدَّثَرُ ، تُنَالُ الْمَثُوبَةُ لَنَا لَهَا هِشَامُ بنُ المغيرةِ ، وَلَكِنْ بِتَوْحِيدِ اللهِ ، وَالْجِهَادِ
فِي سَبِيلِهِ .

وقال خِدَاشُ بنُ زُهَيْرٍ فِي يَوْمِ شَمْطَةِ^(١) ، وَهُوَ أَحَدُ أَيَّامِ الْفِجَارِ ، وَهُوَ عَدُوُّ قُرَيْشٍ
وَحَصْمُهَا :

وَبَلَّغْ إِنْ بَلَّغْتَ بَنَاهِشَامًا وَذَا الرَّثْمَحِينَ بَلَّغْ وَالْوَلِيدَا^(٢)
أُولَئِكَ إِنْ يَكُنْ فِي النَّاسِ جُودٌ فَإِنَّ لَدَيْهِمْ حَسْبًا وَجُودًا
هُمْ خَيْرُ الْمَعَاشِرِ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَوْرَاهَا إِذَا قَدَحُوا زُنُودًا

(١) لقيس على كنانة وقريش . وشمطة : موضع قريب من عكاظ .

(٢) أيام العرب في الجاهلية ٣٣٢ .

وقال أيضا وذكّرها في تلك الحروب :

يَا شَدَّةَ مَا شَدَدْنَا غَيْرَ كَاذِبَةٍ عَلَى سَخِينَةٍ لَوْلَا اللَّيْلُ وَالْحَرَمُ^(١)
إِذَا تَقَفْنَا هِشَامًا بِالْوَلِيدِ وَلَوْ أَنَا تَقَفْنَا هِشَامًا شَالَتِ الْجَدْمُ
وَذَكَرَهُمُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ فَقَالَ :

أَلَا لِلَّهِ قَوْمٌ وَلَدْتُ أُخْتُ بَنِي سَهْمٍ^(٢)
هِشَامٌ وَأَبُو عَبْدِ مَنْفٍ مِدْرَهُ الْخَضَمُ
وَذُو الرِّعَيْنِ أَشْبَاكَ مِنْ الْقُوَّةِ وَالْحَزَمُ^(٣)
فَهَذَا يَذُودَانِ وَذَا عَنْ كَتَبٍ يَرْمِي
وَهُمْ يَوْمَ عُكَاظٍ مَنَعُوا النَّاسَ مِنَ الْهَزَمِ
بِجَاوَاءِ طُحُونٍ فَخَضَمَةُ الْقَوَاتِسِ كَالنَّجْمِ
أَسْوَدٌ تَزْدَهِي الْأَقْرَا نَ مَنَاعُونَ لِلْهَضَمِ^(٤)
فَإِنْ أَحْلِفَ وَبَيْتِ اللَّهِ لَا أَحْلِفُ عَلَى إِثْمِ
وَمَا مِنْ إِخْوَةٍ بَيْنَ دُرُوبِ الشَّامِ وَالرَّدَمِ
بِأَزْكِ مِنْ بَنِي رَيْطٍ أَوْ أَرْزَنَ مِنْ حِلَمِ

رَيْطَةٌ ، هِيَ أُمُّ وَلَدِ الْمُغِيرَةِ ، وَهِيَ رَيْطَةُ بَنْتِ سَعِيدِ بْنِ سَهْمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هَضِيسِ
ابْنِ كَعْبٍ ، وَأَبُو عَبْدِ مَنْفٍ هُوَ أَبُو أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَيُعْرَفُ بِزَادِ الرَّكْبِ ، وَاسْمُهُ خُدَيْفَةُ ،
وإِنَّمَا قِيلَ لَهُ : زَادُ الرَّكْبِ لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ مُسَافِرًا لَمْ يَزُودْ مَعَهُ أَحَدٌ ، وَكَانَتْ

(١) الْأَغَانِي ١٩ : ٧٦ ؛ مِنْ أَبْيَاتِ أَرْبَعَةٍ ، وَالثَّانِي فِي نَسَبِ قُرَيْشِ ٣٠٠ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الرِّوَايَاتِ .

(٢) الْأَغَانِي ١ : ٦٢ ، الْأُمَالِي ٣ : ١٩٦ ، ١٩٧ (طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ) .

(٣) فِي الْأَصُولِ : « أَشْبَاك » ، صَوَابُهُ مِنَ الْأُمَالِي ٢ : ٢٠٨ . قَالَ ، يَقَالُ : أَشْبَاكَ بِفُلَانٍ ؛ كَمَا يَقَالُ

حَسْبُكَ بِفُلَانٍ ؛ وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ .

(٤) الْأَغَانِي : « مَنَعُوا النَّاسَ مِنَ الْهَزَمِ » .

عنده عاتكة بنت عبد المطّاب بن هشام ، وأما ذو الرّمحين فهو أبو ربيعة بن الغيرة واسمه عمرو ، وكان الميرة يُسكنى بأسم ابنه الأكبر ، وهو هاشم ، ولم يُعقب إلا من حنّمة ابنته ، وهي أمّ عمر بن الخطّاب .

وقال ابنُ الرُّبَعْرَى يمدح أبا جهل :

رُبَّ نَدِيمٍ مَاجِدٍ الْأَصْلِ مَهْدَبِ الْأَعْرَاقِ وَالنَّجْلِ
مِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ مَنْافٍ وَكَمْ سَرَبَتْ بِالضَّخْمِ عَلَى الْعَدْلِ
عَمُرُو النَّدَى ذَاكَ وَأَشْيَاعُهُ مَا شَتَّ مِنْ قَوْلٍ وَمِنْ فِعْلٍ

وقال الرُّود بن خَلاس السَّهْمِيّ : سَهْمٌ بَاهِلَةٌ يَمْدَحُ الْوَلِيدَ :

إِذَا كُنْتُ فِي حَيٍّ جَذِيمةً ثَاوِيًا فَعِنْدَ عَظِيمِ الْقَرِيَّتَيْنِ وَلِيدُ
فَذَاكَ وَحِيدُ الرَّأْيِ مُشْتَرِكُ النَّدَى وَعِصْمَةُ مَلُوفِ الْجُنَانِ تَمِيدُ

وقال أيضا :

إِنَّ الْوَلِيدَيْنِ وَالْأَبْنَاءَ ضَاحِيَةً رَبَّاتِهَا مَمَّةٌ فِي الْمَسُورِ وَالْعُسْرِ
هُمْ الْغِيَاثُ وَبَعْضُ الْقَوْمِ قِرْقَمَةٌ عِزُّ الدَّلِيلِ وَغِيظُ الْحَاسِدِ الْوَعْرِ

وقال :

وَرَهْطُكَ يَا بَنَ الْغَيْثِ أَكْرَمُ مَحْتَدٍ وَأَمْنَعُ لِلجَارِ اللَّهْفِ الْمُهْزَمِ
قَالُوا : الْغَيْثُ لَقَبُ الْمَغِيرَةِ ، وَجَعَلَ الْوَلِيدَ وَأَخَاهُ هِشَامًا رَبِّيَّ هِمَامَةً كَمَا قَالَ لَبِيدُ بْنُ ربيعةٍ فِي حُدَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ :

وَأَهْلَكُنْ يَوْمَآ رَبَّ كِنْدَةَ وَأَبْنَاهُ وَرَبَّ مَعْدٍ بَيْنَ خَبْتٍ وَعَرَعٍ^(١)
فَجَعَلَهُ رَبَّ مَعْدٍ .

قالوا : يدلّ على قَدَرِ مخزوم ما رأينا من تعظيم القرآن لشأنهم دون غيرهم من سائر قريش ، قال الله تعالى مُخْبِرًا عن العرب : إِنَّهُمْ قَالُوا : ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ يُظَلِّي رَجُلًا مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمًا﴾ (١) فأحدُ الرّجاءين العظيمين بلا شكّ الوليدُ بنُ المغييرة ، والآخَرُ مختلفٌ فيه ؛ أهو عُرْوَةُ بنُ مسعود ، أم جدُّ المختار بن أبي عُبَيْد . وقال سبحانه في الوليد : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا...﴾ (٢) الآيات .

قالوا : وفي الوليد نزلت : ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَمَعَنِي فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ (٣) . وفي أبي جهل نزلت : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤) . وفيه نزلت : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (٥) .

وفي مخزوم : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ (٦) . وفيهم نزلت : ﴿مَا خَوْلَنَا كُفْرًا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (٧) .

وزعم اليعقوبيّ أبو اليقظان وأبو الحسن أنّ الحجاج سأل أعشى همدان عن بيوتات قريش في الجاهليّة ، فقال : إنّني قد آليتُ ألا أنقر أحدا على أحد ، ولكن أقول وتسمعون ، قالوا : فقل . قال : من أيّهم المحبّب في أهله ، المؤرّخ بذكره ، مُحلّي الكعبة ، وضاربُ القبّة ، والملقّب بالخير ، وصاحبُ الخير والمير ؟ قالوا : من : بني مخزوم ، قال : فمن أيّهم ضجيعُ بسباسة ، والمنحور عنه ألف ناقة ، وزادُ الركب ، ومبيّضُ البطحاء ؟ قالوا : من بني مخزوم ، قال : فمن أيّهم كان المقنعُ في حُكمه ، والمنفذ وصيته على تهمّكه ، وعدل الجميع في الرّفاة ، وأوّل من وُضع أساسُ الكعبة ؟ قالوا من بني مخزوم ، قال : فمن

(١) سورة الزخرف ٣١ .
(٢) سورة عبس ٥ ، ٦ .
(٣) سورة العلق ١٧ .
(٤) سورة الأنعام ٩٤ .
(٥) سورة المدثر ١١ - ١٣ .
(٦) سورة الدخان ٤٩ .
(٧) سورة المزمل ١١ .

أبيهم صاحب الأريكة ، ومُطعم الخزيرة ، قالوا من بنى مخزوم ؛ قال فمن أبيهم الإخوة العشرة ، الكرام البررة ؛ قالوا من بنى مخزوم ، قال : فهو ذاك ؛ فقال رجلٌ من بنى أمية ، أيتها الأمير ، لو كان لهم مع قديمهم حديث إسلام ! فقال الحجاج : أو ما علمت بأن منهم ردّاد الردة ، وقاتل مسيئمة ، وأسر طليحة ، والمدرك بالطائفة ، مع الفتوح العظام والأيدى الجسام ! فهذا آخر ما ذكره أبو عثمان .

ويمكن أن يُزاد عليه فيقال : قالت مخزوم ما أنصفنا من اقتصر في ذكرنا على أن قال : مخزوم ربحانة قريش ، تحب حديث رجالهم ، والتكاح في نسائهم ، ولنا في الجاهلية والإسلام أثر عظيم ، ورجال كثيرة ، ورؤساء شهيرة ، فمننا المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، كان سيد قريش في الجاهلية ، وهو الذي منع فزارة من الحج الماعير خشين بن لأى النزارى ، ثم الشمخى قوماً من قريش إنهم يأخذون ما ينحره العرب من الإبل في الموسم ، فقال خشين لما منع من الحج :

يَا رَبِّ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ عَقِيرَةٍ أَصْلِحْ مَالِي وَأَدْعُ تَنْحِيرَةَ
فَإِنَّ مَنَا مَانِعَ الْمَغِيرَةِ وَمَانِعاً بَعْدَ مَنِ بَشِيرَةِ
* وَمَانِعاً يَبْتَكَ أَنْ أَزُورَهُ *

منا بنو المغيرة العشرة أمهم ريطة ، وقد تقدّم ذكر نسبها ، وأمها عاتكة بنت عبد العزى بن قصى ، وأمها الحظية بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، أول امرأة من قريش ضربت قباب الأدم بنى المجاز ، ولها يقول الشاعر :

مَضَى بِالصَّالِحَاتِ بَنُو الْحَظِيَّاتِ وَكَانَ بِسَيْفِهِمْ يَغْنَى الْفَقِيرُ

فمن هؤلاء . أعني الحظيات - الوليد بن المغيرة أمه صخرة بنت الحارث بن عبد الله

ابن عبد شمس القُشَيْرِيُّ ، كان أبو طالب بن عبد المطاب يَفْتَخِرُ بِأَنَّهُ خاله ، وكفاك من رجل
يَفْتَخِرُ أبو طالب بِخُؤُلَتِهِ ! ألا تَرَى إلى قولِ أبي طالب :

وخالي الوليد قد عرفتم مَكَانَهُ وخالي أبو العاصي إياسُ بنُ مَعْبِدٍ

ومنهم حفصُ بنُ المغيرة ، وكان شريفا . وثمانُ بنُ المغيرة . وكان شريفا . ومنهم
السَّيِّدُ المَطاعُ هشامُ بنُ المغيرة ، وكان سَيِّدَ قريشٍ غيرَ مُدافِع ، له يقول أبو بكر بنُ الأسود
ابن شعوب يرثيه :

ذَرِينِي أَصْطَبِحْ يَا بَكْرُ إِنِّي رَأَيْتُ المَوْتَ نَقَبَ عَنْ هِشَامِ-

تَخَيَّرَهُ وَلَمْ يَمْدِلْ سِوَاهُ وَنَعِمَ المَرَّةُ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ !

وَكُنْتُ إِذَا أَلَايِهِ كَأَنِّي إِلَى حَرَمٍ وَفِي شَهْرٍ حَرَامِ-

فَوَدَّ بَنُو المَغِيرَةِ لَوْ فَدَوْهُ بِأَلْفِ مُقَاتِلٍ وَأَلْفِ رَامِ-

وَوَدَّ بَنُو المَغِيرَةِ لَوْ فَدَوْهُ بِأَلْفٍ مِنْ رِجَالٍ أَوْ سَوَامِ-

فَبِكَيْهِ ضُبَاعٌ وَلَا تَمَلُّ فِئَتُهُ مِنْ رِجَالٍ أَوْ سَوَامِ-

ويقول له الحارث بن أُمَيَّة الضَّمَرِيُّ :

أَلَا هَلَكَ القَنَاصُ وَالْحَامِلُ اثْنَانِ وَمِنْ لَا يَصْنَعُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَضْلًا

وَحَرْبٍ أَبَا عَثْمَانَ أَطْفَأَتْ نَارَهَا وَلَوْلَا هِشَامٌ أَوْ قَدَّتْ حَطَبًا جَزْلاً

وَعَانِي تَرْبِيكَ يَسْتَكِينُ لِعِلَّةٍ فَكَكَّتْ أَبَا عَثْمَانَ عَنْ يَدِهِ النُّلَّ

أَلَا لَسْتُ كَالْهَلَكِيِّ فَتُبْكِي بِكَاءِهِمْ وَلَكِنْ أَرَى الْهَلَاكَ فِي جَنْبِهِ وَغَلَا

غَدَاةٌ غَدَتْ تَبْكِي ضِبَاعَةً غِيثَنَا هِشَامًا وَقَدْ أَغْلَتْ بِمَهْلِكِهِ ضَحَلَا

أَلَمْ تَرَيَا أَنَّ الْأَمَانَةَ أَصْعَدَتْ مَعَ النَّعْشِ إِذْ وَلَّى وَكَانَ لَهَا أَهْلًا !

وقال أيضاً ييكيه ويرثيه :

وأصبح بطن مكة مقشيراً شديد الخل ليس به هشام
يروح كأنه أشلاء سوطٍ وفوق جفانه شحم ركام
فلا كبراء أكل كيف شاءوا ولولدان لقم واغتنام
فبكيه ضباع ولا تملئ ثمال الناس إن قحط الغمام
وإن بنى المنيرة من قریش هم الرأس المقدم والسنام
وضباعة التي تذكرها الشعراء زوجة هشام ، وهي من بنى قشير .

قال الزبير بن بكار : فلما قال الحارث : « ألا لست كالهلكي . . . » البيت ،
عظم ذلك على بنى عبد مناف فأغروا به حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي
حليف بنى عبد شمس ، وكانت قریش رضية به واستعملته على سقامها ، ففر منه
الحارث ، وقال :

أفر من الأب طح كل يوم مخافة أن ينكل بي حكيم
فهدم حكيم داره ، فأعطاه بنو هشام داره التي بأجباد عوضا منها .
وقال عبد الله بن ثور البكائي يرثيه :

هریق من دموعهما رجاما ضباع وجاوبی نوحاً قياماً
على خير البرية لن تراه ولن تلقى مواهبه المظالم
جواذ مثل سيل الغيث يوما إذا علجأنه يملو الإكاما
إذا ما كان عام ذو غرام حسبت قدورَه جبالاً صياماً

فمن للركب إذا مسوا طروقاً وغُلقت البيوت فلا هشاماً
وأوحش بطن مكة بعد أنسٍ ومجد كان فيها قد أقاماً
فلم أرَ مثله في أهل نجدٍ ولا فيمن بغورك يا بهاماً

قال الزبير : وكان فارس قريش في الجاهلية هشامُ بن المغيرة ، وأبو ليبد بن عبدة ابن حجرة بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي ، وكان يقال لهشام : فارس البطحاء ، فلما هلكا كان فارس قريش بعدها عمرو بن عبد العامري المقتول يوم الخندق ، وضار ابن الخطّاب الحاربي الفهري ، ثم هبيرة بن أبي وهب وعكرمة بن أبي جهل الخزوميان . قالوا : وكان عام مات هشامُ تاريخاً ، كعام الفيل ، وعام الفجار ، وعام بُنيان الكعبة . وكان هشام رئيس بني مخزوم يوم الفجار .

قالوا : ومنا أبو جهل بن هشام ، واسمه عمرو ، وكنيته أبو الحكم ، وإنما كناه « أبا جهل » رسول الله صلى عليه وآله ، كان سيداً أدخلته قريش دار الندوة فسودّته وأجلسته فوق الجلالة من شيوخ قريش ، وهو غلام لم يطرّ شاربه ، وهو أحد من ساد على الصبا . والحارث بن هشام أخو أبي جهل كان شريفاً مذكوراً ، وله يقول كعب ابن الأشرف اليهودي الطائي :

نُبئتُ أن الحارث بن هشامٍ في الناس يبنى المكرمات ويجمع^(١)
ليزور يثرب^(٢) بالجموع وإنما يبنى على الحسب القديم الأروع

وهو الذي هاجر من مكة إلى الشام بأهله وماله في خلافة عمر بن الخطاب ، فتبعه أهل مكة يَبكون ، فرق وبكى وقال : إنا لو كنّا نستبدل داراً بدار ، وجارا

(١) نسب قريش ٣٠١ .

(٢) في نسب قريش « أثرب » ؛ وهي لغة في « يثرب » .

بجار ، ما أردنا بكم بدلا ، ولكنها الثقله إلى الله عز وجل ، فلم يزل حابساً نفسه ومن معه بالشام مجاهدا حتى مات .

قال الزبير : جاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأولون والأنصار يأتون عمرَ فيُنحِّيهما ويقول : ها هنا يا سهيل ، ها هنا يا حارث ! حتى صارا في آخر الناس ؛ فقال الحارث لسهيل : ألم تر ما صنع بنا عمر اليوم ! فقال سهيل : أيها الرجل ، إنه لا لوم عليه ، ينبغي أن ترجع باللوم على أنفسنا ، دُعِيَ القوم ودُعينا ، فأسرعوا وأبطأنا . فلما قاما من عند عمرَ أتياه في غدٍ فقالا له : قد رأينا ما صنعت بالأمس ، وعلمنا أننا أتينا من أنفسنا فهل من شيء نستدرك به ؟ فقال : لا أعلم إلا هذا الوجه - وأشار لهما إلى ثغر الروم فخرجا إلى الشام ، فجاهدا بها حتى ماتا .

قالوا : ومنا عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وكان شريفا سيّدا ، وهو الذي قال معاوية لما قُتل حُجْر بن عدى وأصحابه : أين عزب منك حِلْمُ أبي سُفيان ، ألا حبستهم في السجون ، وعرضتهم للطاعون ! فقال حين غاب عنى مثلك من قومي . وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام هو الذي رَغِبَ فيه عثمان بن عفان وهو خليفة فزَّوجَه ابنته .

قالوا : ومنا أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، كان سيّدا جَوَاداً وفقها عالما ، وهو الذي قَدِمَ عليه بنو أسد بن خزيمه يسألونه في دِمَاءِ كانت بينهم ، فاحتَمَلَ عنهم أربعمئة بغير دية أربعة من القتلى ، ولم يكن بيده مال ، فقال لابنه عبد الله بن أبي بكر : اذهب إلى عمك المغيرة بن عبد الرحمن فاسأله المعونة ، فذهب عبد الله إلى عمه فذكر له ذلك ، فقال المغيرة : لقد أكبر علينا أبوك ، فأنصرف عنه عبد الله وأقام أيّاما

لَا يَذْكُرُ لِأَبِيهِ شَيْئًا ، وَكَانَ يَقُودُ أَبَاهُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقَدْ ذَهَبَ بِصَرُّهُ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ يَوْمًا :
أَذْهَبْتَ إِلَى عَمِّكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَسَكَتَ ، فَعَرَفَ حِينَ سَكَتَ أَنَّهُ لَنْ يَجِدَ عِنْدَ عَمِّهِ
مَا يُحِبُّ . فَقَالَ لَهُ : يَا بُنَيَّ أَلَا تُخْبِرُنِي مَا قَالُ لَكَ ؟ قَالَ : أَيْفَعَلُ أَبُو هَاشِمٍ - وَكَانَتْ كُنْيَةُ
الْمَغِيرَةِ - قَرِيبًا فَعَلَّ ، وَلَكِنْ أَعْدُدْ غَدًا إِلَى السُّوقِ فَخُذْ لِي عَيْنَةً ، فَعَدَا عَبْدُ اللَّهِ فَتَعَيَّنَ
عَيْنَةً مِنَ السُّوقِ لِأَبِيهِ وَبَاعَهَا ، فَأَقَامَ أَيَّامًا لَا يَبِيعُ أَحَدٌ فِي السُّوقِ طَعَامًا وَلَا زَيْتًا غَيْرَ
عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ تِلْكَ الْعَيْنَةِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ أَمْرَهُ أَبُوهُ أَنْ يَدْفَعَهَا إِلَى الْأَسَدِيِّينَ
فَدَفَعَهَا إِلَيْهِمْ .

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ خَصِيصًا بِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِابْنِهِ الْوَلِيدِ لَمَّا حَضَرَتْهُ
الْوَفَاةُ : إِنَّ لِي بِالْمَدِينَةِ صَدِيقَيْنِ فَاحْقُظْنِي فِيهِمَا : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو بَكْرٍ
ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هَاشِمٍ .

وَكَانَ يَقَالُ : ثَلَاثَةُ أَيْامٍ مِنْ قَرِيشٍ تَوَالَتْ بِالشَّرَفِ حَمْسَةٌ سَحْمَةٌ ، وَعَدَّوْا مِنْهَا أَبَا بَكْرٍ
ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هَاشِمٍ الْمَغِيرَةِ .

قَالُوا : وَمِنَّا الْمَغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هَاشِمٍ ، كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْمَالِ ،
وَأَطَمَمَهُمُ لِلطَّعَامِ ؛ وَكَانَتْ عَيْنُهُ أَصِيبَتْ مَعَ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي غَزْوَةِ الرُّومِ ، وَكَانَ
الْمَغِيرَةُ يَنْحَرُ الْجَزُورَ ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ حَيْثُ نَزَلَ ، وَلَا يَرِدُّ أَحَدًا ، فَجَاءَ قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ
فَجَلَسُوا عَلَى طَعَامِهِ ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمْ يُحِدُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَغِيرَةُ : مَا لَكَ تُحِدُّ النَّظَرَ
إِلَيَّ ؟ قَالَ : إِنَّ لِي رَيْنِي عَيْنُكَ وَسَمَّاكَ بِالطَّعَامِ ؛ قَالَ : وَمِمَّ ارْتَبْتَ ؟ قَالَ : أَظَنُّكَ
الدَّجَالَ ، لِأَنَّا رَوَيْنَا أَنَّهُ أَعْوَرَ ، وَأَنَّهُ أَطْعَمَ النَّاسَ لِلطَّعَامِ ، فَقَالَ الْمَغِيرَةُ : وَيَحْكُ ! إِنَّ
الدَّجَالَ لَا تُصَابُ عَيْنُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَلِلْمَغِيرَةِ يَقُولُ الْأَقْبَشُ الْأَسَدِيُّ لَمَّا قَدِمَ الْكَوْفَةَ
فَنَحَرَ الْجَزَرَ وَبَسَطَ الْأَنْطَاعَ وَأَطْعَمَ النَّاسَ ، وَصَارَ صِيَّتُهُ فِي الْعَرَبِ :

أَتَاكَ الْبَحْرُ طَمَّ عَلَى قَرِيشٍ مُعِيرَتِي فَقَدْ رَاعَ ابْنَ إِشِيرٍ^(١)
 وَرَاعَ الْجَدَى جَدَى التَّيْمِ لَمَّا رَأَى الْمَعْرُوفَ مِنْهُ غَيْرَ نَزَرٍ
 وَمِنْ أَوْتَارِ عُقْبَةٍ قَدْ شَفَانِي وَرَهْطَ الْحَاطِيَّ وَرَهْطَ صَخْرٍ
 فَلَا يَفْرُكُ حُسْنُ الرِّئَى مِنْهُمْ وَلَا سِرْحَ بَبْرُيُونٍ وَغَيْرِ^(٢)

فَأَبْنُ إِشِيرٍ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنِ إِشِيرٍ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ ، وَجَدَى التَّيْمِ : حَمَّادُ بْنُ عِمْرَانَ
 ابْنُ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَأَوْتَارُ عُقْبَةٍ يَعْنِي أَوْلَادَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَالْحَاطِيَّ
 لُقْمَانُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَاطِبِ الْجَمْحِيِّ ، وَرَهْطُ صَخْرٍ : بَنُو أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَكُلُّ
 هَؤُلَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ بِالْكُوفَةِ ، فَلَمَّا قَدِمَهَا الْمَغِيرَةُ أَخْلَجَ ذَكَرَهُمْ ، وَالْمَغِيرَةُ هَذَا هُوَ
 الَّذِي بَلَغَهُ أَنَّ سَلِيمَ بْنَ أَفْلَحٍ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ أَرَادَ أَنْ يَبِيعَ الْمَنْزَلَ الَّذِي نَزَلَ
 فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ عَلَى أَبِي أَيُّوبَ بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَأَرْسَلَ
 إِلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ إِيَّاهُ ، فَبَاعَهُ ، فَلَمَّا مَلَكَهُ جَعَلَهُ صَدَقَةً فِي يَوْمِهِ .

قَالَ الزَّيْرِيُّ : وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَطَافُ بِهِ بِالْكُوفَةِ عَلَى الْعِجْلِ ،
 وَكَانَ يَنْتَحَرِفُ كُلَّ يَوْمٍ جَزُورًا ، وَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ جَزُورَيْنِ . وَرَأَى يَوْمًا إِحْدَى جَفَنَاتِهِ
 مُكَلَّلَةً بِالسَّنَامِ تَكْلِيلًا حَسَنًا ، فَأَعْجَبَهُ ، فَسَأَلَ فَقَالَ : مَنْ كَلَّلَهَا ؟ قِيلَ : أَلَيْسَ ابْنُكَ ؟
 فَسُرَّ ، وَأَعْطَاهُ سِتِّينَ دِينَارًا .

وَمَرَّ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامٍ عَلَى بُرْدَةِ الْمَغِيرَةِ وَقَدْ أَشْرَقَتْ عَلَى الْجَفْنَةِ ، فَقَالَ لِعَبْدٍ مِنْ عِبِيدِ
 الْمَغِيرَةِ : يَا غَلَامَ ، عَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصَبْتُمْ هَذَا الثَّرِيدَ عَلَى الْعَمَدِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ عَلَى أَعْضَادِ
 الْإِبِلِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْمَغِيرَةَ ، فَأَعْتَقَ ذَلِكَ الْغَلَامَ .

وَالْمَغِيرَةُ هُوَ الَّذِي مَرَّ بِحَجْرَةِ الْأَعْرَابِ فَقَامُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا هَاشِمٍ ، قَدْ فَاضَ

(١) نِسْبَ قَرِيشٍ ٣٠٥ .

(٢) الْبَزْيُونُ ، بِالضَّمِّ : السَّنَدُسُ ، وَقَالَ ابْنُ بَرِّ : هُوَ رَقِيقُ الدِّيَابِجِ .

معروفك على الناس ، فابالنا أشقى الخلق بك ! قال : إنه لا مال معي ، ولكن خذوا هذا الغلام فهو لكم ، فأخذوه ، فبكى الغلام فقال : يا مولاي ، خدمتي وحرمتي ! فقال : أتبيعوني إياه ؟ قالوا : نعم ، فاشتراه منهم بمالٍ ثم أعتقه ، وقال له : والله لا أعرضك لمثلها أبدا ، اذهب فأنْتَ حرٌّ ، فلما عاد إلى الكوفة حمل ذلك المال إليهم .

وكان المغيرة يأمر بالسكر والجور فيدقان ويطعمهما أصحاب الصفة الساكنين ، ويقول : إنهم يشتهون كما يشتهي غيرهم ولا يمكنهم ، فخرج المغيرة في سفرٍ ومعه جماعة فورّدا غديراً ليس لهم ماء غيره - وكان ماعا - فأمر يقرب العسل فشقت في الغدير وخيضت بمائه ، فما شرب أحدٌ منهم حتى راحوا إلا من قرب المغيرة .

وذكر الزبير أن ابناً لهشام بن عبد الملك كان يسوم المغيرة ماله بالمكان المسمى بديما ، فلا يبيعه ، فغزا ابن هشام أرض الروم ومعه المغيرة ، فأصاب الناس جماعة في غزاتهم ، فجاء المغيرة إلى ابن هشام فقال : إنك كنت تسومني مالي بديع^(١) ؛ فآبى أن أبيعه ، فاشترى الآن مئتي نصفه بعشرين ألف دينار . فأطعم المغيرة بها الناس ، فلما رجع ابن هشام بالناس من غزوته تلك وقد بلغ هشام الخبر قال لابنه : قبح الله رأيك أنت أمير الجيش ، وابن أمير المؤمنين ، يصيب الناس معك جماعة فلا تطعمهم حتى يبيحك رجل سوقة ماله ، ويطعم به الناس ! ويحك أخشيت أن تفتقر إن أطعمت الناس !

قالوا : ولنا عكرمة بن أبي جهل الذي قام له رسول الله صلى الله عليه وآله قائماً ، وهو بعد مشرك لم يسلم ولم يقم رسول الله صلى الله عليه وآله لرجلٍ داخلٍ عليه من الناس شريف ولا مشركٍ ، إلا عكرمة ، وعكرمة هو الذي اجتهد في نصرته الإسلام بعد أن كان شديد العداوة ، وهو الذي سأله أبو بكر أن يقبل منه معونة على الجهاد فأبى ،

(١) بديع : ماء عليه نخيل وعيون جارية بقرب وادي القرى . ياقوت .

وقال : لا آخذ على الجهاد أجراً ولا معونة ، وهو الشهيد يوم أجنّادين ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا نسألنى اليوم شيئاً إلا أعطيتك » ، فقال : فإنى أسألك أن تستغفر لى ؛ ولم يسأل غير ذلك ، وكلّ قريش غيره سألوا المال ، كسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وغيرهما .

قالوا : ولنا الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ، كان شاعرا مجيدا مُكثرا ، وكان أمير مكة استعمله عليها يزيد بن معاوية .

ومن شعره :

مَنْ كَانَ يَسْأَلُ عَنَّا أَيْنَ مَنَزَلُنَا فَالْأَفْجَوَانَةُ مَنَا مَنَزَلُ قِمِين^(١)
إِذْ نَلْبَسُ الْعَيْشَ غَضًّا لَا يُكَدِّرُهُ قَرَبُ الْوُشَاةِ وَلَا يَنْبُونَا الزَّمَنُ
وأخوه عكرمة بن خالد كان من وجوه قريش ، وروى الحديث ، وروى عنه .

ومن ولد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة خالد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ، كان جواداً متلافاً ، وفيه قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ إِنْ الْمَجْدَ مَا عَاشَ خَالِدٌ عَلَى الْعُمُرِ مِنْ ذِي كِبْدَةٍ لَمَقِيمُ
وَتَنَدَى الْبَيْطَاحُ الْبَيْضُ مِنْ جُودِ خَالِدٍ وَيُخْصِبُنِ حَتَّى نَبْتِهِنَّ عَمِيمُ
قالوا : ولنا الأوقص ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن المغيرة ، كان قاضى مكة ، وكان فقيها .

قالوا : ومن قُدّماء المسلمين عبدُ الله بن أمية بن المغيرة أخو أمّ سلمة زوج رسول الله

(١) نسب قريش ٣١٣ ، معجم البلدان ١ : ٣٠٩ من غير نسبة . والأفجوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ ، كَانَ شَدِيدَ الْخِلَافِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ خَرَجَ مُهَاجِرًا ، وَشَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ وَحُنَيْنَ ، وَقُتِلَ يَوْمَ الطَّائِفِ شَهِيدًا .

وَالْوَلِيدُ بْنُ أُمَيَّةَ ، غَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اسْمُهُ ، فَسَمَّاهُ الْمُهَاجِرَ ، وَكَانَ مِنْ صُلَحَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

قَالُوا : وَمَنْ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، وَبُجَيْرُ بْنُ أَبِي رِيعةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، غَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اسْمُهُ ، فَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ ، كَانَا مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَعَبَّاسُ بْنُ أَبِي رِيعةَ ، كَانَ شَرِيفًا .

قَالُوا : وَمَنْ الْحَارِثُ الْقُبَاعُ ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رِيعةَ ، كَانَ أَمِيرَ الْبَصْرَةِ ، وَعَمْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رِيعةَ الشَّاعِرُ ، الْمَشْهُورُ ذِي الْغَزَلِ وَالتَّشْبِيبِ .

قَالُوا : وَمَنْ وَلَدَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رِيعةَ الْفَقِيهَ الْمَشْهُورَ ، وَهُوَ الْمَغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ ، كَانَ فَقِيهَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وَعَرَّضَ عَلَيْهِ الرَّشِيدُ جَازَةً أَرْبَعَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، فَامْتَنَعَ وَلَمْ يَقْبَلْهُ الْقَضَاءُ .

قَالُوا : وَمَنْ يَعِدُّ مَا تَعَدَّهُ مَخْزُومٌ وَلَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ سَيْفُ اللَّهِ ! كَانَ مُبَارَكًا ، مَيِّمُونَ النَّقِيبَةَ شُجَاعًا ، وَكَانَ إِلَيْهِ أَعِنَّةُ الْخَيْلِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَشَهِدَ مَعَهُ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَجُرِحَ يَوْمَ حُنَيْنَ ، فَنفَتْ رُسُلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى جُرْحِهِ فَبَرَأَ ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ مُسَيْلِمَةَ وَأَسْرَ طَلْحِيحَةَ وَمَهْدً خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ ؛ وَقَالَ يَوْمَ مَوْتِهِ : لَقَدْ شَهِدْتُ كَذًا وَكَذَا زَحْفًا ، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعٌ إِصْبَعٌ إِلَّا وَفِيهِ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ ، وَهَآنَذَا أَمُوتُ عَلَى فَرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعَمِيرُ ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبَنَاءِ ! وَمَرَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى دُورِ بَنِي مَخْزُومٍ وَالنِّسَاءِ يَنْدُبُنَ خَالِدًا ، وَقَدْ وَصَلَ خَبْرُهُ إِلَيْهِمْ

وكان مات بِحِمَص ، فوقف وقال : ما على النساء أن يندبن أبا سليمان ، وهل تقوم حُرّة
عن مثله ! ثم أنشد :

أتبكي ما وصلت به الندى ولا تبكي فوارس كالجبال
أولئك إن بكيت أشدُّ فقدًا من الأنعام والعكر الحلال^(١)
تمنّى بدمهم قومٌ مداهمُ فما بلغوا لِنِياتِ الكمالِ

وكان عمرو مُبِغَضًا لخالد ، ومنحرفا عنه ، ولم يمنعه ذلك من أن صدق فيه .

قالوا : ومنا الوليد بن الوليد بن المغيرة ، كان رجلَ صِدْقٍ من صُلَحَاءِ المسلمين .
ومنا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان عظيمَ القَدْرِ في أهل الشام ، وخاف معاوية
منه أن يثب على الخلافة بعدهم ، فسَمَّه ؛ أمر طبيا له يُدعى ابن أثال فسقاه فقتله .
وخالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد قاتل ابن أثال بعمه عبد الرحمن والمخالف على بنى أمية ،
والمنقطع إلى بنى هاشم . وإسماعيل بن هشام بن الوليد كان أمير المدينة . وإبراهيم ومحمد
ابنا هشام بن عبد الملك . وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، وكان من رجال
قريش ، ومن ولده هشام بن إسماعيل بن أيوب وسلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، ولى
شُرطة المدينة .

قالوا : ومن ولد حَفْص بن المغيرة عبدُ الله بن أبي عمر بن حفص بن المغيرة ، هو
أول خلق الله حاجَّ يزيد بن معاوية .

قالوا : ولنا الأزرَق ، وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس
ابن المغيرة وإلى اليمين لابن الزبير ، وكان من أجود العرب ، وهو ممدوح أبي دَهَبَل
الجمحي .

(١) العكر : مافوق الحماسة من الإبل .

(٢) في د : « الناس » .

قالوا : ولنا شريك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو عبد الله بن السائب بن أبي السائب ، واسم أبي السائب صَيْفِيّ بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، كان شريك النبي صلى الله عليه وآله في الجاهلية ، فجاءه يوم الفتح فقال له : أتعرفني ؟ قال : ألت شريكى ؟ قال : بلى ، قال : لقد كنت خير شريك ، لا تُشارى ولا تُمارى .

قالوا : ومنا الأرقم بن أبي الأرقم الذى استتر رسول الله فى داره بمكة ، أوّل الدعوة ، واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومنا أبو سلمة بن عبد الأسد ، واسمه عبد الله ، وهو زوج أمّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، قَبِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، شهد أبو سلمة بدرًا ، وكان من صلحاء المسلمين .

قالوا : لنا هُبَيْرَة بن أبى وهب ، كان من الفُرسان المذكورين ؛ وابنه جَمْدَة بن هُبَيْرَة ؛ وهو ابن أخت على بن أبى طالب عليه السلام ، أمه أم هانىء بنت أبى طالب ، وابنه عبد الله ابن جمدة ابن هُبَيْرَة هو الذى فتح القُهندر وكثيرا من خُراسان ، فقال فيه الشاعر :

لولا ابنُ جمدة لم تُفْتَحْ قُهندركم ولا خراسانُ حتى ينفعُ الصُورُ

قالوا : ولنا سعيد بن المسيّب الفقيه المشهور . وأما الجواد المشهور فهو الحكم بن المطلب ابن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم .

وقد اختصرنا واقتصرنا على من ذكرنا ، وتركنا كثيرا من رجال مخزوم خوف الإسهاب .

وينبغى أن يقال فى الجواب : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقارا لهم ، ولا استصغارا لشأنهم ، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر همه يوم المفاخرة أن يفاخر بنى عبد شمس لما بينه وبينهم ، فلما ذكر مخزوما بالمرّض قال فيهم ما قال ، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم ، على أنّ أكثر هؤلاء الرجال إسلاميون بعد عصر على عليه السلام ، وعلى عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من بعده .

فإن قلت : إذا كان قد قال في بني عبدِ شمس إنهم أَمْنَعُ لِمَا وراءَ ظهورهم ، ثم قال في بني هاشم : إنهم أَمْنَحُ عند الموت بنفوسهم ، فقد تناقض الوصفان .

قلتُ : لا مُناقضةَ بينهما ، لأنه أراد كثرة بني عبدِ شمس ، فبالكثرة تمنع ما وراء ظهورها ، وكان بنو هاشم أقلَّ عددا من بني عبدِ شمس ، إلا أن كلَّ واحد منهم على انفراده أشجع وأَمْنَحُ بنفسه عند الموت من كلِّ واحد على انفراده من بني عبدِ شمس ، فقد بان أنه لا مناقضة بين القولين .

(١١٧)

الأصل :

شَتَان مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ ؛ عَمَلٍ تَذْهَبُ لِدَّتْهُ ، وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ ؛ وَعَمَلٍ تَذْهَبُ
مَوُوتُهُ ، وَتَبْقَى أَجْرُهُ .

* * *

الشرح :

أخذ هذا المعنى بعض الشعراء ، فقال :

تُفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ بُغْيَتَهُ من الحرام ويبقى الإثمُ والمارُ
تُبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَقْبَرَتِهَا لاخيرَ في لذّةٍ من بعدها النارُ

(١١٨)

الأضل :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً فَسَمِعَ رَجُلًا يَضْحَكُ ، فَقَالَ :
كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ ، وَكَأَنَّ
الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَانَهُمْ ،
وَنَأْكُلُ ثَرَانَهُمْ ، كَأَنَّا مُخْلَدُونَ بَعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ ، وَرُمِينَا
بِكُلِّ جَائِحَةٍ .

طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ ، وَطَابَ كَسْبُهُ ، وَصَلَحَتِ سِرِيرَتُهُ ، وَحَسُنَتْ خَاطِبَتُهُ ،
وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ،
وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى بِدْعَةٍ .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أَقُولُ : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَلْسُبُ هَذَا الْكَلَامَ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

الْيَنْرَح :

الأشهر الأكثر في الرواية أن هذا الكلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله
ومثل قوله : « كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ » قول الحسن عليه السلام : مَا رَأَيْتُ حَقًّا
لَا بَاطِلَ فِيهِ أَشْبَهَ بِاطِلٍ لَا حَقَّ فِيهِ مِنَ الْمَوْتِ ؛ وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي بَعْدَهُ وَاضِحَةٌ لَيْسَ فِيهَا
مَا يُشْرَحُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَظَائِرِهَا .

(١١٩)

الأصل :

غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ .

الشرح :

الرجع في هذا إلى العقل والتماسك ، فلما كان الرجل أعقل وأشدّ تماسكاً كانت غَيْرَتُهُ في موضعها ، وكانت واجبةً عليه ، لأنّ النهي عن المنكر واجب ، وفعل الواجبات من الإيمان ، وأما المرأة فلما كانت أنقصَ عقلاً وأقلَّ صَبْرًا كانت غَيْرَتُهَا على الوهم الباطل والخيال غير المحقّق ، فكانت قبيحةً لوقوعها غير موقعها ، وسمّاها عليه السلام كُفْرًا لمشاركتها الكُفْرَ في القُبْحِ فأجرى عليها اسمه .

وأیضا فإن المرأة قد تؤدّي بها الغيرةُ إلى ما يكون كُفْرًا على الحقيقة كالسّحر ، فقد ورّد في الحديث المرفوع أنه كُفْرٌ ، وقد يُفَضَى بها الضّجّر والقلق إلى أن تتسَخّط وتشتّم وتتلفّظ بألفاظٍ تكون كُفْرًا لا محالة .

(١٢٠)

الأصل :

لأنَّ سَبَنَ الإسلامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي . الإسلامُ هُوَ التَّسْلِيمُ ، والتَّسْلِيمُ هُوَ
الْيَقِينُ ، والْيَقِينُ هُوَ التَّصَدِيقُ ؛ والتَّصَدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ ، والإِقْرَارُ هُوَ الأدَاءُ ، والأدَاءُ
هُوَ الْعَمَلُ .

الشرح :

خلاصةُ هذا الفصل تقتضى صحةَ مذهب أصحابنا المعتزلة في أنَّ الإسلامَ والإيمانَ عبارتَانِ
عن معبَّر واحد ، وأنَّ العملَ داخلٌ في مفهومِ هذه اللفظة ، ألا تراه جَعَلَ كلَّ واحدةٍ من
اللفظَاتِ قائمةً مقامَ الأخرى في إفادة المفهوم ، كما تقول : اللَّيْثُ هُوَ الْأَسَدُ وَالْأَسَدُ هُوَ السَّبْعُ ،
والسبعُ هُوَ أبو الحارث ! فلا شُبْهَةَ أَنَّ اللَّيْثَ يَكُونُ أبا الحارث ؛ أى أَنَّ الْأَسْمَاءَ مترادفةٌ ،
فإذا كان أولُ اللفظَاتِ الإسلامَ ، وآخرها العملَ ، دَلَّ على أَنَّ العملَ هُوَ الإسلامُ ؛ وهكذا
يقول أصحابنا : إِنَّ تَارَكَ العملَ وتَارَكَ الواجبَ لَا يَسْمَى مسلماً .

فإن قلت : هَبْ أَنَّ كَلَامَهُ عليه السلامَ يدلُّ على ما قلت ، كيف يدلُّ على أَنَّ الإسلامَ
هو الإيمان ؟

قلت : لَأَنَّهُ إِذَا دَلَّ على أَنَّ العملَ هُوَ الإسلامَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ هُوَ الإسلامَ لِأَنَّ
كلَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ العملَ داخلٌ في مُسَمَّى الإسلامَ ؛ قَالَ : إِنَّ الإسلامَ هُوَ الإيمانُ ،

فأقول بأنَّ العمل داخلٌ في مسمّى الإسلام ، وليس الإسلام هو الإيمان ، قول لم يُقَلَّ به أحد ؛ فيكون الإجماع واقعا على بطلانه .

فإن قلتَ : إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل كما تقوله المعتزلة ، لأنَّ المعتزلة تقول : الإسلام اسمٌ واقعٌ على العمل وغيره من الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وأمير المؤمنين عليه السلام جَمَلَ الإسلام هو العمل فقط ، فكيف ادَّعيتَ أنَّ قولَ أمير المؤمنين عليه السلام يُطابق مذهبهم ؟

قلت : لا يجوز أن يريد غيره ، لأنَّ لفظ العمل يشمل الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وحركات الأركان بالعبادات ، إذ كلُّ ذلك عملٌ وفِعْلٌ ، وإن كان بعضه من أفعال القلوب ، وبعضه من أفعال الجوارح ، ولو لم يُردَّ أمير المؤمنين عليه السلام ما شرَحْنَاهُ لكان قد قال : الإسلام هو العمل بالأركان خاصة ، ولم يعتبر فيه الاعتقاد القلبيّ ، ولا النطق اللفظيّ ، وذلك مما لا يقوله أحد .

(١٢١)

الأضل :

عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعِجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِتَاهُ
طَلَبَ ، فَيَمِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ ، وَيُحَاسِبُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ ،
وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً ، وَيَكُونُ غَدًا جِيفَةً ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ
شَكََّ فِي اللَّهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى مَنْ يَمُوتُ ،
وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النِّشْأَةَ الْآخِرَى وَهُوَ يَرَى النِّشْأَةَ الْأُولَى ، وَعَجِبْتُ لِمَا مَرَّ
دَارَ الْفَنَاءِ ، وَتَارَكَ دَارَ الْبَقَاءِ .

الْبَرْخ :

قال أعرابي : الرِّزْقُ الواسِعُ لِمَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ بِمَنْزِلَةِ الطَّامِرِ الْمَوْضُوعِ عَلَى قَبْرِ .
ورأى حكيمٌ رجلاً مُثْرِيًّا يَا كُلَّ خُبْرًا وَمِلْحًا ، فقال : لِمَ تَفْعَلُ هَذَا ؟ قال : أَخَافُ الْفَقْرَ ،
قال : فَقَدْ تَعَجَّلْتَهُ . فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي الْكِبَرِ وَالتَّيِّهِ فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ ؛ وَقَالَ
ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : مَا تَاهَ عَلَى أَحَدٍ قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى شَاعِرٌ
فَقَالَ وَأَحْسَنَ :

هذه منك فإن عُذَّتْ إِلَى الْبَابِ فَنُتِي

وقد تقدّم من كلامنا في نظائر هذه الألفاظ المذكورة ما يُغْنِي عن الإطالة ها هنا .

(١٢٢)

الأصل :

مَنْ قَصَرَ فِي الْعَمَلِ ، ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ .

الشَّرْحُ :

هذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين ، والاعتقاد الصحيح ، فإنهم الذين إذا قَصَرُوا في العمل ابتلوا بالهم ، فأما غيرهم من المُسْرِفين على أنفسهم وذوى النقص في اليقين والاعتقاد ، فإنه لا همَّ يَعْرِوهُمْ وإن قَصَرُوا في العمل ، وهذه الكلمة قد جَرَّبْنَاهَا من أنفسنا فوجدنا مصداقها واضحا ، وذلك أن الواحد منا إذا أخلَّ بفريضة الظهر مثلا حتى تغيب الشمس وإن كان أخلَّ بها لِعُذْرٍ وَجَدَ ثِقَلًا في نفسه وكَسَلًا وَقِلَّةَ نَشَاطٍ ، وكأنه مشكولٌ بِشِكَالٍ أَوْ مَقِيدٌ بِقَيْدٍ ، حتى يقضى تلك الفريضة ، فكأنما أُنْشِطَ من عقال .

(١٢٢)

الأُضَلُّ :

لَا حَاجَةَ لِلَّهِ فِيمَنْ لَيْسَ لِلَّهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

الشَّجَرُ :

قد جاء في الخبر المرفوع : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فِي مَالِهِ أَوْ فِي نَفْسِهِ » .
وجاء في الحديث المرفوع : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَسَدٍ لَا يَمْرُضُ ، وَمِنْ مَالٍ لَا يُصَابُ » .

وروى عبد الله بن أنس عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَصِحَّ فَلَا يَسْقَمَ ؟ » ، قالوا : كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : « أَتُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمْرِ الصَّائِلَةِ ؛ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا أَصْحَابَ بَلَايَا وَأَصْحَابَ كَفَّارَاتٍ ! وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونَ لَهُ الدَّرَجَةُ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَبْلُغُهَا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ فَيَبْتَلِيهِ اللَّهُ لِيُبْلِغَهُ اللَّهُ دَرَجَةً لَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ » .

وفي الحديث أيضا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمْرُضُ مَرَضًا إِلَّا حَتَّ اللَّهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تَحْتُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا » .

وروى أبو عثمان النهدي قال : دخل رجل أعرابي على رسول الله صلى الله عليه وآله فوجَّهه عظيم ، فقال له : مَتَى عَهْدُكَ بِالْحَمَى ؟ قال : مَا أَعْرِفُهَا ، قال : بِالصَّدَاعِ ،

قال : ما أدرى ما هو ؟ قال : فَأُصِيبَتْ بِمَالِكٍ ؟ قال : لا ، قال : فَرُزْتُ بِوَكْدِكَ ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : « إِنْ اللَّهُ لَيَكْرَهُ الْعِفْرَةَ النَّفْرَةَ الَّتِي لَا يُرْزَأُ فِي وَلَدِهِ وَلَا يُصَابُ فِي مَالِهِ » .

وجاء في بعض الآثار : « أَشَدُّ النَّاسِ حَسَابًا الصَّحِيحُ الْفَارِغُ » .
وفي حديث حذيفة رضى الله عنه : إِنْ أَقْرَبَ يَوْمَ لِمَعْنَى لَيْوَمٍ لَا أَجِدُ فِيهِ طَعَامًا ، سمعتُ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وآله يقول : « إِنْ اللَّهُ لَيَتَعَاهَدَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَتَعَاهَدُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ بِالطَّعَامِ ، وَإِنْ اللَّهُ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ الْمَرِيضَ مِنَ الطَّعَامِ » .

وفي الحديث المرفوع أيضا : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ ، فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبُّ الْبَالِغُ اقْتَنَاهُ » قالوا : وما اقْتَنَاهُ ؟ قال : « أَلَّا يَتْرُكْ لَهُ مَالًا وَلَا وَلَدًا » .

مرَّ موسى عليه السلام برجل كان يعرفه مطيما لله قد مَزَقَتِ السَّبَاعُ لَحْمَهُ وَأَضْلَاعَهُ ، وَكَبِدُهُ مَلَقَاةٌ ، فَوَقَّفَ مَتَعَجِّبًا فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، عَبْدُكَ الطَّيِّعُ لَكَ ابْتِلَايَتِهِ بِمَا أَرَى ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنَّهُ سَأَلَنِي دَرَجَةً لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ، فَجَعَلْتُ لَهُ بِمَا تَرَى سَبِيلًا إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَةِ .
رجاء في الحديث : « إِنْ زَكْرِيَّا لَمْ يَزَلْ يَرَى وَلَدَهُ يَحْمِي مَغْمُومًا بِأَكْيَا مَشْغُولًا بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ طَلَبْتُ مِنْكَ وَلَدًا أَنْتَفِعَ بِهِ فَرَزَقْتَنِيهِ لَا نَفْعَ لِي فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ طَلَبْتَهُ وَلَيَّا ، وَالْوَلَى لَا يَكُونُ إِلَّا هَكَذَا ، مِسْقَامًا فَقِيرًا مَهْمُومًا .

وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : كَانُوا لَا يَعْدُونَ الْفَقِيهَ فَقِيهًا مَنْ لَا يَعُدُّ الْبَلَاءَ نِعْمَةً وَالرَّخَاءَ مُصِيبَةً .

جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَرْفَعُهُ : « يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ لِحُومَهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ » .

(١٢٤)

الأضل :

تَوَقَّوْا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الْأَبْدَانِ كِفَعْلِهِ
فِي الْأَشْجَارِ ، أَوَّلُهُ يُجْرَقُ ، وَآخِرُهُ يُورِقُ .

الشَّنْحُ :

هذه مسألةٌ طبيعِيَّةٌ قد ذَكَرَهَا الْحِكَمَاءُ ، قَالُوا : لَمَّا كَانَ تَأْثِيرُ الْخَرِيفِ
فِي الْأَبْدَانِ ، وَتَوَلِيدُهُ الْأَمْرَاضَ كَالزُّكَامِ وَالشُّعَالَ وَغَيْرِهَا أَكْثَرَ مِنْ تَأْثِيرِ الرَّبِيعِ ،
مَعَ أَنَّهَا جَمِيعًا فَضْلًا اعْتَدَالٌ ، وَأَجَابُوا أَنَّ بَرْدَ الْخَرِيفِ يَفْجَأُ الْإِنْسَانَ وَهُوَ مَعْتَادٌ
لِحَرِّ الصَّيْفِ فَيَنْكَأُ فِيهِ ، وَيُسَدُّ مَسَامَ دِمَاغِهِ ، لِأَنَّ الْبَرْدَ يَكْتُفُ وَيَسُدُّ الْمَسَامَ
فَيَكُونُ كَمَنْ دَخَلَ مِنْ مَوْضِعٍ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ إِلَى خَيْشٍ بَارِدٍ .

فَأَمَّا الْمُنْتَقِلُ مِنَ الشِّتَاءِ إِلَى فَصْلِ الرَّبِيعِ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ بَرْدُ الرَّبِيعِ يُؤْذِيهِ ذَلِكَ الْأَذَى
لَأَنَّهُ قَدْ اعْتَادَ جِسْمُهُ بَرْدَ الشِّتَاءِ ، فَلَا يُصَادِفُ مِنْ بَرْدِ الرَّبِيعِ إِلَّا مَا قَدْ اعْتَادَ مَا هُوَ
أَكْثَرُ مِنْهُ ، فَلَا يَظْهَرُ لِبَرْدِ الرَّبِيعِ تَأْثِيرٌ فِي مِزَاجِهِ ، فَأَمَّا لِمَ أَوْرَقَتِ الْأَشْجَارُ وَأَزْهَرَتْ
فِي الرَّبِيعِ دُونَ الْخَرِيفِ ؟ فَلَمَّا فِي الرَّبِيعِ مِنَ الْكَيْفِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا مَنَبَّعُ النُّوِّ وَالنَّفْسِ النَّبَاتِيَّةِ ،
وَهِيَ الْحَرَارَةُ وَالرَّطُوبَةُ وَأَمَّا الْخَرِيفُ نَحَالٌ مِنْ هَاتَيْنِ الْكَيْفِيَّتَيْنِ وَمُسْتَبَدِلُ بَهُمَا ضِدُّهُمَا ،

وهما البرودة واليبس المنافيان للنشوء وحياة الحيوان والنبات . فأما لم كان الخريف باردا يابسا والربيع حارّا رطباً مع أنّ نسبة كلّ واحد منهما إلى الفصلين الخارجين عن الاعتدال وهما الشتاء والصيف نسبةً واحدة ؟ فإنّ تعليل ذلك المذكور في الأصول الطبية ؛ والكتب الطبيّة ، وليس هذا الموضع ممّا يحسن أن يُشرح فيه مثلاً ذلك .

(١٢٥)

الأفضل :

عُظُمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغَّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَمَلِكَ .

الْبُخ :

لا نِسْبَةَ للمخلوق إلى الخالق أصلاً وخصوصاً البشر ، لأنهم بالنسبة إلى فلَك القمر كالذرة ، ونسبة فلَك القمر كالذرة بالنسبة إلى قرص الشمس ، بل هم^(١) دون هذه النسبة ممّا^(٢) يَعْجَزُ الحاسبُ الحاذِقُ عن حساب ذلك ، وفلَك القمر بالنسبة إلى الفلَك المحيط دون هذه النسبة ، ونِسْبَةُ الفلَك المحيط إلى الباري سبحانه كنِسْبَةِ العدم المحض والتّفى الصرف إلى الموجود البائن ، بل هذا القياس أيضا غيرُ صحيح ، لأنّ المدوم يُمكن أن يصير موجودا بائنا ، والفلَك لا يتصور أن يكون صانع العالم الواجب الوجود لذاته .

وعلى الجملة فالأمرُ أعظم من كلّ عظيم ، وأجلُّ من كلّ جليل ، ولا طاقة للعقول والأذهان أن تعبر عن جلاله ذلك الجناب وعظَمَتِهِ ، بل لو قيل ؛ إنّها لا طاقة لها أن تعبر عن جلالِ مصنوعاته الأولى المتقدّمة علينا بالرّتبة العقليّة والزمانيّة لكان ذلك القولُ حقّاً وصدّقاً ، فَمَنْ هو المخلوق ليقال : إنّ عَظَمَ الخالقِ يصغّره في العين ؛ ولكنّ كلامه عليه السلام محمولٌ على مخاطبة العامة الذين تَضَيّقُ أفهامُهُم عمّا ذكّرناه .

(١) سائط من ا ، ب . (٢) ب : « بما » .

(١٢٦)

الأضل :

وقال عليه السلام ، وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ :
يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفَرَةِ ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ . يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ ،
يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ . يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ ، وَنَحْنُ
لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سَكِنَتْ ، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ ،
وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ ، هَذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا ، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ ؟

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ :

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ ، لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

الشنخ :

الفرط : المتقدمون ؟ وقد ذكرنا من كلام عمر ما يُناسب هذا الكلام ، لَمَّا ظَعَنَ
فِي الْقُبُورِ وَعَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ أَحْمَرَ الْوَجْهِ ، ظَاهِرَ الْمُرُوقِ ، قَالَ : قَدْ وَقَفْتُ عَلَى قُبُورِ الْأَحِبَّةِ
فَنَادَيْتُهَا الْحَدِيثَ . . . إِلَى آخِرِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : فَهَلْ أَجَابْتِكِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِنَّ خَيْرَ
الزَّادِ التَّقْوَى .

وقد جاء في حديث القبور وخطبتها وحديث الأموات وما يتعلق بذلك شيء كثير .
يَتَجَاوَزُ الْإِحْصَاءَ .

وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله أبا ذر رضي الله عنه : زُر القبورَ تذكُر بها الآخرة
ولا تَزُرْها ليلاً ، وغسّل الموتى يتحرك قلبك ، فإن الجسد الخاوي^(١) عِظَةٌ بليغة ، وصل
على الموتى فإن ذلك يُحَرِّثُكَ ، فإن الحزين في ظلّ الله .

وُجِدَ على قبرٍ مكتوباً :

مقيمٌ إلى أن يبعثَ الله خَلَقَهُ لِقَاؤُكَ لا يُرْجَى وأنت رقيبٌ

تَزِيدُ بلى في كلِّ يومٍ وليلةٍ ونُسى كما تَبَلَى وأنت حبيبٌ

وقال الحسن عليه السلام : مات صديق لنا صالح ، فدفنناه ومددنا على القبر ثوباً ، فجاء
صِلَةَ بنُ أَشِيم ، فرَفَعَ طرفَ الثوب ونادى : يا فلان :

إِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخْلَاكَ نَاجِيَا

وفي الحديث الرفوع ، أَنَّهُ عليه السلام كان إِذَا تَبِعَ الْجَنَازَةَ أَكْثَرَ الصَّهَاتِ^(٢) ؛ ورُئِيَ
عليه كَأَنَّهُ ظَاهِرَةٌ ، وَأَكْثَرَ حَدِيثِ النَّفْسِ .

سَمِعَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رجلاً يقول في جنازة : من هذا ؟ فقال : أنت ، فإن
كرهتَ فَأَنَا .

سَمِعَ الحسنُ عليه السلام أُمْرَأَةً تَبْكِي خَلْفَ جَنَازَةٍ ، وتقول : يا أَبَتاه ، مِثْلَ يَوْمِكَ لم
أَرَهُ ! فقال : بل أبوك مِثْلَ يَوْمِهِ لم يَرَهُ .

وكان مكحولٌ إِذَا رَأَى جَنَازَةً قال : اغدُ فَإِنَّا رَاْمِحُونَ .

وقال ابنُ شَوْذَب : أَطْلَعَتْ أُمْرَأَةٌ صَالِحَةٌ فِي لَحْدٍ فَقَالَتْ لِأُمْرَأَةٍ مَعَهَا : هَذَا كُنْدُوجُ
الْعَمَلِ - يَعْْنِي خِزَانَتَهُ . وَكَانَتْ تُعْطِيهَا الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ تَأْمُرُهَا أَنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ ، فَتَقُولُ :
اذْهَبِي فَضْعِي هَذَا فِي كُنْدُوجِ الْعَمَلِ .

(١) الخاوي : الخالي من الروح . (٢) الصهات ، مصدر صمت .

شاعر :

أجازعة رُدِينُهُ أَنْ أتاها نَعِيَّيْ أَمْ يَكُونُ لَهَا أَصِطْبَارُ !
 إِذَا مَا أَهْلُ قَبْرِى وَدَّعُونِ وراخُوا والأَكُفَّ بِهَا غُبَارُ
 وَغُودِرَ أَعْظَمِي فِي لَحْدِ قَبْرِى تُراوِخُهُ الجَنَائِبُ والقِطَارُ
 تَهْبُ الرِّيحُ فَوْقَ مَحْطِّ قَبْرِى وَيَرَعَى حَوْلَهُ اللَّهْقُ النُّوَارُ^(١)
 مَقِيمٌ لَا يُكَلِّمُنِي صَدِيقٌ بِقَفَرٍ لَا أَزُورُ وَلَا أَزَارُ
 فَذَلِكَ النَّأْيُ لَا الْمِجْرَانُ حَوْلًا وَحَوْلًا ثُمَّ تَجْتَمِعُ الدِّيَارُ

وقال آخر :

كَأَنِّي بِإِخْوَانِي عَلَى حَافَتِي قَبْرِى يَهِيلُونَهُ فَوْقَ وَأُدْمَعُهُمْ تَجْرَى
 فَيَأْتِيهَا الْمَذْرَى عَلَى دُمُوعِهِ سَتُعْرِضُ فِي يَوْمِينَ عَنِّي وَعَنْ ذِكْرِي
 عفا الله عَنِّي يَوْمَ أَتْرَكَ ثَاوِيًّا أَزَارُ فَلَا أَذْرِي وَأُجْفِي فَلَا أَذْرِي

وجاء في الحديث المرفوع : « ما رأيتُ مَنْظَرًا إِلَّا والقبرُ أفضع منه » .

وفي الحديث أيضا : « القبر أولُ منزلٍ من منازلِ الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر ، ومن لم ينج منه فما بعده شرُّ منه » .

(١) اللهق بالتحريك : الثور الأبيض ، والنوار : الناشز .

(١٢٧)

الأفضل:

وقال عليه السلام وقد سمع رجلا يذم الدنيا :

أُثِمَّهَا الدَّامُ لِلدُّنْيَا ، الْمُتَمَرُّ بِفُرُورِهَا ، الْمُنْخَدِعُ بِأَطْلِيلِهَا ؛ أَتَفْتَنُ بِهَا ثُمَّ تَذُمُّهَا !
أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ ، أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ !
أَعِصَارِعُ آبَائِكَ مِنَ الْبَلَى ، أَمْ بِمَصَاجِعِ أُمَمَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ! كَمْ عَلَّتْ بِكَفِّكَ ،
وَكَمْ مَرَضَتْ بِيَدَيْكَ ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ ؛ غَدَاةَ لَا يُغْنِي
عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ ، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاءُكَ !

لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاؤُكَ ، وَلَمْ تُسَعِفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ،
وَقَدْ مَثَلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ ، وَبِعَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ .

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنَى لِمَنْ
تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا . مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ ،
وَمَهْمِطُ وَحْيِ اللَّهِ ، وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ؛ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ ،
فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا ، وَقَدْ آذَنْتَ بَيْنَهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا ، فَمَثَلَتْ
لَهُمْ بِبَلَاءِهَا الْبَلَاءَ ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى الشُّرُورِ !

رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا ، وَتَخْوِيفًا وَتَحْذِيرًا ،

فَذَمَّهَا رِجَالُ غَدَاةِ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَتْهُمْ الدُّنْيَا فَذَكَرُوا؛
وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَّظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

الشرح :

تجرّمتُ على فلان : ادّعتُ عليه جُرمًا وذنبا ؛ وأستهواه كذا : استزله .
وقوله عليه السلام : « فَنُتَاتُ لَهُمْ بِلَاثُهَا الْبَلَاءُ » ، أى بلاء الآخرة وعذاب جهنم ،
وشوّفتهم بسرورها إلى السرور ، أى إلى سُرور الآخرة ونعيم الجنة .
وهذا الفصل كلّهُ لمدح الدنيا ، وهو ينبي عن اقتداره عليه السلام على ما يريد من المعاني ،
لأنّ كلامه كلّهُ في ذمّ الدنيا ، وهو الآن يمدحها ، وهو صادقٌ في ذلك وفي هذا ؛ وقد جاء
عن النبي صلى الله عليه وآله كلام يتضمّن مدح الدنيا أو قريبا من المدح ، وهو قوله عليه
السلام : « الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَصِيْرَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بُوْرِكَ لَهُ فِيهَا » .

واحتذى عبدُ الله بنُ المعتز^(١) حَذْوُ أمير المؤمنين عليه السلام في مدح الدنيا فقال في
كلامه : الدُّنْيَا دَارُ التَّأْدِيبِ^(٢) والتعريف ، التي بِمَكْرُوْهِهَا تَوْصَلُ إِلَى مَحْبُوبِ الْآخِرَةِ ، ومضمار
الأعمال ، السابقة بأصحابها إلى الجنان ، ودرجة الفوز التي يَرْتَقِي عليها الْمُتَّقُونَ إلى دارِ الْخُلْدِ ،
وهي الواعظة لمن عَقَلَ ، والنّاصحة لمن قَبِلَ ، وبِسَاطِ الْمَهَلِّ ، ومِئْدَانِ الْعَمَلِ ، وقاصِمةُ الْجَبَّارِينَ ،
ومُلْحِقَةُ الرَّغَمِ مَعَاطِسَ الْمُتَكَبِّرِينَ ، وكاسيةُ التُّرَابِ أَبْدَانَ الْمُخْتَلِينَ ، وصارعةُ الْمُفْتَرِّينَ ،
ومفرقةُ أَمْوَالِ الْبَاخِلِينَ ، وقاتلةُ الْقَاتِلِينَ ، والمادلةُ بِالْمَوْتِ عَلَى جَمِيعِ الْمَالَمِينَ ، وناصرةُ الْمُؤْمِنِينَ ،
ومُيِيرَةُ الْكَافِرِينَ . الحسنات فيها مضاعفةٌ ، والسيئات بآلامها محجوةٌ ، ومع عُسرِها
يُسْرَانُ ، والله تعالى قد ضَمِنَ أَرْزَاقَ أَهْلِهَا ، وَأَقْسَمَ فِي كِتَابِهِ بِمَا فِيهَا ، وَرَبُّ طَيِّبَةِ

(١) د : « المفيرة » . (٢) د : « التأديب » .

— ٣٢٧ —

من نعيمها قد حمد الله عليها فتلقاها أيدي الكتبة ووجبت بها الجنة ؛ وكم نائية من نوائبها ، وحادثه من حوادثها ، قد راضت الفهم ، ونبتت الفطنة ، وأذكت التريجة ، وأفادت فضيلة الصبر ، وكثرت ذخائر الأجر .

ومن الكلام المنسوب إلى علي عليه السلام : الناس أبناء الدنيا ، ولا يُلام المرء على حب أمه ، أخذه محمد بن وهب الحميري فقال :
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها وما كنت منه فهو شيء محبب

(١٢٨)

الأضل :

إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لِدُّوَا لِلْمَوْتِ ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ .

الشرح :

هذه اللام عند أهل العربية تسمى لام العاقبة ، ومثُلُ هذا قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (١) ، ليس أنهم التقطوه لهذه العلة ، بل التقطوه فكان عاقبة التقاطهم إيَّاه العداوة والحزن ، ومثله :

* فَلِلْمَوْتِ مَا تَأْتِيُ الْوَالِدَةَ *

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ (٢) ؛ ليس أنه ذرأهم ليعذبهم في جهنم ، بل ذرأهم وكان عاقبة ذرئهم أن صاروا فيها ، وبهذا الحرف يحصل الجواب عن كثير من الآيات المتشابهة التي تتعلق بها المجيزة .

وأما فحوى هذا القول وخلاصته فهو التنبيه على أن الدنيا دارُ فناء وعطب ، لا دارُ بقاء وسلامة ، وأن الولد يموت ، والدُّور تُخرَّب ، وما يُجمع من الأموال يَفْنَى .

(١٣٩)

الأضل :

الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍ ، لَا دَارُ^(١) مَقَرٍّ ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ
فَأَوْبَقَهَا ، وَرَجُلٌ ابْتَعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا .

الشَّيْخُ :

قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوماً لجلسائه : أخبروني مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ ؟ قالوا : رجلٌ
بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا ، فقال : أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَحَقِّ مِنْهُ ؟ قالوا : بلى ؛ قال : رجلٌ بَاعَ آخِرَتَهُ
بِدُنْيَا غَيْرِهِ .

قلتُ : لقائلٌ أَنْ يقولَ له : ذاكِ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ لَذَّةٌ
فِي بَيْعِ آخِرَتِهِ بِدُنْيَا غَيْرِهِ لَمَا بَاعَهَا ، وَإِذَا كَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ ، فَإِذَنْ إِنَّمَا بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا ،
لَأَنَّ دُنْيَا هِيَ لَذَّتُهُ .

(١) ق. د « إلى دار » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(١٣٠)

الأصل:

لَا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقًا حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلَاثٍ: فِي نَكْبَتِهِ، وَغَيْبَتِهِ، وَوَفَاتِهِ.

الشُّنْخ:

قد تقدّم لنا كلامٌ في الصَّدِيقِ والصَّدَاقَةِ؛ وأمّا النِّكْبَةُ وحفظ الصديق فيها فإنه يقال: في الجُبوسِ^(١) مَقَابِرُ الْأَحْيَاءِ، وَشِمَاتُ الْأَعْدَاءِ، وَتَجْرِبَةُ الْأَصْدِقَاءِ. وأمّا الْعَيْبَةُ فإنه قد قال الشاعر:

وَإِذَا الْفَتَى حَسُنَتْ مَوَدَّتُهُ فِي الْقُرْبِ ضَاعَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ
وَأَمَّا الْمَوْتُ فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِيهِ وَالتُّرْبُ بَيْنَنَا كَمَا كُنْتُ أَسْتَحْيِيهِ وَهُوَ يَرَانِي
وَمِنْ كَلَامٍ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: الصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ فِي غَيْبَتِهِ.

قِيلَ لِلْحَكِيمِ: مَنْ أَبْعَدَ النَّاسَ سَفَرًا؟ قَالَ: مَنْ سَافَرَ فِي ابْتِنَاءِ الْآخِرِ الصَّالِحِ.
أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّي:

أُزِرَّتْ بِكُمْ يَا ذَوِي الْأَبَابِ أَرْبَعَةٌ يَتَرَكْنَ أَحْلَامَكُمْ تَهْبُ الْجَهَالَاتِ
وَدُّ الصَّدِيقَ، وَعِلْمُ الْكِيمِيَاءِ، وَأَحْكَامُ النُّجُومِ، وَتَفْسِيرُ الْمَنَامَاتِ
قِيلَ لِلثَّوْرِيِّ: دُلَّنِي عَلَى جَلِيسٍ أَجْلِسُ إِلَيْهِ^(٢)؟ قَالَ: تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تَوْجِدُ.

(١) د: « الجُبوس ». (٢) د: « عنده ».

(١٣١)

الأفضل :

مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمَ أَرْبَعًا : مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمَ الْإِجَابَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمَ الْقَبُولَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمَ الْمَغْفِرَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمَ الزِّيَادَةَ .

قال الرّضّى رحمه الله تعالى : وتصدّق ذلك في كتاب الله تعالى ؛ قال في الدعاء : ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١) .

وقال في الاستغفار : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِثِ اللَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٢) .

وقال في الشكر : ﴿ لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٣) .

وقال في التوبة : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٤) .

الشّرح :

في بعض الروايات أنّ ما نسب إلى الرّضّى رحمه الله من استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقد سبق القول في كلّ واحدة من هذه الأربع مُستقصى .

-
- | | |
|----------------------|-----------------------|
| (١) سورة غافر ٦٠ . | (٢) سورة النساء ١١٠ . |
| (٣) سورة إبراهيم ٧ . | (٤) سورة النساء ١٧ . |

(١٣٢)

الأفضل :

الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ ، وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ،
وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصَّوْمُ ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُلِ .

الشَّيْخُ :

قد تقدّم القول في الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّيَامِ ، فَأَمَّا أَنَّ جِهَادَ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُلِ ،
فَعِنَاهُ حُسْنُ مَعَاشِرَةٍ بِعَمَلِهَا وَحِفْظُ مَالِهِ وَعَرْضِهِ ؛ وَإِطَاعَتُهُ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، وَتَرْكُ الْغَيْرَةِ
فَإِنَّهَا بَابُ الطَّلَاقِ .

[نَبَذَ مِنَ الْوَصَايَا الْحَكِيمَةَ]

وَأَوْصَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ بِنْتَهَا لَيْلَةَ إِهْدَائِهَا^(١) فَقَالَتْ لَهَا : لَوْ تَرَكْتُ
الْوَصِيَّةَ لِأَحَدٍ لِحُسْنِ أَدَبٍ وَكَرَمِ حَسَبٍ ، لَتَرَكْتُهَا لَكَ ، وَلَكِنِّي تَذَكُّرٌ لِلْعَاقِلِ ،
وَمَثُورَةٌ لِلْعَاقِلِ . إِنَّكَ قَدْ خَلَفْتَ الْمُشَّاءَ الَّذِي فِيهِ دَرَجَتٌ ، وَالْوَكْرَ الَّذِي مِنْهُ خَرَجَتْ ،
إِلَى مَنْزِلٍ لَمْ تَعْرِفْهُ ، وَقَرِينَ لَمْ تَأْلَفْهُ ، فَكُونِي لَهُ أَمَةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاحْفَظِي عَنِّي
خِصَالًا عَشْرًا :

(١) لَيْلَةُ إِهْدَائِهَا ، أَيْ أَيْلَةُ زَوَاجِهَا ؛ يُقَالُ : هَدَى الْعُرُوسَ إِلَى بَيْتِهَا وَأَهْدَاهَا هِدَاءً وَإِهْدَاءً .

أما الأولى والثانية، فحُسْنُ الصَّحَابَةِ بالقناعة، وجَمِيلُ المَعَاشِرَةِ بالسَّمْعِ والطاعة، ففي حُسْنِ الصَّحَابَةِ راحةُ القلبِ ، وفي جَمِيلِ المَعَاشِرَةِ رِضا الرَّبِّ .

والثالثة والرابعة ، التَّفَقُّدُ لمَوَاقِعِ عَيْنِهِ ، والتَّعَهُّدُ لمَوَاضِعِ أَنْفِهِ ، فلا تَقَعِ عينُهُ مِنْكَ على قَبِيحٍ ، ولا يَجِدْ أَنْفُهُ مِنْكَ خَبِيثَ رِيحٍ ، واعْلَمْ أَنَّ الكُحْلَ أَحْسَنُ الحَسَنِ المفقودِ ، وَأَنَّ المَاءَ أَطْيَبُ الطَّيِّبِ الموجودِ .

والخامسة والسادسةُ ، الحِفْظُ لمَالِهِ ، والإِرْعَاءُ على حَشْمِهِ وعِيَالِهِ ، واعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ الاحتفاظِ بالمالِ حُسْنُ التقديرِ ، وَأَصْلُ الإِرْعَاءِ على الحَشْمِ والعِيَالِ حُسْنُ التَّديبِ .
والسابعة والثامنة، التَّعَهُّدُ لوقتِ طَعَامِهِ، والهُدُوءُ والسَّكُونُ عند مَنَامِهِ ، فخرارةُ الجوعِ مَلْهَبَةٌ ، وتَنَفُّيسُ النومِ مَغْضَبَةٌ .

والتاسعة والعاشره : لا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا ، ولا تَعْصِيَنَّ لَهُ أَمْرًا ، فَإِنَّكَ أَنْ أَفْشَيْتَ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَرْنِي غَدْرَهُ ، وَإِنْ عَصَيْتَ أَمْرَهُ أَوْغَرْتَ صَدْرَهُ .

وأوصت امرأةٌ ابنتها وقد أَهْدَتْهَا إلى بَعْلِهَا ، فقالت : كوني له فِرَاشًا ، يَكُنْ لَكَ مَعَاشًا ، وَكوني له وِطَاءً ، يَكُنْ لَكَ غِطَاءً ، وإِيَّاكَ والاكْتِثَابَ إِذَا كَانَ فَرَحًا ، والفَرَحَ إِذَا كَانَ كَثِيبًا ، ولا يَطْلَعَنَّ مِنْكَ على قَبِيحٍ ، ولا يَشْمَنَّ مِنْكَ إِلَّا طَيِّبَ رِيحٍ ^(١) .

وَزَوْجُ عَامِرُ بْنُ الظَّرَبِ ابْنَتَهُ مِنْ ابْنِ أَخِيهِ ، فَلَمَّا أَرَادَ تَحْوِيلَهَا قَالَ لِأُمِّهَا: مَرِي ابْنَتُكَ أَلَّا تَنْزِلَ مَفَازَةً إِلَّا وَمَعَهَا مَاءٌ ، فَإِنَّهُ إِلَّا عَلَيَّ جِلَاءٌ ، وَلِلْأَسْفَلِ نَقَاءٌ ، وَلَا تُكْثِرْ مُضَاجَعَتَهُ ، فَإِذَا مَلَ الْبَدَنُ مَلَ الْقَلْبَ ، وَلَا تَتَمَنَّهُ شَهْوَتُهُ ، فَإِنَّ الْحُظُوتَ فِي الْمَوَاقِمَةِ . فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا شَهْرًا حَتَّى جَاءَتْهُ مَشْجُوجَةٌ ، فَقَالَ لابْنِ أَخِيهِ : يَا بُنَيَّ ارْفَعْ عَصَاكَ عَنْ بَكْرَتِكَ ،

(١) د : « رِيحاً طيباً » .

فإن كان من غير أن تنفر بك فهو الداء الذى ليس له دواء ؛ وإن لم يكن بينكما وفاق ففراق ،
أُخْلِعَ أحسن من الطلاق ، وأن ترك أهلِكَ ومالك .
فردّ عليه صداقها ، وخَلَمَها منه ، فهو أول خُلِعَ كان فى العرب (١) .

وأوصى الفرافصة الكلبيّ ابنته نائلة حين أهداها إلى عثمان ، فقال : يا بُنَيَّةُ ، إنك
تقدمين على نساء من نساء قریش هنّ أقدرُ على الطَّيِّب منك ، ولا تُغَلِّبين على خَصَلَتَيْنِ :
الكُحْل والماء . تطهرى حتى يكون ريح جلدك ريح شَنْ أصابه مطر ، وإيّاك والغيرة على
بَعْلِكَ ، فإنها مفتاح الطلاق .

وروى أبو عمرو بنُ الملاء قال : أنكح ضرارُ بنُ عمرو الضبيّ ابنته من مَعْبِد
ابن زُرارة ، فلما أخرجها إليه قال : يا بُنَيَّةُ ، أمسكى عليك الفضلين : فضل الغلّمة ،
وفضل الكلام .

قال أبو عمرو : وضرار هذا هو الذى رفع عقيرته بُمَكاظَ ، وقال : ألا إن شرَّ حائل (٢)
أمّ ، فزوّجوا الأمّهات ؛ قال : وذلك أنه صُرِع بين الرماح ، فأشبل عليه إخوته لأُمّه
حتى استنقذوه .

وأوصت أعراييةُ ابنتها عند إهدائها ، فقالت لها : اقلعى زُجَّ رُحِي ، فإن أقرَّ فاقلعى
سِنانه ، فإن أقرَّ فاكسرى العظام بسيفه ، فإن أقرَّ فاقطعى اللحم على ترسّه ، فإن أقرَّ
فضمى الإكاف على ظَهْره ، فإنما هو حمار .

وهذا هو قُبْحُ التَّبَعْل ، وذكرناه نحن فى بابِ حَسَنِ التَّبَعْل ، لأنّ الصّد يُذكر بضدّه .

(١) يقال : خلع الرجل امرأته وخالعها إذا افتدت منه بمال فطلقها وأبأنها من نفسه .

(٢) الحائل : التى لا تحمل .

(١٣٣)

الأفضل :

اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

الشَّيْخُ :

جاء في الحديث المرفوع - وقيل : إنه موقوفٌ على عثمان : « تاجروا الله بالصَّدَقَةِ تَرْبَحُوا » .

وكان يقال : الصَّدَقَةُ صَدَاقُ الْجَنَّةِ .

وفي الحديث المرفوع : « ما أحسن عبدُ الصَّدَقَةِ ، إلا أحسنَ الله الخلَافَةَ على مُخَلِّفِهِ » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « ما مِن مسلمٍ يَكْسُو مسلماً ثوباً إلا كان في حفظِ الله ما دام منه زُفْمَةٌ » .

وقال عمر بن عبد العزيز : الصَّلَاةُ تَبْلُغُكَ نِصْفَ الطَّرِيقِ ، والصَّوْمُ يَبْلُغُكَ بَابِ الْمَلِكِ ، والصَّدَقَةُ تُدْخِلُكَ عَلَيْهِ .

(١٣٤)

الأضل :

وَمَنْ أَقْنَى بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ .

الشَّرْح :

هذا حق ، لأن من لم يُورقن بالخلف ويتخوف الفقر يَصْنُ بالعطية ، ويعلم أنه إذا أعطى ثم أعطى استنفد ماله ، واحتاج إلى الناس لانقطاع مادته ؛ وأما من يُورقن بالخلف ، فإنه يعلم أن الجود شرفٌ لصاحبه ، وأن الجواد ممدوحٌ عند الناس ، فقد وجد الداعي إلى السَّحاح - ولا صارفَ له عنه - لأنه يعلم أن مادته دائمةٌ غيرُ منقطعة ، فالصارف الّـي يخافُه من قدّمنا ذكره مفقودٌ في حقّه ، فلا جرّم أنه يجو بالعطية !

(١٣٥)

الأُضَلُ :

تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ .

البُيُوتُ :

جاء في الحديث المرفوع : « مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَكَلَّمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ » .
 وكان على بعض المؤسرين رسوم جماعة من الفقراء يدفعونها إليهم كل سنة ،
 فاستكثرها ، فأمر كاتبه بقطعها ، فرأى في المنام كأن له أهواء كثيرة في داره ،
 وكأنها تصعد أقوام من الأرض إلى السماء ، وهو يجزع من ذلك ، فيقول : يا رب
 رِزْقِي رِزْقِي ! فقيل له : إنما رزقناك هذه لتصرفها فيما كنت تصرفها فيه ، فإذا قطعت ذلك
 دفعناها منك ، وجعلناها لغيرك . فلما أصبح أمر كاتبه بإعادة تلك الرسوم أجمع .

(١٣٦)

الأفضل :

مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ .

* * *

الشرح :

ما عال ، أى ما افتقر ، وقد تقدّم لنا قولٌ مُقنع فى مدح الاقتصاد .

وقال أبو العلاء :

وإن كنتَ هَوَى العيشِ فابغِ تَوْسُطًا فعند التَّناهِى يَقْصُرُ التُّطَاوُلُ^(١)
تَوْقَى البُدُورِ النِّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ وَيُدْرِكُهَا النِّقْصَانُ وَهِيَ كَوَامِلُ
وهذا الشعرُ وإن كان فى الاقتصاد فى المراتب والولايات ، إلّا أنّه مدحٌ للاقتصاد
فى الجملة ، فهو من هذا الباب .
وسَمِعَ بعضُ الفضلاء قولَ الحكماء : التَّديبُ نِصْفُ العِيشِ ، فقال : بل العِيشُ كُلُّهُ .

(١) سقط الزند ٥٢٢ .

— ٣٣٩ —

(١٣٧)

الأَجَلُ :

قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينَ .

التَّبْنُجُ :

اليسار الثاني كثرة المال ؛ يقول : إن قِلَّةَ الْعِيَالِ مع الْفَقْرِ كاليسار الحقيقيّ مع
كثرتهم .
ومن أمثال الحكماء : الْعِيَالُ أَرْضَةُ الْمَالِ .

(١٣٨)

الأفضل :

التودُّدُ نِصفُ العُقلِ .

الشرح :

دخل حبيب بن شَوْذَبَ على جعفر بن سليمان بالبصرة ، فقال : نِعمَ المرءُ حبيب
ابن شَوْذَبَ ! حَسَنَ التودُّدِ ، طِيبَ الثناء ، يكرهُ الزيارة المتصلة ، والقعدة المنسية .
وكان يقال : التودُّدُ ظاهرٌ حَسَنٌ ، والمعاملة بين الناس على الظاهر ، فأما البواطن
فإلى عالم الخفيات .

وكان يقال : قلَّ مَنْ تودَّدَ إلَّا صار محبوباً ، والمحبوب مستورُ العيوب .

(١٣٩)

الأفضل :

والهم نصف الهرم .

الشيخ :

من كلام بعض الحكماء : الهم يُشيب القلب ، ويُعمق العقل ، فلا يتولد معه رأى ،
ولا تصدق معه روية .

وقال الشاعر :

هموم قد أبت إلا التباسا تبّت الشيب في رأس الوليد
وتقعد قائما بشيخا حشاه وتطلق للقيام حبا العمود
وأضحت خشنا منها زار مركبة الرواجب في الحدود

وقال سفيان بن عيينة : الدنيا كلها هموم وغموم ، فما كان منها سرور فهو ربح .
ومن أمثالهم : الهم كافور النعمة .

وقال أبو تمام :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد^(١)
وكذاك القلوب في كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد
طال إنكارى البياض ولو عمر شيئا أنكرت لون السواد^(٢)

(١) ديوانه ١ : ٣٦٠ . (٢) الديوان : « وإن عمرت » .

(١٤٠)

الأضل :

يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ
حَبِطَ أَجْرُهُ .

الشَّرخ :

قد مضى لنا كلامٌ شافٍ في الصبر ؛ وكان الحسنُ يقول في قصصه : الحمد لله الذي
كلَّفنا مالهو كلَّفنا غيرهَ كَصِرْنَا فِيهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ ، وَآجَرَنَا عَلَى مَا لَا بَدَّ لَنَا مِنْهُ ؛ يقول :
كلَّفنا الصبر ، ولو كلَّفنا الْجَزَعَ لَمْ يُمْكِنَّا أَنْ نَقِيمَ عَلَيْهِ ، وَآجَرَنَا عَلَى الصبر ولا بدَّ لَنَا مِنْ
الرجوع إليه .

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، كان يقول عند التعزية : عليكم بالصبر ، فإنَّ به
يَأْخُذُ الْحَازِمُ ، وَيَعُودُ إِلَيْهِ الْجَازِعُ .

وقال أبو خِرَاشِ الْهَذَلِيُّ يَذْكُرُ أَخَاهُ عُرْوَةَ :

تَقُولُ أَرَأَاهُ بَعْدَ عُرْوَةٍ لَاهِيًّا وَذَلِكَ رُزُلًا لَوْ عَلِمْتَ جَلِيلُ^(١)

فَلَا تَحْسَبْنِي أَنِّي تَنَاسَيْتَ عَهْدَهُ وَلَكِنْ صَبْرِي يَا أُمِّمِ جَمِيلُ

وقال عمرو بن مَعْدِيكَرِبَ :

كَمْ مِنْ آخِرٍ لِي صَالِحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ لَخَدَا^(٢)

(١) ديوان الهذليين ٢ : ١١٦ . (٢) ديوان الحاسية ١ : ١٧٤ ، ١٧٥ - بشرح التبريزي .

— ٣٤٣ —

أَلْبَسْتُهُ أَكْفَانَهُ وَخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدًا

وكان يقال : من حدث نفسه بالبقاء ، ولم يُوطَّئها على المصائب ، فهو عاجزُ الرأى .

وكان يقال : كفى باليأس مُعزِّيًا ، وبانقطاع الطمع زاجرا !

وقال الشاعر :

أَيَا عَمْرُو لَمْ أَصْبِرْ وَلِي فَيْكَ حِيلَةٌ وَلَكِنْ دَعَانِي الْيَأْسُ مِنْكَ إِلَى الصَّبْرِ

تَصَبَّرْتُ مَغْلُوبًا وَإِنِّي لَمَوْجَعٌ كَمَا صَبَرَ الْقُطَّانُ فِي الْبَلَدِ الْقَفَرِ

(١٤١)

الأضل :

كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ . حَبْدًا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ !

الشَّيْخُ :

الأكياس ها هنا العلماء العارفون ؛ وذلك لأنَّ عباداتهم تقع مطابقةً لمقائدهم الصحيحة ، فتكون فروعا واجعةً إلى أصلٍ ثابت ، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى ، لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجهةً إليه فلم تكن مقبولةً ، ولذلك فسَدَتْ عِبَادَةُ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ .

وفيه ورد قوله تعالى : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴾ (١) .

(١) سورة الناشية ٣ ، ٤ .

(١٤٢)

الأصل :

سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ
بِالدُّعَاءِ .

الشرح :

قد تقدم الكلام في الصدقة والزكاة والدعاء ، فلا معنى لإعادة القول في ذلك .

(١٤٣)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام لكميل بن زياد النخعي :

قال كميل بن زياد : أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
فأخرجني إلى الجبان ، فلما أضحَرَ تنفَّس الصُّدَاء ، ثم قال :
يا كميل بن زياد ؛ إنَّ هذه القلوب أوعيةٌ فخيرها أوعاها ، فأحفظ عني
ما أقول لك .

الناس ثلاثة : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَجَّ رِعَاعٌ أَتْبَعُ
كُلُّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى
رُكْنٍ وَثِيقٍ .

يا كميل ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ؛ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ .
وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النِّفَقَةُ ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ .
يا كميل بن زياد ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يَدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ
فِي حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الْأُخْدُوثةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ . وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْمَالُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ .
يا كميل بن زياد ؛ هَلَكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ
الدَّهْرُ ؛ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . هَا إِنَّ هَاهُنَا لِعِلْمًا جَمًّا
— وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ — لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ! بَلَى أَصِيبُ لَقَدْ غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ،
مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا ، وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ،

أَوْ مُنْقَادًا لِحِمْلَةِ الْحَقِّ ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَخْنَائِهِ ؛ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ
عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ . أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ، أَوْ مِنْهُمَا بِاللَّذَّةِ ، سَلَسَ الْفِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ،
أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالِادِّخَارِ ، لَيْسَا مِنْ رِعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهًا بِهِمَا
الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ يَمُوتَ حَامِلِيهِ .

اللَّهُمَّ بَنِي ؛ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا ،
وَأِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا ، لِكَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ .

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَا ! أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقْلُونَ عَدَدًا ، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدَرًا ،
يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوها نُظْرَاءَهُمْ ، وَيَزْرَعُوها فِي قُلُوبِ
أَشْبَاهِهِمْ . هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا
مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرَفُّونَ ، وَأَنَسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ ، وَصَجِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ
أَرْوَاحِهَا مُعَلَّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى ؛ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالِدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ ،
أِهْ آهِ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِمْ !

انصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ .

الشرح :

الجبَّان والجبَّانة : الصحراء .

وَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ ، أَي تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا .

قوله عليه السلام : « ثلاثة » قِسْمَةٌ صَحِيحَةٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَشَرَ بِاعْتِبَارِ الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ :
إِمَّا عَالِمٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ يَعْرِفُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَإِمَّا شَارِعٌ فِي ذَلِكَ فَهُوَ بِمَسَدٍ فِي السَّفَرِ إِلَى اللَّهِ
يَطْلُبُهُ بِالْعِلْمِ وَالِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْعَالَمِ ، وَإِمَّا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَهُوَ الْعَامِّيُّ السَّاقِطُ الَّذِي

لَا يَمْبَأُ اللَّهُ . وَصَدَقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنَّهُمْ كَهَجِّ رَعَاةِ أَتْبَاعِ كُلِّ نَاعِقٍ ، أَلَا تَرَاهُمْ يَنْتَقِلُونَ
مِنَ التَّقْلِيدِ لِشَخْصٍ إِلَى تَقْلِيدِ الْآخَرِ ، لِأَدْنَى خِيَالٍ وَأَضْعَفِ وَهْمٍ !

ثُمَّ شَرَعَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذِكْرِ الْعِلْمِ وَتَفْضِيلِهِ عَلَى الْمَالِ ، فَقَالَ : « الْعِلْمُ يَجْرُسُكَ ،
وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ » ، وَهَذَا أَحَدُ وَجُوهِ التَّفْضِيلِ .

ثُمَّ ابْتَدَأَ فذَكَرَ وَجْهًا ثَانِيًا ؛ فَقَالَ : الْمَالُ يَنْقُصُ بِالْإِنْفَاقِ مِنْهُ ، وَالْعِلْمُ لَا يَنْقُصُ
بِالْإِنْفَاقِ بَلْ يَزْكُو ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِفَاضَةَ الْعِلْمِ عَلَى التَّلَامِذَةِ تَفِيدُ الْمُعَلِّمَ زِيَادَةَ اسْتِعْدَادٍ ،
وَتَقَرَّرُ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ الْعُلُومَ الَّتِي أَفَاضَهَا عَلَى تِلَامِذَتِهِ وَتَثْبِتُهَا وَتَزِيدُهَا رَسُوخًا .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ » ، فَتَحْتَهُ سِرٌّ دَقِيقٌ حَكِيمٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَالَ
إِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَقَعُهُ فِي الْأُمُورِ الْجِسْمَانِيَةِ ، وَالْمَالِذِ الشَّهْوَانِيَةِ ، كَالنِّسَاءِ وَالْخَيْلِ وَالْأَنْبِيَةِ
وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلَابِسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ وَهَذِهِ الْأَثَارُ كُلُّهَا تَزُولُ بِزَوَالِ الْمَالِ أَوْ بِزَوَالِ
رَبِّ الْمَالِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا زَالَ الْمَالُ اضْطُرَّ صَاحِبُهُ إِلَى بَيْعِ الْأَنْبِيَةِ وَالْخَيْلِ وَالْإِمَاءِ ،
وَرَفَضَ تِلْكَ الْعَادَةَ مِنَ الْمَأْكَلِ الشَّهْوِيِّ وَالْمَلَابِسِ الْبَهِيَّةِ ! وَكَذَلِكَ إِذَا زَالَ رَبُّ الْمَالِ
بِالْمَوْتِ ، فَإِنَّهُ تَزُولُ آثَارُ الْمَالِ عِنْدَهُ : فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى بَعْدَ الْمَوْتِ أَكْلًا شَارِبًا لَا بَسًا ، وَأَمَّا آثَارُ
الْعِلْمِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَزُولَ أَبَدًا وَالْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا بَعْدَ خُرُوجِهِ عَنِ الدُّنْيَا ؛ أَمَا فِي الدُّنْيَا
فَلِأَنَّ الْعَالِمَ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا يَعُودُ جَاهِلًا بِهِ ، لِأَنَّ اتِّقَاءَ الْعُلُومِ الْبَدِيعِيَّةِ عَنِ الذَّهْنِ
وَمَا يَلْزَمُهَا مِنَ الْأَوَازِمِ بَعْدَ حَصُولِهَا مُحَالٌ ، فَإِذَا قَدْ صَدَّقَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ
الْمَالِ وَالْعِلْمِ : « إِنَّ صَنِيعَ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ » ، أَيْ وَصَنِيعَ الْمَالِ لَا يَزُولُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ
يَقُولَ « بِزَوَالِهِ » لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ : وَصَنِيعَ الْمَالِ يَزُولُ ، لِأَنَّ الْمَالَ يَزُولُ ؛ وَأَمَّا بَعْدَ خُرُوجِ
الْإِنْسَانِ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّ صَنِيعَ الْعِلْمِ لَا يَزُولُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ صَنِيعَ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ
الذَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّائِمَةِ لِدَوَامِ سَبَبِهَا ، وَهُوَ حَصُولُ الْعِلْمِ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ الَّذِي هُوَ مَمْشُوقٌ

النفس مع أتعاء ما يُشغلها عن التمتع به ، والتلذذ بمصاحبتها ؛ والذي كان يشغلها عنه في الدنيا استغراقها في تدبير البدن ، وما تُورده عليها الحواس من الأمور الخارجيّة ، ولارِيبَ أنّ العاشق إذا خلا بمَعشوقه ، وانتفت عنه أسبابُ الكَدَر ، كان في لذّة عظيمة ، فهذا هو سرُّ قوله : « وصنيع المال يزول بزواله » .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام : « معرفةُ العلم دينٌ يُدانُ به » ، وهل هذا إلا بمنزلة قولك : معرفةُ المعرفة أو علمُ العلم ! وهذا كلامٌ مضطرب .

قلت : تقديرُهُ : معرفةُ فضل العلم أو شرفِ العلم ، أو وجوب العلم دينٌ يُدانُ به ، أي المعرفة بذلك من أمرِ الدين ، أي رُكنٌ من أركان الدين واجبٌ مفروض .

ثمّ شرّح عليه السلام حال العلم الذي ذكر أنّ معرفة وجوبه أو شرفه دينٌ يُدانُ به ، فقال : « العلم يَكسِب الإنسان الطاعة في حياته » ، أي مَنْ كان عالماً كان لله تعالى طاعماً ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

ثم قال : « وجيل الأحداث بعد وفاته » ، أي الذّكر الجليل بعد موته .

ثم شرع في تفضيل العلم على المال من وجهٍ آخر ، فقال : « العلمُ حاكمٌ ، والمال محكومٌ عليه » ، وذلك لِلملك أنّ مصلحتك في إنفاق هذا المال تُنفقه ، وللملك بأنّ المصلحة في إمساكه تمسكه ، فالعلم بالمصلحة داعٍ ، وبالمضرة صارف ؛ وهما الأمران الحاكمان بالحرّكات والتصرّفات إقداماً ، وإحجاماً ، ولا يكون القادر قادراً مختاراً إلا باعتبارها ؛ وليس إلا عبارة عن العلم أو ما يجري بجرى العلم من الاعتقاد والظنّ ، فإنّ قد بان وظهر أنّ العلم من حيث هو علمٌ حاكمٌ ، وأنّ المال ليس بحاكم ، بل محكوم عليه .

ثم قال عليه السلام : « هَلَكَ خُزَّانُ الْمَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ » ، وذلك لِأَنَّ الْمَالَ الْخِزْوَنَ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّخْرَةِ الْمَدْفُونَةِ تَحْتَ الْأَرْضِ ، نَفَازِنُهُ هَالِكٌ لَا سَحَالَةَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَلْتَمِذْ بِإِتْقَانِهِ ؛ وَلَمْ يَصْرِفْهُ فِي الْوَجْهِ الَّتِي نَدَّبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا ؛ وَهَذَا هُوَ الْهَلَاكُ الْمَعْنَوِيُّ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْهَلَالِ الْحَسِّيِّ .

ثم قال : « وَالْعُلَمَاءُ بِاقْوَانِ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ » ؛ هَذَا الْكَلَامُ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ ، فَظَاهِرُهُ قَوْلُهُ : « أَعْيَاءُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأُمَثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ » ، أَيْ آثَارُهُمْ وَمَا دَوَّنُوهُ مِنَ الْعُلُومِ ، فَكَأَنَّهُمْ مَوْجُودُونَ ، وَبَاطِنُهُ أَنََّّهُمْ مَوْجُودُونَ حَقِيقَةً لَا تَجَازَا ، عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ بِيَقَاءِ الْأَنْفُسِ ، وَأُمَثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ كُنَايَةٌ وَلُغْزٌ ، وَمَعْنَاهُ ذَوَاتُهُمْ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُّوسِ ؛ وَالْمُشَارَكَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُلُوبِ ظَاهِرَةٌ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ الْعَامَّ الَّذِي يَشْمَلُهُمَا هُوَ الشَّرَفُ ، فَكَمَا أَنَّ تِلْكَ أَشْرَفُ عَالَمِهَا ، كَذَا الْقَلْبُ أَشْرَفُ عَالَمِهِ ، فَاسْتَعْمِرَ لَفْظُ أَحَدِهِمَا وَغُبَّرَ بِهِ عَنِ الْآخَرِ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « هَا إِنَّ هَا هُنَا لَعِلْمًا سَجًّا ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ » ، هَذَا عِنْدِي إِشَارَةٌ إِلَى الْعِرْفَانِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدُ الْفَدَّ مِنْ الْعَالَمِ مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ سِرًّا ، وَلَهُ بِهِ اتِّصَالٌ .

ثم قال : « لَوْ أَصْبَتَ لَهُ سَحْلَةٌ ! » وَمَنْ الَّذِي يُطِيقُ سَحْلَهُ ! بَلْ مَنْ الَّذِي يُطِيقُ فَهْمَهُ فَضْلًا عَنْ سَحْلِهِ !

ثم قال : « بَلَى أَصِيبَ » .

ثم قَسَمَ الَّذِي يَصِيبُهُمْ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ :

أَحَدُهُمْ : أَهْلُ الرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ ؛ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الدِّينَ وَالْعِلْمَ وَمَقْصُودُهُمُ الدُّنْيَا ، فَيَجْعَلُونَ النَّامُوسَ الدِّينِيَّ شَبَكَةً لَا تَقْتَنَاصُ الدُّنْيَا .

وِثَانِيهَا : قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ لَيْسُوا بِذَوِي بَصِيرَةٍ فِي الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ الْغَامِضَةِ ،

فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تنقذح في قلوبهم شُبُهَةٌ بأدنى خاطر ؛ فإنّ مقام المعرفة مقامٌ خطِرٌ صعبٌ لا يثبت تحته إلا الأفرادُ من الرجال ، الذين أُيِّدوا بالتوفيق والمعصمة .

وثالثها : رجلٌ صاحبٌ لذاتٍ وطربٍ مشتهرٍ بقضاء الشهوة ، فليس من رجالِ هذا الباب .

ورابعها : رجلٌ عرفَ بجمع المالِ وادّخاره ، لا يُنفقه في شهواته ولا في غيرِ شهواته ، فحكمه حكمُ القسمِ الثالث .

ثم قال عليه السلام : « كذلك يموت العلمُ بموت حامليه » ، أى إذا ماتَ العلمُ الذى فى صدرى ، لأنى لم أجد أحداً أدفعه إليه ، وأورثته إياه . ثم أستاذرك فقال : « اللهم بلى ، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ بحجة الله تعالى » كيلا يخلو الزمانُ ممّن هو مهيمُنٌ لله تعالى على عباده ، ومسيطرٌ عليهم ؛ وهذا يكاد يكونُ تصريحاً بذهب الإمامية ، إلا أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الذين وردت الأخبارُ النبويةُ عنهم أنّهم فى الأرض سائحون ، فمنهم من يُعرف ، ومنهم من لا يُعرف ، وإنهم لا يموتون حتّى يودّعوا السرّ ، وهو العرفان عند قومٍ آخرين يقومون مقامهم .

ثم استنزَرَ عددهم فقال : « وكم ذا ! » أى كم ذا القليل ! وكم ذا الفريق !

ثم قال : « وأين أولئك ! » استبهم مكانهم ومحلّهم .

ثم قال : « هم الأقلون عدداً ، الأعظمون قدداً » .

ثم ذكر أنّ العلمَ هم بهم على حقيقة الأمر ، وأنكشَفَ لهم المستورَ المغطّى ، وباشروا راحة اليقين وبرَدَ القلبِ وتلجَّ العلم ، وأستلَّانوا ماشقً على المترفين من الناس ، ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشهوات وخُشونة العيشة .

قال : « وَأَنْسُوا بَمَا أُسْتَوَحَّشُ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ » ، يعنى العُرْلةَ ومجانبةَ الناس ، وطول الصَّمت ، وملازمةَ الخُلوةِ ؛ ونحوَ ذلك ممَّا هو شعار القوم .

قال : « وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَرْوَاحٍ أَبْدَانُهَا مَعْلَقَةٌ بِالْحَلِّ الْأَعْلَى » ، هذا ممَّا يقوله أصحابُ الحِكْمةِ مِنْ تَعَلُّقِ النُّفُوسِ المجرَّدةِ بِعِبَادَتِهَا مِنَ العقولِ المفارقةِ ، فمن كان أَرْكَى كان تَعَلُّقُهُ بِهَا أَتَمَّ .

ثم قال : « أَوْلَيْتُكَ خُلَفَاءَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، والدَّعَاةُ إِلَى دِينِهِ » ، لا شُبْهَةَ أَنْ بِالْوَصُولِ يَسْتَحِقُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يَسْمَى خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وهو المعنى بقوله سبحانه للملائكة ﴿ أَأَنْتَ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) ، وبقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) .

ثم قال : « آهٍ آهِ شَوْقًا إِلَى رُؤْيِهِمْ ؟ » ، هو عليه السلام أَحَقُّ الْإِنْسَانِ بِأَنْ يَشْتَاقَ إِلَى رُؤْيِهِمْ ، لِأَنَّ الْجَنَسِيَّةَ عِلَّةُ الضَّمِّ ، والشَّيْءُ يَشْتَاقُ إِلَى مَا هُوَ مِنْ سِنِّهِ وَسُوسَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ ، ولَمَّا كَانَ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْخَ الْعَارِفِينَ وَسَيِّدَهُمْ ، لَا جَرَمَ . اشْتَاقَتْ نَفْسُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى مُشَاهَدَةِ أَبْنَاءِ جَنَسِهِ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ دُونَ طَبَقَتِهِ .

ثم قال لِكَمِيلٍ : « انْصَرَفْ إِذَا شِئْتَ » ، وهذه الكلمة من محاسنِ الْآدَابِ ، ومن لَطَائِفِ الْكَلَمِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ قَالَ : « انْصَرَفْ » كَيْلَا يَكُونَ أَمْرًا وَحُكْمًا بِالْانْصِرَافِ لَا مُحَالَةً ، فَيَكُونُ فِيهِ نَوْعٌ عُلوٍّ عَلَيْهِ ، فَاتَّبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « إِذَا شِئْتَ » لِيُخْرِجَهُ مِنْ ذَلِكَ الْحُكْمِ وَقَهْرِ الْأَمْرِ إِلَى عِزَّةِ الْمَشِئَةِ وَالِاخْتِيَارِ .

(١٤٤)

الأفضل :

المرء مخبوءٌ تحْتِ لِسَانِهِ .

الشيخ :

قد تكرر هذا المعنى مرارا ، فأما هذه اللفظة فلا نظير لها في الإيجاز والدلالة على المعنى ،
وهي من ألفاظه عليه السلام المعدودة .

وقال الشاعر :

وكأنّ ترى من صامتٍ لك مُعْجِبٍ زيادته أو نقصه في التكلم^(١)
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلّا صورةُ اللحمِ والدمِ
وتكلم عبدُ الملك بنُ عُمرٍ وأعرابيٌّ حاضرٌ ، فقيل له : كيف ترى هذا ؟ فقال :
لو كان كلامٌ يؤتدّم به لكان هذا الكلامُ مما يؤتدّم به .

وتكلم جماعةٌ من الخطباء عند مَسْلَمَةَ بن عبد الملك فأسهبوا في القول ، ولم يصنعوا
شيئاً ، ثم أفرغ النطق رجل من أخرياتهم ، فجعل لا يخرج من فمٍ إلّا إلى أحسن منه ،
فقال مَسْلَمَةُ : ما شَبَّهت كلامَ هذا بعقب كلام هؤلاء^(٢) إلّا بسحابةٍ لبدتُ عجاجةً .

وسمع رجلٌ منشداً ينشد :

وكان أخلائي يقولون مَرَجَباً فلما رأوني مُقْتِراً مات مَرَجَبُ

(١) ينسبان لزهير ، من معلقته ٩٤ بشرح الزوزني . (٢) بعدها في د : « أصحابه » .

فقال : أخطأ الشاعر ، إنَّ مرحباً لم يَمُتْ ، وإنما قتله عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام !
 وقال رجل لأعرابيٍّ : كيف أهلك ؟ قال : صلباً إن شاء الله .
 وكان مَسْلَمَةُ بن عبد الملك يعرض الجند ؛ فقال لرجل : ما اسمك ؟ فقال : « عبدِ الله » ،
 وخَفَضَ ، فقال : ابنُ من ؟ فقال : ابن « عبدِ الله » ، وفتح ، فأمر بضَرْبِهِ ، فجعل يقول :
 « سبحانُ الله ، وَيَضُمُّ » ، فقال مَسْلَمَةُ : ويحكم ! دعوه فإنه مجبولٌ على اللحن والخطأ ،
 لو كان تاركاً للحن في وقتٍ لتركه وهو تحت السيَّاط .

(١٤٥)

الأبْصَلُ :

هَلَكَ أَمْرُؤُا لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ .

الشَّيْخُ :

هذه الكلمة من كلماته الممدودة . وكتب النعمان بن عبد الله إلى القاسم بن عبيد الله كتاباً يُدِلُّ فيه بخِدْمَتِهِ ، ويستزید فی رِزْقِهِ ، فوقَّع على ظهره : رَحِمَ اللهُ امِراً عَرَفَ قَدْرَهُ ! أنت رجلٌ قد أُعْجِبْتُكَ نَفْسُكَ فُلَسْتَ تَعْرِفُهَا ، فإن أُحِبَّتْ أَنْ أَعْرِفَ كَمَا عَرَفْتُكَ . فكتب إليه النعمان : كُنْتُ كُتِبْتُ إِلَى الْوَزِيرِ أَعَزَّهُ اللهُ كِتَاباً أَسْتَزِيدُهُ فِي رِزْقِي ، فوقَّع على ظهره توقيع ضَعِجْرٍ لَمْ يُخْرِجْ فِيهِ مَعَ ضَجَرِهِ عَمَّا أُلْفَتْهُ مِنْ حَيَاتِهِ وَحُسْنِ نَظَرِهِ ، فقال : إِنَّهُ قَدْ حَدَّثَ لَعَبْدِهِ يُحِبُّ بِنَفْسِهِ ، وقد صدق - أَعْلَى اللهُ قَدْرَهُ - لقد شَرَّفَنِي الْوَزِيرُ بِخِدْمَتِهِ ، وَأَعْلَى ذِكْرِي بِجَمِيلِ ذِكْرِهِ ، وَنَبَّهَ عَلَى كِفَايَتِي بِأَسْتِكْفَانِهِ ، وَرَفَعَنِي وَكَثَّرَنِي (١) عِنْدَ نَفْسِي ، فَإِنْ أَعْجِبْتُ فَبِنِعْمَتِهِ عِنْدِي ، وَجِيلَ تَطَوَّلَهُ عَلَيَّ ، وَلَا عَجَبَ ، وَهَلْ خَلَا الْوَزِيرُ مِنْ قَوْمٍ يَصْطَلِحُهُمْ بَعْدَ مَلَكَةٍ وَيَرْفَعُهُمْ بَعْدَ نُحُولٍ ، وَيُحَدِّثُ لَهُمْ هِمَّ رَفِيعَةً وَأَنْفَسًا عَلِيَّةً ، وَفِيهِمْ شَاكِرٌ وَكَافُورٌ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَشْكَرَهُمُ لِلنِّعْمَةِ ، وَأَقْوَمَهُمْ بِحَقِّهَا . وَقَدْ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ : إِنْ عَرَفَ نَفْسَهُ وَإِلَّا عَرَفَنَاهُ إِيَّاهَا ، فَمَا أَنْكَرَهَا ، وَهِيَ نَفْسُ أَنْشَأَتِهَا نِعْمَةُ الْوَزِيرِ وَأَحْدَثَتْ فِيهَا مَا لَمْ تَزَلْ تُحَدِّثُهُ فِي نُظَرَائِهَا مِنْ سَائِرِ عِبِيدِهِ وَخِدَمِهِ ؛ وَاللهُ يَمْلِكُ مَا يَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ خِدْمَةِ مَوْلَاهُ وَوَلِيِّ نِعْمَتِهِ ، إِمَّا عَادَةً وَدُرْبَةً وَإِمَّا تَأْدِيبًا وَهَيْبَةً ، وَإِمَّا شُكْرًا وَاسْتِدَامَةً لِلنِّعْمَةِ .

فلما قرأ القاسم بن عبيد الله كتابه استحسَّنه ، وزاد في رِزْقِهِ .

(١) ب : « كبرني » .

(١٤٦)

الْأُضْلُ :

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه :

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَيَرْجُو التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ ؛
يَقُولُ فِي الدُّنْيَا يَقُولِ الرَّاهِدِينَ ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاهِقِينَ ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا
لَمْ يَشْبَعْ ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ ، يَعِجْزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ
فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَمْ يَأْتِ .

يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ ، وَيُبْغِضُ الْمُنْذِرِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ، يَكْرَهُ
الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ مِنْ أَجَلِهِ ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِمًا ،
وَإِنْ صَحَّ آمِنَ لَا هَيَا . يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ ! وَإِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ
دَعَا مُضْطَرًّا ، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرًّا ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ ، وَلَا يَفْلُحُهَا
عَلَى مَا يَسْتَنْقِضُ ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَذَى مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ عَمَلِهِ .
إِنْ اسْتَعْنَى بِطَرَفَيْنِ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ ، يُقْصِرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ ؛
إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَّتْهُ حِجْنَةٌ انْفَرَجَ
عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ .

يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَعِظُ ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ
وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ .

يُنَافِسُ فِيمَا يَنْفَى ، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى ؛ يَرَى الْغَنَمَ مَغْرَمًا ، وَالْغُرَمَ مَغْنَمًا ،
يَخْشَى الْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ الْقَوْتَ ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ

مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَكْبِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يُحَقِّرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ ،
وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ .
الْلَّغُوْ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الدَّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ،
وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، يُرْشِدُ نَفْسَهُ وَيُنَوِي غَيْرَهُ^(١) ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصَى ، وَيَسْتَوْفِي
وَلَا يُوفِي ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

قال الرضّى رحمه الله تعالى :
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا هَذَا الْكَلَامُ لَكَفَى بِهِ مَوْعِظَةً نَّاجِعَةً ، وَحِكْمَةً
بَالِغَةً ، وَبَصِيرَةً لِّمُبْصِرٍ ، وَعِبْرَةً لِّنَاطِرٍ مُّفَكِّرٍ .

الشَّرْحُ :

كثير من الناس يرجون الآخرة بغير عمل ، ويقولون : رحمة الله واسعة ؛ ومنهم من
يَظُنُّ أَنَّ التَّلَفُّظَ بِكَلِمَتَيِ الشَّهَادَةِ كَافٍ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، ومنهم من يسوّف نفسه بالتوبة ،
ويرجئ الأوقات من اليوم إلى غد ، وقد يُخْتَرَمَ عَلَى غِرَّةٍ فِيَمُوتُهُ مَا كَانَ أَمَلَهُ ، وَأَكْثَرُ هَذَا
الفصل للنهي عن أن يقول الإنسان واعظا لغيره ما لم يعلم هو من نفسه ، كقوله تعالى :
﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٢) .

فأول كلمة قالها عليه السلام في هذا المعنى من هذا الفصل قوله : « يقول في الدنيا يقول
الزّاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين » .

(١) د « يرشد غيره وينوي نفسه » . (٢) سورة البقرة ٤٤ .

ثم وَصَفَ صاحبَ هذا المذهب وهذه الطريقة فقال : « إِنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَشْبَع » ، لَأَنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الْإِزْدِيَادِ ، وَإِنَّمَا يَقْهَرُهَا أَهْلُ التَّوْفِيقِ وَأَرْبَابُ الْعَزْمِ الْقَوِيُّ .

قال : « وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَع » بما كَانَ وَصَلَ إِلَيْهِ قَبْلَ الْمُنْعِ .
ثم قال : يَعْجَزُ عَنْ شُكْرِ مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ ، لَيْسَ بِعَنِ الْعَجْزِ الْحَقِيقِيِّ ، بَلِ الْمُرَادُ تَرْكُ الشُّكْرِ ، فَسَمَّى تَرْكَ الشُّكْرِ عَجْزًا . وَيَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، أَيْ أَنَّ الشُّكْرَ عَلَى مَا أُولَى مِنَ النِّعَمِ لَا تَنْتَهِي قُدْرَتُهُ إِلَيْهِ ، أَيْ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَجَلٌ وَأَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُقَامَ بِوَأَجِبِ شُكْرُهَا .

قال : « وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ » ، هَذَا رَاجِعٌ إِلَى التَّحَوُّلِ الْأَوَّلِ .
قال : « يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَا يَأْتِي » ، هَذَا كَمَا تَقَدَّمَ .
قال : « يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ » ، إِلَى قَوْلِهِ : « وَهُوَ أَحَدُهُمْ » ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ بِمَعْنَاهُ .

قال : يَكْرَهُ الْمَوْتَ لكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيَقِيمُ عَلَى الذُّنُوبِ ، وَهَذَا مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكْرَهُ إِنْسَانٌ شَيْئًا ثُمَّ يَقِيمُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ الْغُرُورُ وَتَسْوِيفُ النَّفْسِ بِالْأَمَانِيِّ .
ثم قال : « إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِمًا ، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِيًا » ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(١) . . . الْآيَاتِ .

قال : « يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ » ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتُلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتُلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ ^(٢) ، وَمِثْلُ الْكَلِمَةِ الْأُخْرَى : « إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ » ، وَ « إِنْ نَالَ رَحَاءٌ » .

ثم قال: « تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن » ، هذه كلمة جليلة عظيمة يقول: هو يستيقن الحساب والثواب والعقاب ، ولا يغلب نفسه على مجانبته ومتاركة ما يفضي به إلى ذلك الخطر العظيم ، وتغلبه نفسه على السعى إلى ما يظن أن فيه لذة عاجلة؛ فواجبا ممن يترجح عنده جانب الظن على جانب العلم ! وما ذاك إلا لضعف يقين الناس وحب العاجل .

ثم قال: « يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ، ويرجو لنفسه أكثر من عمله » ، ما يزال يرى الواحد منّا كذلك يقول: إني لخائف على فلان من الذنب الفلاني وهو مقيم على أفحش من ذلك الذنب ، ويرجو لنفسه النجاة بما لا تقوم أعماله الصالحة بالمصير إلى النجاة به، نحو أن يكون يصلي ركعات في الليل أو يصوم أياما يسيرة في الشهر ، ونحو ذلك .

قال: « إن أسْتَغْنَى بِطَرٍ وَفِتْنٍ ، وإن افْتَقَرَ قَنِطٌ وَوَهْنٌ » قَنِطٌ بِالْفَتْحِ يَقْنِطُ بالكسر ، قنوطا مثل جلس يجلس جلوسا ، ويجوز قَنِطٌ يَقْنِطُ بالضم مثل قَمَدٌ يَقْعُدُ ، وفيه لغة ثالثة: قَنِطٌ يَقْنِطُ قَنْطًا ، مثل تَعِبَ يَتَعَبُ تَعَبًا وَقَنَاطَةٌ فَهُوَ قَنِطٌ ، وبه قرئ: ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِنِينَ ﴾ ^(١) ، والقنوط اليأس . ووهن الرجلُ يهين ، أى ضَعُفٌ وهذا المعنى قد تكرر .

قال: « يقصّر إذا عمِل ، ويُبالِغ إذا سُئِلَ » ، هذا مثل ما مدح به النبي صلى الله عليه وآله الأنصار: « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » .

قال: « إن عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وإن عَرَّتْهُ مِحْنَةٌ أَتَرَجَّحَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ » ، هذا كما قيل: أمدحُه نَقْدًا وَيُثَبِّتُنِي نَسِيئَةً ، وأترج عن شرائط الملّة ، قال: أو فعل ما يقتضى الخروج عن الدين ؛ وهذا موجود في كثير من الناس إذا عرته المحن كَفَرُوا أو قال: ما يُقَارِبُ الْكُفْرَ مِنَ التَّسَخُّطِ وَالتَّبَرُّمِ وَالتَّأَقُّفِ .

(١) سورة الحجر ٥٥ ، وهى قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب ، وانظر تفسير القرطبي ١٠ : ٣٦ .

قال : « يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَمَعَّظُ » ، هذا هو المعنى الأول .

قال : « فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ ، وَبِالْعَمَلِ مُقِلٌّ » ، هذا هو المعنى أيضا .
قال : « يَنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى » ، أى فى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَائِهَا ، و « يُسَاسِمُ فِيمَا يَبْقَى »
أى فى الثَّوَابِ .

قال : « يَرَى الْغَنَمَ مَغْرَمًا ، وَالْغُرْمَ مَغْنَمًا » ، هذا هو المعنى الذى ذكرناه آنفا .
قال : « يَخْشَى الْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ الْفَوْتَ » ، قد تَكَرَّرَ هَذَا الْمَعْنَى فى هَذَا الْفَصْلِ ،
وكذلك قوله : « يَسْتَعِظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرُ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ . . . » ،
وإلى آخر الفصل كلُّ مَكَرَّرٍ الْمَعْنَى وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْأَلْفَاظُ ، وَذَلِكَ لِاقْتِدَارِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
على العبارة ، وَسَعَةِ مَادَّةِ النَّطْقِ عِنْدَهُ .

(١٤٧)

الأصل :

لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ خُلُوةٌ أَوْ مَرَّةٌ .

الشرح :

هكذا قرأناه ووجدناه في كثير من النسخ ، ووجدناه في كثير منها « لكل أمر عاقبة » ، وهو الأليق ، ومثل هذا المعنى قولهم في المثل : لكل سائل قرار ، وقد أخذ الطائي فقال :

فكانت لوعة ثم استقرت كذاك لكل سائل قرار^(١)

وقال الكميت في مثل هذا :

فالآن صرت إلى أميَّة والأُمورُ إلى مَصاير^(٢)

فأما الرواية الأولى وهي : « لكل أمر » فنظائرُها في القرآن كثيرة ، نحو قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَمَى * وَبُرُزَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ ظَنَّى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(٤) ، وغير ذلك من الآيات .

(١) ديوانه ٢ : ١٥٣ . (٢) الأغاني ١٥ : ١١١ (سأى) .

(٣) سورة هود ١٠٥ . (٤) سورة النازعات ٣٥ - ٤١ .

(١٤٨)

الأفضل :

الراضى يفعل قوم كالدّاخل فيه معهم ، وعلى كلّ داخلٍ في باطلٍ إيمانٍ : إنهم
أُعملَ به ، وإنهم الرضا به .

الْبُزْج :

لا فرق بين الرضا بالفعل وبين المشاركة فيه ؛ ألا ترى أنّه إذا كان ذلك الفعل قبيحا
أستحقّ الراضى به الدّم كما يستحقّه الفاعل له ! والرضا يفسّر على وجهين : الإرادة ، وترك
الاعتراض ، فإن كان الإرادة فلا ريب أنّه يستحقّ الدّم لأنّ مُريد القبيح فاعلٌ للقبيح ، وإن
كان ترك الاعتراض مع القدرة على الاعتراض فلا ريب أنّه يستحقّ الدّم أيضا ، لأنّ تارك
النهي عن المنكر مع ارتفاع الموانع يستحقّ الدّم .

فأمّا قوله عليه السلام : « وعلى كلّ داخلٍ في باطلٍ إيمان » ، فإن أراد الدّاخل فيه
بأن يفعل حقيقّة فلا شبهة في أنّه يأثم من جهتين :
إحداها من حيث أنّه أراد القبيح .

والأخرى من حيث إنه فعله ، وإن كان قومٌ من أصحابنا قالوا : إنّ عقاب المراد هو
عقاب الإرادة .

وإن أراد أنّ الراضى بالقبيح فقط يستحقّ إثمين : أحدها لأنّه رضى به ، والآخر
لأنه كالفاعل ، فليس الأمر على ذلك ، لأنّه ليس بفاعل للقبيح حقيقةً لئلا يستحقّ الإثم من
جهة الإرادة ومن جهة الفعلية جميعا ، فوجب إذن أن يُحمل كلامه عليه السلام على
الوجه الأوّل .

(١٤٩)

الأفضل :

لِكُلِّ مُقِيلٍ إِدْبَارٌ ، وَمَا أَذْبَرَ فَكَأَنَّ لَمْ يَكُنْ .

الْبَيْخ :

هذا معنى قد استعمل كثيرا جدًا ، فنه المثل :

ما طَارَ طَيْرٌ وَارْتَفَعَ إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعٌ

وقول الشاعر :

بِقَدْرِ الْعُلُوِّ يَكُونُ الْمَهْوَطُ وَإِيَّاكَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَةَ

وقال بعض الحكماء : حركة الإقبال بطيئة ، وحركة الإدبار سريعة ، لأن القُبل

كالصاعد إلى مِرْقَاة ، ومِرْقَاة المدبر كالقذوف به من علو إلى أسفل ، قال الشاعر :

فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي هَذَا الرَّوَّاقِ عَلَى هَذِي الْوَسَادَةِ كَانَ الْعَرْزُ فَاَنْقَرَضَا

آخر :

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا دَنَتْ لَزَوَّالَهَا فَعَلَامَةُ الْإِدْبَارِ فِيهَا تَظْهَرُ

وفي الخبر المرفوع : كانت ناقدة رسول الله صلى الله عليه وآله العُضْبَاءُ لَا تُسَبِّقُ ،

فجاء أعرابيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَبَّقَهَا ، فاشتد على الصحابة ذلك ، فقال رسول الله صلى الله

عليه وآله : « إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَلَّا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ » .

وقال شيخٌ من همدانَ : بِمَعْنَى أَهْلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى ذِي الْكَلَّاعِ بَهْدَايَا ، فَكَثُرُ

تحت قصره حولا لا أصل إليه ، ثم أشرف إشرافه من كوة له فخر له من حول
العرش سجدا ، ثم رأيت بعد ذلك بمحض فقيرا يشتري اللحم ويسمطه (١) خلف دابته ،
وهو القائل :

أفّ لَدُنْيَا إذا كانت كذا أنا منها في هموم وأذى
إن صفا عيشُ امرئ في صُبْحها جَرَعَتْهُ مَسِيًّا كأس القذى
ولقد كنتُ إذا ما قيلَ مَنْ أنعمُ العالمَ عَيْشًا ؟ قيل : ذا

وقال بعضُ الأدباء في كلامه: بينا هذه الدنيا تُرضع بَدْرَها وتصرّح (٢) بزبدِها، وتلحف
فضل جناحها ، وتفرّج بر كود رايحها ، إذ عطفتْ عطف الضروس ، وصرخت صُراخ (٣)
الشموس ، وشنت غارة الهموم ، وأراقت ما حلبت من النعيم ، فالسعيد من لم يغترّ بنكاحها ،
واستعدّ لو شك طلاقها .

شاعر - هو إهاب بن همام بن صَعَصعة المجاشعي ؛ وكان عثمانيا :
لعمري أبيضُ فلا تكذبُ لَقد ذهبَ الخيرُ إلّا قليلا
وقد فتنَ الناسُ في دينهم وخلى ابنُ عفّان شرّا طويلا
وقال أبو العتاهية :

يَعْمُرُ بَيْتَ بِحْرَابِ بَيْتِ يَعِيشُ حَيٌّ بَرَاثِ مَيِّتِ
وقال أنس بن مالك : ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا شهرٍ ولا سنةٍ إلّا والذي قبله خيرٌ منه ،
سمعتُ ذلك من نبيّكم عليه السلام ، فقال شاعر :
ربّ يومٍ بكيتُ منه فلما صرتُ في غيره بكيتُ عليه

(١) يسمطه ، أى يعلقه . (٢) ب : « تصرخ » ، تحريف .

(٣) ب : « صرحت » تحريف .

قيل لبعض عظماء الكتاب بعد ما صُودِر : ما تُفَكِّر في زوال نِعْمَتِكَ ؟ فقال : لا بدَّ
من الزوال ، فلأنَّ تزولَ وأبقي خيرٌ من أن أزولَ وتبقى .
ومن كلام الجاهلية الأولى : كلَّ مقيمٍ شاخص ، وكل زائدٍ ناقص .
شاعر :

إنما الدنيا دُولُ فراحِلٌ قيلَ نَزَلَ
* إذ نازلٌ قيلَ رَحَلَ *

لما فَتَحَ خالدُ بنُ الوليد عين التمر سأل عن الحُرقة بنت النعمان بن المنذر ، فأثاها
وسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعت علينا الشمس وما من شيء يدب تحت الخورنق
إلا وهو تحت أيدينا ، ثم غرَبَتْ وقد رَحِمْنَا كلَّ من نِلِمُ به ، وما بيت دخلته حَبْرَةٌ ،
إلا استدخله عَبْرَةٌ ، ثم قالت :

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوْقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فَأَفَّ لَدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلَّبَ تَارَاتٍ بَنَّا وَتَصَرَّفُ
وجاءها سعدُ بنُ أبي وقاصٍ مرَّةً ، فلما رآها ، قال : قَاتِلَ اللَّهِ عَدِيَّ بنَ زَيْدٍ ، كأنه
كان ينظر إليها حيث قال لأبيها :

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَرْعَةً فَاحْذَرْنَهَا لَا تَبِيتَنَّ قَدْ أُمِنْتَ الدَّهْلُورَا^(١)
قَدْ يَبِيتُ الْفَتَى مُعَا فَيَرُدِّي وَلَقَدْ كَانِ آمِنًا مَسْرُورَا
وقال مطرّف بنُ الشَّخِير : لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ، ولكن
انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء مُنْقَلَبِهِمْ ، وإن عُمرًا قصيرا يستوجب به صاحبه النار
لعمرٍ مشثومٍ على صاحبه .

لما قتل عايرُ بنُ إسماعيل مروان بن محمد وقعد على فراشه ، قالت ابنة مروان له :
يا عامر ، إنَّ دهرًا أُنْزَلَ مروان عن فُرْشِهِ وأَقْعَدَكَ عليها كَمُبَاغٍ في عِظَّتِكَ إن عَقَلْتَ .

(١) شعراء النصرانية ، الأغاني .

(١٥٠)

الأصل :

لا يَعدَمُ الصَّبْرُ الظَّفَرَ وإنْ طَالَ بِهِ الزَّمانُ .

الشيخ :

قد تقدّم كلامنا في الصبر .

وقالت الحكماء : الصبرُ ضربان : جسمي ونفسي ، فالجسمي تحمّل الشاقّ بقدر

القوة البدنية ، وليس ذلك بفضيلة تامّة ، ولذلك قال الشاعر :

والصبرُ بالأرواح يُعرَف فضله صبر الملوك وليس بالأجسام

وهذا النوع إمّا في الفعل كالشي ورَفَعَ الحجر أو في رفع الاتّعال كالصبر على المرض واحتمال الضرب المُفْطِيع . وأما النفسيّ ففيه تتعلّق الفضيلة ؛ وهو ضربان : صبرٌ عن مشتهى ، ويقال له : عِفّة ، وصبرٌ على تحمّل مكروه أو محبوب . وتختلف أسماءه بحسب اختلافِ مواقفه ، فإن كان في نزول مصيبة لم يتعدّ به اسم الصبر ، ويضادّه الجزع والهلوع والحزن ، وإن كان في احتمال الغنى سميّ ضبط النفس ، ويضادّه البطر والأشر والرفع وإن كان في محاربة سميّ شجاعةً ويضادّه الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطَر الغضب سميّ حِلماً ، ويضادّه التذمّر والاستشاطّة ، وإن كان في نائبة مضجرة سميّ سعة صدر ، ويضادّه الضجر وضيق العَظَن والتبرّم ، وإن كان في إمساك كلامٍ في الضمير سميّ كتمان السرّ ، ويضادّه الإفشاء ، وإن كان عن فضول العيش سميّ قناعةً وزهداً ويضادّه الحرص والشرة . فهذه كلها أنواعُ الصبر ، ولكن اللفظ العرُفي واقع على الصبر الجسمانيّ ، وعلى ما يكون في نزول المصائب ، وتنفرد^(١) باقي الأنواع بأسماء تخصّها .

(١) ب : « وينفرد » .

(١٥١)

الأُصْلُ :

مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً .

الإِشْرَاحُ :

هذا عند أصحابنا مختصٌ باختلاف الدعوة في أصول الدين ، ويدخل في ذلك الإمامة ، لأنها من أصول الدين ، ولا يجوز أن يختلف قولان متضادان في أصول الدين فيكونا صوابا ، لأنه إن عني بالصواب مطابقة الاعتقاد للخارج ؛ فستحيل أن يكون الشيء في نفسه ثابتا منفيا ، وإن أراد بالصواب سقوط الإثم - كما يحكي عن عبيد بن الحسن العنبري - فإنه جمل اجتهاد المجتهدين في الأصول عُذْرًا ، فهو قولٌ مسبوق بالإجماع .

ولا يحمل أصحابنا كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على عمومِهِ ، لأن المجتهدين في فروع الشريعة وإن اختلفوا وتضادت أقوالهم ليسوا ولا واحد منهم على ضلال ، وهذا مشروح في كُتُبنا الكلامية في أصول الفقه .

(١٥٢)

الأُضْلُ :

مَا كَذَبْتُ وَلَا كَذِبْتُ ، وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضَلَّ بِي .

الشَّرْحُ :

هذه كلمة قد قالها مرارا ، إحداهن في وقعة النهر وان .

وكُذِّبْتُ بالضم أَخْبِرْتُ بِخَبَرٍ كاذب ، أى لم يخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله عن المَخْدَج خبراً كاذباً ، لأن أخباره صلى الله عليه وآله كلها صادقة .

وَضَلَّ بِي ، بالضم نحو ذلك ، أى لم يُضِلِّنى مضلل عن الصدق والحق ، لأنه كان يَسْتَنِدُ في أخباره عن الغيوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو منزّه عن إضلاله وإضلال أحد من المكلفين .

فكأنه قال لما أخبرهم عن المَخْدَج ^(١) وإبطاء ظهوره لهم : أنا لم أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا يكذب فيما أخبرنى بوقوعه ، فإذا لا بدّ من ظفركم بالمَخْدَج فاطلبوه .

(١) المَخْدَج : ناقص اليد ؛ وهو ذو التديّة .

(١٥٣)

الأصل :

لِظَّالِمٍ الْبَادِي غَدًا بِكَفِّهِ عَصَّةٌ .

الشرح :

هذا من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾^(١) ، وإنما قال : « للبادي » لأن من انتصر بعد ظلمه فلا سبيل عليه . ومن أمثالهم : البادي أظلم .
فإن قلت : فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالماً ، فأى حاجة له إلى الاحتراز بقوله :
« البادي » ؟

قلت : لأن العرب تُطلق على ما يقع في مُقابلة الظلم اسم « الظلم » أيضاً كقوله تعالى :
﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٢) .

(١) سورة الفرقان ٢٧ . (٢) سورة الشورى ٤٠ .

(١٥٤)

الأفضل :

الرَّحِيلُ وَشَيْكُ .

* * *

الشَّيْخُ :

الوشيكُ : السريع ، وأراد بالرحيل ها هنا الرَّحِيلُ عن الدنيا وهو الموت .
وقال بعضُ الحكماء : قبل وجود الإنسان عدم لا أوَّل له ، وبعده عدم لا آخر له ،
وما شَبَّهَتْ وجوده القليل ^(١) التناهي بين المدمين غير المتناهيين إِلَّا بَرَقَ يَخْطَفُ خَطْفَةً
خفيفةً ^(٢) في ظلامٍ مُعتكر ، ثم يَحمَدُ وَيَعُودُ الظَّلامُ كما كان .

(١) : « الوجود القليل » . (٢) : « يسيرة » .

— ٣٧١ —

(١٥٥)

الأصل :

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

الشرح :

قد تقدّم تفسيرُنا لهذه الكلمة في أوّل الكتاب ، ومعناها : من نابذَ الله وحاربه هلك ، يقال لمن خالف وكشف : قد أبدى صَفْحَتَهُ .

(١٥٦)

الأصل :

اسْتَعْصِمُوا بِالذِّمِّ فِي أَوْتَارِهَا .

الشرح :

أى فى مظانها وفى مركزها ، أى لا تستندوا إلى ذمام الكافرين والمارقين ، فإنهم ليسوا أهلا للاستعصام بذمهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾^(١) . وقال : ﴿ إِنْهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾^(٢) .

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمر الجمل وحضور قوم من الطلقاء بين يديه ليُبَايعوه ، منهم مروان بن الحكم ؛ فقال : وماذا أصنع ببيعتك ؟ ألم تُبَايعنى بالأمس ! يعنى بعد قتل عثمان ، ثم أمر بإخراجهم ورفع نفسه عن مبايعة أمثالهم ، وتكلم بكلام ذكر فيه ذمام العربيه وذمام الإسلام ، وذكر أن من لا دين له فلا ذمام له .

ثم قال فى أثناء الكلام : « فاستعصموا بالذمم فى أوتارها » ، أى إذا صدّرت عن ذوى الدين ، فمن لا دين له لا عهد له .

(١٥٧)

الأضل :

عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذِرُونَ فِي جَهَالَتِهِ .

الشنخ :

يعنى نفسه عليه السلام ؛ وهو حقّ على المذهبيين جميعا ، أما نحن فعمدنا أنه إمام واجب الطاعة بالاختبار ، فلا يُعْذَرُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي الْجَهْلِ بِوَجوب طاعته ، وأما على مذهب الشيعة فلأنه إمام واجب الطاعة بالنص ، فلا يُعْذَرُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَالَةِ إمامته ، وعندهم أن معرفة إمامته تتجرى مجرى معرفة محمد صلى الله عليه وآله وتجرى معرفة الباري سبحانه ، ويقولون : لا تصح لأحد صلاة ولا صوم ولا عبادة إلا بمعرفة الله والنبي والإمام .

وعلى التحقيق ، فلا فرق بيننا وبينهم في هذا المعنى ، لأن من جهل إمامة علي عليه السلام وأنكر صحتها ولزومها ، فهو عند أصحابنا مخلد في النار ، لا ينفعه صوم ولا صلاة ، لأن المعرفة بذلك من الأصول الكلية التي هي أركان الدين ، ولكننا لا نسمي منكر إمامته كافرا ، بل نسميه فاسقا وخارجيا ، ومارقا ، ونحو ذلك ، والشيعة تسميه كافرا ، فهذا هو الفرق بيننا وبينهم ، وهو في اللفظ لا في المعنى .

(١٥٨)

الأصل :

مَا شَكَّكَتُ فِي الْحَقِّ مُنْذُ أُرِيْتُهُ .

الشرح :

أى منذ أعلمته ، ويجب أن يُقدَّر ها هنا مفعول محذوف ، أى منذ أُريته حقاً ، لأن « أرى » يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، تقول : أرى الله زَيْدًا صَمْرًا خَيْرَ النَّاسِ ، فإذا بنيتَه للمفعول به قام واحدٌ من الثلاثة مقام الفاعل ووجب أن يُوثى بمفعولين غيره ، تقول : أريت زيدا خيراً الناس ، وإن كان أشار بالحق إلى أمرٍ مُشاهد بالبصر لم يحتج إلى ذلك ، ويجوز أن يعنى بالحق الله سبحانه وتعالى ، لأن الحق من أسمائه عز وجل ، فيقول : منذ عرفت الله لم أشك فيه ، وتكون الرؤية بمعنى المعرفة ، فلا يحتاج إلى تقدير مفعول آخر ؛ وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ لَأَنْ تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾^(١) ؛ أى لا تعرفونهم ، الله يعرفهم ، والمراد من هذا الكلام ذكرُ نعمة الله عليه في أنه منذ عرف الله سبحانه لم يشك فيه ، أو منذ عرف الحق في العقائد الكلامية والأصولية والفقهية لم يشك في شيء منها ؛ وهذه مزية له ظاهرة على غيره من الناس ، فإن أكثرهم أو كلهم يشك في الشيء بسبب أن عرفه وتمتوره الشبهة والوساوس ويُران على قلبه وتختلجُه الشياطين عما أدى إليه نظره .

— ٣٧٥ —

وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا ضَرَبَ عَلَى صَدْرِهِ
وَقَالَ : « اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ ، وَثَبِّتْ لِسَانَهُ » ، فَكَانَ يَقُولُ : مَا شَكَّكْتُ بَعْدَهَا فِي قَضَاءِ
بَيْنِ اثْنَيْنِ .

وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا قَرَأَ : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ ^(١) قَالَ :
« اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا أُذُنَ عَلِيٍّ » ، وَقِيلَ لَهُ : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكَ » .

(١٥٩)

الأضل :

وَقَدْ يُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدَيْتُمْ إِنْ اهْتَدَيْتُمْ .

الشَّيْخُ :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا تَخْمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَجَبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) .

وقال بعض الصالحين : ألا إنهما نجدًا الخَيْر والشر ، فجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير .

قلت : النجد : الطريق .

واعلم أن الله تعالى قد نصب الأدلة ومكن المكلف بما أكمل له من العقل من الهداية ، فإذا ضلَّ فَمِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ أَى .

وقال بعض الحكماء : الذى لا يقبل الحكمة هو الذى ضلَّ عنها ليست هى الضلالة عنه .

وقال : متى أحسست بأنك قد أخطأت وأردت ألا تعود أيضا فتخطئ فانظر إلى أصل في نفسك حدث عنه ذلك الخطأ ، فاحتل في قلبي ، وذلك إنك إن لم تفعل ذلك عاد فتبت خطأ آخر . وكان يقال : كما أن البدن الخالي من النفس تفوح منه رائحة النتن ، كذلك النفس الخالية من الحكمة ؛ وكما أن البدن الخالي من النفس ليس يحس ذلك بالبدن

بل الذين لهم حِسٌّ يُحِسُّونَهُ بِهِ ، كذلك النفس العَدِيَّة للحكمة ليس تحسُّ بِهِ تلك النفس ،
 بل يُحِسُّ بِهِ الحكماء ؛ وقيل لبعض الحكماء : ما بالُ الناسِ ضلّوا عن الحقِّ ؟ أتقول :
 إنهم لم تُخَلَقْ فيهم قوَّة مَعْرِفَةٍ ؟ فقال : لا ، بل خُلِقَ لهم ذلك ، ولكنهم استعملُوا
 تلك القوَّة على غير وجهها ، وفي غير ما خُلِقَتْ لَهُ ، كالسِّمِّ تَدْفَعُهُ إِلَى إِنْسَانٍ لِيَقْتُلَ بِهِ
 عَدُوَّهُ فَيَقْتُلُ بِهِ نَفْسَهُ .

(١٦٠)

الأصل :

عَاتِبَ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَأَرْدَدُ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

الشَّيْخُ :

الأصل في هذا قولُ الله تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عداوةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١) .

وروى المبرد في " الكامل " ، عن ابن عائشة ، عن رجل من أهل الشام ، قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسنَ وجهاً ولا ثوباً ولا سمّاً ولا دابةً منه ، قال قلبي إليه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ عليٍّ ، فامتلأ قلبي لهُ بفضاً ، وحسدتُ عليه أن يكون له ابن مثله ، فصرتُ إليه وقلتُ له : أنت ابن أبي طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت : فبك وبأبيك ! فلما انتفضي كلامي قال : أحسبك غريباً ؟ قلت : أجل ، قال : فعملُ بنا ، فإن احتججتُ إلى منزلٍ أنزلناك ، أو إلى مالٍ وأسَيْنَاك ، أو إلى حاجةٍ عاونَاك .

فانصرفتُ عنه وما على الأرض أحدٌ أحبَّ إلىَّ منه (٢) .

وقال محمود الورّاق :

إني شُكرتُ لظالمي ظلمي وغفرتُ ذاكَ لهُ على علمِ
ورأيتُهُ أهْدَى إلىَّ يداً لَمَّا أبَانَ بجَهْلِهِ حِلْمِي
رجعتُ إِسَاءَتُهُ عليه وإح ساني فَعَادَ مُضَاعَفَ الجُرْمِ

(١) سورة فصلت ٣٤ . (٢) الكامل ٢ : ٥ ، ٦ .

وَعَدَوْتُ ذَا أُجْرٍ وَمَحْمَدَةَ وَغَدَا يَكْسِبِ الظُّلْمَ وَالْإِثْمَ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

قال المبرد : أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش قال له رجل منهم : إني مررتُ
بآل فلان وهم يشتمونك شتمًا رَحِمْتَكَ منه ؛ قال : أفسِمَعَتْنِي أقول إِلَّا خيرًا ! قال : لا ،
قال : إيتاهم فارحم^(١) .

وقال رجل لأبي بكر : لَأَشْتُمَنَّكَ شتمًا يَدْخُلُ معَكَ قَبْرَكَ ، فقال : مَعَكَ وَاللَّهِ
يَدْخُلُ ، لَا مَعِيَ^(٢) .

(١٦١)

الأضل :

مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التَّهْمَةِ فَلَا يَكُومَنَّ مِنْ أَسَاءٍ بِهِ الظَّنَّ .

الشَّخْخ :

رَأَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفًا فِي دَرَبٍ مِنْ دُرُوبِ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ امْرَأَةٌ فَسَّامَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ نَادَاهُ فَقَالَ : هَذِهِ زَوْجَتِي فَلَانَةُ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْفِيكَ يُظَنُّ ! فَقَالَ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ » .

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ : « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ » .
وَقَالَ أَيْضًا : « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَتْرُكَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ » .

وَقَدْ أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى شَاعِرُهُ فَقَالَ :

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَا تَلُوطُ فَقُلْ لَنَا هَذَا الْقَرْطُقُ وَاقِفًا مَا يَصْنَعُ !
شَهِدْتَ مَلَاَحَتَهُ عَلَيْكَ بَرِيَّةٍ وَعَلَى الْمُرِيْبِ شَوَاهِدٌ لَا تُدْفَعُ

— ٣٨١ —

(١٦٢)

الأفضل :

مَنْ مَلَّكَ اسْتَأْثَرَ .

الشَّيْخُ :

المعنى أن الأغلب في كلِّ ملكٍ يَسْتَأْثِرُ على الرعية بالمال والعزِّ والجاه .

ونحو هذا المعنى قولهم : مَنْ غَلَبَ سَلَبَ ، ومن عَزَّ بَزَّ .

ونحوه قول أبي الطيّب :

والظلمُ من شيمِ القفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فَلِمَلَةٍ لا يظلمُ^(١)

(١٦٣)

الأفضل :

مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَمَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُوبِهَا .

الشيخ :

قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ في المشورة مدحا وذما .

وكان عبدُ الملك بن صالح الهاشمي يذمّها ويقول : ما استشرتُ واحدا قطّ إلا تكبرَ عليّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العِزّة ودخلتني الذلّة ، فإياك والمشورة وإن ضاقتُ عليك المذاهبُ ، واشتبهتُ عليك المسائل ، وأذاك الاستبدادُ إلى الخطأ الفادح .

وكان عبدُ الله بن طاهر يذهب إلى هذا المذهب ، ويقول : ما حكّ جلدك مثل ظُفرك ؛ ولأنّ أخطىء مع الاستبداد ألفَ خطأ ، أحبُّ إلىّ من أن أستشير وأرى بعين النقص والحاجة .

وكان يقال : الاستشارة إذاعة السرّ ، ومخاطرة الأمر الذي ترومه بالمشاورة ، فربّ مستشارٍ أذاع عنك ما كان فيه فساد تدبيرك .

وأما المادحون للمشورة فكثير جدّا . وقالوا : خاطر من استبدّ برأيه .

وقالوا : المشورة راحةٌ لك ، وتعبٌ على غيرك .

وقالوا : من أكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا ، وعند الخطأ عاذرا .

وقالوا : المستشير على طَرَف النَّجَاح ، والاستشارة مِن عَزْمِ الأمور .
 وقالوا : المَشُورَةُ لقَاحُ العقول ، ورائد الصواب .
 ومن ألقاظهم البديعة : ثَمَرَةُ رَأْيِ المُشِيرِ أحلّ مِن الأَرْيِ المشور^(١) .
 وقال بَشَّار :

إذا بلغ الرأى النَّصِيحَةَ فَاسْتَعِنْ بِعَزْمٍ نَصِيحٍ أَوْ مَشُورَةٍ حَازِمٍ^(٢)
 وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَإِنَّ الخَوَافِ عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ

(١) الأرى : العسل ، والمشور : المستخرج . شرت العسل : استخرجه .
 (٢) شرح مختار بشار ٣١٢ .

(١٦٤)

الأضل :

مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ فِي يَدِهِ .

الشَّيْخُ :

قد تقدّم القولُ في السرِّ والأمر بكتّمه ؛ ونذكرها هنا أشياءً آخر .

من أمثالهم : مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ لَحْيَيْهِ .

دنا رجلٌ من آخر فسارّه ، فقال : إن من حق السرِّ التّداني .

كان مالكُ بنِ مِسمعٍ إذا سارّه إنسانٌ قال له : أظهره ، فلو كان فيه خيرٌ لما كان مكتوماً .

حكيمٌ يوصي ابنه : يا بُنَيَّ كُنْ جَوَاداً بِالْمَالِ في موضع الحقِّ ، ضئيلاً بالأسرار عن جميع الخلق ، فإنَّ أحمدَ جُود المرء الإنفاق في وجه البرِّ .

ومن كلامهم : سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ ، فإذا تكلمت به فقد أرقته .

وقال الشاعر :

فلا تُقَشِّرْ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ . فإنَّ لكلَّ نصيحٍ نصيحاً

ألم ترَ أَنَّ غُوَاةَ الرِّجَالِ لا يتركون أديماً صحيحاً !

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : القلوب أوعى الأسرار والشفاه أفلها ، والألسن مفاتيحها

فليحفظ كلُّ امرئٍ مفتاحَ سِرِّهِ .

وقال بعض الحكماء : مَنْ أَفْشَى سِرَّهُ كَثُرَ عَلَيْهِ التَّائِمُونَ .
 أَسَرَّ رجل إلى صديق^(١) سرًّا ثم قال له : أَفْهَمْتُ ؟ قال له : بل جهلتُ ، قال :
 أَحْفَظْتُ ؟ قال : بل نسيت .
 وقيل لرجل : كيف كتمانك السرَّ ؟ قال : أجدد الخبر ، وأحلف للمُسْتَحِير .
 أنشد الأصمعي قولَ الشاعر :
 إِذَا جَاوَزَ الْإِنْسَانُ سِرَّهُ فَإِنَّهُ يَنْتُ وَتَكْثِيرِ الْوُشَاةِ قَمِينُ^(٢)
 فقال : والله ما أَرَادَ بِالْإِنْسَانِ إِلَّا الشَّفَقَيْنِ .

(١) : « صديقه » . (٢) قَبِين : خَلِيق .

(١٦٥)

الأفضل :

الفقر الموت الأكبر .

الشَّيْخ :

في الحديث المرفوع : « أشقى الأشقياء مَنْ جُمِعَ عليه فقرُ الدنيا وعذاب الآخرة » .
وأنى بُزُرْجَمِهَر فقيرٌ جاهل ، فقال : بئسما اجتمع على هذا البائس : فقرُ ينقص دنياه ،
وجهلٌ يُفسد آخرته .

شاعر :

خُلِقَ الْمَالُ وَالْيَسَارُ لِقَوْمٍ وَأَرَانِي خُلِقْتُ لِلْإِمْلَاقِ

أَنَا فِيهَا أَرَى بَقِيَّةَ قَوْمٍ خَلِقُوا بَعْدَ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ

أَخَذَ السَّيَّوَاسِيُّ هَذَا الْمَعْنَى ، فَقَالَ فِي قَصِيدَتِهِ الطَّوِيلَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّاسَانِيَّةِ :

لَيْتَ شِعْرِي لَمَّا بَدَأَ يَقْسِمُ الْأَرْزَاقَ فِي أَيِّ مَطْبَقٍ كُنْتُ^(١)

قَرِئْتُ عَلَى أَحَدِ جَانِبِي دِينَارَ :

قُرِئْتُ بِاللُّجَجِ وَبِي كُلُّ مَا يَرَادُ مِنْ مَمْتَنَعٍ يُوجَدُ

وَعَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ :

وَكُلٌّ مِنْ كُنْتُ لَهُ آفَاءً فَالْإِنْسُ وَالْجَنُّ لَهُ أَعْبُدُ

(١) المطلق : السجن .

وقال أبو الدرداء : مَنْ حفظ ماله فقد حَفِظَ الْآكْثَرَ مِنْ دِينِهِ وَعِرْضِهِ .

بعضهم :

وإذا رأيتَ صعوبةً في مطلبٍ فاحملِ صعوبته على الدينارِ

تردده كالظَّهْرِ الدُّلُولِ فإنه حَجَرٌ يَلِينُ قوَّةَ الْأَحْجَارِ

ومن دعاء السَّلفِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ذُلِّ الْفَقْرِ وَبَطَرِ الْغِنَى .

(١٦٦)

الأصل :

مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ غَبَّهٗ .

الشُّنْخ :

عَبَّه بالتشديد ، أى اتخذه عبداً ، يقال : عَبَّه واستَعَبَّه بمعنى واحد ؛ والمعنى بهذا الكلام مَدَّحُ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ ، أى من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنه لم يفعل معه ذلك مكافأةً له عن حقِّ قضاء إِيَّاه ، بل فعل ذلك إنما ما مبتدأ ، فقد استعبد به ذلك^(١) .

وقال الشاعر فى تقيض هذه الحال يخاطب صاحباً له :

كُنْ كَأَنْ لَمْ تَلَاقِ قَطُّ فى النَّاسِ سِـ وَلَا تَجْمَلَنَّ ذِكْرَاىَ شَوْقَا
وَتَيْقِنَنَّ بِأَنْبَى غَيْرُ رَاءٍ لَكَ حَقًّا حَتَّى تَرَى لِىَ حَقًّا
وَبَأْنَى مَفُوقَ أَلْفَ سَهْمٍ لَكَ إِنْ فُوقَتْ يَمِينُكَ فُوقَا

(١) : « بهذا » .

(١٦٧)

الأنسل :

لا طاعةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

الشَّيْخُ :

هذه الكلمةُ قد رويتْ مرفوعةً ، وقد جاء في كلام أبي بكر : أطيعوني ما أطيعُ الله ؛ فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم .

وقال معاوية لشداد بن أوس : قم فاذا كر عليًا فانتقصه ^(١) ؛ فقام شداد فقال : الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده ، وجعل رضا عند أهل التقوى أثرًا من رضا غيره ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه مضى آخرهم . أيها الناس ، إن الآخرة وعدٌ صادق يحكم فيها ملك قاهر وإن الدنيا أكلٌ حاضر ، يأكل منها البرّ والفاجر ، وإن السامع الطيع لله لا حجة عليه وإن السامع العاصي لله لا حجة له ، وإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وإذا أراد الله بالناس خيرًا استعمل عليهم صلحاءهم ، وقضى بينهم فقهاؤهم ^(٢) ، وجعل المال في سمعائهم ، وإذا أراد بالعباد شرًا عمل عليهم سفهاؤهم ، وقضى بينهم جهلاؤهم ، وجعل المال عند بخلائهم . وإن من إصلاح الولاية أن تصلح قراءها . ثم التفت إلى معاوية فقال : نصحك يا معاوية من أسخطك بالحق ، وغشك من أرضاك بالباطل ! فقطع معاوية عليه كلامه ، وأمرَ بإزاله ، ثم لطفه وأمرَ له بمال ، فلما قبضه قال : ألسن من السمحاء الذين ذكرت ؟ فقال : إن كان لك مالٌ غيرُ مال المسلمين أصبته حلالا ، وأنفقته إفضالا فنعم ، وإن كان مالُ المسلمين احتجبته دونهم أصبته اقترافا ، وأنفقته إسرافا ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(٣) .

(١) في د « وتقصه » وهو مستقيم أيضا . (٢) في د « علماؤهم » .

(٣) سورة الإسراء ٢٧ .

(١٦٨)

الأصل :

لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ .

الشَّرْحُ :

لعل هذه الكلمة قالها في جواب سائل سأل : لِمَ أَخَّرْتَ الْمَطَالِبَةَ بِحَقِّكَ مِنَ الْإِمَامَةِ ؟
ولا بدَّ من إضمار شيء في الكلام على قولنا وقول الإمامية ، لأننا نحن نقول : الأمرُ حَقُّهُ
بالأفضلية وهم يقولون : إنه حَقُّهُ بالنص ، وعلى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ فلا بدَّ من إضمار شيء في
الكلام ؛ لأنَّ لقائل أن يقول له عليه السلام : لو كان حَقُّكَ من غير أن يكون للكلفين
فيه نصيبٌ لجاز ذلك أن يؤخَّرَ كالدَّيْنِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ عَلَى زَيْدٍ ، يجوز لك أن تؤخِّره لأنَّه
خَالِصٌ لَكَ وَحْدَكَ ؟ فَأَتَمَّا إِذَا كَانَ لِلْمَكْلُفَيْنِ فِيهِ حَاجَةٌ مَاسَّةٌ لَمْ يَكُنْ حَقُّكَ وَحْدَكَ ؛ لِأَنَّ
مَصَالِحَ الْمَكْلُفَيْنِ مَنُوطَةٌ بِإِمَامَتِكَ دُونَ إِمَامَةِ غَيْرِكَ ، فَكَيْفَ يجوز لك تأخير ما فيه مصلحةُ
المكلفين ؟ فَإِذَنْ لَا بدَّ من إضمار شيء في الكلام . وتقديره : لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ
إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَانِعٌ عَنْ طَلَبِهِ ، وَيَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ عَلَى الْمَذْهَبَيْنِ جَمِيعًا ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ
مانعٌ جاز تقديم غيره عليه ، وَجَازَ لَهُ أَنْ يُؤَخَّرَ طَلَبَ حَقِّهِ خَوْفَ الْفِتْنَةِ ، وَالْكَلامُ فِي هَذَا
الْمَوْضِعِ مُسْتَقْصَى فِي تَصَانِيفِنَا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ .

(١٦٩)

الأفضل :

الإعجابُ يَمْنَعُ مِنَ الْإِزْدِيَادِ .

الشَّيْخُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقْنِعٌ في المُعْجَبِ ؛ وإنما قال عليه السلام : « يمنع من الإزدیاد » لأنَّ المُعْجَبَ بنفسه ظانٌّ أَنَّهُ قد بَلَغَ الغَرَضَ ، وإنما يَطْلُبُ الزَّيَادَةَ مَنْ يَسْتَشْمِرُ التَّقْصِيرَ لا مَنْ يَتَخَيَّلُ الكَمَالَ ، وحقيقة العَجَبِ ظَنُّ الإنسانِ بنفسِهِ استحقاقَ منزلةٍ هو غَيْرُ مستحقٍّ لها ؛ ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجباً بنفسه : يسرّني أن أكون عند الناس مثلك في نفسك ، وأن أكونَ عندَ نفسي مثلك عند الناس ، فتمنّى حقيقة ما يقدره ذلك الرجل ، ثمّ تمنّى أن يكون عارفاً بعيوب نفسه ، كما يعرف الناسُ عيوبَ ذلك الرجل المُعْجَبِ بنفسه .

وقيل للحسن : مَنْ شرُّ الناس ؟ قال : مَنْ يرى أَنَّهُ خيرُهُمْ .
وقال بعض الحكماء : الكاذب في نهاية البُعدِ من الفضل ؛ والرأى أسوأ حالاً من الكاذب ، لأنّه يَكْذِبُ فعلاً ، وذاك يَكْذِبُ قولاً ، والفعل أكْثَرُ من القول ؛ فأما المُعْجَبُ بنفسِهِ فأسوأ حالاً منهما ، لأنهما يَرَيَانِ نَقْصَ أنفسِهما ، ويُريدان إخفاءه، والمُعْجَبُ بنفسِهِ قد عمى عن عيوبِ نفسه فإِراها محاسنَ ويُبديها .
وقال هذا الحكميُّ أيضاً : ثمّ إنَّ الرأى والكاذبَ قد يُنتَفَعُ بهما كَمَلّاح خاف

رُكَّابُهُ الْفَرَقَ مِنْ مَكَانٍ خَوْفٍ مِنَ الْبَحْرِ ، فَبَشَّرَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ لَثَلَا
يَضْطَرُّوْنَ فَيَتَعَجَّلُ غَرَقَهُمْ .

وقد يُحَمَّدُ رِيَاءَ الرَّئِيسِ إِذَا قَصَدَ أَنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ ، وَالْمُعْجَبُ لَا حَظَّ لَهُ
فِي سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْحَمْدَةِ بِحَالٍ .

وَأَيْضًا فَلَأَنَّكَ إِذَا وَعَظْتَ الْكَاذِبَ وَالرَّائِيَ فَنَفْسُهُمَا تَصَدَّقُكَ وَتَتَلَبَّهَمَا لِمَعْرِفَتِهِمَا
بِنَفْسِهِمَا ، وَالْمُعْجَبُ فَلِجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ يَظُنُّكَ فِي وَعْظِهِ لَاغِيَا ، فَلَا يَنْتَعِ بِمَقَالِكَ ، وَإِلَى هَذَا
الْمَعْنَى أَشَارَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ ^(١) ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ :
﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ ^(٢) ، تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ لِإِعْجَابِهِمْ .
وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثَلَاثُ مُهْلِكَاتٍ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ
بِنَفْسِهِ .

وَفِي الْمَثَلِ : إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ : إِذَا ظَفَرْتُ مِنْ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَ لَمْ أَطْلُبْهُ بغيرِهَا : إِذَا
أُعِجِبَ بِنَفْسِهِ ، وَاسْتَكْتَرَّ عَمَلَهُ ، وَنَسِيَ ذُنُوبَهُ .

وَقَالَتِ الْحِكْمَاءُ : كَأَنَّ الْمُعْجَبَ بِفِرْسِهِ لَا يَرُومُ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ غَيْرَهُ ، كَذَلِكَ الْمُعْجَبُ
بِنَفْسِهِ لَا يُرِيدُ بِحَالِهِ بَدَلًا ، وَإِنْ كَانَتْ رَدِيئَةً .

• وَأَصْلُ الْإِعْجَابِ مِنْ حُبِّ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ
يُغْمِي وَيُصِمُّ » ، وَمَنْ غَمِيَ وَصَمَّ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ رُؤْيُهُ عُيُوبَهُ وَسَمَاعُهَا ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ عَلَى
الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْمَلَ عَلَى نَفْسِهِ عِيُونًا تُعَرِّفُهُ عُيُوبَهُ ، نَحْوَ مَا قَالَ عُمَرُ : أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى أَمْرٍ
أَهْدَى إِلَى عِيُوبٍ .

وَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا رَأَى مِنْ غَيْرِهِ سَيِّئَةً أَنْ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ ، فَإِنْ رَأَى ذَلِكَ

موجوداً فيها نَزَعَهَا ولم يَفْعَلْ عنها ، فما أَحْسَنَ ما قال المتنبي :

ومن جهلتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رأى غيرُهُ منه ما لا يَرَى ^(١)

وأما التَّيَّة وماهِيَّتُهُ فهو قريب من العُجَب ، لكنَّ العُجَب يصدِّق نفسه وَهْمًا
فيما يظنُّ بها ، والتَّيَّاه يصدِّقها قَطْعًا ، كأنَّه متَحَيِّرٌ في تِيهِ . ويُمكن أن يفرق بينهما
بأمرٍ آخَر ، ويقول : إنَّ المعجَب قد يُعجَب بنفسِهِ ولا يؤذِي أحداً بذلك الإعجاب ،
والتَّيَّاه يَضُمُّ إلى الإعجاب النِّصَّ من الناس والترَفُّع عليهم ، فيستلزم ذلك الأذى لهم ،
فكلُّ تَائِهٍ معجَب ، وليس كلُّ معجَب تَائِهًا .

(١٧٠)

الأضل :

الأمْرُ قَرِيبٌ ، وَالْاضْطِحَابُ قَلِيلٌ .

الشنخ :

هذه الكلمة تُذكرُ بالموت وسرعة زوال الدنيا ؛ وقال أبو العلاء :

نَفْسِي وَجِسْمِي لَمَّا اسْتَجْمَعَا صَنَعَا	شَرًّا إِلَى فَجَلِّ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
فَالْجِسْمُ يَعْدِلُ فِيهِ النَّفْسَ مَجْتَهِدًا	وَتِلْكَ تَزْعُمُ أَنَّ الظَّالِمَ الْجَسَدُ
إِذَا مُهَا بَعْدَ طُولِ الصُّحْبَةِ افْتَرَقَا	فَإِنَّ ذَاكَ لِأَحْدَاثِ الزَّمَانِ يَدُ
وَأَصْبَحَ الْجَوْهَرُ الْحَسَّاسُ فِي مَحَنٍ	مُوصُولَةٍ وَاسْتِرَاحَ الْآخِرُ الْجَمَدُ

(١٧١)

الأضلُ :

قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِدَى عَيْنَيْنِ .

الشَّيْخُ :

هذا الكلامُ جارٍ بِجَرَى المَثَلِ ، ومثله :

* والشمسُ لا تَخْفَى عن الأَبْصَارِ *

ومثله :

* إِنَّ الغَزَالَ لا تَخْفَى عن البَصَرِ *

وقال ابن هانئٍ يمدح المعتزَّ :

فاستيقظوا من رَقْدَةٍ وتنبَّهوا ما بالصَّبَاحِ عن العُيُونِ خَفَاءُ^(١)
ليستْ سَمَاءُ اللَّهِ ما تَرَوْنَهَا لكنَّ أَرْضاً تَحْتَوِيهِ سَمَاءُ

(١٧٢)

الأصل :

تَرَكَ الذَّنْبَ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ .

الشرح :

هذا حق ، لأن ترك الذنب هو الإحجام عنه ، وهذا سهل على من يعرف أثر الذنب على ماذا يكون ، وهو سهل من أن يواقع الإنسان الذنب ، ثم يطلب التوبة ، فقد لا يخلص داعيه إليها ، ثم لو خَلَص فكيف له بمُحْصُولِهِ على شروطها ، وهي أن يندم على القبيح لأنه قبيح ، لا لخوف العقاب ، ولا لرجاء الثواب ، ثم لا يكفي أن يتوب من الزنا وحده ، ولا من شرب الخمر وحده ، بل لا تصح توبته حتى تكون عامة شاملة لكل القبائح فيندم على ما قال ويود أنه لم يفعل ، ويعزم على ألا يعاود معصية أصلا ، وإن نقض التوبة عادت عليه الآثام القديمة والعقاب المستحق ولا الذي كان سقط بالتوبة على كثير من أرباب غِلْمِ الكلام ؛ ولا ريب أن ترك الذنب من الابتداء أسهل من طلب توبته هذه صفتها .

وهذا الكلام جارٍ ^(١) سَجَرَى المثل يُضْرَبُ لمن يشرع في أمرٍ يخاطر فيه ، ويرجو أن يتخلص منه فيما بعدُ بوجه من الوجوه .

(١) د : « يجرى » .

(١٧٣)

الأمنل .
كم من أكلة تمنع أكلات .

الشنخ :

أخذ هذا المعنى بلفظه الحريى فقال فى المقامات : « رب أكلة هاضت الآكل ،
ومنمته مآكل » ، وأخذ أبو العلاف الشاعر فقال فى سنوره الذى يرثيه :
أردت أن تأكل الفراح ولا يأكلك الدهر أكل مضطهد^(١)
يا من لذيد الفسائح أوقمه ويحك هلا قمت بالقدر !
كم أكلة خامرت حشا شربه فأخرجت روحه من الجسد

[نواذر المكثرين من الأكل]

وكان ابن عياش المتوفى بمأزح المنصور أبا جعفر فيحتمله على أنه كان جدًا كلة ؛
فقدّم المنصور جلسائه يوما بطلة كثيرة الدهن ، فأكلوا وجعل يأمرهم بالازدياد من الأكل
لطيها ، فقال ابن عياش : قد علمت غرضك يا أمير المؤمنين ، إنما تريد أن ترميهم منها
بالحجاب - يعنى الهيمضة - فلا يأكلوا إلى عشرة أيام شيئاً .
وفى المثل : « أكلة أبى خارجة » ؛ وقال أعرابى وهو يدعو الله بباب الكعبة : اللهم

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٨ .

مَيْتَةً كَمَيْتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، فَسَأَلُوهُ فَقَالَ : أَكُلْ بَذَاجًا - وَهُوَ الْحَمَلُ - ، وَشَرِبْ وَطْبًا مِنَ اللَّبَنِ - وَوَرَوَى مِنَ التَّبِينِ - وَهُوَ كَالْحَوْضِ مِنْ جُلُودٍ يَنْبِذُ فِيهِ ، وَنَامَ فِي الشَّمْسِ فَمَاتَ فَلَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى شَبْعَانَ رِيَّانَ دَفِينًا .

والعرب تعبر بكثرة الأكل ، وتعيب بالجشع والشره والنهم ، وقد كان فيهم قومٌ موصوفون بكثرة الأكل منهم معاوية ؛ قال أبو الحسن المدائني في « كتاب الأكلة » :
كان يأكل في اليوم ^(١) أربع أكالات أخراهن عظمَاهُنَّ ، ثم يتعشى بعدها بثريدة عليها بصلٌ كثير ، ودُهْنٌ كثير قد شغلها . وكان أكله فاحشًا يأكل فيلطنخ منديلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ ، وكان يأكل حتى يستلحق ويقول : يا غلام ، ارفع ، فلا تقي والله ما شبعْتَ ولكن ملكت .

وكان عبیدُ الله بنُ زياد يأكل في اليوم خمس أكالات أخراهن خبيّة بمسل ، ويوضع بين يديه بعد أن يفرغ الطعام عناقٌ أو جدى فيأتى عليه وحده .

وكان سليمان بنُ عبد الملك المصيبة العظمى في الأكل ، دخل إلى الرافقة فقال لصاحب طعامه : أطعمنا اليوم من خرفان الرافقة ، ودخل الحمام فأطال ، ثم خرج فأكَلَ ثلاثين خروفاً بثانين رغيفاً ، ثم قعد على المائدة فأكَلَ مع الناس كأنه لم يأكل شيئاً .

وقال الشمر دلٌ وكيل آلِ عمرو بن العاص : قدِمَ سليمانُ الطائف وقد عرفتُ استِجاعتَه ، فدخل هو وعمرو بنُ عبد العزيز وأيوب ابنه إلى بُستانٍ لي هناك يُعرَف بالرهط فقال : ناهيك بما لك هذا لولا جرار فيه ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست بجرار ولكنها جرار الزبيب ، فضحك ، ثم جاء حتى ألقي صدره على غصن شجرة هناك ، وقال : يا شمر دل ، أما عندك شيء تطعمني ؟ وقد كنت أستعددت له ، فقلت : بلى والله عندى جدى كانت تغدو عليه حافلة ، وترُوح عليه أخرى ، فقال : عجّل به ، فجنّته

(١) في د « كل يوم » .

به مشويًا كأنه عُسْكَة سَمْنٍ ، فأَكَلَه لا يَدْعُو عليه عمر ولا أبنه ، حتَّى إذا بَقِيَ فَخَذُ قال :
يا عمر ، هَلَمْ ، قال : إني صائمٌ . ثمَّ قال : يا سَمْرَدُل ، أَمَا عندك شَيْءٌ ؟ قلت : بلى ، دَجَاجَاتُ
خَمْسِ كَأَنَّهُنَّ رِثْلَانِ التَّعَامِ ؛ فقال : هَاتِ ، فَأَتَيْتُهُ بِهِنَّ ، فكان يأخُذُ بِرِجْلِ الدَّجَاجَةِ حتَّى
يُعَرِّي عِظَامَهَا ، ثمَّ يُلْقِيهَا ، حتَّى أَتَى عَلَيْهِنَّ ، ثمَّ قال : وَيَحْكُ يا سَمْرَدُل ! أَمَا عندك شَيْءٌ ؟
قلت : بلى سَوِيقٌ كَأَنَّهُ قُرَاضَةُ الذَّهَبِ مَلْتَوَتْ بِعَسَلٍ وَسَمْنٍ ؛ قال : هَلَمْ ، فَجَبَّئْتُهُ بِمُسٍّ
تَغِيبُ فِيهِ الرَّأْسُ ، فَأَخَذَهُ فَلَطَمَ بِهِ جَبْهَتَهُ حتَّى أَتَى عَلَيْهِ ، فلما فَرَّغَ تَجَشَّأَ كَأَنَّهُ صَارَخَ فِي
جُبٍّ ، ثمَّ التفت إلى طَبَاخِهِ فقال : وَيَحْكُ ! أَفَرَعْتَ مِنْ طَبِيخِكَ ؟ قال : نَمَ ؛ قال : وما
هو ؟ قال : تَيْفٌ وَثَمَانُونَ قِدْرًا ، قال : فَأُتِنِي بِهَا قِدْرًا قِدْرًا ، فَمَرَّضَهَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَأْكُلُ
مِنْ كُلِّ قِدْرٍ لَقْمَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، ثمَّ مَسَحَ يَدَهُ وَأَسْتَلَقَى عَلَى قَفَاهُ ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ ، وَوَضِعَتْ
المَوَائِدُ ، فَقَعَدَ فَأَكَلَ مَعَ النَّاسِ كَأَنَّهُ لَمْ يَطْعَمْ شَيْئًا .

قالوا : وَكَانَ الطَّعَامُ الَّذِي مَاتَ مِنْهُ سُلَيْمَانُ ، أَنَّهُ قَالَ لَدَيْرَانِي كَانَ صَدِيقَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ :
وَيَحْكُ ! لَا تَقْطَعْنِي الطَّافَاكَ الَّتِي كُنْتُ تُلَطِّفُنِي بِهَا عَلَى عَهْدِ الْوَلِيدِ أَخِي ؛ قال : فَأَتَيْتُهُ يَوْمًا
بِزَنْبِيلَيْنِ كَبِيرَيْنِ أَحَدُهُمَا بَيْضٌ مَسْلُوقٌ ، وَالْآخَرُ زَيْنٌ ؛ فقال : لَقَمْنِيهِ ، فَكُنْتُ أَقْشِرُ الْبَيْضَةَ
وَأَقْرِنُهَا بِالزَّيْنَةِ وَاللِّقْمَةِ ، حتَّى أَتَى عَلَى الزَّيْنِيلَيْنِ ، فَأَصَابَتْهُ تُخْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَمَاتَ .

وَيُحْكِي أَنَّ سَمْرُو بْنَ مَعْدٍ يَكْرِبُ أَكْلَ عَنَزَاءٍ رِبَاعِيَةٍ وَفِرْقًا مِنْ ذُرَّةٍ وَالْفِرْقُ ثَلَاثَةُ
أَصْعَ . وَقَالَ لَأَمْرَأَتِهِ : عَالِجِي لَنَا هَذَا الْكَبْشَ حتَّى أَرْجِعَ ، فَجَعَلَتْ تُوقِدُ تَحْتَهُ وَتَأْخُذُ عُضْوًا
عُضْوًا فَتَأْكُلُهُ ، فَاطْلَمَتْ فَإِذَا لَيْسَ فِي الْقِدْرِ إِلَّا الْمَرَقُ ، فَصَامَتْ إِلَى كَبْشٍ آخَرَ فَذَبَحَتْهُ
وَطَبَخَتْهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَمْرُو فَتَرَدَّتْ لَهُ فِي جَفْنَةِ الْمَجِينِ وَكَفَأَتْ الْقِدْرَ عَلَيْهَا ، فَدَبَّ يَدَهُ وَقَالَ :
يَا أُمَّ ثَوْرٍ ، دُونَكَ الْغَدَاءُ ؛ قالت : قَدْ أَكَلْتُ ، فَأَكَلَ الْكَبْشَ كُلَّهُ ثُمَّ أَضْطَجَعَ وَدَعَاها
إِلَى الْفِرَاشِ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْفِعْلَ ، فقالت له : كَيْفَ تَسْتَطِيعُ وَيْنِي وَبَيْنَكَ كَبْشَانِ !

وقد رُوِيَ هذا الخبر عن بعض العرب ؛ وقيل : إنّه أكل حُوراً^(١) وأكلت امرأته حائلاً^(٢) ، فلما أراد أن يدنوا منها وعَجَزَ قالت له : كيف تَصِلُ إليّ ويبيّ وبينك بعيران .

وكان الحجاج عظيم الأكل ؛ قال مسلم بن قتيبة : كنتُ في دارِ الحجاج مع ولده وأنا غلام ، فقيل : قد جاء الأميرُ ، فدخل الحجاج فأمر بتَنَوُّرِ فُئُصْبٍ ، وأمر رجلاً أن يخبزَ له خبز الماء ، ودعا بِسَمَكٍ ، فَأَتَوْهُ بِهِ ، فجعل يأكل حتى أكل ثمانين جاماً من السَمَكِ ثمانين رَغِيفاً من خبز المَلَّةِ^(٣) .

وكان هلالُ بن أشعرِ المازنيّ موصوفاً بِكَثْرَةِ الأكل ، أَكَلَ ثَلَاثَ خِيفَانٍ ثريد ، وَأُسْتَسْقَى ، فجاءوه بِقِرْيَةٍ مملوءةٍ نبيذاً فوضعوا فَمَهَا في فمه حتى شربَهَا بِأَسْرَها .

وكان هلال بن أبي بُرْدَةَ أَكولاً ، قال قِصَّابُهُ : جاءني رسوله سَحْرَةً فَأَتَيْتُهُ وبين يديه كَانُونٌ فيه جَمْرٌ وَتَيْسٌ ضَخْمٌ ، فقال : دونك هذا التَّيْسُ فَلْيُزَيِّجْهُ فذَبَحَتْهُ وَسَلَخَتْهُ ، فقال : أَخْرِجْ هذا الكانونَ إلى الرَّواقِ وَشَرِّحْ اللحمَ وَكَبِّهْ على النارِ ، فجعلتُ كُلِّمَا اسْتَوَى شَيْءٌ قَدَمَتُهُ إِلَيْهِ حتى لم يبقَ من التَّيْسِ إِلَّا العظامُ وقِطْعَةٌ لَحْمٍ على الجُرْ ، فقال لي : كُلْهَا ، فَأَكَلْتُهَا ، ثُمَّ شَرِبَ خَمْسَةَ أَقْدَاحٍ ، وناولني قَدَحاً فشربتهُ فهِزَنِي ، وجاءته جاريةٌ بِبُرْمَةٍ فيها نَاهِضَانِ^(٤) ودَجَاجَتَانِ وَأَرْغِفَةٌ ، فَأَكَلَ ذلك كُلَّهُ ، ثُمَّ جَاغَتْهُ جاريةٌ أخرى بِقِصْعَةٍ مَخْطَاةٍ لَا أَدْرِي مَا فِيهَا ، فَضَحِكَ إلى الجارية ، فقال : وَيَحْك ! لَمْ يَبْقَ في بطني موضعٌ لهذا ، فَضَحِكَتِ الجاريةُ وانصرفتُ ، فقال لي : الْحَقُّ بِأَهْلِكَ .

(٢) الحائِلُ : الناقة التي لم تحمل .

(٤) الناهِضُ : فرخ العقاب .

(١) الحُوراء : ولد الناقة .

(٣) المَلَّةُ : الرماذ الحار .

وكان عَنبَسَةُ بْنُ زِيَادٍ أَكُولًا نَهْمًا ، فَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ قَالَ : دَعَانِي عُبَيْدُ اللَّهِ الْأَحْمَرُ ؛ فَقُلْتُ لَعَنَسَةُ : هَلْ لَكَ يَا ذُبْحَةُ - وَكَانَ هَذَا لَقَبَهُ - فِي إِتْيَانِ الْأَحْمَرِ ! . فَضَيَّنَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَى عُبَيْدُ اللَّهِ رَجَبَ بِهِ وَقَالَ لِلخَبَّازِ : ضَعْ بَيْنَ يَدَيِ هَذَا مِثْلَ مَا تَضَعُ بَيْنَ يَدَيِ أَهْلِ الْمَائِدَةِ كُلِّهِمْ ، فَجَعَلَ يَأْتِيهِ بِقَصْعَةٍ وَأَهْلُ الْمَائِدَةِ بِقَصْعَةٍ ، وَهُوَ يَأْتِي عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَتَاهُ بِجَدْيٍ فَأَكَلَهُ كُلَّهُ ، وَنَهَضَ الْقَوْمُ فَأَكَلَ كُلُّهُمْ مَا تَخَلَّفَ عَلَى الْمَائِدَةِ ، وَخَرَجْنَا فَلَقَيْنَا خَلْفَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَطَايَ ؛ فَقَالَ لَهُ : يَا خَلْفَ ، أَمَا تُنَذِّرُنِي يَوْمًا ؟ فَقُلْتُ لَخَلْفَ : وَيَحْكُ ! لَا تَجِدُهُ مِثْلَ الْيَوْمِ . فَقَالَ لَهُ : مَا تَشْتَهِي ؟ قَالَ : تَمْرًا وَسَمْنًا ، فَأَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَجَاءَ بِخَمْسِ جَلَالٍ ^(١) تَمْرًا وَجَرَّةَ سَمْنًا ، فَأَكَلَ الْجَمِيعَ وَخَرَجَ ؛ فَرَّ بِرَجُلٍ يَبْنِي دَارَهُ وَمَعَهُ مِائَةُ رَجُلٍ ، وَقَدْ قَدَّمَ لَهُمْ سَمْنًا وَتَمْرًا ، فَدَعَاهُ إِلَى الْأَكْلِ مَعَهُمْ ، فَأَكَلَ حَتَّى شَكَّوهُ إِلَى صَاحِبِ الدَّارِ ، ثُمَّ خَرَجَ فَرَّ بِرَجُلٍ بَيْنَ يَدَيْهِ زَنْبِيلٌ فِيهِ خُبْزٌ أَرُزٌ يَابِسٌ بِسَمْسِمٍ وَهُوَ يَبِيعُهُ فَجَعَلَ يَسَاوِمُهُ وَيَأْكُلُ حَتَّى أَتَى عَلَى الزَّنبِيلِ ، فَأَعْطَيْتُ صَاحِبَ الزَّنبِيلِ مِمَّنْ خُبْرَهُ .

وكان مَيْسِرَةُ الرَّأْسِ أَكُولًا ؛ حُكِيَ عَنْهُ عِنْدَ الْمُهَدِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَنْصُورِ أَنَّهُ يَأْكُلُ كَثِيرًا ، فَاسْتَدْعَاهُ وَأَحْضَرَ فِيلًا ، وَجَعَلَ يَرْمِي لِسْكَلًا وَاحِدًا مِنْهَا رَغِيفًا حَتَّى أَكَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا تِسْعَةً وَتَسْعِينَ رَغِيفًا ؛ وَامْتَنَعَ الْفِيلُ مِنْ تَمَامِ الْمَائَةِ ، وَأَكَلَ مَيْسِرَةَ تَمَامَ الْمَائَةِ وَزَادَ عَلَيْهَا .

وكان أَبُو الْحَسَنِ الْعَلَّافُ وَالدُّبَيْرِيُّ بَكْرُ بْنُ الْعَلَّافِ الشَّاعِرُ الْمُحَدَّثُ أَكُولًا دَخَلَ يَوْمًا عَلَى الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ ، فَأَمَرَ الْوَزِيرُ أَنْ يُؤْخَذَ حِمَارُهُ فَيُذْبَحَ وَيُطَبِّخَ بِمَاءٍ وَمِلْحٍ ، ثُمَّ قُدِّمَ لَهُ عَلَى مَائِدَةِ الْوَزِيرِ ، فَأَكَلَ وَهُوَ يَظُنُّهُ لَحْمًا

(١) الجلال : جنج جلة ، وهو وعاء النمر يصنع من الخوص .

— ٤٠٢ —

البقر ، وَسَطَطِيْهُ حَتَّى اَتَى عَلَيْهِ ، فَلَمَّا خَرَجَ لِيَرْكَبَ طَلَبَ الْحَمَارَ ، فَقِيلَ لَهُ :
فِي جَوْفِكَ .

وَكَانَ أَبُو الْعَالِيَةِ أَكُولًا ، نَذَرَتْ امْرَأَتُهُ حَامِلٌ إِنْ أَنْتَ بِذِكْرِ تَشْيِيعِ أَبِي الْعَالِيَةِ
خَبِيصًا ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا ، فَأَحْضَرَتْهُ ، فَأَكَلَ سَبْعَ جَفَانِ خَبِيصًا ، ثُمَّ أَمْسَكَ وَخَرَجَ ،
فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهَا كَانَتْ نَذَرَتْ أَنْ تُشْيِعَكَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ مَا شَبِعْتُ إِلَى اللَّيْلِ .

(١٧٤)

الأبطل :

النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

الشيخ :

هذه الكلمة قد تقدمت وتقدم منا ذكرُ نظائرها . والمِلَّةُ في أن الإنسان عدوٌّ ما يجهله أنه يخاف من تقريعه^(١) بالنقص وبعدم العلم بذلك الشيء ، خصوصا إذا ضمه نادٍ أو جتمع من الناس فإنه تتصاغر نفسه عنده إذا خاضوا فيما لا يعرفه وينقص في أعين الحاضرين ، وكل شيء آذاك ونال منك فهو عدوك^(٢) .

(١) د : « تمريره » . (٢) ا : « فهو عدوك » .

(١٧٥)

الأصل :

مَنْ اسْتَقْبَلَ وَجْهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَا .

الشيخ :

نَدَّ قَالُوا فِي الْكَلِّ : مَرَّ الرَّأْيُ الدَّيْرِي .

وقال الشاعر :

وَحِيرُ الرَّأْيِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبَعَهُ اتِّبَاعَا

وليس المراد بهذا الأمر سرعة فضل الحال لأوّل خاطر ، ولأوّل رأى ، إنّ ذلك خطأ ،
وقديما قيل : دَعِ الرَّأْيَ يَغْبَ .

وقيل : كَلَّ رَأْيِي لَمْ يَخْمَرْ وَيُبَيِّتْ^(١) فَلَا خَيْرَ فِيهِ .

وإنّما النعمى عنه تضييعُ الفرصة في الرأى ، ثمّ محاولة الاستدراك بعد أن فات
وجهُ الرأى ، فذاك هو الرأى الديرى .

(١) د : « بيت » .

(١٧٦)

الأنزل :

مَنْ أَحَدَ سِنَانِ الْعَصَبِ لِلَّهِ قَوِيٌّ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ .

الشَّرْحُ :

هذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلمة تتضمن استعادة تدلّ على الفصاحة ؛ والمعنى أن من أدهف عزمه على إنكار المنكر ، وقوى غضبه في ذات الله ولم يخف ولم يُراقب مخلوقاً ؛ أعانه الله على إزالة المنكر ؛ وإن كان قوياً صادراً من جهة عزيزة الجانب ، وعنها وقعت الكناية بأشدّاء الباطل .

(١٧٧)

الأضل :

إِذَا هَبْتَ أَمْرًا قَعَّ فِيهِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقُّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

البُخ :

ما أحسنَ ما قال المتنبي في هذا المعنى :

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تكون جباناً
كلّ ما لم يكن من الصَّعب في الآن فسُـ سهلاً فيها إذا هوَ كانا

وقال آخر :

لعمرك ما المكروه إلا ارتقابه . وأعظم مما حلّ ما يُتوقَّعُ

وقال آخر :

صعوبةُ الرُّزءِ تُلقَى في توقُّعه مستقبلاً وانقضاءه الرُّزءُ أن يقعاً
وكان يقال : توسَّطِ الخوفَ تأمّن .

ومن الأمثال العامية : أمّ المقتول تنام ، وأمّ المهْدَد لا تنام .

وكان يقال : كل أمرٍ من خير أو شرٍّ فسأعه أعظمُ من عيانه .

وقال قوم من أهل اللّة وليسوا عند أصحابنا مُصِيبِينَ : إنَّ عذاب الآخرة المتوعّد به
إذا حلّ بمستحقّيه وجَدُّوه أهونَ ممّا كانوا يسمعونَه في الدّنيا ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

(١٧٨)

الأُضَلُ :

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَمَةُ الصَّدْرِ .

الشُّنْخُ :

الرئيس محتاجٌ إلى أمور ، منها الجود ، ومنها الشجاعة ، ومنها - وهو الأهم - سعة الصدر ، فإنه لا تتم الرئاسة إلا بذلك .

وكان معاوية واسع الصدر كثير الاحتمال ، وبذلك بلغ ما بلغ .

[سمعة الصدر وما ورد في ذلك من حكايات]

ونحن نذكر من سمعة الصدر حكايتين دالتين على عظم محله في الرئاسة ، وإن كان مذموماً في باب الدين ، وما أحسن قول الحسن فيه وقد ذكر عند عقيب ذكر أبي بكر وعمر ، فقال : كانا والله خيراً منه ، وكان أسودَ منهما .

الحكاية الأولى :

وفد أهل الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالمهد بعه ، وفي أهل الكوفة هاني بن عروة المرادى - وكان سيّداً في قومه - فقال يوماً في مسجد دمشق والناس حوله : العجب لمعاوية يريد أن يقسرنّا على بيعة يزيد ، وحاله حاله ، وما ذاك والله بكائن ! وكان

في القوم غلامٌ من قريش جالسا ، فتحمل الكلمة إلى معاوية ، فقال معاوية : أنت سمعت هائثا يقولها ؟ قال : نعم ، قال : فاخرج فأنت حلقته ، فإذا خف الناسُ عنه فقل له : أيها الشيخ ، قد وصلتُ كلمتك إلى معاوية ، ولست في زمن أبي بكر وعمر ، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام فإنهم بنو أمية ، وقد عرفت جُرأتهم وإقدامهم ، ولم يدعني إلى هذا القول لك إلا النصيحة والإشفاق عليك ، فانظر ما يقول ؟ فأنتي به .

فأقبل الفتى إلى مجلس هاني ، فلما خف من عنده دنا منه فقص عليه الكلام وأخرج به مخرج النصيحة له ، فقال هاني : والله يا ابن أخي ما بلغت نصيحتك كلَّ ما أسمع ؛ وإن هذا الكلام لكلامُ معاوية أعره ! فقال الفتى : وما أنا ومعاوية ! والله ما يعرفني ؛ قال : فلا عليك ، إذا لقيته فقل له : يقول لك هاني : والله ما إلى ذلك من سبيل ، انهض يا ابن أخي راشداً !

فقام الفتى فدخل على معاوية فأعلمه ، فقال : نستعين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجكم - وهاني فيهم - فعرض عليه كتابه فيه ذكرُ حوائجه ، فقال : يا هاني ، ما أراك صنعت شيئا ، زد ؛ فقام هاني فلم يدع حاجة عرضت له إلا وذكرها ، ثم عرض عليه الكتاب فقال : أراك قصرت فيما طلبت ، زد ، فقام هاني فلم يدع حاجة لقومه ولا لأهل مصره إلا ذكرها ، ثم عرض عليه الكتاب ، فقال : ما صنعت شيئا ، زد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حاجة بقيت ، قال : ما هي ؟ قال : أن أتولى أخذ البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق ؛ قال : افعل ، فما زلتَ لمثل ذلك أهلا ؛ فلما قدم هاني العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونته من الخيرة بن شعبة وهو الوالي بالعراق يومئذ .

وأما الحكاية الثانية :

كان مالٌ مُجَلٍّ من اليمين إلى معاوية ؛ فلما مرَّ بالمدينة وثَبَّ عليه الحسينُ بنُ عليٍّ عليه السلام ، فأخذه وقسَمَه في أهل بيته ومواليه ، وكتب إلى معاوية : من الحسين بن عليٍّ إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإنَّ عيراً مرَّت بنا من اليمين تحمل مالاً وحُللاً وعنباً وطيباً إليك لتودعها خزائن دِمَشق ، وتعملُ بها بعد النَّهْلِ بني أبيك ، وإني احتجتُ إليها فأخذتها . والسلام .

فكتب إليه معاوية : من عند عبدِ الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن عليٍّ : سَلَامٌ عليك ، أما بعد ، فإنَّ كتابك ورد عليّ تذكرُ أن عيراً مرَّت بك من اليمين تحمل مالاً وحُللاً وعنباً وطيباً إلى لأودعها خزائن دِمَشق ، وأعملُ بها بعد النَّهْلِ بني أبي ، وأنت احتجت إليها فأخذتها ولم تكن جديراً بأخذها إذ نَسَبَها إليّ ، لأنَّ الوالي أحقُّ بالمال ، ثمَّ عليه المخرج منه ، وإيَّاهُ الله لو تُرِكَ ذلك حتى صار إليّ ، لم أبخسك حظك منه ، ولكني قد ظننتُ يابنَ أخى أنَّ في رأسك نزوةً وبودى أن يكون ذلك في زمانى فأعرف لك قدرك ، وأتجاوزَ عن ذلك ؛ ولكني والله أتخوف أن تبطل عمن لا يُنظرك فواق ناقةٍ ، وكتب في أسفل كتابه :

يا حسينُ بنَ عليٍّ ليس ما	جئتَ بالسائغ يوماً في العِلَلِ
أخذك المال ولم تؤمِّرْ به	إنَّ هذا من حسينٍ لعَجَلُ
قد أجزأها ولم نَقْضِبْ لها	واحتَمَلْنَا من حسينٍ ما فَعَلُ
يا حسينُ بنَ عليٍّ ذا الأملِ	لك بعدى وثبةٌ لا تُحْتَمَلُ
وبودى أنى شاهدُها	فأليها منك بالخلقِ الأَجَلُ
إني أرهب أن تصلى بمن	عنده قد سبقَ السيفُ العَدَا

وهذه سعةٌ صدرٍ وفراصةٌ صادقةٌ .

— ٤١٠ —

(١٧٩)

الأفضل :

ازجرِ المِسيءِ شَوَابِ المُحْسِنِ .

الشَّيْخُ :

قد قال ابنُ هانيءٍ المغربيُّ في هذا المعنى :

لولا انبعاثُ السَّيْفِ وهو مُسلَّطٌ في قتلهم قتلتهمُ النِّعماءُ
فأفصحَ به أبو العتاهية في قوله :

إذا جازيتَ بالإحسانِ قوماً زجرتَ المذنبينَ عن الذُّنوبِ
فما لكَ والتناوُلُ من بعيدٍ ويعنك التناوُلُ من قريبٍ

(١٨٠)

الأفضل :

أَحْصِدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ ، بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ .

* * *

الشَّنْخُ :

هذا يفسّر على وجهين :

أحدها أنه يريد : لا تُضمر لأخيك سوءاً ، فإنك لا تُضمر ذاك إلا يضر هو لك سوءاً ،
لأنّ القلوب يشعر بعضها ببعض ، فإذا صفّت لواحدٍ صفا لك .
والوجه الثاني أن يريد : لا تعظ الناس ولا تنههم عن منكرك إلا وأنت مُقلع عنه ،
فإن الواعظ الذي ليس بركي لا ينجع^(١) وعظه ، ولا يؤثر نهيه .
وقد سبق الكلام في كلا المعنيين .

(١) : « ينفذ » .

(١٨١)

الأصل :

اللَّجَاجَةُ تَسْلُ الرِّأْيَ .

الْبَزْخُ :

هذا مشتق من قوله عليه السلام : « لا رأى لمن لا يُطاع » ، وذلك لأن عدم الطاعة هو اللجاجة ، وهو خلق يتركب من خُلُقَيْن : أحدهما الكِبَرُ ، والآخر الجهل بعواقب الأمور وأكثر ما يعترى الولاة لما يأخذهم من العِزَّة بالإنثم .

ومن كلام بعض الحكماء : إذا اضطرت إلى مُصَاحَبَةِ السلطان ، فابدأ بالفحص عن معتاد طبعه ، ومألوف خلقه ، ثم استحدث لنفسك طبعاً ففرغه في قالب إرادته ، وخلقاً تركبه مع موضع وفاقه حتى تسلم معه ، وإن رأيت يهوى فناً من فنون المحبوبات فأظهر هواك لضد ذلك الفن ، ليُبْعِدَ عنك إرهابه ، بل ويكثر سكونه إليك ، وإذا بدا لك منه فعل ذميم فأياك أن تبدأ فيه بقولٍ ما لم يستبدل فيه نصحك ، ويستدعى رأيك ؛ وإن استدعى ذاك فليكن ما تفاوضه فيه بالرفق والاستعطاف ، لا بالخشونة والاستنكاف ، فيَحْمِلَ اللجاجة المركب في طيع الولاة على ارتكابه ، فكلُّ والٍ لجوج ، وإن علم ما يتعقبه لجأجه من الضرر ، وأنَّ اجتنابه هو الحسن .

(١٨٢)

الإبْجَلُ :

الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ .

البَيْتُخُ :

هذا المني مطروقٌ جدًّا ، وقد سبق لنا فيه قولٌ شافٍ .

وقال الشاعر :

تَمَغَّفَ وَعِشْ خُرًّا وَلَا تَكُ طَامِعًا فَمَا قَطَعَ الْأَعْنَاقُ إِلَّا الْمَطَامِعُ

وفي المثل : أطمع من أشعب ؛ رأى سَلَالًا يصنع سَلَةً ، فقال له : أوسّعها ؛ قال :
ما لكَ وذالك ؛ قال : لعلَّ صاحبها يُهْدِي لي فيها شيئًا .

ومرَّ بمسكُتِبٍ وغلَّامٍ يقرأ على الأستاذ : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ ، فقال : قم بين يديَّ
حَفِظْكَ اللَّهُ وَحَفِظْ أَبَاكَ ، فقال : إنما كنت أقرأ وردي ، فقال : إنكرت أن تُفْلِحَ
أو يُفْلِحَ أبوك !

وقيل : لم يكن أطمع من أشعب إلا كلُّبه ، رأى صورة القمر في البئر فظنَّه رغيها ،
فألقي نفسه في البئر يطلبه ، فمات .

(١٨٣)

الأفضل :

ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ ، وَثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ .

الشرح :

قد سبق من الكلام في الحزم والتفريط ما فيه كفاية . وكان يقال : الحَزْمُ مَلَكَةٌ يُوجِبُهَا كَثْرَةُ التَّجَارِبِ ، وَأَصْلُهُ قُوَّةُ الْعَقْلِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ خَافَتْ أَبَدًا ، وَالْأَحْمَقُ لَا يَخَافُ ، وَإِنْ خَافَ كَانَ قَلِيلَ الْخُوفِ ، وَمَنْ خَافَ أَمْرًا تَوَقَّاهُ ، فَهَذَا هُوَ الْحَزْمُ .

وكان أبو الأسود الدؤلي من عُقَلَاءِ الرِّجَالِ وَذَوِي الْحَزْمِ وَالرَّأْيِ ، وَحَكَى أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ قَالَ : قَالَ زِيَادٌ لِأَبِي الْأَسْوَدِ - وَقَدْ أَسَنَّ - : لَوْلَا ضَعْفُكَ لاسْتَعْمَلْنَاكَ عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِنَا ، فَقَالَ : أَلَصَّرَاعَ يَرِيدُنِي الْأَمِيرُ ! قَالَ زِيَادٌ : إِنَّ لِلْعَمَلِ مِثْلُونَ ، وَلَا أَرَاكَ إِلَّا تَضَعِفُ عَنْهُ ، فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ :

زَعَمَ الْأَمِيرُ أَبُو الْمَغِيرَةِ أَنْسَى شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْبَيْلَى
صَدَّقَ الْأَمِيرُ لَقَدْ كَبِرْتُ وَإِنَّمَا نَالَ الْمَكَارِمَ مِنْ يَدَبٍ عَلَى الْعَصَا
يَا بَا الْمَغِيرَةِ رَبِّ أَمْرٍ مُبْهِمٍ فَرَجَّتُهُ بِالْحَزْمِ مِنِّي وَالذَّهَا
وكان يقال : مِنْ الْحَزْمِ وَالتَّوَقُّى تَرْكُ الْإِفْرَاطِ فِي التَّوَقُّى .

لَمَّا نَزَلَ بِمَعَاوِيَةَ الْمَوْتُ وَقَدِمَ عَلَيْهِ يَزِيدُ ابْنُهُ فَرَأَاهُ مَسْكِنًا لَا يَتَكَلَّمُ ، بَكَى وَأَنشَدَ :
لَوْ فَاتَ شَيْءٌ يُرَى لَفَاتَ أَبُو حَيَّانٌ لَا عَاجِزٌ وَلَا وَكَلٌ
أَلْحَوْلَ الْقَلْبِ الْأَرِيبُ وَلَا تَدْفَعُ يَوْمَ النِّيَّةِ الْحِيلُ

(١٨٤)

الأصل :

مَنْ لَمْ يُنْجِ الصَّبْرُ ، أَهْلَكَ الْجَزَعُ .

الشَّيْخُ :

قد تقدّم لنا قول شافٍ في الصبر والجزع .

وكان يقال : ما أحسن الصبر لولا أن النفقة عليه من العمر ! أخذه شاعر فقال :

وَإِنِّي لِأَدْرِي أَنَّ فِي الصَّبْرِ رَاحَةً وَلَكِنْ إِنِّتَاقَى عَلَى الصَّبْرِ مِنْ عُمُرِي

وقال ابن أبي العلاء يستبطن بعض الرؤساء :

فَإِنْ قِيلَ لِي صَبْرًا فَلَا صَبْرَ لِلَّذِي غَدَا بِيَدِ الْإِيَّامِ تَقْتُلُهُ صَبْرًا

وَإِنْ قِيلَ لِي عَذْرًا فَوَاللَّهِ مَا أَرَى لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَجِدْ عَذْرًا

فإن قلت : أى فائدة في قوله عليه السلام : « مَنْ لَمْ يُنْجِ الصَّبْرُ أَهْلَكَ الْجَزَعُ » ؟ وهل

هذا إلا كقول مَنْ قال : « مَنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَأْكُلْ ضَرَّه ^(١) الْجُوعُ ؟ » .

قلت : لو كانت الجهة واحدة ، لكان الكلام عبثا ، إلا أن الجهة مختلفة ، لأن معنى كلامه

عليه السلام من لم يخلصه الصبر من هموم الدنيا ونغماتها هلك من الله تعالى في الآخرة

بما يستبدله من الصبر بالجزع ؛ وذلك لأنه إذا لم يصبر فلا شك أنه يجزع ، وكل جازع آثم

والإثم مهلكة ، فلما اختلفت الجهة وكانت تارة للدنيا وتارة للآخرة لم يكن الكلام عبثا بل

كان مفيدا .

(١) في د : « أهلك » .

(١٨٥)

الأفضل :

وَأَعَجَبًا أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةَ بِالصَّحَابَةِ وَلَا تَكُونَ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ .

قال الرضى رحمه الله تعالى وقد روى له شعر قريب من هذا المعنى وهو :
فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّرَى مَلَكَتْ أُمُورَهُمْ فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيْبٌ ! (١)
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَبَجْتَ خَصِيمَهُمْ فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

الشيخ :

حديثه عليه السلام في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر ، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه لأنّ أبا بكر لما قال لعمر : امدد يدك ، قال له عمر : أنت صاحب رسول الله في المواطن كلّها ، شدتها ورخائها ، فامدد أنت يدك ، فقال على عليه السلام : إذا احتججت لاستحقاقه الأمر بصحبته إياه في المواطن كلّها ، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شرّك في ذلك ، وزاد عليه « بالقرابة » ! وأما النظم فوجه إلى أبي بكر ؛ لأنّ أبا بكر حاجّ الأنصار في السقيفة . فقال : نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيضته التي تفقأت عنه ، فلما يبيع احتجّ على الناس بالبيعة ، وأنها صدرت عن أهل الحلّ والعقد ، فقال على عليه السلام : أمّا احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قومه ، فغيرك أقرب نسباً منك إليه ، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك ، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت !

واعلم أن الكلام في هذا تتضمنه كتب أصحابنا في الإمامة ، ولهم عن هذا القول أجوبة ليس هذا موضع ذكرها ..

تم الجزء الثامن عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
ويليه الجزء التاسع عشر

فهرس الكتب*

- ٦٥ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية . . . ٢١- ٧
- ٦٦ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبد الله بن العباس ٢٨
- ٦٧ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة ٣٠
- ٦٨ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسي قبل أيام خلافته ٣٩-٣٤
- ٦٩ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمداني ٤٢، ٤١
- ٧٠ - من كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حنيف وهو عامله على المدينة ٥٢
- ٧١ - من كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود ٥٤
- ٧٢ - من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس ٦٠
- ٧٣ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٦٢
- ٧٤ - من حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن ٦٦
- ٧٥ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة في أول ما بويع له بالخلافة ٦٨
- ٧٦ - من وصية له عليه السلام عند استخلافه إياه على البصرة . . . ٧٦
- ٧٧ - من وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس أيضا لما بعثه للاحتجاج على الخوارج . . . ٧١

(*) وهي الكتب الواردة في كتاب نهج البلاغة .

— ٤١٨ —

٧٨ - من كتاب له عليه السلام أجب به أبا موسى الأشعري عن كتاب

٧٤ كتبه إليه

٧٧ - ٧٩ - من كتاب له عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ *

٢١- ٧	ذكر بقية الخبر عن فتح مكة
٤٣، ٤٢	الحارث الأعور ونسبه
٥١- ٤٣	نبذ من الأقوال الحكيمة
٥٧- ٥٥	ذكر المنذر وأبيه الجارود
	حكمه عليه السلام ومواعظه ، ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله وكلامه
٤١٦- ٨٢	التقصير في سائر أغراضه
١٢٦-١٢٣	نبذ مما قيل في الشيب والخضاب
١٣٠-١٢٨	نبذ مما قيل في الروءة
١٤٨-١٤٣	نبذ وحكايات مما وقع بين يدي الملوك
١٥٤-١٥٢	في مجلس قتيبة بن مسلم الباهلي
١٦٧-١٥٩	أقوال وحكايات حول الحق والمغفلين
١٧١	خباب بن الأرت
٢٠٨-٢٠٦	محمد بن جعفر والمنصور
٢٧٠، ٢٦٩	محنة ابن المقفع
٣٠٩-٢٨٥	فصل في نسب بني مخزوم وطرف من أخبارهم
٤٠٢-٣٩٧	نواذر الكثيرين من الأكل
٤٠٩-٤٠٧	سعة الصدر وما ورد في ذلك من حكايات

* وهى الموضوعات الواردة في شرح نهج البلاغة .

